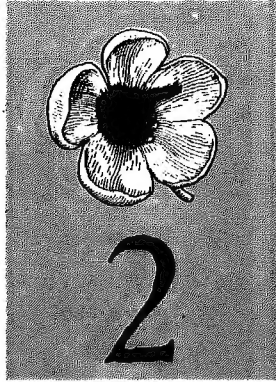


عيون الأدب الأجنبي

ترجمة : إلياس بدوي



2

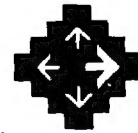
مارسيل P البحث عن الزمن المفقود پروست



في ظلال ربيع الفتيات



« البحث عن الزمن المفقود »
 مغامرة كائن رائع الذكاء ،
 مريض الإحساس ، ينطلق
 من طفولته في البحث عن
 السعادة المطلقة ، فلا يلقاها
 في الأسرة ولا في الحب ولا في
 العالم . ويرى نفسه منساقاً
 إلى البحث عن مطلق خارج
 الزمان ، شأن المتصوفين من
 الرهبان ، فيلقاه في الفن ، مما
 يؤدي إلى اختلاط الرواية
 بحياة الروائي ، وإلى انتهاء
 الكتاب لحظة يستطيع
 الراوي ، بعدما استعاد
 الزمان ، أن يبدأ كتابه ؛
 فتقلب بذلك الحية الطويلة
 على نفسها لتغلق الحلقة
 العملاقة .
 رواية تقارب المليون كلمة ،
 بأشخاص تبلغ المائتين ،
 أشبه ما تكون بالتمثال
 الروحي الذي يصمدُ
 كالصخر في وجه العاديات .
 إنها مراثاة للدمار الذي
 يصنعه الزمن بالأشياء
 والناس إن غفلت .



دار شرقيات للنشر والتوزيع

مارسيل بروست
البحث عن الزمن المفقود
ترجمة : إلياس بديوي

البحث عن الزمن المفقود

مارسيل بروس

ترجمه: الياس بديري

A la recherche du temps temps perdu

Marcel Proust

Gallimard, Paris

© جميع حقوق النشر لهذه الترجمة الكاملة

محفوظة لدار شرقيات ١٩٩٤

الجزء الثاني،

في ظلال ربيع الفتيات

A l'ombre des jeunes filles en fleurs

© الطبعة العربية الثانية لهذه الترجمة

دار شرقيات ١٩٩٨

دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ شارع محمد صدقي، من هدى شعراوي

رقم بريدي ١١١١١ باب اللوق - القاهرة.

ت: ٣٩٠٢٩١٣ س . ت: ٢٦٩١٩٨

الغلاف الأخير: الصفحة الأخيرة من مخطوطة هذا

العمل بقلم مارسيل بروس

تصميم الغلاف: محيي الدين اللباد

صدر هذا الكتاب

بالتعاون مع

البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون

قسم الترجمة

القاهرة



رقم الايداع ١٩٩٥/٣٩٩٨

الترقيم الدولي 5 - 59 - 5406 - 977 ISBN

مارسيل بروست البحث عن الزمن المفقود

ترجمة : إلياس بديوي

2

في ظلال ربيع الفتيات

دار شرقيات للنشر والتوزيع

القسم الأول

السيدة سوان

(انعطاف وتغيير في اتجاه الطباع - المركيز "دو

لوربروا" - "بيرغوت" - كيف أكف مؤقتاً عن لقاء "جلبيرت"

- خطوط الغم الأولية الضئيلة التي يسببها

الانفصال والتطور اللا منتظم للنسيان).

لَمَّا عبرتُ والدتي عن أسفها، حينما دار الحديث حول دعوة السيّد "دو نوربوا" للمرة الأولى إلى العشاء، أن يكون الأستاذ "كوتار" على سفر وأنها كَفَتْ تماماً بدورها عن التردد عليّ "سوان" إذ ربما استأثر هذا وذاك دونما شك في رأيها باهتمام السفير السابق، أجاب والذي أن مدعواً وعالمياً طائر الشهرة من أمثال "كوتار" لا يمكن أن يقع موقعاً سيئاً في مأدبة عشاء، ولكنّ "سوان" بعجرفته وطريقته في إعلان أقلّ علاقاته شأناً على رؤوس الأشهاد مهرج مبتذل سوف يجده المركز "دو نوربوا" دونما شكّ "نتناً" حسب تعبيره. على أنّ جواب والذي يقتضي بضع كلمات إيضاح، فربّما تذكر بعض الناس في "كوتار" شخصاً بالغ الضحالة وفي "سوان" شخصاً يبلغ بالتواضع والرصانة أقصى حدود الرقة في دنيا اللياقة. بيد أنه اتّفق فيما يخص هذا الأخير أن أضاف صديق أهلي القديم إلى شخصيّة "سوان" الابن "و" "سوان" نادي السبق شخصيّة جديدة (ولا يقدّر أن تكون الأخيرة) هي شخصيّة زوج "أوديت" .. فقد جهد في سعيه إلى مواءمة الفطرة والرغبة والمهارة التي امتاز بها على الدوام مع مطامح هذه المرأة المتواضعة أن يني لنفسه مكانة جديدة أدنى من السابقة بكثير وتناسب رفيقة العمر التي ستشغلها معه، فكان يبدو فيها رجلاً آخر. وبما أنه (فيما يوالي التردّد بمفرده على أصدقائه الشخصيين الذين لا يودّ أن يفرض "أوديت" عليهم حينما لا يطلبون تلقائياً التعرّف بها) شرع يعيش حياة جديدة إلى جانب امرأته وسط جماعة جديدة فقد كان لا يزال من الممكن إدراك أن يكون استخدم، في سبيل قياس مرتبة هذه الجماعة وبالتالي متعة الاعتزاز بالذات الذي يمكن أن يحسّ به لدى استقبالها، لا ألمع القوم الذين شكّلوا مجتمعه قبل زواجه بل من سلف من معارف "أوديت" وذلك بمثابة مقارنة على أنه كان من المدهش أن تسمعه، وإن علمت أنه كان يرغب مصادقة موظفين بعيدين عن الأنافة ونساء فاسدات ممن يزيّن حفلات الوزارات الراقصة، أن تسمعه يرّد عالياً أن امرأة نائب رئيس مكتب قد جاءت لزيارة السيّدة "سوان"، وهو من كان فيما مضى وحتى اليوم يكتّم دعوة من "تويكنهام" أو من قصر "بكنغهام" بتلطّف بالغ. و ربّ قائل يقول إن الأمر مرّده أن بساطة "سوان" الأنيق لم تكن سوى صيغة من الغرور أوفر رهافة وإن صديق والذي الأسبق ربّما استطاع، على غرار بعض الإسرائيليين^(١)، أن يعرض على التوالي الحالات المتعاقبة التي مرّ بها بنو جنسه، من أكثر السنوية سداجة وأشدّ أنواع النذالة فظاظة إلى أكثر صنوف التأدّب رقة. ولكنّ السبب الرئيسي، وهو الذي ينطبق على البشرية بعامّة، أنّ فضائلنا نفسها ليست أمراً حراً سائباً نحتفظ منه بجاهزية دائمة، فهي تفرن في نهاية المطاف اقتراناً وثيقاً داخل فكرنا بالأعمال التي رأينا من واجبنا حينما عرّضت أن نمارسها فيها إلى حدّ أنه إن برز أمامنا فجأة نشاط من صنف آخر فإنّه يأخذنا على حين غرة ولا نخالحن حتى فكرة أنه ربّما تضمّن تحريك تلك الفضائل عيناها. وكان "سوان" في عنايته

(١) فضلنا الإبقاء على "إسرائيلي" ،بمعنى يهودي، حسبما وردت في الكتب القديمة.

الشديدة بمعارفه الجدد وفي ذكره لهم باعتزاز كمثل هؤلاء الفنانين العظام المتواضعين أو الكرماء الذين يبدون ارتياحاً ساذجاً، إن هم انصرفوا في آخر سني حياتهم إلى شؤون الطبخ أو البستنة، إزاء الثناء الذي يكال لأطباقهم أو لأحواضهم التي لا يقبلون فيها النقد الذي يرتضونه بسهولة إن تناول روائع أعمالهم، أو الذين يعطون إحدى لوحاتهم مقابل لا شيء ولا يسعهم بالمقابل أن يخسروا أربعين فلساً في لعبة "الدومينو" دون أن يتعكّر مزاجهم.

أما بشأن الأستاذ: "كوتار" فسوف نعود فنراه لاحقاً لفترة طويلة في منزل سيّدة البيت في قصر "لاراسيلير". يكفيننا الآن فيما يخصه أن نلاحظ ما يلي: يمكن في أسوأ الأحوال أن يدهشنا التغيير بالنسبة إلى "سوان" لأنه سبق أن وقع ولم أرْتبْ بأمره حينما كنت أبصر والد "جيلبيرت" في "الشانزليزيه" حيث لم يكن باستطاعته على أية حال، وهو لا يخاطبني إذ ذاك، أن يباهي أمامي بعلاقاته السياسية (وصحيح أنني ربّما ما كنت أدركت في الحال، لو فعل، غروره؛ لأنّ الفكرة التي كونّاها لفترة طويلة عن أحد الناس إنّما تغشي العينين وتسدّ الأذنين؛ ولم تنتبه والدتي للحمرة التي كانت تضعها إحدى بنات أخيها على شفّتيها أكثر ممّا تفعل لو كانت مذابة على نحو خفيّ في أحد السوائل إلى اليوم الذي أبرز فيه جزء إضافي أو أي سبب آخر الظاهرة المدعّوة فرط الإشباع، فتبلورت كل الحمرة التي لم تشاهد بعد وأعلنت والدتي إزاء هذا الإفراط المفاجئ في اللون، كما لعلمهم كانوا يفعلون في "كومبريه" أن الأمر مخز؛ وقطعت كل علاقة تقريباً مع ابنة أخيها) أمّا بالنسبة إلى "كوتار" فإن الفترة التي رأيناه يشهد فيها بدايات "سوان" في منزل عائلة "الفيردوران" كانت على العكس بعيدة بعض الشيء، فيما يجيء التكريم وتحجّي الألقاب الرسمية مع السنين ثانياً، يمكنك أن تكون جاهلاً وأن تقوم بتلاعب سخيف بالكلمات وتمتلك موهبة خاصّة لا يمكن لأيّة ثقافة عامّة أن تحلّ محلّها، كموهبة القائد العظيم أو الطبيب السريريّ الكبير. فما كان زملاء "كوتار" يعتبرونه طبيباً ممارساً مغموراً أصبح على مرّ السنين من مشاهير أوروبا فحسب، فقد أعلن أكثر الأطباء الشباب ذكاءً - على مدى بضعة سنوات على الأقل، لأنّ العادات تتغيّر إذ هي نفسها وليدة الحاجة إلى التغيير - إنهم إن داهمهم المرض ذات يوم فسيكون "كوتار" الأستاذ الوحيد الذي يؤمنونه على أنفسهم. لقد كانوا يفضّلون دونما شك مخالطة بعض الرؤساء الذين يفوقونه ثقافة وفناً والذين يمكن التحدّث معهم عن "نيتشه" و"فاغنر" فحينما كانت تقدّم معزوفات موسيقية في منزل السيدة "كوتار" في الأمسيات التي تستقبل فيها زملاء زوجها وتلاميذه وكلّها أمل أن يصبح ذات يوم عميد الكلية، كان يفضّل أن يلعب الورق في الصالة المجاورة بدل الاستماع. ولكنهم كانوا يشيدون بنظرته السريعة العميقة السديدة، وكذلك بتشخيصه. وعليّنا أن نلاحظ ثالثاً، فيما يخصّ محمل السلوك الذي يديه الأستاذ "كوتار" لرجل مثل والدي، أن الطبيعة التي نبرزها في الجزء الثاني من حياتنا ليست على الدوام طبيعتنا الأولى وقد نمت أو ذبلت، تعاضمت أو تقلّصت، وإن كانت في الغالب، فهي أحياناً طبيعة معكوسة ورداء مقلوب بالتمام لقد كان مظهر "كوتار" المتردّد وحجّله ولطفه البالغان سبباً لتعليقات ساخرة مستمرة في فترة شبابه، إلا لدى آل "الفيردوران" الذين شغفوا به. فأبي صديق محبّ أشار عليه بالمظهر البارد؟ لقد يسّر له خطر مكانته اتخاذ، فانتخذه في كل

مكان، باستثناء منزل "الفيردوران" حيث كان يعود فيضحي ذاته بالغريزة، مظهرًا باردًا يتعمد الصمت واللهجة القاطعة حينما ينبغي الكلام ولا يفوته أن يقول أشياء غير مستحبة. واستطاع تجريب هذا الموقف الجديد أمام زبائن لم يروه بعد ولم يكن بمقدورهم إذن اللجوء إلى المقارنات ولعلمهم كانوا سيدهشون لو علموا أنه ما كان رجلاً من طبعه الخشونة. لقد كان يجهد خصوصاً في بلوغ هدوء الأعصاب وحينما كان يتفوه، حتى في أثناء خدمته في المستشفى، ببعض تلاعباته بالألفاظ التي كانت تضحك الجميع، من رئيس المستشفى إلى أحدث طبيب خارجي، كان يفعل على الدوام دون أن تضطرب عضلة واحدة في وجهه الذي أضحي يصعب التعرف إليه منذ أن خلق لحيته وشاربيه.

ولنقل في الختام من كان المركيز "دو نوربوا". لقد سبق أن كان وزيراً مطلق الصلاحيات قبل الحرب وسفيراً في الـ ١٦ من أيار وقد كلف على الرغم من ذلك عدة مرّات مذ ذاك، مما أدهش الكثيرين، بتمثيل فرنسا في مهمات فوق العادة - وحتى بمثابة مراقب للدّين في مصر حيث أذى خدمات جلّي بفضل قدراته المالية الكبيرة - على يد وزارات راديكالية كان يحجم عن خدمتها بورجوازي رجعيّ بسيط وكان لا بدّ لماضي السيّد "دو نوربوا" وارتباطاته وآرائه أن تجعله مشبوهاً في نظرها إلا أنه يبدو أن هؤلاء الوزراء التقدميين كانوا يدركون أنهم يُبدون بهذا التعيين إلى أيّ اتساع في الفكر يملغون حالما يدور الأمر حول مصالح فرنسا العليا ويرتفعون فوق أمثالهم من رجال السياسة إذ يستحقّون أن تعتهم جريدة "الجدال" نفسها بلقب رجل الدولة، ويفيدون أخيراً من المهابة التي تحيط بالاسم الأرستقراطي والاهتمام الذي يثيره اختيار غير متوقع على غرار انقلاب مسرحيّ مفاجئ وكانوا يعلمون كذلك أنهم يستطيعون بلجوئهم إلى السيّد "دونوربوا" الحصول على هذه المكاسب دون أن يخشوا انعدام الولاء السياسي لديه الذي كان ينبغي لطبيب معتمد المركيز أن يكون ضمانته لديهم لا أن يثير مخاوفهم. وما كانت حكومة الجمهورية منخطة في الأمر. ذلك لأن بعض الأرستقراطيين بادئ الأمر نُشّروا منذ الطفولة على احتساب اسمهم بمثابة مكسب داخليّ لا يستطيع أيّ شيء أن ينزعه منهم (ويعرف نظراًؤهم أو الذين يمتازون عنهم بطبيب المعتمد قيمته تمام المعرفة) وهم يعلمون أنهم يستطيعون أن يُجنبوا أنفسهم الجهود التي يبذلها العديد من البورجوازيين دونما نتيجة لاحقة ذات بال كي لا يجهرُوا إلا بأراء سديدة ولا يتردّدوا إلا على أناس سليمي التفكير، لأن تلك الجهود لن تكسبهم شيئاً. ولكن هؤلاء الأرستقراطيين يعلمون بالمقابل، في سعيهم الي إعلاء قدرهم في أعين أسر الأمراء أو الدوقة التي يحلّون بعدها مباشرة، أنهم لا يستطيعون ذلك إلا بأن يضيفوا إلى اسمهم ما لم يكن يتضمّنه وما يوفر لهم الغلبة لدى تساوي الأسماء كالتفوذ السياسيّ والشهرة الأدبية أو الفنية والثروة العريضة. وما يتأخرون من عناء إزاء من لا خير فيهم من نبلاء الريف الذين يرغب فيهم البورجوازيون ولا يقرّ الأمير لهم بأية منة إزاء صداقتهم العقيمة، إنما يغدقونه على رجال السياسة ولو كانوا ماسونيين إذ يستطيعون إيصالك إلى السفارات أو رعايتك في الانتخابات، وعلى الفنانين أو العلماء الذين يسعفك دعمهم على أن "تبرز" في الفرع الذي يسودون فيه، وعلى جميع من يسعهم منح شهرة جديدة أو لإنجاح زواج ثريّ.

ولكنّما اتّفق، فيما يخص السيّد "دو نوربوا"، أنه تشرب على وجه الخصوص، عبر طويل ممارسة للدبلوماسية - تلك الروح السلبية الروتينية المحافظة المسماة "روح الحكم" وهي بالتأكيد

روح جميع الحكومات وبخاصة روح السفارات في جميع أشكال الحكم. فقد تمّ له أن استقى في الوظيفة كراهية تلك الأساليب الثورية إلى حدّ ما وغير اللاتقة على أيّ حال والخشية منها وازدراءها، عنينا أساليب المعارضة ذلك أن ما يقرب، فيما عدا واقع الحال لدى بعض الأميين في صفوف الشعب وفي العالم الذين لا يقيمون وزناً للفارق بين الأنواع، إنّما هو قرابة الفكر لا وحدة الآراء. ولعلّ عضو أكاديمية من نوع "لوفوفيه" ومن أنصار الكلاسيكيين كان صفق بطيبة خاطر لتكريم "فيكتور هوغو" على لسان "ماكسيم دوكان" أو "ميزير" أكثر مما صفق لتكريم "بولو" على لسان "كلوديل". كما أن نزعة وطنية واحدة تكفي لتقريب "باريس" (Barres) من ناخبه الذين لا يقيمون بالتأكيد فارقاً كبيراً بينه وبين "جورج بيرري"، لا من بعض زملائه في الأكاديمية الذين يحملون آراءه السياسية ولكنهم يتميّزون عنه بنوع من التفكير مغاير فيفضلون عليه حتى الخصوم من أمثال "رييو" و"ديشانيل" اللذين يحسّ ملكيون مخلصون أنّهم بدورهم أقرب بكثير إليهما من "مورّاس" و"ليون دوديه" اللذين يتميّزان بدورهما مع ذلك عودة الملك. كان السيّد "دو نوربوا" ضئيلاً بكلماته لامن جرّاء عادة مهنية في الحيلة والتحفّظ فحسب، بل لأنّها إلى ذلك أرفع قيمة ولأنّها تبرز طفيف الفوارق في نظر رجال تجد جهودهم في مدى عشر سنوات لتقريب بلدين خلاصتها وترجمتها - عبر خطاب أو وثيقة - في مجرد صفة تافهة في ظاهرها ولكنهم يجدون فيها عالماً قائماً بذاته، ولذلك كانوا يعدّونه شديد الجفاء في اللجنة حيث كان يحلّس بالقرب من والذي وحيث كان كلّ منهم يهنئ هذا الأخير للمودة التي يبديها له السفير السابق. وكانت تدهش والذي أوّل من تدهش، إذ تعود، وهو بعامة قليل الأنس، أن لا يسعى الناس إليه خارج دائرة المقربين إليه وكان يقرّ بذلك ببساطة. وكان يحسّ أنّ في محاولات تقرب الدبلوماسي منه أثراً من وجهة النظر الفردية البحتة تلك التي يتخذها كل فرد ليقرّر موقع ميوله والتي لن تشفع معها جميع صفات أحد الناس العقلية أو رقة مشاعره في نظر واحد منا يزعمه هذا الرجل أو يضايقه بمثل ما تشفع به الصراحة الفظة والمرح لدى رجل آخر مع أنه يبدو في نظر العديدين فارغاً مستهتراً خلواً من الكفاءة. لقد دعاني "دو نوربوا" للعشاء ثانية. ذلك غريب والجميع مندهشون لذلك في اللجنة حيث لا تربطه بأيّ منهم علاقات خاصة. إنني واثق أنّه سوف يروي لي أيضاً عن أمور شيقّة حول حرب الـ "٧٠". كان والذي يعلم أنّه ربّما سبق للسيّد "دونوربوا" وحده أن حلّز الامبراطور من قوّة "بروسيا" المتعاطمة ومن نواياها الحريّة وأن "بيسمارك" كان يقدر ذكائه تقديراً خاصاً. وقد لاحظت الصحف في الآونة الأخيرة في الأوبرا، وفي أثناء الحفلة التي أقيمت للملك "ثيودوز"، الحديث المطول الذي خصّ به العاهل السيّد "دونوربوا" وقال لنا والذي الذي كان شديد الاهتمام بالسياسة الأجنبية: "ينبغي أن أعلم إن كانت لزيارة الملك هذه أهميّة حقّة. إنني أعرف حق المعرفة أن العمّ "نوربوا" شديد التّكتم، ولكنّه يوح معي بمكنونات صدره بلطف كبير".

ربّما لم يتمتّع السفير، فيما يخصّ والدتي، بنوع الذكاء الذي كانت تحسّ أنّه أكثر ما يحتجّدها. وأرى لزماً عليّ أن أقول إن حديث السيّد "دو نوربوا" كان مجموعة كاملة من أشكال اللغة المتقدمة الخاصة بمهنة وبطريقة وبحقبة زمنية - حقبة يمكن أن لا تكون انقضت بعد تماماً بالنسبة إلى تلك المهنة وتلك الطبقة - إلى حدّ أنّي آسف أحياناً لأنّي لم أحفظ بالحرف الواحد الأقوال التي

سمعتهم يتفوه بها، فلعلّي كنت أحصل على ما يوحى بالتقادم بزهد الكلفة والطريقة ذاتها التي كان يجيب بها ذلك الممثل في مسرح "القصر الملكي" حينما يسألونه عن المكان الذي يستطيع أن يعثر فيه على قبّعات المدهشة: "إنني لا أعثر على قبّعاتي، بل أحفظ بها. "وإنني أعتقد بوجيز القول أن والدتي كانت تحكم أنّ السيّد "دو نوربوا" من طراز قديم بعض الشيء، الأمر الذي ما كان ليبدو مزعجاً على صعيد السلوك ولكنه أقلّ إمتاعاً لها في مجال التعابير، إن لم يكن في مجال الأفكار - لأن أفكار السيّد "دو نوربوا" كانت عصريّة جداً - على أنّها كانت تحسّ أنّه من الإطراء اللطيف لزوجها أن تحدّثه بإعجاب عن الدبلوماسي الذي كان يخصّه باهتمام نادر إلى هذا الحدّ. لقد كانت تدرك، وهي تقويّ في ذهن والدي الفكرة الطيبة التي يحملها عن السيّد "دو نوربوا" وإذ تقوده بذلك إلى اتخاذ أخرى تماثلها في الطيبة عن نفسه، كانت تدرك أنّها تؤديّ أحد واجباتها الذي قوامه أن تجعل حياة زوجها ممتعة مثلما كانت تفعل حينما تسهر أن يكون الطعام متنقلاً والخدمة صامتة. ولما كانت عاجزة عن الكذب على والدي فقد كانت تدرب نفسها لتستطيع امتداحه بصدق. كانت على آية حال تستسيغ تلقائياً مظهر الطيبة لديه وتأدّب المتقادم عهداً إلى حدّ (والمكلف حتى أنّه حينما كان يبصر والدتي تمرّ في عربتها، وهو يمشي ويرفع قامته العالية، كان يرمي في البعيد سيجاراً لم يكّد يندوه بعد وذلك قبل أن يسلم بحركة من قبّعتّه وحديثه الشديد الاتزان حيث كان يتحدّث عن نفسه أقلّ الحديث ويتبّه دوماً لما يمكن أن يسرّ محدثه، ودقته المدهلة في الإجابة على الرسائل إلى حدّ أن أول ما يخطر لوالدي، حينما كان يتعرّف على خطّ السيّد "دو نوربوا" على مغلف، وقد جاء منذ قليل على تسطير رسالة لهذا الأخير، الاعتقاد بأن رسالتيهما تقاطعتا لسوء الطالع: لكأنّما كان يتوافر له في البريد دورات إضافية وكمالية لجمع الرسائل. وتدهش والدتي أن يكون دقيقاً إلى هذا الحد مع أنّه كثير المشاغل، ولطيفاً إلى هذا الحدّ مع أنّه مبغّث الاهتمامات إلى حدّ كبير دون أن تفتن إلى أنّ الأداة "مع أنّ" إنّما هي على الدوام "لأنّ" مجهولة، وأنّها العادات نفسها التي كانت تسمح للسيّد "دو نوربوا" أن ينجز الكثير من المشاغل ويكون منظملاً إلى هذا الحدّ في إجاباته. أن يروق الناس في المجتمع ويكون لطيفاً معنا (مثلما يبدو الشيوخ مذهلين بالقياس إلى سنهم، والملوك يفيضون بساطة، والرفيقيون على بينة من كل شيء). وخطأ والدتي، إلى ذلك، كما هي حال جميع الذين يتصفون باتّضاع كبير، مردّه أنّها كانت تضع الأمور المتعلقة بها في مرتبة أدنى من غيرها وبالتالي خارج إطار تلك الأمور الأخرى. فالجواب الذي حكمت أن صديق والدي كان له فضل كبير في إرساله إلينا على جناح السرعة لأنّه كان يسطّر العديد من الرسائل في اليوم إنّما كانت تستثني من هذا العدد الكبير من الرسائل التي ما كان إلّا واحداً منها. وهي كذلك لا تحسب أن عشاء في بيتنا إنّما يؤلّف بالنسبة إلى السيّد "دو نوربوا" واحداً من أفعال في حياته الاجتماعية لا تحصى: فما كان يخطر لها أن السفير تعود في الدبلوماسية فيما مضى أن يعتبر تناول طعام العشاء في المدينة جزءاً من وظائفه وأن ييدي ظرفاً متأصلاً لعلّه من المبالغة مطالبته بتركه جانباً لأمر خارق حينما كان يحلّ في بيتنا.

إن العشاء الأوّل الذي تناوله السيّد "دو نوربوا" في بيتنا في سنة كنت لا أزال ألعب فيها في "الشانزليزيه" لم يرح ذاكرتي؛ لأن عصر ذلك اليوم كان الفترة التي كنت سأمضي فيها أخيراً

لسماع "لايرما" في رواية "فيدر" (Phedre) في حفلة العشيّة، ولأنني تبّينت كذلك فجأة في حديث مع السيّد "دو نوربوا" وعلى نحو جديد إلى أي مدى كانت المشاعر التي يوقظها فيّ كل ما يتعلّق بـ "جيلبيرت سوان" وذويها مختلفة عن تلك التي كانت تثيرها تلك الأسرة نفسها في صدر أيّ شخص آخر.

فليس من شكّ أنّ والدتي قالت لي ذات يوم، لتروح عني، وقد لاحظت اليأس الذي يبعثه فيّ قرب حلول عطلة رأس السنة وكان ينبغي لي أن لا أرى "جيلبيرت" في أثنائها مثلما أعلمتني بذلك بنفسها: "إن كانت لا تزال بك الرغبة الكبيرة نفسها في سماع "لايرما" فإني أعتقد أن والدك ربما سمح بأن تذهب إلى هناك، وبوسع جدّتك أن تصحبك".

وإنّما لم يعد يستبعد والدي، وهو الذي كان يعارض حتى ذاك أن أمضي لتضييع وقتي وربما لتحمل المشقة من أجل ما كان يدعوه أشياء لا طائل تحتها ويثير بذلك استنكار جدّتي، لم يعد يستبعد احتساب هذه الأمسية التي أوّصى بها السفير وكأنّها جزء تقريباً من مجموعة وصفات ثمينة من أجل النجاح في مهنة لامعة لأنّ السيّد "دو نوربوا" سبق أن قال له إنّه يجدر به السماح لي بـ سماع "لايرما" وإن ذلك ذكرى يحسن بشاب أن يحتفظ بها. وكانت جدّتي قد أقدمت على تضحية كبيرة لصالح صحّتي في تخلّيها من أجلي عن الفائدة التي كنت سأجنيها، حسب رأيها، من سماع "لايرما" فأدهشها أن يضحي هذا الصالح غير ذي بال لكلمة واحدة من السيّد "دو نوربوا". وإذ كانت تعلّق آمالها العقلانية التي لا تقهر على نظام الهواء الطلق والنوم الباكر الذي أوّصيت به فقد أخذت تأسف لتلك المخالفة التي كنت أزمع الإقدام عليها وكأنّها كارثة وتقول لوالدي بلهجة حزينة: "كم أنت قليل الاهتمام" فيجيب حانقاً: "كيف ذلك، فأنت الآن من لا يريد أن يذهب! تلك مبالغة، فأنت من كانت تردّد لنا طوال الوقت أنّ الذهاب يمكن أن يأتيه بالفائدة".

على أن السيّد "دو نوربوا" كان قد بدّل مقاصد والدي في نقطة تفوق تلك أهميّة بالنسبة إليّ. فقد رغب دوماً أن أكون ديبلوماسياً وما كنت أطيق فكرة احتمال إيفادي في يوم سفيراً في عواصم لن تسكنها "جيلبيرت" حتى ولو قدّر لي أن أأزم الوزارة بعض الوقت. كنت أفضّل العودة إلى المشروعات الأدبية التي سبق أن قررتها وعدلت عنها في أثناء زهاتي في جانب "غير مانت". ولكن والدي عارض باستمرار أن أتجه إلى مهنة الأدب التي كان يعدّها أدنى من العمل الديبلوماسي بكثير ويرفض لها حتى اسم المهنة إلى اليوم الذي أكّد له فيه السيّد "دو نوربوا" الذي لم يكن يروقه كثيراً ديبلوماسيّ الطبقات الجديدة أنه يمكن للمرء كاتباً أن يكسب من الاعتبار ويمارس من التأثير بمقدار ما يتم له في السفارات ويحتفظ بقدر من الاستقلال أوفر.

لقد قال لي والدي: "غريب! ما كنت لأصدّق الأمر، "نوربوا" لا يقاوم على الإطلاق فكرة أن تهتم بالأدب". ولما كان يظنّ، وهو نفسه على قدر كاف من النفوذ، أن لا شيء إلا ويمكن تديريه، إلا ويجد حلاً مناسباً في محادثة ذوي الجاه: "سوف آتي به للعشاء في إحدى الأمسيات لدى خروجنا من اللحنة. وتحدّث قليلاً إليه كي يستطيع تقديرك. فاكتب شيئاً مناسباً كي يمكنك عرضه

عليه. إنه وثيق الصلات بمدير "مجلة العالمين" وسوف يدخلك فيها ويتولى الأمر فهو كبير الحيلة. يمينا، إنه يجد الديبلوماسية اليوم، فيما يبدو...".

كانت السعادة التي كنت أتوقعها من أن لا أنفصل عن "جيلبيرت" تشيع في الرغبة لا القدرة على كتابة شيء حلو يمكن عرضه على السيد "دونوروا". فبعد بضع جمل تمهيدية، ولما أسقط الضجر القلم من يدي، أخذت أبكي حنقا وأنا أفكر أنه لن تكتب لي الموهبة في يوم وأنني لم أكن موهوبا ولن يسعني حتى الإفادة من الفرصة التي كان يقرها لي مجيء السيد "دونوروا" القريب في أن أظل دوماً في باريس. وما كان يفرج عني غمي سوى أنهم سيسمحون لي بالذهاب لسماع "لايرما". ولكن مثلما لم أكن أتمنى رؤية العواصف إلا على الشواطئ التي هي فيها أكثر ما تكون عنفاً، كذلك ما كنت أريد سماع الممثلة الكبيرة إلا في واحد من تلك الأدوار الكلاسيكية التي قال لي "سوان" إنها تبلغ فيها حد الروعة. ذلك أننا حينما نرغب في الحصول على بعض انطباعات عن الطبيعة أو الفن مؤلمين بذلك كشفاً ثميناً فإنما تساورنا بعض الخشية أن ندع لنفسنا أن تستقبل عوضاً عنها انطباعات أقل شأناً يمكن أن نخدعنا فيما يخص قيمة "الجمال" الحقيقية. فأدوار "لايرما" في مسرحيات "أندروماك" و"نزوات ماريان" و"فيدر"^(١) إنما هي من تلك الأمور المرموقة التي طالما اشتهاها خيالي. ولسوف أبلغ النشوة نفسها التي أبلغها يوم تحملني "الغندول" أمام أعمال "نيتسيانو" في "فراري" أو أعمال "كارباتشيو" في "سان جورجيو" في مدينة "شافوني" إن سمعت في يوم "لايرما" تنشد هذه الأبيات:

"يقولون إن رحيلاً مبالغاً يذهب بك بعيداً عنا

يا سيدي .."

كنت أعرفها عن طريق مجرد النسخ باللونين الأسود والأبيض الذي تزودنا بها النشرات المطبوعة، ولكن فوادي كان يخفق حينما أفكر، وكأنما في رحلة تحققت، أنني سأراها أخيراً يغمرها جو الصوت المذهب ودفقه إن عملاً لـ "كارباتشيو" في البندقية و"لايرما" في مسرحية "فيدر" يمثلان روائع في فن الرسم أو المسرح تجعلها الشهرة التي تلازمها حياة في صدري، أي لا ينفصل بعضها عن الآخر، إلى حد أنني لو ذهبت لمشاهدة أعمال لـ "كارباتشيو" في إحدى قاعات متحف "اللوفر" أو "لايرما" في مسرحية لم أسمع عنها ألبتة لما أحسست من بعد بالدهشة اللذيذة نفسها لأن تنفتح عيناي أخيراً على الموضوع الفريد الذي لا يمكن تصوّره، موضوع الآلاف العديدة من أحلامي. ولما كنت أنتظر من تمثيل "لايرما" أن يكشف لي عن بعض مظاهر النبيل والعذاب فقد كان يبدو لي أنه لا بد لما في ذلك التمثيل من عظمة وواقعية أن يزداد إن قرنته الممثلة بعمل فني ذي قيمة حقيقية بدلاً من أن تنسج خيوط الحقيقة والجمال على لحمه ضحلة تافهة.

(١) Phedre, Les Caprices de Marianne, Andromaque

وأخيراً لو ذهبت لسماع "لايرما" في مسرحية جديدة فلن يسهل عليّ الحكم على فنّها وإلقائها؛ لأنّني لن أستطيع التمييز بين نصّ لا أعرفه سلفاً وما تضيفه إليه نبرات وحركات ربّما بدت لي وكأنّها ملتصقة به، في حين تبدو لي المؤلفات القديمة التي كنت أحفظها عن ظهر قلب وكأنّها مساحات واسعة محفوظة وجاهزة أستطيع أن أقدر فيها بملء الحرّية الابتكارات التي تمّدها "لايرما" فوقها كمثّل لوحه جداريّة تزدهي بلقيات إلهامها المستمرة. إلّا أنّها لم تعد تمثّل لسوء الحظّ مسرحيات كلاسيكيّة منذ سنوات عدّة تركت خلالها المسارح الكبرى وأصبحت مصدر ثراء لأحد مسارح الأحياء الذي أصبحت نجمته، وعبثاً كنت أبحث في الإعلانات فلا تنبئني إلّا عن مسرحيات حديثة تماماً وضعها لها خصيصاً مؤلفون ذاع صيتهم، حينما أبصرت ذات صباح للمرة الأولى، وأنا أبحث في عمود إعلانات المسارح عن حفلات ما بعد الظهر في أسبوع رأس السنة - في نهاية الحفلة وبعد افتتاحية غير ذات بال على الأرجح بدا لي عنوانها عاتماً لأنّه كان يتضمّن كلّ خصائص الوقائع التي كنت أجهلها - فصلين من مسرحيّة "فيدر" مع السيّد "لايرما"، وفي حفلات بعد الظهر التالية "دنيا الرخيصات" و"نزوات ماريان"، وهما اسمان شفافان بالنسبة إليّ، كما هي حال "فيدر"، لا يملوهما سوى الضياء لشدة ما كانت المؤلفات معروفة لديّ وتشرق فيهما حتى الأعماق ابتسامة فنيّة. وبدت لي جميعها وكأنّها تضيفي نبلاً على السيّد "لايرما" نفسها حينما قرأت في الصحف بعد برنامج هذه المشاهدة أنّها هي التي قرّرت أن تظهر مرّة أخرى أمام الجمهور في بعض أدوارها القديمة. لقد كانت الفنّانة تعلم إذن أن لبعض الأدوار أهميّة تظلّ باقية بعد ميزة الجدة في ظهورها أو بعد إعادة الكرة فيها بنجاح. لقد كانت تعتبرها، وقد قامت هي بتمثيلها، بمثابة روائع متحقّية يبدو من المفيد عرضها مجدّداً أمام الجيل الذي أعجب بها أو الجيل الذي لم يتسنّ له أن يراها فيها. وحينما كانت تضع على هذا النحو. وسط مسرحيات معدّة لتضحية وقت السهرة فحسب، إعلاناً عن مسرحيّة "فيدر" التي لم يكن عنوانها أطول من العناوين الأخرى ولا خطّ بحروف مختلفة فإنّما كانت تضيف إليه ما يشبه المقصد الخفيّ لرغبة بيت تقول لك، وهي تقدّمك لمدعوّيها ساعة التوجّه إلى المائدة، تقول لك وسط أسماء مدعوّين هم مجرد مدعوّين وباللهجة نفسها التي ذكرت بها الآخرين: السيّد "أناتول فرانس".

وأشار الطبيب الذي كان يعالجني - ذاك الذي حظّر عليّ القيام بأية رحلة - أشار على والدي بمنعني من الذهاب إلى المسرح، فسوف أعود منه مريضاً، وربّما لفترة طويلة، وأجني في نهاية المطاف من العذاب أكثر ممّا أجني من المتعة. ولعلّ تلك المخاوف كانت تستطيع ردعي لو أن ما كنت أنتظره من مثل ذلك العرض كان محض متعة يمكن لأيّ ألم لاحق أن يبطّلها بطريق التعويض. غير أن ما كنت أبعيه من حفلة العشيّة تلك - كمثّل الرحلة إلى "باليك" والرحلة إلى "البندقية" اللتين كثيراً ما اشتيهتهما - إنّما كان غير المتعة تماماً: حقائق تعود لعالم أكثر حقيقة من ذلك الذي كنت أعيش فيه ولا يمكن لحوادث عارضة في حياتي التافهة أن تنزعها مني بعد أن يتمّ لي إحرازها ولو كانت تلك الحوادث أليمة في جسدي. وأكثر ما هنالك أن المتعة التي سأجنيها في أثناء العرض كانت تبدو لي بمثابة الشكل الضروري ربّما لإدراك تلك الحقائق، وكان ذلك كافياً لأنّمني أن لا

تبدأ الانحرافات الصحفية المتوقعة إلا بعد انتهاء العرض كي لا تعرضه للخطر ولا تزيهه. وكنت أتوسل إلى والدي اللذين أصبحا لا يريدان السماح لي من بعد بالذهاب إلى مسرحية "فيدر" منذ زيارة الطبيب. كنت أنشد لنفسي دون توقف المقطع التالي:

"يقولون إن رحيلاً مبالغاً يذهب بك بعيداً عنا .."

وأنا أبحث عن جميع الألوان الصوتية التي يمكن أن تزجّ فيه كي أفلح أكثر في العثور على اللا متوقع في اللون الذي ستلقاه "لايرما". وكان الجمال الإلهي الذي يختفي كقدس الأقداس تحت الستار الذي يحجبه عني والذي كنت أضفي عليه في كل لحظة وجهاً جديداً حسبما يرد إلى فكري من كلمات "بيرغوت" - في الكراس الذي عثرت عليه "جيلبيرت" - : "فالسّموّ في التشكيل، والمسحّ المسيحي، وشحوب النسك، وأميرة "تريزين" و"كليف"، والدراما الميسينية (*)، ورمز "ذلفي"، والأسطورة الشمسية"، كان الجمال الإلهي الذي سيكشف لي عنه تمثيل "لايرما" يتربع ليل نهار على مذبح مضاء باستمرار في أقصى زاوية من فكري، فكري الذي كان يزعم والداي القاسيان والسطحيان أن يقرّرا إن كان سيحتبس إلى الأبد، أو لا يحتبس، مزايا الإلهة التي تجلت في هذا المكان بالذات الذي كانت تنتصب فيه صورتها اللامرئية. وكنت أناضل من الصباح إلى المساء ضد الحواجز التي ترفعها أسرتي في وجهي، وعيناي مشدودتان إلى الصورة التي لا يمكن تصوّرها. ولكن حينما تهاوت تلك الحواجز وحينما قالت لي أمي - مع أن تلك الحفلة كانت واقعة بالضبط عشية يوم جلسة اللجنة التي كان يزعم والدي بعدها اصطحاب السيد "دونوربوا" للعشاء - : أرايت؟ إننا لا نريد لك أن تغتم، فإن ظننت أنك ستجني من ذلك هذا القدر من المتعة كان عليك أن تذهب، وحينما أنيط بي وحدي أمر يوم المسرح ذلك، وكان حتى ذاك محظوراً، حينئذ سألت نفسي للمرة الأولى إن كان ذلك محبذاً. إذ لم يعد عليّ أن أهتم بالأمر مستحيلاً، وإن لم يكن لأسباب أخرى غير منع والدي أن تضطّرني إلى العدول عنه. فبعدما كرهت بادئ الأمر قسوتهما جعلتهما موافقتهما عزيزين لديّ إلى حدّ أنّ فكرة بعث الغمّ في صدريهما أخذت تسبّب لي بدوري غمّاً لم تعد تبدو لي الحياة من خلاله وكان هدفها الحقيقة بل الحنان، ولم تعد تبدو لي خيرة أو مشؤومة إلا حسبما يكون أهلي سعداء أو تعساء. وقلت لأمي:

"أفضل ألا أذهب إن انبغى أن تغتمّي لذلك، فكانت تجهد على العكس أن تنزع مني ما يخطر لي من أنه يمكن أن تغتمّ لذلك، والخطر، فيما تقول، إنما سيخرب ما أصيب من متعة في مسرحية "فيدر"، الأمر الذي حدا بها وبأبي أن يتراجعا عن حظرهما. ولكن هذا النوع من الالتزام بالاستمتاع بدا لي عبثاً ثقيلاً. ثم إنني إن عدت مريضاً فهل أتعافى سريعاً بما يتيح لي الذهاب إلى "الشانزليزيه" بعد انتهاء العطلة وحالما تعود "جيلبيرت" إلى هناك؟ كنت أضع مقابل جميع تلك الأسباب فكرة كمال "لايرما" المستترة خلف حجابها كيما أقرّر لأيتها تكون الغلبة، فأجعل في إحدى كفتي الميزان "الشعور بأن والدتي حزينة واحتمال أن لا أستطيع الذهاب إلى "الشانزليزيه"، وفي الثانية "شحوب النسك والأسطورة الشمسية"؛ على أن هذه الكلمات نفسها كانت تظلم في النهاية داخل

(*) نسبة إلى الفن الذي نشأ في الألف الثاني قبل الميلاد والذي كانت مدينة "ميسين" (Mycenes) من أهم مراكزه.

فكري فلا تعني لي شيئاً من بعد وتفقد كلّ وزن لها.

وأضحت حيرتي تؤلمني شيئاً فشيئاً إلى حدّ أنني إن كنت أختار المسرح الآن فما ذلك إلّا لأضع حدّاً لها ولأنجو منها دفعة واحدة ؛ وكنت أسمع، لا بأمل الحصول من بعد على مكسب فكريّ ولا انقياداً لحاذب الكمال، بل لأقصّر من عذابي، بأن أساق، لا أمام الإلهة الحكيمة، بل أمام الإلهة القاسية التي لا وجه لها ولا اسم والتي أجلّت خفية محلّها خلف حجابها، إلّا أن كلّ شيء تبدّل فجأة وأضاف إلى رغبتني في الذهاب لسماع "لايرما" حافزاً جديداً مكّنتني من انتظار حفلة تلك العشية في جوّ من نفاد الصبر والسرور: فقد أبصرت، بعدما ذهبت لأقوم بوقفتي "العمودية"^(١) اليومية، وقد أضحت منذ قليل مؤلمة جدّاً، أبصرت الإعلان المفصّل عن مسرحيّة "فيدر" وقد ألصق للمرة الأولى منذ وقت يسير، ولا يزال وطباً بعد، (على أنّ باقي التفصيل لم يجتني، والحق يقال، بأيّ إغراء جديد يستطيع أن يقنّعي)، ولكنه كان يضيفي على أحد الأهداف التي كان يترجّع تردّي بينها شكلاً أكثر حقيقة وتقرب أن تكون فوريّة وفي طور التحقيق - بما أن الإعلان كان يحمل لا تاريخ اليوم الذي كنت فيه، بل تاريخ اليوم الذي سيتمّ فيه رفع الستار - إلى حدّ أنني طفقت أفقر فرحاً أمام العمود وأنا أفكر أنني في ذلك اليوم وفي تلك الساعة بالضبط ساكون جاهزاً لسماع "لايرما" وأنا جالس في مكاني. ومخافة أن لا يتسع الوقت من بعد لوالديّ للعثور على مقعدين مناسبين لحجّتي ولي اجتزّت المسافة حتى البيت بقفزة واحدة وقد لسعتني الكلمات السحرية التي حلّت في خاطري محلّ "شحوب النساك" و"الأسطورة الشمسية": "يمنع دخول السيّدات إلى الصالة بالقبّعات ؛ تغلق الأبواب في الساعة الثانية."

ولكن حفلة بعد الظهر الأولى تلك كانت خيبة أمل كبيرة. فقد عرض والدي أن يوصلني وحجّتي إلى المسرح وهو في طريقه إلى "لجنته". وقال لوالدتي قبلما يغادر البيت: حاولي إعداد عشاء طيب ؛ أتذكرين أنني أصطحب "دونوربوا"^٢ وما نسيته والديتي. وظلت "فرانسواز" منذ عشية ذلك اليوم سعيدة أن تنصرف إلى فنّ الطهو الذي كانت تتمتع فيه بموهبة أكيدة، يحفزها على آية حال الإعلان عن موعود جديد فيما تعلم أنه يقع عليها أن تركب لحماً بالمرق المحمّد وفق طرائق تلم بها وحدها، فكانت تعيش في حمى الإبداع. ولما كانت تولي الجودة الذاتية للموادّ المزعم إدخالها في صناعة عملها الفنّي أهمية عظيمة كانت تذهب بنفسها إلى سوق الهال لتوافي بأجود أنواع "الرومستيك" وقطع عرقوب الثور ومقادير العجل، كمثّل "ميكيل أنجلو" يقضي ثمانية شهور في جبال "كارارية" في انتقاء أجود كتل المرمر لضريح البابا "يوليوس الثاني". وكانت "فرانسواز" تنفق في جيئتها ورواحها قدراً من النشاط خشيت معه أمّي، وهي تبصر وجهها الملتهب، أن يداهم المرض خادمتنا العجوز من شدة الإرهاق مثل صانع ضريح آل "ميديتشي" في مقالع "بيتراسانتا". ومنذ عشية ذلك اليوم بعثت "فرانسواز" تشوي في فرن الخبز ما كانت تسمّيه فخذ خنزير "نيفيورك" وقد غلّفته بلبّ الخبز كأنه

(١) تذكرة الصفة بسمعان العمودي الذي أمضى جزءاً من حياته متعبداً على عمود، وله كنيسة أقيمت على اسمه بالقرب من مدينة حلب وتعرف بسمعان. (المترجم)

المرمر الوردى. ولما كانت تظن اللغة أقل غنى مما هي وأذنيها على قدر قليل من الأمانة فلا شك أنها اعتقدت أول ما سمعت عن لحم خنزير "يورك" - وقد وجدت من الإسراف غير المعقول في الألفاظ أن يكون ثمة كلا اللفظتين "يورك" و"نيويورك" - إنها سمعت خطأ وأن المقصود بالقول هو الاسم الذي سبقت لها معرفته. ولذلك كانت لفظته "يورك" مذ ذاك مسبوقة داخل أذنيها، أو أمام عينيها إن هي قرأت إعلاناً، بلفظة "نيو" التي تقولها "نيف". وكانت تقول لخادمة المطبخ بحسن نية لا يفوقها أي شيء في العالم: "جيتيني بفخذ خنزير من مخزن "اليدا" ؛ وقد أوصتني سيّدتني وشددت أن يكون من صنف "نيفورك". ولئن اتفق لي "فرانسواز" في ذلك اليوم يقين المبدعين العظام اللاهب فقد كان نصيبي اضطراب الباحث المرء. وليس من شك أنني أحسست بالمتعة مادمت لم أسمع "لابيرما". لقد أحسست بشيء منها في الحديقة الصغيرة التي قبل المسرح والتي ستلتصق أشجار الكستناء العارية فيها التماعات معدنية بعد ساعتين ما إن تنير مصابيح الغاز المضاء تفاصيل أغصانها. وتم لي ذلك أمام مستخدمي المراقبة، وكان اختيارهم وترفيهم ومصيرهم رهن إشارة الفنانة الكبيرة - وكانت تنفرد وحدها بالسلطة في هذه الدائرة التي يتعاقب على رأسها مدرء عابرون، محض أسماء مجهولة - وقد أخذوا بطاقتنا دون أن ينظروا إلينا فقد أقلقهم أن يعلموا إن كانت جميع أوامر السيّدة "لابيرما" قد أحسن نقلها إلى المستخدمين الجدد وإن كان واضحاً أنّ المصقّقين المأجورين ينبغي ألا يصفقوا البتة لها وأنه يجب أن تظل النوافذ مفتوحة ما دامت لم تعتل بعد خشبة المسرح وأن يغلق أقلّ باب بعد ذلك وأن يوازى إناء من الماء الساخن بالقرب منها ليتساقط فيه غبار خشبة المسرح. ذلك أن عربتها التي يجرها حصانان كثيف العرفين سوف تتوقف بعد لحظة أمام المسرح فتنزل منها تلتف بفرائها ثم ترد التحيات بإشارة متجهمة وتبعث إحدى وصيفاتها تستعلم عن الحجرة الأمامية التي حجزت لأصدقائها، وعن حرارة القاعة، وعن تركيب المقصورات، وعن لباس العاملات، فالمسرح والجمهور بالنسبة إليها ثوب ثان فحسب يحيط بالأول والوسط الناقل الجيد أو الأقل جودة الذي ينبغي أن تحتازه موهبتها. وكنت سعيداً كذلك في القاعة نفسها ؛ فمنذ أن عرفت أن ليست ثمة - بعكس ما صورته لي تخيلات الطفولة لفترة طويلة - سوى خشبة مسرح واحدة لجميع الناس كنت أظنّ أنه لا بدّ أن يحول المشاهدون الآخرون دون أن يرى المرء رؤية جيّدة، كما هو الأمر وسط جمهور ما. إلا أنه تبين لي على العكس أنّ كل واحد يظنّ نفسه مركز المسرح بفضل ترتيب هو بمثابة رمز لكل إدراك حسّي، الأمر الذي أوضح لي كيف أنّ "فرانسواز" أكدت ذات مرة لدى عودتها، وكانوا قد أرسلوها لحضور ميلو دراما في الأروقة الثالثة، أنّ مقعدها كان أفضل المقاعد التي يمكن الحصول عليها، وعوضاً عن أن تجد نفسها بعيدة جداً، شعرت أنّها خائفة من جرّاء قرب الستارة الخفيّ الذي ينبض بالحياة. وقد تعاضلت متعتي أيضاً حينما بدأت أميز خلف هذه الستارة المرخاة ضجة مبهمّة، كالتي تسمعها تحت قشرة البيضة حينما يزع اللصوص الخروج، والتي كبرت بعد قليل وفجأة وجهت إلينا، بما لا يقبل الشك، من ذلك العالم الذي لا تنفذ إليه الحاظنا والذي كان يصبرنا بلحظه، وذلك على شكل ثلاث ضربات أمرة مؤثرة كمثّل إشارات جاءت من كوكب المريخ سواء بسواء. وبعدما تمّ رفع الستار، وحينما دلّت طاوله للكتابة وموقد، وهما عاديّان تماماً على آية حال، أن الأشخاص الذين

يزمعون الدخول لن يكونوا ممثلين جاؤوا لينشدوا مثلما رأيت ذات مرة في إحدى الأمسيات، بل أناس يعيشون في منازلهم يوماً في حياتهم التي كنت أَلج فيها عنوة دون أن يتمكنوا من رؤيتي، ظَلَّتْ متعتي آخذة في الاستمرار. ولكنها انقطعت من جراء اضطراب قصير: فقد دخل إلى المسرح رجلان. لحظة كنت بالضبط أصيخ السمع قبل أن تبدأ المسرحية، وكانا في غضب شديد إذ كانا يتحدثان بصوت عالٍ إلى حدٍّ يَتَمَّ تمييز جميع أقوالهما في تلك القاعة التي احتشد فيها أكثر من ألف شخص في حين تضطّر في مقهى صغير أن تسأل النادل عمّا يقوله شخصان يتشاجران. ولكني أدركت في اللحظة نفسها، وقد أدهشني أن أرى الجمهور يصغي إليهما دونما احتجاج يغمره صمت شامل جاءت تخفق بعد قليل على صفحته ضحكة ههنا وأخرى هناك، أدركت أنّ هذين الواقحين من الممثلين وأنّ المسرحية الصغيرة المدعوة بتمثيلية الافتتاح قد بدأت منذ قليل. وتلتها استراحة طويلة إلى حدٍّ أن المشاهدين الذين عادوا إلى مقاعدهم أخذوا يفقدون الصبر ويضربون بأقدامهم. وتملكني الرعب لذلك؛ فمثلما كنت أخشى دوماً، حينما كنت أقرأ في محضر إحدى الدعاوى أنّ رجلاً نبيل القلب يزعم الحضور، غير آبه بمصالحه، للشهادة في صالح أحد الأبرياء، أن لا يحاط بقدر كافٍ من اللطف وأن لا يُقَرَّ بفضلُه إلى حدٍّ كافٍ ولا يُكافَأَ بحزِيلِ العطاء فيقف إلى جانب الظلم بعد ما اشتد به القرف، كذلك كنت أخاف، وأمائل في ذلك بين النبوغ والفضيلة، أن تقدم "لايرما"، وقد أغضبها سوء التصرف لدى جمهور قليل التهذيب إلى هذا الحدّ - ووددت على العكس لو تستطيع أن تبين فيه مشروحة الصدر بعض المشاهير الذين ربّما أولت رأيهم أهمية على الإعراب عن استيائها وازدراؤها بإساءة التمثيل. فكنت أنظر بتوسل إلى تلك البهائم الصاخبة التي توشك أن تحطم في جنونها الانطباع الهش والتمين الذي جثت أبحت عنه. وأخيراً كانت آخر لحظات متعتي في أثناء المشاهد الأولى لمسرحية "فيدر". إنّ شخص "فيدر" لا يظهر في بداية الفصل الثاني، ومع ذلك ما إن رفع الستار وانزاح ستار ثانٍ من مخمل أحمر كان يضاعف من عمق خشبة المسرح في سائر المسرحيات التي تمثل فيها النجمة حتى دخلت ممثلة من الخلف تتمتع بالوجه والصوت اللذين قالوا هما لـ "لايرما". لا بدّ أنّهم بدّلوا في التوزيع وأصبح كلّ الاهتمام الذي بذلته لدراسة دور امرأة "تيسوس" غير ذي جدوى. ولكن ممثلة ثانية ردّت على الأولى. لا بدّ أنني أخطأت إذ ظننت تلك "لايرما" لأن الثانية كانت أكثر شبهاً بها واستقام لها أكثر من الأخرى إلقاؤها. وكانت الاثنتان على أية حال تضيفان إلى الدور حركات ملوها النبيل - وكنت أميزها بوضوح وأدرك علاقتها بالنص، فيما هما ترفعان رداءهما الجميل - ونبرات بارعة تهزّها الحماسة تارة والسخرية طوراً وتفهمني مدلول بيت من الشعر سبق أن قرأته في المنزل دون أن أولي ما يرمي إليه اهتماماً كافياً. بيد أن امرأة ظهرت فجأة في تباعد ستار المعبد الأحمر وكأنّها داخل إطار، وأدركت في الحال، للخشية التي تملكتني، وهي أشدّ قلقاً مما كان يمكن أن تكون عليه خشية "لايرما"، من أن يتمّ إزعاجها بفتح نافذة وأن تفسد نبرة إحدى كلماتها من جراء العبث بورقة برنامج وأن تتكدر من جرّاء التصفيق لزملائها وعدم التصفيق كافياً؛ ولطريقتي، وهي أشدّ إطلاقاً من طريقة "لايرما" نفسها، في احتساب القاعة والجمهور والممثلين والمسرحية منذ تلك اللحظة محض وسطٍ صوتي لا أهميّة له إلا بمقدار ما يلائم نبرات ذلك الصوت، أدركت أن الممثلتين اللتين

أعجبت بهما منذ بضع دقائق لا تملكان أي وجه شبه مع التي جئت لسماعها. إلا أن متعني توقفت بكليتها في الوقت نفسه، فبعثاً كنت أشدّ نحو "لايرما" عيني وأذني وعقلي كي لا تفلت ذرة ممّا قد توفر لي من أسباب الإعجاب بها فلا أتمكن من جمع سبب واحد منها. ولا أستطيع حتى أن أميز في إلقائها وتمثيلها، كما هو الأمر بالنسبة إلى زملائها، نبرات ذكية وحركات جميلة. فقد كنت أصغي إليها كما لعلني كنت أقرأ "فيدر" أو كأنما تقول "فيدر" بنفسها في تلك اللحظة الأشياء التي أسمعا دون أن يبدو أنّ موهبة "لايرما" قد أضافت إليها شيئاً. وددت لو أوقف، لو أجمّد لفترة طويلة أمامي كل نبرة صوت للفنانة وكلّ تعبير على محياها - لأتمكن من تعميقهما وأحاول أن ألقى فيهما ما كان بهما من أمر جميل - كنت أحاول على الأقل، بفرط رشاقة الذهن وبالإمساك بانتباهي جاهزاً بالتمام واضح الصورة، أن لا أصرف في شؤون الاستعداد ذرة من فترة دوام كلّ كلمة وكلّ حركة وأن أتمكن بفضل شدّة انتباهي من الغوص فيهما بمقدار ما كان يتيسر لي من عمق لو تسنى لي في ذلك ساعات طويلة. ولكن ما أقصر ما كانت المدة!

فما إن يصل صوت إلى أذني حتىّ يحلّ آخر محلّه. وفي مشهد تظلّ فيه "لايرما" ثابتة مقدار لحظة وذراعها مرفوعة إلى مستوى وجهها، يغمرها نور ضارب إلى الخضرة بفضل خدعة ضوئية، أمام منظر يمثل البحر دوت القاعة بالتصفيق، ولكن سرعان ما غيرت الممثلة مكانها وزالت اللوحة التي كبت أبغي دراستها. وقلت لحدّتي إنّي لا أرى بوضوح فمدّت لي منظارها. إلا أنّك حينما تؤمن بحقيقة الأشياء فإنّ اللجوء إلى وسيلة اصطناعية تستطيع بها أن تراها لا يعادل بالتمام شعورك بأنك بالقرب منها. كنت أظنّ أنّ ما أراه لم يعد "لايرما" بل صورتها في الزجاج المكبر. ووضعت المنظار جانباً، ولكن ربّما لم تكن الصورة التي تستقبلها عيني، وقد قلّصها البعد، أكثر صحّة فأية من شخصيتي "لايرما" كانت الحقّة؟ أمّا فيما يخصّ البوح بحبّ "هيبرليت" فقد علّقت أهميّة كبيرة على تلك المقطوعة التي سيتفق لها فيها بالتأكيد نبرات أكثر إدهاشاً من تلك التي حاولت تخيلها في المنزل أثناء القراءة، وذلك قياساً على المعاني البارة التي كان يكشف لي زملاؤها عنها في كلّ لحظة في أجزاء أقلّ جمالاً. ولكنها لم تبلغ حتى النبرات التي ربما وجدتها "أونون" أو "أريسي"، فقد أمرت في مجلسه الإنشاد الترتيب كامل المقطع الذي اختلطت فيه صنوف تعارض متميزة إلى حدّ أن، ممثلة هيّنة الذكاء وحتى تلامذة تجهيز ما كانوا ليغفلوا أثرها. وقد ألقنتها على أية حال إلقاء سريعاً إلى حدّ أنّ فكري لم يع الرتبة المقصودة التي فرضها على الأبيات الأولى إلّا حينما بلغت البيت الأخير.

وأخيراً تفجر أولّ شعور لي بالإعجاب: لقد بعته تصفيق المشاهدين الحادّ الذي ضمنت إليه تصفيقي وأنا أحاول الإطالة فيه حتى تتفوق "لايرما" على ذاتها إقراراً بالجميل فأناكّد أنّني سمعتها في أحد أفضل أيامها. على أن الغريب في الأمر هو أن اللحظة التي ثارت فيها حماسة الجمهور كانت تلك، وهو ما علمته بعد ذاك، التي حظيت فيها "لايرما" بأفضل لُقية لها. فبعض الحقائق المتعالية فيما يبدو تبعث من حولها أشعة يحسّ بها الجمهور من ذلك مثلاً أنه حينما يقع حدث ما، حينما يحدث الخطر بجيش على الحدود أو تحل به الهزيمة أو ينتصر فإن الأخبار الغامضة التي تردنا

والتي لا يستطيع الرجل المثقف استخلاص الكثير منها إنما تبعث في نفس الجمهور انفعالاً يذهله ويتعرف فيه، بعدما يحيطه الخبراء علماً بحقيقة الوضع العسكري، إدراك الشعب لهذه "الهالة" التي تحيط بالأحداث الكبرى والتي تمكن مشاهدتها على بعد مئات الكيلو مترات. ويأتينا نبأ النصر إماماً بعد الأوان حينما تنتهي الحرب وإماماً في الحال بفضل ابتهاج البواب. ونكتشف لمحة عبقرية في تمثيل "لايرما" بعد سماعها بثمانية أيام عن طريق النقاد، أو في الحال بفضل الهاتفات في القاعة، ولما كانت معرفة الجمهور المباشرة تلك إنما تختلط بمئة غيرها مضللة جميعها فقد كان يتعالى آلياً يدفعه التصفيق الذي سبقه كما هو الأمر في العاصفة إذ يوالي البحر هياجه، بعدما اضطرب موجه اضطراباً كافياً، وإن لم تشتد الرياح من بعد. ومهما يكن من أمر فقد كان يبدو لي كلما زدت تصديقاً أن "لايرما" أفضل تمثيلاً. "هذه تعطي من نفسها على الأقل"، وتقول إلى جانبي امرأة أقرب إلى العامة، "وتقسو على ذاتها حتى الألم وتعدو، أرايت؟ ذلك هو التمثيل". وسعدت باكتشاف أسباب تفوق "لايرما" تلك، مع أنني لا أظن أنها تفسره أكثر مما تفعل صبيحة معجبة لفلان إزاء تفوق "الحوكنة" أو لوحة "بيرسيه" للرسم "بنفونو" (Benvenuto): "إنها محكمة الصنع على أية حال وكلها من ذهب ومن نوع فاخر وأي إتقان فيها"، وشاركت بنشوة في احتساء الرديء من حمرة تلك الحماسة الشعبية بيد أنني أحسست مع ذلك، وبعد إسدال الستار، بخيبة أمل إن لم تكن المتعة التي طالما اشتيتها أعظم، وفي الوقت نفسه بالحاجة إلى إطالتها وأن لا أهجر إلى الأبد لدى مغادرتي القاعة حياة المسرح تلك التي عشتها على مدى بضع ساعات والتي لعني كنت سأبتعد عنها كأنما في رحيل إلى المنفى وأنا أعود مباشرة إلى المنزل لو لم أمل أن أسمع فيه الكثير عن "لايرما" على لسان أحد المعجبين الذي كنت أدين له بسماحهم لي بالذهاب إلى مسرحية "فيدر"، عثيت السيد "دو نوربوا".

وقد قدّمني له قبل العشاء والدي الذي دعاني لهذا الغرض إلى حجرته. ولدى دخولي نهض السفير ومدّ لي يده وحنى قامته الفارعة وصوّب إليّ يامعان عينيه الزرقاوين. ولما كان الأجانب العابرون الذين يقدّمون إليه حينما كان يمثل فرنسه - وحتى المغنون المعروفون منهم - من الشخصيات المرموقة التي يعلم حينذاك أنه يستطيع أن يقول فيما بعد ساعة يُذكر اسمهم في باريس أو "بيترزبورغ"، إنه يذكر تماماً الأهمية التي قضّاها معهم في "ميونيخ" أو "صوفيا"، فقد تعود أن يعرب لهم بلطفه عن الارتياح الذي يلاقيه في تعرفه بهم. ولما كان إلى ذلك قانعاً أن المرء يكتسب في العيش في العواصم، بالاحتكاك بالشخصيات المرموقة التي تحتازها وبعادات الشعب الذي يقطن فيها، معرفة معمقة لا تزود بها الكتب بالتاريخ والجغرافية وأعراف الأمم المختلفة والحركة الفكرية في أوروبا، فقد كان يمارس على كل وافد جديد قدرات الملاحظة الحادة لديه كيما يعرف في الحال مع أي نوع من الرجال يتعامل. لم تعهد إليه الحكومة منذ زمن طويل بوظيفة في البلاد الأجنبية، إلا أن عينيه كانتا تشرعان، ما إن يتم تقديم أحدهم له، وكأنما لم تتبّلغا إحالته على الاستداع، في ملاحظته ملاحظة مثمرة فيما يحاول أن يظهر من خلال كامل سلوكه أن اسم الغريب ليس مجهولاً لديه. ولذلك لم يكفّ، وهو يحدثني بطيبة وبتعاطف الرجل الذي يعرف مدى

خبرته الواسعة، عن النظر إليّ بإمعان وبفضول ذكيّ ولفائده الشخصية كما لو كنت من بعض الأعراف الغربية أو، الآثار الجليّة الفوائد أو نجمة تقوم بحولة. وقد برهن على هذا النحو فيما يخصني عن جليل تودّد الحكيم "منتور" ^(١) والسعي الفضوليّ لدى الشاب "أنكارسيس" ^(٢).

لم يرني بشيء البتة لصالح "مجلة العالمين"، ولكنّه طرح عليّ عدداً من الأسئلة حول حياتي ودراستي وحول ميولي التي ذكّرت للمرة الأولى في حضرتي وكأننا كان من المعقول اتباعها فيما ظننت من واجبي حتى ذاك مقاومتها. وبما أنّها كانت تدفعني باتجاه الأدب فإنّه لم يصرفني عنه بل حدّثني فيه على العكس باحترام وكأننا عن إنسان جليل وظريف تحفظ عن حلقة المختارة في "رومه" أو "دريسدن" أفضل ذكرى وتأسف لندرة لقائه من جرّاء ضرورات الحياة. كان يبدو وهو يتسم ابتسامة تقرب أن تكون مانحة، وكأنّه يحسدني الفترات الحلوة التي يوفّرها لي أنا الأوفر منه حظاً وحرية. على أن الألفاظ التي كان يستخدمها كانت تظهر لي الأدب شديد الاختلاف عن الصورة التي سبق أن رسمتها عنه لنفسه في "كومبريه" وأدركت أنّي كنت مرتين على حق في التحلي عنه. لقد تبينت حتى ذاك أنّي لا أملك موهبة الكتابة فحسب؛ أمّا الآن فقد نزع السيّد "دو نوربوا" من نفسي حتى الرغبة فيها. وأردت أن أشرح له ما سبق أن حلمت به. ولعلني كنت أواخذ نفسي. وأنا أرتجف لشدة انفعالي، إن لم تجع أقوالي المرادف الصادق أبعد الصدق لما أحسست ولم أحاول أن أصوغه لنفسه في يوم؛ وذلك يعني أن أقوالي لم تتصف إطلاقاً بالوضوح. كان يحافظ السيّد "دو نوربوا"، حينما يُسّط له أمر ما، بجمود في سمات الوجه تامّ كما لو أنّك تحدّثت أمام تمثال نصفي قديم - وأصم داخل متحف للمنقوشات الحجرية، ربّما من جرّاء عادة مهنية، وربّما بفضل الهدوء الذي يكسبه كلّ رجل ذي خطر تلمس مشورته فيدع محدّته، وهو يعلم أنّه سيحفظ هو بزمان الحديث، يتلجج ويحاول ويجهد ما شاء ذلك، وربّما أيضاً ليبرز ميزة رأسه (وهو يوناني فيما يظنّ علي الرغم من السالفين الكبيرين)، وفجأة يسقط صوت السفير الذي يرد عليك كمطرقة الموظف المكلف بالتخمين أو كنبوءة في معبد "ذلفي"، فيؤثّر فيك إلى حدّ كبير بقدر ما لم يسمح لك شيء في وجهه أن تخمن نوع الانطباع الذي خلفته فيه ولا الرأي الذي يزمع أن يديه.

قال لي فجأة كما لو تم الفصل في القضية ويعد ما تركني أتلعثم قبالة عينين ثابتتين لا تتحولان لحظة عني: "لدي بالضبط ابن أحد أصدقائي الذي يشبهك بعد تبديل ما يجب تبديله" (واتخذ ليحدثني عن ميولنا المشتركة اللهجة المطمئنة نفسها التي يتخذها لو كانت استعدادات لا للأدب بل للرثية وشاء أن يبرهن لي أنها لا تقتل صاحبها) "ولذلك فضل ترك دوائر وزارة الخارجية مع أنّه سبق لوالده أن مهد له الدرب وشرع ينتج غير عابئ بالقليل والقال. وليس بالتأكيد ما يدعو للندم. فقد أصدر منذ سنتين - وهو على أية حال أكبر سنّاً منك بكثير بالطبع - مؤلفاً يدور حول الشعور باللانهاية على الضفة الغربية من بحيرة "فيكتوريا نيانزا" وكتباً أقل شأنًا في هذا العام، ولكنه خطّ

(١) Mentor: اسم المستشار الحكيم الذي تولي شئون "تيلما خوس" ابن "اوليسيو" أحد أبطال الألياذة. وأصبحت الكلمة تعني الهادي والمستشار المجرب الحكيم.

(٢) Anacharsis: فيلسوف من القرن السادس قبل الميلاد عده قدماء الإغريق من بين الحكماء السبعة وهو رمز لرجل الطبيعة الذي لم تفسده الحضارة.

بريشة رشيقة ولاذعة أحياناً، حول البندقية السريعة الطلقات في الجيش البلغاري وقد ضمنا له نجاحاً منقطع النظير. لقد قطع حتى الآن شوطاً ملحوظاً وليس من الرجال الذين يتوقفون في سيرهم، وإني أعلم أن اسمه قد ورد مرتين أو ثلاث مرات في سياق الحديث، وعلى نحو ليس فيه ما هو في غير صالحه، في أكاديمية العلوم الأخلاقية، دون أن تؤخذ فكرة الترشيح في الاعتبار. وقصارى القول إنه احتل بالقوة مكانة مرموقة دون أن نستطيع القول إنه أصبح في الأوج، وإن النجاح الذي لا يقتصر دوماً على المضطربين والفوضيين وصانعي المشاكل، الذين هم على الدوام تقريباً هينو الوجدان، قد كلل جهده.

وأبدي والدي، وهو يراني منذ ذاك عضواً في الأكاديمية بعد بضع سنوات، أبدي ارتياحاً بلغ به السيد "دو نوربوا" الذروة حينما قال لي بعد لحظة تردد بدا فيها وكأنه يزين نتائج فعلته، قال وهو يمدّ إليّ بطاقته: "هياً إلى زيارته من قبلي فإنه يستطيع تقديم نصائح مفيدة لك"، فسبب لي من جراء هذه الكلمات اضطراباً مولماً كما لو أخبرني بأنهم يرسلونني في الغد بحارا على متن مركب شعاعي.

كانت عمتي "ليونى" قد جعلتني وريثاً لكامل ثروتها النقدية تقريباً إلى جانب الكثير من الأغراض وقطع الأثاث المربكة - مظهرة بذلك بعد وفاتها حباً لي ما خالجتني فكرته إطلاقاً في أثناء حياتها - واستشار والدي، وكان عليه أن يدير هذه الثروة حتى بلوغى سن الرشد، السيد "دو نوربوا" حول عدد من التوظيفات، فأشار بسندات قليلة الريع كان يحكم أنها من متانة خاصة كalcروض الإنكليزية المدعمة وقرض الـ ٤٪ الروسي. قال السيد "دو نوربوا":

"إن لم يكن الدخل عالياً جداً بالنسبة إلى هذه الأسهم التي هي من الطراز الأول فإنك متيقن على الأقل أنك لن تشهد في يوم هبوطاً في رأس المال."

وروى له والدي بالإجمال عما سبق أن اشتراه فيما يخص الباقي، وعلت شفتي السيد "دو نوربوا" ابتسامة تهنية خفية حتى لا تدرك: فقد كان شأن جميع الرأسماليين يقدر أن الثروة أمر مرغوب فيه ولكنه يرى من حسن الذوق ألا يهنئ فيما يخص الثروة المملوكة إلا بإشارة تواطؤ تكاد لا تراها. وكان يرى من حسن الذوق، من جهة أخرى، وهو ذو ثروة ضخمة، أن يبدو وكأنه يحكم أن دخول الغير الأدنى باهظة، ولكن له مع ذلك عودة مغتبطة مرتاحة على رجحان دخوله. على أنه لم يتردد بالمقابل في تهنية والدي على "تركيبة" سندات المالية وهي من ذوق سليم جداً ومرهف جداً ورفيع جداً. لكننا كان يخص العلاقات بين أسهم البورصة وحتى أسهم البورصة في حد ذاتها بما يشبه المزية الجمالية. قال السيد "دو نوربوا" عن بعض منها جديد إلى حد ما ومجهول مما حدثه والدي عنه، قال شأنه شأن أناس قرؤوا كتباً كنت تظن أنك تعرفها وحدك "بلى، لقد لهوت بعض الوقت بمتابعته في جدول السعار وكان مغرباً، قالها بابتسامة المشترك المأخوذ بعد فوات الأوان والذي قرأ آخر رواية في مجلة قراءة مجزأة وعلى شكل مسلسل، "لن أشير عليك بالامتناع عن الاكتتاب بالإصدار الذي سيُطرح عما قريب إنه مغرٍ لأن الأسهم تُعرض عليك بأثمان

مغرية. "أما بالنسبة إلى بعض الأسهم القديمة فإن والدي الذي لم يعد يذكر أسماءها بدقة، وهي سهلة الاختلاط بأسماء أسهم مشابهة، فتح على العكس درجاً وأبرز الأسهم نفسها للسفير. وقد سحرني منظرها إذ كانت مزينة بسهام كاتدرائيات وبأشكال رمزية شأن بعض المنشورات الرومانطيقية القديمة التي سبق أن تصفحتها فيما مضى. إن كل ما كان من زمن واحد يشابهه، فالقنانون الذين يضعون الرسوم الإيضاحية لقصائد حقبة معينة هم الذين تستخدمهم الشركات المالية لأغراضها. وليس ما يعيدك بالفكر إلى بعض ملازم من كتاب "سيّدة باريس" وبعض مؤلفات "جيرار دو نيرفال"، على نحو ما كانت معلقة على واجهة دكان السمانة في "كومبريه" مثل سهم اسمي لشركة المياه في إطاره المثلث المزدهر الذي كانت تحمله آلهة نهريه.

وكان والدي يدي إلى نوع الذكاء الذي أتمتع به ازدهاء يخفف منه الحنان إلى حد كاف ليحيى حكمة عامة على كل ما أفعل من قبيل التسامح الأعمى. ولذلك لم يتردد في إرسالي للبحث عن قصيدة صغيرة منثورة صغتها فيما مضى في "كومبريه" لدى عودتي من إحدى النزعات. وكنت قد كتبتها بحماسة بدا لي أنها ستشبعها حتماً في نفوس من سيقروها. ولا بد أنها لم تلق حظوة لدى السيد "دو نوربوا" لأنه أعادها إليّ دون أن ينس بكلمة.

وجاءت والدتي، وكانت شديدة الاحترام لمشاغل والدي، تسأل بوجل إن كانت تستطيع أن تأمر بتقديم الطعام. لقد كانت تخشى أن تقطع حديثاً لعله لاحق لها في التدخل فيه. فقد كان والدي يذكر المركز في كل لحظة بإجراء ضروري قرراً دعمه في جلسة اللجنة المقبلة، ويفعل ذلك باللهجة الخاصة التي يتخذها في وسط مختلف - مثلما يفعل تلميذا مدرسة - زميلان فيما بينهما تنشئ لهما عاداتهما المهنية ذكريات مشتركة لا ينفذ الآخرون إليها فيعتذران لهم أن يتذكراهما في حضرتهم.

على أن الاستقلال التام الذي بلغه السيد "دو نوربوا" في عضلات وجهه كان يمكنه من الإصغاء دون أن يبدو عليه أنه يسمع ويبلغ الأمر بوالدي حد الاضراب فيقول للسيد "دو نوربوا" بعد مقدمات طويلة: "لقد خطر لي أن أطلب رأي اللجنة. "حينئذ كانت تنطلق من وجه الأرستقراطي البارح الذي ظلّ يحتفظ بجمود عازف لم يحن دوره ليعزف القسم الخاص به الجملة التي بوشر بها، تنطلق على وثيرة واحدة بصوت حادّ وكأنها تسير إلى نهايتها فحسب ولكنما عهد بها هذه المرة لجرس آخر: "التي لن تتردد بالطبع في عودتها، ولا سيما أن أعضاءها معروفون شخصياً لديك ويستطيعون التحرك بسهولة." ولم يكن ختام الجملة هذا في حدّ ذاته أمراً خارقاً بالطبع، ولكن الجمود الذي سبقه جعله يبرز بصفاء الكريستال، بما يشبه المكر المفاجئ لتلك الحمل التي يرد بها البيانون، بعدما ظلّ صامتاً حتى ذلك، يردّ في الوقت المناسب في كونشرتو لموزار على "التشيلو" الذي تم لك سماعه منذ قليل.

وقال لي والدي، فيما كنا نتنقل إلى المائدة، كيما أتألق وظناً منه أن حماسي ستجعلني أفضل موقعاً في عيني السيد "دو نوربوا": "أترك سررت بحفلة ما بعد الظهر؟" وقال وهو يتلفت صوب

الدبلوماسي وبلهجة التلميح إلى الماضي، تلك التقنية الزاجرة بالأسرار التي كان يتخذها كما لو كان الأمر أمر إحدى جلسات اللجئة: "لقد ذهب منذ هنيهة لسماع "لايرما". وتذكر أننا تحدثنا عن ذلك فيما بيننا."

- "لا بد أنك فُتنت، ولا سيما إن كنت تسمعها للمرة الأولى لقد خشي والدك من العاقبة التي كان يمكن أن تجرّها تلك "الطلعة" الصغيرة على حالتك الصحية لأنك ضعيف النية ونحيل بعض الشيء فيما أظن. ولكني طمأنته، فلم تعد مسارح اليوم ما كانت عليه منذ عشرين سنة فقط. فلديك مقاعد مريحة تقريباً وجوّ متجدّد مع أننا لا بد أن نفعل الكثير للحاق بالمانيه وانكثره اللتين سبقتنا إلى حدّ بعيد في هذا المجال وفي مجالات أخرى كذلك لم أشاهد السيّد "لايرما" في مسرحية "فيدر" ولكني سمعت من يقول إنها رائعة فيها. لقد فُتنت بالطبع؟"

كان لابد أن يمتلك السيّد "دو نوربوا"، وهو أشد ذكاء مني ألف مرة، تلك الحقيقة التي لم أستطع استخلاصها من تمثيل "لايرما"، وسوف يكشفها لي. وسأرجوه في ردّي على سؤاله أن يقول لي ما هو قوام تلك الحقيقة، ويرر، بذلك، الرغبة التي داخلتنني لمشاهدة الممثلة. لم يكن لدي سوى لحظة وكان لابد من الإفادة منها وتوجيه أسئلتي نحو النقاط الأساسية ولكن ما عساها كانت؟ وصرفت كامل انتباهي إلى انطباعاتي المشوشة جداً ولم يخالحنني البتة أن أحمل السيّد "دو نوربوا" على الإعجاب بي، بل على الحصول منه على الحقيقة المتمنّاة فلم أحاول أن أجعل محلّ اللقطات التي خائننتني عبارات قائمة وتلعثمت وأخيراً اعترفت أمامه أنني أصبت بخيبة وذلك لمحاولة حثه على الإعلان عن مواطن الروعة لدى "لايرما".

وصاح والدي وقد أزعجه الانطباع المؤسف الذي كان يمكن أن تخلفه في صدر السيّد "دو نوربوا" الإقرار بتقصيري عن فهمها: "كيف ذلك؟ كيف تستطيع أن تقول إنك لم تستمتع؟ لقد روت لنا جدّك أنك ما كنت تضيع كلمة مما تقوله "لايرما"، وعيناك شاخصتان إليها، وأنت كنت الوحيد في القاعة على ذلك النحو".

- "أجل كنت أصغي خبير إصغاء لأعلم ما الذي لديها من أمر مرموق. لاشك أنها جيدة جداً.."

- "إن كانت جيدة جداً فماذا تنغي أكثر من ذلك؟"

وقال السيّد "دو نوربوا" وهو يلتفت باجتهاد صوب والدتي كي لا يدعها حارج نطاق الحديث ولكي يؤدي بصدق واجب التهذيب إزاء ربة البيت:

"إن من بعض ما يسهم بالتأكيد في نجاح السيّد "لايرما" الذوق الرفيع الذي تضعه في انتقاء أدوارها والذي يعود عليها بنجاح لالس فيه وجدير بالتقدير. إنها نادراً ما تمتل أدواراً صالحة. أرايت؟ لقد تصدّت لدور "فيدر". إنها تبدي هذا الذوق كذلك في لباسها وفي تمثيلها. ومع أنها قامت بحولات عديدة ومتمرة في انكثره وأميركا فلن أقول عن سوقية "جول بول" (John Bull).

قامت بجولات عديدة ومثمرة في انكلتره وأميركا فلن أقول عن سوقية "جول بول" (John Bull). فلعل في ذلك ظلماً أقله لانكلتره في عصر الملكة "فيكتوريا"، بل أقول عن سوقية العم سام إنها لم تؤثر فيها، فلا ألوان على الإطلاق ولا صيحات مبالغ فيها. أضف إلى ذلك الصوت الرائع الذي يخدمها أحسن الخدمة والذي يتلاعب به بما يخلب الألباب كأنما هي، ويغريني القول إلى حد ما، موسيقية!."

لم يكف اهتمامي بتمثيل "لايرما" عن التعاطف منذ انتهاء العرض لأنه لم يعد يعاني من ضغط الواقع وحدوده، ولكنني كنت أشعر بحاجة العثور على ما يفسره. ثم إنه انصب إلى ذلك بالقوة نفسها أثناء تمثيل "لايرما" على كل ما كانت تقدمه لناظري وأذني في وحدة الحياة التي لا تنقسم. فلم يفصل شيئاً ولا ميز؛ ولذلك فقد أسعده أن يكتشف سبباً معقولاً في هذا المديح الموجه إلى بساطة الفنانة وذوقها السليم، فكان يجتذبها إليه بقدرته على الامتنعاص ويستولي عليها كما يفعل تفاؤل رجل ثمل بأعمال جاره التي يرى فيها مدعاة للتأثر. وكنت أقول في نفسي: "حقاً ما أجمل صوتها وما أبعدها عن الصراخ وأية أثواب بسيطة وأي ذكاء في اختيارها لمسرحية "فيدر" لا، لم يخب ظني"

وكان أن ظهر لحم البقر بالجزر وقد مدته يدا "ميكيل انجلو" على بلورات ضخمة من المرق الهلامي شبيهة بكتل من المرو الشفاف. وقال السيد "دو نوربوا": "لديك رئيس طهاة من الطراز الأول يا سيدتي، وليس هذا بالأمر القليل، وإني أعرف أنا الذي كان عليه في الغرب أن يحافظ على مستوى معاشي معين إلى أي مدى يبدو من الصعب العثور على رئيس طهاة كامل الصفات. إنها لوليمة حقيقية تلك التي دعوتنا إليها."

والحقيقة أن "فرنسواز" أنفقت جهداً لم تعد تنفقه حينما نكون وحدنا، وعادت فلقبت طريقتها التي لا تدانيها أخرى في "كومبريه" وقد أثارها أشد الإثارة طموحها أن توفق في إعداد عشاء ملأته أخيراً صعوبات جديرة بها لمدعو ذائع الصيت.

- "ذلك ما لا يمكن الحصول عليه في الملامي الليلية، وأقصد أفضلها: لحم بقري لا يشبه المرق الهلامي فيه الصمغ وتشرب اللحم فيه عطر الجزر، يالروعة!" وأضاف يشير أنه يرغب أيضاً في المرق: "اسمحوا أن أعود إليه. والآن تداخلني الرغبة في الحكم على رئيس طهاتك في طبق مختلف تماماً. وددت مثلاً أن أراها في ميدان صنف "ستروغانوف" بلحم البقر."

وأتحفنا السيد "دو نوربوا"، ليسهم هو الآخر في بهجة الطعام، بروايات مختلفة كثيراً ما كان يتمتع بها زملاءه في السلك فيذكر تارة جملة طويلة مضحكة قالها سياسي تعود هذا النمط وكان يطيل فيها ويحشوها بالصور غير المترابطة، وطوراً عبارة مقتضبة لدبلوماسي يفيض دقة واتزان. على أن المعيار الذي كان يميز بالنسبة إليه، والحق يقال، هذين الصنفين من الجمل ما كان يشبه في شيء المعيار الذي كنت أطبقه على الأدب، فقد كان يفورني الكثير من الفروق الدقيقة، وما كانت

صنف الرجال الذي ربما قال في الأعمال الفنية التي كنت أحبها: "هل تفهم، أنت؟ أما أنا فأني أقر بأنني لا أفهم، فلست مطلعاً"، ولعلني كنت أستطيع أن أرد له بضاعته، فما كنت أدرك النكتة أو الحماقة ولا البلاغة أو اللغو الفارغ مما كان يجده في رد أو قول، وكان غياب أي سبب ظاهر يبدو هذا الأمير من جرائه رديفاً وذاك حسناً، يجعل من هذا النوع من الأدب شيئاً أكثر خفاء وأكثر إبهاماً من أي شيء آخر في نظري ولكنني تبينت أن ترداد ما يراه جميع الناس لم يكن في دنيا السياسة علامة المستوى الأدنى بل علامة التفوق. فحينما كان السيد "دو نوربوا" يستخدم بعض العبارات التي تملأ صفحات الجرائد وينطق بها بقوة كنت تحس أنها أصبحت فعلاً من جراء أنه استخدمها بحسب، فعلاً ربما استثار الشروح.

كانت والدتي تعلق أهمية كبيرة على "سلطة" الأنااس والكفاءة. ولكن السفير بعدما أعمل للحظة نفاذ عينيه في الصحن أكله وظل يحيط نفسه بأسرار الدبلوماسيين ولم يفصح لنا عن فكره، وألحت والدتي كيما يسكب منه ثانية، فامتثل السيد "دو نوربوا" ولكنه اكتفى أن يقول عوضاً عن المديح المأمول: "ها إني أخضع للأمر يا سيدتي، بما أنني أرى أنه قرار قيصري حقيقي تتخذينه."

وقال له والدي :

- "قرأنا في الصحف أنك تحدثت طويلاً مع الملك "نيودوز".

- "لقد تطف الملك بالحقيقة، وهو على قدر نادر من ذاكرة الوجود، فتذكر إذ وآني في القاعة أنني تشرفت بمشاهدته لعدة أيام في بلاط "بافاريه" حين لم يكن يفكر بعد بعرشه الشرقي (وتعلم أن مؤتمراً أوروبياً دعاه إلى ذلك وقد تردد كثيراً في قبوله، إذ حكم أن هذا السلطان لا يوازي إلا في القليل العرق الذي ينتمي إليه وهو أكرم عرق في أوروبا بأسرها على صعيد الشعائر). وقد أقبل أحد معاونيه يقول لي أن أذهب لتحية جلالته وقد سارعت بالطبع إلى امتثال أمره."

- "وهل كنت راضياً عن نتائج إقامته؟"

- "تمام الرضى فلقد كان من الممكن التخوف إزاء الطريقة التي يستطيع بها ملك لا يزال في ريعان الشباب أن يتخلص من هذا المارق الصعب ولاسيما في أوضاع يمثل هذه الدقة. ولقد كنت أولي حس الملك السياسي فيما يخصني، ثقة تامة ؛ ولكنني أقر بأن آمالي تم تجاوزها، فإن الكلمة التي ألفاها في الإنليزية لدى شرب الأنخاب والتي ألفها بنفسه من الكلمة الأولى وحتى الكلمة الختامية حسب معلومات وردتني من مصدر موثوق تماماً كانت على مستوى الاهتمام الذي أثاره في كل مكان. إنها بكل بساطة ضربة معلم ؛ صربة جريفة، إني مقر بذلك، ولكنها جراءة بررها ذلك الحديث تمام التبرير، إن للتقاليد الدبلوماسية حسناتها ولكنها أفصت في تلك الحالة إلى أن يعيش بلده وبلدنا في جو من الهواء الحبيس الذي أصبح خانقاً.

ومن بين طرق تحديد الهواء، ومن بين تلك التي لا يمكن أن يوصى بها والتي كان يستطيع الملك "تيودوز" مع ذلك أن يسمح لنفسه بها، كسر زجاج النوافذ وقد فعل ذلك باغتيال فتن جميع الناس، وبصحة في التعبير عرف فيها الناس في الحال سلالة الأمراء المثقفين التي ينتمي إليها بوالدته. فالأكيد أنه حينما تحدث عن "القرايات الفكرية" التي تربط بلده بفرنسه فقد جاء التعبير موفقاً إلى أبعد حد مهما بدا قليل الاستعمال في مفردات أرباب السفارات وأضاف وهو يوجه الحديث إليّ. "وأنت ترى أن الأدب لا يلحق بك الأذى حتى في دنيا الدبلوماسيين وحتى على سدة العرش، والأمر تمت ملاحظته منذ زمن طويل، إني مقر بذلك، فلقد أضحت العلاقات بين الدولتين ممتازة، إلا أنه كان لابد أن يقال ذلك. كان الجميع في انتظار تلك الكلمة وقد اختيرت أروع ما يكون الاختيار ورأيت مدى تأثيرها، إني أصفق لها، فيما يخصني، من صميم الفؤاد."

- "لابد أن صديقك السيد "دو فوغوير" الذي كان يهنيء للتقارب منذ سنوات قد ابتهج لذلك."

- "ولاسيما أن جلالتة الذي تعود مثل هذه الأمور قد حرص على مفاجأته، وكانت المفاجأة كاملة على أية حال بالنسبة إلى الجميع بدءً بوزير الخارجية الذي لم ترقه فيما قيل لي وقد أجاب أحدهم، وكان يحدثه في الأمر، أجاب بأشد الوضوح وبصوت عال يسمح بأن يسمعه الذين كانوا بالقرب منه: "لم يستشرنني أحد ولا تم إخطاري"، يشير بذلك إشارة واضحة إلى أنه يرفض أية مسؤولية في هذا الحدث. وينبغي الإقرار بأن هذا الأخير أثار ضجة كبيرة"، وأضاف بابتسامة ساخرة على شفتيه: "ولن أحرز على التأكيد بأن نقرأ من زملائي ممن يولف مبدأ بذل أدنى جهد بالنسبة إليهم، فيما يبدو، قمة القوانين لم تتبدد طمأنينتهم. أما فيما يخص "فوغوير" فإني أعلم أنه تعرض لهجوم جديد من جراء سياسته في التقارب مع فرنسه ولابد أنه عانى الكثير لذلك وبمقدار ما كان حساساً رائع الفؤاد. وبوسعي أن أشهد بذلك أفضل شهادة، مع أنه يصغرنني بكثير، لأنني ترددت عليه كثيراً وإننا صديقان منذ فترة طويلة وأعرفه أتم المعرفة. ومن ذا لا يعرفه؟ لقد كان صافي الروح، في صفاء الكريستال، وهو العيب الوحيد على أية حال الذي يمكن أن يؤخذ عليه، فليس ضرورياً أن يكون فؤاد الدبلوماسي في مثل شفافية فؤاده. ولكن ذلك لا يحول دون أن يتحدثوا عن إرساله إلى روما، وتلك ترقية كبيرة ولكنها حمل ثقل على أنني أعتقد أن "فوغوير" وأقولها بيننا، ربما سعد جداً بذلك وما طالب على الإطلاق بإقصاء تلك الكأس عنه مهما كان بعيداً عن الطموح. وربما اجترح العجائب هناك؛ إنه مرشح مجلس الدولة في الفاتيكان، وإني أرى، فيما يخصني أنه يلائم تماماً، هو الطويل الباع في الفن، قصر "فارنيزيه" ومعرض "كاراش"، ويفترض فيما يبدو على الأقل أنه لا يمكن أن يكن أحد له البغضاء، بيد أن حول الملك "تيودوز" حاشية كاملة ترتبط في كثير أو قليل بشارع "غليوم" وتسلس القيادة لإيحائه، وقد حاولت في جميع الطرق أن تثير في وجهه المصاعب. ولم يقع على "فوغوير" أن يواجه دسائس الكواليس فحسب بل كذلك شتائم صحفيين ماجورين كانوا الأوائل فيما بعد، وهم في جين كل صحفي ماجور، في طلب الأمان^(١)

(١) وردت بالعربية في متن النص

ولكنهم لم يتورعوا حتى ذاك الحين من اعتماد التهم السخيفة التي جادت بها جماعة من عديمي الأخلاق ضد ممثلنا. وقد رقص أعداء "فوغوير" طوال شهر من حوله رقصة سلخ جلد الرأس. قال السيد "دو نوربوا" ذلك وهو يبرز بقوة الكلمة الأخيرة. ثم أضاف بلمهجة أشد حزماً وبنظرة قاسية إلى حد أننا أمسكنا لحظة عن الطعام: "ولكن الرجل المطلع يساوي اثنين، وقد دفع تلك الشتائم بقدمه. "الكلاب تنبح والقافلة تسير" حسبما يقوم مثل عربي جميل. "وتوقف السيد "دو نوربوا"، بعدما جاء بهذا الشاهد، لينظر إلينا ويحكم على الأثر الذي خلفه فينا، وكان عظيمًا، فلقد كان المثل معروفاً لدينا وقد حل في تلك السنة لدى الرفيعي الشأن من الناس محل هذا المثل الآخر: "من يزرع الرياح يحصد العاصفة"، وكان بحاجة إلى الراحة فليس من طينة لا تعرف الكلال وهو طويل العمر كهذا الآخر "الشغل لدى ملك بروسيا"^(١). ذلك أن ثقافة هؤلاء القوم البارزين كانت متناوبة ومقسمة بعامة على ثلاث سنوات، والأكد أن الشواهد التي من هذا القبيل والتي كان يجيد السيد "دو نوربوا" في تزويق مقالات "المجلة" بها لم تكن ضرورية لتبدو هذه المقالات متينة وحسنة الاطلاع فقد كان كافياً، ولو خلعت من الزينة التي تضيفها عليها، أن يكتب السيد "دو نوربوا" في الوقت المناسب - وما كان يفوت عليه الأمر: - "ما كانت حكومة "سان جيمس" آخر من أحس بالخطر، أو "كان الاضراب كبيراً في "بوتوشانتر" حيث كانوا يتابعون بنظرات قلقلة سياسة الملكية ذات الرأسين الأنانية والحادقة معاً، "أو" وانطلقت من "مونتشيوريو" صيحة إنذار" أو "هذا اللعب المستمر على الحبلين يطابق تماماً طريقة "ساحة بال".

وسرعان ما كان يتعرف القارئ غير المطلع خلف هذه العبارات الديبلوماسية العريق ويشيد به. إلا أن ما حمل على القول: إنه كان فوق ذلك وإنه حاز ثقافة عالية فقد كان اللجوء المعلن إلى شواهد ظل نموذجها الأمثل آنذاك من طراز: "قدم لي سياسة حكيمة أقم لك اقتصاداً متيناً كما تعود أن يقوم البارون لويس". (ولم يكن قد تم استيراد هذا الآخر من المشرق: "إن النصر حليف من استطاع من الخصمين أن يتحمل العذاب ربع ساعة أكثر من الآخر، مثلما يقول اليابانيون.") وقد استطاع صيت المثقف الكبير ذاك بعدما اقترن بموهبة في الدس حقيقية تتخفي خلف قناع اللامبالاة أن يضمن مقعداً للسيد "دو نوربوا" في أكاديمية العلوم الأخلاقية. وهناك من ظن من الناس أنه لن يكون في غير محله على مقاعد الأكاديمية الفرنسية يوم لم يتردد، بغية الإشارة إلى أننا إنما نستطيع التوصل إلى وفاق مع انكلترة بتوثيق العلاقة الروسية، لم يتردد أن يكتب: "فليكن معلوماً في مقر الخارجية الفرنسية وليدرج منذ الآن في جميع كتب الجغرافية التي تبدو ناقصة بهذا الخصوص، وليتم بدون شفقة رفض أي مرشح للبيكالوريا لا يعرف أن يقول ما يلي: لئن كانت جميع الدروب تقود إلى رومه فإن الطريق التي تربط باريس بلندن تمر في مقابل ذلك بالضرورة بـ "بيترزبورغ". وأردف السيد "دو نوربوا" يخاطب والدي "وقصارى القول إن "فوغوير" ضمن لنفسه بذلك نجاحاً عظيماً يجاوز حتى ما توقعه، فقد كان يتوقع خطاب انتخاب لائقاً (وهو أمر عظيم جداً في أعقاب السحب التي سادت السنوات الأخيرة) ولا شيء سواه. وقد أكد لي العديد ممن كانوا في عداد الحاضرين أنه لا يمكن لدى قراءة هذا الخطاب تبين الأثر الذي خلفه إذ تم إلقاؤه وتفصيله على نحو

(١) العمل مقابل لا شيء

رائع على لسان الملك الذي يجيد فن القول والذي كان يستلقت النظر، ساعة يقول، إلى جميع المقاصد وجميع الدقائق، وقد جاء من روى لي بهذا الصدد واقعة مثيرة إلى حد ما تبرز مرة أخرى لدى الملك "تيودوز" ظرافة الشباب التي يستميل بها القلوب. لقد أكدوا لي أن جلالة، لدى تلفظه بالضبط بكلمة "القراءة الروحية" التي كانت بمختصر القول الابتكار الضخم في الخطاب والتي ستظل لفترة طويلة، كما ستري، موضوع تعليقات السفارات، لما توقع ابتهاج سفيرنا الذي كان سيلقى فيها الترويج الصحيح لجهوده، وربما أمكن القول لحلمه، وما يظنه برجيز العبارة عصا ماريشالته، استدار قليلاً نحو "فوغوير" وصوب إليه نظرة آل "أوتينغن" الأخاذة وأبرز لفظة "القراءة الروحية" تلك التي أحسن اختيارها وكانت اكتشافاً حقيقياً بلهجة تبين للجميع أنها استخدمت عن دراية تامة ومعرفة أكيدة. ويبدو أن "فوغوير" صادف مشقة في السيطرة على انفعاله وإني أقر بأنني أفهمه إلى حد ما. وقد أسر لي شخص خليق بأن يصدق بأن الملك اقترب من "فوغوير" بعد العشاء، حينما تحلق الناس من حوله، وقال له بصوت خافت: "هل أنت راض عن تلميذك أيها المركز العزيز؟" والأكيد، يقول السيد "دو نوربوا" إن خطاباً من هذا القبيل قد فعل أكثر من عشرين سنة من المفاوضات لتوثيق عرى "القراءة الروحية" بين البلدين، حسب تعبير "تيودوز" الثاني الجميل. إنها لا تعدو كونها لفظة، إن شئت، ولكن هيا انظر أي نجاح أصابت وكيف ترددها الصحافة الأوروبية بأسرها وأي اهتمام تثير وأية رنة جديدة تنبعث منها. وإنها على أية حال من صميم أسلوب السلطان، أنا لن أذهب إلى حد القول بأنه يجد في كل يوم درراً خالصة شبيهة بهذه بيد أنه يندر أن لا يدع في خطاباته المدرسة، بل وحتى في نزق الحديث. ما يشير إلى أوصافه - كدت أن أقول إنه يذيلها بتوقيعه - بكلمة تنطلق مفتضة جارحة. وإن عدائي لكل تحديد في هذا الاتجاه ليقبل من فرص اتهامي بالتحيز في هذا الموضوع، فصنوف التجديد هذه خطيرة تسع عشرة مرة من عشرين.

وقال والدي: "أجل، لقد اعتقدت أن برقية امبراطور ألمانيا الأخيرة لم توافق ذوقك."

ورفع السيد "دو نوربوا" عينيه إلى السماء كمن يقول: آه يا له! "إنها فعلة نكران للجميل تلك أكثر من جريمة، إنها خطيئة غباؤها سوف أصفه بضخامة الأهرام! وإن لم ينبه أحد إلى ذلك فإن الرجل الذي طرد "بيسمارك" قادر أن يستبعد شيئاً فشيئاً كامل سياسة بيسمارك وتكون إذ ذاك القفزة في المجهول."

- "وقد قال لي زوجي، يا سيدي، إنك ربما ذهبت به ذات صيف إلى إسبانيا، إنني شديدة الغبطة لأجله."

- "أجل، إنه مشروع رائع تماماً وإني مغتبط به. بوذي كثيراً أن أقوم بهذه الرحلة معك أيها العزيز. وأنت ياسيدي، هل فكرت منذ الآن كيف تستخدمين العطلة؟"

- "ربما ذهبت برفقة ابني إلى "بالبيك"، لست أدري."

- "آه! "بالبيك" محبة، ولقد مررت من هناك منذ عدة سنوات. لقد شرعوا يبنون فيها دارات أنيقة جداً، وأظن أن المكان سينال إعجابك. ولكن هل يسعني أن أسألك عما جعلك تختارين "بالبيك"؟"

- "لدي ولدي رغبة في مشاهدة بعض كائس المنطقة ولاسيما كنيسة "بالبيك". لقد كنت أخشى قليلاً على صحته من تعب السفر ولاسيما الإقامة. ولكني علمت أنهم بنوا منذ قليل فندقاً ممتازاً سوف يمكنه من العيش ضمن شروط الراحة التي تقتضيها حاله."

- "آه ! ينبغي لي أن أزود بهذه المعلومات إحداها وليست من نساء لا يبالين بها."

وسألت وأنا أغالب الحزن الذي بي لسماعي بأن أحد محاسن "بالبيك" إنما يكمن في داراتها الأنيقة: "إن كنيسة "بالبيك" رائعة. أليس كذلك يا سيدي؟"

- لا، إنها لا بأس بها، ولكنها لا تحتل المقارنة مع هذه الجواهر الحقيقية المزوقة التي تمثل كاتدرائيات "رانس" و"شارتر" واللؤلؤة "التي تبرهن جميعاً فيما أرى، عنيت "الكنيسة الصغيرة" في باريس."

- "ولكن كنيسة "بالبيك" من الطراز الروماني في قسم منها؟"

- "أجل إنها من الطراز الروماني، وهو في حد ذاته جامد جداً وليس فيه ما ينبئ بأناقة المهندسين القوطيين وطرافتهم. هم الذين يبالغون في تزويق الحجر وكأنه دانتيلاً. إن كنيسة "بالبيك" جديرة بأن تزار مرةً إن كنت في المنطقة، فهي غريبة إلى حد ما: فإن كنت لا تدري أي شيء تفعل في يوم ماطر استطعت أن تدخل إليها فتشاهد ضريح "نورفبي".

وقال والدي: "هل حضرت البارحة مأدبة وزارة الخارجية؟ فإنني لم أتمكن من حضورها".

"وأجاب السيد "دو نوربوا" وعلى شفثيه ابتسامة: "لا، وأقر أنني تخليت عنها في سبيل أمسية تختلف بعض الاختلاف عنها. ولقد تناولت العشاء في منزل امرأة ربما سمعت عن أخبارها، إنها السيدة "سوان" الجميلة."

وكنمت والدتي رعدة أصابتها فقد كانت تقلق، وهي أسرع إحساساً من والدي، كانت تقلق من أجله بشأن ما لن يزعجه إلا بعد ذلك بقليل. كانت تتبين هي أولاً الإزعاجات التي تحلّ به كمث هذه الأخبار المشوومة عن فرنسه التي تُعرف في البلاد الأجنبية قبلما تعرف لدينا. بيد أنها في فضولها كي تعلم أيّ صنف من الناس تستقبلهم أسرة "سوان" سألت السيد "دو نوربوا" عن الأشخاص الذين التقى بهم هنالك. وأجاب السفير بدقة تغلفها الطيبة وهو يلقي من حوله نظرات بدت عذوبتها واحتشامها وكأنهما يخفقان من خبث الملاحظة فيما هما يالغان فيها بحذافة: "يا إلهي .. إنه بيت يرتاده بخاصة فيما يبدو لي الرجال. كان هنالك بعض المتزوحين، ولكن زوجاتهم كنّ مريضات في ذلك المساء فلم يجئن."

ثم أضاف قوله: "ينبغي لي أن أقول، كيما أكون منصفاً تماماً، إن ثمة نساء يقصدن منزلهم مع ذلك، ولكنهن .. ينتمين بالأحرى. ماذا عساي أقول، إلى جماعة الجمهوريين أكثر منهم إلى مجتمعي

"سوان" (وكان يقول "سفان"). من يدري؟ ربما أصبح ذات يوم منتدًى سياسياً أو أديباً. ويبدو على أية حال أنهم راضون بذلك، ولديّ أن "سوان" يبرز الأمر أكثر مما ينبغي. فقد كان يستمّي الناس الذين دعي وزوجته إلى منازلهم في الأسبوع التالي، ومع أنه لا سبيل إلى الاعتزاز بالفتهم، على نحو خلا من الرصانة والدوق وحتى اللياقة، الأمر الذي أدهشني في رجل يمثل رقّة حسّه. كان يردّد قوله: "ليس عندنا أمسية واحدة خلّت من ارتباط" كما لو أن في الأمر مفخرة وبلهجة الوصولي الحقيقي، وما هو بذلك. ذلك أنه كان لي "سوان" العديد من الأصدقاء، وحتى الصديقات وأظنني قادراً على القول، دون أن أتورط كثيراً أو أن أذيع سرّاً، أن واحدة منهم على الأقل، لا جميعهن ولا حتى أكثرهن، وهي سيّدة رفيعة الشأن، ما كانت لتعرض إعراضاً تاماً عن فكرة إنشاء صلات مع السيّدة "سوان" ومن المحتمل آنذاك أن يحلّو حذوها الكثير من الخراف، غير أنّ "سوان" فيما يبدو لم يقدّم بأيّ مسعى من هذا القبيل. ماذا أرى؟ أهناك أيضاً حلوى "البودينغ"؟ لن يكثر عليّ الاستشفاء في مدينة "كارلسباد" لاستبعاد العافية بعد وليمة فاخرة كهذه. وربما شعر "سوان" أن ثمة الكثير من ضروب المقاومة التي ينبغي التغلّب عليها.

فالزواج لم يرق، والأمر أكيد. لقد تحدّثوا عن ثروة المرأة، وتلك هفوة جسيمة. ولكن كل ذلك في النهاية لم يبدُ محبباً. ثم إنّ لي "سوان" عمّة فاحشة التراء بالغة الرصانة وهي زوجة لرجل يُعتبر من أرباب النفوذ على صعيد المال. وهي لم ترفض استقبال السيّدة "سوان" فحسب بل قامت بحملة منظمة كي تفعل صديقاتها ومعارفها متلما فعلت. ولست أعني بذلك أن يكون أيّ باريسي قد أخلّ بقواعد اللياقة إزاء السيّدة "سوان". لا، لا مرة مرة! وكان الزوج فضلاً عن ذلك رجلاً يردّ على التحدي. وثمة على أية حال أمر غريب وهو أن ترى إلى أيّ حدّ يُبدي "سوان"، هو الذي يعرف الكثير من الناس ومن أرفعهم مستوى، اهتماماً بمجتمع أقلّ ما يقال فيه إنه خليط إلى حدّ بعيد. وإني أقرّ، أنا الذي عرفته بالأمس، أنني كنت أحس بقدر مماثل من الدهشة والسخرية لدى رؤيتي رجلاً في مثل تهذيبه الرفيع وفي مثل الزواج الذي يلاقيه في أكثر الدوائر اصطفاً يشكر بحاراً مدير مكتب وزير البريد لأنه جاء إلى منزلهم ويسأله إن كانت تستطيع السيّدة "سوان" أن تسمح لنفسها بالذهاب لزيارة زوجته. على أنه لا بدّ أن يلقي نفسه في غربة، إذ المجتمع بالطبع لم يعد ما كان عليه. بيد أنني لا أعتقد مع ذلك أن يكون "سوان" تعيشاً. صحيح أنه حدث في السنوات التي سبقت الزواج مناورات ابتزاز دنيئة بعض الشيء تمت على يد المرأة، فقد كانت تحرم "سوان" ابنته في كل مرة يرفض لها أمراً. وكان "سوان" المسكين، وهو ساذج بقدر ما هو رقيق التهذيب، كان يظنّ كلّ مرة أن اختطاف ابنته مصادفة ويرفض رؤية الحقيقة. وكانت تفتعل له فضلاً عن ذلك مشاجرات متواصلة إلى حدّ الظنّ بأنها يوم تبلغ مآربها وتصبح زوجته لن يقف شيء في دربها وأن حياتها ستكون جحيماً. ولكن ما حصل كان العكس. إنهم كثيراً ما يسخرون من الطريقة التي يتحدّث بها "سوان" عن زوجته، بل ويقهقهون بأعلى أصواتهم. وما كانوا يطلبون بالتأكيد، وقد وعى في كثير أو قليل أنه . (تعرفون كلمة "مولير")، أن يعلن الأمر على الملأ. وليس يحول ذلك دون أن يجده مغالياً حينما يقول بأن امرأته زوجة ممتازة. وليس ذلك في مثل ما يطنون من رور؛ فعلى طريقتها التي تغاير تلك التي قد يفضلها جميع الأزواج - إلا أنه من الصعب فيما يبدو لي أن لا يعلم "سوان"

خفايا الأمور هو الذي كان يعرفها منذ فترة طويلة وليس بالسيد الغني - يبدو بما لا يقبل الجدل أنها تكن له المودة. ولست أقول إنها غير متقلبة، و"سوان" نفسه لا يحجم عن مثل ذلك السلوك إن صدقنا الألسنة الخبيرة التي تمرح على هواها كما يسعكم الظن. ولكنها مفرّة بفضلها لما فعل من أجلها ويبدو أنها أضحت في عذوبة الملائكة بعكس المخاوف التي ساررت الجميع."

ولعلّ ذلك التبدّل لم يكن خارقاً بمقدار ما كان يرى السيد "دو نوربوا". ذلك أن "أوديت" ما اعتقدت أنّ "سوان" سوف يتزوّجها في النهاية. وفي كل مرة كانت تنقل إليه على نحو مغرض أن رجلاً محترماً أقدم على الزواج من عشيقته كانت تراه يلوذ بصمت القبور، وأكثر ما يفعل، إن هي وجهت إليه نداء مباشراً تسأله: "قل، ألسنت ترى أن ذلك حسن جدّاً"، أن يجيبها ببرود: "ولكنني لا أقول إن ذلك سيء، فكلّ يفعل ما يحلو له." ولم يعد هنالك ما يمنعها من الاعتقاد بأنه ربما هجرها تماماً مثلما كان يصرّح لها في لحظات من الغضب، لأنها سمعت منذ قليل امرأة نحاعة تقول: "بوسعنا أن نتوقع كلّ شيء من الرجال فإنهم في منتهى الفظاظة"، وقد وضعت يدها على تلك الحكمة المتشائمة التي أذهلها عمق معانيها فكانت تردّها كيفما تيسر بهيئة من خارت عزائمه وكأنما يقول: "ليس هنالك مستحيل، وإنه نصبي على كلّ حال". وفقدت الحكمة المتفائلة التي قادت حتى ذاك خطي "أوديت"، فقدت تبعاً لذلك كلّ مزية فيها: "يمكن أن تفعل كل شيء بالرجال الذين يحبونك فإنهم على قدر كبير من الغباء"، وكانت ترسم على وجهها غمزة العين نفسها التي يمكن أن ترافق كلمات من مثل: "لا بأس عليك، فلن يحطم شيئاً". كانت "أوديت" تتألم في أثناء ذلك مما يمكن أن تفكر به حول سلوك "سوان" واحدة من صديقاتها تزوّجها رجل مكثت معه أقل مما تيسر لها مع "سوان" وليس لها ولد، هي وقد أضحت تنال الآن بعض التقدير وتتم دعوتها إلى حفلات "الإليزيه" الراقصة. ولعلّ مستشاراً أكثر عمقاً من السيد "دو نوربوا" كان يستطيع أن يستشف أن ما أفاظ "أوديت" إنما هو ذلك الشعور بالإذلال والخزي وأن ما كانت تبدي من طباع جهنمية لم يكن من جوهر طبيعتها ولم يكن داء بدون دواء، لعله كان تنبأ بسهولة بما حصل، يعني أن نظاماً جديداً، أنّ نظام الزواج سوف يوقف بسرعة تقارب السحر هذه العوارض، وهي مؤلمة يومية ولكنها غير عضوية. وقد دهش الجميع تقريباً من هذا الزواج، وإنما الدهشة نفسها مذهشة. فليس من شك أن القليل من الناس يدركون الميزة الذاتية المحضة للظاهرة المسماة بالحبّ وما يمثله من ابتداء شخصية إضافية متميزة عن الشخصية التي تحمل الاسم نفسه في المجتمع والتي أُخذت غالبية عناصرها من ذواتنا. ولذلك كان ثمة القليل من الناس الذين يمكنهم أن يجدوا الحجم الهائل الذي يتخذه بالنسبة إلينا في النهاية إنسان ليس هو الإنسان نفسه الذي يرونه، أن يجدوا هذا الحجم طبيعياً. إلا أنه يبدو، فيما يخص "أوديت"، أنه كان من الممكن تبين أنها إن لم تفهم في يوم بالتأكيد ذهنية "سوان" تمام الفهم فقد كانت على الأقلّ تعرف عناوين أعماله وتفاصيلها إلى حدّ أن اسم "فيرمير" كان مألوفاً لديها كاسم خياطها. كانت تعرف عن "سوان" تلك الميزات التي يجعلها باقي الناس والتي لا تحمل إلا عشيقاً أو شقيقة صورة عنها محبوبة تطابق الأصل. وإننا لتتعلق بها، وحتى بتلك التي نودّ أكثر ما نودّ إصلاحها، إلى حدّ أن العلاقات القديمة تحتفظ بشيء من عذوبة مودة الأهل ومتانتها لأنّ امرأة تألفها في النهاية ألفه

المتسامح والساحر الودود، ألفة تشبه تلك التي لدينا ولدى ذويننا عنها. إن الروابط التي تشدنا إلى كائن ما إنمّا تتقدس حينما يقف في الزاوية نفسها التي نقف فيها لنحكم على أحد عيوبنا. وكان من تلك السمات الخاصة كذلك ما ينتمي إلى ذكاء "سوان" وطباعه سواء بسواء، ولكن "أوديت" استطاعت بسهولة أكبر تمييزها بسبب جلورها التي تمتد مع ذلك في طباعه. وكانت تشتكي من أنهم لا يتعرفون تلك السمات، حينما كان يمتحن الكتابة، حينما كان ينشر دراسات، بمقدار ما يفعلون في رسائله أو حديثه حيث تكثر. وكانت تنصحه أن يفسح لها أوسع مجال. ولعلها كانت تريد ذلك لأنها كانت تلك التي تفضلها لديه، بيد أنها لما كانت تفضلها لأنها كانت أكثر التصاقا به، فربما لما تكن على غير حق في ما تتمنى من أن يلقاها الناس في ما يكتب. وربما ظنت كذلك أن مؤلفات أوفر حيوية سوف تمكنها هي، فيما تحمل له، هو، النجاح، أن تصنع لنفسها ما تعلمت في منزل أسرة "الفيردوران" أن تضعه فوق كل شيء عينا منتدي.

ومن بين الناس الذين كانوا يجدون هذا الصنف من الزواج مضحكا، من قوم يتساءلون فيما يخصهم: "ما عسى يفكر السيد "دو غير مانت" ويقول "بريوتييه" حينما أتزوج الآسة "دومو نمو رانسي"؟"، من بين الناس الذين يحملون هذا النوع من المثل الاجتماعي الأعلى لعلك كنت تجد "سوان" نفسه قبل عشرين عاماً، "سوان" الذي تحمل المشقة ليُقبل في نادي الفروسية وحسب في ذلك الوقت أنه سيتزوج زوجاً مرموقاً سيجعل منه في النهاية، بعدما يثبت وضعه، أحد أكثر الرجال شهرة في باريس. بيد أن الصور التي يمثّلها مثل هذا الزواج للمعنى به تحتاج، شأنها شأن الصور كافة، إلى أن تغذى من الخارج كي لا تضعف وتضمحل تماماً. إن أعنف ما تحلم به إذلال الرجل الذي أهانك. ولكّلك إن لم تسمع من بعد من يتحدث عنه فلن يظلّ لعدوك، وقد بدّل بلده، لن يظلّ له في نظرك أية أهمية. ولئن توارى عن أنظارك على مدى عشرين عاماً جميع الأشخاص الذين كنت تحب أن تدخل نادي الفروسية أو المعهد بسبيهم فلن يغريك البتة احتمال أن تكون عضواً في هذا التجمّع أو ذاك. أمّا العلاقة الطويلة فتُجِلُّ صوراً غير الصور القديمة بمقدار ما يفعل التقاعد أو المرض أو الارتداد الديني. ولم يتحلّ "سوان" عن المطامح الدنيوية حينما تزوّج "أوديت"، لأن هذه الأخيرة كانت قد جرّدت، بمعنى اللفظة الروحي، من تلك الطموحات منذ زمن بعيد. ولو لم يجرّد منها على أية حال لازداد فضلاً بذلك، لأن الزيجات الشائنة بعامة من أكثرها جميعاً أهلاً للتقدير لأنها تقتضي التضحية بمنزلة رفيعة إلى حدّ ما في سبيل حلالة عيش خفية محضة (إذ لا يمكن أن نضع موضع الزواج الشائن زواج المال لأنه ليس من مثال على زيجة باعت فيها المرأة أو الرجل ذاتهما إلا وارتضى بها في النهاية على الأقل بداعي التقليد وتصديقاً للكثير من النماذج وكي لا يُكَالَ بمكيالين). وربما أحسّ "سوان" على كلّ حال من جهة أخرى، بروح الفنان، إن لم يكن بروح من أفسدت نفوسهم، ربما أحسّ ببعض النشوة في أن يقترون، في واحد من تصالبات الأنواع من مثل ما يُقدّم عليه أتباع "مندل" أو ما ترويه الأساطير، بفرد من جنس مختلف، أكان "أرشيدوقة" أم من بنات الهوى، وأن يتمّ زواجاً ملكياً أو زواجاً غير متكافئ الأطراف. وما كان ثمة في العالم سوى شخص واحد يمكن أن يشغل باله في كلّ مرة فُكر فيها بزواجه الممكن من "أوديت". عينا دقة "غير مانت"، وما كان ذلك بداعي الحذقة. وقليل ما كانت "أوديت" على العكس تبدي اهتماماً

بهذه الأخيرة بل تقصر تفكيرها على الأشخاص الذي يقعون فوقها مباشرة بدلاً من صرفه إلى سموات بعيدة مبهمة إلى هذا الحد. ولكن حينما كان "سوان" يبصر "أوديت" في ساعات أحلامه وقد أصبحت زوجته فقد كان يتمثل باستمرار اللحظة التي سيصطحبها فيها. هي وابنته على وجه الخصوص، إلى منزل أميرة "لوم" التي ما لبثت أن أضحت دوقة "غير مانت" بوفاة والد زوجها. لم يكن يرغب أن يقدمها في مكان آخر، ولكنه كان يفيض حناناً لدى ابتداعه كل ما قد تقوله الدوقة عنه لـ "أوديت" و "أوديت" للسيّدة "دو غير مانت"، وهو يتلفظ بالكلمات نفسها، ثم الحنان الذي ستبديه هذه الأخيرة لـ "جيلبيرت" فتدلّلها وتجعله فخوراً بابنته. كان يمثل لنفسه مشهد التعريف بهما بالدقة نفسها في التفاصيل المتخيّلة التي تتوافر للذين ينظرون في أمر استخدام جائزة "يانصيب" يحدّدون قيمتها اعتباطاً، إن هم ربحوها. وبالمقدار الذي تبرر فيه الصورة التي ترافق أحد قراراتنا ذلك القرار فإنه يمكن القول بأن "سوان" إنّ تزوّج "أوديت"، فليقدّمها هي و "جيلبيرت" لدوقة "غير مانت" دون أن يكون ثمة أحد وحتى دون أن يعلم أحد قط. وسوف نرى كيف أن هذا المطمح الدنيوي الذي تمناه لامراته وابنته كان بالضبط ذاك الذي أصبح تحقيقه محظوراً عليه وبمعارضة مطلقة إلى حدّ أنّ "سوان" مات دون أن يفترض أنه يمكن للدوقة أن تعرفهما في يوم. وسنرى كذلك على العكس أن دوقة "غير مانت" ارتبطت بصداقة مع "أوديت" و "جيلبيرت" بعد موت "سوان". ولعلّه كان يبغي حكمة - بمقدار ما يستطيع أن يعلق أهمية على أمر يسير إلى هذا الحدّ - لو لم يكون فكرة مظلمة جدّاً عن المستقبل بهذا الشأن ولو استبقى إمكانية قيام الاجتماع المرجوّ إلى يوم لن يكون هناك للاستمتاع به. إن عمل السبّية الذي ينتج في النهاية جميع الآثار الممكنة على وجه التقريب، وإلى ذلك بالتالي تلك التي خلّناها أقلّ نصيباً من سواها، إن ذاك العمل بطيء أحياناً وتزيد رغبتنا كذلك في إبطائه - فهي تعيقه فيما هي تسعى إلى تسريعه - وتزيد حياتنا نفسها، فلا يبلغ غايته إلا بعدما نكفّ عن الرغبة وأحياناً عن الحياة. أفما كان "سوان" يعلم ذلك بتجربته الخاصة؟ أو ما كان زواجه به "أوديت" التي أحبّها بشغف - وإن لم ترقه لأوّل وهلة - والتي تزوّجها ساعة لم يعد يحبها وساعة مات في صدره ذلك الكائن الذي تمنى أكثر التمنيّ ويفسّ أشدّ اليأس أن يقضي كامل حياته مع "أوديت"، أو ما كان زواجه مذ ذاك، في أثناء حياته، من قبيل السعادة بعد الوفاة - وكأنّما تلك صورة مسبقة عمّا كان يزعم أن يحدث بعد مماته - ؟

وأخذت أتحدّث عن الكونت "دو باريس" وأسأل إن لم يكن صديق "سوان"، فقد خشيت أن يتحوّل الحديث عن هذا الأخير. وأجاب السيّد "دو نوربوا" وهو يثبت على شخصي المتواضع عينيّه الزرقاوين اللذين تسبح فيهما، وكأنّما في وسطها الحيوي، قدرات العمل العظيمة لديه وموهبة الاستيعاب: "أجل، بالتأكيد". وأضاف وهو يخاطب والدي ثانية "ولست أظنّ على آية حال أنني أتجاوز حدود الاحترام الذي أكنّه للأمير (دون أن أرتبط به، مع ذلك، بعلاقات شخصية يجعلها مركزي عسيرة مهما تناقصت صفته الرسمية) إن ذكرت لك هذه الواقعة المثيرة إلى حدّ ما وقوامها أنّه تسنى للأمير منذ فترة لا تزيد عن أربع سنوات أن يلح السيّدة "سوان" في محطة صغيرة للسكك الحديدية في أحد بلدان أوروبا الوسطى. ولم يسمح بالطبع أحد من المقربين إليه لنفسه أن يسأل سيادته كيف لقيها، فلعلّ ذلك كان من غير اللائق. ولكن حينما كان الحديث يسوق اسمها

بالصدفة كان الأمير يبدو، بفضل بعض علامات خفية إن شئت ولكنها لا تخطئ، كان يبدو وكأنه يريد أن يوحى بطيبة خاطر بأن انطباعه لم يكن بأي حال في غير صالحها.

وسأل والدي قائلاً: "ولكن أما كان ثمة وسيلة لتقديمها للكونت "دو باريس"؟

وأجاب السيد "دو نوربوا": "لست تدري؛ مع الأمراء لست تدري، إن أكثرهم كبيراً ممن يجيدون حمل الناس على تأدية ما هو واجب لهم هم كذلك أقل من يهتمون أحياناً بأحكام الرأي العام وحتى بآثارها صحة لأقل ما يدور الأمر حول مكافأة بعض مظاهر الولاء. ومن الأكيد أن الكونت "دو باريس" قد تقبل دوماً بكثير من العطف لإخلاص "سوان"، وهو على أية حال رجل نابه من الطراز الأول.

وسألت والدي بداعي التأدب والفضول: "وانطباعتك أنت، يا سيدي السفير، ما عساه كان؟"

فأجاب السيد "دو نوربوا" بحزم خبير عتيق يخالف الاعتدال المألوف في أقواله: "ممتاز تماماً!"

وإذ كان يعلم أن الإقرار بانطباع شديد تخلفه امرأة فيك إنما يُردّ، بشرط أن يتم في قالب مرح، إلى صيغة من ظرافة الحديث محببة بصورة خاصة فقد أطلق ضحكة صغيرة امتدت على بعض لحظات وتليت بها عينا الدبلوماسي القديم الزرقاوان واهتزت فتحات أنفه التي تغطيها عصيات حمراء.

- "إنها رائعة تماماً."

وسألت بوجل لأحاول إبقاء الحديث حول موضوع أسرة "سوان": "هل حضر ذلك العشاء كاتب يدعى "بيرغوت" يا سيدي؟"

وأجاب السيد "دو نوربوا" وهو يحني الرأس باتجاهي بتأدب كما لو أنه يعلق أهمية حقيقية، في رغبته أن يكون لطيفاً مع والدي، على كل ما يخصه وحتى على أسئلة صبي في سني لم يألّف أن يبدي له أشخاص في سنه هو هذا القدر من التهذيب: "أجل، كان "بيرغوت" حاضراً". وأضاف وهو يحدّق إليّ بتلك النظرة الصافية التي كان "بيسمارك" يُعجّب بنفاذها: "وهل تعرفه؟"

وقالت أمي: "إن ابني لا يعرفه ولكنه معجب به أيما إعجاب".

وقال السيد "دو نوربوا" (الذي بعث فيّ حول ذكائي شكوكاً أدهى من تلك التي كانت تمرّقني بالعادة حينما رأيت بأن ما كنت أضعه فوق نفسي ألف مرّة، وما كنت أراه أسمى ما في العالم إنما كان في نظره في أدنى درجات مواطن إعجابه): "لست أشاطرك نظرتك هذه إلى الأمور. إن "بيرغوت" هو ما أدعوه بعازف ناي؛ وينبغي الاعتراف على أية حال بأنّ عزفه ممتع على الرغم من الكثير من التصنع والتكلف. ولكنه في النهاية لا يعدو ذلك وما هو بأمر ذي بال. فإنك لا تجد قط

في مؤلفاته التي لا عصب فيما ما يمكن أن ندعوه بالعمود الفقري. فليس من وقائع - أو أقلّ القليل - وليس على وجه الخصوص من مدى. إن كتبه ضعيفة الأساس، بل هي تفتقر إلى الأساس كلياً. سوف توافقني أن للمرء الحق، في زمان مثل زماننا يكاد تعقيد الحياة المتزايد لا يدع فيه وقتاً للقراءة، وقد طرأت فيه على خريطة أوروبا تعديلات جذرية وربما كانت على وشك أن تطرأ عليها تعديلات أضخم، وفيما العديد من المشكلات الخطيرة والجديدة يبرز في كل مكان، أن يُطالب الكاتب بأن يكون أكثر من هاوي أدب ينسبنا في غمرة نقاشات بيزنطية لا طائل تحتها حول ميزات شكلية بحتة أنه يمكن أن تحتاحنا بين لحظة وأخرى موجة مزدوجة من البرابرة، الذين يجيئون من الخارج وأولئك الذين في الداخل. إنني أعلم أن ذلك تجديف على المدرسة المقدسة التي يدعوها هؤلاء السادة مدرسة الفن للفن، بيد أن ثمة في عصرنا مهمات أشد إلحاحاً من ترتيب مفردات ترتيباً متناسقاً. إن طريقة "بيرغوت" تفتنك إلى حد ما أحياناً، ولست أعارض القول، إلا أن كل ذلك في مجموعه متكلف جداً هزيل جداً قليل الرجولة إلى حد بعيد. وإنني أدرك الآن أفضل من ذي قبل، إذ أعود بالذاكرة إلى إعجابك المبالغ فيه كثيراً بـ "بيرغوت"، السطور القليلة التي أريتني إياها منذ قليل والتي لعلني أعدم الذوق إن لم أقصها عن ذاكرتي بما أنك قلت بنفسك ببساطة كلية إنها محض "حربشة" أطفال (وقد سبق أن قلته غير أنني لم أكن أو من بأية كلمة وردت فيه). إن لكل ذنب مغفرة، ولا سيما ذنوب الشباب. وكثيرون سواك على أية حال يثقلون ضمائرهم بمثلها ولست الوحيد الذي قلن نفسه شاعراً ساعة التجلي. إلا أنه يبرز في ما أريتني تأثراً "بيرغوت" المشؤوم. ولن أبعت فيك الدهشة بالطبع إن قلت لك إنه خلا من أية ميزة من ميزاته بما أنه يعتبر معلماً في فن أسلوب معين لا يمكن أن تمتلك في سنك حتى مبادئه، وهو أسلوب سطحي في جميع الأحوال. ولكنه العيب نفسه منذ الآن، وأعني مخالفة المعقول تلك التي قوامها رصف مفردات رنانة دونما اهتمام بالمضمون إلا فيما بعد. وإنما ذلك وضع المحررات أمام القارئ. إن جميع هذه التعقيدات السخيفة في الشكل وسائر حداثات الإكليريكي المتميع إنما تبدو لي حتى في كتب "بيرغوت" شديدة العقم. وسرعان ما ينادي الناس بالرائعة إزاء بعض الأسهم النارية التي يطلقها كاتب على نحو ممتع. وليست الروائع كثيرة إلى هذا الحد ولا يشفع لي "بيرغوت"، ليس في متاعه، إن جاز القول، رواية خلق فيها بعض التحليق، واحد من تلك الكتب التي تضعها في أحسن زاوية من مكتبتك. لست أرى كتاباً واحداً في كل أعماله. ولا يحول ذلك لديه دون أن تكون المؤلفات أفضل من المؤلف بكثير. أه! إليك واحداً يعطي الحق لرجل الفكر الذي كان يزعم أنه يجدر بنا أن لا نعرف الكتاب إلا بوساطة كتبهم. إنه يستحيل عليك رؤية رجل يوافق كتبه أقل منه وأكثر ادعاءً وأوفر أبهة وأقل إيناساً. وهو تافه أطواراً وأطواراً يحدثك وكأنه كتاب، لا ككتاب من كتبه بل ككتاب ممل، وهو ما ليست عليه كتبه على الأقل، ذلكم هو "بيرغوت". إنه فكر من أكثرها إيهاماً وتعقيداً، إنه ما كان آباؤنا يسمونه بمحترفي الجمععة والذي يجعل الأمور التي يأتي بها أكثر إزعاجاً من جراء الطريقة التي يسطرها بها. ولست أدري إن كان "لوميني" (Lomenie) أو "سانت بوف" (Sainte - Beuve) من يروي أن "فيني" (Vigny) كان ينفرك من جراء العيب نفسه. على أن "بيرغوت" لم يكتب في يوم "الخامس من آذار" ولا "الخاتم الأحمر" ^(١) حيث بعض الصفحات من

(١) Le Cachet Rouge , Cinq - Mars روايتان للكاتب الشاعر "الفريد دوفيني".

مختارات الشعر الحقيقية.

وشعرت مرة أخرى، وقد صُغت لما قاله السيد "دو نوربوا" منذ قليل عن القطعة التي عرضتها عليه، وأنا أفكر من جهة أخرى بالصعوبات التي كانت تعترضني عندما أبغي كتابة مقالة أو الانصراف فحسب إلى صنوف من الأفكار الحديثة، شعرت بضخالي الفكرية وبأنني لم أولد للأدب. صحيح أن بعض الانطباعات المتواضعة جداً، أو أن قراءة في كتب "بيرغوت" جعلتني بالأمس في "كومبريه" في حالة من الأحلام بدت لي ذات قيمة عظيمة. بيد أن تلك الحالة إنما كانت تعكسها قصيدتي المنشورة، وليس من شك أن يكون السيد "دو نوربوا" قد أدرك وكشف في الحال ما كنت أراه جميلاً فيها من جرأ محض سراب خداع بما أن السفير لم يقع ضحية له. لقد أطلعني بالعكس على المكان الضئيل الذي كنت أشغله (حينما يُحكّم عليّ من الخارج حكماً موضوعياً بلسان أكثر الخبراء استعداداً وأوفرهم ذكاء). كنت أحسني مذهولاً مقلّصاً، وكان عقلي، شأن سائل لا أبعاد له غير أبعاد الإناء الذي يوفر له، ينحصر كله، وقد تقلّص الآن، في الحيز الضحل الذي سحنه فيه السيد "دو نوربوا" وحدّ من حجمه، مثلما سبق له أن تمدّد بالأمس ليملاً اتساع العبقرية المترامية.

وأضاف وهو يلتفت إلى والدي: "إن مواجهتنا، أنا و"بيرغوت"، لم تخل من شائك الأمور فحسب (وتلك على أية حال طريقة أخرى في اكتساب الإثارة). لقد قام "بيرغوت" منذ بضعة سنوات خلت برحلة إلى "فينا" يوم كنت سفيراً فيها. وقامت بتقديمه لي الأميرة "دو ميتيرنيخ" وجاء فسجّل نفسه وأبدى رغبته أن توجّه الدعوة إليه. وبما أنني كنت في البلاد الأجنبية ممثلاً لفرنسه التي يوليها، باختصار القول، شرفاً بكتاباته إلى حدّ ما، ولنقل، ابتغاءاً للدقة، إلى حدّ هين جداً، فلعلني كنت أتجاوز ظنوني السوداء بشأن حياته الخاصة. ولكنه لم يكن يسافر وحده ويطلب إلى ذلك أن لا يدعى بمعزل عن رفيقته. لست أظن أنني أشدّ تزمناً من آخر غيري وربما استطعت، بوصفي عازباً، فتح أبواب السفارة أكثر ممّا لو كنت متزوجاً وربّ عائلة على أنني أقرّ أن ثمة درجة من الخزي لا يسعني القبول بها، تزيد من القرف الذي تثيره اللهجة التي تجاوزت حدّ الأخلاقية، ولنقل الكلمة الفصل، اللهجة الواعظة التي يتخذها "بيرغوت" في كتبه حيث لا تبصر سوى تحليلات مستمرة، وطويلة بعض الشيء بالحقيقة، لوساوس أليمة وتبكي مرضي للضماير ومواعظ حقيقية (معروفة أثمانها) لهفوات بسيطة في حين يُبدي هذا القدر من اللا مبالاة والوقاحة في حياته الخاصة. وقد تجنبت الإجابة، باختصار القول، وعادت الأميرة الكثرة ولكن دون أن تفلح أكثر من ذي قبل، ممّا يحملني على افتراض أنني لا بدّ غير محمود السيرة لدى ذلك الشخص ولست أعلم إلى أيّ مدى قدّر لطف "سوان" في دعوته وإيائي في الآن نفسه، إن لم يكن هو من طلب ذلك، ولا يمكن معرفة الأمر فهو مريض في الأساس. وإنما ذلك علره الوحيد."

وسألت السيد "دو نوربوا"، وقد استغللت ل طرح هذا السؤال لحظة كنت أستطيع فيها، ونحن نتنقل إلى الصالة، إخفاء انفعالي على نحو أيسر ممّا كنت أفعل على المائدة وأنا لا حراك بي وتغمري الأضواء: "هل كانت ابنة السيدة "سوان" حاضرة في ذلك العشاء؟"

وبدا السيد "دو نوربوا" وكأنه يحاول لحظة أن يتذكر.

- "أجل، شابة صغيرة ما بين أربعة عشر إلى خمسة عشر عاماً. أذكر بالحقيقة أنها قدّمت لي قبل العشاء على أنها ابنة مضيفنا. سأقول لك إنني رأيته لفترة وجيزة، فقد بادرت إلى النوم في ساعة مبكرة، أو هي ذهبت لدى صديقات لها، لست أذكر تماماً. ولكنني أرى أنك على تمام الاطلاع بشؤون بيت "سوان".

- "إنّي ألعب مع الآنسة "سوان" في حديقة "الشانزيليزيه"، وهي رائعة."

- "آه! ها إنني أفهم! ولكنّها بدت لي أنا الآخر فاتنة. على أنني أعترف لك إنني لا أظنها ستضاهي والدتها في يوم، إن وسعني أن أقول ذلك دون أن أخرج لديك عاطفة قوية."

- "إنّي أفضّل وجه الآنسة "سوان"، ولكنني معجب جداً إلى ذلك بوالدتها، وأذهب للتنزه في الغابة وبني أمل أن أراها تمرّ من هناك فحسب."

- "آه! سأقول لهما ذلك فلسوف يروقهما الأمر جداً."

كان السيّد "دو نوربوا"، وهو يوجد بتلك الكلمات، كان لا يزال لبضع ثوان في وضع جميع الناس الذين يظنون، وهم يسمعونني أتحدّث عن "سوان" بوصفه رجلاً ذكياً، وعن ذويه بوصفهم صرّافين شرفاء، وعن بيته بوصفه بيتاً جميلاً، أنني سأتحدّث كذلك راضياً عن رجل آخر في مثل ذكائه، وعن صرّافين آخرين في مثل شرفهم، وعن بيت آخر في مثل جماله؛ إنّها اللحظة التي لم يتّبين بعد فيها رجل سليم العقل يتحدّث إلى مجنون أنّه مجنون. كان السيّد "دو نوربوا" يعلم أن ليس في متعة النظر إلى النسوة الجميلات أمر يخالف الطبيعة وأنّه من اللياقة، إمّا حدّثنا أحدهم بحرارة عن إحداهنّ، أن نظهار بالاعتقاد بأنّه مولع بها وأن نمازحه بذلك ونعده بمساعدة مقاصده. ولكن ذلك الرجل الخطير إذ قال إنّ سيّدتنا عني إلى "جيلبيرت" ووالدتها (الأمر الذي سيمكّنني، شأن إله في جبل "الأولمبوس" أنخذ سيوبة الأنسام أو بالأحرى مظهر الشيخ الذي اتّخذت "مينيرفا" ملامحه، أن أدخل بنفسني خفيّاً إلى صالة السيّدة "سوان" وأن أسترعي انتباهها وأشغل فكرها وأستثير شكرها لإعجابي بها، وأن أظهر أمامها بمثابة صديق لرجل ذي شأن، وأن أبدو لها في المستقبل جديراً بدعوتها والدخول في خصوصيّات أسرته)، ذلك الرجل العظيم الشأن الذي يزعم أن يستخدم لصالحه المهابة العظيمة التي يتمتع بها في نظر السيّدة "سوان" بعث فيّ فجأة حناناً عظيماً إلى حدّ أنني لقيت مشقة في حجب نفسي عن تقبيل يديه الناعمين البيضاوين المتغضّنين اللتين تبدوان وكأنهما ظلّتا لفترة طويلة في الماء. وهممت بالحركة تقريباً وظننتني وحيداً في ملاحظتها. ذلك أنّه من العسير على كلّ منا أن يخسب بالضبط إلى أيّ مدى تظهر أقواله أو حركاته للغير؛ فإننا نتحيّل، مخافة أن نغالي في عظمة شأننا وإذ نضخّم إلى حدود بالغة الرقعة التي يجب أن تمتدّ فوقها ذكريات الآخرين في بحر حياتهم، إنّ الأجزاء الثانوية في مقالتنا ومواقفنا تكاد لا تتداخل وعي الذين نحدّثهم وهي من باب أولى لا تعلق في ذاكرتهم. وإنما ينساق المجرمون لافتراض من هذا القبيل حينما يدخلون بعد الألوان لمساة على قول قالوه ويحسبون أنّه لا يمكن مقارنة هذه الصيغة

البديلة بأية رواية أخرى. بيد أنه من الممكن تماماً، حتى فيما يخص حياة الإنسانية السحيقة، أن تكون فلسفة كاتب المسلسلات التي قوامها أن كل شيء آيل إلى النسيان أقل حقيقة من فلسفة مضادة تنبأ ببقاء جميع الأشياء. وفي الصحيفة نفسها التي يقول لنا فيها الكاتب الأخلاقي في "باريس الأولى" عن حدث أو رائعة ومن باب أولى عن مغنية عرفت فترة من الشهرة: "من سيتذكر ذلك بعد انقضاء عشر سنوات؟" ألا يتحدث بيان أكاديمية النقوش في الصفحة الثالثة عن واقعة أقل إثارة في حد ذاتها، وعن قصيدة زهيدة القيمة يعود تاريخها إلى عصر الفراعنة ولا تزال معروفة بكاملها؟ وربما لم يكن الأمر كذلك تماماً بالنسبة إلى الحياة الإنسانية القصيرة. بيد أنني بعد بضع سنوات، وفي بيت بدا لي فيه السيد "دو نوربوا"، وكان في زيارة هناك، أقوى سند يمكن لي أن أصادفه لأنه كان صديق والدي ومتسامحاً وميلاً إلى تمنّي الخير لنا جميعاً، وقد تعود فوق ذلك التكنم من جرّاء مهنته وعراقه أصله، بيد أنني، حينما نقلوا إليّ بعد ذهاب السفير أنه أشار من طرف خفيّ إليّ أمسية غابرة رأى في أنثائها "اللحظة التي أوشكت فيها أن أقبل يديه"، لم أحمرّ خجلاً حتى أطراف أذنيّ فحسب بل ذهلت إذ علمت إلى أيّ حدّ كانت تختلف عمّا لعلني كنت أعتقد لا الطريقة التي كان يتحدث بها السيد "دو نوربوا" عني فحسب، بل كذلك تركيبة ذكرياته. ولقد كشفت لي تلك الثروة عن النسب غير المتوقعة التي تولّف الفكر الإنساني من سهو وحضور بديهة. من تذكّر ونسيان. لقد دهشت دهشة في مثل روعة ما أصابني يوم قرأت لأول مرة في كتاب لـ "ماسبيرو" أنهم يعرفون بالدقة لائحة الصيادين الذين كان يدعوهم "أشور بانبيال" إلى حفلات صيده منذ عشرة قرون سبقت المسيح.

وقلت للسيد "دو نوربوا" حينما أعلن أنه سينقل إلى "جيلبيرت" وأمّا إعجابي بهما: "آه يا سيدي، إن فعلت ذلك، إن تحدّثت عني للسيدة "سوان" فلن يكفيني العمر كلّ كي أعرب لك عن امتناني ولسوف تكون حياتي ملك يديك! إلا أنه لا بدّ لي من الإشارة إلى أنني لا أعرف السيدة "سوان" وأنني لم أقدم لها في يوم."

لقد أضفت هذه الكلمات الأخيرة بداعي نزاهة الضمير وكلي لا أبدو وكأنني فاخترت بعلاقة لم أحصل عليها. إلا أنني شعرت وأنا أنطق بها أنها أصبحت مدّ ذاك غير مجدّية لأنني رأيت، منذ أن بدأت أشكره بحرارة باردة، ملامح التردد والاستياء تمر على وجه السفير وفي عينيه تلك النظرة العمودية الضيقة المائلة، (مثلما في الرسم المنظوري لجسم صلب الخطّ المتهرّب لأحد سطوحه)، تلك النظرة الموجهة للمحدث الخفي المختبئ في صدورنا ساعة نقول له أمراً ينبغي ألا يسمعه محدثنا الآخر، السيد الذي كنا نحدثه حتى ذاك - يعني أنا بالمناسبة. وتبينت في الحال أن تلك الجمل والتي بدا لي، وهي التي نطقت بها وهي لا تزال ضعيفة في مقابل دفقات عرفان الجميل التي انتابتنني، أنها لا بد ستؤثر في السيد "دو نوربوا" وتحمله في النهاية على التدخل بما يكلفه القليل من المشقة ويولني الكثير من السرور، تبينت أنها ربما كانت (من بين سائر الجمل التي يمكن أن يبحث عنها بأسلوب شيطاني أناس يريدون بي شرّاً) الوحيدة التي يمكن أن تؤدي إلى حمله على الإقلاع عن التدخل. فكمثل اللحظة التي يبدي لنا فيها فجأة مجهول تبادلنا معه بسرور انطباعات،

ربما ظنناها متشابهة، حول مارين اتفقنا أنهم تافهون، الهوة المرضية التي تفصله عنا، إذ يضيف بلهجة لا مبالية وهو يتلمس جيبه: "من أسف أنني لا أحمل مسدسي، إذن لما بقي واحد منهم"، حسب السيد "دو نوربوا" لدى سماعها، وهو من كان يعلم أن ليس من أمر أقل ثمنًا وأكثر سهولة من أن يوصى بامرئ لدى السيِّدة "سوان" ويُدخل إلى بيتها، ومن رأى أن الأمر كان في نظري بالعكس عظيم الثمن وبالتالي بالغ الصعوبة ولا شك، حسب أن الرغبة التي سبق أن عبرت عنها؛ وهي طبيعية في ظاهرها، لا بد تخفي فكرة مخالفة ومقصداً مشبوهاً وذنباً سابقاً لم يشأ أحد بسببه، وهو على يقين من تكدير السيِّدة "سوان"، أن يأخذ على عاتقه تبليغها رسالة عن لساني. وأدركت أنه لن ينقل تلك الرسالة في يوم، وأنه قد يستطيع مشاهدة السيِّدة "سوان" يوماً وعلى مدى سنوات دون أن يحدثها لذلك مرة واحدة عني. بيد أنه سألها بعد بضعة أيام عن معلومات كنت أرغب فيها وكلف والذي أن ينقلها إليّ، ولكنه ماظن من واجبه الإفصاح عن كان يطلبها من أجله. فلن تعلم إذن أنني أعرف السيد "دو نوربوا" وأني أتمنى الذهاب إلى منزلها أكثر ما يكون التمني. وربما كانت تلك مصيبة أقلّ حجماً مما كنت أعتقد. فلعلّ ثاني ذينك الخبرين ما كان ليضيف على الأرجح الكثير إلى فعالية الأول، والفعالية إلى ذلك غير أكيدة؛ ذلك أن فكرة حياة "أوديت" الخاصة ومنزلها الخاص إذ لا تثير لديها أي اضطراب خفي، فإن امرأ يعرفها ويتردّد إلى منزلها ما كان ليبدو في نظرنا كائنًا خرافيًا مثلما كان يبدو لي أنا الذي ربما قذف حجرًا على نوافذ عائلة "سوان" لو تسنى لي أن أخطّ عليه أنني أعرف السيِّد "دو نوربوا": فقد كنت متيقنًا أن مثل تلك الرسالة، وإن نقلت بأسلوب فظّ إلى هذا الحدّ، سوف تضفي عليّ مهابة في عيني سيِّدة المنزل أكثر مما توغر صدرها عليّ. ولكنني، حتى لو استطعت أن أثبت أن المهمة التي لم ينفذها السيِّد "دو نوربوا" إنّما كانت سظل فاقدة الجدوى بل هي قادرة فوق ذلك أن تلحق بي الأذى لدى عائلة "سوان"، ما كنت لأجرؤ على إعفاء السفير من أداها، لو بدا أنه موافق عليها، وعلى التخلي عن ملذّة وجود اسمي وشخصي لفترة بالقرب من "جيبيرت" وفي منزلها وحياتها المجهولين لديّ، مهما جاءت نتائج فعلتي مشؤومة.

وبعدما ذهب السيِّد "دو نوربوا" ألقى والذي نظرة على الصحيفة المسائية؛ وأخذت أفكر من جديد في "لايرما". ذلك أنّ المتعة التي أصبّتها من جرّاء الاستماع إليها كان يزيد من ضرورة استكمالها بعدها عن أن تساوي تلك التي منيت النفس بها، فكانت لذلك تتمثل في الحال كلّ ما من شأنه أن يغذيها كذلك الميزات مثلاً التي أقر بها السيِّد "دو نوربوا" لـ "لايرما" والتي شربها فكري دفعة واحدة مثل مرج شديد الجفاف تصب عليه ماءً. وإذ ذاك مدّ لي والذي الصحيفة وهو يشير إلى مقال صغير حرّر على النحو التالي: "لقد كان عرض مسرحية "فيدر" الذي تمّ أمام قاعة متحمسة لوحظ فيها كبار الوجوه في عالمي الفنون والنقد، كان بالنسبة إلى السيِّدة "لايرما" التي مثّلت دور "فيدر" فرصة لنجاح باهر ندر أن عرفت أروع منه طوال حياتها الفنية اللامعة. وسوف نعيد الكرّة ونطيل حول هذا العرض الذي يؤلّف حدثاً مسرحياً حقيقياً. ويكفي أن نقول إن أفضل الحكام الثقافة كانوا على اتفاق للتصريح بأن مثل ذلك التمثيل إنّما يُلبس حلّة جديدة لدور "فيدر"، وهو من أجمل ما كتب "راسين" ومن أعمقه دراسة، ويشكل أصفى وأرفع تظاهرة للفنّ تسنّى للناس

أن يشاهدوها في عصرنا. "وما إن داخلتنى صورة تلك الفكرة الجديدة القائلة "بأصفى وأرفع نظاهرة للفن" حتى اقتربت هذه الفكرة من المتعة غير الكاملة التي أحسست بها في المسرح فأضفت إليها قليلاً مما كانت تفتقر إليه وألف اقتراهما شيئاً مثيراً جداً إلى حدّ أنني صرخت قائلاً: "ما أعظمها فنانة!" ويمكن دون شك الجزم بأنني لم أكن صريحاً مطلق الصراحة. ولكن دعونا نفكر بالأحرى بالعديد من الكتاب الذين نراهم يستأثرون من المقطوعة التي فرغوا من كتابتها، فإن هم قرؤوا تقريراً لعبقريّة "شاتوبريان" أو استذكروا فناناً كبيراً تمنوا أن يكونوا مساوين له، كان "يدندنون" في داخلهم على سبيل المثال جملة لـ "بيتهوفن" يقارنون بين كتابتها وبين تلك إلى حدّ أنهم يضيفونها إلى نتاجهم الخاصّ وهم يعودون إلى التفكير فيه فلا يرونه من بعد على نحو ما بدا لهم أوّل الأمر. ويقولون وهم يجازفون بفعل إيمان بقيمة أعمالهم الفنيّة: "لا بأس على آية حال!" دون أن يتبينوا أنّهم إنّما يقحمون في المجموع الذي يحدّد ارتياحهم الأخير ذكرى صفحات رائعة لـ "شاتوبريان" يمثلونها بصفحات لهم ولكنهم لم يكتبوها في نهاية المطاف. ولنذكر العديد من الرجال الذين يؤمنون بحبّ عشيق لم يعهدوا منها سوى خياناتها، وكذلك جميع الناس يضعون أملهم بالتناوب إمّا في استمرار للحياة لا مدرك حالما يفكرون، أزواجاً فقدوا العزاء، بامرأة فقدوها وما زالوا على حبّها، وفنانين، بالمجد الآتي الذي يمكن أن ينعموا به، وإمّا في عدم مُعْطَمَيْن حينما يرجع فكرهم بالعكس إلى الذنوب التي ينبغي لهم بدونه أن يكفروا عنها بعد معاصيهم. ولنستذكر أيضاً السيّاح الذين يهزّهم جمال رحلة في مجملها لم يشعروا يوماً على يوم بغير الملل فيها، ولنقل إن كان في الحياة المشتركة التي تعيشها الأفكار داخل فكرنا فكرة واحدة من بين تلك التي تولينا أكبر قسط من السعادة لم تتوجّه بادئ الأمر كطيفلي حقيقي إلى فكرة غريبة ومجاورة تطلب منها أفضل ما كانت تفتقر إليه من قوّة.

ولم تبدُ والدتي راضية عن إقلاع والدي عن التفكير "بالسلك" فيما يخصّني. وأظن أن ما كانت تأسف عليه، وهمتها قبل كل شيء أن تنظّم قاعدةً حياتية نزوات أعصابي، إنّما كان انصرافي إلى الأدب أكثر من أنّي تخليت عن الديبلوماسية. وصاح والدي قائلاً: "دعيك من هذا، فلا بد قبل كل شيء من أن يستمتع المرء بما يفعل. وترين أنّه لم يعد طعلاً. فهو يعلم الآن أنّ العلم ما يحبّ ومن غير المرجّح أن يتغيّر، وإنّه قادر أن يتبين ما يجعله سعيداً في الحياة. "وبانتظار أن أصبح سعيداً أو غير سعيد في الحياة بفضل الحرّية التي تهبني إياها أقوال والدي، فقد حملت تلك الأقوال إليّ في ذلك المساء قسماً واحداً من الغمّ. لقد بعثت فيّ على الدوام البوارد اللطيفة واللا متوقّعة لديه شوقاً بالغاً، إمّا حدثت، إلى تقبيل وجنتيه الريائيتين فوق لحيته إلى حدّ أنني إن لم أنسّق وراءه فمخافة أن يستاء مني فحسب. أمّا اليوم، فمثلما يجزع مؤلّف إذ يرى أحلامه الخاصّة التي لا ترتدي قيمة كبيرة في نظره لأنّه لا يفصلها عن ذاته تضطرّ ناشراً أن يختار ورقاً ويستحدم حروفاً ربّما كانت تفيض جمالاً عنها، كنت أتساءل إن كانت رغبتني في الكتابة أمراً مهماً إلى الحدّ الذي ينفق معه والدي هذا القدر من اللطف من جرّاء ذلك. على أنّه كان يدسّ في نفسي على وجه الخصوص ارتياحين يؤلمانني أشدّ الألم إذ يروي عن ميولي التي لن تتغيّر من بعد وعمّا كان من شأنه أن يجعل حياتي سعيدة. أمّا الأوّل فإنّ حياتي قد بدأت (في حين كنت أحسبني كلّ يوم على عتبة حياتي التي لم تمسّ بعد والتي

لن تبدأ إلا في صبيحة الغد)، بل وأكثر من ذلك أن الفترة اللاحقة فيها لن تكون كثيرة الاختلاف عما سبقها. وأما الارتياح الثاني الذي لم يكن والحق يقال سوى صيغة أخرى للأول فلاني لم أكن قائماً خارج الزمان بل خاضع لقوانينه تماماً كممثل شخص الروايات الذين كانوا يعيشون في، من جراء ذلك، حزناً مماثلاً حينما كنت أقرأ سيرهم في "كومبريه" وأنا قابع في زاوية مظلة الخيزران. إننا نعلم نظرياً أن الأرض تدور ولكننا لا نتبين الأمر في الواقع فالأرض التي نسير عليها تبدو وكأنها لا تتحرك فنعيش مطمئنين البال. ذلك هو شأن الزمان في الحياة ويضطرّ الروائيون كيما يجعلوا هروبه محسوساً أن يحملوا القارئ على اجتياز عشرة، بل عشرين، بل ثلاثين عاماً بدقيقتين وذلك بتسريع اختلاجات الإبرة على نحو جنوني. ففي أعلى إحدى الصفحات تفارق عاشقاً يعمر الأمل قلبه، وفي أسفل الصفحة التالية تلقاه في الثمانين يقوم بنزهته اليومية في باحة أحد المآوي بمشقة بالغة، يكاد لا يجيب على الكلام الموجه إليه وقد نسي الماضي. لقد قام والدي فجأة بإظهاره لي لذاتي في الزمان حينما قال عني: "لم يعد طفلاً ولن تتغير ميوله من بعد، إلخ"، وقد بعث في نفسي نوع الكآبة عينة كما لو كنت، لا ساكن المآوي الخائر القوي، بل أولئك الأبطال الذين يقول لنا عنهم المؤلف في ختام كتابه بلهجة لا مبالية تتسم بالقسوة: "أصبح لا يفارق الريف إلا في القليل القليل وقد أقام فيه آخر الأمر بصورة نهائية، إلخ"

بيد أن والدي قال لوالدتي، بغية استباق النقد الذي يمكن أن نوجهه لضيفنا:

- "إنني أعترف أن العم "نوربوا" كان "تقليدياً" بعض الشيء حسبما تقولين. فقد خشيت، حينما قال إنه ربما كان "من غير اللائق" طرح سؤال على الكونت "دو باريس"؛ أن تأخذوا في الضحك."

وأجابت والدتي: "لا، على الإطلاق، فلاني أحب كثيراً أن احتفظ رجل بهذا القدر وفي هذه السن بهذا الضرب من البساطة الذي يبرهن فحسب عن خلفة من النزاهة وحسن التهذيب".
وصاح والدي، وقد أسعده أن يرى والدتي تقدّر السيّد "دو نوربوا" وشاء أن يقنعها بأنه بعد فوق ما تعتقد، لأنّ المودة تبالغ بمقدار ما تجد المضايقة متعة في التقليل من قدر الناس: "ذلك ما أرى! على أن الأمر لا يحول دون أن يكون ناعماً وذكياً، إنني أدري بذلك أنا الذي يراه في اللجنة غير ما هو ههنا تماماً. كيف قال .. مع الأمراء لست تدري .."

- "أجل، إنه كذلك. لقد سبق أن لاحظت الأمر، إنه ناعم جداً. وجلي أن تجربته في الحياة عميقة."

- "غريب أنه تناول طعام العشاء في منزل عائلة "سوان" وأنه التقى ثمة بمختصر القول أناساً عاديين وموظفين. فمن أين لملت السيّد "سوان" هؤلاء القوم جميعاً؟"

- "تراك لاحظت الخبث الذي أبدى به الملاحظة التالية: "إنه بيت يغشاه الرجال على وجه الخصوص؟"

وأخذ الاثنان يحاولان استعادة الطريقة التي قال بها السيد "دو نوربوا" تلك الحملة كما لعلهما كانا يفعلان بشأن نبرة صوت "بريسان" أو "تيرون" في صاحبة المغامرات" أو في "صيهـر السيد بواريهـه". على أن أكثر ما استُسيغ من كلماته جميعها إنما استساغته "فرانسواز" التي ما كانت لتستطيع، بعد بضع سنوات، "أن تظل جادة" إن ذكروها بأن السفير احتسبها "رئيس طهاة من الطراز الأول"، وهو ما انطلقت والدتي تنقله إليها مثلما ينقل وزير الحرية تهاني ملك زائر بعد العرض. وكنت على أية حال قد سبقتها إلى المطبخ؛ ذلك أنني أخذت وعداً من "فرانسواز"، وهي مسالمة ولكنها قاسية القلب، أنها لن تزيد من عذاب الأرنب الذي ستقتله ولم تبلغني أخبار عن تلك الميتة. وأكدت لي "فرانسواز" أنها انقضت على أحسن ما يرام وبسرعة كبيرة: "ما رأيت قطّ حيواناً على هذه الشاكلة، لقد مات دون أن يقول كلمة واحدة ربما خيّل إليك أنه أبكم." ولما كنت قليل الإحاطة بلغة الحيوانات فقد تذرّعت بأن الأرنب ربما لا يصيح بقدر ما تفعل الفراريـج. وقالت لي "فرانسواز" وقد أغضبها جهلي: "هيا انتظر قليلاً لترى إن كانت الأرانب لا تصيح بقدر ما تفعل الفراريـج. إن صوتها أقوى بكثير." وتقبلت "فرانسواز" ثناءات السيد "دو نوربوا" بالاعتزاز الساذج والنظرة الجدلانة الذكية - وإن كانت مؤقتة - التي لفنانا يحدثونه عن فنّه. وكان سبق لوالدتي أن أرسلتها فيما مضى إلى بعض المطاعم الكبيرة لترى كيف يتم تحضير الطعام فيها. وشعرت في ذلك المساء، وأنا أسمعها تتحدّث عن أشهر المطاعم، بالمتعة نفسها التي كانت لي فيما مضى لدى أطلّاعي، فيما يخصّ الفنانين المسرحيين، على أن تراتب مزاياهم لم يكن تراتب شهراتهم. وقالت لها والدتي: "يؤكد السفير أنه ما من أحد يأكل في أيّ مكان لحم بقر بارداً وفطائر منفخة شبيهة بما تقدّمين." ووافقتها "فرانسواز" القول بمظهر متواضع وبهيبة من يُكرّم الحقيقة، ولكن دون أن يؤثّر فيها لقب السفير. وكانت تقول عن السيد "دو نوربوا" باللطيف الذي تدين به لشخص وضعها موضع رئيس طهاة: "إنه عجوز طيّب مثلي." صحيح أنها حاولت أن تلمحه حينما وصل، ولكنها لما كانت تعلم أن أمي تكره أن يقف الناس خلف الأبواب أو إلى النوافذ وحسبت أنها ستعلم من الخدم الآخرين أو البوابين أنها ترصدته (ذلك أن "فرانسواز" لم تكن تشهد في كلّ مكان سوى ضروب الحسد" و "الأقاويل" التي كانت تؤدي في مخيلتها الدور الدائم المشؤوم نفسه الذي تؤديه بالنسبة إلى بعض الآخرين دسائس اليسوعيين أو اليهود)، فقد اكتفت بالتطلّع من نافذة المطبخ "كي لا تخلق لنفسها سبباً مع سيّدها" وظننت، لدى مرأى السيد "دو نوربوا" السريع، أنه السيد "لوغراندان" بسبب رشاقتة ومع أنه ليس من ملامح مشتركة أية كانت بينهما وسألتهما والدتي: "ولكن كيف تفسرين أن لا يعدّ أحد الهلام بمثل جودة ما تعدّين (عندما تقصدين ذلك)؟" وأجابت "فرانسواز": "لست أدري مما "يصبح" ذلك" (ولم تكن تقيم حدوداً واضحة تمام الوضوح بين "أتي"، في بعض معانيه على الأقلّ، و "أصبح"). وكانت تقول على أية حال، صحيح القول جزئياً، فلم تكن قادرة - أو راغبة في كشف السرّ الذي يتفوق بها مرقها الهلاميّ أو "كريماتها" أكثر مما يتسنى لسيدة الأناقة فيما يخصّ أثوابها أو لمغنية كبيرة فيما يخصّ غناها. إن إيضاحاتهما لا تعلّمنا الكثير، وذلك كان شأن طاهيتنا. ثم أجابت وهي تتكلّم عن أصحاب المطاعم الكبرى: "إنهم يلجؤون كثيراً إلى الإنضاج السريع، ثم لا يفعلون الأشياء سوياً. فلا بدّ أن يصبح لحم البقر كإسفنجة، وحينئذ يغبّ

كامل المرق حتى النهاية. بيد أنه كان ثمة واحد من تلك المقاهي يعرفون فيه إلى حدّ ما، فيما يبدو لي، إعداد الطعام. ولست أقول إنه مرقى الهلاميّ بالتمام، ولكنّه كان يعدّ على مهل. " - "أهو هنري؟" يقول والدي الذي لحق بنا وكان يقدر كثيراً مطعم ساحة "غايون" حيث كان يتناول ولائم رفاقية في تواريخ محدّدة. وأجابت "فرانسواز" بعدوبة تخفي ازدراء عميقاً: "لا، لا، لا ! كنت أتحدّث عن مطعم صغير. الطعام طيب جدّاً بالتأكيد لدى "هنري" هذا، ولكنه ليس مطعماً، إنّهُ بالأحرى مكان شعبيّ". - "فبيير؟" - آه ! لا يا سيدي كنت أقصد مطعماً بمعنى الكلمة. أما "فبيير" ففي شارع "روبال"، وليس مطعماً بل مشرب جعة. ولست أدري إن كان ما يقدّمونه يتمّ على موائد مجهزة واعتقد أن ليس لديهم أغطية، فهم يقدّمون ذلك كما هو على الطاولة وكيفما تسير. - "سيرور؟" وابستمت "فرانسواز": "أوه ! اعتقد أن ثمة على وجه الخصوص، فيما يتصلّ بالماكولات، نساء ينتمين إلى المجتمع الراقي (والمجتمع الراقي يعني بالنسبة إلى "فرانسواز" دنيا الفجور). ولا بدّ من ذلك للشباب. "كنّا نلاحظ أنّ "فرانسواز"، بمظهر البساطة الذي تبدو فيه، "رفيقة" أكثر تصعباً فيما يخصّ مشاهير الطهاة مما يمكن أن تكون الممتلئة الأكثر حسداً وغطرسة. بيد أنّنا أحسنا أن لديها شعوراً صحيحاً بفنّها واحتراماً للتقاليد، فقد أضافت تقول: "لا، أردت أن أقول عن مطعم يقدّم ماكولات بروجوازية طيبة. إنّها مؤسسة لا تزال منطقيّة نوعاً ما، وكانت أعمالها رائجة ويجنون فيها الكثير من الفلوس (و"فرانسواز" المقترّة تحسب بالفلوس لا بالدنانير شأن المُعْذَمين). إن سيدي تعرفه تماماً، هناك، إلى اليمين، في الشوارع الكبرى وإلى الخلف قليلاً.. " كان المطعم الذي تحدّثت عنه بذلك الإنصاف الممزوج بالكبرياء وطيبة القلب يدعى.. "المقهى الإنكليزي".

حينما حلّ الأوّل من كانون الثاني قمت بادئ الأمر بزيارات عائليّة بصحبة والدي التي سبق أن صنّفناها (مستعينة بدليل سير من وضع والدي) بالأحياء أكثر منها وفق درجة القرابة الدقيقة، وذلك كي لا ترهقني. بيد أنّنا ما كدنا ندخل صالة ابنة عم لنا بعيدة القرابة، وكان سبب ورودها أولاً أن منزلها ما كان بعيداً عن منزلنا، حتّى ذعرت والدي إذ أبصرت، وفي يدها الكسنتا المغلفة بالسكّر أو المخفّاة، أفضل صديق لأكثر أعمامي حساسية. ولسوف ينقل إليه أنّنا لم نبدأ جولتنا به. سوف يجرح التصرف بالتأكيد شعور عمي، فلعله كان يجد من الطبيعي أن ننطلق من "المادلين" إلى حديقة البساتين حيث كان يسكن، قبل أن نتوقّف في محلة "سانت أوغوستان" لننطلق منها إلى شارع "المدرسة الطيبة".

ولما انتهت الزيارات (وكانت جدّتي تعفينا من القيام بزيارة إلى منزلها بما أنّنا كنّا نتناول طعام العشاء هناك في ذلك اليوم) جريت إلى "الشانزليزيه" أحمل لبائعتنا الرسالة التي كنت قد قرّرت، منذ اليوم الذي سبّبت لي فيه صديقتي الكثير من الغمّ، أن أبعثها إليها في رأس السنة، كي تسلّمها البائعة إلى الشخص الذي كان يجيء عدّة مرّات في الأسبوع من منزل عائلة "سوان" لشراء كعك الزنجبيل، وكنت أقول لها فيها إن صداقتنا القديمة زالت مع السنة المنصرمة وإنني أنسى مآخذي وخيبات أملي وآننا سنبنّي منذ الأوّل من كانون الثاني صداقة جديدة متينة حتى لا يهدّمها شيء ورائعة إلى الحد الذي كنت آمل فيه أن تندي "جيلبيرت" بعض الدلال في الحفاظ على جدّتها وأن

تحذّرني في الوقت المناسب، مثلما وعدتُ أن أفعل بدوري، حالما يداهم أقلّ خطر يمكن أن يلحق بها الأذى. ولدى العودة استوقفتني "فرانسواز" في زاوية شارع "رويال" أمام بضائع معروضة في الهواء الطلق اختارت منها لهداياها الخاصة في رأس السنة صورا للبابا "بيوس" التاسع و"راسباي" واشترت فيما يخصني صورة لـ"لايرما" وكانت صنوف الإعجاب التي لا حصر لها التي تثيرها الفنانة تضفي ما يسم بالقلّة ذاك المحيا الواحد الذي تردّ به على ذلك الإعجاب، المحيا الثابت والعاير شأن تلك الأثواب التي لأشخاص لا يملكون بديلاً لها، الذي لا تستطيع أن تبرز فيه على الدوام سوى الثنية الصغيرة الكائنة فوق الشفة العليا وارتفاع الحاجبين وبعض الخصوصيات الجسمية الأخرى التي لا تتبدّل وهي في النهاية تحت رحمة حرق أو صدمة. ولعل ذلك المحيا ما كان ليبدو لي من جهة ثانية جميلاً بذاته، إلا أنّه كان يبعث فيّ الفكرة والرغبة في تقبيله بسبب جميع القبل التي اضطرّ أن يتحمّلها والتي كان يبدو وكأنه لا يزال يدعوها من أعماق البطاقة بتلك النظرة المغناخية الحنون وتلك الاتسامة البريئة المصطنعة. فلا بدّ أنّ "لايرما" كانت تحسّ فعلاً إزاء الكثير من الشبان بتلك الشهوات التي كانت تُقرّ بها تحت ستار شخصيّة "فيدر" والتي كان ينبغي أن يسهم كل شيء، حتّى روعة اسمها التي كانت تزيد في جمالها وتمدّ في شبابها في جعل إشباعها سهلاً إلى ذلك الحدّ. كان المساء آخذاً في الحلول. فوقفت أمام عمود مسرح ألصق عليه إعلان العرض المسرحي الذي تقدّمه "لايرما" في الأوّل من كانون الثاني. كانت تهبّ ريح نديّة وخفيفة وهو طقس كنت أعرفه فائتاني إحساس وشعور مسبق بأن رأس السنة ليس يوماً يختلف عن الأيام الأخرى وأنّه ما كان الأوّل في عالم جديد يمكنني فيه، وحظّي لا يزال كاملاً غير منقوص، أن أعود فأعرّف بـ "جيلبيرت" كما في أوّل عهد الخليقة وكما لو لم يكن هنالك ماضٍ بعد، وكما لو اضمحلّت خيبات الأمل التي سبّبتها لي بعض الأحيان، مع ما يمكن أن يُستخلص منها من علامات للمستقبل: عالم جديد لا يظللّ فيه من لقديم شيء.. فيما عدا شيئاً واحداً: رغبتني في أن تحبني "جيلبيرت". وأدركت أنّه إذا كان فؤادي يتمنّى هذا التحديد من حوله في عالم لم يستجب لرغباته فإنما يعني ذلك أنّه أي فؤادي، لم يتغيّر فقلت في نفسي أن ليس ثمة من سبب يقضي بأن يتغيّر فؤاد "جيلبيرت" بدوره. وأحسست بأن هذه الصداقة الجديدة لم تتبدل، كما لا تفصل هوة عن السنوات الأخرى تلك الجديدة التي يلقي عليها شوقي على غير علم منها اسماً مختلفاً دون أن يستطيع اللحاق بها وتبديلها. وعبثاً كنت أهدي هذه السنة لـ "جيلبيرت" وأحاول، مثلما يضعون ديانة يغطّون بها قوانين الطبيعة العمياء، طبع رأس السنة بالفكرة الخاصة التي كوّنتها عنه، ولكن دون جدوى. كنت أحسّ أنّه لا يعلم أنّهم يدعونه رأس السنة وأنّه ينقضي في الشفق على نحو لم يكن جديداً عليّ؛ فقد تعرّفت في الريح الخفيفة التي كانت تهبّ من حول عمود الإعلانات، لقد أحسست فيها مادّة الأيام السالفة الأزلية المألوفة ورطوبتها المعهودة وجريانها المجهول تعود كلّها إلى الظهور.

وعدت إلى المنزل. لقد أمضيت الأوّل من كانون الثاني كالناس المسنّين الذين يختلون عن الشباب في ذلك اليوم، لا لأنهم لا يحظون من بعد بهدايا العام الجديد، بل لأنهم لا يؤمنون من بعد بالعام الجديد. أمّا هدايا العام الجديد فقد وصلتني، فيما عدا تلك التي من شأنها وحدها أن تفرحني والتي تولّفها كلمة من "جيلبيرت". بيد أنني كنت ما أزال شاباً مع ذلك بما أنني استطعت أن أسطر

لها كلمة أمل بها، وأنا أنقل إليها أحلام وحدثني ومودّتي، أن أوقف فيها ما يشبهها. وإنّما كتابة الذين أدركتهم الشيخوخة أنّهم حتى لا يفكّرون بتسطير مثل تلك الرسائل التي عهدوا لا جدواها.

وحينما آويت إلى فراشي أمسك بي عن النوم ضجيج الشارع الذي يتطاوّل في عشية العيد تلك إلى وقت متأخّر. وأخذت أفكّر في جميع الناس الذين سيحتفلون ليلهم بالملذات، بالعاشق، بفرقة الخلعاء الذين ربّما ذهبوا لاصطحاب "لايرما" في آخر هذا العرض الذي أبصرت الإعلان عنه للمساء. وما كنت حتى أستطيع، كيما أهدئ الاضطراب الذي تبعته تلك الفكرة فيّ في ليل الأرق ذاك، أن أقول في نفسي إن "لايرما" ربّما لم تكن تفكّر في الحبّ بما أن الأبيات التي تقولها والتي درستها طويلاً كانت تذكرها في كلّ لحظة أنّه للذيذ، وهو ما كانت تعلم على آية حال، حتى أنّها كانت تُبرّز اضطراباته المعهودة - والتي أُكسبت زحماً جديداً وعدوبة لا تخطر ببال - لمشاهدين مفتونين مع أنّه سبق أن خبرها كلّ منهم بنفسه وأشعلت شمعتي المطفأة لأنظر مرّة أخرى إلى وجهها. وإذا راودني أن يمنحوا "لايرما" وتمسحهم ملذات خارقة ومبهمة، أحسست باضطراب أقرب إلى المرارة منه إلى اللذة وبحنين جاء يزيد فيه صوت البوق مثلما يبلغ الأسماع في ليلة منتصف الصوم وفي ليلة الأعياد الأخرى في الغالب. ويبدو أكثر كتابة في انطلاقه من صمارة، لأنه لا شاعرية فيه إذ ذاك منه "في المساء وفي أعماق الغابات". ولعلّ كلمة من "جيلبرت" هي تلك اللحظة لم تكن ما كان ينبغي لي. فإن رغباتنا تتداخل باطراد ويندر في فوضى العيش أن تحطّ سعادة بالضبط فوق الرغبة التي التمسّتها.

. ظللت أتردّد على "الشانزليزية" في أيام الصحو ماراً بشوارع تغمر بيوتها الأنيقة الوردية متموجة رقيقة، إذ الوقت فترة الرواج الكبير الذي صادفته معارض الرسّامين المائيين. ولعلّني أكذب لو قلت: إن قصور "غبريل" إنّما بدت لي في تلك الفترة أكثر جمالاً من الفنادق المجاورة أو هي حتى من عصر آخر غير عصرها ؛ وكنت أجد الطراز أكثر غنى وربما ظننت قصر "التروكاديرو" على الأقلّ، إن لم يكن قصر الصناعة، أكثر إغراقاً في القدم. كانت فترة يفاعتي، وقد غاصت في نوم مضطرب، تغمر بالحلم نفسه كامل الحيّ الذي تنقله فيه ولم يخطر لي في يوم أنّه يمكن أن يكون هناك بناء من القرن الثامن عشر في شارع "روبال" مثلما لعلّني كنت أدهش لو علمت بأنّ بوابة "سان مارتان" وبوابة "سان دوني"، وهما رائعتان من عصر لويس الرابع عشر، لا تعاصران أكثر الأبنية حداثة في تلك المناطق القلّة. ولمرّة واحدة استوقفتني أحد قصور "غابرييل" طويلاً ؛ ذلك أن أعمدته، بعدما حلّ الليل، بدت وقد جرّدها ضياء القمر من مضمونها المادي وكأنما اقتطعت من "الكرتون" فخلّفت في نفسي للمرة الأولى، وقد ذكرّنتي بمناظر الغنائية الخفيفة التي عنوانها "أورفيوس في الجحيم" انطباعاً جمالياً.

ولكن "جيلبرت" ظلّت لا تعود إلى "الشانزليزية"، مع أنّي كنت بحاجة إلى ملاقاتها إذ لم أعد أتذكّر حتى وجهها. إن الطريقة المتقصّبة القلقة المتطلّبة التي لنا في النظر إلى الشخص الذي نحبه،

وانتظارنا القول الذي سيهبنا الأمل في لقاء للغد وتخيلنا المتناوب، إن لم يكن الآتي، للفرح والياس إلى حين النطق بذلك القول، إن كل ذلك يجعل انتباهنا قبالة المحبوب شديد الارتعاش حتى لا يستطيع أن يحمل منه صورة شديدة الوضوح. وربما كان كذلك نشاط جميع الحواس في الآن نفسه الذي يحاول أن يعرف عن طريق النظرات وحدها ما هو كائن خلف حدودها، ربما كان بالغ التساهل مع أشكال الشخصية الحية الألف وجميع صنوف طعمها وحركاتها، تلك الشخصية التي نجمدها بالعادة حينما لا نحب. أما النموذج المحبوب فإنه يهتز بالعكس ولا يتسنى لنا منه ألبنة سوى صور غير ناجحة. لم أعد أعرف بالحقيقة كيف خُطت ملامح "جيلبيرت"، فيما عدا اللحظات السماوية التي تنشرها فيها من أجلي: فما كنت أذكر سوى ابتسامتها. وكان يغضبني، فيما لا أستطيع أن أعود فأرى ذلك الوجه الحبيب، أن ألقى وجهي باتجاه الأحصنة الخشبية وبائعة السكر النباتي، وجهين مذهلين لا حاجة لي بهما رسماً في ذاكرتي بدقة تامة: كذلك يداخل الحقن أولئك الذين فقدوا حببياً لا يعودون يرونه ألبنة في نومهم أن يلاقوا دون انقطاع في أحلامهم العديد من الناس الذين لا يطبقونهم وكثير عليهم أنهم عرفوهم في اليقظة. ويكادون يهتمون أنفسهم، في عجزهم أن يمثلوا علة عذابهم، بأنهم لا يشعرون بعذاب. وما كنت أستبعد بدوري، إذ لا أستطيع تذكر ملامح "جيلبيرت"، أنني نسيتهما وما عدت أحبهما.

وأخيراً عادت إلى اللعب في كل الأيام تقريباً وهي تمنيني بأشياء جديدة أرغب فيها وأطالبها بها في الغد، فتصنع كل يوم بهذا المعنى من مودتي مودة جديدة. إلا أن أمراً غير مرة أخرى وعلى نحو مفاجئ الطريقة التي يتم بها طرح مشكلة حبي في حوالي الساعة الثانية من بعد ظهر كل يوم. فهل ضبط السيد "سوان" الرسالة التي سطرته لابنته أم هي "جيلبيرت" تقوم بعد فترة طويلة بالإقرار أمامي بحالة أصبحت قديمة كما أكون أوفر حذراً؟ فبينما كنت أقول لها كم كنت معجباً بأبيها وأنها اتخذت ذلك المظهر الغامض الزاخر بالتحفظات والأسرار الذي تتخذه حينما يحدثونها عما كان عليها أن تفعله، عن جولاتها وزياراتها، وخلصت فجأة إلى القول: "تدري، إنهما لا يطبقانك" وانفجرت بالضحك وهي تنزل كحنية الماء - وكذلك كانت - وغالباً ما كانت تبدو ضحكتهما التي لا تتوافق وأقوالها وكأنها تصف على صعيد آخر مساحة غير مرئية على نحو ما تفعل الموسيقى. لم يكن السيد "سوان" والسيدة "سوان" يطالبان "جيلبيرت" بالكف عن اللعب معي ولكنهما ربما فضلاً، فيما تظن، أن لم تكن ثمة بداية. فما كانا ينظران بعين الرضى إلى علاقتي معهما ولا يحسبان أنني رفيع الأخلاق ويتخيلان أنني لا أستطيع أن أخلف فيها سوى أثر سيئ. كنت أنصوّر هذا الصنف من الشبان الضعيفي الدمة الذين يظن "سوان" أنني أشبههم، كنت أتصورهم يمقتون ذوي الفتاة التي يحبونها فيتملقونهم في حضرتهم ولكنهم يسخرون منهم معها ويدفعونها إلى الخروج عن طاعتهم ثم يحرمونهم حتى رؤيتها بعدما تتم لهم السيطرة عليها. ولكن بأي عنف كان فوادي يضع قبالة هذه الملامح (التي لم تكن في يوم الملامح التي يصير فيها أعظم شقي نفسه) تلك المشاعر التي يزر بها إزاء "سوان" وفيها على العكس من الحرارة ما لم أكن أشك معه أنه لابد نادم لو ارتاب بأمرها على الحكم الذي أصدره بحقي وكأنما على غلطة قضائية! وتجرات أن أسطر له كل ما كنت أحسن به تجاهه في رسالة طويلة عهدت بها إلى "جيلبيرت" ورجوتها أن

تسلّمه إياها. وقبلت، فرأى فيّ، وأسفني، محتالاً أعظم ممّا كنت أحسب. لقد شكّ إذن بتلك المشاعر التي ظننت أنّي أرسمها على مدى ست عشرة صفحة بهذا القدر العظيم من الصدق. فلم تصادف الرسالة التي سطرته لها، وهي في مثل حرارة الأقوال التي بحث بها للسيد "دو نوربوا" وصدقها، نجاحاً أكبر. وروث لي "جيلبيرت" غداة ذلك اليوم، بعدما انتحيت بي جانباً وراء كتلة من شجر الغار، وفي ممر صغير جلسنا فيه كلّ على كرسيّ، أنّ والدها لدى قراءة الرسالة التي أعادتها إليّ رفع منكبيه قائلاً: "كلّ ذلك لا يعني شيئاً وليس سوى البرهان على مدى الحقّ الذي أنا عليه." وقد أثار سخطي، أنا الذي كان يعلم صفاء مقاصده وطيبة نفسه، إن لم تلامس أقواله صفحة غلطة "سوان" غير المعقولة. كنت أحسّ أنّي جئت على وصف بعض المميّزات التي لا يمكن ردّها في مشاعري الكريمة إلى حدّ أنّه كان لا بد أن يكون "سوان" قد أحسّ بتلك المشاعر النبيلة في يوم بما أنّه لم يستطع أن يستعيدّها في الحال انطلاقاً من تلك المميّزات ولم يُقبل عليّ طالباً الصّح ومقرّاً بأنّه كان على ضلال الأمر الذي لا بدّ جعله عاجزاً عن إدراكها لدى الآخرين.

ولكن ربّما كان "سوان" يعلم ببساطة أن كرم النفس ليس في الغالب سوى المظهر الباطن الذي تتخذه مشاعرنا الأنانية حينما لا نكون بعد قد سمينّاها وصنّفناها. وربّما عرف في الميل الذي عبرت له عنه محض نتيجة - وتوكيداً حماسياً - للحبّ الذي بي له "جيلبيرت" والذي سيتمّ به حتماً - لا بالاحترام الثانوي الذي أبدية له - توجيه أفعالي فيما بعد. ما كنت أستطيع أن أشاطره تخميناته لأنّني لم أفلح في تحريد حبيّ عن ذاتي وفي إدخاله في عمومية الآخرين وفي تقدير نتائجته بالتحريب. لقد حلّ بي اليأس. واضطّرت أن أفارق "جيلبيرت" لفترة وجيزة، فقد استدعيتني "فرانسواز". وانبغى لي أن أرافقها إلى جناح صغير مشبك بشبك أخضر يشبه إلى حدّ بعيد مكاتب "الميرة" المهجورة في باريس القديمة وقد أقيم فيه منذ قليل ما يسمونه في انكلترا "مغسلة" وفي فرنسه مراحيض من جرّاء هوس بالانكليزية هزيل المعلومات. كانت جدران المدخل الذي مكثت فيه أنتظر "فرانسواز"، وهي رطبة وقديمة، تبعث رائحة من الهواء العجيب الرطب خففت عني في الحال الهموم التي بعثتها في نفسي منذ قليل أقوال "سوان" التي نقلتها إليّ "جيلبيرت" وداخلتني منها لذة لم تكن من نمط الأخريات التي تخلفنا أقلّ استقراراً وعاجزين عن الاحتفاظ بها وامتلاكها، بل لذة متماسكة أستطيع أن أستند إليها، لذة عذبة هادئة تزخر بحقيقة ثابتة أكيدة لا تفسير لها وددت لو أحاول، مثلما كنت أفعل بالأمس في نزّهاتي من جهة "غيرمانت"، النفاذ إلى سحر ذلك الانطباع الذي تملّكني والمكوث دونما حراك أسائل ذلك الانبعاث القديم الذي كان يدعوني لا إلى الاستمتاع باللذة التي لا يقدّمها لي إلا زيادة، بل إلى النزول إلى باطن الحقيقة التي لم تكشف لي عنها. غير أن المشرفة على المحلّ، وهي سيّدة عجوز مطّيلة الخدين بشعر مستعار أصهب، أخذت في التحدّث إليّ. كانت "فرانسواز" تظنّ أنّها بالتاكيد من بلدّها. لقد تزوّجت آنستها ما كانت تدعوه "فرانسواز" شاباً من أسرة محترمة" وبالتالي رجلاً يختلف عن العامل أكثر ممّا يختلف "دوق" عن إنسان "خرج من حثالة الشعب" في نظر "سان سيمون".

لقد حلّ بالمشرفة دونما شكّ قبل الزواج العديد من النكسات. إلّا أنّ "فرانسواز" كانت تؤكّد أنّها مركيزة وتنتمي إلى أسرة "سان فيرّيثول". وأشارت تلك المركيزة عليّ أن لا أظنّ في البرد. بل

هي فتحت لي أحد المراحيض وهي تقول لي: "ألا تريد الدخول؟ إليك واحداً نظيفاً جداً وهو مجاني فيما يخصك." ربّما كانت تفعل ذلك مثلما كانت الأنسات في محلّ "غواش"، حينما نجى لنوصي على طلب. يقدم لي إحدى قطع السكاكر الموضوعة على طاولة البيع تحت أحراس زجاجية وكانت والدتي للأسف تنهاني عن قبولها. وربما فعلت أيضاً على نحو أقلّ براءة كمثّل بائعة الزهور العجوز التي كانت توصيها والدتي بملء "أحواضها" والتي كانت تقدّم لي وردة وهي تنرو إليّ بلحظ مستهام. ولكن كانت "المركيزة" في جميع الأحوال تبدي ميلاً للشباب إذ تفتح لهم الباب السفلي لتلك المكعبات الحجرية التي يجلس فيها الرجال القرفصاء كتماثيل أبي الهول فلا بدّ أنها كانت أكثر بحثاً، عبر مظاهر كرمها، عن المتعة التي يلاقيها المرء في الظهور بمظهر المسرف الذي لا جدوى من إسراره حيال من يحبّ أكثر منها عن أمل إفسادهم، لأنني لم أر ألبنة بالقرب منها زائراً غير حارس حراجي مسنّ يشرف على الحديقة.

وبعد فترة استأذنت "المركيزة" تصحّبني "فرانسواز". ثم تركت هذه الأخيرة لأعود بالقرب من "جيلبيرت". ولمحتها في الحال على كرسي وراء كتلة شجيرات الغار، والأمر كي لا تراها صديقاتها، فقد كنا نلعب "الغميضة". وبادرت إلى الجلوس إلى جانبها. كانت تعتمر قلنسوة عريضة تخفضها فوق عينيها فتزوّدنا بتلك النظرة الخفية الحاملة الماكرة التي شهدتها لها أوّل مرّة في "كومبريه". وسألته إن لم تكن هنالك وسيلة يتمّ لي فيها حديث استيضاحي مع والدها. وقالت لي "جيلبيرت" إنها عرضت الأمر عليه ولكنّه حكم بلا جدواه. وأضافت تقول: "هيا خذ، لا تدع لي رسالتك، وينبغي أن ألحق بالآخرين بما أنهم لم يجدوني."

ولو وصل "سوان" حينذاك قبل أن أستردها، تلك الرسالة التي كنت أرى من العجوز أن لم يدع لنفسه أن يقتنع بها، فربّما أبصر أنّه هو من كان على حق. ذلك أني حينما اقتربت من "جيلبيرت" التي كانت تقول لي وهي مستلقية على كرسيها أن أخذ الرسالة ولا تمدّها إليّ أحسست بجسدها يجذبني إليه بشدّة جعلتني أقول لها:

- "هيا، امنعيني عن التقاطها ونرى أين أقوى."

فوضعتها خلف ظهرها، ومددت يديّ خلف عنقها وأنا أرفع جدائل الشعر التي ترسلها على كتفيها، إما لأن ذلك يلائم سنّها وإما لأن والدتها كانت تبغي إظهارها بمظهر الطفولة لفترة أطول كي ما تبدو بدورها أصغر سنّاً. ورحنا في عراك ينحني أحدهما على الآخر؛ كنت أجهد في اجتذابها وهي تقاوم. كانت وجنتاها اللتان ألهبهما الجهد حمراوين مستديرتين كحبتيّ كرز، وكانت تضحك كما لو أنني دغدغتها. كنت أشدّ عليها بين ساقيّ كشجيرة أحاول تسلّقها. وفي أثناء الرياضة التي كنت أقوم بها ودون أن يزداد، أو يكاد، اللهاث الذي يخلفه لديّ التمرين العضلي والاندفاع في اللعب بدّدت، كمثّل بضغ قطرات من العرق يعتصرها الجهد، لذتي التي لم أستطع حتى التوقف فيها الزمن الكافي لأتعرّف مذاقها؛ وفي الحال أخذت الرسالة. حينئذٍ قالت لي "جيلبيرت" برفق:

- "تدري، نستطيع، لو تشاء أن نوالي العراك قليلاً بعد."

لعلّه وافاها شعور مبهم بأنّ لعبي كان يرمي إلى غرض غير ذلك الذي أقررت به ولكنها لم تفلح في ملاحظة أنّي بلغته. أمّا أنا الذي ساورته خشية أنها لاحظت ذلك (وقد حملتني حركة انكماش وتحفظ صدرت عن جزع وخفر لديها بعد ذلك بلحظة على الظنّ بأنّي لم أكن على غير حقّ في خشيتي من ذلك الأمر) فقد قبلت مولاة العراك مخافة أن يسعها الاعتقاد بأنّي لم أضع لنفسي هدفاً غير ذاك الذي لم تعد لديّ رغبة بعده سوى المكوث بهدوء إلى جانبها.

ولدى العودة لمحت بل تذكرت فجأة الصورة التي ظلّت مخبأة حتى ذاك والتي قربتني منها دون أن تدع لي أن أراها أو أتعرفها رطوبة الجناح المشبك الذي تنبعث منه رائحة السخام تقريباً. كانت الصورة صورة حجرة عمي "أدولف" الصغيرة في "كومبريه" التي كانت تنبعث منها رائحة الرطوبة نفسها. على أنّي لم أستطع أن أفهم وأجلّت إلى ما بعد البحث عن السبب الذي وهبني من جرّاءه استعادة صورة تافهة إلى هذا الحدّ مثل تلك السعادة. وبانتظار ذلك بدا لي أنّي كنت أستحقّ بالحقيقة ازدراء السيّد "دو نوربو": فقد فضّلت حتى الآن على جميع الكتاب ذاك الذي كان يدعو محض "عارف ناي" وداخلتني حماسة حقّة لا من جرّاء فكرة هامّة، بل من جرّاء رائحة عفونة.

كانت الأمتّات منذ وقت قليل وفي بعض الأسر يصغين إلى اسم "الشانزليزيه"، إن نطق به أحد الزائرين، بمظهر الاستياء الذي يخصصن بها طبيباً ذائع الصيت يدّعين أنّه قام بالعديد من التشخيصات الخاطئة حتى يستطعن الوثوق بعد به. فهناك من كان يؤكّد أن تلك الحديقة لا تلائم الأطفال وأنّه يمكن التنويه بأكثر من مرض حنجرة وأكثر من مرض حصبة والعديد من صنوف الحمى التي تقع على مسؤوليته.

كانت بعض صديقات والدتي يأسفن، دون التشكيك تشكيكاً صريحاً بحنانها إذ توالي إرسالها إلى هناك، يأسفن لتعاطيها على الأقلّ.

ربّما كان مرضى الأعصاب على الرغم من العبارة المكرسة، أقلّ من "يصغون إلى ذواتهم": فإنّهم يسمعون في داخلهم الكثير من الأشياء التي يتبنّون فيما بعد أنهم أخطأوا في التخوّف منها إلى حدّ أنهم لا يعيرون في النهاية أيّا منها انتباههم. فكثيراً ما صاحت بهم جملتهم العصبية تقول: "النجدة!" وكأنما لمرض خطير في حين يقتصر الأمر فحسب على سقوط الثلج أو الإقبال على تغيير الشقّة السكنية حتى إنهم يتعدّون أن لا يأخذوا بالحسبان تلك التحذيرات أكثر مما يفعل جنديّ لا يتبنّونها في حمى القتال إلا قليلاً جداً حتى إنّه يستطيع وهو في طور الموت أن يظلّ بضعة أيام يعيش حياة رجل بتمام عافيته. وذات صباح أسرع في جذلان إلى غرفة الطعام حيث كان يجلس والدائي إلى المائدة، وأنا أجمع في صدري صنوف انحراف صحتي المألوفة التي كنت أعرض على الدوام بفكري عن مسيرتها المستمرة الخفية، - وإذ قلت في نفسي كالمعتاد إنّ التعرّض للبرد يمكن أن يعني لا وجوب التماس الدفء بل على سبيل المثال التأنيب على أمر ما، وإنّ قلّة الإحساس بالجوع إنّما تعني المطر الوشيك لا وجوب الامتناع عن الطعام - وجلست إلى المائدة حين استوقفني، لدى ابتلاعي أول لقمة من ضلع شهيّ، غثيان ودوار كانا الرّدّ المحموم لبدائيات مرض حجب مرآه لا

مبالاتي وأخبرت أعراضه ولكنه كان يرفض بعناد الغذاء الذي لم يكن بوسعي ابتلاعه. إلا أن فكرة منعي من الذهاب إن تبين أحدهم أنني كنت مريضاً زوّدتني إذ ذاك وفي الثانية نفسها، مثلما غريزة البقاء تزود الجريح، بالقوة للزحف حتى غرفتي حيث رأيت أن حرارتي بلغت ٤٠° ثم للاستعداد من أجل الذهاب إلى "الشانزليزيه". كان فكري الجدل يبادر، من خلال الجسد الواهن المهلهل الذي يحيط به، إلى اللحاق بالمتعة الحلوة التي أجنبيها من لعبة الزوايا مع "جيلبيرت" ويطلب به، وبعد ساعة كانت لا تزال لديّ القوة لتدوّقها، وأنا أكاد لا أقف على رجلي ولكنني سعيد إلى جانبها.

وصرّحت "فرانسواز" لدى عودتنا أنني أصبت برعكة وأني لا بدّ ألم بي "شوب وبرد"، وصرّح الطبيب، وقد استدعي للحال، أنه يفضلّ قسوة هجمة الحميّ التي كانت ترافق الاحتقان الرئويّ وعنفها، ولن تكون سوى "نار في الهشيم"، على أشكال أكثر خداعاً وخفاءً. كنت أعاني منذ زمن طويل اختناقات وقد أشار عليّ طبيبنا، على الرغم من استنكار جدّتي التي كانت تراني مذ ذاك أموت من جرّاء الإدمان، أن أتناول، بالإضافة إلى القهوين التي سبق أن وُصِفَتْ لي لتساعدني على التنفّس، البيرة أو الشامبانيا أو الكونياك حينما أشعر باقتراب النوبة. وسوف تحبط هذه الأخيرة، على حدّ قوله، في النشوة الناجمة عن الكحول. وغالباً ما اضطربت، كيما تسمح جدّتي بأن أعطي شيئاً منه، ألاّ أخفي حالة الاختناق التي تصيبني بل أن أتباهى تقريباً في إظهارها. وما إن كنت أحسّ على أيّة حال باقترابها، وأنا غير أكيد على الدوام من الحجم الذي قد تتخذه، حتى كان يساورني القلق من جرّاء حزن جدّتي الذي كنت أخشى منه أكثر من عذابي. بيد أن جسمي كان يجيجني، إمّا لأنّه أضعف من أن يحفظ وحده سرّها، وإمّا لخشيته من أن يطالبوني، وهم يجهلون المرض الرشيك، بجهد يستحيل عليه أو يشكّل خطراً عليه، إلى إعلام جدّتي بمتاعبي بدقة كنت أنتهي إلى تضمينها نوعاً من الوسواس الفيزيولوجي. فما إن أحسّ بأحد الأعراض المزعجة الذي لم يتمّ لي بعد تبينه حتى يحقق الضيق بجسمي طالما لم أفضّ به إلى جدّتي. فإن تظاهرت بأنها لا تعيره أيّ انتباه طلب مني الإلحاح، فلذهبت أحياناً إلى أبعد مما ينبغي، ويدو على الوجه الحبيب الذي لم يعد على الدوام سيّد انفعالاته مثل ما كان بالأمس لمحات إشفاق وانقباض مؤلم. حينئذ كان فؤادي يتعذّب من جرّاء الأسى الذي بها: وكما لو انبغى أن تزيل قلّاتي ذاك الأسى، وكما لو استطاع خناني أن يهبها من المسرة بمقدار ما تفعل سعادتني ارتيمت بين ذراعيها. ولما هدأت وساوسي من جهة أخرى من جرّاء يقيني بأنها كانت تعرف الانحراف الذي أعاني منه، لم يعد جسمي يقاوم مسعاي إلى طمأننتها. وكنت أعترض بأن هذا الانحراف لم يكن على شيء من الألم وأن ليس ما يدعو إلى الرثاء بحالي وأنها تستطيع أن تكون على يقين من أنني سعيد. لقد شاء جسمي أن ينال بالضبط ما يستحقّ من أن أعلن بأن ذلك الألم لم يكن داءً ولا يؤلّف بالنسبة إليّ عائناً للسعادة لأنّ جسمي لا يدّعي الفلسفة فليست من اختصاصه. وتعرّضت كلّ يوم تقريباً لنوبات الاختناق تلك في أثناء نقاهتي. وذات مساء تركتني فيه جدّتي حسن الحال إلى حد ما عادت إلى غرفتي في وقت متأخر جداً من السهرة وإذا لاحظت أن أنفاسي ضاقت صاحت وقد انقلبت ملامح وجهها: "آه! يا إلهي، كم تتعذّب". وفارقتني في الحال، وسمعتُ صرير البوّابة، وعادت بعد ذلك بقليل تحمّل الكونياك الذي بادرت إلى شرائه لأنّه كان مفقوداً في بيتنا. وأخذت بعد قليل أشعر بالسعادة. كانت تبدو جدّتي

وقد كستها الحمرة، في ضيق، وفي عينيها ما يوحى بالتعب والفتور. وقالت لي وهي تفرقني على نحو مفاجئ: "أفضل أن أدعك وأن تفيد قليلاً من هذا التحسن". إلا أنني عانقتها وأحسست على وجنتيها النضرتين ما يشبه الليل ولم أعلم إن كان ذلك رطوبة هواء الليل الذي مرّت عبره. وفي الغد لم تجئ إلى غرفتي إلا مساءً إذ كان عليها أن تخرج فيما قيل لي. ورأيت أنها تبرهن بذلك عن الكثير من اللامبالاة نحوي وتماكت كي لا ألومها على ذلك.

ولما توالى اختناقاتي في حين لم يعد يفسرها الاحتقان الرئوي الذي زال منذ مدة طويلة أرسل أهلي في طلب الأستاذ "كوتار". وليس يكفي طبيباً يُستدعى في حالات من هذا القبيل أن يكون متعلماً. فإذا يقف قبالة أعراض يمكن أن تعود لثلاثة أو أربعة من الأمراض المختلفة فإن بصيرته ونظراته الثاقبة هما اللتان تقرران في نهاية المطاف مع أي منها يمكن أن يسعفه الحظّ باللقاء على الرغم من المظاهر المتشابهة تقريباً. هذا ولا تقتضي هذه الموهبة الخفية أي تفوق في أقسام العقل الأخرى إذ يستطيع شخص عامي جداً يحبّ أسوأ أنواع الرسم وأردأ الموسيقى ولا يتمتع بأي فضول فكري أن يمتلكها تماماً. فما كانت ملاحظته ممكنة على الصعيد المادي في حالتي كان يمكن أن تسببه على حدّ سواء تشنجات عصبية أو بدايات سلّ أو الربو أو اختناق ناجم عن تسمّم غذائي يرافقه قصور في الكلتيين أو التهاب القصبات المزمن أو حالة معقّدة قد تدخل فيها عدّة من تلك العوامل. ففي حين تقتضي التشنجات العصبية أن تؤخذ بالازدراء يقتضي السلّ عناية كبيرة ونوعاً من زيادة التغذية ربّما أضّر بحالة من نوع التهاب كالربو وأمكن أن يكون خطراً في حالة الاختناق الناجمة عن تسمّم غذائي والتي تتطلب حمية هي على العكس وخيمة العقابة بالنسبة إلى مسلول. ولكن تردّد "كوتار" كان قصيراً وجاءت تعليماته ملحة: "مسهلات عيفة وسريعة، ثم الحليب على مدى بضعة أيام، الحليب فقط. لا لحم ولا كحول". وتمتعت والدتي: إنني كنت على العكس بحاجة تجديد قواي وإنني كنت عصبياً بما فيه الكفاية وأن هذا المسهل الجدير بحصان وهذه الحمية سوف يذهبان بقواي. ورأيت في عيني "كوتار"، وهما في مثل القلق الذي قد يصيبه لو أنه خشي أن يفوته القطار، أنه كان يتساءل إن هو لم ينسق وراء طبيته الطبيعية. كان يحاول أن يتذكر إن هو فكر في اتّخاذ قناع الجفاء، مثلما يبحث المرء عن مرآة لينظر إن لم ينسّ عقد ربطة عنقه. وإذا كان في شك أجاب بقطاعة: "لم أعود أن أكرّر أوامري مرّتين. إليّ بريشة. وألح على الحليب. وعندما توقف الثوبت والأرق، بعد ذلك أوافق على أن تتناول بعض الحساء ثم مسحوق البطاطا مع الالتزام على الدوام بالحليب، بالحليب. وسوف يروقك ذلك بما أن "الحليب خير طبيب". (وكان تلاميذه يعرفون تمام المعرفة هذا المثل الذي ينادي به في المستشفى في كل مرة يوصي فيها مريضاً بالقلب أو الكبد بالالتزام حمية الحليب.) وبعدها تعود بالتدرّج إلى الحياة المعتادة. ولكن، في كل مرّة يعاودك فيها السعال والاختناق عليك بالمسهلات وغسل الأمعاء والفرش والحليب. "وأصغى ببرود شديد إلى اعتراضات أمي الأخيرة، ولما فارقنا دون أن يتنازل بشرح أسباب تلك الحمية حكم والدائي أن لا علاقة لها بحالتي وأنها تضعفني دون جدوى فلم يدع لي أن أجربها. وحاولا بالطبع أن يخفيا على الأستاذ خروجهما على طاعته وتجنبا، كيما يفلحا في الأمر على نحو أكيد، جميع البيوت التي قد يلاقياه فيها. ثم قرّر القوم، وقد تفاقت حالتي، أن أتبع أوامر

الدكتور "كوتار" بالحرف، ولم يطلّ بي بعد انقضاء ثلاثة أيام حشجة أو سعال وأخذت أتنفس على ما يرام. حينئذ أدركنا أنّ "كوتار" قد ميّز أن ما كان يغلب عليّ آنذاك إنّما هو التسمّم وأنّه بإسالة الكبد وغسل الكلتيين سوف يزيل احتقان القصبات ويرد لي النّفس والنوم والقوى، مع أنّه وجدني، مثلما قال فيما بعد، مصاباً بالربو و "واقعاً في الغرام" على وجه الخصوص. وأدركنا أن هذا المحببول كان طبيب سريريّات عظيم. واستطعت أخيراً أن أنهض على قدمي. إلّا أنّهم أخذوا يتحدّثون عن التوقف عن إرسالني إلى "الشانزليزيه"، وكنت أحسب أنّهم يستغلّون الحجة كي لا أستطيع من بعد ملافاة الأنسة "سوان" فكنت أرغم نفسي على ترداد اسم "جيلبيرت" شأن اللغة الأمّ التي يجهد المغلوبون في المحافظة عليها كي لا ينسوا الوطن الذي لن يروه ثانية. وكانت أمي تمرّر يدها أحياناً على جيني وهي تقول لي:

– "ألا يروي الصبية الصغار لأُمّهم من بعد عن الغم الذي بهم؟"

وكانت "فرانسواز" تقترب مني كلّ يوم وهي تقول لي:

"آية سحنة أرى لسيدي! ها إنّك لم تنظر إلى نفسك، لكأنني بك من الأموات! صحيح أنني لو أصبت بمحض زكام لآتخذت "فرانسواز" الهيئة الجنائزية نفسها. وكان إشفافها يعود إلى "طبقتها" أكثر منه إلى حالتي الصحيّة. ولم أميز حينئذ إن كان ذلك التشاؤم يرتدي لدى "فرانسواز" طابع ألأم أو الرضى، وخلصت موقناً إلى أنّه اجتماعي ومهني.

وذاث يوم وضعت أمي على سريري، ساعة ورود البريد، رسالة. وفضضتها وأنا ساوٍ عنها بما نَها لا يمكن أن تحمل التوقيع الذي يستطيع وحده أن يجلب لي السعادة، توقيع "جيلبيرت" التي لم عد تربطني بها علاقة خارج "الشانزليزيه". بيد أنني إنّما أبصرت، في أسفل الورقة التي طُبعتْ بخاتم فضيّ يمثّل فارساً بخوذة يستدير تحته هذا الشعار: "Per vaim rectam"، تحت رسالة خَطّت بحروف كبيرة وبدت فيها جميع الجمل على وجه التقريب وكأنما وضع تحتها خطّ لمجرّد أنّ خطّ حرف "ا" كان وارداً فوقه عوضاً عن أن يقطعه فيضع بذلك خطاً تحت الكلمة المقابلة في السطر لأعلى، أبصرت بالضغط توقيع "جيلبيرت". على أن تلك الرؤية التي لا يرافقها اليقين لم تسبّ لي يّة مسرة لأنني كنت أعلم أنّها مستحيلة في رسالة موشّحة إليّ. ولم يكن منها على مدى لحظات سوى أنّها طبعّت باللاواقع كلّ ما كان من حولي. لقد أخذ هذا التوقيع الذي لا يمكن تصديقه يلعب هبة الزوايا الأربع مع سريري وموقدي وجداري بسرعة مدوّخة. أخذت أرى كلّ شيء يترنّج شأن من يسقط عن ظهر جواد وأسائل نفسي إن لم يكن ثمة حياة مختلفة تماماً عن تلك التي أعرفها منافضة لها وتكون هي الحقيقة وقد أبرزت لي فجأة فملاّتي بتلك الحيرة التي أضفاها النحاتون لذين وصفوا يوم الحساب على الأموات وهم يستفيقون على عتة العالم الآخر. وقد جاء في الرسالة أيلي: "صديقي العزيز، لقد أخبرت أنّك مرضت مرضاً شديداً وأنك لم تعد تأتي إلى

(١) باللاتينية ويعني: "من الطريق القويمه".

"الشانزليزية". وأنا بدوري لم أعد أذهب إلى هنالك تقريباً لأنّ ثمة عدداً ضخماً من المرضى. ولكنّ صديقاتي يأتين لتناول "العصرونية" كلّ اثنين وكل جمعة في منزلنا. وقد كلفتني والدتي أن أقول لك إنك تولينا سروراً عظيماً بمجيتك أنت أيضاً حالما تستردّ العافية وبوسعنا أن نعود في البيت إلى أحاديثنا الطيبة في "الشانزليزية". إلى اللقاء أيها الصديق العزيز، وآمل أن يسمح لك والدك بالمجيء كثيراً لتناول العصرونية، وأبعث إليك بكل عواطف الصداقة. "جيلبيرت".

وفيما كنت أقرأ تلك الكلمات كانت جملتي العصبية تأخذ بسرعة مذهلة الخبر الذي مفاده أن سعادة عظيمة تحلّ بي. ولكنّ روحي، يعني أنا بذاتي والمعنى الرئيسي بالأمر بوجيز العبارة، كانت لا تزال جاهلة بها فالسعادة، السعادة على يد "جيلبيرت"، إنما كانت أمراً فكّرت فيه تفكيراً مستمراً، أمراً كلّ من دنيا الأفكار، كانت "شيئاً ذهنياً"^(*)، حسبما يقول "ليوناردو" عن الرسم. إن أمر ورقة تغطيتها الحروف أمر لا يتمثله الفكر في الحال ولكن ما إن أتيت على آخر الرسالة حتى فكّرت فيها وأصبحت موضع أراءهم، أصبحت هي الأخرى "شيئاً ذهنياً" وأخذت مذ ذاك أحبّها حتى أضحي من الضروري أن أعيد قراءتها وأقبلها. حيثلذ عرفت سعادتي.

والحياة مزروعة بتلك العجائب التي يستطيع أولئك الذين يحبّون أن يأملوها على الدوام. من الممكن أن تكون هذه الأخيرة قد سبّتها على نحو مصطنع والدتي التي أرسلت تطلب من "جيلبيرت"، بعد ما رأت أنني فقدت منذ حين كلّ رغبة في الحياة، أن تكتب لي، مثلما كانت، في زمن أوّل عهدي بالسباحة، تسلم مرشدي السباح خفية، كيما أستمتع بالغطس الذي كنت أكرهه لأنه يقطع عليّ أنفاسي، علماً رائعة صنعت من الأصداغ وأغصاناً من المرجان كنت أظنّ أنني أجدها بنفسي في قاع المياه. على أنّ الأفضل بالنسبة إلى جميع الأحداث التي تتعلق بالحب، في الحياة وأوضاعها المتناقضة، أن لا نحاول الفهم لأنّها تلبو بطابعها الذي لا يرحم وغير المؤمل على حد سواء وكأنّما تحكمها قوانين سحرية أكثر منها عقلانية. فحينما يتفق لصاحب الملايين الكثيرة، وهو على ذلك رجل ظريف، أن تصرف المرأة الفقيرة العديمة الظرف التي يعيش وإياها، ويستعين في خضمّ يأسه بجميع قوى الذهب ويلجأ إلى جميع مؤثرات الأرض دون أن يفلح في أن يستعاد فخير له أن يفترض، حيال عناد عشيقته الذي لا يلين، أن القدر يغني إنهاك قواه وأن يورده الموت بأفة قلبية من أن يبحث عن تفسير منطقي. وإن تلك العقبات التي ينبغي للعاشقين أن يكافحوها والتي يحاول خيالهم الذي ألهمه العذاب استشفافها دون جدوى إنّما تكمن أحياناً في بعض وجوه غرابية طباع المرأة التي لا يستطيعون استردادها، في غيابها، في النفوذ الذي يسطر عليها أشخاص لا يعرفهم العشيق وفي المخاوف التي يوحون بها إليها، في صنف المتع التي تطالب بها الحياة في ذلك الحين، تلك المتع التي لا يستطيع عشيقها، ولا ثروة عشيقها تستطيع أن تقدمها لها. والعشيق في جميع الأحوال في موقع سيئ كيما يعرف طبيعة العقبات التي تخفيها عنه حيلة المرأة والتي يحول تقديره الذي أفسده الحب دون قدرها قدرًا دقيقاً. إنّها تشبه تلك الأورام التي يتوصل الطبيب إلى قهرها

ولكن دون أن تتم له معرفة منشئها وكمثلها تظل تلك العقبات خفية ولكنها مؤقتة. بيد أنها تدوم بعامة أكثر من الحب. ولما لم يكن هذا الأخير هوى يتسم بالتحرد، فإن المحب الذي لا يحب من بعد لا يحاول أن يعلم لماذا رفضت المرأة الفقيرة اللعوب التي أحبها، لماذا رفضت بعناد على مدى سنوات أن يمضي في الإنفاق عليها.

والسرّ ذاته الذي غالباً ما يحجب عن الأبصار سبب الكوارث إنما يلفّ، في قضايا الحب، فجائية بعض الحلول السعيدة بنسبة التكرار ذاتها (من مثل الحلّ الذي جاءني به رسالة "جيلبيرت"). تلك حلول سعيدة، أو هي على الأقل كذلك تبدو، لأنه ليس منها على وجه التقريب ما كان بالحقيقة على ذلك النحو حينما يكون الأمر أمر شعور من نوعية لا تقضي بتلبسته بعامة إلا إلى تبديل مطرح العذاب. بيد أنه يتفق أحياناً أن يحظى المرء بهدنة ويتوهم بعض الوقت أنه قد شفي.

أمّا فيما يخصّ هذه الرسالة التي أبت "فرانسواز" أن تتعرّف في أسفلها إلى اسم "جيلبيرت" (Gilberte) لأن حرف "G" المنمّق المتكئ على "I" غير منقوط كان يبدو وكأنه "A" فيما مدّ المقطع الأخير إلى مالا حدود من جرّاء توقيع متكسّر الخطوط، فإن اهتم المرء بالبحث عن تفسير عقلائي للتحوّل الذي كانت تترجمه وكان يبعث فيّ هذا القدر من السرور فربما استطاع الظنّ بأنّي مدين في قسم منه لحادثة كنت ظننت بالعكس أن من شأنها أن تقضي عليّ إلى الأبد في ذهن أسرة "سوان". ذلك أن "بلوك" جاء ليعودني قبل ذلك بقليل في حين كان الأستاذ "كوتار" الذي دعوّه للعودة منذ أن أخذت في اتباع الحمية التي فرضها عليّ لا يزال في حجرتي. ولما انتهت الاستشارة وظلّ "كوتار" بمثابة زائر فحسب لأنّ والدي احتفظا به للغداء فقد سمّح لي "بلوك" بالدخول. وفيما كنّا جميعنا نتبادل الحديث وإذ روى "بلوك" أنه سمع أنّ السيّدة "سوان" تحبني كثيراً وذلك على لسان شخص تناول معه البارحة طعام العشاء وهو وثيق الصلة بالسيّدة "سوان" وددت لو أجبته بأنّه مخطن بالتأكيد وأن أثبت، بداعي الدقة نفسها التي حملتني على التصريح بالأمر للسيّد "دو نوربوا" ومخافة أن تحسبني السيّدة "سوان" كاذباً، أنّي ما كنت أعرفها ولم أتحدّث إليها في يوم. ولكنني لم أملك الجرأة لتصويب خطأ "بلوك" لأنني أدركت تماماً أنه مقصود وأنه إن اختلق أمراً لا يمكن بالتأكيد أن تكون السيّدة "سوان" قالته فكيفما تُعلن أنه تناول طعام العشاء إلى جانب إحدى صديقات تلك السيّدة، الأمر الذي كان يحتسبه مدعاة للزهو ولم يكن صحيحاً. وقد اتفق أنه فيما احتسّر السيّد "دو نوربوا"، وقد علم أنّي لا أعرف السيّدة "سوان" وددت لو أعرفها، أن يحدثها عني، حسب "كوتار"، وقد اتخذته طبيباً لها، حسب، بعدما استخلص مما سمع على لسان "بلوك" أنها تعرفني تمام المعرفة وتقدرني، أنه إن قال حينما سيرها إنني شاب ظريف يرتبط معه بصداقة فلا يمكن أن يفيدني ذلك في شيء ويكون مدعاة لزهوه، وهما سببان حملاه على أن يروي عني لي "أوديت" حالما سنحت له الفرصة.

حينذاك عرفت تلك الشقة التي كان يفيض منها حتى الدرج العطر الذي كانت تستحدمه السيّدة "سوان"، وإنما كان يعطرها أكثر من ذلك السحر الخاص المؤلم الذي ينبعث من حياة "جيلبيرت".

فقد تعود البواب المتصلب، بعدما استحال ربة انتقام عطوفاً، حينما كنت أسأله إن كان بوسعي أن أصعد، تعود أن يشير إليّ، وهو يرفع قبعة بيد رفيقة، أنه يستجيب لرجائي. والنوافذ التي كانت تضرع من الخارج بيني وبين الكنوز التي لم تكن معدة لي نظرة براقة متعالية سطحية تبدو لي وكأنها نظرة آل "سوان" ذاتها، تلك النوافذ اتفقت لي، بعدما أكون قضيت في فصل الصيف كامل بعد الظهر بصحبة "جيلبيرت" في حجرتها، أن أفتحها بنفسى لأفسح لبعض الهواء أن يدخل، وأن أطلّ منها إلى جانبها، إن كان يوم استقبال والدتها، لأشاهد وصول الزائرين الذين غالباً ما كانوا يرفعون رؤوسهم لدى نزولهم من العربية فيحيوني بأيديهم إذ يحسبونني من أبناء أشقاء سيدة البيت. كانت تبدو جدائل "جيلبيرت" تلامس خدي في تلك اللحظات. لقد كانت تبدو لي في نعومة نجيلها، وهو طبيعي في آن واحد، وفي زخم تكرراتها الفنية قطعة فريدة استخدم فيها نجيل الفردوس نفسه. فأى معشب سماوي كنت أعطيه بذخراً لقسم زهيد منها؟ ولكن لو أمكنتني على الأقل امتلاك صورة لها أؤمن لديّ بكثير من صورة زهيرات رسمتها يد "دافنشي" وقد أقدمت، بغية الحصول على واحدة لدى أصدقاء لعائلة "سوان" وحتى لدى مصورين، على دناءات لم تزودني بما كنت أريد ولكنها ربطتني بصداقات دائمة مع أناس مزعجين إلى حد كبير.

أما والدا "جيلبيرت" اللذان منعاني فترة طويلة جداً أن أراها فقد كانا الآن - حينما أدخل إلى الردهة التي ترفرف على الدوام في جنباتها إمكانية لقائهما وهو أشد رهبة وأوفر اشتهاً من ظهور الملك في "فيرساي" بالأمس وحيث كنت أبالغ عادة، بعدما أصطدم بمشجب له سبعة فروع كشمعدان الكتاب المقدس، بتكرار التحيات أما خادم يجلس بتنورته الرمادية الطويلة فوق الصندوق الخشبي، خادم حسبه في العتمة السيّدة "سوان"، - كان والدا "جيلبيرت"، إن اتفق أن مر أحدهما لحظّة وصولي، يشدان على يدي وهما يتسلمان ويقولان لي، وما أبعد أن يبدوا بمظهر الغاضب: "كيف حالك" (ويلفظانها دونما حركة على "الكاف" (كيف حالك) تلك الحركة التي كان من المنطقي لدى عودتي إلى المنزل أن أقوم بتدريب مستمر وممتع كيما أزيّلها).

أضف إلى ذلك "العصرونيات" نفسها التي كانت "جيلبيرت" تقدمها لأصدقائها والتي بدت لي فترة طويلة على أنها أعسر الحواجز التي تفصل بينها وبينى، وقد أصبحت الآن مناسبة تجمع بيننا وتعلمني بها بكلمة تكتبها (إذ كنت لا أزال صديقاً حديث العهد) على ورق مراسلات يختلف كل مرة. فمرة يزينه كلب صغير أزرق يبرز فوق تعليق ساخر كتب بالإنكليزية وذيلٌ بعلامة تعجب، وأخرى تطبعه مرساة بحرية أو الحرفان G.S وقد امتدا امتداداً عظيماً داخل مستطيل يشغل كامل طول الورقة، أو اسم "جيلبيرت" وقد خط تارة بالمقلوب بإمضاء مختصر تحت ممطرة مفتوحة طبعت باللون الأسود وطوراً احتجز داخل مُشبكة على شكل قبة صينية تحوي سائر حروفه وقد كتبت بحرف كبير دون أن يتسنى لك تمييز حرف واحد منها. ولما لم تكن مجموعة أوراق الرسائل التي في حوزة "جيلبيرت" غير محدودة فقد كنت أشاهد من جديد بعد مضي عدد من الأسابيع الورقة التي كانت كالمرة الأولى التي كتبت إليّ فيها تحمل الشعار التالي: "Per viam rectam تحت الفارس الذي يعتمر خوذة داخل ميدالية من الفضة الكامدة اللون. وكان يتم اختيار

كل ورقة في هذا اليوم دون الآخر بمقتضى بعض الطقوس فيما كنت أحسب آنذاك، ولكنه فيما أعتقد الآن كان يتم بالأحرى لأنها كانت تحاول تذكر الأوراق التي استخدمتها في المرات الأخرى حتى لا تبعث في يوم بالورقة نفسها لأحد مراسليها إلا في فترات متباعدة أكثر ما يمكن التباعد، أقله بالنسبة إلى الذين كانت تكلف نفسها بعض العناية من أجلهم. ولما كانت بعض الصديقات اللواتي تدعوهم "جيلبيرت" إلى تلك "العصرونيات" يضطرون بسبب اختلاف ساعات الدروس إلى الذهاب حال وصول الأخرى، فقد كنت أسمع ما إن أبلغ الدرج همس أصوات ينبعث من الردهة ويقطع فجأة، وسط الانفعال الذي يسببه لي الاحتفال المهيّب الذي أزمع أن أحضره وقبلما أبلغ صحن الدرج، الروابط التي كانت تربطني بعد بالحياة السابقة ويسليني حتى التذكر بأنه ينبغي لي أن أنزع لفاف عنقي بعدما أحس بالدفء وأن أنظر إلى ساعتني كي لا أعود متأخراً. كان يبدو لي ذلك الدرج، على أي حال، وكله من خشب على نحو ما كان يتم حينذاك في بعض البيوت المعدة للاستثمار من طراز "هنري الثاني" الذي ظل فترة طويلة مثل "أوديت" الأعلى فأصبحت قرية الرجوع عنه، ويحمل لافتة لا مقابل لها في بيتنا تقرأ عليها هذه الكلمات: "يمنع استعمال المصعد للنزول"، كان يبدو لي شيئاً بلغ حداً من المهابة جعلني أقول لذويّ إنه درج عتيق جاء به السيد "سوان" من بعيد جداً. لقد كان ولعي بالحقيقة عظيماً إلى الحد الذي ما كنت لأتردد معه في تزويدهم بتلك المعلومات حتى لو علمت أنها خاطئة لأنها وحدها التي تمكنهم من إبداء الاحترام نفسه الذي أبدىه حيال مهابة درج عائلة "سوان". كذلك يخيل إليك أنك تحسن فعلاً، إزاء جاهل لا يستطيع أن يدرك قوام عبقرية طبيب كبير، بامتناعك عن الإقرار بأنه لا يعلم كيف يشفي الزكام. ولما كنت لا أتمتع بروح الملاحظة أية كانت وكنت بعامة لا أعرف اسم الأشياء الواقعة تحت ناظري ولا نوعها وأدرك فقط أنها لابد خارقة حينما تقرب من عائلة "سوان" فلم يبد لي أكيداً أنني أرتكب كذباً بتبهيبي والديّ إلى قيمة ذلك الدرج الفنية ومورده البعيد، لم يد لي ذلك أكيداً، بيد أنه لابد بدا محتملاً، فقد أحسست أنني أصبحت شديد الاحمرار حينما قاطعني والذي بقوله: "إني أعرف هذه البيوت؛ وقد شاهدت واحداً منها، إنها متشابهة كلها. وإنما يشغل "سوان" عدة طوابق فيها وقد شاهدها "بيرلييه". وأضاف أنه أراد الاستئجار في واحد منها ولكنه عدل إذ لم يجدها مريحة ولم يكن مدخلها كافي النور. قال ذلك، ولكنني أحسست بالغريزة أن فكري كان لابد أن يتحمل التضحيات اللازمة في سبيل هبة عائلة "سوان" وسعادتي، وأزحت إلى الأبد عني، بنوع من السلطة الباطنة على الرغم مما سمعت منذ لحظة، الفكرة الهدامة التي قوامها أن شقتهم شقة عادية كان من الممكن أن نسكنها، مثلما يستبعد متدين "حياة يسوع" للكاتب "رونان" (Renan).

كنت في أثناء ذلك أرتقي السلم درجة فدرجة، أيام "العصرونيات" تلك، وقد تجردت من تفكيري وذاكرتي وأضحيت محض دمية تتقاذفني أشد المنعكسات دناءة فأصل إلى المنطقة التي يتضوع فيها عطر السيدة "سوان". كان يخيل إليّ أنني أبصر عظمة قلب الحلوى الشوكولا وقد أحيط بدائرة من صحنون المعجنات المحمصة وبفوط صغيرة مشجرة رمادية تعلوها رسومات، تقتضيها اللياقة وينفرد بها آل "سوان". بيد أن هذه المجموعة اللامتغيرة المحددة كانت تبدو، شأن

عالم الضرورة لدى "كانت"، منوطة بفعل أخير للحرية. فقد كانت "جيلبيرت" تقول، وقد اجتمعنا كلنا في صالتها الصغيرة، تقول فجأة وهي تنظر إلى ساعتها:

- "اسمعوا، إن غدائي أصبح الآن بعيداً، ولن أتناول العشاء إلا في الثامنة ؛ وإنني راغبة في تناول شيء ما. فماذا ترون؟"

وكانت تدخلنا إلى غرفة الطعام، وهي مظلمة كما هو الأمر داخل جدران معبد آسيوي رسمته يد "رامبرانت" وفيها قالب حلوى هندسي البناء وديع أليف بمقدار ما هو مهيب يبدو وكأنه يترع هناك على سبيل الاحتياط، كيوم عاديّ جدّاً، فيما لو خطر لـ "جيلبيرت" أن تنزع إكليل شرفاته المصنوعة من الشوكولا وأن تدكّ أسواره بسفوحها الصهباء الشديدة الانحدار والتي شويت في الأفران كحصون قصر "داريوس". بل وأكثر من ذلك، لم تكن "جيلبيرت" تستشير جوعها فحسب كيما تبأشر في تهديم الحلوى "النينوية"^(*)، فقد كانت تستعلم عمّا بي من جوع فيما كانت تستخرج لي من البناء المنهار جانباً بأكمله مصقولاً ومقطّعاً بثمار قرمزية اللون على الطريقة الشرقية. كانت تسألني حتى عن الساعة التي يتناول فيها والداي طعام العشاء وكأنني لازلت أعرفها وكأنما سمح الاضطراب الذي كان يسيطر عليّ للإحساس بانعدام الشهية أو بالجوع لفكرة العشاء أو صورة العائلة أن تظلّ جميعها قائمة في ذاكرتي الخالية ومعدتي المشلولة. بيد أن ذلك الشلل كان لسوء الحظّ مؤقتاً. فقطع الحلوى التي كنت أتناولها دونما انتباه للأمر سوف تأتي لحظة ينبغي لي فيها هضمها. على أنها كانت لا تزال بعيدة ويانتظار ذلك، كانت "جيلبيرت" تعدّ لي الشاي "على طريقي"، فأشرب منه دون توقف في حين يحول فنجان واحد دون أن أنام على مدى أربع وعشرين ساعة. وقد تعودت لذلك والدتي أن تقول: "إنه لأمر مزعج، فلا يمكن أن يذهب هذا الولد إلى منزل "سوان" دون أن يعود منه مريضاً." ولكن هل كنت أعلم فقط، وأنا في منزل أسرة "سوان" أن ما كنت أحتسبه هو الشاي بعينه؟ ولعلني لو علمت لاحتميت منه مع ذلك لأنه لو تسنى لي فرضاً أن أسترّد للحظة تمييز الحاضر فما كان ذلك ليزودني بتذكر الماضي واستشفاف المستقبل. ولم تكن مخيلتي بقادرة أن تمضي حتى الزمن القصي الذي يمكن أن تخطر لي فيه فكرة النوم أو الحاجة إلى النوم.

أما صديقات "جيلبيرت" فلم يكنّ جميعهنّ غارقات في حالة النشوة تلك التي يستحيل معها اتخاذ قرار. فبعضهنّ كنّ يرفضن الشاي حينئذ كانت "جيلبيرت" تقول ، والجملة شائعة جدّاً في تلك الحقبة: "ويحي، إن النجاح لا يحالفني في ما أقدم من شاي! وكيفا تبألغ في إزالة فكرة الطابع الرسمي كانت تقول وهي تفسر ترتيب المقاعد حول الطاولة: "كأنما نحن في عرس ؛ يا إلهي، ما أشدّ غياب الخدم."

كانت تقرض الحلوى وهي تجلس جلسة جانبية على مقعد متصالب الأرجل وُضِعَ بالعرض.

(*) بالنسبة إلى نينوي.

وكما لو كان بمقدورها أن تحوز هذا المقدار الكبير من المعجنات المحمصة دون أن يسبق لها استئذان والدتها، حينما كانت السيدة "سوان" - التي كان يصادف "يوها" عادة "عصرونيات" جيلبيرت - تدخل بعض لحظة من مرافقتها إحدى زائراتها راكضة ترتدي المعمل الأزرق أحياناً، وفي الغالب فسطاناً من الساتين الأسود مغطى بالدانتيل الأبيض، وتقول بهيئة المتعجب:

- "عجباً، يبدو ما تأكلون طيباً، وإنني أشعر بالجوع إذ أراكم تأكلون "الكيك". وتجب "جيلبيرت" قائلة: "إننا ندعوك إذن يا ماما".

- "لا، يا كنزي الثمين، إذ ما عسى أن تقول زائرتي، فلا يزال لديّ السيدة "ترونيير" والسيدة "كوتار" والسيدة "بوتان"، وتعلمين أن السيدة العزيزة "بوتان" لا تقوم بزيارات قصيرة جداً وقد وصلت منذ قليل فقط. ما عسى أن يقول جميع هؤلاء الناس الطيبين إذ لا يروني أعود؟ إن لم يوافقني أحد بعد فسأعود للتحدث معهم (الأمر الذي يسليني أكثر بكثير) بعدما يذهبون. وأحسب أنني أستحق بعض الهدوء، فقد وافقني خمس وأربعون زائرة، وقد حدثني اثنتان وأربعون من خمس وأربعين عن لوحة "جيروم" ثم تقول لي: "هلم في أحد الأيام لتناول الشاي على طريقك مع "جيلبيرت" فسوف تعده لك وفق ما تشتهي، ومثلما تتناوله في مقرّك الصغير"، تضيف قولها وهي تسرع إلى زائراتها وكأنما كان ذلك معلوماً لديّ بقدر ما كانت عاداتي، (ومن بينها حتى تلك التي اتخذتها في تناول الشاي، إن تناولته في يوم؛ أما بشأن المقرّ فكنت غير متيقن إن كان لديّ واحد أم لا) عاداتي التي جئت أبحث عنها في هذا العالم الزاخر بالأسرار. ثم تقول: "متى تجيء؟ في الغد؟ سوف نعدّ لك خبزاً محمصاً في مثل جودة ما يتوافر لدى "كولومبان". لا؟ إنك لخبيث"، تقول ذلك لأنها منذ أن أصبح لها هي الأخرى منتدى اتخذت أسلوب السيدة "فيردوران" ولهجتها المستبدة المتصنعة. ولما كان الخبز المحمص مجهولاً لديّ مثلما كان "كولومبان" بالتمام، فلم يكن بوسع هذا الوعد الأخير أن يضيف شيئاً إلى إعرائي. وسوف يبدو أكثر غرابة أنني لم أفهم منذ الدقيقة الأولى عمن تريد السيدة "سوان" أن تتحدث حينما سمعتها تثنى على "مريتينا" (*) العجوز، بما أن الجميع يتحدثون بهذه اللغة وحتى في "كومبريه". وما كنت أعرف الإنكليزية ولكني فهمت بعد قليل أن اللفظة تشير إلى "فرنسواز". لقد علمت، أنا الذي خشي كثيراً في "الشانزليزية" من الانطباع المؤسف الذي لا بدّ أنها ستخلّفه، علمت على لسان السيدة "سوان" أن ما ولد لديها ولدى زوجها شعوراً بالمودّة نحوي إنما كان كلّ ما روت لها "جيلبيرت" عن مريتني. "تحسّ أنها مخلصّة لكم إلى حدّ كبير وأنها طيبة جداً". (وفي الحال تبدل رأيي بـ "فرانسواز" بدلاً كلياً. ولم يعد يبدو لي، تبعاً لذلك، أنّ المعلمة التي لها حذاء كاوتشوك وريشة في قبعتها أمر ضروري إلى هذا الحدّ.) وأدركت أخيراً من جرّاء بضع كلمات أفلتت من السيدة "سوان بحق السيدة "بلاتان"، وكانت تقرّ بطبيعتها ولكنها تخشى زياراتها، إن العلاقات الشخصية مع تلك السيدة لم تكن عزيزة عليّ بمقدار ما ظننت وما كانت لتحسّن وضعي لدى آل "سوان" في شيء.

(*) أوردت اللفظة بالانكليزية "nurse" ولذلك لم يفهمها.

ولئن شرعت أكتشف بتلك الرعشات من الاحترام والفرح المملكة الخيالية التي فتحت في وجهي، خلافاً لكل التوقعات، شوارعها المغلقة حتى ذاك فإنما كان ذلك فقط بوصفي صديقاً لـ "جيلبيرت". والمملكة التي يجري استقبالي فيها كانت تحتويها بدورها أخرى أكثر أسراراً يقضي فيها "سوان" وزوجته حياتهما الخارقة ويتوجهان إليها بعد ما يشدان على يدي حينما كانا يحتازان الردهة في الوقت نفسه الذي اجتازها فيه في الاتجاه المعاكس. ولكني دخلت بعد قليل أيضاً إلى صميم ذلك المعبد. لم تكن "جيلبيرت" مثلاً حاضرة وفي البيت السيد "سوان" أو السيدة "سوان". لقد سألا من ذا قرع الحرس ولما أخبرا أن القارع أنا أرسلنا يرحوانني أن أدخل لفترة بالقرب منهما وهما راغبان أن أستخدم نفوذي على ابنتهما في هذا الاتجاه أو ذاك ومن أجل هذا الأمر أو ذاك. وأخذت أذكر تلك الرسالة الكاملة المقنعة إلى حد بعيد التي سطرتهما فيما سلف لـ "سوان" والتي لم يكلف نفسه حتى عناء الإجابة عليها. وكنت أعجب لعجز الفكر والعقل والقلب عن إجراء أقل انقلاب وعن حل واحدة من تلك المصاعب التي تحلها الحياة فيما بعد يسر كبير دون أن ندري ألبتة كيف تصرفت في ذلك. كانت مكانتي الجديدة صديقاً لـ "جيلبيرت" عظيم التأثير عليها تسمح بأن أفيد من الخطوة عينها التي لو اتفق أن كان ابن أحد الملوك زميلي في مدرسة أصنّف فيها الأول أبداً لِدُنْتُ ربما لتلك الصدفة بمدخلتي الخاصة إلى القصر وبمقابلات في قاعة العرش. لقد كان "سوان" يدخلني مكتبه بمنتهى اللطف وكما لو لم يكن مثقلاً بالمشاكل العظيمة ويدعني فيه ساعة كاملة أحجب بتمتعات وفترات صامتة وليدة الخجل تقطعها طفرات من الجرأة قصيرة لا تراطب فيها عن أقوال يحول اضطرابي دون أن أفهم منها كلمة واحدة. وكان يريني حاجات فنية وكتباً يحكم أن من شأنها أن تستهويني وما كنت أشك سلفاً أنها تبر كل ما يملكه متحف اللوفر والمكتبة الوطنية جمالاً، إلا أنه يستحيل عليّ مشاهدتها. ولعل رئيس خدمه كان يدخل السرور إلى نفسي في تلك اللحظات لو طلب مني أن أعطيه ساعتني ودبوس ربطه عنقي وحذائي وأن أوقع له صكاً يجعله وريثاً لي: وحسبما تقول العبارة الشعبية الجميلة التي لا نعرف واضعها كما هي حال أكثر الملححات شهرة والتي قدّر لها مثلها مؤلف، خلافاً لنظرية "فولف" - wolf - (واحد من تلك العقول المبدعة المتواضعة من مثل ما يتفق في كل عام والتي تقع لها لقيات تضاهي "حمل الاسم على الوجه"، ولكنها هي لا تعرب عن اسمها): ما عدت أعرف ما كنت أفعل. وأكثر ما في الأمر أنني كنت أعجب حينما تطول الزيارة مما تقودني إليه تلك الساعات التي أقضيها في المنزل المسحور من انعدام التحقيق وغياب الخاتمة السعيدة على أن نخبة أملي لم يكن مردها لا قصور الروائع المعروضة ولا استحالة تثبيت نظرة شاردة عليها. فلم يكن الجمال الذاتي الكامن في الأشياء ما يجعل وجودي في مكتب "سوان" عجائباً، بل أن يلتصق بتلك الأشياء - وربما أمكن أن تكون من أقبحها في العالم - الشعور الخاص الحزين الزاخر بالشهوة الذي أحدد موقعه فيها منذ العديد من السنين والذي لا يزال يطبعها؛ مثلما كثرة المرايا وفراشي الفضة والمذابح المنحوتة المرسومة بريشة أعظم الفنانين من أصدقاء للقدّيس أنطونيوس البادواني لم تكن في شيء في الشعور بلا جدارتي وبعطفها الملكي الذي كان يدخلني حينما تستقبلني السيدة "سوان" فترة في غرفتها حيث تعد ثلاث مخلوقات جميلات ومهيئات هنّ وصيفاتها الأولى والثانية والثالثة أثواباً رائعة وهن يتسمن، والتي

كنت أتوجه إليها، بناء على الأمر الذي تفوه به خادم بينطال قصير بأن السيّدة راغبة في أن تقول لي كلمة، من طريق ممر ملئو تعطره عن بعد أطياب ثمينة تنشر دون انقطاع من حجرة زينتها نفقات محملة بالعطر.

وبعدما تعود السيّدة "سوان" بالقرب من زائراتها كنا نسمعها توالي الكلام والضحك، فقد كانت ترفع صوتها حتى في حضرة شخصين، كما لو انبغى لها أن تجابه جميع الرفاق، وتطلق الكلمات مثلما تسنى لها مرات عديدة أن تسمع "ربة البيت" تفعل في الفترات التي كانت فيه هذه الأخيرة "تدير الحديث". ولما كانت العبارات التي اقتبسناها حديثاً عن الآخرين هي تلك التي نحب استعمالها أكثر ما نحب لفترة من الزمن على الأقل، فقد كانت السيّدة "سوان" تختار تارة العبارات التي تعلمتها من أناس بارزين لم يستطع زوجها أن يتحاشى تعرفها بهم (فمنهم أخذت التكلف الذي قوامه حذف "ال" التعريف أو اسم الإشارة أمام صفة تنعت بها شخصاً، وطوراً عبارات أكثر قرباً من العامية (كان تقول مثلاً: "إنه شيء لا يذكر") وهو القول المفضل لدى إحدى صديقاتها)، وتحاول إقحامها في جميع الحكايات التي كانت تحب أن ترويها، وفقاً لعادة شاعت في "الجماعة الصغيرة". وكان يسرها أن تقول بعد ذلك: "إنني أحب هذه الحكاية حباً جماً"، "هيا اعترفي، إنها حكاية جميلة جداً"، الأمر الذي ورثته، عن طريق زوجها، عن آل "غيرمانت" الذين لم تكن تعرفهم.

كانت السيّدة "سوان" قد غادرت غرفة الطعام، ولكن زوجها الذي عاد منذ قليل كان يمر بنا بدوره. "جيلبيرت، هل تعلمين إن كانت أمك وحدها؟" - "لا يا بابا، لا يزال لديها بعض الناس."

- "كيف ذلك؟ وفي الساعة السابعة ذلك أمر مخيف. لابد أن قوى المرأة المسكينة قد تحطمت. وإنها لسماحة". (لقد سمعته في البيت على الدوام يلفظون "الألف" ممدودة جداً، فأما السيد "سوان" والسيّدة "سوان" فكانا يقولانها قصيرة.) وكان يعاود الحديث وهو يتوجه إليّ قائلاً: "فكر، منذ الساعة الثانية بعد الظهر! وقد قال لي "كميل" إن اثني عشر شخصاً على الأقل جاؤوا بين الرابعة والخامسة. ما بي أقول "اثني عشر"، فأني أظنه قال لي أربعة عشر. لا، بل اثنا عشر، أه! لم أعد أدري. حينما عدت لم أكن أفكر أنه يومها وحينما رأيت كل تلك العربات أمام الباب ظننت ثمة عرساً في البيت. إنني منذ فترة في مكنتي ولم تتوقف رنات الجرس. لقد أصبت منه بصدا، وشرفي. ولا يزال ثمة كثيرات بالقرب منها؟

- "لا، زائرتان فحسب."

- "تعلمين من هما؟"

- "السيّدة كوتار والسيّدة بونتان."

- "آه! زوجة رئيس مكتب وزير الأشغال العامة."

- "أعرف أن زوجها موظف في وزارة، ولكني لا أعرف بالضبط بأية صفة"، تقول "جيلبيرت" وهي تتصنع الطفولة.

- "كيف ذلك، أيتها الصغيرة، إنك تتكلمين كما لو كنت في العام الثاني من عمرك. ما بك تقولين: موظف في وزارة؟ إنه بمنتهى البساطة رئيس مكتب، إنه رئيس الدكان بأسرها. ثم، أين عساي وضعت رأسي، إني وشرفي في مثل شرودك، فليس رئيس المكتب بل مدير المكتب."

- "لست أدري، أنا. أهو شيء عظيم أن يكون المرء مدير المكتب؟" تجيب "جيلبرت" التي لم تكن تضيع البتة فرصة تظهر فيها اللامبالاة بالنسبة إلى كل ما يوحى بالزهو لوالديها (وربما أمكنها الاعتقاد من جهة أخرى أنها إنما تضيف ألقاً إلى علاقة ذائعة إلى ذلك الحد إذ تظهر وكأنها لا تعيرها كبير أهمية).

ويصبح "سوان" الذي يفضل على ذلك التواضع الذي قد يورثني شكاً لغة أكثر وضوحاً: "كيف ذلك، إن كان شيئاً عظيماً! إنه ببساطة الأول بعد الوزير! بل هو أكثر من الوزير، فهو الذي يقوم بكل شيء. ويبدو على كل حال أنه قدير؛ إنه رجل من الطراز الأول وشخص متميز تماماً. وهو يحمل لقب ضابط في جوقة الشرف. إنه رجل ممتع ووسيم جداً إلى ذلك."

لقد تزوجته امرأته على أية حال على الرغم من أنف الجميع لأنه كان "رجل ظرف". كان له لحية شقراء ناعمة نعومة الحرير وقسمات حلوة وصوت يصدر من الأنف ونفس قوي الرائحة، وعين من زجاج، الأمر الذي كان كافياً لتأليف وحدة نادرة رقيقة ويضيف موجهاً الحديث إلي: "سأقول لك إنني أهرأ كثيراً لرؤيتي هؤلاء الناس في الحكومة الحاضرة لأنهم من آل "بونتان" ومن بيت "بونتان - شونو"، وهم عنوان البورجوازية الرجعية الإكليريكية ذات الأفكار الضيقة. لقد عرف جدك المسكين تمام المعرفة، بالسمعة والوجه على الأقل، الجد "شونو" الذي لا يعطي سائقي العربات سوى فلس واحد بمثابة "إكرامية"، مع أنه كان غنياً في تلك الفترة، والبارون "بريو - شونو". وقد تلاشت الثروة بكاملها في انهيار شركة "الاتحاد العام"، وتم إصلاح الأحوال بجميع ما أتيج لهم؛ أما أنت فإنك أصغر من أن تكون عرفت ذلك."

- "إنه عمّ فتاة كانت تجيء إلى مدرستي في صف أدنى مني بكثير، "ألبرت" الشهيرة. سوف تصبح بالتأكيد شديدة الإغراء ولكنها الآن غريبة الأطوار."

- "إن ابنتي المدهشة فهي تعرف جميع الناس."

- "لست أعرفها، فقد كنت أراها تمرّ فحسب، فيهتفون بها يا "ألبرت" من هنا ويا "ألبرت" من هناك. ولكنني أعرف السيدة "بونتان" وهي لا تعجبني بدورها."

- "إنك على خطأ كبير جداً، فهي فتاة جميلة وذكية، وهي حتى ظريفة. وها إني ذاهب لتحيّتها ولأسألها إن كان زوجها يعتقد أننا مقبلون على الحرب وإن كان يمكن الاعتماد على الملك "تيودوز". فلا بد أنه يعلم ما في الأمر، أليس كذلك، هو المطلع على أسرار العظماء؟"

لم يكن "سوان" يتحدث على هذا النحو فيما مضى. ولكن من تراه لم يشاهد أميرات من عائلات ملكية في منتهى البساطة يتخذن تلقائياً، إن هنّ اختطفهنّ بعد عشر سنوات أحد الخدم وحاولن أن يعدن للاجتماع بالجماعات الراقية وأحسسن أن ليس من يجيء إلى منازلهم راضياً، لغة العجائز المملات ولم يسمعهنّ يقلن حينما يجيء ذكر دوقه تسابير ذوق العصر: "كانت البارحة في بيتي" و "إنني أعيش في عزلة شديدة" ؟ فمن اللا مجدي إذن ملاحظة العادات إذ يمكن استخلاصها من القوانين السيكلوجية.

كان آل "سوان" يشاركون في هذا العيب الذي يطبع أولئك الذين يرتاد منازلهم القليل من الناس. فزيارة أشخاص بارزين إلى حدّ ما ودعوتهم ومجرّد كلمة لطيفة منهم إنّما كانت تؤلّف في نظرهم حدثاً يتمنون أن يوفّروا له الدعاية. فإن شاء سوء الطالع أن تكون عائلة "الفيردوران" في لندن حينما دعت "أوديت" إلى عشاء راق بعض الشيء تدبّروا الأمر كيما يتمّ إبراق الخبر إليهم إلى ما وراء بحر المانش على يد صديق مشترك. حتّى الرسائل وبرقيات الإطراء التي تصل "أوديت" كان آل "سوان" عاجزين عن الاحتفاظ بها لذاتهم. فكانوا يتحدثون عنها إلى الأصدقاء ويعملون على أن تتناقلها الأيدي. وكانت صالة عائلة "سوان" تشبه بذلك فنادق مدن المياه التي تعلّق فيها إعلان البرقيات.

إن الأشخاص الذين عرفوا "سوان" القديم لا خارج المجتمعات فحسب، كما كان أمري، بل داخل المجتمعات الراقية وفي وسط آل "غيرمانت" ذاك الذي كانوا فيه متشدّدين إلى ما حدود فيما يخصّ الظرف والجاذب، باستثناء صاحبات السموّ والدوقات، ويحكمون باستبعاد رجال بارزين يجدونهم مملّين أو عاذّين، إنّ أولئك الأشخاص ربّما دهشوا إذ يلاحظون أنّ "سوان" القديم لم يعدل عن تكتمه فحسب حينما يتحدث عن معارفه بل كذلك عن تشدّده حينما يقتضي الأمر اصطفاؤهم. فكيف لا تثير السيّدة "بوتتان" العاذية جدّاً والسيّئة جدّاً حقنه؟ وكيف يمكنه القول بأنّها جذّابة؟ كان لابدّ أن تمنعه عن ذلك ذكريات وسط آل "غيرمانت" فيما يبدو، ولكنها كانت في الواقع عوناً له في ذلك. صحيح أن آل "غيرمانت" كانوا يتمتّعون بحلاف ثلاثة أرباع الأوساط المجتمعية الراقية، بالدوق، وحتى بلدوق مرهف، ولكنهم يشكون كذلك من التحلّق، الأمر الذي ينجم عنه إمكان انقطاع موقت في ممارسة اللوق. فإن كان أمر واحد ممن كانت الجماعة في غنى عنه، كأمر وزير خارجية جمهوري ورسميّ بعض الشيء، أو عضو مجمع علمي ثرثار، تمّت ممارسة اللوق إلى الحدّ الأقصى ضدّه ورثى "سوان" لحال السيّدة "دو غيرمانت" لأنها تناولت عشاءها إلى جانب مثل هؤلاء المدعوين في إحدى السفارات، فكانوا يفضّلون عليه ألف مرّة رجلاً أنيقاً، يعني رجلاً من وسط آل "غيرمانت"، رجلاً لا خير فيه ولكنّه يتحلّى بروح آل "غيرمانت"، رجلاً من العقلية الضيقة نفسها. أما إذا تناولت كبيرة دوقات أو أميرة من السلالة المالكة عشاءها مرّات عديدة لدى السيّدة "دو غيرمانت" فقد كانت تلفي نفسها هي الأخرى إذ ذاك من تلك الجماعة الضيقة دون أن يكون لها أيّ حق في ذلك ودون أن تتحلّى بذرة من روحها. ولكنهم بسداجة جماعة المجتمعات الراقية، كانوا يذلّون قصارى جهدهم، بما أنهم يستقبلونها في بيوتهم،

كيما يجدوها محبة لتعذر إمكان القول بأنهم إنما يستقبلونها لأنهم ألفوها محبة. وكان "سوان" إذ يجيء إلى ندوة السيِّدة "دو غيرمانت"، يقول لها بعدما تذهب صاحبة السمو: "إنها في الأساس امرأة طيبة وهي تتمتع حتى بشيء من ملكة الهزل. أنا لا أحسب أنها تعمقت في كتاب "نقد العقل المحض"، ولكنها ليست مزعجة."

وتجيب الدوقة قائلة: "رأيت من رأيك تماماً. أضف أنها كانت وجلة، ولكنها يمكن أن تكون جذابة كما ستري" - "إنها أقل إزعاجاً من السيِّدة س.ج (وهي زوجة عضو المجمع اللغوي الثرثار، وكانت مدهشة) التي تذكر لك عشرين مجلداً."

- "لا مجال ثمة لأية مقارنة ممكنة". أمّا القدرة على الإدلاء بمثل تلك الأشياء وبصدق فقد اكتسبها "سوان" لدى الدوقة وحافظ عليها، وقد أخذ الآن يستخدمها حيال الناس الذين يستقبلهم. فقد كان يجهد في أن يميّز، في أن يحبّ فيهم الميزات التي يديها كل كائن بشري إن نظرنا فيه باستعداد طيب لا بتقوُّز المرفه في الذوق. كان يُبرز فضائل السيِّدة "بوتان" مثلاً كان يفعل بالأمس بالنسبة إلى الأميرة "دو بارما" التي كان ينبغي استبعادها من وسط آل "غيرمانت" لو لم يكن ثمة امتياز لدخول بعض أصحاب السمو ولو لم يأخذوا حقاً في حسابهم، حتى حينما يتعلّق الأمر بهم، سوى النباهة وشيء من الظرف. وقد رأينا "سوان" فيما مضى على أية حال يميل إلى أن يستبدل بوضعه الاجتماعي وضعا آخر يلائمه أفضل من الأول في بعض المناسبات (وإنما كان يطبقه الآن على نحو أكثر استمراراً فحسب). وليس سوى الذين يعجزون عن تفكيك ما يبدو لهم لأوّل وهلة في إدراكهم للأمور غير قابل للانقسام من يظنون أن الوضع يؤلّف جزءاً لا يتجزأ من الشخصية. فالكائن نفسه، إمّا أخذناه في فترات متعاقبة من حياته، إنما يغمس وهو على درجات مختلفة من السلم الاجتماعي في أوساط ليست اضطراراً أكثر فأكثر سموّاً؛ وفي كلّ مرّة ترتبط أو نعود إلى الارتباط، في فترة أخرى من الحياة، بعلاقات مع وسط خاص ونحس أننا تلقى فيه رعاية خاصّة، نشعر على نحو طبيعيّ بالتعلّق فيه فنمّد فيه جذوراً بشريّة.

وأظنّ كذلك، فيما يخصّ السيِّدة "بوتان"، أن "سوان" لم يكن يغضبه التفكير، إذ يتحدّث عنها بذلك الإلحاح، بأنّ والديّ سوف يعلمان أنها تأتي لزيارة زوجته. والحقيقة أن اسم الأشخاص الذين كانت هذه الأخيرة تتوصّل شيئاً فشيئاً إلى التعرّف بهم إنما كان يثير الفضول في بيتنا أكثر ممّا يبعث الإعجاب. فكانت والدتي تقول لدى سماع اسم السيِّدة "ترومبير":

- "آه ! تلك متطوّعة جديدة وسوف تأتيها بأخريات."

وتضيف والدتي كما لم تشبّه الطريقة المستعجلة بعض الشيء والسريعة والعنيفة التي تستولي بها السيِّدة "سوان" على معارفها بحرب استعمارية :

- "أما وقد تمّ إخضاع آل "ترومبير" فلن تلبث القبائل المجاورة أن تستسلم." وحينما تقابل السيِّدة "سوان" في الشارع كانت تقول لنا لدى عودتها:

- "أبصرت السيِّدة "سوان" على أمة الحرب، تزمع الانطلاق في هجوم مثمر على قبائل "ماسيشوتس" أو "السيلايين" أو آل "ترومبير".

وجميع الأشخاص الجدد الذين كنت أقول إنني رأيتهم في ذلك الوسط الخليط والمصطنع الذي غالباً ما جيء بهم إليه ببعض الصعوبة من عوالم مختلفة إلى حد ما، كانت تكشف في الحال منشأهم وتحدّث عنهم كما قد تفعل عن غنائم كلفت ثمناً غالياً. فكانت تقول:

- "جيء به من حملة على القبائل الفلانية".

أمّا بشأن السيِّدة "كوتار"، فقد كان والدي يدهش أن تستطيع السيِّدة "سوان" العنور على مكسب، أي مكسب، في اجتذاب هذه البورجوازية اليسيرة الأناقة ويقول "على الرغم من مكانة الأستاذ فإنني أقرّ بأنني لا أفهم". أمّا أمي، فقد كانت بخلاف ذلك تفهم تمام الفهم. كانت تعلم أن جزءاً كبيراً من المتع التي تلقاها امرأة في الدخول في وسط مختلف عن ذاك الذي كانت تعيش فيه فيما مضى سوف يفوتها إن هي لم تستطع إطلاع من سلف من معارفها على المعارف الجدد الذين استبدلتهم بهم وهم نسيباً أكثر تألقاً. ولا بدّ لذلك من شاهد ندع له أن يدخل إلى هذا العالم الجديد واللديز، مثلما حشرة بطينها وسرعة تنقلها إلى قلب زهرة، ثم هو ينشر الخبر، وتلك أمنيته، كيفما اتفق عبر زيارته، ينشر البذرة التي اختلسها من حسد وإعجاب. وكانت السيِّدة "كوتار" المهية تماماً للقيام بهذا الدور من ضمن تلك الفئة الخاصة من المدعوين الذين تناديهم والدتي، وكانت تتمتع ببعض جواب من طريقة تفكير والدها، بي "أليها الغريب، اذهب وقل في سبارطة" وباستثناء سبب آخر لم يعرف إلا بعد سنوات عدّة، لم تكن السيِّدة "سوان" نخشى، في دعوتها تلك الصديقة الودودة المتحفظة المتواضعة، من أن تدخل إلى بيتها خائناً أو منافسة. فقد كانت تعلم العدد الضخم من البيوت البورجوازية التي تستطيع تلك العاملة النشيطة أن تزوره على مدى عصر يوم واحد حينما تتسلّح بريشة قبعتها وبحافظة بطاقتها. كانت تعرف قدرتها على نشر الأخبار وكانت مخوّلة أن تعتقد، بالاستناد إلى حساب الاحتمالات، أن واحداً من رواد بيت "الفيردوران" سوف يعلم على الأرجح منذ اليوم الذي يلي الغد أنّ حاكم باريس قد أودع بطاقات لديها، أو أنّ السيّد "فيردوران" نفسه سوف يسمع من يروي بأن السيّد "لوه دو بريساني" رئيس ميدان سباق الخيل قد اصطحبها هي و "سوان" إلى حفلة الملك "تيودوز". ولم تكن تفترض أسراً "فيردوران" عالمة بغير هذين الحداث اللذين يضيفان إلى قدرها لأنّ الأشكال المادية الخاصة التي تمثل فيها العزّة ونلاحقها فيها قليلة من جرّاء قصور فكرنا الذي يعجز عن أن يتخيّل في الآن نفسه جميع الأشكال التي نأمل من جهة أخرى أنها لن تقصّر - على نحو مجمل - عن اتخاذها في الوقت نفسه لصالحنا.

والسيِّدة "سوان" على آية حال لم تفر بنتائج إلا فيما كان يدعى "بدنيا الرسميين". فالنساء الأنيقات ما كنّ يذهبن إلى منزلها. ولم يحملهنّ على الابتعاد حضور أعيان من الجمهوريين. ففي زمان طفولتي الأولى كان كلّ ما يخصّ المجتمع المحافظ ينتمي إلى عالم المجتمعات الراقية وما كان يمكن استقبال أحد الجمهوريين في منتدى يتسم بالرصانة. وكان أولئك الذين يعيشون في مثل

ذلك الوسط يتخيلون أن استحالة دعوة "انتهازي"، ومن باب أولى "راديكالي" شنيع، أمر دائم، فيما يرون، على مرّ الأيام، شأن مصاييح الزيت وعربات الخيول. غير أن المجتمع، شأنه في ذلك المشكال الذي يدور بين الحين والحين، إنمّا يضع على التوالي وعلى نحو مختلف عناصر كنت تظنّها ثابتة المواقع ويؤلف منها شكلاً آخر. فلم يكن قد انقضى بعد وقت على إتمامي مناوئتي الأولى حتى كانت الدهشة تأخذ نسوة من ذوات الرأي المستقيم لالتقائهن بيهودية أنيقة في زيارة. وهذه الترتيبات الجديدة في المشكال إنمّا يصنعها ما قد يسميه أحد الفلاسفة تبدلاً في المعايير. ثم جاءت قضية "دريفوس" بمعيار جديد في حقبة تلي بقليل تلك التي شرعت أتردد فيها على منزل السيدة "سوان" وقلب المشكال مرة أخرى معيناته الصغيرة الملونة. وانقلب كل ما كان يهودياً إلى الأسفل، حتى السيدة الأنيقة، وصعد وطنيون مغمورون فاحتلوا مكانها. وأصبح أكثر منتديات باريس تألقاً منتدى أمير نمسوي متطرّف في كاثوليكيته. فلو حلّت حرب مع ألمانيه محلّ قضية "دريفوس" لثمت دورة المشكال في اتجاه مغاير، ويحتفظ اليهود إذ ذاك، بعد ما برهنوا، فأثاروا دهشة الجميع، أنهم وطنيون بمكانتهم ولا ينبغي أحد من بعد اللهاب إلى منزل الأمير النمسوي ولا حتى الإقرار بأنّه تردّد عليه في يوم.

ولا يحول ذلك في كل مرة يبدو فيها المجتمع جامداً لفترة من الزمن دون أن يتصوّر الذين يعيشون فيه أنه لن يحدث أيّ تغيير من بعد، مثلما لا يريدون بعدما رأوا بدايات الهاتف أن يؤمنوا بالطائرة. ويستنكر فلاسفة الصحافة آنذاك الحقبة السالفة ولا يكتفون بنوع المتع التي انصرف إليها الناس والتي تبدو لهم أحطّ درجات الفساد، بل يتجاوزونها إلى أعمال الفنانين والفلاسفة التي لا يظنّ لها في نظريهم أية قيمة كما لو ارتبطت ارتباطاً لا انفصام فيه بالطرق المتواليّة التي يتحلّى بها طيش المجتمعات الراقية. والأمر الوحيد الذي لا يتغير أنه يبدو في كلّ مرة أنّ "شيئاً ماقد تغير في فرنسه" لم تكن قضية "دريفوس" قد أثّرت بعد في الفترة التي ذهبت فيها إلى منزل السيدة "سوان" وكان بعض كبار اليهود بالغى النفوذ، وليس منهم من كان أوفر نفوذاً من "السير روفوس إسرائيلز" الذي كانت زوجته "الليدي إسرائيلز" خالة "سوان". ولم يكن لدى هذه الأخيرة شخصياً معارف مقربون في مثل أناقة ابن شقيقتها الذي لم يُبلّ في يوم كبير اهتمام بها لأنّه لا يحبّها مع أنّه كان لابدّ سيصبح وريثها. ولكنّها كانت الوحيدة من بين قريبات "سوان" التي تعي مكانته في المجتمعات الراقية، بينما ظلّت الأخريات بذلك الخصوص في موقع الجهل نفسه الذي ظللنا فيه لفترة طويلة. وحينما ينتقل أحد أعضاء أسرة ما إلى صفوف المجتمع الراقى - الأمر الذي يبدو له ظاهرة فريدة، ولكنه يشهد بعد مضيّ عشر سنوات أنّه تمّ بطريقة أخرى ولأسباب مختلفة على يد أكثر من شاب واحد سبق له أن ربّي معه - فإنه يجعل من حوله منطقة ظلال، أرضاً مجهولة، واضحة في أقلّ أجزائها بالنسبة إلى الذين لا يلجونها ويحاذونها دون أن يرتابوا بوجودها بالقرب منهم. ولما لم تُطلع آية وكالة إعلان بنات عمّ "سوان" على الأشخاص الذين يتردد عليهم "سوان" فقد كانوا يرون بابتسامات التنازل في حفلات عشاء عائلية (قبل زواجه الفظيع بالطبع) أنهم أنفقوا يوم الأحد على "دروب الفضيلة" في زيارة "ابن العم شارل" الذي يظنّونه على شيء من الحسد ويعتّونه القريب

الفقير فيسمونه تفكّها وبالتلاعب على عنوان رواية "بلزاك": "ابن العم الغني"^(٥). أمّا "الليدي روفوس إسرائيلز" فقد كانت تعلم هي تمام العلم من كان هؤلاء الناس الذين يغمرون "سوان" بصدقة تملؤها غيرة. وكانت أسرة زوجها، وهي تعادل على وجه التقريب آل "روتشليد"، تدير أعمال أمراء أسرة "أورليان" منذ عدة أجيال. كانت "ليدي إسرائيلز" الفاحشة الثراء تتمتع بنفوذ عظيم وقد استخدمته كي تمنع أي شخص تعرفه من استقبال "أوديت". شخص واحد خرج على طاعتها في الخفاء: إنها الكونتيسة "مرسانت". وقد شاء سوء الطالع أن دخلت الليدي "إسرائيلز"، فيما كانت "أوديت" ذاهبة لزيارة السيدة "دو مرسانت" فقد أضحيّ دونها خطر القتاد. ويتخاذل الجماعات الذين ربّما استطاعوا مع ذلك أن يبيحوا لأنفسهم كلّ شيء لم توجّه الكلام مرّة واحدة لـ "أوديت" التي لم يشجعها الأمر مذ ذاك أن تمضي قدماً في غزوتها لعالم لم يكن على أية حال ذلك الذي كانت تحبّ أن يُرحّبَ بها فيه. واستمرت "أوديت"، وسط لامبالاة حيّ "سان جيرمان"^(٦) التامة، في كونها المرأة اللعوب الجاهلة التي تختلف أشدّ الاختلاف عن البورجوازيين الضليعين في أقلّ مسائل الأنساب والذين يشاغلون تعطّشهم إلى العلاقات الأرستقراطية التي لا توفرها لهم الحياة الحقيقية بقراءة المذكرات القديمة. واستمر "سوان" من جهة أخرى في كونه دونما شكّ العاشق الذي تدير تلك الخاصّيات جميعها لدى عشيقته الأمس محبّة في عينيه أو لا أذية فيها، إذ غالباً ما سمعت زوجته تنفّره ببدع حقيقيّة على صعيد المجتمع دون أن يحاول تصويبها (من جرّاء بقيّة باقية من الحنان أو فقدان التقدير أو التكاثر في أمر تحسين معارفها). وربما كانت تلك صبيغة من تلك البساطة التي طالما خدعتنا في "كومبريه" والتي تجعله الآن، فيما هو يوالي التعرّف بأناس مرموقين لحسابه الخاص على الأقلّ، لا يهتمّ بأن يبدو الناس أثناء حديثهم في منتدى زوجته وكأنهم يعيرونهم بعض الأهميّة. وقد تناقضت هذه الأهميّة بالنسبة إلى "سوان" أكثر من أيّ وقت مضى إذ تبدّل مركز ثقل حياته. وقد بلغ جهل "أوديت"، من جهة أخرى، بأمور المجتمع مبلغاً لو ورد معه في الحديث اسم الأميرة "دو غيرمانت" بعد اسم الدوقة ابنة عمّها لقاتل "أوديت": "عجباً! إنهما من الأمراء، لقد ارتقينا إذن في سلّم المراتب". وإن قال أحدهم في حديثه عن دوق "شارتر": "الأمير"، صحتحت في الحال "الدوق، إنه دوق "شارتر" وليس أميراً. أمّا فيما يخصّ دوق "أورليان" ابن الكونت "دو باري" فنقول: "غريب أمره. إن الابن أعلى مرتبة من الأب". فيما تضيف، إذ هي مغرمة بالإنكليز: "تختلط الأمور عليك في هذه "الملكيّات"^(٧). وقد أجابت شخصاً كان يسألها من أيّ مقاطعة جاء آل "غيرمانت": "من الإين" (Aisne).

كان "سوان" على أيّ حال أعمى فيما يخصّ "أوديت"، لا حيال تلك التفورات في تربيتها، بل حيال ضحالة عقلها أيضاً. بل وأكثر من ذلك: ففي كلّ مرّة تروي فيها "أوديت" قصّة تتسم بالغباء، كان لابد أن تخالطه بقيّات من اللذة، فيما تعودت "أوديت" أن تصغي في الحديث نفسه إلى كلّ ما

(٥) عنوان رواية بلزاك هو "La cousine Berthe" أي ابنة العم بيرث، فيما تدعو بنات عمه "Le cousin Bete"

(٦) حي Saint - Germain الذي كان فيما مضى ولفترة قريبة وفقاً على عليّة القوم والأرستقراطيين.

(٧) جاء في النص "Royalties" وتعني عائدات ضريبة وقد ترجمتها بما قصدته "أوديت" وأغفلت التلاعب اللفظي.

يمكن أن يقوله من أمور رقيقة وحتى عميقة بدون اهتمام وعلى نحو سريع وبنفاذ صبر وأحياناً تعارضه بقسوة. ونخلص إلى القول بأن استبعاد الضحالة هذا للنخبة إنما يشكل القاعدة في الكثير من الأسر إن فكرنا على العكس بالكثيرات من النساء المتفوقات اللواتي يخضعن لسحر رجل غليظ الفؤاد يراقب دون شفقة أرق أقوالهن فيما ينتشين إزاء أكثر نكاته تفاهة بتسامح الحنان الذي لأحد له. ولا بد لنا أن نقول، كيما نعود إلى الأسباب التي حالت في تلك الفترة دون دخول "أوديت" في حي "سان جيرمان"، إن آخر دورة لمشكال المجتمع الراقي قد سببتها سلسلة من الفضائح. فقد ثبت أن ثمة نساء من اللواتي كانت ترتاد منازلهن بثقة تامة كن من بنات الهوى وجاسوسات إنكليزيات. لقد أصبح الناس مطالبين على مدى فترة معينة، أو هكذا ظنوا على الأقل، أن يكونوا قبل أي شيء آخر حسني السيرة والمجلس. وكانت "أوديت" تمثل بالضبط كل ما أقدم الناس على مقاطعته، ثم العودة إليه في الحال من جهة أخرى (لأن البشر إنما ييحثون في العهد الجديد عن استمرار القديم، إذ هم لا يتغيرون بين ليلة وضحاها) ولكنهم ييحثون عنه في صيغة مختلفة تسمح بأن يكونوا ضحية الخديعة وأن يعتقدوا أنه ما عاد مجتمع ما قبل الأزمة. وكانت "أوديت" شديدة الشبه بالسيدات "المحترقات" في ذلك المجتمع. والناس في المجتمع الراقي يشكون من قصر نظر شديد، ففي حين يقطعون كامل علاقاتهم بسيدات يهوديات يعرفونهن، وفيما يتساءلون عن كيفية ملء ذاك الفراغ. ييحصرون سيّدة جديدة يهودية هي الأخرى وقد دُفعت إلى هناك كأنما بفضل ليلة عاصفة. ولكنها لا تُقرن في ذهنهم، من جرّاء أنها جديدة، بما يظنون من واجبه أن يمقتوه، أسوة بالنسوة السابقات. فهي لا تطالب باحترام إلهها. ويتم تبنيها. ولم يكن الأمر أمر معاداة السامية في الفترة التي شرعت فيها بالذهاب إلى منزل "أوديت". ولكنها كانت شبيهة بما كانوا ييغون الابتعاد عنه فترة من الزمن.

وكان "سوان" فيما يخصه يقوم في الغالب بزيارة بعض معارفه بالأمس من اللواتي ينتمين بمجموعهن إذن إلى أعلى طبقات المجتمع بيد أنني لاحظت، حينما كان يروي لنا عن الجماعة التي قام بزيارتها، أن الاصطفاء من بين اللواتي عرفهن بالأمس كان يوجه ذلك الضرب من اللوق الذي نصفه فني والنصف تاريخي والذي كان يلهم هواية المجموعات لديه. ولما لاحظت أن ما يثير اهتمامه إنما كان هذه السيّدة الكبيرة المقصاة عن المسرح أو تلك لأنها سبق أن كانت عشيقة "ليست" أو أن إحدى روايات "بلزاك" تم إهداؤها لجذتها (مثلما كان ييتاع رسماً إن سبق لـ "شاتوبريان" أن وصفه). داخلني الشك بأننا استبدلنا في "كومبريه" بخطأ احتساب "سوان" بورجوازيّاً لا يرتاد المجتمعات الراقية آخر قوامه أن نحسبه أحد أكثر رجال باريس أناقة. فأن تكون صديق الكونت "دو باري" لا يعني شيئاً. فكّم من بين "أصدقاء الأمراء" أولئك من لعلمهم لا يستقبلون في منتدى مغلق إلى حد ما إن الأمراء يعلمون أنهم أمراء وليسوا متحذلقين ويحسبون أنهم يسمون إلى ذلك على كل ما ليس من دمهم إلى حد يبدو لهم فيه الأسياد الكبار والبورجوازيون من تحتهم على السوية نفسها تقريباً.

ولم يكن يكتفي "سوان" على كل حال بالبحث في المجتمع على نحو ماهو عليه وبالتمسك بالأسماء التي دونها الماضي فيه والتي لاتزال قراءتها فيه ممكنة، عن محض متعة مثقف وفنان، بل

كان يتذوّق تسلية من نوع رخيص في صنع ما يشبه الساعات الاجتماعية بتجميع عناصر غير متجانسة وجمع أشخاص أخذوا من هنا وهناك. ولم يكن لتجارب السوسولوجية المسلية هذه (أو التي يراها "سوان" على هذا النحو) الوقع نفسه على جميع صديقات زوجته - أقله بصورة ثابتة. "نويت أن ادعو عائلة "كوتار" ودوقة "فاندوم" سوياً"، يقول للسيدة "بونتان" ضاحكاً وبَنَهم الذوّاقة الذي ينوي ويغيي القيام بتجربة استبدال فلفل "كاين" بأزرار القرنفل في مرق معين بيد أن هذا المشروع الذي كان سيبدو مسلياً بمعنى اللفظة القديم، لعائلة "كوتار"، كان من شأنه أن يثير حقن السيدة "بونتان". فلقد سبق لعائلة "سوان" أن قدّمتها منذ فترة قريبة لدوقة "فاندوم" ووجدت الأمر ممتعاً وطبيعياً على حدّ سواء. ولم يكن الاعتزاز بالأمر في روايته لعائلة "كوتار" الجزء الأقل استملاً في متعتها. ولكن السيدة "بونتان" تَمّت. شأنها في ذلك شأن حاملي الأوسمة الجدد الذين يودّون، ما إن ينالوا الوسام، أن يتغلّق في الحال صنبور الأوسمة، أن لا يتم تقديم أحد من عالمها بعدها للأميرة. كانت تعلن في داخلها فساد ذوق "سوان" الذي كان يبدّد دفعة واحدة، في سبيل تحقيق غربة جمالية حقيرة، كامل الرماذ الذي ذرته في عيون عائلة "كوتار" يوم حدّثتهم عن دوقة "فاندوم" وكيف ستحالفها حتّى الحرة في نقل الخبر إلى زوجها بأن الأستاذ وزوجته سوف يأخذان هما أيضاً قسطهما من تلك المتعة التي سبق أن فاخرت أمامه بأنّها فريدة؟ ولبت عائلة "كوتار" تستطيع أن تعلم أنّها لم تُدعَ دعوة جذية. بل على سبيل التسلية! صحيح أن عائلة "بونتان" إنما دُعيت بالأسلوب نفسه، ولكن "سوان" الذي أخذ عن الأرستقراطية تلك "الدونجوانية" الأزلية التي إن وقعت بين امرأتين زهيدتي القدر حملت كلاً منهما على الاعتقاد بأنّها وحدها المحبوبة حتّى جدّاً، حدّثت السيدة "بونتان" عن دوقة "فاندوم" وكأنما عن امرأة يدور من المناسب تماماً أن تتناول طعام العشاء معها. وتقول السيدة "سوان" بعد بضعة أسابيع: "أجل، لقد قرّرنا دعوة الأمير مع عائلة "كوتار"، ويعتقد زوجي أن هذا الالتقاء يمكن أن يولّد شيئاً مسلياً". ذلك أنّها إن احتفظت من "النواة الصغيرة" ببعض العادات العزيزة على قلب السيدة "فيردوران"، كأن تصرخ بصوت عال كيما يسمعها جميع الخُلص، فقد كانت تستخدم، في مقابل ذلك، بعض العبارات - من مثل "الالتقاء" - العزيزة على نفوس آل "غيرمانت" اللذين كانت تخضع لجاذبيّتهم من البعيد وعلى غير علم منها، مثلما يفعل السحر بالنسبة إلى القمر، ولكن دون أن تقترب منهم اقتراباً ملموساً. وسأل "سوان" قائلاً: "أجل، عائلة "كوتار" ودوقة "فاندوم"، ألا ترون أن الأمر سيكون مضحكاً؟" وأجابت السيدة "بونتان" بحقن: "أظنّ أن الأمور ستسير أسوأ ما يكون السير ولن ينالكم سوى الإزعاج، وينبغي ألا تلبعوا بالنار." وقد تَمّت دعوتها وزوجها على كل حال إلى جانب أمير "أغريجنّت" إلى ذلك العشاء الذي اتخذت السيدة "بونتان" و"كوتار" طريقتين في روايته حسب الأشخاص الذين يوجّه الحديث إليهم. فقد كانت السيدة "بونتان" تقول للبعض فيما يخصّها، وكذلك يفعل "كوتار" فيما يخصّه، قول اللامبالي حينما يُسألان من ذا حضر العشاء فيما عداهم: "لم يحضر سوى أمير "أغريجنّت". فقد كان العشاء خاصاً جداً." بيد أنّه يحتمل أن يكون غيرهم أوفر اطلاعاً (فقد اتّفق أن قال أحدهم ذات مرّة لـ "كوتار": "ولكن ألم تحضر عائلة "بونتان" كذلك؟" ويجيب "كوتار"، وقد كست الحمرة وجهه، يجيب الطائش الذي صنّفه مذ ذاك في فئة السنة السوء: "لقد نسيتها". وقد تَنّت عائلتا "بونتان"

و"كوتار" كلّ فيما يخصّها بالنسبة إلى هؤلاء، دونما تشاور بينهما، رواية متماثلة الإطار لا تستبدل فيها سوى السماء الخاصة بكلّ عائلة. كان "كوتار" يقول: "لم يحضر سوى أرباب البيت ودوق "فاندوم" والدوقة زوجته - (ويبتسم ابتسامة مزهوّة) والأستاذ "كوتار" والسيدة زوجته، ثمّ، وأقسم أنّه لم يعلم أحد سبب ذلك، السيّد "بونتان" وزوجته، فقد كانا هناك كمثل شعرة في قصعة من الحساء". وتتلو السيدة "بونتان" المقطوعة نفسها بالضبط، فيما عدا ذكر اسمي السيّد "بونتان" والسيدة زوجته، بتفخيم الراضي عن نفسه، بين اسمي دوق "فاندوم" أغريجت "؛ فأما الجريان اللذان تتهمهما في آخر المطاف بأنهما وجّها الدعوة لذاتها وكانا أشبه ببقعة الوسخ فهما "كوتار" وزوجته.

كان "سوان" غالباً ما يعود من زيارته قبل العشاء بوقت يسير. وما كان يتساءل في فترة السادسة من المساء تلك، وكان يحسّ فيها فيما مضى أنّه تعيس جدّاً، عمّا كان يمكن أن تفعله "أوديت" وقليلاً ما يثير اهتمامه أن تستقبل جماعة في بيتها أو أن تكون خرجت. وكان يذكر أحياناً أنه حاول ذات يوم، لسنوات كثيرة خلّت، أن يقرأ من خلال الظرف رسالة سطرّتها "أوديت" لـ "فورشفيل". ولكن هذه الذكرى ما كانت لتشرح صدره وبدلاً من أن يعمّق الحزني الذي يحسّ يفضّل الانصراف إلى تكشيرة يسيرة في زاوية فمه يضيف إليها. إن قضت الحاجة، هزّة برأسه كانت تعني: "وماذا يهمني من ذلك؟" صحيح أنّه يحسب الآن أن الفرضيّة التي غالباً ما استوقفتها فيما مضى والتي كانت تخيّلات غيرته بموجها تسود وحدها حياة "أوديت"، وهي بالحقيقة بريئة، أنّ تلك الفرضيّة (وقد كانت بمحملها خيرة بما أنها قللت من عذابه إذ أظهرته من نتاج الخيال ما دام مرض العشق قائماً في نفسه) لم تكن الصحيحة، وأن غيرته هي التي أصابت فيما رأت وأن "أوديت" إن كانت قد أحبت فوق ما تصور فقد خدعته فوق ذلك. لقد أقسم فيما مضى، أثناء ما كان يتعذب أشدّ العذاب أنّه سوف يوفّر لنفسه، حالما يكف عن حبّ "أوديت" ولا يخشى من بعد أن يغفلها أو أن يحملها على الاعتقاد بأنّه يحبّها أشدّ الحبّ، فرصة كشف النقاب معها، لمجرّد ولع بالحقيقة وكأنّما عن نقطة تاريخية، عمّا إذا كان "فورشفيل" في السرير معها أم لا، يوم قرع الجرس ونقر على الزجاج دون أن يفتّح له، ويوم كتبت تقول لـ "فورشفيل" إنّ من جاء كان أحد أعمامها. بيد أن المشكلة المثيرة التي كان لا ينتظر سوى نهاية غيرته كي يكشف النقاب عنها إنما فقدت بالضبط كل أهميّة في عيني "سوان" حينما كفّ عن الشعور بالغيرة. ولم يتمّ الأمر مع ذلك في الحال. ذلك أنّه لم يعد يشعر بالغيرة حيال "أوديت" فيما ظلّ يوم النقرات اللامجدية التي نقرها بعد الظهر على باب المنزل الصغير في شارع "لابيرو" يثير في نفسه شيئاً منها. لكنّما لم تتخذ بالغيرة، وهي شبيهة في ذلك بتلك الأمراض التي يبدو أنّها اتخذت مقرّها ومركز عدواها في بعض الأمكنة وفي بعض البيوت أكثر منها في بعض الأشخاص، لكنّما لم تتخذ من "أوديت" نفسها موضوعاً لها أكثر منها من ذلك اليوم وتلك الساعة في الماضي البعيد الذي نقر فيه "سوان" على جميع مداخل نزل "أوديت". وكأنّما ثبت في ذلك اليوم وتلك الساعة وحدهما بعض شذرات أخيرة من الشخصية العاشقة التي حملها "سوان" فيما مضى فلا يلقاهما إلا هناك. إنّهُ منذ زمن طويل لا يهتم أن تكون "أوديت" قد خدعته ولا تزال تخدعه. ولكنه والى مع ذلك البحث على مدى بضع سنوات عن خدعته لدى "أوديت" لشدة ما

استمر لديه فضوله المولم في أن يعلم إن كانت "أوديت" في ذلك اليوم البعيد جدًّا تضاجع. "فورشفيل". ثم إن ذلك الفضول نفسه تلاشى دون أن تتوقّف تحرّياته، فقد استمرّ يحاول أن يعرف ما لم يعد يهتمّ لأنّ "أناه" القديمة بعدما بلغت أقصى الهرم ظلّت تعمل آلياً وفق اهتمامات زالت إلى حدّ أن "سوان" لم يعد يفلح حتى في تصوّر ذلك القلق، وهو قويّ فيما مضى حتى لا يستطيع أن يتخيّل آنذاك أنّه سيتخلّص منه في يوم وأن موت تلك التي يحبّها وحده (الموت الذي لا يقلّ في شيء عذابات الغيرة مثلما سوف تبرزه فيما بعد في هذا الكتاب تجربة مضادّة قاسية) يبدو قادراً أن يمهد له درب حياته المسدود كلياً.

على أن حلّو وقائع حياة "أوديت" ذات يوم، تلك التي كانت سبباً في عذابه، لم يكن منية "سوان" الوحيدة، فقد أضاف إليها احتياطاً منية الثأر من عذابه ذاك حينما يكفّ عن حبّ "أوديت" فلا يخشاها من بعد. وقد سححت له بالضبط فرصة الاستجابة إلى هذه الأمنية الثانية لأنّ "سوان" كان يحبّ امرأة أخرى، امرأة لا توفر له أسباب الغيرة، ولكنها تثير الغيرة في نفسه مع ذلك لأنه لم يعد قادراً أن يحدّد الطريقة التي يحبّ بها وأنّ تلك التي لجأ إليها مع "أوديت" كان لا يزال يفيد منها مع أخرى ثانية. ولم يكن ضرورياً أن تخونه تلك المرأة كيما تبعث غيرة "سوان" من جديد، بل يكفي لسبب أو لآخر أن تكون بعيدة عنه، أن تكون في سهرة على سبيل المثال وبدا أنّها تلهو فيها. كان ذلك كافياً كي يوقظ فيه القلق القديم، وهو زائدة مؤسفة ومناقضة نمت على حبّه، وكان يقصّي "سوان" عمّا يمثله من حاجة ينبغي بلوغها (هي العاطفة الحقيقية التي تكنّها له تلك المرأة الشابة، وشوق ساعات نهارها الخفيّ وخفايا فوادها)، لأنّ ذلك القلق كان يضع بين "سوان" وتلك التي يحبّها ركاماً مستعصياً من شكوك سابقة وجدت علّتها في "أوديت" أو ربّما في واحدة أخرى سبقت "أوديت" ولا تفسح من بعد مجالاً للعاشق الهرم في معرفة عشيقته اليوم إلا من خلال الطيف القديم المشترك للمرأة التي تثير غيرته، ذلك الطيف الذي جسّد فيه حبّه الجديد تجسّداً اعتبارياً. وغالباً ما كان يتهمّ "سوان" تلك الغيرة مع ذلك بأنّها تحمله على الاعتقاد بخيانات وهميّة ؛ ولكنه يذكر آنذاك أنّه جعل "أوديت" تفيد من الحجة نفسها وأخطأ فيما فعل. ولذلك لم يعد يبدو بريئاً في عينيه كلّ ما كانت تفعله المرأة التي يحبّها في الساعات التي لم يكن فيها إلى جانبها. بيد أنّه في حين أقسم فيما مضى، إن هو كفّ يوماً عن حبّ تلك التي لم يستشفّ أنّها ستصبح يوماً زوجته، أن يُيدي لها لا مبالاته الصريحة دونما شفقة لئلاّ لكبريائه الذي طالما أذلّ، لم يعد يهتمّ من بعد بتلك العمليات الانتقاميّة التي كان بوسعه القيام بها الآن دون مجازفة (إذ ما عساه ينال إن يؤخّذ بكلامه ويحرّم من تلك الجلسات المنفردة مع "أوديت" والتي كانت بالأمس ضروريّة له إلى حدّ بعيد؟ ؛ فقد تلاشت إلى جانب الحبّ الرغبة في إبداء أنّه لم يعد به حبّ. لقد أصبح يتخذ الآن إذ يستطيع ذلك احتياطات لا تحصى كي لا ترتاب زوجته بأمر هذا الحبّ الجديد.

لم أشارك مذ ذاك في تلك "العصرونيات" فحسب، تلك التي سبق أن اكتأبت من جرّائها بالأمس لرؤيتي "جيلبيرت" تفارقني وتعود قبل الأوان. بل أضحي السيّد والسيدة عقيلته يقبلانني الآن

في الغدوات التي تقوم بها بصحبة والدتها، إمّا للذهاب في نزهة أو إلى حفلة في العصر، والتي كانت تحرمني إياها إذ تحول دون مجيئها إلى "الشانزليزية" في الأيام التي كنت أظلّ فيها وحيداً على امتداد المرح أو أمام الأحصنة الخشبية ؛ لقد أضحت لي مكان في عربتهما، وإليّ يُوجّه السؤال إن كنت أفضل الذهاب إلى المسرح أو إلى درس في الرقص لدى رفيقة لـ "جيلبيرت" أو إلى الاجتماع الصغير للسيدة "سوان" (وتدعوه هذه الأخيرة بالاجتماع الصغير ("un petit meeting") أو لزيارة قنور "سان دوني").

وفي تلك الأيام التي كان ينبغي لي فيها الخروج مع عائلة "سوان" كنت أجيء إلى منزلهم لتناول طعام الغداء الذي تسميه السيدة "سوان" le lunch ؛ ولما كانت الدعوة محدّدة بالثانية عشرة والنصف ظهراً وكان أهلي يتناولون طعام الغداء في الحادية عشرة والربع فقد كنت أتخذ طريقي، بعدما يغادرون المائدة، إلى ذلك الحيّ الفخم المنعزل تقريباً في جميع الأوقات وبخاصّة في ذلك الوقت الذي عاد فيه كلّ الناس إلى بيوتهم. وكنت أذرع الشوارع جيعة وذهاباً بانتظار الساعة الثانية عشرة وسبع وعشرين دقيقة حتى في الشتاء وفي الصيف إن كان الطقس صحوّاً، وأنا أشدّ بين الحين والحين عقدة رابطة عنق رائعة من عند "شافير" وأنظر إن لم يتسخ حذائي الملمّع. وأبصر من البعيد الشمس التي تلمع بها كما الصقيع الأشجار العارية في حديقة عائلة "سوان" الصغيرة. والصحيح أن تلك الحديقة الصغيرة لم تكن تحوي سوى شجرتين ؛ ولكن الساعة غير المعتادة كانت تضفي على المشهد حدّة. وتختلط بمنع الطبيعة تلك (التي يزيد منها انتقاء العادة وحتى الجوع) فكرة الغداء المرتقب المؤثرة لدى السيدة "سوان" فلا تقلل منها بل تهيمن عليها وتستبعدا فتجعل منها متممات اجتماعيّة، إلى حدّ أني إن بدا لي أنني أكتشف الصحو والبرد والضياء الشتائي في تلك الساعة التي لم أكن أبصرها فيها بالعادة فإنما بمثابة تمهيد للبيض بالكريما وبمناخ طيبة وألوان وردية نديّة تنضاف إلى كساء ذلك المعبد الزاخر بالأسرار المتمثّل في منزل السيدة "سوان" والذي يفيض على العكس دفئاً وطوباً وأزهاراً.

وفي الثانية عشرة والنصف ظهراً كنت أقرّر الدخول أخيراً إلى ذلك البيت الذي يبدو لي، شأن حذاء عيد الميلاد، وكأنّه يحمل إليّ متعاً خارقة. (وكان اسم الميلاد مجهولاً على كلّ حال لدى السيدة "سوان" و"جيلبيرت" اللتين استبدلتا به كلمة "كريسماس")^(١) فلا تتحدّثان إلا عن كعكة الكريسماس وما قدّم لهما في الكريسماس. وعن غيابهما - وأجنّ المأ من جراء ذلك - بمناسبة الكريسماس. ولعلّني كنت أظنّ أنّ العار يلحق بي حتى في بيتنا إن أنا تحدّثت عن الميلاد فلم أعد أقول إلا كريسماس، الأمر الذي يراه والذي مثيراً للسخرية إلى أقصى حدّ).

ولم ألتق بادئ الأمر إلا بخادم أدخلني، بعدما حملني على اجتياز عدّة صالات كبيرة، في صالة صغيرة جداً وخياليّة وقد أخذت تغمرها بالأحلام زرقة العصر في نوافذها. وأظلّ وحدي برفقة أزهار

(١) Christmas أي عيد الميلاد بالإنكليزية.

الأوركيدا والورود والبنفسج التي تصمت، شأن أشخاص ينتظرون بالقرب منك ولكنهم لا يعرفونك - صمتاً يزيد من تأثيره في تفردا كأشياء حيّة، وتستقبل بارتعاش الممرور دفء نار فحم متوهجة وضعت بتأني شديد خلف إطار من الكريستال في حوض من الرخام الأبيض تنهار فيه بين الحين والحين أحجار ياقوتها الخطرة.

وكنت قد جلست، ولكنني نهضت على عجل إذ سمعت الباب يفتح، وما كان ذلك سوى خادم آخر، ثم ثالث وكانت النتيجة الزهيدة التي تنتهي إليها جيئاتهم ورواحهم التي تهزني دون جدوى أن يضيفوا قليلاً من الفحم فوق النار، ومن الماء في الآنية. ثم يمضون، وأعود فألقى نفسي وحيداً بعدما ينغلق الباب الذي لابدّ ستفتحه السيّدة "سوان" في نهاية المطاف. ولعلني كنت أصاب في مغادرة سحرية باضطراب أقلّ بالتأكيد ممّا يلحق بي في صالة الانتظار الصغيرة هذه التي تبدو النار فيها وكأنها تقوم بضروب من التحول كما هي الحال في مخبر "كلنفسور". ويدوي وقع خطي جديد فلا أنهض إذ هو لابدّ خادم آخر، فإذا هو السيّد "سوان". ما هذا؟ تجلس وحدك؟ لا حول لنا في ذلك، فزوجتي المسكينة لم تستطع يوماً أن تعرف أي شيء هي الساعة. إنها الواحدة إلا عشر دقائق، وفي كلّ يوم تزداد تأخراً. وسترى بنفسك أنه ستصل دون استعجال ظناً منها أنها جاءت قبل الأوان". ولما كان "سوان" لا يزال عرضة لالتهابات الأعصاب وأصبح يثير السخرية بعض الشيء فإن تكون له زوجة غير دقيقة إلى هذا الحدّ تعود متأخرة جداً من الغاية وتنسى نفسها لدى خياطتها ولا تحضر ألبّة إلى الغداء في الساعة المحدّدة إنّما كان يقلقه بشأن معدته ولكنّه يدغدغ كبرياءه.

كان يريني مشتريات جديدة أقدم عليها ويشرح لي فائدتها، ولكن الانفعال المقرون بأنني لم أعود المكوث دون طعام حتى تلك الساعة كان ينشر الفراغ في فكري فيما يبعث فيه الاضطراب حتى أنّني وإن كنت قادراً على الكلام لم أكن قادراً على الاستماع. كان يكفي على كلّ حال بالنسبة إلى الأعمال الفنيّة التي بحوزة "سوان" أن تكون موجودة في منزله وأن تشارك في الساعة الحلوة التي تسبق طعام الغداء ولعلّ لوحة "الجوكونده" لو كانت هناك لما بعثت في نفسي سروراً أعظم من الذي يبعثه معطف منزلي للسيّدة "سوان" أو مملحاتها.

وكنت أوالي الانتظار وحيداً أو بصحبة "سوان" وفي كثير من الأحيان "جيلبيرت" التي جاءت تؤانسننا. لقد بدا لي أنّ قدوم السيّدة "سوان" الذي أعيدّ له بهذا العدد الكبير من الجيئات الفخمة كان ينبغي أن يكون أمراً هائلاً. فكنت أترصد كل صرير. على أنّك لا تجد ألبّة كاتدرائية وموجة في العاصفة وقفزة راقص في مثل الارتفاع الذي أمّلت، فبعد هولاء الخدم بلباسهم الرسمي، وهم أشبه ما يكونون بالممثلين الصامتين الذي يُعَدُّ موكبهم في المسرح لقدوم الملكة الأخير ويقلّل بذلك من أهميته، لم تكن تفني السيّدة "سوان"، إذ تدخل خلصة بمعطف صغير من فرو ثعلب الماء وخمارها الصغير مرخى فوق أنف كساه البرد حمرة، بالعود المبدولة لمخيلتي في أثناء الانتظار.

أمّا إذا مكّنت طوال فترة الصباح في المنزل فقد كانت ترتدي حينما تقبل إلى الصالة مبدلاً من الحرير الصيني الرقيق فاتح الألوان يبدو لي أوفر أناقة من جديع فساتينها.

وكانت أسرة "سوان" تقرر أحيانا المكوث في البيت طوال فترة ما بعد الظهر ؛ وسرعان ما كنت أبصر آنذاك، وقد تناولنا طعام الغداء في وقت متأخر جدًا، شمس ذلك النهار الذي بدا لي أنه ينبغي أن يختلف عن سواه تميل على جدار الحديقة الصغيرة، وبعثاً يحيى الخدم بمصاييح من جميع الأحجام وجميع الأشكال وكلّ منها يشتعل فوق مذبح مائدة جدارية أو طاولة مستديرة أو زاوية أو طاولة صغيرة وكأنما للاحتفال بأحد الطقوس المجهولة، فلم يكن ينبثق عن الحديث أي شيء خارق وكنت أغادر خائب الآمال مثلما يحدث ذلك في الغالب منذ الطفولة بعد قداس منتصف الليل.

على أنّ تلك الخيبة لم تكن إلا روحية، فقد كنت أتَهَلَّل فرحاً في ذلك البيت الذي توّمع "جيلبيرت"، حينما لم تكن بعد برفقتنا أن تدخله وسوف تهني بعد لحظة وعلى مدى ساعات كلامها ونظرتها المهمة المشرقة على غرار ما سبق أن رأيته للمرة الأولى في "كومبريه". وأكثر ما في الأمر أنني كنت أحسّ بشيء من الغيرة إذ أراها تختفي مرّات كثيرة في حجرات كبيرة يبلغ المرء إليها بدرج داخليّ. ولما كنت مضطراً أن أمكث في الصالة. شأن عاشق ممثلة لا يملك سوى مقعده في القاعة ويحلم مضطرب الفكر بما يجري وراء الكواليس وفي مقرّ الممثلين، طرحت على "سوان" بشأن هذا القسم الآخر من البيت أسئلة يكتنفها غموض مدروس ولكن بلهجة لم أفلح في إقصاء بعض القلق عنها. فشرح لي أن الحجرة التي تومّها "جيلبيرت" هي حجرة البياضات وعرض أن يريني إيّاها ووعد أنه سيرغم "جيلبيرت" أن تصطحبني إليها في كل مرة يقع عليها الذهاب إلى هناك. وقد حذف "سوان" فجأة بالنسبة إليّ، بفضل هذه الكلمات الأخيرة والراحة التي زودتني بها، إحدى تلك المسافات الداخليّة الرهيبة التي تبدو لنا في نهايتها المرأة التي نجّيتها شديدة البعد عنا. وأحسست نحوه في تلك اللحظة بمودة حسبتها أوفر عمقاً من مودتي لـ "جيلبيرت"، فقد كان يهيني ابنته، وهو سيدها، أمّا هي فترفض أحياناً، ولا يتوافر لي مباشرة عليها ذلك السلطان نفسه الذي لي على نحو غير مباشر عن طريق "سوان" ولكنني في النهاية أحبها هي، ولا يسعني بالتالي أن أراها بمعزل عن ذلك الاضطراب، عن ذلك الشوق إلى أمر إضافي، الشوق الذي ينزع منا بالقرب من الشخص الذي نجّبه الإحساس بالحبّ.

على أننا ما كنّا في أكثر الأحيان نلازم البيت بل نبادر إلى النزهاء. وتحلس السيّدة "سوان" أحياناً إلى البيانو قبل أن تمضي لارتداء ثيابها. كانت يداها الجميلتان تمدّان من فتحات أكمام معطفها البيتي الذي من حرير صيني رقيق، من فتحات أكمامها الوردية أو البيضاء، وهي في الغالب زاهية الألوان، سلامياتهما فوق البيانو بالكأبة نفسها التي في عينيها وليست في فوادها. واتفق لها في أحد تلك الأيام أن عزفت لي القسم الذي يتضمّن الجملة الصغيرة التي أحبّها "سوان" حبّاً جمّاً في سوناتا "فتتوي". ولكن المرء لا يدرك في الغالب شيئاً إن كانت هناك موسيقى على شيء من التعقيد يصغي إليها للمرّة الأولى. إلا أنني رأيته أعرف تلك السوناتا أتمّ المعرفة حينما عزّفت لي فيما بعد مرتين أو ثلاث مرّات. وليس يخطئ لذلك من يقول عن "الاستماع للمرّة الأولى". فإن لم يتفق للمرء حقّاً، حسبما ظنّوا، أن يميّز شيئاً في الحفلة الموسيقية الأولى، فسوف تظلّ الثانية والثالثة حفلات أولى وليس هنالك ما يدعو إلى إدراك شيء أكثر في العاشرة. والأرجح أن موقع القصور في

المرّة الأولى ليس الإدراك بل الذاكرة. ذلك أن ذاكرتنا بالنسبة إلى تعقيد الانطباعات التي يقع عليها أن تواجهها في أثناء إصغائنا لطيفة جدّاً وفي مثل قصر ذاكرة رجل يفكر أثناء نومه بألف أمر ينسأها في الحال أو رجل عاد إلى عهد الطفولة ولا يذكر في الدقيقة التالية ما قيل له منذ لحظة. تلك الانطباعات العديدة لا تستطيع الذاكرة أن تزودنا على الفور بذكرها. بيد أن هذه إنمّا تشكل شيئاً فشيئاً في الذاكرة وإنمّا فيما يخصّ الأعمال الفنية التي سمعناها مرّتين أو ثلاث مرّات في موقع التلميذ الذي أعاد قبل النوم مرّات عديدة قراءة الدرس الذي ظنّ أنّه لا يعرفه والذي يقوله عن ظهر اللب في صباح الغد. ولكنّي لم أكن بعد قد سمعت حتى ذلك اليوم شيئاً عن تلك السوناتا، وحينما كان يبصر "سوان" وزوجته جملة متميّزة كانت هذه الأخيرة بعيدة عن إدراكي الواضح بعد اسم نحاول أن نتذكره ولا نجد مكانه سوى العدم، سوى عدم تدنّف منه بعد ساعة، بوثة واحدة ومن تلقاء ذاتها ودون أن نفكر فيها، المقاطع التي التمسناها بادئ الأمر دون جدوى. ولا يقتصر الأمر على أننا لا نحفظ في الحال الأعمال الفنية النادرة حقّاً ولكننا حتى في صميم كلّ من تلك الأعمال إنمّا نتيّن بادئ الأمر أقلّ الأجزاء قيمة، وقد وقع لي ذلك بالنسبة إلى سوناتا "فتتوي". ولذلك لم يقتصر خططي على التفكير بأن ذلك العمل الفني لم يعد يخبّي لي شيئاً (الأمر الذي جعلني أطلّ طويلاً دون أن أحاول سماعه) بما أنّ السيّدة "سوان" قد عزفت لي الجملة الأكثر ذيوماً فيها (وكنّت في ذلك بمثل غباء الذين لا يتوقّعون أن يحسّوا من بعد بأية دهشة أمام كنيسة القديس مرقس في البندقية لأنّ الصورة الشمسية أطلعتهم على شكل قبابها). ولكنّي حتى حينما استمعت للسوناتا من أولّها إلى آخرها فقد ظلّت إلى ذلك غامضة بأكملها بالنسبة إليّ كمثّل بناء أثري لا تدع لك المسافة أو الضباب أن تبيّن منه سوى أقسام طفيفة. من هنا تنجم الكآبة التي تلازم معرفة مثل هذه الأعمال، على غرار كلّ ما يتحقّق في الزمان. وعندما تكشّف لي ما كان أكثر خفاءً في سوناتا "فتتوي"، أخذ يغيب عنيّ، أخذ يهرب منّي مذ ذاك ما سبق أن تبيّنته وفضّلته بادئ الأمر وقد جرفته العادة بعيداً عن مواقع إحساسي. ولأنّي لم أستطع أن أحبّ كلّ ما كانت تحمله إليّ تلك السوناتا إلّا في أوقات متعاقبة فلم أمتلكها في يوم بأكملها؛ وكانت بذلك شبيهة بالحياة. إلّا أنّ تلك الروائع العظيمة مخيبة للآمال أقلّ من الحياة، فهي لا تبدأ بتزويدنا بأفضل ما لديها. فأما المحاسن التي نكتشفها قبل كلّ شيء في سوناتا "فتتوي" فتلك التي نملّها سريعاً وللسبب نفسه الذي قوامه أنها قليلة الاختلاف عمّا سبقّت لنا معرفته، لا شكّ في ذلك. ولكن حينما تبعد عنّا تلك المحاسن يبقى لنا أن نحبّ تلك الجملة التي جعلها ترتيبها، وهو جديد إلى حدّ أنّه لا يوفرّ لفكرنا سوى الغموض. جعلها تمتنع على الإدراك وحفظها سالمة لا مساس فيها. حينئذٍ تأتي إلينا، هي التي كنا نمرّ أمامها كل يوم دون علم منا وظلّت تنتظر وأصبحت بفضل سلطان جمالها وحده بعيدة عن الأنظار وظلّت مجهولة، تأتي إلينا آخر ما تأتي. ولكننا نفارقها كذلك آخر ما نفارق، ولسوف نحبّها زمناً أطول من الأخريات لأننا أنفقنا وقتاً أطول كيما نحبّها، وليس ذلك الوقت الذي يعوز امرأ - مثلاً أعوزني بشأن تلك السوناتا - كيما ينفذ إلى عمل فني على شيء من العمق، سوى تكثيف، سوى ما يشبه الرمز، للسنوات وأحياناً للقرون التي تنقضي قبل أن يتمكّن الجمهور من التعلّق برائعة فنية جديدة حقّاً. ولذلك ربّما قال الرجل العبقر في نفسه، كيما يوفرّ على ذاته تجاهل الجمهور: إنّ الأعمال التي كتبت للأجيال

القادمة ينبغي أن تتم لها وحدها قراءتها. على غرار بعض اللوحات التي نسيء تقديرها إن نظرنا إليها من مسافة قريبة جداً، لأن معاصريه يعوزهم البعد الكافي. إلا أنه لا جدوى بالحقيقة من كل إجراء وقائي جبان لتفادي الأحكام المغلوطة لأنه لا يمكن تفاديها. وإن سبب صعوبة الإعجاب الفوري بعمل عبقرى قوامه أن الذي كتبه إنسان خارق وأن من الناس قليلاً يشبهونه. وإنما عمله نفسه الذي سيعمل على إخصاب العقول النادرة القادرة أن تفهمه فينميها ويكثرها. إن رباعيات بيتهوفن (الرباعيات ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥) هي التي استغرقت خمسين عاماً كي تلد جمهور رباعيات بيتهوفن وتكثره فحققت على هذا النحو، شأن جميع الروائع الفنية تقدماً على الأقل في مجتمع أصحاب الفكر الذي يؤلفه اليوم أوسع التأليف ما كان متعذر الوجود يوم صدور تلك الرائعة، ونقص الجماعة القادرة على تعشقه. إن لم يكن في مجال قيمة الفنانين. وإن ما يسمّى بالأجيال القادمة إنما هو أجيال العمل الفني. فلا بد للعمل الفني (بصرف النظر. ابتغاءاً للتبسيط. عن التوايح الذين يستطيعون في الفترة نفسها وعلى نحو متواز إعداد جمهور أفضل للمستقبل يستفيد منه نوابغ آخرون سواهم) أن يخلق أجياله القادمة فلن تكون هذه بالنسبة إلى ذلك العمل الفني أجيالاً قادمة بل جماعة من المعاصرين عاشت فقط بعد خمسين عاماً. لذلك انبغى للفنان إن أراد لعمله الفني أن يستطيع متابعة طريقه أن يقذف به حيث الأعماق الكافية في قلب المستقبل البعيد. بيد أن هذا الزمن الآتي، وهو أفق الروائع الفنية المرتقب، إن كان ضلال الحكام الجهال أنهم لا يأخذونه بالحسبان فإن أخذ به بالحسبان إنما يؤلف أحياناً الوسواس الخطير لدى القديرين منهم. فمن السهل أن نتخيل دون شك، عبر توهم شبيه بذلك الذي يوحد بين جميع الأشياء في الأفق، أن جميع الثورات التي قامت حتى الآن في الرسم أو الموسيقى إنما كانت تحترم مع ذلك بعض القواعد وأن ما يقوم أمامنا مباشرة من انطباعية وبحث عن النشاط واستخدام حصري للسلم الصيني وتكعيبية ومستقبلية إنما يختلف أشد الاختلاف عما سبقه. ذلك أننا ننظر إلى ما سبقه دون أن نأخذ بالحسبان أن عملية توحيد طويلة قد قلبته بالنسبة إلينا مادة متنوعة دون شك ولكنها بمجملها متجانسة يجاور فيها "هوغو" "موليير". فلنفكر فقط في وجوه التنافر الفاضحة التي ربما يجيئنا به، إن نحن لم نضع في حسابنا الزمن الآتي والتغيرات التي يحملها معه، هذا البرج أو ذاك من كهولتنا يُستطلعُ أمامنا في أثناء فترة المراهقة. ولكن الأبراج ليست صحيحة كلها، وإن اضطرابنا فيما يخص أي عمل فني إلى إدخال عامل الزمن في مجموع جماله إنما يمزج بالحكم الذي تصدره شيئاً فيه من التهور وبالتالي من فقدان الأهمية الحقيقية بقدر ما للتنبؤ أيّا كان الذي لا يفترض لا تحقيقه مطلقاً ضحالة فكر النبي لأن ما يدعو الممكنات إلى الوجود أو يستبعد منها لا يدخل بالضرورة ضمن صلاحية العبقرية، إذ يمكن أن تتوافر لك دون أن تكون آمنت بمستقبل الخطوط الحديدية أو الطائرات، أو اعتقدت بنفاق عشيقه أو صديق، مع أنك عالم نفس كبير، فيما لعل أكثرهم ضحالة كان يتوقع خياناتهما.

ومع أنني لم أفهم السوناتا فقد فتنني سماع عزف السيّد "سوان". ذلك أن لمستها كانت تبدو لي، شأن مبذله، شأن عطر درجها، شأن معاطفها، شأن أفاقها، وكأنها جزء من كلّ متميّز وزاخر بالأسرار في عالم أسمى بما لا يُقاس من العالم الذي يستطيع العقل فيه أن يحلّل الموهبة. وقال لي "سوان": "أليس أنها جميلة سوناتا فتوي" هذه؟ لحظة يحلّ الليل تحت الأشجار وتحمل رشقات

الكمان برودة المساء. هيا اعترف بجمالها. هنالك جانب كامل السكون الذي يضيفه ضياء القمر وهو الجانب الأساسي. وليس عجيباً أن يؤثر استشفاء بالضياء كالذي تخضع له زوجتي على العضلات بما أن ضياء القمر يحول دون أن تتحرك الأوراق. ذلك ما أحسّين تصويره في هذه الجملة الصغيرة، إنها غابة بولونيا التي أصابها التصلّب. والأمر بعدّ أشدّ تأثيراً على شاطئ البحر لأنّ ثمة الرودود الضعيفة التي تصدر عن الأمواج والتي نسمعها بالطبع تماماً بما أنّ كلّ ما تبقى لا يستطيع الحركة. أمّا في باريس فبخلاف ذلك. إذ تكاد لا تلاحظ تلك الأضواء الغريبة على المباني، وتلك السماء التي تشتعل بما يشبه حرائق لا لون لها ولا خطر منها، وهذا الضرب من الحدث العاديّ المستشفّ المترامي الحدود. ولكن الأمر لا يدور حول ذلك في جملة "فتتوي" الصغيرة ولا في كامل السوناتا على آية حال فالأمور تجري في الغابة، وفي الزخارف النغمية تسمع بوضوح صوت أحدهم يقول: "ربّما استطاع المرء حتّى أن يقرأ جريدته." كان يمكن أن تشوّه أقوال "سوان" تلك فيما بعد فهمي للسوناتا إذ قليلاً ما تكون الموسيقى مقصورة على معنى كيما نقصي تماماً عنها ما يُوحى به إلينا فيها. إلا أنني أدركت بفضل أقوال أخرى له بأن تلك الأشجار الليلية إنّما كانت فقط تلك التي استمع تحت كثافة أغصانها في أمسيات عديدة وفي الكثير من مطاعم أطراف باريس إلى الجملة الصغيرة. وكان ما تحمله لـ "سوان"، بدلاً من المعنى العميق الذي طالما طالبها به، تلك الأغصان المرتبة الملفوفة الملتزمة من حولها (وتبعث في نفسه الشوق إلى رؤيتها ثانية لأنها تبدو له وكأنها نفس تداخلها). كان ربيعاً بأسره لم يسعه التمتع به فيما مضى. إذ لم يتفق له، وهو إذ ذاك مصاب بالحمى وكتيب المزاج، ما يكفي من الهناء لذلك وظلّت تحتفظ له به (مثلما فعل، بالنسبة إلى أحد المرضى، بالأشياء الطيبة التي لم يتمكن من تناولها). أمّا ضروب السحر التي جعلته في بعض الليالي يحسّ بها داخل الغابة. والتي كان يمكن لسوناتا "فتتوي" أن تزوده بمعلومات عنها، فلم يكن بوسعها أن يسأل "أوديت" بشأنها مع أنها كانت ترافقه كالجملة الصغيرة. ولكن "أوديت" كانت حينئذ إلى جانبه فحسب (لا في داخله شأن موضوع "فتتوي") ولا ترى إذاً - ولو كانت ألف مرة أوسع فهماً - ما لا يمكن بالنسبة لأيّ منّا أن يتمّ الإعراب عنه (وقد ظننت لفترة طويلة على الأقلّ أنّ هذه القاعدة لا تحتل شواذاً). "ليس في الأساس جميلاً، يقول "سوان". أن يستطيع النغم عكس الأشياء كالماء. كمثّل مرآة. وانتبه إلى أن جملة "فتتوي" لا تبرز لي إلا كلّ ما لم أكن أعيره انتباهي في تلك الفترة. أمّا من صنوف غميّ وحيي في ذلك الوقت فإنها لم تعد تذكرني بشيء، لقد قامت بعملية مبادلة."

- "شارل، يبدو أنّ كلّ ما تقوله لي ليس لطيفاً جدّاً بالنسبة إليّ." - "ليس لطيفاً! إن النساء رائعات! كان مرادي فقط أن أقول لهذا الشاب إنّ ما تكشفه الموسيقى - على الأقلّ لي - ليس على الإطلاق "الإرادة في ذاتها" ولا "خلاصة اللانهاية". بل العمّ "فيردوران" بحلّة رسمية بين تخيلات حديقة الحيوان. ألف مرة اصطحبتي تلك الجملة الصغيرة، دون أن أخرج من هذه الصلاة، إلى العشاء معها في "أرمينو نفيل". صدّقيني، المسألة أبداً أقلّ إزعاجاً من الذهاب إلى هناك برفقة السيّد "دو كامبرمير". وأخذت السيّد "سوان" بالضحك: "إنها سيّدة يقولون تولّدت أشدّ الوله بـ "شارل"، تقول موضحة لي باللهجة نفسها التي أجابتنني بها قبل قليل في حديثها عن "فير مير دو

دلفت "الذي عجبْتُ أشدَّ العجب لملاحظتي إنها تعرفه: "أردت أن أقول: إنَّ السيّد كان يهتم كثيراً بذلك الرسّام في الآونة التي كان يتودّد إليّ في أثناها، أليس كذلك يا شارل العزيز؟" - "لا تحدّثني دونما روية عن السيدة "دو كامبر مير"، يقول "سوان". وهو مزهوٌ جدّاً في أعماقه - "ولكنّي إنّما أردت فحسب ما قيل لي. ويبدو على آية حال أنّها ذكيّة جدّاً، ولكنّي لا أعرفها. إنّني أظنّها جريئة في مساعها إلى الغرام، والأمر يدهشني أشدَّ الدهشة حينما يصدر عن امرأة ذكيّة. على أن الجميع يقولون إنّها جئت بك. وليس في الأمر ما يجرّح. وصمت "سوان" صمتاً عميقاً كان نوعاً من التصديق ودليلاً على الزهو الفارغ. وعادت السيّد "سوان" تقول، وهي تُبلي بداعي المزاح وكأنّها أخذت بالأمر: "بما أنّ ما أعزفه يذكرك بحديقة الحيوانات، فيمكن أن تتخذها عمّاً قليل هدفاً لنزهنّا، إن كان الأمر يسليّ هذا الصغير. إن الطّقس جميل جدّاً وربما عدت فلقيت انطباعاتك العزيزة عليك. أمّا بخصوص حديقة الحيوانات فتعلّم أن هذا الشاب كان يظنّ أنّنا نوّد كثيراً امرأة أقاتلها على العكس قدر ما أستطيع، عنيت السيّد "بلاتان" إني أجد إذلالاً عظيماً لنا في أن تحتسب صديقتنا. تصوّر أنّ الدكتور "كوتار" الطيّب القلب والذي لا يتناول أحداً بسوء يصرّح بنفسه أنّها عفنة."

- "باللفظاعة! ليس لها مزيّة سوى أنّها تشبه إلى حدّ بعيد "سافونارول". إنّها بالضبط صورة "سافونارول" بريشة "فرا برتولو ميو" (Fra Bartolomeo). "كان للهوس الذي بي "سوان" أن يلقي على هذا النحو وجوه شبه في عالم الرسم ما يبرّره، فحتّى ما ندعوه بالسلامح الفردية. - مثلما نتبين ذلك بكثير كم الكآبة حينما نحبّ ونودّ الاعتقاد بحقيقة الفرد الوحيدة - شيء عام ويمكن أن نصادفها في حقب مختلفة. بيد أنّه لو تمّ الإصغاء لي "سوان" لكشفت مواكب ملوك المعجوس، وهي تنمّ عن مفارقة تاريخية حينما أدخل فيها "بينوتزو غوزولي" (Benozzo Gozzoli) آل "ميديتشي"، عن مفارقة أكبر لأنّها إنّما ستضمّن رسوم جمهرة من الناس ممن عاصروا لا "غوزولي" بل "سوان"، أي أنّهم جاؤوا لا خمسة عشر قرناً بعد الميلاد فحسب، بل أربعة قرون بعد الرسّام نفسه. فلم يظّل خارج تلك المواكب. حسبما يرى "سوان". باريسيّ واحد مرموق، كما هو أمر مسرحيّة لي "ساردو" جاء فيها، بداعي المودّة للمؤلّف ولصاحبه الدور الرئيسي، جميع أعيان باريس من أطباء مشهورين ورجال سياسة ومحامين، جاؤوا كلّ بدوره في إحدى الأمسيات يشاركون في العرض على خشبة المسرح بغية التسلية. "ولكن آية صلة لها مع حديقة الحيوانات؟" - "كلّ الصلات. - "ماذا، أظنّين لها مؤخّرة زرقاء سماوية كالقردة؟" - "شارل، آية بذاءة تلك! لا، فقد كنت أفكر بالكلمة التي قالها لها السيلاني. اروها، فهي بالحقيقة "كلمة حلوة" - "ياللأمر السخيف. من المعلوم أنّ السيّد "بلاتان" تحبّ مناداة جميع الناس بطريقة تحسبها لطيفة ولكنها على وجه الخصوص متعالية."

- "ذلك ما يدعوه جيراننا الطيبون على ضفاف "التاميز" "patronizing" (٥)، تقول "أوديت"

(٥) اتخاذ لهجة أو مظهر أيريين.

مقاطعة. - "لقد راحت منذ عهد قريب إلي حديقة الحيوانات حيث جماعة من السود أظنهم من السيلانيين كما قالت زوجتي، وهي أطول باعاً مني في وصف الأجناس." - "هيا، يا شارل، لا تمض في التهكم" - "ولكني لا أتهكم البتة. وأخيراً توجهت إلى أحد هؤلاء السود قائلة: "مرحباً يا عبداً".

- "لا قيمة لذلك" - على أية حال لم ترق تلك الصفة للأسود وقال بحنق للسيدة "بلاتان": "أنا عبد، أما أنت فقردا" - "أجد ذلك في أشد الغرابة وأعشق هذه الحكاية. أليس أنها "حلوة"؟ تلك بالضبط العمّة "بلاتان": "أنا عبد، أما أنت فقردا"

وأعربت عن رغبة بالغة في المبادرة إلى رؤية هؤلاء السيلانيين الذين دعا أحدهم السيدة "بلاتان" قرداً. وما كانوا يعيشون في أي اهتمام، ولكنني فكرت أننا ربما اجتازنا للذهاب إلى حديقة الحيوانات والعودة منها ممراً شجيرات الأكاسيا حيث سبق لي أن أعجبت بالسيدة "سوان" وربما رأيي صديق "كوكلان" الخلاسي الذي لم أستطع أن أظهر قط في حضرته وأنا أحبي السيدة "سوان". ربما رأيي أجلس بالقرب منها في زاوية عربية مكشوفة.

كان يطيب للسيد "سوان" وزوجته في أثناء تلك الدقائق التي لا تجالسنا فيها "جيلبيرت" في الصالة، بعدما ذهبت تستعد، أن يكشف لي عن مزايا ابنتهما النادرة. وكان يبدو كل ما أرقبه وكأنه البرهان على صحة ما يقولان! فقد لاحظت أنها تبدي، مثلما روت لي والدتها، اهتماماً رقيقاً لا بصديقاتها فحسب، بل بالخدم الفقراء، اهتماماً خططت له طويلاً ورغبة في إشاعة السرور وخشية من الإغضاب تترجمها أمور صغيرة غالباً ما تحملها الكثير من المشقة. فقد أنجزت شغلاً بالإبرة لبائعتنا في "الشانزليزيه" وخرجت تحت الثلج لتسلمها إياه دون تأخير يوم واحد. "لا يمكن أن تخطر لك حقيقة قلبها، فإنها تخفيه"، يقول والدها. لقد كانت تبدو بشبابها الغض أكثر تعقلاً من والديها، فحينما كان يتحدث "سوان" عن معارف زوجته المرموقين كانت "جيلبيرت" تدير رأسها وتصمت ولكن دون أن تبدي اللوم إذ لم تكن هنالك إمكانية فيما يبدو لها بأن يكون والدها موضع نقد مهما يكن طفيفاً. وفي يوم كنت حدثتها فيه عن الآنسة "فتوي" قالت لي:

- "لن أعرفها في يوم ولسبب واحد قوامه أنها لم تكن لطيفة بحق والدها، فيما يقولون، وكانت سبباً في غمه. لست تستطيع إدراك الأمر، كما هو شأني، أليس كذلك، أنت الذي لا تستطيع البقاء دون شك بعد والده أكثر مما أستطيع بعد والدي، والأمر على كل حال طبيعي تماماً. فكيف ننسى في يوم إنساناً أحببناه على الدوام؟"

وذات مرة بدت فيها أكثر "دلاعة" مع "سوان" وإذ نقلت إليها ملاحظتي تلك بعدما ابتعد أجابت:

- "أجل، مسكين بابا، ففي هذه الأيام ذكرى وفاة والده. تستطيع أن تدرك ما لا بد أنه يعاني، إنك تدرك ذلك أنت، فإن مشاعرنا واحدة إزاء هذه الأمور. إنني أحاول والحالة هذه أن أكون أقل

سوء من المعتاد. - "ولكنه لا يرى أنك سيئة، بل يرى أنك ممتازة." - "مسكين بابا. ذلك لأنه طيب جداً."

ولم يقتصر والدنا "جيلبرت" على الإشادة بفضائلها - "جيلبرت" نفسها التي كانت تظهر لي حتى قبل أن أكون رأيتها في يوم، أمام كنيسة وفي أحد مناظر "إيل دو فرانس" والتي كانت تبدو فيما بعد على الدوام، إذ تذكرني بأحلامي من بعد بل بذكرياتي، أمام سياج الزعرور الوردي، في الدرب الوعر الذي كنت أسلكه للذهاب من جهة "ميزيكليز". وإذ سألت السيدة "سوان"، وأنا أجهد في اتخاذ اللهجة اللامبالية التي لصديق للأسرة راغب في معرفة ميول طفلة. من كانت "جيلبرت" تحب أكثر ما تحب من بين رفاقها، أجابتنى السيدة "سوان" قائلة:

- "ولكن لا بد أنك أكثر إغلاً مني في أسرارها، أنت المحظي الكبير وصفوة الصفوة، حسبما يقول الإنكليز."

وفي هذه التطابقات الشديدة الكمال. حينما ينكفي الواقع وينطبق على ما حلمنا به لفترة طويلة فلا شك أنه يحجبه عنا كلياً ويختلط معه كشكلين متساوين ومتراكبين لا يولفان من بعد سوى شكل واحد في حين نود على العكس، كيما نزود بهجتنا بكامل مدلولها، أن نحتفظ لجميع نقاط رغبتنا هذه في الآونة نفسها التي نقاربها فيها - وكما نزيد من يقيننا بأنها هي لم تبدل - بمزية ما يتعذر المساس به. ولا يستطيع الفكر حتى إعادة تشكيل الحالة الأولى بغية مقارنتها بالجديدة لأن الساحة لم تعد خالية: فالتعرف الذي تم لنا وذكرى الدقائق الأولى غير المؤتلة والأقوال التي سمعناها كلها هناك تسد مدخل وعينا وتتحكم بمخارج ذاكرتنا أكثر منها بمخارج مخيلتنا بكثير وتكسب مفعولاً رجعيّاً على ماضينا الذي لا نملك من بعد أن نراه دون أن نأخذها في حسابنا أكثر منها على شكل مستقبلنا الذي ظل حراً. لقد أمكنني الظن على مدى سنوات أن الذهاب إلى منزل السيدة "سوان" وهم مبهم لن أبلغ إليه في يوم. وبعدما أمضيت ربع ساعة لديها أصبح الزمن الذي لم أكن أعرفها فيه هو الخيالي المبهم كمثل ممكن تلاشي من جراء تحقيق ممكن آخر. إذ كيف كان يمكنني بعد أن أحلم بحجرة الطعام وكأنما بمكان لا يمكن تصويره في حين ما كنت أستطيع القيام بحركة في فكري دون أن أصادف فيه الأشعة التي لا تدحض والتي يصدرها إلى مالا نهاية وراءه وحتى في أقصى نقطة من ماضي السرطان البحري المعد على الطريقة الأمريكية الذي أكلته قبل فترة وجيزة؟ ولا بد أن "سوان" قد رأى فيما يخصه شيئاً من هذا القليل يجري معه ؛ ذلك أن هذه الشقة التي يستقيلني فيها كان يمكن احتسابها بمثابة المكان الذي راحت تختلط فيه وتتطابق لا الشقة المثالية التي ولدتها مخيلتي فحسب، بل شقة أخرى كذلك، تلك التي كثيراً ما وصفها لي "سوان" حبة الغيران الذي يساوي أحلامي ابتداءً، تلك الشقة المشتركة بين "أوديت" وبينه والتي سبق أن بدت له عزيزة المنال ذات مساء صحبته فيه "أوديت" إلى جانب "فورشفيل" لتناول شراب البرتقال في منزلها ؛ وإنما جاء يذوب في نظره في مخطط حجرة الطعام التي كنا نتناول طعام الغداء فيها هو ذلك الفردوس اللا مؤمل الذي ما كان يستطيع بالأمس أن يتخيل دونما

اضطراب أنه سيقول لرئيس الخدم هذه الكلمات نفسها: "هل جهزت السيّدة؟" التي كنت أسمعها ينطق بها الآن بشيء من نفاذ الصبر المقرون بشيء من زهو الراضي عن نفسه. وما كنت أستطيع تعرّف سعادتي، أكثر مما يستطيع "سوان" نفسه دون شك، وحينما كانت "جيلبيرت" نفسها تصرخ قائلة: "من لعله كان يقول لك إنّ البنية التي كنت تنظر إليها، دون أن تكلمها، تلعب لعبة الزوايا ستكون صديقتك الحميمة التي تمضي إليها في كلّ يوم يروقك الأمر؟". فإنما كانت تتحدث عن تبدل كان لابدّ لي أن أقرّ به من الخارج ولكنّي لا أملكه في داخلي إذ كان يتألف من حالتين لا يمكنني أن أفلح في تفكيرهما معاً دون أن يكفّ عن كونهما تميزان الواحدة عن الأخرى.

بيد أنّه كان لابدّ أن تحتفظ تلك الشقّة بشيء من العذوبة بالنسبة إلى "سوان" لأنّ إرادته قد رغبت فيها أعنف الرغبة. وذلك إن حكمت على الأمر من خلال ذاتي أنا الذي لم تفقد كلّ غموض بالنسبة إليه. إن تلك الروعة الفريدة التي افترضت لفترة طويلة أن حياة أسرة "سوان" تنغمس فيها، تلك الروعة لم أقصها كلياً من منزلها يوم دخلته، لقد جعلتها ترتد إلى الوراء وقد تمّ ترويضها على يد ذلك الغريب الذي كنته. ذلك المنبذ الذي كنته والذي كانت الأنسة "سوان" تدفع إليه الآن بلطف مقعداً لذيذاً يدي العدا والاستنكار كيما يجلس فوقه. بيد أنني لا أزال أتبين تلك الروعة في ذاكرتي من حولي، أفلاّني في تلك الأيام التي يدعوني فيها السيّد "سوان" وزوجته للغداء لأخرج بعد ذلك للنزهة معهم ومع "جيلبيرت" كنت أطبع بناظري - فيما أنتظر وحدي - على السجّادة والمتكات، على موائد الحائط والساترات واللوحات الفكرة المنقوشة في صدري، فكرة أنّ السيّدة "سوان" أو زوجها أو "جيلبيرت" يزعمون الدخول؟ لأنّ تلك الأشياء عاشت مذ ذاك في ذاكرتي إلى جانب عائلة "سوان" واكتسبت في النهاية شيئاً منهم؟ وهل كنت أجعل منها جميعها، إذ أعلم أنهم يقضون حياتهم فيما بينها. كأنها رموز لحياتهم الخاصة وعاداتهم التي أقصيت عنها لفترة أطول من أن لا تستمر غريبة عليّ في نظري حتى حينما منّ عليّ بالانضمام إليها؟ ومهما يكن من أمر فإنّي كلما فكرت في تلك الصالة التي كان يرى "سوان" أنها متنافرة إلى حدّ بعيد (دون أن يتضمّن ذلك النقد من قبله تصميماً في معاكسة ميول زوجته في شيء) - لأنها كانت لاتزال من وحي الدفينة في جزء منها ووحي المشغل في الجزء الآخر والكل من طراز الشقّة التي سبق أن عرف "أوديت" فيها، ومع ذلك فقد شرعت تستبدل بعدد من الأشياء الصينية التي تجدها الآن على شيء من التزييف وبعيدة عن "الغرض" كثيراً من قطع الأثاث الصغيرة المغطاة بحرائر عتيقة من طراز لويس السادس عشر (فيما عدا الروائع التي جاء بها "سوان" من فندق رصيف "أورليان") - تظلّ تلك الصالة غير المتجانسة تحتفظ في ذاكرتي على العكس بتماسك ووحدة وسحر خاص لا تحتفظ بها ألبتة حتى أكثر ما ظلّ من المجموعات التي أورثنا إياها الماضي على حاله، وحتى أكثر ما يفيض منها بالحياة واحتفظ بطابع أحد الناس؛ ذلك أننا وحدنا نستطيع إيلاء بعض الأشياء التي نراها، من جرّاء الاعتقاد بأن لها حياة خاصّة بها، روحاً تحتفظ بها فيما بعد وتنمّيها فينا. فجميع الأفكار التي كوّنتها عن الساعات التي كانت تقضيها عائلة "سوان" في تلك الشقّة التي كانت بالنسبة إلى أوقات حياتهما اليومية كالحسد بالنسبة إلى الروح والتي كان لابدّ أن تعبّر عن طابعها المميّز، كلّ تلك الأفكار كانت موزعة، كانت تختلط في مكان الأثاث وفي كثافة السجّاد وفي اتجاه النوافذ وفي دائرة

الخدم - وهي في كل مكان سواء في إثارتها وغموضها - وحينما كنّا نمضي لاحتساء القهوة في الشمس في شرفة الصالة الكبيرة وفيما كانت السيّدة "سوان" تسألني كم قطعة سكر أبغي في قهوتي لم يكن المقعد الحريري الذي كانت السيّدة "سوان" تدفعه صوبي وحده الذي يبعث. إلى جانب الروعة المؤلمة التي تبيّنتها فيما مضى - تحت شجيرة الزعرور الأبيض أو بالقرب من دغل شجر الغار - في اسم "جيلبيرت" - ذلك العداء الذي أعرب لي عنه والدها والذي يبدو أن هذا المقعد الصغير قد حفظه وشاطرهم إيّاه إلى حدّ أنني ما كنت أشعر أنني أهل لأن أفرض قدمي على قماشة المنجّد الأعزل وألفيتني لذلك على شيء من جبن الفؤاد. كانت هناك روح شخصيّة تربطه سرّاً بضياء الساعة الثانية من بعد الظهر. وهو مختلف عمّا هو عليه في أيّ مكان آخر من الخليج حيث ييسط على أقدامنا أمواجه الذهبية اللاهية التي تطفو فوقها المقاعد الزرقاء والستائر الرقيقة وكأنّها جزر مسحورة؛ حتى لوحة "روبنس" (Rubens) المعلقة فوق الموقد كانت تملك هي الأخرى نوع السحر نفسه وحتى قوة السحر نفسها التي يملكها حذاء "سوان" ذو الشرائط وهذا المعطف الذي بلا أكمام والذي ما أكثر ما تمنيت أن ألبس مثله. فيما كانت "أوديت" تطلب الآن من زوجها أن يستبدل به آخر ليكون أكثر أناقة حينما كنت أشرفهم بالخروج إلى النزهة معهم. وكانت تمضي هي الأخرى لارتداء ثيابها مع أنني احتججت أن ليس من فسطان "للطلعة" يساوي تقريباً المبدل الرائع الذي من نسيج صينيّ موجّ أو حرير ورديّ فاتر كرزي أو ورديّ شديد الصفاء أو أبيض أو بنفسجيّ أو أخضر أو أحمر أو أصفر واحد اللون أو برسما والذي تناولت فيه السيّدة "سوان" طعام الغداء وتزعم أن تخلعه. وحينما أقول إنه يجدر بها أن تخرج على هذا النحو كانت تضحك إمّا بداعي التهكم على جهلي وإمّا استمتاعاً بتقريظي لها. كانت تعتذر أن يتجمع لديها هذا العدد من مبادئ البيت إذ تدعي أنّها لا تحسّ بالراحة إلا بارتدائها، ثم تفارقنا لتبادر إلى ارتداء أحد تلك الأثواب الرائعة التي تفرض نفسها على الجميع والتي كنت أدعي أحياناً مع ذلك إلى أن أختار من بينها الثوب الذي أفضّل أن ترتديه.

وكم كنت مزهواً في حديقة الحيوانات أن أسير إلى جانب السيّدة "سوان" بعدما نزل من العربّة! وفيما كانت تدع لمعطفها أن يتهدّل في مشيتها المتراخية، كنت أرميها بنظرات الإعجاب التي تردّ عليها بابتسامة عريضة مغناجة. وإن اتفق أن نصادف الآن هذا الرفيق أو ذاك، فتاة كان أم صبيّاً، فقد كانوا ينظرون إليّ بدوري كواحد من تلك الكائنات التي طالما حسدتها، كواحد من أصدقاء "جيلبيرت" الذين يعرفون أسرتها ويختلطون بالقسم الآخر من حياتها، ذاك الذي ما كان ينقضي في "الشانزليزيه".

وغالباً ما كنّا نلتقي في ممّرات الغابة أو حديقة الحيوانات فتسلم علينا هذه السيّدة الكبيرة أو تلك من صديقات "سوان" ويتفق له أن لا يراها فتنبه زوجته إلى ذلك. "شارل، ألسنت ترى السيّدة "دو مونمورانسى؟". فيرفع "سوان" قبعته بحركة واسعة وبأناقة يميّز بها وحده وابتسامة الودّ وليدة الألفة الطويلة. وتتوقّف السيدة أحياناً وقد أسعدها أن تخص السيّدة "سوان" بلفتة مهذبة لا ترمي إلى نتيجة ولن تحاول السيّدة، كما هو معلوم. استغلالها فيما بعد لكثرة ما عودها "سوان" أن تظّل

متحفظة. إلا أنها لم تنثن مع ذلك عن التصنع بجميع أشكاله، ومهما كانت السيدة أنيقة ونبيلة المظهر فقد كانت السيدة "سوان" تساويها في ذلك. وكانت إذ تتوقف لحظة بالقرب من الصديقة التي التقى بها زوجها منذ قليل تقدمنا أنا و"جيلبيرت" بهذا القدر من الطلاقة وتحفظ في توددها بهذا القدر من الحرية والهدوء حتى ليصعب القول من كانت من بين الاثنين: السيدة الكبيرة، زوجة "سوان" أم عابرة السبيل الأرستقراطية. وفي اليوم الذي ذهبنا فيه لرؤية السيلايين شاهدنا في أثناء عودتنا سيدة مسنة، ولكنها بعد على جمال، تدثر معطفاً عاتماً وتعلم قبعة صغيرة مثبتة بسيارين تحت العنق. وتقبل علينا تتبعها سيدتان أخريان كأنما تقومان بحراستها. وقال لي "سوان": "آه! هوذا من سيثير اهتمامك". كانت السيدة العجوز. وهي الآن على ثلاث خطوات منا، تبتسم لنا بعذوبة ورقة. وكشف "سوان" عن رأسه وانحنى السيدة "سوان" محبة وهمت تبغي تقبيل يد السيدة التي تشبه أحد رسوم "فنترهالتر" فأنهضتها وقبلتها. ثم قالت لي "سوان" بصوت خشن وشيء من الحقن، بلهجة الصديقة الأليفة: "هلا وضعت قبعتك أنت". وقالت لي السيدة "سوان": "سأقدمك لسموها الملكي". وانتحى بي "سوان" جانباً للحظة فيما كانت السيدة "سوان" تتحدث عن جمال الطفس وعن الحيوانات التي وصلت حديثاً إلى حديقة الحيوان مع صاحبة السمو. "إنها الأميرة ماتيلد"، يقول، "تدري، صديقة "فلوير" و"سانت بوف" و"دوما". تصور، إنها ابنة أخ نابوليون الأول! لقد طلب يدها كل من نابليون الثالث وإمبراطور روسيا. أليس ذلك مثيراً؟ تحدثت إليها قليلاً. ولكنني وددت ألا تدعنا ساعة نقف على أرجلنا". وأردف "سوان" قائلاً: "لقد التقيت بـ "تين" (Taine) الذي نقل إلي أن الأميرة قد اختصمت معه." - "لقد سلك سلوك الخنزير"، تقول بصوت خشن وتلفظ الكلمة كما لو كانت اسم المطران الذي عاصر "جان دارك" (٥). "بعد المقال الذي سطره عن الإمبراطور تركت له بطاقة دوت عليها P. P. C". وأحسست بالدهشة التي تتنبأك لدى فض رسائل دوق "أورليان"، وهي سليلة الأسرة البالاتينية. والحقيقة أن الأميرة "ماتيلد" التي تعتمل في صدرها مشاعر فرنسية إلى حد بعيد كانت تحس بها بخشونة واستقامة على نحو ما تميزت به ألمانيه الأمس وورثته دونما شك عن أمها التي من مقاطعة "فورتنبرغ". أما صراحتها الفظة بعض الشيء والتي تقارب أن تكون رجولية فقد كانت تخفف منها، ما إن تبتسم، بلهجة إيطالية حنون. والكل تغلفه ثياب من طراز الإمبراطورية الثانية إلى حد تبدو معه

الأميرة، مع أنها ترتديها دونما شك بداعي التعلق بالأزياء التي أحببتها فحسب، وكأنما قصدت أن لا ترتكب خطأ في اللون التاريخي وأن تستجيب لتوقع الذين ينتظرون منها أن توحى بعصر آخر. وهمست في أذن "سوان" كي يسألها إن سبق أن عرفت "موسيه" (Musset). فأجابت بلهجة تنظاها بالغضب، وقد كانت بالحقيقة تقول "يا سيدي" لي "سوان" من قبيل المزاح إذ كانت على علاقة وطيدة معه: "أقل المعرفة، يا سيدي. فقد حضر مرة للعشاء، وكنت دعوته للسابعة، وفي السابعة والنصف جلسنا إلى الطاولة بما أنه لم يحضر. ويصل في الثامنة ويحني ويجلس ولا ينس بينت شفة ويمضي بعد العشاء دون أن يتم لي سماع رنة صوته. لقد كان ثملاً كأكثر ما يكون. ولم يشجعني

(٥) يعني أنها لفظت كلمة cochon (خنزير) بمد المقطع الأول فما كما هي الحال بالنسبة إلى اسم المطران Cauchon.

الأمر كثيراً أن أعيد الكرة. " وكنت و"سوان" على حدة، فقال لي: "أمل أن لا تتناول هذه الجلسة الصغيرة فإن أحامص قديمي تؤلمني. ولست أدري لماذا تغذي زوجتي الحديث. فبعد ذلك سوف تشكو هي أنها متعبة، أما أنا فلست أطيق من بعد هذه الوقفات." والحقيقة أن السيدة "سوان" كانت تنقل إلى الأميرة، وقد أخذت المعلومات من السيدة "بوتان"، أن الدولة أدركت أخيراً نذالتها فقررت أن ترسل إليها دعوة لتشهد من الشرفات الزيارة التي يزمع القيصر "نقولا" القيام بها إلى مقام "الأنفاليد" غداة اليوم الثاني. بيد أن الأميرة التي ظلت في أساسها، وفي كل مرة يقع عليها أن تعمل، ابنة أخ نابليون على الرغم من المظاهر على الرغم من نوعية محيطها المؤلف من الفنانين ورجال الأدب بخاصة: "أجل، يا سيدي، لقد أخذتها هذا الصباح وردتها إلى الوزير الذي لابد تسلمها في هذه الساعة. قلت له إنني لا حاجة لي إلى دعوة للذهاب إلى "الأنفاليد". فإن رغبت الحكومة في ذهابي إلى هناك فلن يكون ذلك إلى إحدى الشرفات بل إلى مدفنتنا حيث قبر الامبراطور ولست أحتاج بطاقات لذلك، فلدي مفاتيحي وأدخل على هواي، وليس على الحكومة إلا أن تعلمني إن كانت رغبة في أن أجيء أم لا. ولكني إن أذهب فإلى هناك أو لا يكون ذلك البتة." وحيثنا في تلك اللحظة، أنا والسيدة "سوان"، شاب أقرأها السلام دون أن يتوقف وما كنت أعلم أنها تعرفه، عنيت "بلوك". ولدى سؤال طرحته قالت لي السيدة "سوان" إنه سبق أن قدمته لها السيدة "بوتان" وأنه ملحق بمكتب الوزير، الأمر الذي كنت أجهله. ولابد على أية حال أنها لم تشاهده كثيراً - أو هي لم تشأ ذكر اسم "بلوك" الذي ربما وجدته على قدر قليل من الأناقة - فقد قالت إنه يدعى السيد "مورول". وأكدت لها أنها تخلط بين الأمور وأنه يدعى "بلوك". وعذلت الأميرة رفاً كان ينتشر وراءها وكانت السيدة "سوان" تنظر إليه بإعجاب. وقالت الأميرة: "إنه بالحقيقة فرو أرسله إلي امبراطور روسيا وبما أنني بادرت إلى زيارته منذ قليل فقد ارتدته لأريه أنه أمكن تدبيره على شكل معطف. وقالت السيدة "سوان" التي لم تكن تبصر إرشادات زوجها الذي عيل صبره: "يبدو أن الأمير لويس انخرط في الجيش الروسي وستغتم الأميرة أن لا يكون من بعد بالقرب منها." - لقد كان كبير الحاجة إلى مثل ذلك! وكما قلت له: ليس يكفي أن كان لك عسكري من أسرتك"، تجيب الأميرة وهي تشير بتلك البساطة المفاجئة إلى نابليون الأول. ولم يعد "سوان" يطبق أكثر من ذلك. "سيدتي، سأقوم بدور صاحبة السموم وأستأذنك بالانصراف، فإن زوجتي أصيبت بأوجاع شديدة ولست أريد أن تظل بلا حراك لفترة أطول. "وانحنى السيدة "سوان" للتحية وابتسمت الأميرة لنا جميعاً ابتسامة رائعة بدا أنها تحيي بها من الماضي، من رونق شبابها، من أمسيات "كومياني"، ابتسامة انسابت كاملة عذبة على الوجه المتجه من ذليل، ثم ابتعدت تتبعها وصيقتا الشرف اللتان اقتصرتا، شأن المترجمين أو مربيات الأطفال أو الممرضات، على ترصيع حديثنا بحمل لا معنى لها وشروح لا جدوى منها. وقالت لي السيدة "سوان": "يجدر بك أن تذهب وتدون اسمك لديها في يوم من هذا الأسبوع فهم لا يوزعون بطاقات في هذه الحفلات "الملكية" حسبما يقول الإنكليز، ولكنها سوف تدعوك إن قمت بتسجيل نفسك"

وكنا ندخل أحياناً في آخر أيام الشتاء، قبل أن ننطلق في نزهاتنا، إلى واحد من المعارض الصغيرة التي كانت تقام آنذاك والتي كان يبادر فيها إلى تحية "سوان"، وهو هاوي مجموعات

مرموق، تحية تتسم باحترام خاصّ تجار اللوحات الذين كانت تقام المعارض عندهم. وكانت أمنياتى القديمة في الذهاب إلى الجنوب والبندقية تستفيق في تلك الأوقات التي لا تزال باردة وفي تلك الحشرات التي يلقي فيها ربيع مبكر وشمس حارقة انعكاسات بنفسجية علي هضاب "الألبيني" الوردية ويضيفان شفافية الزمرد العاتمة على القناة الكبرى. فإن كان الطقس ردياً ذهبنا إلى قاعة الموسيقى أو إلى المسرح ثم تناولنا العصرونية فيما بعد في صالة للشاي. وحينما كانت السيّد "سوان" تبغي أن تقول لي شيئاً ترغب ألا يفهمه الجالسون إلى الطاولات المجاورة أو حتى الخدم الذين يقومون بالخدمة كانت تقول لي بالإنكليزية كما لو أنها لغة لا يعرفها سوانا. ولكنّ جميع الناس كانوا يعرفون الإنكليزية وكنت الوحيد الذي لم يتعلمها بعد وأراني مضطراً أن أقول ذلك للسيّد "سوان" كي تكفّ عن إبداء الملاحظات حول الأشخاص الذين يتناولون الشاي أو أولئك الذين يقدّمونه، ملاحظات أستشفّ أنها محمّلة بالإساءة دون أن أفهم منها كلمة واحدة أو تفوت الرجل المعنيّ بها كلمة.

و ذات مرّة بعثت لديّ "جيلبيرت" دهشة عميقة بشأن حفلة بعد الظهر في أحد المسارح. كان ذلك اليوم بالضبط اليوم الذي حدثتني عنه سلفاً والذي يصادف ذكرى وفاة جدّها. كنّا نزمع الذهاب أنا وهي لسماع فقرات من أحد الأعمال الأوبرالية برفقة معلّمتها، وكانت "جيلبيرت" قد ارتدت ملابسها بقصد الذهاب إلى هذا العمل الموسيقيّ وهي تحتفظ بمظهر اللامبالاة الذي تعودت أن تبديه بالنسبة إلى الأمر الذي نزمع القيام به قائلة إنه يمكن أن يكون أيّ شيء بشرط أن يروقي ويحسن في عينيّ والديّ. وانتحت بنا أمها جانباً قبل الغداء لتقول لها: إنه لمما يزعج والدها أن يرانا نذهب لحضور حفلة موسيقية في ذلك اليوم. ورأيت أن الأمر طبعي تماماً، وظلت "جيلبيرت" هادئة الأعصاب ولكنها أصبحت شاحبة اللون من جراء غيظ لم تستطع إخفاءه ولم تتفوّه بعدها بكلمة. وحينما عاد "سوان" اصطحبته امرأته إلى الزاوية الثانية في الصالة وهمست في أذنه. فدعا "جيلبيرت" وانتحى بها ناحية في الحجرة المجاورة، وسمعت صيحات. على أنه لم يكن بوسعي أن أصدّق أنّ "جيلبيرت" المطيعة الرقيقة العاقلة إلى هذا الحدّ سوف تقاوم رغبة والدها في يوم كهذا ولسبب تافه كهذا. وأخيراً خرج "سوان" وهو يقول لها:

- "ها إنك تعلمين ما قلته لك، فافعلي الآن ما تشائين."

وظلّ وجه "جيلبيرت" منقبضاً طوال فترة الغداء، وبعدها ذهبنا إلى غرفتها. وفجأة صاحت دون أيّ تردّد، وكما لو لم يداخلها شيء منه في آية لحظة: "الثانية! ولكنك تعلم أن الحفلة الموسيقية تبدأ في الثانية والنصف." ثم قالت لمعلّمتها أن تسرع وقلت لها:

"ولكن، أليس يزعج ذلك والدك؟"

- "ليس يزعجه أبته."

- "ولكنّه كان يخشى أن يبدو الأمر مستهجنًا بسبب تلك الذكرى."

- "وأيّة أهمية لديّ لما يفكرّ به الآخرون؟ إنّي أرى من السخف أن يهتمّ المرء بالآخرين في شؤون العاطفة. فالمرء يشعر لذاته لا للجمهور. إن الآنسة التي تملك القليل من صنوف التسلية يسعدها الذهاب إلى تلك الحفلة الموسيقية، فلن أحرّمها إياها لإبهاج الجمهور".

وأخذت قبعتها. فقلت لها وأنا أمسك بذراعها:

- "ولكن ليست المسألة في إبهاج الجمهور يا "جيلبيرت"، بل في إدخال السرور على قلب والدك."

فصاحت تقول بنبوة قاسية وهي تملّص بنزق:

- آمل أن لا تمضي في توجيه الملاحظات لي."

لم تعد أسرة "سوان" تستعديني من صداقتها مع "بيرغوت"، وهي مئة أثنى بعد اصطحابي معهم إلى حديقة الحيوانات أو إلى الحفلة الموسيقية، تلك الصداقة التي كانت في أساس السحر الذي ألفته فيهم حينما كنت أحسب، حتى قبلما أعرف "جيلبيرت"، إن ألفتها مع الشيخ الإلهي ربما جعلت منها في نظري أكثر الصديقات إثارة لولمي لو لم يحجب عني الازدراء الذي لا بدّ كنت أوحى به إليها أمل أن تصطحبني معها في يوم لزيارة المدن التي كان يحبّها. ولكن السيّدة "سوان" دعّنتي ذات يوم إلى مأدبة غداء كبرى. ما كنت أدري من عسى يكون المدعوون. ولدى وصولي داخلتني الاضطراب في الردهة من جرّاء حادث أفزعني. فنادرًا ما كان يفوت السيّدة "سوان" تبني العادات التي تحتسب أنيقة طوال أحد الفصول ثم هي تُهَجَّر بعد حين إذ لا تغلح في البقاء (مثلما اتخذت قبل سنوات عديدة son hansom cab^(١) أو كانت توزع بطباعة عبارة to meet (لقاء) شخصية على قدر من الأهمية على بطاقة دعوة للغداء). من ذلك أنّ "أوديت" دفعت زوجها إلى طباعة بطاقات جاء فيها اسم "شارل سوان" مسبوقاً بكلمة "السيد" وهو تحديد طفيف تمّ في تلك السنوات وحيء به من انكلترا.

وقد أرسلت السيّدة "سوان"، بعد الزيارة الأولى التي قمتُ بها، إحدى تلك البطاقات إلى منزلي. وما كان أحد ألبّته قد بعث إليّ ببطاقات، فأحسست بقدر من الاعتزاز والانفعال والامتنان جمعت معه كلّ ما كنت أملك من مال وأوصيت على سلّة رائعة من أزهار الكاميليا وبعثت بها إلى السيّدة "سوان". وتوسّلت إلى والدي أن يبادر إلى إرسال بطاقة إليها على أن يعمل سريعاً قبل ذلك على طباعة بطاقات يكون اسمه مسبوقاً فيها بكلمة "السيد". ولم يستجب لأيّ من ذينك الرجاءين وتملّكني اليأس على مدى بضعة أيام وتساءلت بعدها إن لم يكن على حقّ. ولئن كان استعمال كلمة "السيد" غير ذي جدوى فقد كان واضحاً. وما كانت تلك حال عادة أخرى تمّ كشفها لي يوم ذاك الغداء ولمن دون أن تشفّع بدلاتها. فقد سلمني رئيس الخدم، لحظة كنت أزمع الانتقال من الردهة

(١) عربة مكشوفة بمقعدين اخترعها انكليزي (Hansom)

إلى الصلاة، مغلفاً دقيقاً وطويلاً دون اسمي عليه. وشكرته في دهشتي فيما كنت أنظر إلى المغلف. ولم أكن أدري ما ينبغي أن أفعل به أكثر مما يدري غريب بخصوص إحدى تلك الآلات الصغيرة التي يُزود بها المدعوون في مآدب العشاء الصينية. ورأيت أنه غير مفضوض وخشيت أن أنعت بالفضول إن فضضته في الحال فوضعت في جيبي بهيئة العارف. لقد سبق أن كتبت لي السيّدة "سوان" قبل بضعة أيام أن آتي للغداء "في شلّة صغيرة". وكان ثمة مع ذلك ستة عشر شخصاً أجهل تماماً أنّ "بيرغوت" حاضر ما بينهم. وفجأة لفظت السيّدة "سوان" التي جاءت على "ذكر اسمي"، حسيماً كانت تقول، أمام العديد منهم، لفظت على إثر اسمي وبالطريقة نفسها التي قالته فيها (وكما لو كنّا مدعوين اثنين فحسب إلى الغداء وهما لابتدئ يديان الغبطة نفسها في أن يعرف كل منهما الآخر) اسم المُشيد العذب ذي الشعر الأبيض. وجعلني اسم "بيرغوت" هذا أنفض كمثل دويّ مسدّس تمّ إطلاقه عليّ ولكنّي حثّيت بالغريزة وكَيْما أظهر رابط الجأش. وكمثل هؤلاء المشعوذين الذين تراهم يبرزون سالمين وباللباس الرسميّ من خلف غبار طلقة نارٍية تنطلق منها حمامة، كان يرّد لي التحيّة أمامي رجل فتي خشن قصير القامة قويّ البنية قصير النظر له أنف أحمر على شكل صدفة حلزون ولحية صغيرة سوداء. وانتابني حزن قاتل لأنّ ما استحال منذ هنيهة رماداً ليس الشيخ المضنيّ فحسب الذي لم يظَلْ منه شيء بل كذلك جمال إنتاج ضخم استطعت أن أوسع له مكاناً في الجسم الخائر القوي والمقدّس الذي بنّيته، كمثل معبد، خصيصاً من أجله ولكنه لم يُخصّ بأيّ مكان في الجسم المُكتمل المليء بالأوعية الدموية والعظام والعقد الذي للرجل القصير ذي الأنف الأفطس واللحية الصغيرة السوداء المائل أمامي. إن كامل "بيرغوت" الذي سبق أن صنعتُه بنفسِي بتمهّل ورقّة وقطرة فقطرة، شأن الصواعد، من جمال كتبه الشفاف، إن "بيرغوت" هذا بدا فجأة لا يصلح لأيّ شيء بما أنّه كان ينبغي الحفاظ على الأنف الذي على شكل الحلزون واستخدام اللحية الصغيرة السوداء - كما لا يفيدنا من بعد في شيء الحلّ الذي وجدناه لمسألة لم نقرأ كامل نصّها ولم نأخذ بالحسبان أن المجموع ينبغي أن يساوي عدداً معيّناً. كان الأنف واللحية الصغيرة يشكّلان عنصرين محتمّين يزيد في إعجازهما أنهما يبدوان، فيما أجهد في إعادة بناء شخصية "بيرغوت" إعادة كليّة، وكأنهما لا يزالان يتضمّنان بالضرورة وينتجان ويفرزان دونما انقطاع نوعاً من الفكر الناشط الراضِي عن نفسه، الأمر الذي لم يكن وارداً لأن ذلك الفكر لم يكن يمتّ بصلّة إلى نوع الذكاء المبعوث في تلك الكتب المعروفة تماماً لديّ والتي تداخلها حكمة عذبة ورائعة. وما كنت بانطلاقي منها لأصل البتة إلى هذا الأنف الذي على شكل الحلزون ما كان يبدو أنّه يهتمّ للأمر وكان يمضي وحيداً وعلى هواه، كنت أنطلق في اتجاه مغاير تماماً لأعمال "بيرغوت" الأدبيّة وربما خلصتُ فيما يبدو إلى شيء من ذهنيّة مهندس مُعجّل من صنف الذين يظنّون من حسن اللياقة أن يقولوا حينما يحيون: "شكراً وأنت" قبلما يسألون عن أخبارهم وإن صرّح أحدهم عن اغتباطه بالتعرّف إليهم أجابوا باختصار يتصوّرونه في أحسن موقع وأنّه ذكيّ وعصري لما يحجب ضياع وقت ثمين بعبارات فارغة: "وأنا كذلك". والأسماء دونما شكّ ترسّمت على هواها فتزوّدنا برسوم عن الناس والبلدان قليلة الشبه بأصولها حتى ليصيبنا في الغالب نوع من الدهول حينما يمثل أماننا، عوضاً عن العالم المرئيّ (وهو ليس العالم الحقيقي على أيّة حال إذ لا تملك حواسنا موهبة المماثلة أكثر مما يتفق للخيال إلى حدّ

أن الرسوم التقريريّة التي يمكن بعد لأي أن نحصل عليها من الواقع تختلف عن العالم المرئي على الأقلّ بقدر اختلاف هذا الأخير عن العالم المتخيّل). بيد أن الإزعاج الناجم عن الاسم السابق فيما يخص بيرغوت كان يسيراً جداً في مقابل الإزعاج الذي كانت تسببه لي أعماله المعروفة التي كان لزاماً عليّ أشدّ إليها، وكأنّما إلى منطاد، الرجل صاحب اللحية الصغيرة دون أن أعلم إن كانت ستظلّ لها القدرة على الارتفاع. إلا أنّه كان يبدو مع ذلك أنّه هو الذي سطر كتباً أحببتها إلى حدّ بعيد، ذلك أنّه، إذ ظنّنت السيّد "سوان" من واجبها أن تقول له عن الميل الذي بيّ إلى أحدها، لم يُبدِ أيّة دهشة أن نقلت الأمر إليه عوضاً عن أن تنقله إلى مدعوّ آخر ولم يظهر وكأنّه يرى في الأمر أثراً لخطأ، بل ملأ السترة الرسمية التي ارتداها على شرف جميع هؤلاء المدعوّين بجسد طامع في الغداء القريب واهتمامه منصرف إلى وجوه أخرى مهمّة من الواقع ولم يتسم وهو يعود إلى فكرة كتبه إلا كما لحادثة انقضت من حياته السالفة وكما لو تمّ التلميح إلى بدلة للدوق "دوغيز" كان قد ارتداها في حفلة تنكريّة في إحدى السنوات، كتبه التي هبطت في الحال في نظري (وجرت في سقوطها كامل قيمة الجمال والكون والحياة) إلى حدّ أن لم تكن سوى تسليّة ضحلة قام بها رجل ذو لحيّة صغيرة. كنت أقول في نفسي أنّه لا بدّ حدّ فيها، ولكنّه ربّما انصرف عوضاً عن ذلك، لو عاش في جزيرة تحيط بها أرصفة من محار اللؤلؤ، ربّما انصرف بنجاح إلى تجارة اللؤلؤ. ولم تعد آثاره تبدو لي محتمة إلى هذا الحدّ. وأخذت أتساءل آنذاك إن كانت الأصالة تقيم البرهان حقاً على أنّ الكتاب العظام آلهة يترعّ كل منهم على مملكة هي وقف عليه أو إن لم يكن في كل ذلك شيء من الخدعة وإن لم تكن الفوارق بين الأعمال الفنيّة نتيجة العمل أكثر منها التعبير عن فارق جذريّ في الجوهر بين مختلف الشخصيات.

وجلسنا في أثناء ذلك إلى المائدة، فوجدت إلى جانب قصعتي قرنفة غلّفت ساقها بورق فضيّ. وكانت حيرتي بها أقلّ من تلك التي خلّفها فيّ المغلف الذي سلّم إليّ في الردهة والذي نسيتّه تماماً. وقد بدت لي العادة، مع أنها في مثل جدّة المغلف عليّ، أقرب إلى الإدراك حينما شاهدت سائر المدعوّين الذكور يأخذون قرنفة مشابهة وضعت إلى جانب قصعاتهم ويدخلونها في عروة سترتهم. وفعلت مثلهم بالمظهر الطبيعيّ الذي يديه أحد الملحدين في كنيسة وهو لا يعرف القدّاس ولكنه ينهض حينما ينهض الجميع ويجثو على ركبتيه بعد ما يجثو الجميع بقليل. وكان هنالك عادة مجهولة لديّ وأقلّ زوالاً ساءتني أكثر من تلك، فقد كان في الجانب الآخر من قصعتي قصعة أصغر منها ملأها مادّة لونها إلى سواد وما كنت أعلم أنها الكافيار. وكنت جاهلاً لما ينبغي أن أفعله بها ولكنني مصمّم أن لا أكل منها:

ولم يكن "بيرغوت" بعيداً عنيّ، وكنت أسمع أقواله بوضوح تامّ. وأدركت إذ ذاك انطباع السيّد "دو نوربوا". لقد كان بالحقيقة يملك عضواً غريباً، فليس ما يفسد صفات الصوت المادّية بقدر ما يتفق لها حينما يتضمّن فكراً، إذ تتأثر بذلك رتّة المصوّنات الموزدوجة وزخم الحروف الشفويّة، كما يتأثر الإلقاء أيضاً. وكان إلقاؤه يبدو لي مختلفاً عن طريقته في الكتابة اختلافاً كليّاً، وحتى الأمور التي كان يقولها عن تلك التي تملأ كتبه. بيد أن الصوت ينطلق من تحت قناع لا يكفي

ليسهل لنا التعرف لأول وهلة إلى وجه رأيناه على المكشوف في الأسلوب. ففي بعض مقاطع الحديث التي تعود فيها "بيرغوت" أن يأخذ بالتحدث بطريقة لم تكن تبدو متكلفة ومزعجة للسيد "دو نوربوا" وحده طال بي الوقت حتى اكتشفت توافقاً يطابق تماماً الأجزاء التي تضحى فيها الصياغة في كتبه شاعرية وموسيقية إلى حد بعيد. حينئذ كان يبصر فيما يقوله جمالاً تشكيمياً مستقلاً عن مدلول الحمل، وبما أن القول البشري متصل بالروح ولكن دون أن يعبر عنها على نحو ما يفعل الأسلوب الكتابي، فقد كان "بيرغوت" يبدو وكأنه يتكلم بعكس المعنى فيرتل بعض الكلمات، ثم هو ينسجها دونما فاصل وكأنها صوت واحد وبرتابة متعبة إما تابع تحتها صورة واحدة. وهكذا كان الإلقاء المتكلف المفخم الرتيب علامة الميزة الجمالية في أقواله والأثر في حديثه لتلك القدرة نفسها التي كانت تنتج في كتبه تتابع الصور وانسجام الأصوات. وقد صادفت بادئ الأمر مشقة في تبين ذلك تتعاطم بمقدار ما يبدو ما يقوله في تلك اللحظات وكأنه ليس في طريقة "بيرغوت" لأنه بالضبط كان حقاً من "بيرغوت". كان فيضاً من الفكر الواضحة لا تدخل ضمن "طراز بيرغوت" ذاك الذي اتخذته الكثير من محرري الأخبار لأنفسهم، والمرجح أن ذلك التباين - حينما تتم رؤيته على نحو غامض من خلال الحديث على غرار صورة خلف زجاج نظارة سوداء - إنما يشكل مظهر آخر من هذا الأمر الذي مفاده أنك حين كنت تقرأ صفحة من "بيرغوت" لم تكن الصفحة قط ما قد يكتبه أي من أولئك المقلدين التافهين الذين يزینون نثرهم مع ذلك في الجريدة وفي الكتاب بقدر كبير من الصور والفكر التي من "طراز بيرغوت". كان ذلك الفارق في الأسلوب ناجماً عن أن "طراز بيرغوت" إنما هو قبل كل شيء عنصر ما ثمين وحقيقي مدفون في أعماق الأشياء جميعها ثم هو يُستخرج منها على يد هذا الكاتب الكبير بفضل نبوغه، وإنما الاستخراج ما يهدف إليه "المنشيد العذب" لا أن يكتب على طريقة "بيرغوت". وحقيقة القول أنه كان يفعل رغباً عنه بما أنه "بيرغوت" وأن كل رائع جديد في مؤلفاته إنما كان بهذا المعنى الكمّية اليسيرة من "طراز بيرغوت" التي دفنت في أمر ما ثم استخرجها منه. ولئن كان كل من تلك الرائعات من جرّاء ذلك على وجه شبه بالآخرات وسهل التعرف فإنما يظلّ مع ذلك متميزاً شأن الاكتشاف الذي أبرزه للنور، وجديداً وبالتالي مختلفاً عما كان يدعى بطريقة "بيرغوت" التي هي تأليف غامض بين جميع ماتم له العثور عليه وتسطيره من أمور من "طراز بيرغوت"، وهي أمور ما كانت لتسمح لرجال بلا نبوغ بالتكهن بما قد يكتشفه في مكان آخر. والأمر واحد بالنسبة إلى جميع الكتاب العظام، فإن روعة جملتهم لا يمكن توقعها، كما هي روعة امرأة لا نعرفها بعد. وهي ابتداء بما أنها تنطبق على غرض خارجي يفكرون فيه - لا في أنفسهم - ولم يعبروا عنه بعد. فلو شاء كاتب مذكرات في يومنا أن يكتب بطريقة "سان سيمون" دون أن يبدي من ذلك شيئاً لاستطاع كتابة السطر الأول من وصف "فيلار" إن حاله: الحظ كان رجلاً فارغ الطول أسمر.. له وجه زاهر بالحياة والصراحة بارز الخطوط، ولكن آية قدرية يمكنها حمله على اكتشاف السطر الثاني الذي يبدأ بالكلمات: "وعلى شيء من الجنون بالحقيقة"؟ إن التنوع الحقيقي كامن في جميع هذه العناصر الحقيقية غير المتوقعة، في الغصن المثقل بالأزهار الزرقاء والذي يندفع، بخلاف ما نتوقع، من السياج الربيعي الذي بدا ملآن مزدحمًا، فيما التقليد الشكلي البحت للتنوع (ويمكن انتهاز التفكير نفسه بشأن جميع ميزات

الأسلوب الأخرى) فراغ ورتابة يعني أكثر ما كان مضاداً للتنوع ولا يفلح لدى المقلدين في الإيهام به والتذكير به إلا بالنسبة لمن لم يفهمه لدى أرباب الأدب.

ولذلك - فمثلما ربما كان إلقاء "بيرغوت" ساحراً دون شك لو لم يكن هو نفسه سوى واحد من الهواة ينشد نصوصاً يزعمون أنها من طريقة "بيرغوت"، في حين كان مرتبطاً بفكر "بيرغوت"، وهو في طور العمل الناشط، بصلات حيوية لم تكن الأذن تميزها في الحال - كذلك كانت تتسم لغته بشيء من الإيجابية وبما يزخر بالغذاء مما يخيب أمل الذين يتوقعون أن يحدثهم فقط عن "سيل المظاهر الأبدى" وعن "رعشات الجمال الخفية" لأن "بيرغوت" كان يطبق ذلك الفكر بدقة على الواقع الذي يروقه. أضف أن ميزة الندرة والجدّة الدائمتين في كل ما يكتب كانت تتم ترجمتهما في حديثه بطريقة دقيقة في تناول مسألة ما بإهمال جميع وجوها المعروفة من قبل إلى حد أنه كان يبدو وكأنه يطرقها من جانب صغير وأنه ضل سواء السبيل وأنه يقدم المفارقات فتبدو أفكاره بذلك مبهمة في الغالب، إذ يضع كل واحد موضع الأفكار الواضحة تلك التي بلغت حد الإيهام نفسه الذي بلغته أفكاره هو. ولما كان من شروط الجدّة، أية كانت، الإزالة المسبقة للمطروق المكور الذي سبق أن تعودناه والذي كان يبدو لنا الواقع بعينه، فسوف يبدو كل حديث جديد، ومثله كل رسم وكل موسيقى مبتكرين، معقداً ومرهقاً على الدوام. ذلك أنه يستند إلى أشكال لم نألفها ويبدو لنا المحدث وكأنه لا يتكلم إلا بصنوف المحجاز، الأمر الذي يورث تعباً ويخلف انطباعاً بمجانة الحقيقة. (ولقد كانت أشكال الكلام القديمة فيما مضى صوراً تصعب متابعتها هي الأخرى حينما لم يكن السامع عارفاً بعد بالعالم الذي تصوره إلا أن المرء يتصور منذ زمن بعيد أن هذا هو العالم ويستند إليه.) ولذلك فحينما كان يقول "بيرغوت" عن "كوتار"، مع أن الأمر يبدو اليوم بسيطاً جداً، إنه رقص يبحث عن توازنه، وعن "بريشو" "إن هم تسريحته يحمله من المشقة أكثر مما تتحمل السيّدّة "سوان" إذ كان ينبغي، وهو مزدوج الاهتمام بصورته الجانية وبسمعته، كان ينبغي أن يعطيه تصفيف شعره، في كل لحظة، هيئة الأسد والفيلسوف في آن واحد"، كنت تحس سريعا بالتعب وتود لو تضع القدم على ما كان أكثر تشخيصاً، على حد ما يقال لنعني به ما كان أكثر قرباً مما ألفتناه. والأقوال الغامضة التي خرجت من القناع الذي كان أمام ناظري إنما كان ينبغي ردها إلى الكاتب الذي كنت أنظر إليه بإعجاب، وما كان يمكن إدخالها في كتبه بالطريقة التي توضع بها لعبة معقدة في إطار مثيلات لها، فقد كانت في مستوى آخر وتقتضي تبديلاً في مواضع الكلام استطعت بوساطته ذات يوم كنت أردد فيه لنفسه جملاً سمعت "بيرغوت" ينطق بها أن ألقى فيها كامل هيكلية أسلوبه الكتابي الذي استطعت أن أعرف إلى أحزائه المختلفة وأن أسميها في تلك المقالة المحكية التي بدت لي من قبل مختلفة إلى حد بعيد.

ومن وجهة نظر ثانوية أكثر فإن الطريقة الخاصة المبالغ إلى حد في دقتها وشدها التي كان يتبعها في لفظ بعض المفردات، وبعض الصفات التي كانت تتردد في حديثه والتي لا ينطق بها بدون شيء من التفخيم فيبرز كافة مقاطعها ويرتل المقطع الأخير (كما هي الحال بالنسبة إلى المفردة "محيّا" التي يحلها دوماً محل المفردة "وجه" ويضيف إليها عدداً كبيراً من حروف الميم والحاء

والياء تبدو وكأنها تنفجر جميعها من راحة يده المفتوحة في تلك اللحظات)، إنما كانت ترافق الموضوع الجميل الذي يبرز في نثره تلك المفردات المحبوبة، يسبقها ما يشبه الهامش وقد ألفت في العدد الإجمالي للجملة بطريقة يُضطرُّ المرء معها أن يحتسب فيها كامل "كميتها" وإلا حار على الإيقاع. على أنك ما كنت تجد في كلام "بيرغوت" هذا الضرب من الإثارة الذي غالباً ما يبذل في كتبه، كما هي الحال في كتب بعض مؤلفين آخرين، مظهر الكلمات في الجملة المكتوبة ذلك دونما شك لأنها تنطلق من الأعماق السحيقة ولا ترسل أشعتها حتى أقوالنا في الساعات التي نفتح فيها على الآخرين في الحديث فننقل إلى حد ما دون ذواتنا. كان في كتبه من هذا القبيل نغمات أكثر ولهجة أوضح مما في أقواله، وهي لهجة مستقلة عن جمال الأسلوب لم يتبينها الكاتب نفسه دونما شك لأنها لا تنفصل عن شخصيته الأكثر خفاءً. وإنما تلك اللهجة التي كانت تحدّد، في الآونة التي يضحى فيها "بيرغوت" طبيعياً تماماً في كتبه، إيقاع الكلمات التافهة جداً في الغالب التي كان يسطرها وليس في النص ما يشير إلى تلك اللهجة ولا ما يدل عليها وهي مع ذلك تنضاف من تلقاء ذاتها إلى الجمل ولا يمكن أن نقلها على نحو آخر. إنها ما كان أكثر زوالاً لدى الكاتب وأكثر عمقاً مع ذلك وهي التي ستشهد لنا على طبيعته وتعلمنا إن كان على الرغم من جميع وجوه الحشونة التي عبر عنها ناعماً، على الرغم من جميع ألوان الشهوة عاطفياً.

على أن بعض خصائص الأداء الكائنة على هيئة آثار طفيفة في حديث "بيرغوت" لم يكن ينفرد بها وحده فقد عدت فلقيتها، حينما عرفت إخوته وأخواته فيما بعد، على نحو أكثر بروزاً لديهم. كان هنالك شيء مفاجئ أجشّ في الكلمات الأخيرة من جملة مرحلة، وشيء واهن يحتضر في نهاية جملة كئيبة. وقد قال لي "سوان" الذي سبق أن عرف "الأستاذ" حينما كان طفلاً أنه كان يسمع لديه آنذاك، ولدى إخوته وأخواته على حد سواء، تلك التبدلات الأسرورية إلى حد ما في نبرة الصوت، وهي صيحات مرح عفيف تارة وطورا همسات كتابة بطيئة، وأنه كان يؤدي دوره خيراً من أي منهم حينما كانوا يلعبون سوية في الصالة في حفلاتهم الغنائية التي تصم الأذان تارة ويصحبها الوهن تارة أخرى. بيد أن كل هذه الأصوات التي تنبعث من الكائنات زائلة ولا تبقى من بعدهم مهما بدت مميزة لهم. ولكن الأمور لم تجر على هذا النحو فيما يخص التلفظ في أسرة "بيرغوت". فليس كان من الصعب أن ندرك في يوم كيف يستطيع فنان، حتى في "سادة الإنشاد"^(١)، أن يبتدع الموسيقى بالإصغاء إلى زقزقة العصافير، فإن "بيرغوت" قد نقل إلى نثره وثبت فيه تلك الطريقة في التباطؤ على كلمات تتردد صيحات فرح أو تنقطر آهات حزينة. فهناك في كتبه نهايات حمل يتناول فيها تراكم رنات، كما هو الأمر في النغمات المتألّفة الأخيرة في افتتاحية أوبرا لا تستطيع التوقف وتردد مرات عديدة إيقاعها الأخير قلما يحط قائد الأوركسترا عصاه، رنات لقيت فيها فيما بعد المقابل الموسيقي لتلك الآلات النحاسية الصوتية في أسرة "بيرغوت". ولكنه توقف فيما يخصه توقفاً لا واعياً عن استخدامها في كلامه منذ اللحظة التي نقلها فيها إلى صفحات كتبه. ومنذ اليوم الذي باشر فيه الكتابة، ومن باب أولى حينما عرفته فيما بعد، فقد صوته من جراء ذلك صفاته الأوركسترالية إلى الأبد.

(١) أوبرا غنائية.

وما كان هؤلاء الشباب من عائلة "بيرغوت" - كاتب الغد وإخوته وأخواته - ما كانوا بالتأكيد يفوقون - بل العكس صحيح - شباباً أكثر رقة وأوفر نباهة يرون أن عائلة "بيرغوت" شديدة الصخب وحتى على شيء من السوقية ومزعجة في مزحاتها التي تتسم بها طريقة البيت ونصفها ادعاء والنصف بلاهة. بيد أن النبوغ، وحتى الموهبة الكبيرة، إنما يصدر عن عناصر ذكائية ورهافة اجتماعية تفوق ما يتجمع للآخرين أقل ما يصدر عن قدرة تحويلها وتبديل مواقعها. فليس يهم لتسحين سائل بوساطة مصباح كهربائي أن يكون لدينا أقوى مصباح ممكن، بل مصباح يمكن أن يتوقف التيار فيه عن الإضاءة وأن يتحوّل وينتج عوضاً عن النور حرارة. ولا ضرورة للتنزه في الأجواء أن تكون لدينا أقوى سيارة تستطيع، إذ لا توالي الجري على الأرض وتقطع بخط عامودي المسار الذي كانت تتبعه، أن تحيل سرعتها الأفقية إلى قوة تدفعها إلى الأعلى. وليس الذين ينتجون أعمالاً عبقرية كذلك أولئك الذين يعيشون في الوسط الأوفر رقة والذين يتألقون في حديثهم لهم القدرة، وقد توقفوا فجأة عن العيش لذواتهم، أن يصنعوا من شخصهم ما يشبه المرأة حتى لتنعكس حياتهم على صفحتها مهما أمكن أن تكون ضحلة على الصعيد الاجتماعي وحتى الثقافي إلى حد ما، إذ قوام النبوغ في القدرة العاكسة لا في الميزة الضمنية للمشاهد المعكوس. ففي اليوم الذي استطاع فيه "بيرغوت" الشاب أن يضع أمام قرائه الصالة الرديئة الذوق التي أمضى فيها طفولته والأحاديث غير المسلية التي تدور بينه وبين إخوته، في ذلك اليوم ارتقى مكاناً أسمى من أصدقاء أسرته، وهم أوفر ذكاء وأناقة: يستطيعون العودة إلى بيوتهم في سيارات الرولزرويس الجميلة وهم يبدون بعض الاحتقار لسوقية آل "بيرغوت"، أما هو فقد كان يحلق فوقهم بجهازه المتواضع الذي استطاع أخيراً "أن يُقْلِع".

وهناك لمحات أخرى في أدائه كان يشاركه فيها لا أعضاء أسرته بل بعض كتاب عصره. كان ثمة من هم أصغر سناً منه ممن بدؤوا ينكرونه ويدعون أن ليس من قرابة فكرية تربطهم به ثم هم يبرزونها غير قاصدين باستعمالهم للظروف نفسها ولحروف الجر نفسها التي كان يرددها بدون انقطاع وبتأليف الحمل بالطريقة نفسها وبالتحدث باللهجة المخففة المبطّأة نفسها كرّدّة فعل على اللغة البليغة السهلة التي لجأ إليها الجيل السابق. ربما لم يسبق لهؤلاء الشبان أن عرفوا "بيرغوت" - وسوف نرى من بينهم من كانت تلك حاله. ولكن طريقته في التفكير، وقد سرت في عروقهم، نمت فيهم تلك التبدلات في النحو واللهجة التي تتصل بالضرورة بالأصالة الفكرية. والصلة تلك تقتضي التفسير على أية حال. فلئن كان "بيرغوت" لا يدين بشيء لأحد في أسلوبه الكتابي فقد أخذ أسلوبه في الحديث عن أحد رفاقه القدماء، وهو متحدث رائع بسط عليه نفوذه فكان يقلده في الحديث عن غير ما قصد، على أنه لم يكتب في يوم، وهو على مواهب أقل، كتباً رفيعة المستوى حقاً. فلو أننا وقفنا عند حد أصالة الإلقاء لَصُنِفَ "بيرغوت" تلميذاً وكاتباً من الدرجة الثانية، في حين تأثر بصديقه في مجال الحديث وكان مبتكراً ومبدعاً في مجال الكتابة. وليس من شك أن ما كان "بيرغوت" يبرزه ويستشهد به على الدوام حينما يبغى تقييد كتاب إنما كان أحد المشاهد المثيرة للخيال ولوحة لا دلالة معقولة فيها، وذلك في سعيه للانفصال عن الجيل السابق النزاع إلى التجريد والموضوعات العامة المطروقة. فكان يقول: "آه! بلى! ذلك حسن! ثمة بنية بشال برتقالي، آه!

ذلك حسن"، أو يقول: "آه! آه! ثمة كتيبة مدينة، آه! آه!، ذلك حسن!" أما فيما يخص الأسلوب، فلم يكن في تيار عصره تماماً (وقد ظل على أية حال أميناً لبلده حصراً فكان يمتدح تولستوي وجورج إليوت وإيسن ودوستويفسكي)، لأن الكلمة التي كانت تتردد دوماً حينما ينبغي امتداح أسلوب ما كانت كلمة "العدوبة". "بلى، إني أفضل مع ذلك "شاتوبريان" الذي كتب "أتالا" على "شاتوبريان" الذي كتب "رانسيه" إذ يبدو لي أنه أكثر عدوبة. "وكان يقول تلك الكلمة على غرار طبيب يؤكد له أحد المرضى أن الحليب يؤذي معدته فيجيب: "مع أنه شديد العدوبة. والصحيح أنه كان في أسلوب "بيرغوت" ضرب من التناغم شبيه بذلك الذي كان القدماء يطلقون على بعض خطبائهم من جرائه مديحاً ندرك طبيعته بصعوبة إذ تَعَوَّدْنَا لِفَاتِنَا الحديثة التي لا يبحث فيها عن هذا النوع من التأثير.

كان يقول كذلك بابتسامة خجولة عن صفحات يعلنون عن إعجابهم بها: "أظن ذلك صحيحاً إلى حد ما ويمكن أن يكون مفيداً"، ولكن بداعي التواضع فقط وكمثل امرأة يقولون لها عن فسطانها أو ابنتها إنهما رائعتان، فتجيب بالنسبة إلى الأول: "إنه مريح"، وبالنسبة إلى الثانية: "إنها سلسلة القياد". بيد أن غريزة الباني لدى "بيرغوت" كانت شديدة العمق حتى يجهل أن البرهان الوحيد على أنه بنى بناء مفيداً وموافقاً للحقيقة كان يكمن في الفرح الذي أورثه إياه عمله الفني، هو أولاً ثم الآخرين. ولكنه بعد ذلك بسنوات عديدة، حينما لم تظل لديه موهبة، وفي كل مرة سطر فيها شيئاً لم يكن راضياً عنه. ردد لذاته هذه المرة، كي لا يمحوه كما كان جديراً به أن يفعل وكما ينشره: "على الرغم من كل شيء ذلك على شيء من الصحة، وليس ذلك غير ذي جدوى لبلدي". حتى إن الجملة المهموس بها فيما مضى أمام المعجبين به من جراء حيلة يقدم عليها تواضعه أضحت يُهَمَّسُ بها في النهاية في خفايا فواده من جراء مخاوف كبريائه. والكلمات نفسها التي أفاد منها "بيرغوت" بمثابة اعتذار لا ضرورة له عن القِيم في آثاره الأولى أضحت له بمثابة عزاء غير فعال لإزاء ضحالة آثاره الأخيرة.

إن ضرباً من التشدد في الذوق لديه ومن التصميم على أن لا يكتب ألبتة سوى أشياء يمكنه أن يقول عنها: "ذلك شيء عذب"، احتسب من جرائه على مدى سنوات عديدة فناً عقيماً ومتحلقاً ومنمقاً لأمر لا طائل تحتها، إنما كان يولف على العكس سر قوته، لأن العادة تصنع أسلوب الكاتب بقدر ما تصنع طابع الإنسان، والمؤلف الذي ارتضى مرات عديدة أن يبلغ في التعبير عن فكره إلى متعة معينة إنما يضع على هذا النحو وإلى الأبد حدود نبوغه مثلما يرسم المرء بنفسه، إذ ينساق كثيراً وراء اللذة والكسل والخشية من العذاب، مثلما يرسم على طابع لم يعد التصحيح في نهاية المطاف ممكناً فيها صورة رذائله وحدود فضيلته.

ولئن لم أحسب في اللحظة الأولى في منزل السيِّدة "سوان"، على الرغم من العديد من التقابلات التي تبينتها فيما بعد بين الكاتب وبين الرجل، أن من يقف أمامي إنما هو "بيرغوت"، إنما هو مؤلف العديد من الكتب الرائعة فربما لم أكن تماماً على خطأ لأنه لم يكن هو نفسه (بمعنى الكلمة

الحقيقي) "يصدق" ذلك. لم يكن يصدق ذلك لأنه كان ييدي تطفلاً كبيراً إزاء رجال المجتمع (دون أن يكون متحلقاً) وأرباب القلم والصحفيين ممن هم دونه بكثير. أجل، لقد علم الآن من أصوات الآخرين أنه يملك العبقرية التي لا تساوي المكانة في المجتمع والمواقع الرسمية شيئاً في مقابلها. لقد علم أنه يملك العبقرية ولكنه لا يصدق ذلك بما أنه يوالي التظاهر بالاحترام إزاء كتاب ضحلين بغية أن يصبح عضواً في الأكاديمية في وقت قريب في حين لا دخل للأكاديمية أو لحي "سان جيرمان" في هذا الجزء من "الفكر الأزلي" الذي هو واضح كتب "بيرغوت" أكثر مما لهما في مبدأ السببية أو فكرة الإله. كان يعلم ذلك أيضاً، مثلما عبثاً يعلم مهووس بالسرقة أن السرقة شر. وكان للرجل ذي اللحية الصغيرة والأنف الحلزوني خدعات سيد مهذب من سارقي الشوك بغية الاقتراب من المقعد الأكاديمي المؤمل ومن هذه الدوقة - أو تلك - التي تملك عدّة أصوات في الانتخابات، ولكنه اقتراب يجهد فيه أن لا يتمكن أي شخص يقدّر أن ملاحقة مثل هذا الهدف من باب النقيصة من كشف حيلته. ولا يفلح إلا جزئياً، فقد كنت تسمع إلى جانب أقوال "بيرغوت" الحقيقي أقوال "بيرغوت" الأناني الطموح الذي لا يفكر إلا في الحديث عن بعض ذوي النفوذ أو الأغنياء أو النبلاء كيما يبرز نفسه هو الذي أفلح في كتبه، حينما كان حقاً ذاته، في إبراز سحر الفقراء نقياً كمياه الينابيع.

أما بالنسبة إلى تلك العيوب الأخرى التي ألمح إليها السيد "دو نوربوا"، ذلك الحب النزاع إلى المحرمات في جزء منه والذي قالوا إنه تداخله قلة الذوق على صعيد المال، فلئن كانت تناقض على نحو فاضح الاتجاه في رواياته الأخيرة وهي ملأى بنزعة إلى الخير دقيقة جداً ومؤلمة جداً إلى حدّ أن أقلّ مسرات أبطالها كانت منكدة من جرّائها وأنه كان ينشئ منها بالنسبة إلى القارئ نفسه شعور بالضيق تبدو من خلاله الحياة الأكثر حلاوة عسيرة الاحتمال، فلم تكن - ونقص تلك العيوب - لتقيم البرهان، بافتراض أنها تُعزّي حقاً إلى "بيرغوت"، على أن أدبه كاذب وأن هذا القدر من الإحساس من قبيل المهزلة. ومثلما هي الحال بالنسبة إلى بعض حالات في علم الأمراض تشابه في ظاهرها فينشأ بعضها عن فرط توتر أو إفراز، والبعض الآخر عن نقص فيهما، الخ.، كذلك يمكن أن يكون ثمة عيب ناتج عن فرط الإحساس مثلما ثمة عيب ناتج عن نقص في الإحساس. وربما لم نستطع طرح المشكلة الأخلاقية بكامل شدة القلق الذي تبعته إلا في أنواع من الحياة تملؤها الرذائل بالحقيقة. ويوفر الفنان لتلك المشكلة حلاً لا على صعيد حياته الفردية بل ما كان بالنسبة إلى حياته الحقيقية، حلاً عاماً، حلاً أدبياً. ومثلما بدأ علماء الكنيسة الكبار، مع أنهم طيبون، بالتعرّف إلى خطايا جميع الناس واستخلصوا منها قداستهم الشخصية، كذلك يستخدم الفنانون الكبار في الغالب، مع أنهم شريرون، رذائلهم للوصول إلى تصوّر القاعدة الأخلاقية للجميع. وإنما رذائل الوسط الذي كانوا يعيشون فيه (أو مواطن الضعف والهزأة فيه) أو الأقوال الطائشة أو حياة ابتتهم العابثة الفاضحة أو خيانات زوجتهم أو أخطاءهم الخاصة ما كانوا في الغالب ينددون به في حملاتهم دون أن يبدّلوا بذلك مسيرة حياتهم الزوجية أو السلوك السيء الذي يسود مسكنهم. بيد أن هذا التناقض كان فيما مضى أقلّ إدهاشاً مما في زمان "بيرغوت" لأن مفاهيم الأخلاق أخذت من جهة تزداد نقاء كلما ازداد المجتمع فساداً وإن الجمهور من جهة أخرى اطلع أكثر مما فعل حتى ذاك على حياة الكتاب

الخاصة ؛ فقد كانوا يشيرون في بعض الأمسيات في المسرح إلى المؤلف الذي أعجبت به كثيراً في "كوبيريه" وهو يجلس في زاوية مقصورة يبدو محض تركيبها تعليقاً غريباً مضحكاً أو مؤثراً وتكديماً وقحاً للفكرة التي دافع عنها منذ قليل في آخر مؤلف له. وليس ما استطاع أن ينقله إليّ هؤلاء أو أولئك ما أطلعني على الكثير من طيبة "بيرغوت" أو خبثه، فأحد أقربائه كان يأتي ببراهين على قسوته، وآخر مجهول يذكر لمحة من حساسيته العميقة (وهي مؤثرة إذ كان مقرراً بالطبع أن تظلّ خفية). لقد تصرف مع زوجته تصرفاً قاسياً، إلا أنه ظلّ ينتظر في نزل قرية جاء يمضي الليلة فيه كي يسهر على مسكينة حاولت أن تلقي بنفسها في الماء وحينما اضطر إلى مغادرة المكان ترك كثيراً من النقود لصاحب المنزل كي لا يطرد تلك التعيسة وكيفا يحيطها بعنايته. وربما كلما تنامي الكاتب الكبير في "بيرغوت" على حساب الرجل ذي اللحية الصغيرة كلما غرقت حياته الخاصة في لجة سائر الحيات التي كان يتخيلها ولم يعد يبدو له أنها تضطره إلى أداء واجبات فعلية حلّ محلّها بالنسبة إليه واجب تخيل هذه الحيات الأخرى. بيد أنه كان في الوقت نفسه، حينما تدعوه المناسبة إلى التحدث إلى أحد المساكين، على الأقل بطريقة عابرة، كان يفعل ذلك، لأنه يتخيّل مشاعر الآخرين كما لو أنّها مشاعره الخاصة، بأن يتخذ لا وجهة نظره الشخصية بل وجهة نظر الشخص الذي يتعذب، تلك الوجهة التي يكره من جرائها كلام الذين يوالون التفكير بمصالحهم الصغيرة حيال عذاب الغير. وقد أثار بذلك من حوله ضغائن لها ما يبررها ومشاعر امتنان لا تزول.

لقد كان عليّ وجه الخصوص إنساناً لا يحب حقاً في قرارة نفسه سوى بعض الصور وأن يؤلفها ويرسمها تحت غطاء الكلمات (كمثل منمنمة في أسفل صندوق). فقد كان يدي إسرائاً في التعبير عن شكره من أجل شيء يسير أرسل إليه إن وفر له هذا الشيء اليسير فرصة تشبيك عدد منها، في حين لا ييدي أيّ شكر إزاء هدية ثمينة ولو وقع عليه أن يدافع عن نفسه أمام المحكمة لاختار أقواله مرغماً لا بحسب التأثير الذي يمكن أن تخلفه في القاضي بل سعيّاً وراء صور لعلّ القاضي بالتأكيّد لم يتيبها

وقد رويت لي "بيرغوت" في ذلك اليوم الأوّل الذي رأيته فيه لدى ذوي "جيلبيرت" أنني استمعت حديثاً للممثلة "لابيرما" في مسرحية "فيدر" ؛ فقال لي إنها استطاعت في المشهد الذي تظل فيه مرفوعة الذراع إلى مستوى الكتفين - وهو بالضبط أحد المشاهد الذي أثار الكثير من التصفيق - ، استطاعت أن تستعيد بفنّ شديد السموّ روائع لم تشهدها ربّما في يوم كمثل واحدة من "الهيبيريد"^(١) تقوم بهذه الحركة على إفريز منحوت من "أولمبيا"، وكذلك العذارى الجميلات في "الإيريكتيون"^(٢) القديم - "يمكن أن يكون الأمر من باب الرجم بالغيب، على أنّي أتصور أنّها ترتاد المتاحف. وربما بدا مثيراً أن تنقصني حقيقة ذلك" (وتقصّي الحقيقة واحدة من تلك العبارات المألوفة لدى "بيرغوت" والتي غنمها منه بعض الشبان ممن لم يلتقوا به في يوم فيتحدثون مثله

(١) Hesperides : جنيات ثلاث في الأساطير اليونانية كن يقمن بحراسة التفاح الذهبي الذي وهبته "هيرا" للأرض.
(٢) Brechtheion : معبد بالقرب من مبنى الأكروبول للإلهين "أثينا" و "بوزيدون" ويعد من آيات الفن.

وكانما بضرب من الاستيحاء البعيد). وسأله "سوان" قائلاً: "أتفكر في فتيات "الكارياتيد" (١) وأجاب "بيرغوت": "لا، لا، إنه فن أقدم بكثير ذاك الذي تردّ إليه الحياة، فيما عدا المشهد الذي تقرّ فيه لـ "اونون" بغرامها والذي ترسم فيه بيدها حركة "هيجيزو" (٢) التي على شاهدة مقبرة أثينا. كنت أتحدث عن عذارى "الإيريكيون" القديم، وأعترف أنه مامن شيء أبعد عن فن "راسين"، إلا أن ثمة أموراً كثيرة في مسرحية "فيدر" .. ينضاف إليها آخر .. آه! ثم إنها، بلى، إنها جميلة جداً "فيدر" الصغيرة، تلك التي من القرن السادس، بعمودية الذراع وعقصة الشعر التي توحى بالمرمر، بلى، إنه مع ذلك لأمر عظيم أن تكون لقيت كل ذلك. إن ثمة قسطاً من القديم أوفر بكثير مما هي الحال في كثير من الكتب التي ينعونها بـ "القديم في هذا العام".

ولما كان "بيرغوت" قد وجه في أحد كتبه دعاءً شهيراً إلى هذه التماثيل العتيقة فقد كانت الأقوال التي يدلي بها في تلك اللحظة واضحة جداً بالنسبة إليّ وكانت تزودني بسبب جديد للاهتمام بتمثيل "لابيرما" فأخذت أحاول رؤيتها ثانية داخل ذكرياتي مثلما كانت في ذلك المشهد الذي كنت أتذكر فيه أنها رفعت ذراعها إلى مستوى كتفها. وكنت أقول في نفسي: "تلك جنّية" "أولمبيا"، تلك شقيقة إحدى هؤلاء المصليات الرائعات في "الأكروبول". ذلك هو الفن السامي بعينه. "بيد أنه كان لابد كيما تستطيع تلك الأفكار أن تزيد في نظري من جمال حركة "لابيرما" أن يكون "بيرغوت" قد زودني بها قبل العرض، فلعلي كنت أستطيع حينذاك، ساعة تكون وقفة الممثلة تلك قائمة بالفعل أمامي في تلك اللحظة التي لا يزال يملك فيها الأمر الذي يجري تمام الواقع، أن أستخلص منها فكرة المنحوتة القديمة. غير أن ما كنت أحفظه من "لابيرما" في ذلك المشهد إنما كان ذكرى لم يعد بالإمكان تبديلها، دقيقة كمثّل صورة خلّت من خلفيات الحاضر العميقة التي يمكن حفرها والتي مكن أن نستخرج منها شيئاً جديداً يطابق الحقيقة بصورة لا يمكن أن نفرض عليها تفسيراً لاحقاً لا يمكن التحقق منه من بعد ولا التصديق عليه موضوعياً. وسألتني السيدة "سوان"، بغية المشاركة في الحديث، إن كانت "جيلبيرت" قد فطنت إلى إعطائي ما كتب "بيرغوت" حول "فيدر". وأضافت تقول: "لي ابنة بالغة الطيش". وعلت شفّتي "بيرغوت" ابتسامة متواضعة واحتج بقوله إنها صفحات غير ذات بال. "بلى، إنه رائع ذلك الكتيب الصغير، ذلك المنشور الصغير"، تقول السيدة "سوان" كيما تظهر مظهر ربة البيت الناجحة وكيما توهم أنها قرأت النشرة ولأنها إلى ذلك لم تكن تحب تقريظ "بيرغوت" فحسب، بل أن تختار بين ما يكتب وأن توجهه. وقد ألهمته والحق يقال على نحو يختلف عما ظننت بيد أن ثمة على كل حال بين ما كانت عليه أناقة صالون السيدة "سوان" وبين جانب بأكمله من آثار "بيرغوت" صلات وثيقة إلى حد أن كلا من الاثنين يمكن أن يكون بالتناوب، في نظر شيوخ اليوم، تفسيراً للآخر.

وكنت أسترسل في التحدّث عن انطباعاتي. وكثيراً ما لا يجدها "بيرغوت" صحيحة، ولكنه

(١) Cariatides : أعمدة على هيئة نساء وأشهرها في المعبد السابق.

(٢) ربما كان "هيجيزس" الفيلسوف اليوناني الذي نادى بالانتحار إزاء عجز الإنسان عن بلوغ السعادة.

يدعني أتحدث. قلت له إنني أحببت ذلك الضوء الأخضر ساعة ترفع "فيدر" ذراعها. "آه! قد يدخل ذلك سروراً بالغاً على قلب مهندس المناظر، وهو فنان كبير، وسوف أروي له عن ذلك لأنه فخور جداً بهذا الضوء. أما أنا فأرى من واجبي أن أقول إنني لا أحبه كثيراً لأنه يغمر كل شيء في ما يشبه الجو المصطنع ذا الزرقة المخضوضرة وتبدو "فيدر" الصغيرة في ذلك الوسط أكثر ما تبدو وكأنها غصن مرجان في أسفل حوض أسماك. وربما قلت إن ذلك يبرز الجانب الكوني في المأساة، وهذا صحيح والأمر على كل حال أفضل بالنسبة إلى مسرحية تجري في مملكة "نبتون"^(٥). إنني أعلم تمام العلم أن ثمة ما يمتد إلى ثار "نبتون". ولست، وربك، أطلب أن ينحصر التفكير في "بور رويال"، ولكن ليس ما روى عنه "راسين" على كل حال حبّ قنافل البحر. على أن ذلك ما ابتغاه صديقي وفيه فن كثير على أي حال وهو جميل بما فيه الكفاية. أجل، لقد أحببت ذلك وأدركت؛ وفكرتنا واحدة بهذا الشأن، أليس كذلك، إن ما فعله غير معقول إلى حد ما، أليس كذلك، ولكنه في غاية الذكاء." وحينما كان رأي "بيرغوت" مناقضاً لرأيي لم يكن يضطرنني على الإطلاق أن ألزم الصمت ويحجب عني إمكانية الإجابة كما ربما كان يفعل بي رأي السيد "دو نوربوا". وليس يعني ذلك أن آراء "بيرغوت" كانت أقل صحة من آراء السفير، بل العكس صحيح. ذلك أن فكرة قوية إنما تعطي شيئاً من قوتها للمعارض. وإنها إذ تشارك في القيمة العامة للعقول إنما تداخل العقل الذي تدحضه وتنزع فيه وسط أفكار مجاورة يستبعد بوساطتها بعض المكاسب ويكملها ويصححها، حتى إن الحكم النهائي إنما يأتي نوعاً ما من عمل الشخصين اللذين كانا يتناقشان. وإنما الأفكار التي ليست بحصر القول أفكاراً، الأفكار التي لا ترتبط بشيء ولا تجد في ذهن الخصم أية نقطة ارتكاز وأي فرع شقيق، إنما الأفكار تلك التي لا يجد الخصم ما يجيب به عليها إذ تدعه في صراع مع الفراغ المطلق. لقد كانت حجج السيد "دو نوربوا" (في مجال الفن) لا تقبل النقاش لأنها لا تملك أرضية واقعية.

ولما لم يرفض "بيرغوت" اعتراضاتي فقد اعترفت له أنها قبلت بازدياد السيد "دو نوربوا". فأجاب قائلاً: "ولكنه عجوز أبله. لقد أوسعك انتقاداً لأنه يحسب أمامه على الدوام رجلاً مخدوعاً أو مغفلاً. وقال لي "سوان": - "عجباً! أو تعرف "نوربوا"؟ وقاطعته زوجته التي كانت كبيرة الثقة بحكم "بيرغوت" وكانت تخشى دونما شك أن يكون اغتايها السيد "دو نوربوا" أممانا: "أوه! إنه ممل كالمطر.

لقد أردت أن أتحدث إليه بعد العشاء، ولست أدري أهو العمر أم عامل الهضم، ولكنني وجدته مبدد الفكر إلى حد بعيد، وربما بدت به حاجة إلى منشط! "وقال "بيرغوت": "أجل، أليس كذلك، إنه مضطر أن يصمت مراراً كي لا يستنفد قبل نهاية الأمسية مؤونة الحماقات التي "تنشئ" ياقة القميص وتحافظ على بياض الصدرية." وقال "سوان" الذي اتخذ في بيته "مهنة" الرجل ذي التفكير السليم: "إنني أجد "بيرغوت" و زوجتي قاسيين جداً. إنني أقر بأن "نوربوا" لا يمكن أن يثير اهتمامك

(٥) Neptune إله البحر والملاحة لدى الرومان.

كثيراً، ولكنه من وجهة نظر أخرى (إذ كان "سوان" يحب أن يجمع مواقع الجمال في "الحياة") شخص غريب إلى حد ما، غريب إلى حد ما في "باب العاشقين". ثم أضاف قوله بعدما تأكد أن "جيلبيرت" لا تستطيع سماعه: "حينما كان سكرتيراً في رومه، كان له في باريس عشيقة يهيم في حبها فيجد وسيلة للسفر مرتين في الأسبوع ليراها مدة ساعتين. وكانت على أي حال امرأة شديدة الذكاء وفتانة في ذلك الوقت، وهي الآن من الوريثات. وكان له كثيرات أخرى في تلك الأثناء. أما أنا، فلعلني كنت أجنّ لو انبغى أن تقطن المرأة التي أحبها باريس فيما تمسك بي أشغالي في رومه. ولعله ينبغي على الدوام، فيما يخص عصبي المزاج، أن يحبوا "في طبقة أدنى منهم"، كما تقول العامة، كي تمسك المصلحة بالمرأة التي يحبونها تحت رحمتهم." وفي تلك اللحظة انتبه "سوان" إلى إمكانية لجوئي إلى تطبيق تلك القاعدة المأثورة عليه وعلي "أوديت". وبما أنّ حبّ الذات يظل دنيئاً حتى لدى المتفوقين من الناس وساعة يدون وكأنهم يحلقون معك فوق الحياة، فقد تملكه استياء شديد حيالي، ولكن ذلك لم يبرز إلا في اضطراب نظرتة. ولم يقل لي شيئاً في تلك اللحظة نفسها، وينبغي أن لا نعجب من ذلك. فحينما أشار "راسين"، حسب رواية ملفقة على كل حال ولكن مضمونها يتكرر كلّ يوم في حياة باريس، حينما أشار إلى "سكارون" في حضرة لويس الرابع عشر لم يقل أقوى ملوك العالم للشاعر شيئاً في ذلك المساء، وفي الغد فقد هذا الأخير الحظوة في عينيه.

وبما أن أية نظرية تنزع إلى أن تُعبّر عنها كلياً فقد أتم "سوان" فكرته بعد دقيقة الغضب تلك وبعدما مسح زجاج نظارته، أتمها بهذه الكلمات التي كانت ستخذه بعدها في خاطري أهمية نبوءة تحذيرية لم أفطن إلى أخذها في حسابي: "بيد أن خطر هذا النوع من الحب يكمن في أن خضوع المرأة إنما يهدئ لفترة من غير الرجل ولكنه يجعلها كذلك أكثر تشدداً. فهو ينجح في جعل عشيقته تعيش على غرار هؤلاء السجّاء الذين تضاع غرفهم ليل نهار كيما تُحسن حراستهم. وينتهي الأمر عامة بمأس". وعدت إلى السيد "دو نوربوا"، فقالت السيدة "سوان" بلهجة زاد من أنها بدت تدل على أن السيد "دو نوربوا" تناولها بسوء أن "سوان" نظر إلى زوجته نظرة تأنيب وكما لو ينبغي منعها من الاسترسال في القول: "لا تثق به، فهو على العكس تماماً."

أما "جيلبيرت" التي سبق أن رجوها مرتين أن تذهب وتستعد للنزهة فقد ظلت تستمع إلينا بين والدتها والدها الذي كانت تتكى بغنج على كتفه. ولم يكن هنالك ما يتعارض والسيدة "سوان" وهي سمراء، أكثر من هذه الفتاة ذات الشعر الذهبي والبشرة الصهباء. بيد أنك كنت تتعرف بعد برهة لدى "جيلبيرت" إلى الكثير من القسمات - كمثّل الأنف الذي توقف بقرار مفاجئ لا يحطىء على يد النحات الخفي الذي يعمل بإزميله على مدى أجيال كثيرة - وملامح والدتها وحركاتها. لقد كانت تبدو، كيما نتخذ تشبيهاً في فنّ آخر، وكأنها رسم لا يزال قليل الشبه بالسيدة "سوان" التي جعلها الرسام، من جرّاء نزوة ألوان لديه، تقف نصف متنكرة، وهي على أهبة الذهاب إلى حفلة عشاء تنكريه بلباس امرأة من البندقية. وبما أنها لم تقتصر على شعر أشقر مستعار بل أقصت آية ذرة قاتمة عن لحمها الذي بدا، وقد نزعته عنه براقعه السمراء، أكثر عرياً إذ لا تغطيه سوى أشعة تنبعث

من شمس باطنة، فلم يحى التخضيب سطحياً بل بداخل اللحم ؛ وتبدو "جيلبيرت" وكأنها تمثل حيواناً أسطورياً أو ترتدي ملابس تنكرية ميثولوجية. كانت تلك البشرة الصهباء بشرة والدها إلى حد أن الطبيعة بدت، يوم تكونت "جيلبيرت" وكأنَّ عليها أن تحلّ مشكلة إعادة صنع السيدة "سوان" شيئاً فشيئاً ولا تملك سوى بشرة السيد "سوان" مادّة لذلك. وقد استعملتها الطبيعة بمنتهى الإتقان كصانع صناديق يهّمه أن تظل عروق الخشب وعقده ظاهرة للعيان. ففي وجه "جيلبيرت"، وفي زاوية أنف "أوديت"، الذي أعيد رسمه على أتم وجه، ينتفخ الجلد ليحافظ على سلامة شامتي السيد "سوان" فلا تمّسان. كان شكلاً جديداً للسيدة "سوان" تم الحصول عليه ههنا، بالقرب منها، كمثال ليلك أبيض بالقرب من ليلك بنفسجي - على أنه لا ينبغي تمثل الخط الفاصل بين الشبهين وكأنه واضح تمام الوضوح. فقد كنت تميز بين الحين والحين، حينما تضحك "جيلبيرت"، بوضوح وحد والدها في وجه أمها وكأنما وضعا سوية لتبين ما سيسفر عنه المزيج. كانت تلك البضوية تتوضح مثلما يتشكل جنين: فتتأول على خط مائل وتنتفخ ثم تراها بعد لحظة وقد زالت. وكان في عيني "جيلبيرت" نظرة والدها الطيبة الصريحة، وهي التي رنت إليّ بها حينما أعطتني كلّ العقيق وقالت لي:

"احتفظ بها تذكراً لصداقتنا."

ولكن ما إن تطرح سؤالاً على "جيلبيرت" حول ما قد فعلت حتى تتبين في تينك العينين الحرج والتردد والمخادعة والحزن الذي كان يلم بـ "أوديت" بالأمس يوم يسألها "سوان" إلى أين ذهبت وتردّ عليه بإحدى تلك الإجابات الكاذبة التي كانت تدخل اليأس إلى قلب العاشق وتحمله الآن على تغيير الحديث بصورة مفاجئة وقد أضحي الزوج اللامبالي والحذر. وغالباً ما ألم بي الاضطراب في "الشانزليزيه" وأنا أبصر تلك النظرة لدى "جيلبيرت". وكنت في الغالب على غير حق، ذلك أن تلك النظرة - وأقصد هذه الأخيرة على الأقل - لم تعد تقابل شيئاً، وهي لديها أثر مادي بحث ورثته عن والدتها. فقد كانت حدقتنا "جيلبيرت" بعدما تذهب إلى درسها أو حينما ينبغي لها أن تعود من أجل درس ما، تقومان بتلك الحركة التي كانت تسببها بالأمس في عيني "أوديت" خشية أن تكشف أنها استقبلت في بحر النهار أحد عشاقها أو أنها على عجلة من أمرها للذهاب إلى موعد. وهكذا كنت ترى طبيعتي السيد "سوان" وزوجته تموجان وتراجعان وتتجاوز كل منهما بدورها حدودها في جسد تلك الحنية الصغيرة.

إننا نعلم ولا ريب أن الولد يكتسب صفات من أبيه ومن أمه. بيد أن توزع الصفات والعيوب التي يرثها يتم على نحو غريب إلى حد أن المرء لا يجد من بعد لدى الطفل إلا واحدة من صفتين كانتا تبدوان وكأنما لا يمكن فصلهما لدى أحد الوالدين وقد اتحدت بأحد عيوب القريب الآخر وكانت تبدو أكثر ما تكون بعداً عنه. بل قد يشكل في الغالب تجسد صفة أخلاقية في عيب جسماني يناقضها أحد قوانين الشبه البنوي. فقد تمتلك إحدى شقيقتين، إلى جانب قدّ والدها الفارع، روح والدتها الخسيسة، أما الثانية التي امتلأت بذكاء والدها فإنها تبرزه للناس بالمظهر الذي

يميز والدها. ويضحي الأنف الكبير لدى والدتها والبطن المجعد وحتى الصوت الأثواب التي تلف مواهب عهدناها في مظهر رائع، حتى ليتمكن القول عن كل من الشقيقتين وبقدر من الحق متساو إنها هي التي ورثت أكثر ما ورثت من أحد والديها دون الآخر. صحيح أن "جيلبيرت" كانت ابنة وحيدة بيد أنه كان ثمة اثنتان باسم "جيلبيرت" على الأقل. فما كانت طبيعة والدها ووالدتها متمزجان فيها فحسب، لقد كانتا تتنازعانها. بل ربما كان ذلك من باب القول غير الدقيق ويحمل على افتراض أن "جيلبيرت" ثالثة كانت تتعذب في تلك الأثناء من أنها فريسة الآخرين ولكن "جيلبيرت" كانت هذه ثم تلك بالتناوب، وكانت في كل لحظة إحداهن لا أكثر، يعني أنها عاجزة. حينما تكون أقل طيبة عن التألم من جراء غيابها. ولذلك كانت أقل الاثنتين طيبة حرة أن تتمتع بملذات قليلة السمو. وحينما كانت الأخرى تتحدث بلسان فؤاد والدها كانت تملك رؤية واسعة ويود المرء لو ينجز معها مشروعاً جميلاً وخيراً ويطلعها عليه، لكن قلب والدتها، لحظة يوشك الاتفاق، يكون استبعاد دوره، فإذا هو الذي يحبك. ويحب أملك وتغناظ - وتدخلك الحيرة تقريباً وكأنما حيال استبدال أشخاص - من جراء فكرة خسية أو قهقهة مأكرة تستمتع بهما "جيلبيرت" لأنهما تصدران عما كانت في تلك اللحظة. ويبلغ التباعد بين شخصيتي "جيلبيرت"، أحياناً حداً من الاتساع يتساءل المرء معه، وعبثاً يفعل على كل حال، عما أمكن أن يلحقه بها كيما يجدها مختلفة إلى هذا الحد. فالموعد الذي دعته إليه لم تأت إليه ولا تعتذر بعده، وليس ذلك فحسب، بل كانت تبدو، أياً كان التأثير الذي ربما حملها على تغيير عزمها، مختلفة جداً بعد ذلك حتى لتظن أنك ضحية تشابه كالذي يولف أساس مسرحية "التوائم" وأنت لست أمام الشخص الذي طلب منك أن يراك، إن لم يبد من الحق ما يبرر أنه يشعر بالذنب ويود تجنب المكاشفة.

وقالت لها أمها :

"هيا اذهبي فسوف نتأخر بسببك".

وتجيب "جيلبيرت" وهي تخفي رأسها تحت ذراع والدها الذي أمر أصابعه بحنان في شعرها الأشقر:

"إنني على أحسن حال بالقرب من والدي العزيز وأريد أن أظل فترة بعد".

كان "سوان" من أولئك الرجال الذين "أبصروا، بعدما عاشوا فترة طويلة في أوهام الحب، الرفاه الذي قدموه لنساء كثيرات يزيد من سعادتهم دون أن يخلق أي عرفان بالجميل لديهم وأي حنان نحوهم ولكنهم يظنون أنهم يحسون لدى ولدهم مودة تتجسد في اسمهم نفسه وتسمح باستمرارهم بعد الممات. فحينما لن يبقى ثمة "شارل سوان" ستظل هناك الأنسة "سوان" أو السيدة "س" ("سوان" قبل الزواج) التي ستظل على حب الوالد المتوفى، على حب ربما جاوز الحدود فيما يظن "سوان" دون شك، إذ أحاب "جيلبيرت" بقوله: "أنت ابنة طيبة" بتلك اللهجة التي تزداد رقة من جراء الاضطراب الذي توحى لنا به بشأن المستقبل المودة البالغة العنف لكائن سوف يظل من بعدنا،

وشاركنا حديثنا حول "لايرما" كيما يخفي انفعاله. وطلب مني، ولكن بلهجة لا مبالية ضجرة كما لو ينبغي البقاء إن جاز القول خارج ما يقول، أن ألاحظ بأي ذكاء وأية دقة غير متوقعة كانت الممثلة تقول لي "أونون": "كنت عالمة بذلك" وكان على حق: فإن لتلك اللهجة قيمة سهلة الإدراك حقاً وكان ينبغي أن تشبع رغبتني في العثور على أسباب لا تدحض تدعو إلى الإعجاب بـ "لايرما". ولكنها ما كانت ترضيها بسبب وضوحها بالذات. فقد كانت اللهجة بارزة بالقصد محددة المعنى لدرجة أنها تبدو وكأنها كائنة في ذاتها وأن أية ممثلة ذكية يمكنها اكتسابها. لقد كانت فكرة جميلة، ولكن إن يتفق لأحد أيا كان أن يتصورها أتم التصور فإنما يمتلكها بالقدر نفسه. يبقى لصالح "لايرما" أنها وجدتها، ولكن هل يمكن استخدام لفظة "وجد" حينما يتعلق الأمر بشيء لا يختلف إن جاءنا عن طريق الغير، شيء لا يتعلق بكيانك على نحو جوهري بما أن آخر يستطيع إنتاجه مجدداً فيما بعد؟

وقال لي "سوان" كأنما ليعتذر من "بيرغوت"، قال لي وقد اتخذ في وسط آل "غيرمانت" عادة استقبال الفنانين الكبار بمثابة أصدقاء مقربين يحاول المرء فقط إطعامهم الأصناف التي يحبونها واللهم بما يروقهم من ألعاب أو الانصراف في الريف إلى ما يروقهم من رياضة: "يا إلهي، كم يرفع وجودك من سوية الحديث" وأضاف يقول: "يبدو لي أننا نتحدث بالتأكيد عن الفن". وقالت لي السيدة "سوان" وهي ترنو إليّ بنظرة الامتنان من جراء طيبة نفسها ولأنها احتفظت إلى ذلك بتطلعاتها القديمة إلى حديث أوفر ثقافة: "حسن جداً، إنني أحب ذلك كثيراً: ثم تحدثت "بيرغوت" إلى أشخاص آخرين وبخاصة إلى "جيلبيرت". وكنت قد نقلت إليه كل ما أحس به بحرية أدهشتني ومردها أنني سلكت معه منذ سنوات (وفي أثناء العديد من ساعات العزلة والقراءة حيث لم يكن بالنسبة إليّ سوى أفضل جزء من ذاتي) عادة الصدق والصراحة والثقة فكان يبعث في صدري الرهبة أقل من شخص أتحدث إليه للمرة الأولى. وكنت مع ذلك شديد القلق للسبب ذاته حيال الانطباع الذي لا بد خلفته في نفسه، فالأزدراء الذي افترضت أنه يديه لأفكاره لم يؤرخ بتاريخ اليوم بل يعود إلى الأزمنة السالفة التي باشرت فيها قراءة كتبه في حديثنا في "كومبريه". وربما جذر بي مع ذلك أن أقول، بما أنني تعاطفت إلى حد بعيد وبصدق، وأنا أستسلم لفكري، مع مؤلفات "بيرغوت" وأنني من جهة أخرى شعرت في المسرح بخيبة أمل لم أعرف أسبابها، بأن تينك الحركتين الغريزيتين يجب ألا تختلف الواحدة عن الأخرى إلى حد بعيد وأن تخضع كلتاها للقوانين نفسها، وأن ميزة "بيرغوت" تلك التي أحببتها في كتبه كان ينبغي ألا تكون غريبة تماماً عن خيبة أمني وعجزني عن التعبير عنها ومعاكسة لهما. ذلك لأن عقلي كان ينبغي أن يكون واحداً، وربما لم يكن هنالك سوى عقل واحد يستأجره جميع الناس، عقل يرفع إليه كل منهم من أعماق جسده الخاص أنظاره كما هي الحال في المسرح حيث ليس سوى خشبة واحدة وإن كان لكل واحد بالمقابل مكانه الخاص. ولا ريب أن الأفكار التي كنت أميل إلى محاولة استجلائها لم تكن تلك التي يعمتها "بيرغوت" عادة في كتبه. ولكن إن كنت أملك وإياه العقل نفسه فينبغي له حينما يسمعي أعبّر عنها أن يتذكرها ويحبها ويتسم لها وهو يحتفظ على الأرجح، على الرغم مما كنت أفترضه، أمام عينه الداخلية، بجزء من العقل مغاير تماماً لذلك الذي مر مقطّع منه في كتبه تخيلت انطلاقاً منه كامل

دنياه العقلية. ومثلما يستطيع الكهنة الذين خبروا القلب أوسع خبرة أن يصفحوا أفضل ما يكون الصفع عن الخطايا التي لا يرتكبونها، كذلك يستطيع العبقري الذي خبر العقل أوسع خبرة أن يدرك أفضل ما يكون الإدراك الأفكار الأكثر معارضة لتلك التي تولف أرضية أعماله الفنية نفسها. كان ينبغي أن أحدث نفسي بكل ذلك. وليس فيه على أي حال ما يروق إلى حد كبير، لأن عطف العقول الرفيعة إنما تلازمه قلة الإدراك والعداء لدى العقول الضحلة. وإنك لتغضب بلطف كاتب كبير، واللطف تلقاه عند اللزوم في كتبه، أقل بكثير مما تتألم من عداء امرأة لم تختبرها بسبب ذكائها ولكنك لا تملك إلا أن تحبها. كان ينبغي أن أحدث نفسي بكل ذلك ولكني ما فعلت وأيقنت أنني بدوت غيباً في نظر "بيرغوت"، حينما همست "جيلبيرت" في أذني:

- إن موجة الفرح تغمرني لأنك كسبت ود صديقي الكبير "بيرغوت". لقد قال لماما إنه وجدك في غاية الذكاء.

وسألت "جيلبيرت": "إلى أين نذهب؟"

- "حيثما تشاؤون، فأنت تدري، بالنسبة إلي، ان نذهب إلى هنا أو هناك."

بيد أنني منذ الحادث الذي وقع في يوم ذكرى وفاة جدّ "جيلبيرت" أخذت أسائل نفسي إن لم يكن طباعها على غير ما ظننت وإن لم تكن تلك اللامبالاة بما سنفعّل وذلك التعقل وذلك الهدوء وذلك الخضوع الوداع المستمر، إن لم تكن جميعها تخفي على العكس رغبات متقدة لا تود إبرازها للبعان من جراء اعتزازها بنفسها وما كانت تكشف عنها إلا بما تبدي من مقاومة مفاجئة حينما تتم معارضتها بالمصادفة.

ولما كان "بيرغوت" يقطن في حيّ ذويّ نفسه فقد ذهبنا سوياً. وحدثني في الطريق عن صحتي: "قال لي أصدقائي إنك تعاني من الآلام، وإني أرثي كثيراً لحالك. بيد أنني على الرغم من ذلك لن أبالغ في الرثاء لأنني أدرك تماماً أنك لابد متذوق متع العقل وهي على الأرجح ما تأخذ في حسابك قبل كل شيء كما هي الحال لجميع الذين عهدوها."

ولكن كنت أحس، وأسفي، أن ما كان يقوله غير صحيح تماماً بالنسبة إلي أنا الذي لا تثير حماسه أية محاكمة عقلية مهما سمت، والذي لا يشعر بالسعادة إلا في فترات التجوال البحث حينما يوافيني شعور بالراحة. كنت أحسّ إلى أي حد كان ما أرغب في الحياة مادياً صرفاً وبأية سهولة ربما كنت في غني عن العقل. ولما لم أكن أميز من بين المتع تلك التي تأتيني من مصادر مختلفة تزيد أو تقل عمقاً واستمراراً فقد فكرت وأنا أزمع الإجابة أنني ربما أحببت حياة يتسنى لي فيها الارتباط بصداقة بدوقة "غيرمانت" وأحس كثيراً فيها بجو ندي يذكّرني بـ "كومبريه" كما كان شأني في مكتب الميرة القديم في "الشانزليزيه" وما كانت متع العقل تحتل أي مكان في مثل الحياة الأعلى هذا الذي تخونني الحجرة في طرحة أمامه.

– "لا، يا سيدي، إن متع العقل شيء زهيد جداً في نظري وليست ما أبحث عنه وليست حتى أدري إن كنت تذوقتها في يوم."

وأجابني يقول: "أحقاً تظن ذلك؟ هيا اسمع، بلي، لابد مع هذا أن يكون ذلك ما تفضل، هو ذا ما أعتقد أنه، حسبما أتصور."

لم يقنعني بالتأكيد ولكنني أخذت أحس أنني أكثر سعادة وأقل ضيقاً. فقد سبق أن احتسبت اللحظات الحاملة، لحظات الحماسة والثقة بالنفس وكأنها، من جراء ما قاله السيد "دو نوربوا"، ذاتية محضة ولا حقيقة لها. غير أنه كان يبدو، حسبما يرى "بيرغوت" الذي يظهر أنه يعرف وضعي، أن الظاهرة التي ينبغي إهمالها إنما هي على العكس شكوكي وقرقي من نفسي، ولا سيما أن ما قاله عن السيد "دو نوربوا" كان يُفقد الإدانة التي حسبتها لا تقبل الاستئناف الكثير من قوتها.

وسألني "بيرغوت" : "هل تلقي العناية اللازمة؟ ومن ذا يهتم بصحتك؟" وقلت له: "إنني رأيت "كوتار" وسوف أراه ثانية دون شك". فأجاب قائلاً: "ليس ذلك ما يلزمك. إنني لا أعرفه طبيباً، ولكنني رأيته في منزل السيدة "سوان" إنه معتوه ؛ وبافتراض أن الأمر لا يحول دون أن يكون المرء طبيباً ناجحاً للفنانين والناس الأذكياء. فمن هم مثلك بحاجة إلى أطباء مناسيين لهم، كدث أقول إلى أنواع من الحمية وأدوية خاصة. أما "كوتار" فسوف يبعث فيك الملل، والملل كافٍ كي يحول دون أن يكون علاجه فعالاً. ثم إن هذا العلاج لا يمكن أن يجيء واحداً بالنسبة إليك وإلى أي فرد عادي آخر. فثلاثة أرباع الداء الذي ينتاب الأذكياء ينجم عن ذكائهم. ولا بد لهم على الأقل من طبيب خبير هذا الداء. فكيف يمكن لـ "كوتار" أن يعالجك؟ لقد توقع صعوبة هضم بعض المرق والإرباكات المعدية ولكنه لم يتوقع قراءة شكسبير. ولذلك كانت حساباته غير صحيحة معك ؛ لقد فقد التوازن ؛ إنه الرقاص الصغير يعود دوماً إلى الصعود. لسوف يعثر لديك على انتفاخ في المعدة وليست به حاجة لفحصك بما أنه اختزن ذلك سلفاً في عينه، وبإمكانك مشاهدته فهو ينعكس على زجاج نظارته. "كانت تلك الطريقة في الحديث تعبني كثيراً وكنت أقول في نفسي ببلاهة الحس السليم: "ليس ثمة انتفاخ معدة ينعكس على زجاج نظارة "كوتار" أكثر مما هنالك حماقات تختفي خلف صدرية السيد "دو نوربوا" البيضاء. "وأردف "بيرغوت" يقول: "أنصحك بالأحرى بالدكتور "دو بوليون" الذي يتمتع بأشد الذكاء. "فأجبت قائلاً: "إنه من كبار المعجبين بآثارك. " ورأيت أن "بيرغوت" على علم بذلك واستخلصت أن الأرواح الشقيقة تلتقي سريعاً وأن للمرء القليل من "الأصدقاء المجهولين" الحقيقيين. لقد أدهشني ما قاله لي "بيرغوت" بشأن "كوتار"، مع أنه كان مناقضاً لكل ما أعتقد. فما كنت أهتم إطلاقاً أن أجد طبيبي مملاً، بل كنت أنتظر منه أن يجيبني بشأن صحتي بنبوءة لا لبس فيها بعد معاينة أحشائي، وذلك بفضل فن قوانين خافية عليّ. وما كان يهمني أن يحاول، بواسطة ذكاء لعلي أستطيع أن أحل فيه محله، إدراك ذكائي الذي ما كانت أمثله إلا بمثابة وسيلة لا أهمية لها في حد ذاتها لمحاولة بلوغ حقائق خارجية. وكنت أشك كثيراً أن يكون الأذكياء بحاجة إلى عناية صحية تختلف عما يحتاج إليه البلهاء، وأنا على أتم الاستعداد

للخضوع لقواعد البلهاء الصحية. وقال "بيرغوت": "هنالك من هو بحاجة إلى طبيب ناجح، إنه صديقنا "سوان". ولما سألت إن كان مريضاً؛ "آه! إنه الرجل الذي تزوج واحدة من بنات الهوى، والذي يتلح في كل يوم خمسين أفعى من النساء اللواتي يرفضن استقبال امرأته، أو من الرجال الذين ضاجعوها. إنك تراها، فهي تلوي شفتيه. انظر مرة إلى إقبال حاجبيه حينما يعود إلى منزله، ليرى من في بيته. كان سوء النية الذي يتحدث به "بيرغوت" إلى غريب عن أصدقاء يستقبلونه في منزلهم منذ فترة طويلة جديداً على حدة اللهجة الحنون تقريباً التي يلجأ إليها مع أسرة "سوان" في كل لحظة في منزلهم، ولعل شخصاً مثل شقيقة جدي مثلاً، لعلها كانت تعجز بالتأكد مع أي منا عن تلك الكلمات الحلوة التي سمعت "بيرغوت" وجود بها على "سوان". فلقد كان يروقه أن تقول أموراً مكذبة حتى لمن تحبهم من الناس. ولكنها ما كانت لتفوه في غير حضرتهم بكلمة لا يستطيعون سماعها. فما كان شيء يشبه العالم أقل من مجتمعنا في "كومبريه". كان مجتمع آل "سوان" بداية طريق إليه، إلى لجته المتقلبة. لم يكن بعد أعالي البحار، ولكنه كان مذ ذاك بحيرة شاطئية. وقال لي "بيرغوت" وهو يفارقني أمام بابي: "ذلك سر بيننا. ولعلني كنت أجبني بعد ذلك بسنوات: "لست أفشي سرّاً لئلا". إنها الجملة الطقسية التي يقولها الناس في المجتمعات والتي يوفرون بها للنمّام في كل مرة طمأنينة كاذبة؛ وهي الجملة التي كنت سأقولها في ذلك اليوم لـ "بيرغوت". لأن المرأة لا يتدع كل ما يقوله ولا سيما في الفترات التي يتصرف فيها بمثابة شخصية اجتماعية. ولكني ما كنت أعرفها بعد. وربما كانت جملة شقيقة جدّي في مناسبة كهذه كالتالي: إن كنت لا تود أن يُفشي السر فلماذا تقول؟" إنه جواب الدين لا يتصفون بالاجتماعية، جواب "الرؤوس اليايسة". وما كنت كذلك، فانحنيت بصمت.

كان من بين أهل القلم ممن هم في نظري شخصيات مرموقة من كانوا يقومون بمحاولات ملتوية على مدى سنوات قبل التوصل إلى إقامة علاقات مع "بيرغوت" تظل على الدوام أدبية غامضة ولا تتجاوز عتبة حجرة عمله، في حين أخذت مكاني في عداد أصدقاء الكاتب الكبير دونما جهد وعلى نحو هادئ كمثّل من يصل إلى أفضل المقاعد بعدما يجتاز ممراً أُغلق في وجه الآخرين عوضاً عن أن يقف في دوره مع جميع الناس ليفوز بمقعد غير مناسب. ولئن كان "سوان" قد فتح لي ذلك الممر فلأن والدي "جيلبيرت"، شأن الملك يقوم بصورة طبيعية بدعوة أصدقاء أولاده إلى المقصورة الملكية وعلى متن اليخت الملكي؛ كانا يستقبلان أصدقاء ابنتهما وسط الأشياء الثمينة التي يملكانها ومظاهر الألفة التي تفوقها ثمناً وتوسطها. ولكنني ظننت في تلك الحقبة، وربما كنت على حق، أن لطف "سوان" ذاك كان موجهاً على نحو غير مباشر إلى ذوّي، فلقد خيل إليّ فيما مضى في "كومبريه" أنه عرض عليهم، إذ لاحظ إعجابي بـ "بيرغوت"، أن يصطحبني للعشاء في منزله وأن والدي رفضا العرض بقولهما إنني حديث السن ومتوتر الأعصاب إلى حد بعيد كيما يسمح لي بالخروج. ولا ريب أن والدي كانا يمثلان في نظر بعض الأشخاص، وبالضبط أولئك الذين يبدون في نظري من أكثرهم روعة، شيئاً يغيّر تماماً ما يمثلان في نظري، حتى أنني كنت أتمنى، شأني في الزمن الذي امتدحت فيه السيّد ذات الرداء الوردي والدي ولم يُبد أنه أهل للمديح، أن يدرك والدي

أية هدية لا تقدر بثمن حصلت عليها منذ قليل وأن يعربا عن امتنانهما لـ "سوان" الكريم المهدب الذي قدمها لي أو قدمها لهما دون أن يبدو عليه أنه يولي قيمتها اهتماماً أكثر مما يفعله في لوحة "لوييني" الجدارية ملك المحوس البديع صاحب الأنف المعقوف والشعر الأشقر والذي سبق أن وجدوا بالأمس له، فيما يبدو، شبهاً كبيراً به. بيد أن تلك المنة التي أسداها إلي "سوان" والتي أعلنت عنها لوالديّ لدى عودتي وحتى قبل أن أخلع معطفي يحدوني الأمل بأنها ستوقظ في فؤادهما شعوراً في مثل انفعال شعوري وأنهما ستحملهما على القيام "بلفتة مهذبة" ضخمة وحاسمة تجاه أسرة "سوان"، إن تلك المنة للأسف لم يبد أنها تلاقي تقديراً لديهما. فقد صاح والذي ساعراً: "لقد قدمك "سوان" لـ "بيرغوت"؟ ما أروعها معرفة وأبدعها علاقة! ما كان ينقصنا سوى ذلك!" وما إن أضفتُ، وأسفي، إنه لا يستسيغ السيد "دو نوربوا" على الإطلاق حتى عاد يقول: "بالطبع! ذلك يسوق البرهان على أنه عقل زائف س المقاصد. لم تكن من قبل يا ولدي المسكين على كثير من التفكير السليم، وإنني مغتم أن أراك وقعت في بيئة سوف تؤدي بك في النهاية إلى الجنون."

كان محض ترددي على منزل عائلة "سوان" أبعد ما يكون عن أيسر ذوي. وبرز تعريفي بـ "بيرغوت" بمثابة نتيجة مشؤومة ولكنها طبيعيّة لحطيئة أولى، للضعف الذي ألمّ بهم والذي ربما دعاه جذبي "فقدان الحذر". وأحسست أنه لم يظلّ لي كيما أبلغ بحنقهم حدّه سوى أن أقول إن هذا الرجل الفاسق الذي لا يكن التقدير للسيد "دو نوربوا" لقيني غاية في الذكاء. ذلك أن والذي، حينما كان يجد أن فرداً ما، كأحد رفاقي على سبيل المثال، يسلك طريق السوء - كما هي حالي في هذه الفترة -، وإن اتفق أن يحظى حينئذ بتأييد أحدهم ممن لا يكن لهم والذي التقدير، كان يرى إذ ذاك في هذا التأييد تصديقاً لتشخيصه المشؤوم، ولا يبدو له الداء إلا أكثر اشتداداً، فأسمعه مذ ذاك وقد أوشك يصرخ قائلاً: "إنها بالضرورة مجموعة متكاملة"، واللفظة ترهيني لغموض .

الإصلاحات التي تبدو وكأنها تعلن عن قرب إدخالها في حياتي الهائلة إلى حد بعيد واتساع تلك الإصلاحات. بيد أنه لما لم يكن ثمة من أمر قادر على طمس الأثر الذي انغرس في نفس والذي، حتى ولو لم أروّ عما قال "بيرغوت" عني، فليس من كبير أهمية إن يزدد ذاك الأثر سوءً. ولكنهما كانا يبدوان غير منصفين ومغرقين في الضلال إلى حد أنني لم يكن بي أمل، بل لم تكن لدي الرغبة تقريباً في ردهما إلى نظرة أكثر إنصافاً. ولكننا شعرنا، ساعة تخرج الكلمات من فمي، إلى أي حد سوف يربهما التفكير بأنني حسنتُ في عيني رجل كان يجد الناس الأذكياء بلهاء وكان موضع ازدراء الناس الشرفاء وسوف يدفعني إلى الشر تقريظه لي حين يبدو لي مشتته، فقد أنهيت روايتي بصوت خفيض وبمظهر يشوبه بعض الخجل وألقيت بالدرة الأخيرة: "لقد قال لعائلة "سوان" إنه لقيني في غاية الذكاء." وكمثل كلب مسموم يرتمي في أحد الحقول، دون أن يدري، على العشبة التي هي بالضبط المضاد للسم الذي ابتلعه، فقد أقدمت، دون أن يخامرني شك بذلك، على الجهر بالقول الوحيد الذي كان يمكن في العالم أن يقهر ذلك الحكم المغرض لدى والذي بشأن "بيرغوت"، الحكم الذي ربما ظلت باطلة معه جميع ما أستطيع القيام به من أفضل المحاكمات العقلية وجميع صنوف المديح التي ربما كلتها له. وفي اللحظة ذاتها تغير وجه الموقف. فقالت والدتي:

- "١٥٦ . أقال إنه يحبك ذكياً؟ ذلك يسرني لأنه رجل صاحب موهبة."

وأردف والدي يقول: "عجباً! أقال ذلك؟. لست أنكر في شيء قيمته الأدبية التي ينحني أمامها الجميع". "ولكنما يزعمك أنه يعيش تلك الحياة التي لا تتسم كثيراً بالكرامة والتي تحدث عنها العم "نوربوا" بكلام مبطن يضيف والدي دون أن ينتبه إلى أن أخلاق "بيرغوت" الفاسدة ما كانت تستطيع، حيال المزية العظيمة التي اكتسبتها الكلمات السحرية التي قلتها قبل قليل، أن تقاوم فترة أطول مما يستطيع بطلان اتهامه.

وقاطعته والدتي بقولها: "أوه! ليس ما يثبت يا صديقي أن الأمر صحيح. فما أكثر ما يقال. إن السيد "دو نوربوا"، على أية حال، غاية في اللطف، ولكنه ليس في منتهى الطيبة على الدوام ولا سيما بالنسبة إلى من ليسوا من جماعته."

وأجاب والدي: "صحيح، لقد لاحظت ذلك بدوري." وعادت والدتي تقول وهي تداعب شعري بأصابعها وترنو إلي بنظرة طويلة حاملة: "سوف يُغفرُ كثيراً لـ "بيرغوت" في النهاية إذ وجد ولدي الصغير ذكياً."

ولم تنتظر والدتي على أية حال قرار "بيرغوت" هذا كيما تقول لي إنه يمكنني أن أدعو "جيلبيرت" إلى العصرية حينما يصبح لي أصدقاء. ولكني لم أكن أجرؤ على القيام بذلك لسببين. أولهما أنهم ما كانوا يقدمون إطلاقاً سوى الشاي لدى عائلة "جيلبيرت"، أما أمي فيهمها على العكس أن يكون إلى جانب الشاي في البيت الشوكولاتة. وكنت أخشى أن تلقى "جيلبيرت" ذلك عامياً وأن يداخلها من جراء ذلك ازدراء عظيم لنا. وكان الثاني صعوبة في أمور المراسم لم أفلح يوماً في حلها. فحينما كنت أصل إلى منزل السيد "سوان" كانت تسأل قائلة :

- "كيف حال السيدة أمل؟"

وكنت قد فاتحت والدتي بالأمر مراراً لأعلم إن هي ستحلو حذوها حينما تجيء "جيلبيرت"، والنقطة تبدو لي أكثر خطراً من لفظة "سيدي" في بلاط لويس الرابع عشر. ولكن والدتي أبت أن تسمع.

- "لا، بما أنني لا أعرف السيدة "سوان"."

- "ولكنها بدورها لا تعرفك".

- "لست أقول العكس، ولكننا لسنا مضطرين أن نتصرف التصرف نفسه بالضبط. أما أنا فسوف أحيط "جيلبيرت" بلفتات لطيفة لن تحيطك بها السيدة "سوان".

ولكني لم أقتنع وفضلت ألا أدعو "جيلبيرت".

وبعدما فارقت والديّ ذهبت لخلع ملابسي، وفيما كنت أفرغ جيوبي وجدت فجأة المغلف الذي سلّمني إياه رئيس خدم أسرة "سوان" قبل أن يدخلني إلى الصالة. وكنت وحدي آنذاك ففتحته وكان في داخله بطاقة يعيّنون لي فيها السيدة التي ينبغي لي أن أمد إليها ذراعي لتصبحني إلى المائدة.

وكان في تلك الفترة بالذات أن قلب "بلوك" نظرتني إلى العالم رأساً على عقب، فتح في وجهي إمكانات سعادة جديدة (كانت ستقلب على أية حال إلى إمكانات عذاب) إذ أكد لي أن النساء، خلافاً لما كنت أحسب في أيام نزهاتي في جانب "مزيكليز"، غاية مطلبهن ممارسة الحب. وأتم معرفته ذلك بأن أسدى لي معروفاً ثانياً ما كنت سأقدره حق قدره إلا بعد ذلك بكثير: فهو الذي اقتادني للمرة الأولى إلى أحد بيوت الدعارة. صحيح أنه سبق أن قال لي إن ثمة العديد من النساء الجميلات اللواتي يمكن امتلاكهن. ولكنني كنت أخصهن بوجه مبهم سمحت لي بيوت الدعارة بأن أستبدل به وجوها خاصة. حتى أنني إن كنت أدين لـ "بلوك" - من أجل "بشارته الحسنة" بأن السعادة وامتلاك الجمال ليسا من الأمور العزيزة المنال وأنا صنعنا صنيعاً لا جدوى فيه بتخلينا عنهما إلى الأبد - مثلما أدين لهذا الطبيب وهذا الفيلسوف الذي يبعث فينا الأمل بطول الحياة في ذي الدنيا وأنا ننفضل عنها تماماً بعد ما نمر إلى عالم آخر، فقد استحقت بيوت الدعارة التي ترددت إليها بضعة سنوات - إذ زودتني بنماذج من السعادة وأفسحت لي المجال لأضيف إلى جمال النساء هذا العنصر الذي لا نستطيع ابتداعه والذي ليس محض اختصار للجماليات القديمة، هذه الهدية الإلهية حقاً، الهدية الوحيدة التي لا يمكن أن نجنيها من ذواتنا، التي تزول قبالتها جميع الاختلافات عقلنا المنطقية والتي لا يمكن أن نطالب بها سوى الواقع: غيت الفتنة الفردية - استحقت أن يتم تصنيفها على يدي إلى جانب هؤلاء المحسنين الآخرين، وهم من منشأ أكثر حداثة ولكن فائدتهم تضاهيها (المحسنين الذين كنا نتخيل، دونما اندفاع من قبلهم، سحر "ماتينيا" و"فاغور" و"سينا" بالمقارنة برسامين آخرين وموسيقيين آخرين ومدن أخرى): غيت بهم طبعات تاريخ الرسم المصورة وحفلات الموسيقى السمفونية والدراسات حول "مدن الفن". إلا أن بيت الدعارة الذي قادني إليه "بلوك" والذي لم يعد يرتاده منذ فترة طويلة، على أية حال، كان من مرتبة دنية جداً، "والمستخدمون" فيه من نوعية ضحلة نادرة التجدد حتى يمكنني أن أشبع بها نزعات فضول قديمة وأن أكتسب من جرائها أخرى جديدة. فقد كانت ربة ذلك البيت لا تعرف آياتاً من النسوة اللواتي يُطلبن منها وتعرض على الدوام من لا يُقبل بهنّ. كانت تثني بخاصة على إحداهن، على واحدة تقول عنها بابتسامة مثقلة بالعود (كما لو كانت أمراً نادراً وكانت اللذة عنيها): "إنها يهودية! أليس يهملك ذلك؟" (ولا شك أنها كانت تدعوها "راحيل" لهذا السبب). ثم تقول بحماسة بلهاء مصطنعة تأمل أنها سهلة العدوى وتنتهي بما يشبه زفرة الاستمتاع تقريباً: "تصوّر يا صغيري، إنها يهودية، والأمر لابدّ يذهب بالعقل، فيما يبدو لي، آخاً" و "راحيل" تلك التي أبصرتها دون أن تراني كانت سمراء على غير جمال ولكنها تبدو ذكية وكانت تبتسم، ولا يفوتها أن تمدّ طرف لسانها بين شفيتها، ابتسامة شديدة الوقاحة للعاشقين الذين يُقدّمون لها والذين كنت أسمعهم يشعرون بالحديث معها. كان وجهها النحيل الضيق يكتنفه شعر أسود جعد غير منتظم وكانما مثل بتظليلات بالحر

الصيني في رسم نفَّذ بهذا الحبر. وكنت في كلِّ مرّة أعد ربّة البيت، التي كانت تعرضها عليّ بالحاح خاصّ وهي تثني عليّ ذكائها الشديد وعلمها، أنّه لن يفوتني أن أحضر ذات يوم خصيصاً لأتعرّف بي "راحيل" التي كنت ألقبها بي "راحيل حينما الربّ" .. بيد أنّي سمعت هذه الأخيرة في أوّل مساء تقوله لربّة البيت لحظة كانت ذاهبة:

- "اتفقنا إذن، في الغد أكون خالية الارتباطات، فإن اتفق لك أحدهم فلا تنسي أن ترسلي في طلبي".

وقد حالت تلك الأقوال دون أن أرى فيها شخصاً لأنّها حملتني على تصنيفها في الحال ضمن فئة عامّة من النساء عاداتها المشتركة فيما بينها أنّها تحيى إلى هناك في المساء لترى إن لم يكن ثمّة ليرة وليرتان ذهبيتان تكسبهما. كانت تنوّع فحسب في شكل حملتها فتقول: "إن كنت بحاجة إليّ" أو "إن كنت بحاجة لأحدهم".

وربّة البيت التي لم تكن تعرف أوبرا "هاليفي" كانت تجهل السبب الذي تعودت من أجله أن أقول "راحيل حينما الربّ". ولكنّ قلّة إدراك المزاح لم تجعل المزاح في يوم أقلّ إضحاكاً، فكانت تقول لي في كلّ مرة وهي تضحك من صميم قلبها: "ألم يئن بعد في هذا المساء أن أقرنك بي "راحيل حينما الربّ"؟ كيف تقولها أنت: "راحيل حينما الربّ" آه! يالها من لقية حلوة. سوف أعلن خطوبتكما، وسترى أنّك لن تأسف لذلك".

وأوشكت ذات مرّة أن أحزم أمري، ولكنّها كانت "قيد الطباع"، وفي مرّة أخرى كانت بين يدي "الحلاق"، وهو رجل عجوز يقتصر نشاطه مع النساء على سكب الزيت على شعورهنّ المحلولة وبعد ذلك على تمشيطهنّ. وأرهقني الانتظار، مع أنّ بعض النسوة الوضيعات جدّاً ممن يرتدن المكان من العاملات المزعومات، وهنّ أبداً بلا عمل، أقبلن يحضرن لي المغلي ويبدآن حديثاً طويلاً يضيفي عليه عريّ محدثاتي الجزئي والتامّ - على الرغم من جدّة الموضوعات المطروقة - بساطة لذيذة. وقد توقفت على أي حال عن ارتياد ذلك البيت إذ سبق لي أن رغبت في الإعراب عن مشاعري الطّيبة للمرأة التي كانت تشرف عليه وكانت بحاجة إلى أثاث فأعطيتها بعضها منه - ولاسيماً أريكة كبيرة - ممّا ورثته عن عمّتي "ليونى". وما كنت أشاهده ألبّته لأنّ ضيق المكان حال دون أن يسمح والداي بإدخاله إلى بيتنا فكان مكّساً في مستودع. ولكن ما إن عدت فعثرت عليه في البيت الذي كانت تستعمله فيه تلك النسوة حتّى بدت لي جميع الفضائل التي كانت تفوح من غرفة عمّتي في "كومبريه" وكأنّها تتعدّب من جرّاء التماسّ القاسي الذي دفعها عزلاء إليه! ولعلني ما ذقت عذاباً أكبر وسهّلت الاعتداء على امرأة ميتة. ولم أعد من بعد إلى منزل القوادة إذ كان يبدو لي الأثاث وكأنّما تدبّ فيه الحياة ويتوسّل إليّ شأن تلك الحاجات الجامدة في ظاهرها في حكاية فارسيّة والتي سُحنت فيها نفوس تسام مرّ العذاب وتلتمس خلاصها. وبما أن ذاكرتنا من جهة أخرى لا تقدّم لنا ذكرياتنا بالعادة حسب تتابعها في الزمان بل على هيئة انعكاس قلبٍ فيه ترتيب الأجزاء، فلم أتذكر إلا بعد ذلك بكثير أنّي ذقت للمرّة الأولى على تلك الأريكة نفسها ومنذ سنوات خلت

لذّة الحبّ مع إحدى بنات أعمامي التي لم أكن أعلم أين أجالسها فأشارت عليّ بأمر خطير قوامه أن أستغلّ ساعة تكون عمّتي قد نهضت في أنثائها.

وقمت ببيع جزء آخر من الأثاث ولاسيّما أواني فضيّة قديمة كانت لعمّتي "ليونى"، وذلك على الرغم من معارضة والديّ، كيما يتوافر لي مال أكثر وأبعث بكميّة أكبر من الزهور إلى السيّدة "سوان" التي كانت تقول لي وهي تتسلم سلالاً ضخمة من زهور الأوركيد: "لو كنت السيّد والدك لأمرت لك بمجلس قضائي". وكيف كان لي أن أفترض أنّي سوف أسف ذات يوم على تلك الأواني الفضية بوجه الخصوص وسوف أضع بعض المتع في مرتبة أعلى من متعة مجاملة ذوي "جيلبيرت"، هذه المتعة التي ربّما أضحت معدومة تماماً. وكنت قرّرت كذلك بسبب "جيلبيرت" وكى لا أفارقها أن أتخاشى دخول سلك السفارات. وليس يتخذ المرء قرارات نهائية في يوم إلا بسبب حالة فكريّة لا يُقدّر لها أن تدوم. وكنت لا أكاد أتصوّر أن تلك المادّة الغريبة التي استقرّت في "جيلبيرت" وكانت تشعّ في ذوبها وفي بيتها فتجعلني لا مبالياً بكلّ ما عداها ربّما تحرّرت وانتقلت إلى كائن آخر. وإنها لتلك المادّة نفسها حقّاً، مع أنّها ستخلف في آثاراً مغايرة تماماً. ذلك لأن المرض نفسه يتطوّر، والسّم اللذيذ لا يُحتمل من بعد حينما تتناقص مقاومة القلب بفعل السنين.

على أنّ والديّ ربّما تمّنيا أن يتجلى الذكاء الذي أقرّه لي "بيرغوت" عن طريق عمل مرموق. وحينما كنت لا أعرف آل "سوان" كنت أحبّ أنّ ما يحول دون أن أعمل إنّما هي حالة الاضطراب التي تزجّني فيها استحالة أن أرى "جيلبيرت" بملء الحرية. ولكنني حينما فتحت أبوابهم في وجهي كنت لا أكاد أجلس إلى مكتبي حتّى أنهض وأجري إلى منزلهم. فإن فارقتهم وعدت إلى البيت لم تكن عزليّ إلاّ ظاهرة، ولا يستطيع فكري من بعد مقاومة تيار الأقوال الذي تركته يحرفني آلياً على مدى ساعات. فقد كنت أوالي في عزليّ ابتداء الأقوال التي ربّما استطاعت أن تروق أسرة "سوان"، وكنت أشغل مكان هؤلاء الرفاق الغائبين كيما أضفي على اللعبة أهميّة أكبر فأطرح على نفسي أسئلة وهميّة اختيرت على نحو تبدو فيه ميزاتي اللامعة وكأنّها محض إجابة موفقة عنها. كان ذلك التمرين، وإن بدا صامتاً، محادثة لا تأملاً، وعزليّ حياة متديّات ذهنيّة بحكم أقوالي فيها لا شخصي أنا بل محاورون من نسيج الخيال، وأحسّ فيها، عبر صياغة الأفكار التي توافيني دون مشقّة ودون تراجع من الخارج باتجاه الداخل بدلاً من تلك التي كنت أظنها حقيقيّة، ذلك النوع من اللذّة السليبيّة تماماً التي يلاقيها من يثقله سوء الهضم في المكوث دون حركة.

ولو كنت أقلّ تصميماً على مباشرة العمل على نحو لا رجعة فيه لبلذت ربّما جهداً لأبدأ في الحال. ولكنّه كان من الخير لي، بما أن قراري نهائيّ وأن استعداداتي الطيبة سوف تتحقّق بسهولة قبل انقضاء أربع وعشرين ساعة في إطار نهار الغد الخالي حيث يجد كلّ شيء مكانه على أحسن وجه بما أنّي لم أبلغه بعد، كان من الخير ألاّ أختار مساء كنت فيه غير مهياّ لبدء ما كانت الأيام التالية لتبدو، للأسف، مواتية لها أكثر منه. بيد أنّني كنت منطقيّاً. فمن انتظر سنوات يبدو صبياناً ألاّ يحتمل تأخير ثلاثة أيّام. ولما أيقنت أنّني سأفرغ ما بعد الغد لا محالة من تسطير بضع صفحات

فإني لم أعد أقول لذويّ كلمة واحدة عمّا عزم من عليه. كنت أفضل الانتظار بضع ساعات أحمل بعدها إلى جدّتي عملاً في طور الإنجاز تصيب منه عزاءً وقناعة. ولكن للأسف لم يكن ذلك النهار الخارجيّ الفسيح الذي انتظرتّه على أحرّ من الجمر. ذلك لأنّ كسلي ونضالي الشاق ضدّ بعض العقبات الداخلية إنّما استمرّ فحسب أربعاً وعشرين ساعة أخرى بانقضاء ذلك النهار. وبما أنّ خططي لم تتحقق بعد مضيّ بضعة أيّام فلم يعد لديّ الأمل نفسه أنّها ستتحقق في الحال ولا مقدار الشجاعة نفسه بالتالي كيما أخضع كل شيء لذلك التحقّق. وعدت إلى السهر ثانية إذ لم يظّل لي لإرغامي على النوم المبكّر ذات مساء الرؤية الأكيدة أنّي سأبصر عملي الفنيّ وقد بوشر به في صباح الغد. كان لابدّ لي قبل استعادة اندفاعي من بضعة أيّام راحة، والمرّة الوحيدة التي تجرّأت جدّتي فيها وأعربت عن عتابها لي بلهجة وادعة تملؤها الخيبة قائلة: "وذلك العمل، ألا تعود حتى إلى الحديث عنه؟" أوغرت صدرتي عليها لاقتناعي بأنّها إذ لم تتبيّن أنّي مصمّم تصميماً لا رجعة فيه فقد أقدمت على تأجيله مرّة أخرى وربما لفترة طويلة من جرّاء التوتر الذي يسبّبه لي امتناعها عن إنصافي والذي لا أودّ معه مباشرة عملي وأنا تحت وطأته. وأحسّت أنّ تشكّكها إنّما يصدم عزماً صادقاً لديّ، فاعتذرت وقالت وهي تعانقني: "عفوك، فلن أقول شيئاً بعد الآن". وأكّدت لي كي لا يحلّ بي القنوط أنّ العمل سيتمّ من تلقاء ذاته منذ اليوم الذي تتحسنّ فيه صحّتي.

وكنّت أقول في نفسي: ألسنت أفعل على أيّ حال ما يفعل "بيرغوت" إذ أعيش لدى أسرة "سوان"؟ فيما يبدو لذويّ أنّني أقضي على وجه التقريب، مع ما أبدي من كسل، الحياة التي تناسب الموهبة إلى أبعد حدّ، بما أنّي أنفقتها في المنتدى نفسه الذي ينفقها فيه كاتب كبير. ومع ذلك فإنّ يستطيع أحد أن يكون في غنى عن إنشاء هذه الموهبة بنفسه من الداخل وأن يتقبّلها من الغير في مثل استحالة توفير العافية لنفسه (على الرغم من خروجه على جميع قواعد الصبغة وارتكابه أسوأ صنوف الإسراف) بمحض الإكثار من تناول طعام العشاء في مطاعم المدينة بصحبة طبيب. فأما الشخص الذي كان على أنّمّ وجه ضحيّة الوهم الذي كان يخدعني ويخدع والذي سواء بسواء فالسيدّة "سوان". فقد كان يبدو، حينما أقول لها إنّني لا أستطيع المجيء أن أمكث لأعمل، أنّها ترى أنّي أعقد الأمور كثيراً وأنّ في أقوالي شيئاً من الغباء والادّعاء.

- "أنا" بيرغوت" فإنّه يأتي، هو. فهل ترى أنّ ما يكتبه غير صالح،" وتضيف قولها: "بل سوف يتحسنّ ذلك عمّا قليل، فهو أشدّ مضاءً وأكثر تركيزاً في الجريدة منه في الكتاب حيث ينتهج بعض التطويل. لقد حصلت على وعد بأن يكتب من الآن فصاعداً المقالة الرئيسيّة (Le leader article) في جريدة "الفيغارو". وسيكون ذلك بالضبط "الرجل المناسب في المكان المناسب" (the right man in the right place).

ثمّ تضيف قائلة:

- "تعال، فسوف يقول لك، خير من يقول، ما ينبغي أن تفعل". ومثلما تتمّ دعوة جنديّ متطوّل مع قائده العميد، كانت تقول أنّ لا يفوتني المجيء في الغد لتناول طعام العشاء في منزلها بصحبة

"يرغوت"، كانت تقول ذلك لصالح مستقبلي وكما لو يتمّ وضع الروائع الأدبية "عن طريق العلاقات".

وهكذا لم تظَلْ هنالك معارضة لتلك الحياة الحلوة، لا من جانب أسرة "سوان" ولا من جانب والديّ، أي من جانب أولئك الذين بدأ، في فترات مختلفة، أنهم لابدّ سيضعون العراقيل في دربها، تلك الحياة التي أستطيع فيها زيارة "جيلبيرت" كيفما شئت، تهزّني النشوة إن لم يلفني الهدوء. فليس من هدوء في الحبّ بما أن ما نحصل عليه لا يعدو كونه نقطة انطلاق جديدة للرغبة في الاسترادة. وما كنت حتى أستطيع، طالما لم أفلح في الذهاب إلى بيتها، والعين ترنو إلى تلك السعادة العزيزة المنال، تخيّل أسباب القلق الجديدة التي تنتظرني هناك. فما إن زالت مقاومة ذويها وحلّت المشكلة حتى عادت تطرح نفسها من جديد، بعبارات جديدة في كلّ مرّة. وإنّما كانت تبدأ في كلّ يوم، بهذا المعني، صداقة جديدة. فقد كنت أتبيّن كلّ مساء، لدى عودتي، أنه يقع عليّ أن أقول لـ "جيلبيرت" أموراً رئيسيّة يتوقّف عليها مصير صداقتنا، وما كانت تلك الأمور واحدة في يوم. بيد أنني كنت سعيداً ولم يعد ثمة خطر يهدّد سعادتي. ولكنّه يزعج أن يجيء والأسفي، من جانب لم أبصر فيه ألبّة أي خطر، من جانب "جيلبيرت" ومن جانبي على السواء. كان لابدّ أن يقلقني ما كان على العكس يطمئنني، ما كنت أظنه سعادة إنّها في الحبّ حالة غير طبيعيّة يمكن أن تضفي في الحال على الحادثة البسيطة جدّاً في ظاهرها، والتي يمكن دوماً أن تقع، خطورة لا تتضمّن تلك الحادثة بحدّ ذاتها. وإن ما يولي المرء سعادة إلى هذا الحدّ وجود شيء غير مستقرّ في القلب يتدبّر أمره على الدوام للحفاظ عليه ولا ينتبه له من بعد ما دام يلزم مكانه. والحقيقة أنّ في الحبّ عذاباً مستمراً يبطّله الفرح ويجعله ممكناً ويوجّله ولكنّه يمكن أن يصبح في كل لحظة مبرحاً، وهو ما لعلّه كان منذ زمن طويل لو لم يفز المرء بما كان يتمنّى.

لقد أحسست مراراً عديدة أنّ "جيلبيرت" ترغب في المباحة بين زيارتي. صحيح أنه حينما يلحّ عليّ الشوق إلى رؤيتها ما كان عليّ سوى دفع والديها إلى دعوتي وقد أصبحت أكثر فأكثر وثوقاً بتأثيري الخبير عليها. كنت أحسب أن حبيّ بفضلهما لا يتعرض لأيّ مخاطرة، فما دمت أضعهما إلى جانبي فإنّما يسعني الاطمئنان بما أنّ لهما كامل السلطة على "جيلبيرت". بيد أنني كنت أتساءل، للأسف، إزاء بعض علامات نفاد الصبر التي تصدر عن هذه الأخيرة حينما يستقدمني والدها كأنّما غصباً عنها، أتساءل إن لم يكن ما احتسبته بمثابة درع لسعادتي العلة الخفية التي لا يمكنها على العكس أن تدوم من جرّائها.

وفي آخر مرّة جثت فيها لزيارة "جيلبيرت" كان المطر يهطل، وكانت مدعوة إلى درس في الرقص لدى أناس معرفتها بهم أقلّ من أن تسمح لها باصطحابي معها. وكنت قد تناولت كمية من القهوة تزيد عن المعتاد بسبب الرطوبة. وقد بادرت السيّدّة "سوان"، لحظة كانت ابتهاجاً تزعج الخروج، ربّما بسبب رداءة الطقس، وربّما لظنون تراودها بحق المنزل الذي ستجري فيه هذه الأمسية، إلى تنبيهها بحدّة بالغة صائحة بها: "جيلبيرت!" وهي تشير إليّ لتدلّل على أنني جثت

لزيارتها ويجدر بها أن تمتكث معي. وكلمة "جيلبيرت" هذه تمّ النطق بها، بل الصراخ، بحسن نية تجاهي، ولكنني أدركت برفعة منكبي "جيلبيرت" وهي تطرح أغراضها جانباً أن والدتها عملت من غير ما قصد على تسريع التطور الذي كان يبعد صديقتي شيئاً فشيئاً عني، وربما كان لا يزال يمكن حتى ذاك إيقافه. "ليس لزاماً علينا أن نبادر إلى الرقص كلّ يوم"، تقول "أوديت" لابتنتها بلهجة حكيمة لاشكّ تعلّمتها فيما مضى من "سوان". ثم عادت فأصبحت "أوديت" من جديد وشرعت تتكلّم الإنكليزية مع ابنتها. فإذا في الحال كأنما جدار يحجب عني قسماً من حياة "جيلبيرت"، وكأنما جنيّ شرير يحمل صديقتي بعيداً عني. ذلك أنّنا في لغة نعرفها استبدلنا بلا شفافية الأصوات شفافية الأفكار. ولكنّ اللغة التي نعرفها قصر مغلق يمكن لمن نحبّها أن نتحدثنا فيه دون أن نفلح، وقد ظللنا في الخارج منقبضي الصدر إلى حدّ اليأس داخل عجزنا، في رؤية شيء أو الحؤول دون أي شيء. كذلك كان هذا الحديث بالإنكليزية الذي ربما ابتسمت ساخراً منه قبل شهر والذي كانت بعض أسماء الأعلام الفرنسية عبره لا تكفّ عن مضاعفة مخاوفي وتوجيهها، كان يرتدي القسوة نفسها ويخلّفني مهملاً وحيداً كما قد يفعل اختطاف. وأخيراً تركتنا السيّدة "سوان" وقد بدا وجه "جيلبيرت" في ذلك اليوم، ربما من جرّاء حقدها عليّ أنا المسبّب المرغم لمنعها من أن تبادر إلى اللهو، وربما كذلك لأنني استشففت أنّها غاضبة فكنت أشدّ بروداً من المعتاد بداعي الاحتراز، بدا وجهها، وقد سلّب البهجة، عارياً مخرباً وكأنّما يخصّ، طوال بعد الظهر، بالأسف والكآبة الرقصة التي يحول وجودي دون أن تبادر إلى أدائها، وكأنّما يتحدّى جميع المخلوقات، بدءاً بي أنا، أن تدرك الأسباب الخفيّة التي أوجدت لديها ميلاً عاطفياً إلى رقصة "البوسطن". وقد اقتصرت على أن تبادلني بين الحين والحين، حول الطقس آنذاك واشتداد المطر وتسييق ساعة الحائط، حديثاً تقطعه لحظات صامتة ولفظات مفردة وأصرّ فيه بعناد وبندوع من الحق اليائس على تهديم اللحظات التي كان يمكن أن نهبط للصداقة والسعادة. كانت جميع أقوالنا تكتسب نوعاً من القسوة البالغة من جرّاء شدّة تفاهتها المفارقة، تلك الشدّة التي كانت عزاء لي مع ذلك لأنها تحول دون أن تُخدع "جيلبيرت" بتفاهة أفكارها ولا مبالاة لهجتي فعبثاً كنت أقول: "يبدو لي أنّ ساعة الحائط كانت متأخرة بالأحري في ذلك اليوم"، فالحيلة كانت تعني بالبداهة "كم أنت قاسية!" وعبثاً أبدي عناداً في المضيّ قدماً في تلك الأقوال التي لا انفراج فيها. على مدى هذا النهار الماطر. فقد كنت أعلم أن برودي ليس أمراً في مثل ما أنظّاهر به من جمود وأنّه لابدّ أن تحسّ "جيلبيرت" أنني لو جازفت مرّة رابعة في أن أردّد على مسامعها أن النهار آخذ في التناقص بعدما سبق أن قتلته لها ثلاث مرّات لصادفت مشقة في التمالك عن البكاء. وحينما كانت على ذلك النحو، حينما لا تملأ البسمة عينيها وتشرق على صفحة وجهها فليست تستطيع أن تقول آية رتابة مفاجئة كانت تطبع عينيها الحزبنتين وقسماتها المتجمّعة. كان وجهها الذي أضحي قبيحاً تقريباً يشبه حينذاك تلك الشواطئ المملّة التي يرهقك فيها البحر الذي تراجع إلى بعيد بعيد بضياء متشابه أبداً يلفّه أفق ثابت ضيق الحدود. ولما لم أر في آخر الأمر التبدّل الخيّر الذي كنت أنتظره منذ عدّة ساعات يتمّ على يد "جيلبيرت" قلت لها إنّها ليست لطيفة. فأجابت تقول: "بل أنت من ليس لطيفاً. بلى". وساءلت نفسي عمّا فعلت ولما لم أوفق إليه سألتها هي، فقالت في ضحكة طويلة: "إنك بالطبع ترى نفسك لطيفاً" حينئذ أحسست

ما كان من ألم بالنسبة إليّ في استحالة بلوغي ذاك المستوى الآخر اللامدرك من فكرها والذي كانت ترسمه ضحكته. لكنني بتلك الضحكة تعني قولها: "لا، لا لن تخدعني بكلّ ما تقوله لي، فلاني أعلم أنّك محنون بي، ولكنّ ذلك غير ذي بال بالنسبة إليّ لأنني لا أعيرك أيّ اهتمام." بيد أنني كنت أقول في نفسي: إن الضحك ليس في نهاية المطاف لغة واضحة التحديد حتى يمكنني التأكد من فهم تلك الضحكة، كما كانت أقوال "جيلبيرت" ودّية فسألته قائلاً: "ولكن ما الذي لا أبدو فيه لطيفاً؟ أفصحني عن فكرك فسوف أفعل كلّ ما تبغين." - "لا، إنه لا جدوى من الأمر، ولست أستطيع أن أشرح لك ذلك." وخشيت لحظة أن تكون ظنّت أنني لا أحبها فكان الأمر بالنسبة إليّ عذاباً آخر لا يقلّ حدّة ولكنه يقتضي جدليّة مختلفة. "لو كنت تعلمين الغمّ الذي تبغيه في نفسي لقلّتي لي." ولكنّ ذلك الغمّ الذي كان ينبغي أن تغتبط به لو أنّها ارتابت بأمر حبّي، إنّما أثار بالعكس حنقها. حينئذ تجمعت لديّ الجراءة، وقد أدركت خطئي وعزمت ألاّ آخذ أقوالها من بعد في اعتباري وتركها تقول لي، دون أن أصدّقها: "كنت أحبك حقاً وسنرى ذلك ذات يوم" (ذلك اليوم الذي يؤكّد المتهمون أنّه سيتمّ فيه الاعتراف ببراءتهم والذي ما كان قطّ، لأسباب خفية، ذاك الذي يجري فيه استجوابهم)، جرأة العزم على ألاّ أراها من بعد، ودون أن أفصح لها عن ذلك لأنّها ما كانت لتصدقني.

إنّ غمّاً يسببه شخص تحبه يمكن أن يكون مؤلماً حتى حينما يندرج ضمن اهتمامات ومشاكل وأفراح لا تدور حول هذا الشخص ولا ينصرف انتباهنا عنها إلّا بين آونة وأخرى ليرتدّ إليه. فأما حينما ينبثق مثل هذا الغمّ - كما هي الحال بالنسبة إليّ هذا الأخير - لحظة تغمر نفوسنا السعادة الناجمة عن رؤية ذلك الشخص، فإنّ الانهيار المفاجئ الذي يقع حينذاك في نفسنا التي نعمت حتى ذاك بالدفع والعون والهدوء إنّما يبعث فينا عاصفة هوجاء لا ندري إن كنا نستطيع مقاومتها حتى النهاية. كانت العاصفة التي تهبّ على قلبي عنيفة إلى حدّ أنّني عدت باتجاه المنزل مهزوزاً دامي الفؤاد أحسّ أنّي لن أقوى على التنفّس من بعد إلّا إذا عدت أدراجي، إلّا إذا رجعت بالقرب من "جيلبيرت" لحجّة، أيّ حجّة. ولكن ربّما قالت في نفسها: "يعود أيضاً! إنّني أستطيع بالتأكيد أن أصرّح لنفسي بكلّ شيء، فسوف يرجع في كلّ مرة أشدّ خضوعاً كلّما فارقتني أوفر تعاسة." ثمّ ارتدّت إليها بالفكر على نحو لا يقاوم وتستمر هذه الاتجاهات المتناوبة، هذا الذعر في بوصلتي الداخلية بعدما أعود، تترجمها مسودّات الرسائل المتناقضة التي أسطرها لـ "جيلبيرت".

كنت مقبلاً على إحدى تلك الحالات الصعبة التي يتفقّ لنا بعامة أن نواجهها عدّة مرّات في الحياة والتي لا نواجهها بالطريقة نفسها في كلّ مرة، أي في كلّ سنّ، مع أنّنا لم نبدل من طباعنا ومن طبيعتنا - طبيعتنا التي تبدع بنفسها مواطن حبّنا، وحتى النساء اللواتي نحبّهن وحتى ذنوبهنّ - في مثل تلك اللحظات تنقسم حياتنا، وكأنّما تتوزع في ميزان، بين كفتين متقابلتين تحتويانها كلّها. ففي كفة رغبتنا ألاّ نسوء في عيني من نحبّ، ألاّ نبذل بالغي الوضاعة تجاه من نحبّ دون أن نفلح في إدراكه، ولكننا نرى من الحداقة أن نهمله بعض الشيء كي لا يداخله الشعور بأنّه لا غنى عنه، ذلك الشعور الذي قد يصرفه عنّا. وفي الثانية عذاب - لا عذاب مميز وجزيي - لا يمكن أن يهدأ

إلا إذا تخليّنا عن أن نحسن في عيني تلك المرأة وأن نحملها على الاعتقاد أنه بوسعنا أن نكون في غنى عنها فبادرنا إلى لقائها من جديد. فإمّا نزعنا من الكفة التي تحتوي الاعتزاز بالنفس كمية من الإرادة طفيفة ضَعُفْنَا فتركناها تبلى كلما تقدّمت بنا السنّ وأضفنا إلى الكفة التي تحتوي الغمّ ألماً جسدياً مكتسباً أذاً لنا له بالتفاهة رأينا، بدلاً من القرار الشجاع الذي كان مدعوا للفوز في سنّ العشرين، القرار الآخر الذي يذلّنا في سنّ الخمسين وقد أضحي ثقيلاً جداً دون أن توازيه أثقال أخرى. أضف إلى ذلك أنّ الأوضاع تتبدل فيما هي تتكرر وأنه ربما اتّفق لنا في متوسط العمر أو في آخر أيامنا أن نلاقي لذة مشوومة في تعقيد الحبّ بشيء من التعود الذي لا تعرفه سنّ اليقاعة التي تشغلها واجبات أخرى كثيرة وهي أقلّ حرّية في التصرف ببلداتها.

وكنّت سطرّت منذ قليل رسالة لـ "جيلبيرت" أطلقت فيها العنان لحنقي، على أنّي لم أفعل دون أن ألقى ببضع كلمات نثرتها كأنما على غير هدى بمثابة عوامة إنقاذ يمكن لصديقتي أن تعلق بها مصالحة. فإذا هي بعد لحظة، وقد تبدّل اتجاه الرياح، جُمِلَ رقيقة أرسلها إليها لعدوبة بعض عبارات حزينة، وعبارات من مثل "لن أعود بعد اليوم" مؤثرة جداً بالنسبة إلى الذين يستعملونها ومملة جداً بالنسبة إلى التي ستقرؤها إمّا لأنها تحسبها كاذبة وتترجم "لن أعود بعد اليوم" "بعبارة" "في هذا المساء إن كنت راغبة بي" وإمّا لأنها تحسبها صحيحة وتنبئها إذ ذاك بإحدى حالات الهجران النهائية التي لا تهمنّا على الإطلاق في الحياة حينما يدور الأمر حول أناس لا نعشقهم. وبما أننا عاجزون في أثناء ما نحبّ، أن نتصرّف تصرف السلف الجدير بإنسان المستقبل الذي سنكونه والذي لن يحبّ من بعد، فكيف يسعنا أن نتخيّل تماماً ذهنية امرأة جعلناها، على علمنا أننا قليلو الأهمية في نظرها، تقول على الدوام في أحلامنا الأقوال نفسها التي تقولها لو أنها تحبّنا كيما نهدهد أنفسنا بأحلام جميلة أو نحمل العزاء إلى ذواتنا من غمّ جسيم؟ وإننا إزاء أفكار امرأة نحبّها وإزاء أعمالها في مثل الحيرة التي كان يمكن أن تصيب الفيزيائيين الأولين أمام ظاهرات الطبيعة (قبل أن يُنشأ العلم ويلقي ببعض النور في المجهول)، أو في مثل ما هو وأساء، في حالة شخص يكاد مبدأ السببية لا يوجد بالنسبة إلى عقله، شخص لا يستطيع أن يربط بين ظاهرة وأخرى ويبدو مشهد العالم في عينيهِ غير مؤكد كما الحلم كنت أجهّد بالتأكيد في الخروج من تلك الفوضى، في العثور على أسباب. كنت أحاول حتى أنّ أكون "موضوعياً" وأن آخذ لذلك في اعتياري اللاتناسب الكائن بين الأهمية التي لـ "جيلبيرت" في نظري وتلك التي لي في نظرها، بل تلك التي لها في نظر الآخرين غيري، ذلك اللاتناسب الذي لو اتّفق لي أن أنساه لكان من المحتمل أن أحتسب بمثابة بوح ملتهب مجرد معالجة تقوم بها صديقتي والمسمى المضحك والمنحط الذي أقوم به بمثابة الحركة البسيطة الناعمة التي تقودك إلى عينيّن حلوتين. على أنّي كنت أخشى كذلك أن أقع في التطرّف المعاكس الذي ربما وجدت من جرائه في وصول "جيلبيرت" غير الدقيق إلى أحد المواعيد وفي ردّة فعل مزاجيّة عداء مستحكما. كنت أحاول العثور بين تينك النظرتين المشوّهتين بالمقدار نفسه تلك التي تزوّدني برؤية صحيحة للأشياء. وكانت الحسابات التي ينبغي لي القيام بها في سبيل ذلك تلهيني قليلاً عن عذابي. وفي الغد قرّرت، إمّا بداعي الانصياع للغة الأرقام وإمّا لأنني جعلتها تنطق بما كنت في شوق إليه، قرّرت الذهاب إلى منزل عائلة "سوان" تهزّني السعادة ولكن على نحو ما يفعل أولئك

الذين قلقوا فترة طويلة من جرّاء رحلة لا يبلغون القيام بها فلا يذهبون إلى أبعد من المحطة ويعودون إلى منزلهم يفكّون متاعهم. ولما كانت محض فكرة قرار ممكن إنما تنشئ، في أثناء ما يتردّد المرء، (إلا إذا جعلنا تلك الفكرة جامدة بالتصميم على رفض اتخاذ القرار)، شأن بذرة حيّة لخطوطها الأولية، كامل تفاصيل الانفعالات التي قد تنجم عن الفعل المنفّذ، فقد قلت في نفسي إنني كنت شديد البعد عن المنطق في أن تسيّبت لنفسي، إذ نويت ألا أرى "جيلبيرت" من بعد، بمقدار من الألم مساوٍ لما يصيبني لو كان عليّ أن أحقق ذلك المشروع وأنّه كان يسعني بما أني سأعود على العكس إلى بيتها في نهاية المطاف، أن أوفّر على نفسي الكثير من صنوف وهن الإرادة والرضوخ المولمة. ولكنّ إعادة علاقات الصداقة تلك لم تدم أكثر من الزمن اللازم للذهاب حتى منزل عائلة "سوان"، لا لأنّ رئيس خدمهم الذي كان يحبني كثيراً قال لي إن "جيلبيرت" خرجت (فقد علمت منذ المساء نفسه على لسان جماعة صادفوها أن الأمر صحيح) بل بسبب الطريقة التي قال لي بها: "لقد خرجت الآنسة يا سيّدي، وبوسعي أن أوكد لسيّدي أنني لا أكذب. وإن شاء سيّدي أن يستعلم فإني أستطيع استقدام الرصيفة. إن سيّدي يعتقد تمام الاعتقاد أنني أفعل كلّ ما بوسعي لإدخال السرور على قلبه وإنني أقود في الحال سيّدي بالقرب من الآنسة لو كانت حاضرة. "كانت تلك الأقوال، وهي من الصنف الذي يتسم وحده بالأهمية، تلك الأقوال غير المقصودة التي تزودنا بصورة شعاعيّة مختصرة على الأقلّ للواقع غير المنتظر الذي قد يخفيه خطاب مدرّس، كانت البرهان على أن هنالك في محيط "جيلبيرت" انطباعاً بأنني كنت مزعجاً في نظرها. ولذلك ولدت لديّ ما إن نطق بها رئيس الخدم، ضغينة فضّلت أن يكون موضعها رئيس الخدم بدلاً من "جيلبيرت"؛ فقد ركّز من حوله جميع مشاعر الغضب التي سبق أن انتابتنني ضدّ صديقتي. وظلّ حبّي، بعد ما تخلّص من تلك المشاعر بفضل تلك الأقوال، ظلّ وحيداً على أنها برهنت لي في الوقت نفسه أنّه يجدر بي على مدى بعض الوقت ألاّ أحاول زيارة "جيلبيرت". كان لابدّ أن تكتب إليّ لتعتذر. ولكنني على الرغم من ذلك لن أعود في الحال إلى زيارتها كيما أبرهن لها أنني أستطيع العيش بدونها. على أن التردّد على "جيلبيرت" بعدما تصلني رسالتها سوف يضحي أمراً أستطيع الامتناع عنه على نحو أيسر بعض الوقت لأنني سوف أكون متيقناً من أنني سأعود فألقاها حالما أشاء أمّا ما كان ينبغي لي لأحتمل الغياب الطوعيّ على نحو يقلل من حزني فإن أحسّ فؤادي طليقاً من الارتباب الرهيب بأننا قد تخالفنا إلى الأبد وبأنها خطبت، بل ذهبت، بل اختطفت، وجاءت الأيام التالية شبيهة بأيام أسبوع رأس السنة السالف الذي اضطررت أن أقضيه بدون "جيلبيرت". على أن ذلك الأسبوع ما إن ينقضي آنذاك، حتى تعود صديقتي إلى "الشانزليزيه" وأعود فأراها كالسابق دونما شك من جهة، كما كنت أعلم من جهة أخرى بما لا يقل عن ذلك اليقين أنه لا داعي للذهاب إلى "الشانزليزيه" ما دامت عطلة رأس السنة قادمة. وهكذا تم لي، طوال ذلك الأسبوع الحزين البعيد، أن أتحمّل حزني بهدوء لأنه لم تكن تخالطه خشية ولا أمل، أما الآن فقد كان هذا الشعور الأخير على العكس هو الذي يجعل عذابني لا يطاق بقدر ما تفعل الخشية تقريباً.

ولما لم تصلني رسالة من "جيلبيرت" في المساء نفسه فقد عزوت الأمر إلى إهمالها ومشاغلتها ولم أشك أنني واجد رسالة منها في بريد الصباح. وانتظرت كل يوم والقلب خافق خفقاناً تليه حالة

من الانحطاط حين لا أجد فيه سوى رسائل لأشخاص غير "جيلبيرت" أو لا أجد شيئاً، وليس الأمر أسوأ حالا لأن ما تبرهن به أخرى عن حبها يجعل ما تبرهن به هي عن لامبالاتها أشد قسوة. وأعود أصب الآمال على بريد بعد الظهر. فما كنت أجرؤ على مغادرة البيت حتى بين ساعات جمع الرسائل إذ ربما استطاعت إيصال رسالتها باليد. ثم تحل في النهاية اللحظة التي لا يستطيع فيها ساع أو خادم لأسرة "سوان" أن يأتي من بعد، ولا بد من تأجيل أمل الاطمئنان إلى صبيحة الغد وأراني مضطراً على هذا النحو، لأنني كنت أظن أن عذابي لن يدوم، أن أجدده دون توقف إن جاز القول. لقد كان الغم ربما واحداً، ولكنه بدلا من أن يعمل شأنه فيما مضى، على تمديد انفعال أولي من نمط متماثل فحسب، كان يعيد الكرة عدة مرات في اليوم بادئاً بانفعال يتكرر بكثرة تفضي به في النهاية - وهو حالة جسدية كلية ومؤقتة - إلى الاستقرار إلى حد أنه لم يظل ثمة دقيقة واحدة في النهار لم أكن فيها سجين ذلك القلق الذي يصعب مع ذلك احتماله ساعة واحدة، إذ لا يتسع للاضطرابات التي يسببها الانتظار أن تهدأ حتى يحل سبب انتظار جديد. وهكذا كان عذابي أقسى بما لا يقاس مما كان عليه في زمن الأول من كانون الثاني البعيد إذ كان يغمرني هذه المرة عوضاً عن المقبول البحث بذلك العذاب الأمل في أن أراه في كل لحظة يتوقف.

بيد أن الأمر انتهى بي إلى بلوغ هذا القبول، وأدركت إذ ذاك أنه يجدر أن يكون قطعياً وتحلياً نهائياً عن "جيلبيرت" وذلك لصالح حبي بالذات ولأنني كنت أتمنى فوق كل شيء أن لا تحتفظ مني بذكرى يبطئها الاحتقار. حتى أنني كنت منذ ذلك الوقت، وبغية أن لا يسعها افتراض نوع من حنق المحبين لدي، كنت كلما حددت لي مواعيد فيما بعد أقبل بها في الغالب ثم أكتب لها في اللحظة الأخيرة أنني لا أستطيع المعجى ولكني أؤكد أنني شديد الأسف لذلك كما لعلي كنت أفعل مع من لا أرغب في رؤيته، ولنسوف تقنع عبارات الأسف هذه التي تخص بها عادة أولئك الذين لا نهتم بأمرهم، لسوف تقنع "جيلبيرت" فيما يبدو لي، بلا مبالاتي أكثر ما تفعل اللهجة اللامبالية التي تتكلمها مع تلك التي نحها فحسب. وحينما يتم لي أن أبرهن لها بأعمال تتكرر إلى مالا نهاية أكثر مني بالأقوال أنني لا تداخلني رغبة في رؤيتها فربما عادت فوجدت رغبة بشأنني. ولكن ذلك عبث. وأأسفي! فالسعي عبر الامتناع عن رؤيتها إلى أن أوقف فيها تلك الرغبة في رؤيتي إنما يعني فقدتها إلى الأبد، لأنها حينما تعود إلى الانبثاق من جديد فإنما ينبغي لي بادئ الأمر، إن شئت لها أن تدوم، ألا أستسلم لها في الحال، وسوف تكون أكثر الساعات قسوة قد انقضت على أية حال، وإنما لا غنى لي عنها في هذه اللحظة ووددت لو أستطيع إخطارها بأنها لن تهدئ عما قليل إذ تعود فتراني، سوى ألم تناقص إلى الحد الذي لن يظل معه، كما لعله لا يزال في هذه اللحظة نفسها وفي سبيل وضع حد له، سبباً للاستسلام والمصالحة والالتقاء من جديد، وحينما يمكنني فيما بعد أن أقر أخيراً لـ "جيلبيرت" دونما خطر أتعرض له لشدة ما استعاد شغفها بي من قوة، بشغفي بها، فلن يكون قد توافر لهذا الأخير، ما يمكنه من مقاومة غياب طويل إلى هذا الحد ويكون زال، فيما أصبحت "جيلبيرت" غير ذات بال في نظري، كنت أعلم ذلك، ولكنني لا أستطيع أن أقوله لها، فربما حسبت أنني إن زعمت أنني سوف أتوقف عن حبها إن مكثت مدة طويلة لا ألقاها فإنما لمجرد أن تقول لي بأن أعود سريعاً إليها. أما ما كان يسر لي في تلك الأثناء فرض ذلك الهجران على نفسي فإنني

كنت أبادر (كيما تتبين تماماً على الرغم من توكيدات المخالفة، أن ما يحرمني لقاءها إنما هي إرادتي لا أي حائل آخر ولا حالتي الصحية)، كنت أبادر، في كل مرة أعرف فيها سلفاً أن "جيلبيرت" لن تكون لدى والديها وتزعم الخروج مع صديقة لها ولن تعود للعشاء، إلى لقاء السيدة "سوان" (التي عادت فأصبحت بالنسبة إلى ما كانت يوم كنت أرى ابنتها بكثير من الصعوبة ويوم كنت أذهب للتنزه في شارع شجيرات الأكاسيا في الأيام التي لا تحيى فيها هذه الأخيرة إلى "الشانزليزيه". كنت سأسمع هكذا من يحدثني عن "جيلبيرت" كما كنت أكيداً أنها ستسمع بعد ذلك من يحدثها عني وعلى نحو يبرز لها أنني ما كنت متعلقاً بها. وكنت أرى، شأن جميع الذين يتعذبون، أن وضعي المحزون كان يمكن أن يكون أسوأ حالا. ذلك أنني كنت أقول لنفسي إنني أستطيع، إذ أملك حرية الدخول إلى المنزل الذي تقطنه "جيلبيرت" مع أنني مصمم ألا أستخدم ذلك الحق، إن أصبح عذابي بالغ الشدة، أن أعمل على إيقافه. فلم أكن نعيساً إلا يوماً فيوماً، ولعل ذلك مبالغ فيه. فكم مرة في بحر ساعة (ولكني الآن بعيد عن الانتظار المقلق الذي ضيق عليّ الخناق في الأسابيع الأولى التي تلت خلافنا وقبلما أعود إلى منزل أسرة "سوان") تلوت فيها لنفسي الرسالة التي سوف تبعث بها "جيلبيرت" ذات يوم، وربما حملتها بنفسها! كان التخييل المستمر لتلك السعادة العيالية يعينني على احتمال تهديم السعادة الحقيقية. فأن نعلم أنه لم يبق لنا ما نأمل بالنسبة إلى النساء اللواتي لا يحببنا وأولئك الذين "فقدوا" على السواء لا يحول دون أن نوالي الانتظار. ويعيش المرء مترصداً منتصباً، فتتخيل أمهات ذهب ابتهن في استكشاف تحفهُ المخاطر في عرض البحر أنه يزعم الدخول في كل دقيقة وقد نجا بأعجوبة ويتمتع بصحة جيدة فيما توافر لهن منذ زمن بعيد أنه هلك بالتأكيد. فما أن يمكنهن ذلك الانتظار، حسب شدة الذكرى ومقاومة الأعضاء، من اجتياز السنين شيئاً فشيئاً ثم العيش من بعده، وإما أن يحلب منيتهن. ثم إن غمي يجد العزاء من جهة أخرى في أنه يفيد حبي فلقد كانت كل زيارة أقوم بها للسيدة "سوان" دون لقاء "جيلبيرت" قاسية عليّ ولكني أحس أنها تحسن بالمقدار نفسه الفكرة التي تحملها "جيلبيرت" عني.

ولكن كنت على أية حال أتدبر أمري على الدوام قبلما أذهب إلى منزل السيدة "سوان" لأتأكد من غياب ابنتها فربما كان مرد ذلك على السواء تصميمي أن أكون على خلاف معها وأمل المصالحة الذي كان ينضاف إلى عزمي في التخلي عنها (وقليل ما كان منها مطلقاً، أقله على نحو مستمر، في هذه النفس البشرية التي من بين قوانينها التقطع الذي تعززه دقائق غير متوقعة من مختلف الذكريات) ويحجب عني ما كان شديد القسوة فيه، كنت أعلم ما في ذلك الأمل من أمر خيالي، وكنت مثل فقير يمزج خبزه الحاف بدموع أقلّ إن أسرّ لذاته أن غريباً ربما ترك له بعد قليل كامل ثروته. وكلنا مضطر كي يجعل الواقع محتملاً أن يغذي في صدره بعض الحماقات الصغيرة، كان أمني يظهر على حاله - فيما يتم الانفصال على نحو أفضل في الوقت نفسه - إن لم ألتق بـ "جيلبيرت". ولو وجدتني معها وجهاً إلى وجه لدى والدتها فربما تبادلنا أقوالاً لا تغتفر يصبح خلافنا من جرائها نهائياً ويقتل آمالي، ويوقظ من جهة ثانية حبي إذ يحيني بقلق جديد ويجعل تسليمي بالأمر أوفر مشقة.

لقد سبق أن قالت لي لسيّدة "سوان" من زمن بعيد وقبل خلافي مع ابنتها بكثير: "جميل جدًا أن تأتي للقاء "جيلبيرت"، ولكنني وددت كذلك لو تحيي أحيانًا من أجلي، لا إلى "شوفلوري" فربما صادفت ملأً لكثرة ما يتجمّع لديّ من الناس، بل في الأيام الأخرى التي تجدني فيها على الدوام في وقت متأخّر بعض الشيء." كان يبدو إذن يوم أوافيهما أنني إنما أنصاع بعد فترة طويلة لرغبة عبّرت عنها سابقاً. فكنّت أمضي في وقت متأخّر جدّاً، في الليل وساعة يجلس أهلي إلى مائدة الطعام تقريباً، أمضي لزيارة السيّدة "سوان" زيارة أعلم أنني لن أرى "جيلبيرت" في أثائها ولكنني لن أفكر مع ذلك إلا فيها. وفي ذلك الحيّ الذي كانوا يعدّونه آنذاك بعيداً جدّاً، وفي باريس أكثر عتمة من يومنا هذا وليس فيها حتّى في المركز كهرباء في الشارع العام والقليل جدّاً في المنازل، كانت تكفي مصابيح صالة واقعة في الطابق الأرضي أو في طابق وسيط داني السقوف (شأن ما كانت عليه الشقة التي تستقبل فيها السيّدة "سوان" ضيوفها بالعادة) لإنارة الشارع ولتحمل عابر السبيل على رفع عينيه ليردّ إلى ضيائها وجود بعض العربات المكشوفة المجهّزة على أحسن ما يرام وكأنما إلى علّتها الظاهرة والمخفاة. ويعتقد عابر السبيل، وبه بعض اضطراب، أن تبدلاً حلّ في تلك العلّة الخفيّة حينما يشاهد إحدى تلك العربات وقد أخذت في التحرك. وما كان ذلك سوى حوذيّ خشي على جياده من البرد فجعلها تروح بين حين وآخر وتحيي يزيد من إثارتها أن العجلات المغلفة بالكاوتشوك كانت تضفي على وقع أقدام الجياد خلقيّة من السكون يبرز عليها ذلك الواقع على نحو أكثر تميّزاً ووضوحاً.

إنّ "الحديقة الشتويّة" التي كان عابر السبيل يبصرها عادة أيّاً كان الشارع إن لم تكن الشقة على مستوى يجاوز كثيراً ارتفاع الرصيف لا تشاهد من بعد إلا في المحفورات الضوئية التي في كتب هدايا رأس السنة لـ "ستال" حيث تبدو، على نقيض ما ندر من زينات الزهور في الصالات التي من طرار لويس السادس عشر في يومنا - كمثّل وردة أو سوسنة من اليابان في إناء من الكريستال طويل العنق لا يمكن أن يحوي زهرة أخرى - وبسبب وفرة النباتات البيّنة حينذاك والنقص المطلق في أسلوب يحكم تربيتها، وكأنها لا بدّ تستجيب لدى ربّات البيوت لهوى نباتي يزخر بالحياة والبهجة أكثر منها لاهتمام لا حياة فيه بيزخرفة جافة. كانت تذكّر، وهي أكبر حجماً في فنادق تلك الحقبة، بتلك الدفيئات الصغيرة النقالّة التي كانت توضع في صبيحة الأوّل - من كانون الثاني تحت المصباح المضاء - لأن الأطفال لم يتوافر لهم الصبر لانتظار طلوع النهار - بين هدايا رأس السنة الأخرى، ولكنها أجمل هديّة من بينها إذ تحمل لك العزاء عن عري الشتاء بالنباتات التي يمكن أن نبادر إلى زرعها. كانت تلك الحدائق الشتويّة تشبه أكثر من تلك الدفيئات نفسها الدفيئة التي نراها بالقرب منها تماماً صُورة في كتاب جميل، وهو هدية أخرى من هدايا رأس السنة كانت تفتن الأطفال مع أنها لم تقدّم لهم بل للأنسة "ليلى" بطلّة الكتاب إلى حدّ أنهم يتساءلون، وقد أضحوا الآن شيوعاً، إن لم يكن الشتاء في تلك السنوات السعيدة أجمل الفصول. وفي آخر هذه الحديقة الشتويّة، وعبر تشجر الأصناف المختلفة التي كانت النافذة المضاء تشبه بها زجاج دفيئات الأطفال تلك المرسومة أو الحقيقة، كان عابر السبيل يبصر بعامّة، إذ يقف على أطراف أصابعه، رجلاً بسترة رسمية، وفي عروته زهرة غاردينيا أو قرنفلة، يقف أمام امرأة جالسة وكلاهما غير واضحي المعالم كأنهما نقشان غائران في حجر ياقوت أصفر في آخر أجواء الصالة التي ينشر فيها "السماور" - وهو

يوم ذاك حديث الاستيراد - أبخرة صفراء لعلها لا تزال تنبعث منه في يومنا هذا ولكننا لا نبصرها أحد من بعد بسبب العادة. كانت السيّدة "سوان" شديدة التعلّق بذلك "الشاي"، وتحسب أنها تبدي طرفاً وتشيع سحراً إذ تقول لرجل: "تجدني كلّ يوم في وقت متأخّر فهلّم لتناول الشاي"، حتى تقرر بابتسامة رقيقة عذبة تلك الكلمات التي تنطقها بنبرة إنكليزية مؤقتة والتي يأخذ محدّثها علماً بها وهو يحيّي بوقار وكأنها شيء مهمّ وغريب يفرض الاحترام ويقتضي الانتباه. كان ثمة سبب آخر غير التي ذكرناها أعلاه كان من جرّائه أن لم تقتصر الأزهار في صالة السيّدة "سوان" على الطابع التزييني، ولم يكن السبب ذلك ناجماً عن العصر بل عن الحياة التي قضتها "أوديت" فيما مضى في قسم منه. فإن غانية مرموقة، كما كان شأنها، إنّما تعيش كثيراً من أجل عشاقها، أي في منزلها، الأمر الذي يمكن أن يقودها إلى أن تعيش من أجل ذاتها. فالأشياء التي نبصرها لدى امرأة شريفة والتي يمكن أن تبدو لها هي الأخرى بالتأكيد مهمّة هي التي تكتسب في جميع الأحوال أكبر الأهمية في نظر الغانية. وليست قفّة يومها ساعة ترتدي ملابسها من أجل الناس، بل ساعة تخلعها من أجل رجل فلا بدّ لها أن تكون أنيقة في مبدلها وقميص نومها أناقتها في ثياب المدينة. وفيما تبرز النساء الأخريات حليهنّ تعيش هي بين خفايا درها. ويفرض هذا النمط من الحياة الالتزام بنوع من البذخ غير المفضوح وينتهي بزرع عشق هذا البذخ الذي يقارب أن يكون متجرّداً في نفسك. وكانت السيّدة "سوان" تشمل الزهور بعشقها ذلك فقد كان ثمة على الدوام بالقرب من مقعدها كأس ضخمة من الكريستال ملئت تماماً بتويجيات من بنفسج "بارما" أو من الأقحوان وتبدو وكأنها تعلن للوافد عن العمل المفضّل الذي أوقف، كما لعلها كانت حال كوب الشاي الذي ربّما شربته السيّدة "سوان" وحيدة ولمحض متعتها؛ عن عمل أكثر خفاءً وأوفر أسراراً حتى لترغب في الاعتذار لدى مشاهدة الزهور الممتلئة هناك كما لعلك تفعل إن نظرت إلى عنوان الكتاب الذي لا يزال مفتوحاً والذي ربّما كشف عن سرّ القراءة الأخيرة وربما بالتالي عن تفكير "أوديت" الراهن. وكانت الأزهار تنبض بالحياة أكثر ممّا يتيسّر للكتاب وكان المرء يوافيه الضيق إن دخل لزيارة السيّدة "سوان" لتيبته أنها لم تكن وحدها، أو إن هو عاد معها ألا يلقى الصالة خالية لما تشغل من مكان غامض يتعلّق بأوقات لا يعرفها من حياة سيّدة البيت تلك الأزهار التي لم تعدّ لزائري "أوديت" بل هي نعمت وستنعم كذلك، وكأنّما نسيتهها هناك، بأحاديث خاصّة معها يخشى المرء أن يقطعها وعبثاً يحاول أن يقرأ سرّها إذ يحذّق بعينه إلى ألوان بنفسج "بارما" الباهتة اللذائبة الخياريّة المنحلة. كانت "أوديت" تعود منذ آخر تشرين الأول على نحو منتظم أكثر مما يسعها الانتظام بسبب "الشاي" الذي ما يزال يدعي في ذلك الزمان "شاي الساعة الخامسة" (وتحبّ أن تردّد أنه إن أقامت السيّدة "فيردوران" منتدى فلأنك كنت واثقا على الدوام أنك تستطيع لقاءها في منزلها في ساعة لا تتبدّل. وكانت تتخيّل أنها تملك واحداً من النمط نفسه ولكنّه أوفر حريةً وبعيد عن التشدّد (senza rigore)، حسبما تحبّ أن تقول. وترى أنها على هذا النحو ما يشبه السيّدة "ليسبيناس" (١) وتظنّ أنها أسست منتدى منافساً إذ انتزعت من السيّدة "دي ديفان" (٢) أمتع رجال جماعتها

(١) - (٢) - الأنسة Lespinasse مرافقة مدام du Deffand صاحبة منتدى شهير في القرن الثامن عشر بدأ باستقبال رجال المجتمع ثم أخذ يستقبل رجال الفكر والأدب. وقد طردت هذه الأخيرة مرافقتها إذ اتهمتها بسرقة الذين كانوا يترددون على منتداهما.

الصغيرة ولاسيما "سوان" الذي تبعها في انفصالها وعزلتها، حسب رواية يدرك المرء أنها أفلحت في حمل الرافدين الجدد الجاهلين بالماضي على تصديقها ولكنها لم تفلح مع ذاتها. على أننا إنما نمثل بعض الأدوار المفضلة لدينا العديد من المرات أمام الناس ونعيدها داخل ذواتنا إلى حد أننا نرى سهولة أكبر في الرجوع إلى الدليل الوهمي الذي تقدمه لنا منا إلى الواقع منسي تماماً تقريباً. أما الأيام التي لم تخرج فيها السيدة "سوان" البتة فقد كنت تجدها فيها ترتدي مبدلاً من الحرير الصيني الرقيق في بياض أول الثلج، كما ترتدي أحياناً إحدى تلك المواسير الطويلة التي من الموسلين الحريري والتي تبدو وكأنها محض نثارة من تويجيات وردية أو بيضاء قد نراها اليوم لا تناسب الشتاء كثيراً على غير وجه حق. ذلك أن تلك الأقمشة الرقيقة وتلك الألوان الرقيقة كانت تضفي على المرأة - في دفاء الصالات الوفير آنذاك وقد كستها الستائر ورأى روايو المجتمعات الراقية في تلك الحقبة أن أكثر ما يقال فيها أناقة أنها "وئيرة البطائن" - المظهر المبرور نفسه الذي تضفيه على الورود التي يمكن أن تمكث هناك بالقرب منها، على الرغم من الشتاء، في لون عريها الوردية كما في الربيع. كانت سيده البيت، بسبب إخماد الأصوات هذا من جراء السجاد واعتزالها في زوايا غائرة، توالي القراءة إذ لم ينشأ أمر بدخولك كما هو شأن اليوم، فيما أصبحت تقريباً أمامها، الأمر الذي كان يزيد من ذلك الانطباع الخيالي ومن روعة السر الذي أخذ على حين غرة، وهو ما نلقاه اليوم من جديد في تذكر تلك الفسطين المتقدم زيه حينذاك والتي ربما كانت السيدة "سوان" الوحيدة التي لم تهجرها والتي تذكرنا بأن المرأة التي ترتديها ينبغي أن تكون بطلة رواية لأن أغلبنا لم ير تلك الفسطين إلا في بعض روايات "هنري دو غريفييل". كان لدى "أوديت" الآن في صالتها في أول الشتاء أزهار أقحوان ضخمة وفي تنوع ألوان لم ير "سوان" فيما مضى ما يشبهها في منزلها. كان إعجابي بها - حينما أقوم بإحدى تلك الزيارات الكثيرة للسيدة "سوان" فالتقي لها فيها كامل الشاعرية التي تنبعث من أنها أم "جيلبيرت" هذه التي سوف تقول لها في الغد: "لقد قدم صديقك لزيارتي." - كان إعجابي بها ناجماً دون شك عن أنها تصيف، بلونها الوردية الشاحب شحوب الحرير الذي من طراز لويس الخامس عشر الذي يغطي مقاعدها، أو الأبيض بياض الثلج كمبدلها الذي من حرير صيني رقيق، أو الأحمر الباهت كسماورها، إلى زينة صالتها زينة إضافية بألوان في مثل غناها ودقتها، ولكنها زينة حية لن تدوم إلا بضعة أيام. بيد أنه كان يؤثر في ما كان في ذلك الأقحوان أقل زوايا منه ديمومة نسيبة بالنسبة إلى تلك الألوان الوردية أو النحاسية التي تلهبها الشمس بجلال عظيم في ضباب أواخر ما بعد الظهيرة من شهر تشرين الثاني والتي كنت أعود فألقاها، بعدما شاهدتها قبل دخولي إلى منزل السيدة "سوان" وهي تبهت في السماء، ترددها وتنقلها ممزجة الأزهار الملتهبة لقد كان يدعوني، ذلك الأقحوان، كممثل أضواء انتزعها رسام عظيم من تقلبات الجو والشمس كيما تبادر إلى تزيين منزل بشري، كان يدعوني، على الرغم مما يملوني كآبة، إلى أن أتلقى بينهم في أثناء ساعة الشاي هذه متع تشرين الثاني القصيرة جداً التي كان يرسل بالقرب مني لهب روعتها الحميمة الزاخرة بالأسرار. وما كنت أستطيع بلوغها، من أسف، في الأحاديث التي كنت أسمعها. فقد كانت السيدة "سوان" تتخذ صوتاً حنوناً حتى مع السيدة "كوتار" لتقول لها، مع أن الوقت تقدم بها كثيراً: "لا، ليس الوقت متأخراً، لا تنظري إلى ساعة الحائط فليست

الساعة ما تشير إليه، إنها واقفة، وماذا يمكن أن ينتظر مما يستدعي الاستعجال إلى هذا الحد؟" وتقدم قطعة حلوى أخرى لزوجة الأستاذ التي تحمل حافظة بطاقتها بيدها.

وكانت السيدة "بوتنان" تقول للسيدة "سوان": "إنه لا يمكن مغادرة هذا البيت"، تقول فيما تصرخ السيدة "كوتار" في دهشتها لدى سماعها من يعبر عن انطباعها الخاص: "ذلك ما أقوله على الدوام بيني وبين نفسي داخل عقلي وفي أعماق ذاتي!" يؤيدها في ذلك جماعة من نادي السبق أغرقت في التحيات وكأنما غمرها شرف عظيم حينما قدمتها السيدة "سوان" إلى تلك البورجوازية الصغيرة غير اللطيفة التي تظل محتفظة إزاء أصدقاء "أوديت" اللامعين إن لم تلجأ إلى ما كانت تسميه حالة الدفاع، لأنها كانت تستخدم على الدوام لغة سامية للتعبير عن أبسط الأمور. "كأنما ذلك غير صحيح، فقد انقضت ثلاثة أيام أربعا وأنت تخلفين وعدك"، تقول السيدة "سوان" للسيدة "كوتار". فتضيف هذه الأخيرة بلهجة بادية الاحتشام غامضة (لأنها ما كانت لتجرؤ، مع أنها امرأة طبيب، أن تتحدث دونما كنايات عن الرشح أو المغص الكلوي): "صحيح، يا أوديت، لقد انقضت قرون بل أبديات لم أرك فيها. أنت ترين أنني أقر بذنبي، ولكن ينبغي أن أقول لك إنني عانيت الكثير من "المصيبات" الصغيرة، ولكل مصيبياته. ثم إن أزمة حلت في جهاز خدمي المذكر. فقد اضطررت، دون أن أكون مشبعة بفكرة السيطرة أكثر من أخرى غيري وكما يكون الأمر بمثابة عبء، إلى طرد رئيس خدمي الذي كان يسعى من جهة أخرى، فيما أعتقد، إلى مكان أوفر ربحاً. لكن ذهابه أوشك أن يؤدي إلى استقالة الوزارة بكاملها. وقد رفضت وصيقتي كذلك البقاء ووقعت مشاحرة جديدة بـ "هوميروس". وقد قبضت بحزم علي دفة المركب على الرغم من كل شيء، وكان درس أشياء حقيقي لعله لم يذهب هدراً بالنسبة إلي. إنني أزعجك بحكايات الخدم هذه، ولكنك تعلمين مثلي أية متاعب هي أن يضطر المرء إلى اللجوء لتعديلات في صفوف مستخدميه. ثم تسأل: "ألن نرى ابنتك اللذيذة؟" وتحجب السيدة "سوان": "لا، فابنتي اللذيذة تتعشى لدى صديقة لها"، وتضيف وهي تلتفت صوبي: "أظن أنها كتبت إليك كي تحيي لزيارتها في الغد". ثم تسأل زوجة الأستاذ: "وماذا عن أطفالك؟" وتنفس بعنف ذلك أن كلمات السيدة "سوان" تلك التي كانت تبرهن لي أنني أستطيع زيارة "جيلبيرت" حينما أشاء إنما كانت توفر لي بالضبط الفائدة التي جئت أبحث عنها والتي كانت تجعل زيارتي للسيدة "سوان" في تلك الفترة ضرورة جداً. ثم أضفت بمظهر من يعزو انفصالنا لسبب غامض، الأمر الذي لا يزال يبعث في توهماً بالحب تغذيه كذلك الطريقة الرقيقة التي كنت أتحدث بها عن "جيلبيرت" وتحدث عني: "لا، سأسطر لها كلمة هذا المساء. وعلى أية حال لا نستطيع أن نتلاقى من بعد أنا و"جيلبيرت". وتقول السيدة "سوان": "تعلم أنها تحبك إلى ما لا حدود. أحقا لست تريد غداً؟" وفجأة يأخذني الابتهاج إذ أقول في نفسي: "ولكن لم لا أفعل ذلك بما أن والدتها نفسها تعرضه علي؟" غير أنني أعود في الحال لأغرق في كآبتي. لقد خشيت أن تحسب "جيلبيرت"، إذ تراني، أن لا مبالاتي في هذه الفترة الأخيرة كانت من قبيل التظاهر وفضلت مدة فترة الانفصال. وكانت السيدة "بوتنان" في أثناء تلك الأحاديث الذاتية تشتكي من الإزعاج الذي تسببه لها نساء السياسيين، فقد كانت تتظاهر بأنها تجد جميع الناس

مملّين ومضحكين وأنها مفتمة لموقف زوجها. كانت تقول للسيدة "كوتار" التي كانت على العكس فيما يخصها تفيض عطفاً على كلّ واحد واحتراماً حيال جميع الالتزامات:

- "نستطيعين هكذا إذن استقبال خمسين امرأة على التوالي ؛ آه، إنك لعلّى القدر من قوة الشكيمة. أمّا أنا، في الوزارة، فأني بالطبع مضطّرة. ولكنّ الأمر يفوق قواي، لوتدريين، مع نساء الموظفين أولئك فلا أستطيع حجب النفس عن الهزء بهنّ. و"البيرتين" ابنة أخي على ما أنا. ولست تعلمين أيّ حد تبلغ في وقاحتها تلك الصغيرة. فقد كان في يوم استقبالي في الأسبوع الماضي زوجة معاون الأمين العام لشؤون الاقتصاد التي كانت تقول إنها لا تفقه شيئاً في أمور الطبخ فأجابتها ابنة أخي بأكثر ابتساماتها سحراً قائلة: "ولكن يجدر بك يا سيّدتني أن تكوني ملّمة بالأمر بما أن والدك كان طاهياً."

وتقول السيّدة "سوان": "أوه، إني أحبّ كثيراً هذه القصّة وأجدها لليلة". ثم تشير على السيّدة "كوتار" بقولها: "ينبغي لك على الأقلّ في أيّام استشارات الدكتور أن توفرني لنفسك عشاً صغيراً إلى جانب أزهارك وكتبك والأشياء التي تحبّينها."

- "هكذا، كصفعة على وجهها، ولم تستشرها في الأمر. لم يسبق لها أن أنبأتني بشيء من ذلك، تلك المراوغة الصغيرة، فهي مأكرة كالقردة. إنك محظوظة إذ تستطيعين تمالك نفسك وإني أحسد الناس الذين يعلمون كيف يخفون تفكيرهم"

وتحبّ السيّدة "كوتار" بلطف: "ولكن لا حاجة بي لذلك، فلست متصعّبة إلى هذا الحدّ." ثم تضيف بصوت أكثر ارتفاعاً كانت تلجأ إليه كيما تشير، في كلّ مرّة تدسّ في الحديث واحدة من تلك المحاملات الرقيقة والتقرّيط الحاذق مما يثير إعجاب زوجها ويعينه في أعماله: "فليس لي بادي الأمر مالك من حقوق، ثم إني أفعل بسرور كلّ ما من شأنه أن يفيد الأستاذ."

- "ولكن، ينبغي أن نتمكّن من ذلك يا سيّدتني. لست على الأرجح عصبية. أمّا أنا فحينما أرى امرأة وزير الدفاع تتصنع في حركاتها فأني أشرع في الحال في تقليدها. ما أقسى أن يكون المرء بمثل هذا المزاج!"

وقالت السيّدة "كوتار": "أجل، لقد سمعت من يقول إن لها عادات مستهجنة إن زوجي يعرف كذلك واحداً عالي المكانة، ومن الطبيعي حينما يتحدث هؤلاء السادة فيما بينهم.."

- "ولكن خذي مثلاً على ذلك رئيس التشرّيفات الأحذب، يا سيّدتني، فالأمر مفروغ منه: ما إن تنقضي حمس دقائق على وصوله إلى بيتي حتى أبادر إلى وضع اليد على حديثه. يقول زوجي إنني سأحملهم على عزله من الوظيفة. ألا ببست الوزارة، أحل ببست الوزارة! كنت أبغي وضع تلك بمثابة شعار على ورق رسائلي. إني متأكّدة من أنني أثير استنكارك لأنك طيبة، أمّا أنا فأقرّ أن لا شيء يسليني كما تفعل الإساءات الصغيرة، فبدونها تبدو الحياة شديدة الرتابة."

كانت توالي الحديث كل وقت عن الوزارة كما لو أنها مقر "الأولمبوس". والتفتت السيِّدة "سوان" إلى السيِّدة "كوتار" بغية تبديل الحديث وقالت:

- "ولكنك تبدين لي شديدة الجمال؟ فهل صنع ذلك "ريد فيرن"^(١)؟

- "لا، تعلمين أنني من المتحمّسات لـ "رود ينتز". إنها على آية حال "تصليحة".

- "ولكنّها على جانب من الأناقة!"

- "كم تظنّين تساوي؟ . لا، بد لي الرقم الأوّل."

- "كيف ذلك، هذا ثمن زهيد جدًّا، إنّها عطية لقد قيل لي ثلاثة أمثال هذه القيمة."

- "كذلك يُكتب التاريخ"، تقول زوجة الدكتور مستخلصة. ثم تُري السيِّدة "سوان" فلاة سيق أن أهدتها إياها هذه الأخيرة:

- "انظري يا أوديت. هل عرفتِها؟"

ويطلع من شقّ ستارة رأس يتصنّع الاحترام ويتظاهر عن مزاح بخشية الإزعاج: وكان "سوان". أوديت، إن أمير "أغر يحانت" معي في حجرتي وهو يسأل إن كان يستطيع المحيّي لتقديم احترامه. فبمّ ينبغي أن أحياه؟" وتقول "أوديت" راضية ودون أن تتخلّى عن هدوء كان سهلاً عليها بمقدار ما سبق لها على الدوام، حتى بوصفها من بنات الهوى أن استقبلت رجلاً أنيقين: "بأنني سأكون في أشد الغبطة". ويمضي "سوان" لنقل الإذن ثم يعود بالقرب من زوجته يصحبه الأمير، إلا إذا دخلت في تلك الأثناء السيِّدة "فير دوران".

كان قد طلب إلى "أوديت" حينما يزوّجها ألا تتردّد من بعد على العشيرة الصغيرة (وقد تجمع لديه لذلك الكثير من الأسباب، ولعله مع ذلك يفعل، إن يتيسّر له شيء منها، امتثالاً لقانون في العقول لا يحتمل شلّوذاً، قانون يُبرز لا تبصّر القوّادين جميعهم أو تجردهم) لقد سمح أن تتبادل "أوديت" والسيِّدة "فير دوران" زيارتين في العام فحسب، الأمر الذي كان لا يزال يبدو مغالي فيه في نظر الخلفاء الذين أثارت سخطهم الإهانة الموجهة "لرّبة البيت" التي عاملت "أوديت" وحتى "سوان" على مدى سنوات كثيرة بمثابة الولدين المفضلين في البيت. فلئن ضمّت الجماعة الصغيرة إخوة مدالسين يهجرونها في بعض العشيات لتلبية دعوة لـ "أوديت" دون التصريح بذلك وهم على استعداد إمّا كشفوا أن يجدوا العذر في فضولهم للقاء "بيرغوت" (مع أنّ رّبة البيت تدّعي أنّه لا يتردّد على منزل عائلة "سوان" وأنّه خلّو من الموهبة وأنها على الرغم من ذلك تحاول، حسب عبارة عزيزة على قلبها، أن تتجنّبه)، فقد

(١)وردت العبارة باللاتينية للإشارة إلى تصنع الثقافة (Redfem fecit).

كان لها كذلك "متطرفوها". ولعلهم كانوا يأملون، وهم على جهل بالمبول الخاصة التي غالباً ماتتني الناس عن الموقف المتطرف الذي يُراد لهم أن يتخذوه لإزعاج أحدهم، فلم يفلحوا في حمل السيدة "فيردوران" على قطع جميع علاقاتها بـ "أوديت" فتحرمها بذلك غبطة أن تقول ضاحكة: "نادراً ما نذهب إلى منزل "ربة البيت" منذ الانشقاق. كان ذلك ممكناً بعد حينما كان زوجي عازباً، ولكن الأمر ليس يسيراً جداً على الدوام بالنسبة إلى زوجين. والسيد "سوان"، إن كان لابد من الحقيقة، لا يهضم العمّة "فيردوران" ولا يقدر كثيراً أن أجعل منها عشيرتي المعتادة وأنا الزوجة الآمنة."

كان "سوان" يرافق زوجته إلى هناك ولكنه في السهرة يتجنب الحضور حينما تأتي السيدة "فيردوران" في زيارة لـ "أوديت". ولذلك كان أمير "أغريجان" يدخل وحده إن كانت "ربة البيت" في الصلاة. وهو الوحيد على أية حال الذي تُعرف به "أوديت" التي كانت تفضل ألا تسمع السيدة "فيردوران" أسماء مغمورة وأن يمكنها الظن، إذ ترى أكثر من وجه لا تعرفه، أنها وسط أعيان من الأرستقراطيين، وكانت الخطة ناجحة إلى حد أن السيدة "فيردوران" كانت تقول باشمزاز لزوجها في المساء: "ما أروعه وسطاً كان هنالك كامل صفوة الرجعية!" كانت "أوديت" تعيش في وهم معاكس فيما يخص السيدة "فيردوران"، لا لأن ذلك المنتدى أخذ آنذاك فقط في التحول إلى ما سوف نراه يضحى ذات يوم، فلم تكن السيدة "فيردوران" قد بلغت بعد فترة الحصانة التي توقف فيها الاحتفالات الكبرى حيث تُعرف في جمهرة الرعايا العناصر القليلة اللامعة ممن تم اكتسابهم منذ قليل، الفترة التي تفضلون فيها انتظار أن تكون القدرة المولدة التي يتمتع بها العشرة الصالحون الذين أفلحوا في اجتذابهم قد أنتجت سبعين مرة عشر مرات. كانت السيدة "فيردوران" قد وضعت "المجتمع الراقي" بالتأكيد هدفاً لها، مثلما لن تتوانى "أوديت" عن القيام به، ولكن مناطق هجومها لا تزال محدودة جداً وبعيدة جداً على أي حال عن تلك التي ربما تيسر لـ "أوديت" بعض الحظ في بلوغ نتيجة مماثلة والتمتع بنحمتها عن طريقها إلى حد أن هذه الأخيرة كانت تعيش في أتم الجهل بالخطط الاستراتيجية التي كانت تضعها "ربة البيت" كانت "أوديت" تأخذ بالضحك بأسلم ما تكون النية حينما يحدثونها عن السيدة "فيردوران" وكأنما عن إحدى المتحذلقات وتقول: "الأمر بخلاف ذلك تماماً فإنها باديء الأمر لا تملك مقومات ذلك إذ هي لا تعرف أحداً، ثم لابد أن ننصفها بقولنا إن الأمر يروقها على هذا النحو، لا، إنما أيام أربعائها ما تحب والمحدثون الممتعون". وكانت تحسد السيدة "فيردوران" في السر على تلك الفنون (مع أنها لا تفقد الأمل أن تكون تعلمتها في النهاية بتلميذها في مدرسة مرموقة إلى هذا الحد)، تلك الفنون التي تعلق عليها "ربة البيت" أهمية عظيمة مع أنها تعمل فحسب على تلوين اللا موجود وصقل فراغ وهي بحصر المعنى فنون العدم: كالفن (الذي لدى ربة المنزل) القائم على إجادة "الجمع" والإحاطة "بالتكامل" و"الإبراز" و"الاحتجاب" والقيام بدور "صلة الوصل".

ومهما يكن من أمر فقد كان يؤثر في صديقات السيدة "سوان" أن يبصرن في منزلها امرأة لا يمثلنها عادة إلا في صالتها الخاصة يحيط بها في إطار من المدعوين لا يفصل عنها، ومن حولها فرقة صغيرة كاملة يدهشك أن تراها على هذا النحو يذكّر بها وتختصر وتراص في كنبه واحدة

تحت أعراض "رَبّة البيت" التي أضحت زائرة في دَفء معطفها المبطن بزغب الطير وهو في مثل نعومة الفراء البيضاء التي تغطّي هذه الصالة حيث تبدو السيّدة "فيردوران" نفسها صالة أخرى. كانت أكثر النسوة وحلاً يبعين الانسحاب بداعي التحفّظ ويقلن وهنّ يلجأن إلى صيغة الجمع شأن من يبغى إفهام الآخرين أنّه من الحكمة أن لا نبالغ في إرهاب امرأة في طور النقاهة تغادر فراشها للمرّة الأولى: "سوف نترككم يا "أوديت". كنّ يحسّدن السيّدة "كوتار" التي تدعوها "رَبّة البيت" باسمها وكانت السيّدة "فيردوران" تقول لها، إذ هي لا تستطيع احتمال أن تظلّ واحدة من الخلّص هنا بدلاً من أن تتبعها: "هل لي أن أخطفك؟" - "ولكنّ سيّدتي سوف تتلفّ بإعادتني"، تقول السيّدة "كوتار" إذ لا تريد أن يبدو عليها أنّها تنسى، لصالح شخصيّة أوفر شهرة، إنها قبلت العرض الذي تقدّمت به السيّدة "بونتان" لإعادتها في عربتها الرسميّة. "وأقرّ أنّي مدينة بوجه خاصّ للصديقات اللواتي يتفضّلن باصطحابي في عربتهنّ. إنّهُ لحظّ حقيقي بالنسبة إلى من لا تملك عربيّة مثلي." وتحيب "رَبّة البيت" قائلة (ولا تجرّو أن تقول شيئاً لأنّها على معرفة يسيرة بالسيّدة "بونتان" وقد دعته منذ قليل إلى أيّام أربعاها): "ولاسيّما أنّك لست قريبة من منزلك لدى السيّدة "دو كريسيّ"، آه! يا إلهي، لن أفلح قطّ في أن أقول السيّدة "سوان". كان ذلك مزاحاً في العشيرة الصغيرة بالنسبة إلى جماعة لا تتمتع بذلك كبير أن يتظاهر المرء بأنّه لا يستطيع تعرّف أن يقول السيّدة "سوان": "لقد طالما تعرّدت أن أقول السيّدة "دو كريسيّ" حتى كدت أخطئ مرّة أخرى." وحدها السيّدة "فيردوران" لم تكن في حديثها مع "أوديت" توشك أن تخطيء بل هي تخطئ عن قصد "أليس يخيفك يا "أوديت" أن تقطني هذا الحيّ المنعزل؟ يبدو لي أنني لن أكون على اطمئنان تام للعودة في المساء ثمّ إن الطقس بالغ الرطوبة ولا بدّ أن ذلك لا يلائم الإكزيما التي يعاني منها زوجك ليس عندكم جردان على الأقل؟" - "لا! ياللهول!" - "لحسن حظّكم، فقد سبق أن قيل لي ذلك. يسعدني أن أعلم أنّ الأمر غير صحيح لأنّها تبعث فيّ خوفاً رهيباً وأنني ما كنت لأعود إلى بيتكم إلى اللقاء يا عزيزتي الطيّبة، إلى لقاء قريب. تعلمين كم أسعد بمشاهدتك."

ثمّ تقول وهي ذاهبة وفيما تنهض السيّدة "سوان" لشيعها: "لا تعرفين أن ترتبي الأفاحي. تلك أزهار يابانية وينبغي ترتيبها مثلما يفعل اليابانيون." وتعلن السيّدة "كوتار" بعدما ما أغلقت "رَبّة البيت" الباب: "لست أرى ما ترى السيّدة "فيردوران" مع أنّها الوصايا والأنبياء في جميع الأمور بالنسبة إليّ. ليس من يستطيع غيرك يا "أوديت" أن يلقي أقحواناً جميلاً إلى هذا الحدّ، أو بالأحرى جميلة، إذ يبدو أن ذلك ما يقولون الآن." وتحيب السيّدة "سوان" بهدوء قائلة: "إن السيّدة "فيردوران" العزيزة ليست على الدوام شديدة الرفق بأزهار الآخرين." وتساءل السيّدة "كوتار" كي لا تدع للانتقادات الموجهة إلى "رَبّة البيت" أن تطول: "أزهار من تزرعين يا "أوديت"؟. "لوميتر"؟. إنني اعترف أنّه كان ثمة أمام دكانّ "لوميتر" في ذلك اليوم شجيرة وردية كبيرة حملتني على إتيان عمل جنوبي. ولكنّها امتنعت واكتفت بالقول إنّ الأستاذ "الذي ليس سريع الغضب" قد بادر ينتضي سيفه وقال إنّها لا تدرك قيمة المال. "لا، لا، ليس لديّ بائع زهور معتاد سوى "دوباك". وتقول السيّدة "كوتار": "وأنا كذلك، ولكنني أقرّ بأنّي أخونه مع "لاشوم". وتحيب "أوديت": "آه! تخونينه مع "لاشوم"؟ سوف أقول له ذلك"، وهي تجهّد أن تبرز روح النكتة لديها وأن تدير الحديث في منزلها

حيث تشعر أنها أكثر ارتياحاً منها في العشيرة الصغيرة، "لقد أضحي "لاشوم" على أية حال غالي الثمن بالحقيقة. إن أثمانه، لو تدرين، باهظة. وتضيف ضاحكة "إني أجد أثمانه غير محتشمة".

وفي تلك الأثناء كانت السيّدة "بونتان" تدرس، بعدما قالت مرة إنها لا تودّ الذهاب إلى منزل "الفيردوران"، تدرس وقد خلب لبّها أنها دعيت إلى أيام الأربعاء كيف تستطيع الذهاب إلى هنالك أكبر عدد ممكن من المرات. وكانت تجهل ما تتمنى السيّدة "فيردوران" من أن لا يتمّ تفويت أيّ منها. ثم إنها كانت من جهة أخرى في عداد أولئك الأشخاص غير المرغوب فيهم كثيراً الذين إن تدعهم ربّة المنزل إلى "مجموعات مسلسلة" من الدعوات لا يمضون إلى منزلها على غرار من يحسنون مكارمة الغير على الدوام حينما يتسع لهم الوقت وتتفق لهم الرغبة في ذلك، بل هم العكس يحرمون أنفسهم على سبيل المثال الأمسيّتين الأولى والثالثة، وفي ظنهم أن غيابهم يتمّ ملاحظته، ويحتفظون لأنفسهم بالثانية والرابعة، إلّا إذا اتبعوا ترتيباً معاكساً، بعد ما هم معلوماتهم على أن الثالثة سوف تطون راقية على نحو خاص، متذرعين "بأنهم كانوا لسوء يرتبطون بمواعيد في المرّة الأخيرة". كذلك كانت السيّدة "بونتان" تحمّن كم لا يزال لديها أم أربعاء ممكنة قبل الفصح وبأية طريقة ستفعل في كسب يوم إضافي دون أن يبدو مع ذلك نفرض نفسها. كانت تتكلّ على السيّدة "كوتار" التي كانت تزعج العودة معها كيما تزودها الإرشادات. "أوه! أرى أنك تنهضين يا سيّدة "بونتان"، وإنه من السوء بمكان أن تعطي هكذا الهرب. أنت مدينة لي بتعويض لأنك لم تجيئي نهار الخميس الماضي. هيّا اجلسي بعدّ لة، فلن تقومي بزيارة أخرى قبل الغداء" وتضيف السيّدة "سوان": "ألن تدعي حقاً لنفسك أن رن ضحيّة الإغراء؟" وتتابع وهي تمدّ قصعة من الحلوى: "ليست هذه الأقدار الصغيرة سيّئة على طلاق كما تعلمين إن شكلها لا يوحي بذلك، ولكن تذوّقيها ثم تحدّثيني عن أخبارها." وكانت سيّدة "كوتار" تجيب قائلة: "إنها تبدو على العكس للذيذة، وفي منزل لا تعوزنا المأكولات ألّيّة ست بحاجة إلي أن أسألك عن علامة المصنع فإني أعلم أنك تحلين كلّ شيء من عند "روباتيه". لا بدّ أن أقول إنني أكثر ميلاً إلى الاصطفاء، فإني أتجه في الغالب إلى "بوربونو" فيما يخصّ لمعجنات الحافّة وجميع أنواع الحلوى. ولكنّي أعترف أنهم لا يعرفون أيّ شيء هي "البوظة" أمّا "روباتيه" فهو قمة الصنعة في كلّ ما يخصّ "البوظة" والمثلّجات ومرق السمك. إنه "غاية الفن" سبما يقول زوجي" - "ولكنّ كلّ ذلك قد صنّع هنا. أحقّاً لا تريدين؟" وكانت السيّدة "بونتان" يب قائلة: "لن أستطيع تناول طعام الغداء، ولكنني أعود إلى الجلوس لحظة. تدرين، أنا أعشق لدث إلى امرأة ذكية مثلك."

- "سوف تحدّثيني فضوليّة يا "أوديت"، ولكنّي وددت أن أعلم رأيك في القبّعة التي كانت السيّدة "ترومبير". أعلم تماماً أن الأزياء تتجه الآن إلى القبعات الكبيرة. ولكن أليس ثمة ليلة؟ إن التي كانت تعتمرها منذ قليل متناهية الصّغر في مقابل تلك التي جاءت بها إلى منزلي اليوم." وتقول "أوديت": "لا، لست ذكيّة"، وتحسب أنها بذلك تحسن صنعاً. "إنني في ساذجة تصدّق كلّ ما يقال لها وتغتمّ لأنفه أمر." وكانت تلمح إلى أنها عانت كثيراً في

البداية من أنها تزوجت رجلاً من أمثال "سوان" كان له حياته الخاصة وكان يجدها. وإذا سمع أمير "أغريحانت" عبارة "لست ذكيّة" فقد رأى من واجبه أن يحتج ولكنه لم يكن يتميز بحضور البديهة. وكانت السيّدة "بوتنان" تصرخ قائلة: "نارا تانا، لست ذكيّة أنت!" ويقول الأمير وهو يمسك بهذه الخشبة الممدودة: "كنت بالحقيقة أقول في نفسي: "ماذا أسمع؟ لا بد أن أذني خدعتني". وتقول "أوديت": "لا، بالتأكيد، إنني في الأساس بوجوازيّة صغيرة شديدة التأذي كثيرة التحيز في مواقفها تعيش داخل جحرها وهي على وجه الخصوص شديدة الجهل." ثم تقول له لتسأله أخبار البارون "دو شارلوس": "هل رأيت البارون الصغير العزيز؟" وتصيح السيّدة "بوتنان" قائلة: "جاهلة أنت! إذن ماذا عسك تقولين عن دنيا الرسميين، عن زوجات أصحاب المعالي كافة اللواتي لا يُحسِنُ التحدّث إلّا عن الخرق! خذي مثلاً، يا سيّدي، منذ مالا يزيد عن ثمانية أيّام أفتح أمام وزيرة التعليم العامّ سيرة "لوهنغرين"، فتجيبني: "لوهنغرين؟ آه! أجل، الاستعراض الأخير في ملهى "الفولي بيرجير"، يبدو أنه مضحك إلى أبعد حدّ." حسن، ماذا عسك تفعلين يا سيّدي، حينما تسمعين أموراً من هذا القبيل فإن دمك يغلي لقد داخلتنني الرغبة في أن أصفعها؛ لأن لي طباعي الخاصّة كما تعلمين." ثم تقول وهي تلتفت إليّ: "قل، يا سيّدي، ألسنتُ على حق؟" وتقول السيّدة "كوتار": "اسمعي، للمرء عذره أن يحيب بعكس المطلوب إلى حدّ ما حينما يوجّه إليه السؤال على حين غرة ودون إنذار مسبق. لقد خبرت ذلك إذ أنّ السيّدة "فيردوران" تعودت هكذا أن تضع السكّين على عنقنا." وتساءل السيّدة "بوتنان" السيّدة "كوتار" قائلة "هل تعلمين، إذ نحن بصدد السيّدة "فيردوران"، من سيكون في منزلها نهار الأربعاء؟. آه! أتذكر الآن أننا قبلنا دعوة لنهار الأربعاء القادم. ألا تفضّلين بتناول طعام الغداء معنا نهار الأربعاء الذي يليه؟ ثم نذهب سوياً إلى منزل السيّدة "فيردوران". يرهبنني أن أدخل وحدي، ولست أعلم لماذا تبعث فيّ هذه المرأة الراقية الخشبة على اللوام." وتجيب السيّدة "كوتار": "سأقول لك، إن ما يثير فيك الرعب لدى السيّدة "فيردوران" إنّما هو صوتها. ما عسك تبغين؟ ليس يملك جميع الناس صوتاً في مثل حلاوة صوت السيّدة "سوان". ولكن ما إن يتعوّد اللسان، كما تقول "رَبّة البيت"، حتى يذوب الجليد في الحال. فإنّها في الأساس جيّدة الوفادة إلى حدّ بعيد. ولكنّي أفهم تماماً إحساسك، فليس يروقكُ ألَبَتُ أن تجد نفسك للمرّة الأولى في بلاد قصبة." وكانت السيّدة "بوتنان" تقول للسيّدة "سوان": "بوسعك كذلك تناول طعام الغداء معنا. ثم نذهب بعد الغداء سوياً لارتياذ منازل "الفيردوران" بوصفنا من "الفيردوران". وحتى لو ترتب على ذلك أن تنظر إليّ "رَبّة البيت" شزراً ولا تدعوني من بعد، فما إن نصل إلى بيتها حتى نظلّ ثلاثيناً في حديث فيما بيننا، وأحسّ أنّ ذلك ما سيسلّيني أكثر ما يسلي." على أنّ هذا التوكيد كان ينبغي ألا يكون حقيقياً جدّاً، إذ كانت السيّدة "بوتنان" تسأل قائلة: "من تحسبين سيكون هنالك نهار الأربعاء الذي يلي الأربعاء القادم؟ وما الذي سيحدث؟ لن يكون هنالك عدد كبير من الناس على الأقل؟" وتقول "أوديت": "أمّا أنا فلن أذهب بالتأكيد. ولن نحضر إلّا لوقت قصير في الأربعاء الأخير. فإن كان سيّان لديك الانتظار حتى ذاك." إلّا أنّه لم يبدُ أن عرض التأجيل هذا قد فتن فؤاد السيّدة "بوتنان".

ومع أنَّ المزايَا الروحيَّة لأحد المنتديات وأناقته إنمَّا تأتي بعامةً بنسب معكوسة أكثر منها نسباً مباشرة، فلا بدَّ من الاعتقاد، بما أن "سوان" كان يجد السيِّدة "بوتنان" محبِّبةً إليه، بأنَّ كلَّ انحطاط يُسَلِّم به إنمَّا يستتبع جعل الناس أقلَّ تشدُّداً مع أولئك الذين ارتضوا أن يأنسوا بهم، أقلَّ تشدُّداً فيما يخصَّ ذكاءهم وكل ما تبقى على السواء. ولا بدَّ إن صحَّ ذلك أن يشهد الناس، ومثلهم الشعوب، زوال ثقافتهم وحتى لغتهم بزوال استقلالهم. وإنَّ من بين آثار ذلك التسامح تفاقم النزعة التي توافينا بعد سنٍّ معيَّنة في أن تجد متعة في الأقوال التي تولِّف ثناءً على اتِّجاهنا الفكريِّ الخاصِّ وعلى ميولنا وتشجَّعنا على الانسياق خلفها. تلك السنُّ هي السنُّ التي يفضِّل فيها فنَّان كبير على عشرة النوابغ الأصليين عشرة تلاميذ لا يجمعهم بهم سوى حرف تعاليمه وهم يبخرونه ويصغون إليه، وتلك التي يجد فيها رجل وامرأة مرموقان يعيشان لحبِّ ما أن أذكى شخص في اجتماع ربَّما كان الشخص الأَدنى إلا أنَّ جملةً قالها قد أبرزت أنه يستطيع إدراك معنى الحياة المكرسة للحبِّ وإقرار ذلك فيغدغ على هذا النحو النزعة الشهوانيَّة لدى العاشق أو العاشقة. ولقد كانت كذلك السنُّ التي كان يروق فيها لـ "سوان"، بعدما أضحي زوجاً لـ "أوديت"، أن يسمع السيِّدة "بوتنان" تقول إنه من المضحك ألاَّ يستقبل المرء سوى دوقات (ويستخلص من ذلك، بخلاف ما ربَّما فعله فيما مضى لدى آل "الفيردوران"، أنها امرأة طيِّبة شديدة الذكاء وغير متحلِّقة) وأن يروي لها حكايات تُضحِكها إضحاكاً شديداً لأنَّها لا تعرفها، ولكنَّها تدركها بسرعة إذ تحبُّ التملُّق والتسليَّة.

وكانت السيِّدة "سوان" تسأل السيِّدة "كوتار" قائلة: "الدكتور إذن لا يهيم مثلك بالزهور؟"

- "أوه! تعلمين أن زوجي حكيم، فهو معتدل في كل شيء بلي، إنَّ له مع ذلك هوى واحداً". وتسأل السيِّدة "بوتنان"، والعين تلمع سوء نية وفرحاً وفضولاً: "وأيَّ هوى يا سيِّدتي؟" وتجيب السيِّدة "كوتار" ببساطة: "القراءة" فتصرخ "السيِّدة" "بوتنان" وهي تكتم ضحكة شيطانية: "أوه! إنه هوى لدى الأزواج لا يورث المتاعب!" - "حينما يغوص الدكتور في كتاب، أنت أدري!" - "حسن، ينبغي أن لا يخيفك الأمر كثيراً يا سيِّدتي."

- "بلي! . فيما يتعلَّق ببصره ها إنني ذاهبة لملاقاته يا "أوديت" وسأعود في أوَّل يوم لأقرع بابك وهل قيل لك، إذ نحن بصدد البصر، أنَّ الفندق الخاصَّ الذي اشترته السيِّدة "فيردوران" منذ وقت قصير سوف ينار الكهرباء؟ والأمر لم يردني من شرطتي الخاصَّة، بل من مصدر آخر: إنه الكهربائي "ميدليه" بذاته الذي نقل إليَّ ذلك ترين أنني أستشهد بمُخبريَّ! حتى حجرات النوم سوف توفِّر لها مصابيحها الكهربائيَّة بعكس ضوئيَّ يلطِّف النور. ذلك بالطبع ترف رائع. ونساؤنا المعاصرات على أية حال يطلبن الحديد بإصرار حتى لو لم يظل جديد في العالم. ثمة شقيقة زوج إحدى صديقاتي تملك الهاتف في منزلها وبوسعها أن توصي على حاجاتها لدى إحدى الباعة دون أن تغادر شقتها! وأعترف أنني لحأت إلى أتفه الأساليب كي يؤذني لي أنني لا أود امتلاك هاتف في بيتي، فلا بد أن يضحي، بعد انقضاء الفرحة الأولى، مصدر إزعاج أكيد. ها إنني أنجو بنفسي يا "أوديت"، فلا تحتجزي السيِّدة "بوتنان" من بعد ما أنها تكفل بي، إذ لا بد لي حتماً من مغادرة المكان، إنك تحمليْنتي على إتيان رائع الأعمال، فسوف تتم عودتي بعد وصول زوجي!"

كان لابد لي أنا الآخر أن أعود قبلما أتذوق متع الشتاء تلك التي بدت لي أزهار الأقحوان وكأنها غلافها المتألق. لم تكن تلك المتع قد حلت بعد ولم يبد مع ذلك أن السيدة "سوان" أمراً ما. فقد تركت الخدم يرفعون الشاي كما لو أنها تعلن قائلة: "حان الإغلاق" ! إلى أن تقول لي في النهاية: "أنت ذاهب حقاً؟ إذن إلى اللقاء" ! كنت أحسن أنه كان بإمكانني البقاء دون ملاقة هذه المتع المجهولة وأن كأبتي لم تقم وحدها بحرمانني منها. أفما كانت واقعة على تلك الطريق التي ترتادها الساعات المؤدية دوماً على جناح السرعة إلى لحظة المغادرة، بل على درب مختصر أجهله وكان عليّ أن أنعطف فيه؟ بيد أن هدف زيارتي قد تم بلوغه على الأقل، فسوف تعلم "جيلبيرت" أنني جئت إلى منزل ذويها عندما لم تكن هناك. (وكانت زوجة الدكتور تضيف قولها، ولم يسبق لها أن رأتها تبذل هذا المقدار من الجهد: "لابد أن تمتلكا سوية ذرات معقوفة.") سوف تعلم أنني تحدثت عنها كما كان يجدر بي أن أفعل، بحنان، لكننا لم يكن بي ذلك العجز عن العيش دون أن يرى أحدها الآخر والذي كنت أظنه في أساس الملل الذي أحسّته به في هذه الفترة الأخيرة بالقرب مني. لقد قلت للسيدة "سوان" إنني لن أستطيع لقاء "جيلبيرت" من بعد. وقلت ذلك كما لو قررت ألا أراها من بعد إلى الأبد. والرسالة التي كنت أزمع إرسالها لـ "جيلبيرت" سوف تصاغ بالمعنى نفسه. ولكنني ما كنت أضع نصب عيني، كيما أزود نفسي بالجشاعة، سوى جهد أخير ويسير يمتد أياماً قليلة. وكنت أقول في نفسي: "إنه آخر موعد لها أرفضه وسأقبل بالتالي." وكيما يبدو لي الانفصال أقل عسراً في التحقيق لم أكن أتصوره نهائياً ؛ ولكنني أحس تمام الإحساس أنه كذلك.

وقد جاء الأول من كانون الثاني مولماً بوجه خاص بالنسبة إلى في ذلك العام. كل شيء لاشك مولم، عندما يكون المرء تعيشاً، إن برز بمثابة حدث تاريخي وذكرى. فكن كان على سبيل المثال من جراء فقدان شخص عزيز فإنما يقوم العذاب حصراً في مقارنة بالماضي أوفر حيوية. وكان يضاف إلى ذلك في حالتي الخاصة الأمل الخفي بأن "جيلبيرت"، بعدما أرادت أن تدع لي المبادرة في اتخاذ الخطوات الأولى ولاحظت أنني لم أقم بها، لم تنتظر سوى ذريعة الأول من كانون الثاني كي تكتب إليّ: "ولكن ما الخبر؟ إنني أهيّم بك، فتعال كي تنفاهم بصراحة فلست أطيق العيش دون أن أراك."

وبدت لي تلك الرسالة مرجحة منذ أواخر أسام السنة. ولعلها لم تكن كذلك ولكن الرغبة والحاجة التي بنا إليها كافتيتان كيما نعتقد أنها ذلك فالجندي على يقين بأن مهلة قابلة للتمديد إلى مالا نهاية سوف يُمنحها قبل أن يُقتل، والسارق قبل أن يقبض عليه، والبشر بعامة قبل أن يكتب لهم الموت. تلك هي التميمية التي تحمي الأفراد - والشعوب أحياناً -، لا من الخطر، بل من خشية الخطر، وفي الواقع من الاعتقاد بالخطر، الأمر الذي يمكن في بعض الحالات من تحدي المخاطر دونما حاجة إلى شجاعة. إن ثقة من هذا القبيل معدومة الأساس إلى هذا الحد إنما تقوي العاشق الذي يتكل على مصالحة، على رسالة. ولعله كان يكفيني كي لا أنتظرها أن أكون كفتت عن تمنيتها. ومهما على المرء أنه غير مبال بتلك التي لا يزال يحبها فإنه يحملها مجموعة من الأفكار - وإن جاءت من قبيل اللامبالاة - ونية في إبرازها وتعقيدها في حياتها الداخلية هو فيها ربما موضوع

نفرور وكذلك موضوع اهتمام دائم. ولعله ينبغي لي، كيما أتخيل على العكس ما كان يدور في خلد "جيلبيرت"، أن أستطيع منذ الأول من كانون الثاني هذا أن استبق فحسب مالمعنين كنت أحس به في الأول من كانون الثاني من السنوات التالية التي ربما لم ألاحظ فيها اهتمام "جيلبيرت" أو صمتها أو حنانها أو جفاءها والتي ما كنت لأظن فيها، وحتى لم يسعني أن أفطن فيها إلى البحث عن حل المشكلات التي يكون قد توقف طرحها بالنسبة إليّ. ذلك أننا حينما نحب يبدو الحب أوسع من أن نحويه كله فينا، فيشع باتجاه الشخص المحبوب ويلقي فيه مساحة تستوقفه وتضطربه إلى العودة باتجاه نقطة انطلاقه، وإنما ارتداد مودتنا هذا هو الذي ندعوه مشاعر الآخر وما يفتتنا أكثر من انطلاقه لأننا لا نعرف أنه ينبع منا.

ودقت ساعات الأول من كانون الثاني جميعها دون أن تصل رسالة "جيلبيرت" تلك. ولما تلقيت في ٣ و٤ كانون الثاني بعض رسائل التمنيات المتأخرة أو التي أخرها ازدحام البرد في ذلك التاريخ فقد ظل يداعيني الأمل ولكن على نحو أقل فأقل. وبكيت كثيراً في الأيام التي تلت. وكان مرد ذلك بالتأكيد أنني لما كنت أقل صراحة مما ظننت حينما تخليت عن "جيلبيرت" فقد ظلمت أحتفظ بأمل رسالة منه بمناسبة العام الجديد. وإذ رأيت ذلك الأمل يُستنفذ قبل أن يتسع لي الوقت لأحتاط لنفسني بآخر، فقد أخذت أتعذب كمرريض أفرغ قارورة المررفين دون أن يكون في حوزته قارورة ثانية. ولكن ربما قرب في الأمل الذي بي في أن آخذ في النهاية رسالة - ولا يتنافى هذان التفسيران لأن عاطفة واحدة تتألف أحياناً من متناقضات - ربما قرب مني صورة "جيلبيرت" وأعاد تشكيل الانفعالات التي كان يبعثها في بالأسمل أن أكون بالقرب منها ورؤيتها وأسلوبها معي. وقد مضى إمكان قيام مصلحة فورية على هذا الأمر الذي لا ننتبه لجسماته، عينا التسليم. إن مرضى الأعصاب لا يستطيعون تصديق الناس الذين يؤكدون لهم أنهم سينعمون بالهدوء شيئاً فشيئاً إن ظلوا في سريرهم دون تسلم رسائل ودون قراءة صحف، ويتصورون أن هذا النظام لن يفضي إلا إلى زيادة حدة عصبيتهم. كذلك لا يستطيع العاشقون الاعتقاد بالقوة الخيرة الكامنة في الزهد بالأمر لأنهم ينظرون إليه من صميم حالة مضادة إذا لم يدوروا باختباره.

وبسبب عصف دقات قلبي حملوني على تقليل الكافيين فتوقفت. حينئذ تساءلت إن لم يكن القلق الذي عانيت منه حينما اختصمت تقريباً مع "جيلبيرت" والذي كنت أرده في كل مرة يتجدد فيه إلى العذاب الناجم عن أنني لن أرى صديقتي من بعد أو عن خطر ألا أراها إلا وهي فريسة المزاج المعكر نفسه، تساءلت إن لم يكن ذلك القلق ناجماً عنها. ولكن إن اتفق لهذا الدواء أن يكون سبباً للآلام التي ربما مسرها خيالي آنذاك تفسيراً كاذباً (الأمر الذي لا تدخله أية غرابة، إذ غالباً ما يكون سبب أكثر الآلام الأدبية قسوة لدى العشاق التعود الجسدي على المرأة التي يعيشون معها) فإنما على عرار شراب الحب الذي يستمر يربط بين "تريستان" و"إيزولت" بعد ابتلاعه بزمان طويل ذلك أن التحسن الجسدي الذي حملته إليّ الكافيين في الحال تقريباً لم يوقف تطور الغم الذي إن لم يبعثه ابتلاع المادة السامة فقد أفلح على الأقل في زيادة حدته. ولكن حينما اقترب منتصف شهر كانون الثاني وبعدما خابت آمالي فير رسالة بمناسبة رأس السنة وهذا العذاب الإضافي الذي رافق

خبيثتها، كان ما عاروني ثانية غمٌ "ما قبل الأعياد". وربما كان أقسى ما فيه أنني كنت بنفسى صانعه الراعي المصمم القاسى الصور. فالشيء الوحيد الذي كان يهمني، أي علاقتي بـ "جيلبيرت"، إنما كنت أعمل بنفسى على جعلها مستحيلة إذ أخلق شيئاً فشيئاً من جراء الفراق المطول لصديقتي، لا قلة اكتراثها، بل قلة اكتراثي، والأمر واحد في نهاية المطاف. وإنما كنت أوالي الجهد في سبيل انتحار الأنا التي تحب "جيلبيرت" في داخلي، انتحار بطيء وقاسٍ، وذلك باستمرار وبوضوح في الرؤية لا يشمل ما كنت أفعله في الوقت الراهن فحسب، بل ما سوف ينتج عنه في المستقبل: فقد كنت أعلم أنني لن أحب "جيلبيرت" بعد مضي بعض الوقت، بل إنها سوف تتحسر على ذلك وإن المحاولات التي ستقوم بها آنذاك كيما تراني سوف تكون في عقم محارلات اليوم لا لأنني سأزداد بها حباً، بل لأنني سأحب بالتأكيد امرأة أخرى سوف أقعد في اشتهاها وانتظارها ساعات لا أجرو أن اقتطع منها جزء صغيراً في سبيل "جيلبيرت" التي لن تولف شيئاً من بعد في نظري. وفي هذه اللحظة نفسها التي فقدت فيها "جيلبيرت" (بما أنني كنت عازماً ألا أراها من بعد إلا في حال التماس صريح للمصارحة وبوح شامل بحبها، وهما أمران لم يظل لهما أي نصيب من الحدث) وازددت حباً بها (فقد أخذت أحس بكل ما تحمله بالنسبة إلي أفضل من السنة السابقة حينما كنت أظن، إذ أقضي كامل ساعات ما بعد الظهر معها حسماً كنت أريد، أن لا شيء يهدد صداقتنا)، لا شك أن الفكرة القائلة بأنني سوف أحس ذات يوم بالمشاعر نفسها حيال امرأة أخرى إنما كانت في تلك اللحظة بغیضة عندي لأن تلك الفكرة كانت تسلبني، بالإضافة إلى "جيلبيرت"، حبي وعذابي: حبي وعذابي اللذين كان لابد أن أعترف بصدهما أنهما ليسا أمراً خاصاً بها وسوف يضحيان، عاجلاً أم آجلاً، من نصيب هذه المرأة أو تلك حتى ليبدو المرء دوماً - وكانت تلك على الأقل طريقتي في التفكير آنذاك - متجرداً عن الكائنات: حينما يحب يحس بأن هذا الحب لا يحمل اسمها ويمكن أن يتجدد في المستقبل، وربما أمكن أن يرى النور في الماضي، من أجل امرأة أخرى لا من أجل تلك؛ وإن هو سلم فلسفياً، في الوقت الذي لا يحب فيه، بما هنالك من تناقض في الحب، فإنما يعني ذلك أن الحب الذي يتحدث عنه مطمئن السال لا يحس به آنذاك ولا يعرفه إذن إذ المعرفة في هذه الشؤون متقطعة ولا تبقى عقب الوجود الفعلي للعاطفة. ولعل الوقت كان لا يزال يتسع بالتأكيد لتحدير "جيلبيرت" من أن ذلك المستقبل الذي لن أحبها فيه من بعد، والذي كان عذابي يعينني على استشفافه دون أن يتمكن خيالي بعد من تمثله تمتلاً واضحاً، سوف يتكون شيئاً فشيئاً وأن حله أضحي محتملاً على الأقل، إن لم يكن وشيكاً، إن لم تهب بنفسها، هي "جيلبيرت" إلى مساعدتي ولم تقض على لا مبالاتي الآتية في مهدها. وكم من مرة كنت على وشك أن أكتب إلى "جيلبيرت" أو أن أبادر لأقول لها: "احترسي فقد حزمت أمري، إن المسعى الذي أقوم به مسعى نهائي وإنني أراك للمرة الأخيرة. عما قليل لن أحبك من بعد" وما نفع ذلك؟ فبأي حق ألوم "جيلبيرت" على لا مبالاة كنت أبدىها إزاء كل ما عداها دون أن أخالني مذنباً من جراء ذلك؟ المرة الأخيرة! كان يبدو لي، فيما يخصني أمراً هائلاً لأنني كنت أحب "جيلبيرت" أما فيما يخصها فربما أثر فيها الأمر بلا ريب بقدر تلك الرسائل التي يطلب فيها أصدقاء المجيء لزيارتنا قبل أن يهجروا الوطن، تلك الزيارة التي نرفضها كما نفعل مع النساء المملات اللواتي يحبيننا لأن ثمة متعاً تنتظرنا.

إن الوقت الذي بحوزتنا في كل يوم مطاط، فالأهواء التي نحس بها تمدده وتلك التي نثيرها في الغير تقلصه، والعادة تملؤه.

ولعلني عبثاً كنت سأحدث إلى "جيلبيرت" فما كانت لتسمعي فإننا نتخيل على الدوام حينما نتكلم أن آذاننا وعقلنا هي التي تصغي. وما كانت أقوالي لتصل إلى "جيلبيرت" إلا محرفة وكأنما وقع عليها أن تحتاز الستار المتحرك لأحد الشلالات قبلما تصل إلى صديقتي مشوهة المعالم تصدر رنة مضحكة ولم تعد تحمل أي معنى. إن الحقيقة التي نضعها في الكلمات لا تشق طريقها مباشرة ولا تتمتع ببداية لا تقاوم فلا بد من انقضاء زمن كاف كيما تستطيع حقيقة من الطراز نفسه أن تتكون في صدورهم. حينئذ يشاطر الخصم السياسي الذي كان يعد معتق العقيدة المضادة خائناً على الرغم من جميع الحجج وجميع البراهين، يشاطر المعتقد المقيت الذي لم يعد يهتم به ذاك الذي كان عبثاً يحاول نشره. حينئذ سيتم الإعلان عن الرائعة التي كانت تبدو في نظر المعجبين الذين يقرؤونها بصوت عال وكأنها تبرز في ذاتها براهين جودتها ولا تحمل للذين يصغون إليها سوى صورة سخيفة أو ضحلة، سيتم الإعلان عنها أنها رائعة في وقت متأخر جداً حتى يستطيع المؤلف الاطلاع على الأمر. كذلك الحواجز في الحب لا يمكن، مهما فعل المرء، تحطيمها من الخارج على يد ذاك الذي تبعث اليأس في نفسه، فإذا بتلك الحواجز تسقط فجأة، حين لم يعد يهتم بها، من جراء جهد جاء من جهة ثانية وتم في داخل تلك التي لم تكن تحب، إذا بها تسقط دون فائدة وقد هوجمت بالأمس دون جدوى. فلو أنني جئت أعلن لـ "جيلبيرت" عن لامبالاتي الآتية وعن وسيلة تلافيها لاستخلصت من ذلك المسعى أن حبي لها والحاجة التي بي إليها كانا أكثر قوة مما ظنت ولازداد بذلك ضيقها من أنها تراني. وصحيح على أية حال أن ذلك الحب هو الذي كان يعينني، بفضل الحالات الذهنية المختلفة التي يجعلها تتوالى في داخلي، على توقع نهاية ذلك الحب أفضل منها. ولعلي ربما وجهت مع ذلك مثل هذا التحذير بالمراسلة أو شفها لـ "جيلبيرت" بعدما يمر زمن كاف يجعلها بالحقيقة في نظري أقل لزوماً ولكنه استطاع أن يبرهن كذلك أنها لم تكن على تلك الصورة بالنسبة إلي بيد أن بعض الأشخاص لسوء الحظ حدثوها عني، بقصد الإحسان أو الإساءة، بطريقة لا بد حملتها على الاعتقاد بأنهم إنما يفعلون نزولاً عند رغبتي. وفي كل مرة كان يبلغني هكذا أن "كوتار" وأمي نفسها وحتى السيد "دو نوربوا" قد جعلوا، من جراء أقوال غير حاذقة، كل التضحية التي أقدمت عليها غير ذات جدوى وأفسدوا كامل نتيجة تحفظي إذ أظهرتني زواراً بمظهر من تخلي عنه، كنت أعاني إزعاجاً مزدوجاً. فلم يعد بوسعي بادئ الأمر أن أؤرخ امتناعي الشاق والمثمر الذي قطعه المزعجون على غير علم مني وقضوا عليه بنتيجة ذلك إلا بتاريخ ذاك اليوم. ولعلي كنت إلى ذلك سأصيب متعة أقل في رؤية "جيلبيرت" التي كانت تحسبني الآن لا مسلماً تسليم كريمة من بعد، بل أناور في الظلام في سبيل مقابلة أنفت أن تمنحني إياها. وكنت ألعن تلك الثروة الفارغة لأناس يسببون لنا في الغالب، دون أن يقصدوا الإساءة أو إسداء الخدمة وفي سبيل لا شيء لمجرد الكلام، وأحياناً لأننا لم نستطع حجب النفس عن التحدث في حضرتهم وأنهم لا يكتفون سراً (مثلنا)، الكثير من الأذى في الوقت المناسب. صحيح أنهم في العملية المشؤومة التي تتم لتهديم حبنا بعيدون عن أن ينهضوا بدور مساو لشخصين تعودا أن يخربا كل

شيء لحظة توشك الأمور أن تتدبر، الأول لفرط في الطيبة والآخر لفرط في الأذية. ولكننا لا نحقد على هذين الشخصين مثل حقدنا على الزوجين المزعجين من آل "موتار" لأن الآخر هو الشخص الذي نحبه والأول نحن.

وبما أن السيدة "سوان" كانت تدعوني، في كل مرة تقريباً أذهب فيها لزيارتها، أن أجيء لتناول العصرية مع ابنتها وتقول لي أن أرد عليها مباشرة، فقد كنت أكتب كثيراً لـ "جيلبيرت" وما كنت أختار في مراسلاتي هذه الجمل التي ربما وسعها فيما يبدو لي أن تقنعها، بل أحاول فحسب أن أمهد أعذب المجاري لانسياب دموعي. فالأسف، شأن الشوق، لا يحاول تحليل ذاته بل إشباعها. فحينما يأخذ المرء في الحب يقضي الوقت لا في معرفة ماهية حبه بل في إعداد إمكانات اللقاء في الغد. وحينما يتخلى، فإنه يحاول لا معرفة غمه بل أن يقدم عنه تلك التي هي علته التعبير الذي يبدو من أكثرها رقة. ويقول المرء الأشياء التي يشعر بالحاجة إلى قولها والتي لن يفهمها الآخر فلا يتحدث إلا لنفسه. كنت أكتب مثلاً : ظننت الأمر غير ممكن، وأرى، وأأسف، أنه ليس عسيراً إلى هذا الحد. " وكنت أقول أيضاً: "يُحتمل ألا أراك من بعد." أقول ذلك وأنا أوالي الاحتراس من برود ربما استطاعت أن تظننه متكلفاً، وكانت تلك الكلمات تبكي ساعة أسطرها لأنني كنت أحس أنها تعبر لا عما كنت أود أن أصدقه بل عما سوف يحدث في الواقع إذ سوف تتوافر لي الشجاعة أيضاً، لدى رغبتها المقبلة في اللقاء التي ستبعث بها إلي، كي لا أستسلم، شأني في هذه المرة، ولسوف أصل شيئاً فشيئاً إلى اللحظة التي لن أرغب فيها مشاهدتها من بعد لكثرة مالا أراها. وكنت أبكي ولكنني أجد الشجاعة وأعرف حلاوة التضحية بسعادة الوجود بالقرب منها في سبيل إمكان أن أحسن في عينيها ذات يوم، ذات يوم يكون سواء فيه عندي، وأأسف، أن أحسن في عينيها. والافتراض نفسه، وهو بعيد الاحتمال، بأنها تحبني في هذه اللحظة متلماً سبق أن ادعت في الزيارة الأخيرة التي قمت بها، وأن ما كنت أحسبه مللاً يحس به المرء بالقرب من فرد سئم منه لم يكن ناجماً إلا عن حساسية غري وتظاهر باللامبالاة شبيه بما أبدي، كان ذلك الافتراض يقتصر على التقليل من قسوة مقصدي. كان يبدو لي آنذاك أنها سوف تجيبني، بعد انقضاء بضع سنوات وبعدها يتم لنا أن ينسى واحدنا الآخر وحينما يسعني أن أقول لها بعد الأوان إن هذه الرسالة التي كنت أسطرها لها في هذه اللحظة لم تكن صريحة البتة، سوف تجيبني قائلة: "ويحك! أكنت تحبني، أنت؟ فلو علمت كم كنت أنتظرها، تلك الرسالة، وكم كنت أمل لقاءك، وكم أبكتني!" وفيما كنت أكتب لها حال عودتي من لندن والدتها كانت الفكرة التي مفادها أنني كنت ربما أخلاً في ابتلاع سوء التفاهم هذا بالضبط، كانت تلك الفكرة من جراء كاتبها ذاتها ومن جراء متعة تخيلي أن "جيلبيرت" تحبني تدفعني إلى متابعة رسالتي.

ولكن كنت أفكر لحظة مفارقة السيدة "سوان" ساعة تنتهي حفلة الشاي لديها بما كنت أزمع أن أسطره لابنتها فقد خطر للسيدة "كوتار" فيما يخصها أفكار ذات طابع مغاير تماماً وهي تعادر المكان. فلم يفتها وهي تقوم "بجولة تفتيشية بسيطة" أن تهنيئ السيدة "سوان" على الأثاث الجديد وعلى "المقتنيات" الأخيرة التي لاحظتها في الصالة. كان بوسعها أن تلقي بينها على أي حال بعض

الحاجات التي كانت تملكها "أوديت" فيما مضى في نزل شارع "لاييرو"، وإن كانت ضئيلة العدد، ولا سيما حيواناتها التي من مواد ثمينة ودماها.

ولما تعلّمت السيدة "سوان" من صديق كانت تجلّه لفظة "السواقي" - التي فتحت أمامها آفاقاً جديدة لأنها كانت تشير بالضبط إلى الأشياء التي سبق أن وجدها بالأمس "أنيقة" - فقد اتخذت كل هذه الأشياء على التوالي في اعتزالها الدرب الذي سلكه العرش المذهب الذي كانت تتكى عليه أزهار الأقحوان والعديد من غلب السكاكر من وارد "جيرو" وورق المراسلات ذو التاج (ونُصِّلِكُ عن ذكر قطع العملة الكرتونية الصفراء المثورة على صفحات الموامد والتي أشار عليها رجل رفيع الذوق، قبلما عرفت "سوان" بكثير، أن تضجّ بها). كان الشرق الأقصى في جميع الأحوال أكثر فأكثر في التراجع أمام غزوة القرن الثامن عشر وذلك في الفوضى الفنية وفي تراكم المشاغل الذي يسود الحجرات ذات الجدران المطلية باللون قاتمة تجعلها مختلفة أكثر ما يكون الاختلاف عن الصالات البيضاء التي اتخذتها السيدة "سوان" بعد ذلك بقليل؛ ثم إن الوسادات التي كانت السيدة "سوان" تراكمها وتدعكها خلف ظهرها كيما توفر لي راحة أكبر كانت تنتثر فوقها باقات من طراز لويس الخامس عشر لا تتأين صينية شأنها بالأمس. وفي الغرفة التي كنت تجدها أغلب الأحيان فيها والتي كانت تقول عنها: أجل، إني أحبها حباً كافياً وأقيم فيها كثيراً ولست أستطيع العيش وسط حاجات عداوية غليظة، فهنا أعمل" (دون أن توضح من ناحية أخرى إن كانت تعمل في لوحة أو ربما في كتاب، إذ أخذ الميل إلى كتابة الكتب يراد النساء اللواتي يحبين القيام بعمل ما وألا يكن غير نافعات)، كانت تحيط بها أواني "الساكس" (وهي تحب هذا النوع الأخير من البورسلين الذي تنطق اسمه بنبرة إنكليزية حتى لتقول بشأن كل شيء هذا جميل، إنه قريب الشبه بأزهار من "الساكس"). وكانت تخشى عليها، حتى أكثر مما تخشى بالأمس على قردتها وآيتها الصينية، من لمسات الخدم الجاهلة، وكانت تجعلهم يكفّرون عن المخاوف التي سببها لها بفورات غاضبة يشهدها "سوان"، ذاك المولى المهذب واللطيف، دون أن يثور لذلك فإن الرؤية الصافية لبعض مواطن النقص لا تنزع من الحنان شيئاً، وإنما يبرز هذا الحنان على العكس طرفها.

وكان يندر الآن أن تستقبل "أوديت" معارفها الحميمين بمباذل يابانية، بل تفعل بالأحرى بمباذل من حرير فاتح الألوان ناعم من طراز "واتو"، كانت تحرك يدها كأنما لتداعب فوق نهديها زركشته الناعمة وتسبح في داخله وترتاح وتمرح بمظهر من الهناء وابتعاد الجسم وبأنفاس عميقة حتى ليبدو أنها لم تكن تعدّه تزييناً على غرار إطار، بل ضرورياً ضرورة الـ "Tub" والـ "Footing"^(١) لإرضاء متطلبات وجهها وتأنيقها في أمور الصحة. وكانت قد تعودت أن تقول إنها تتخلى بيسر أكبر عن العجز منها عن الفن والنظافة وإنها ربما أصابها إن ترّ "الجو كوندو" تحترق، غم أعمق مما يصيبها باحترق جموع كثيرة من بعض من كانت تعرفهم. وهي نظريات تبدو مفارقة لصديقاتها ولكنها

(١) الحمام والمسير على الأقدام، وقد أثبتنا اللفظتين كما وردنا في متن النص للتدليل على حذقة السيدة "سوان" وشيوع بعض اللفظيات الانكليزية لدى عليّة القوم ومن كان في حكمهم.

تظهرها لدهين بمظهر المرأة المتفوقة وتعود عليها مرة في الأسبوع بزيارة وزير بلجيكا حتى ليدش الكل بحق في المجتمع الصغير الذي كانت كوكبه الساطع إن علموا أنها تعد بلهاء في محيط آخر، لدى آل "الفيردوران" على سبيل المثال. وبسبب سرعة الخطر هذه، كانت السيّدة "سوان" تفضل مجتمع الرجال على مجتمع النساء. على أنها حينما كانت تنتقدهن فقد كانت تفعل دوماً بلسان المرأة اللعوب فتشير لدهين إلى العيوب التي يمكن أن تسيء إليهن لدى الرجال كالعلاقات الظاهرة والسحنة القبيحة والجهل بالإملاء والشعر الذي يغطي الساقين والرائحة الكريهة والحاجبين الكاذبين. ولكنها تبدي رقّة أكثر على العكس لتلك التي أبدت لها بالأمس تسامحاً ولطفاً ولا سيما إذا كانت هذه الأخيرة تعيسة. وتدافع عنها بمهارة وتقول: "الناس يظلمونها، فهي امرأة لطيفة بالتأكيد".

ولعل السيّدة "كوتار" وسائر الذين تردّدوا على السيّدة "دو كريسي"، لعلهم كانوا سيحدون مشقة لا في تعرّف أثاث صالة "أوديت" فحسب، بل في تعرّف "أوديت" نفسها إن لم يشاهدوها منذ فترة طويلة. فما أكثر ما تبدو أصغر صنّاً ممّا مضى بسنوات عديدة! ويعود ذلك جزئياً ولا شك إلى أنها سمّنت وبدا مظهرها، وقد أضحت أوفر عافية، أكثر هدوءاً وطراوة وإرتياحاً وإلى أن التسريحات الجديدة بفضل الشعور المألوسة كانت تضيف من جهة ثانية مزيداً من الاتساع على وجهها الذي تبعث الحيويّة فيه بوردرة وردية اللون وحيث تبدو وعيناها وملامحها الجانيّة، وهي شديدة البروز فيما مضى، تبدو الآن وكأنّها امتصّت بروزها بيد أنّ ثمة سبباً آخر لهذا التغير قوامه أن "أوديت"، إذ بلغت منتصف العمر، وجدت أخيراً أو هي ابتدعت لنفسها محبّاً شخصياً و"طابعاً" لا يتبدّل و"صنفاً من الجمال" ووضعت هذا النموذج الثابت، وكأنّه شباب أزلي، فوق ملامحها المفكّكة التي ظلّت زمناً طويلاً تحت رحمة نزوات الجسد المنطوية على المخاطرة والعجز والتي يزيد بها أقلّ تعب يمتدّ للحظة سنوات ونوعاً من الشيخوخة العابرة، فألفت لها كيفما اتّفق وجهاً مشتمّاً يومياً عديم الشكل فتاناً يوافق مزاجها وهيئتها.

كان "سوان" يحفظ في غرفته، بدلاً من الصور الجميلة التي يأخذونها الآن لزوجته حيث يسمح التعبير الغامض الظافر نفسه بالتعرّف، أيّاً كان الفسطان وكانت القبّة، إلى قوامها ومحبّاتها المظفرين، رسماً شمسيّاً صغيراً وقديماً وبسيطاً جدّاً، رسماً سابقاً لشخصيتها هذه يبدو فيها شباب "أوديت" وجمالها غائبين إذ هي لم تجدهما بعد. وليس من شك أنّ "سوان"، وقد ظلّ أميناً لمفهوم مختلف أو هو عاد إليه، كان يتذوّق في المرأة الشابة النحلية ذات العينين الحالمتين والملامح المتعبة والوقفة المتأرجحة بين المسير والجمود حسناً أقرب إلى نماذج "بوتيتشيلي"، فقد كان لا يزال يحبّ أن يبصر في زوجته نموذجاً من رسم "بوتيتشيلي". أمّا "أوديت" التي كانت تحاول، على العكس أن تجهد لا في إبراز ما لم يكن يروقها في شخصها وما ربّما كان "طابعها" في نظر أحد الفنانين، ولكنها تراه عيباً من وجهة نظرها كامرأة بل في التعويض عنه وفي تخفيته، فلم تكن تودّ سماع من يتحدث عن هذا الرسام. وكان "سوان" يملك منديلاً شرقياً بديعاً أزرق ووردياً لأنّه كان بالضبط منديل عذراء "عظمي يا نفسي"^(١). ولكن السيّدة "سوان" كانت لا تبغي ارتداءه. وقد

(١) الكلمات الأولى من ترنيمة دينية "magnificat"، والعذراء من لوحات "بوتيتشيلي".

سمحت مرة واحدة لزوجها أن يوصي لها على ثياب تغطيها أزهار البليس والترنشاو وعين الهدهد والحرّيسات من وحي لوحة الربيع الكائنة في مخزن "الربيع". وكان يطلب إلي أحياناً في المساء، وحين تكون متعبة، يطلب إليّ بصوت خفيض أن ألاحظ كيف كانت تكسب يديها الحالمتين، دون أن تنتبه لذلك، الحركة الدقيقة المضطربة بعض الشيء التي للعدراء وهي تغمس ريشتها في المعجبة التي يمدّها لها الملاك قبل أن تكتب على الكتاب المقدس الذي سبق أن خطّطت فيه عبارة "عظمي يا نفسي". ولكنّه يضيف قافلاً: "أحرص أن لا تقول لها ذلك، إذ يكفي أن تعرف الأمر حتى تفعل عكسه."

كان جسم "أوديت" الآن، فيما عدا لحظات التراخي غير المقصود هذه التي يحاول "سوان" أن يلقي فيها خطوط "بوتشيللي" الكتيبة، يرسم ضمن منظور قوام واحد يحيط به كلّ "خطّ" هَجَرٍ، بغية الالتصاق بتقاطيع المرأة، والدروب المتموجة وما تآ وغار على نحو مصطنع وتداخل الشرائط وتشتت أطرزة الماضي غير المتجانسة، ولكنّه عرف كذلك، حيثما تخطى تقاطيع الجسم فترسم انعطافات غير ذات جدوى قبل الخطّ نواقص الجسم والقماش سواء بسواء لقد اختفت الوسائد والمقعد المطويّ الذي من الطراز القبيح واندثرت معها تلك الصدرات ذات الأذيال التي أضافت طويلاً لـ "أوديت"، بتجاوزها التنورة وتصلبها بوساطة قضبان دقيقة، بطناً مستعاراً وأظهرتها بمظهر من رُكبت من قطع متنافرة لا يربط بينها أي طابع مميّز. لقد تخلّت عامودية الخطوط الحادة وانحناء الأعشاش من مكانها لثنية جسم يولي الحرير خفقات مثلما تضرب الماء جنبه البحر ويضفي على نسيج القطن الناعم تعبيراً إنسانياً الآن وقد تخلّص من طويل فوضى الأزياء البائدة ومن غلافها الغائم على هيئة شكل منظم حيّ على أنّ السيّدة "سوان" أرادت، بل عرفت كيف تحتفظ بأثر لبعض منها في صميم تلك التي حلّت محلّها. فحينما كنت لا أستطيع في المساء أن أعمل وكنت على يقين من أن جيلبرت في المسرح بصحبة صديقات لها كنت أذهب على نحو مفاجئ إلى منزل والديها فأجد السيّدة "سوان" في الغالب ترتدي ثوباً بيتياً أنيقاً تعترض تنورتها - وهي بتلك الألوان الجميلة العاتمة، من أحمر غامق أو برتقالي، التي تبدو وكأنها تتسم بدلالة خاصة لأنها لم تعد دراجة - تعترضها بخطّ مائل حاشية محزّمة عريضة من الدانتيل السوداء تذكر بكشاكش الأمس. وحينما اصطحبته في يوم ربيعي ما يزال بارداً إلى حديقة الحيوانات قبل خلافي مع ابنتها كان "فائض" صدرتها المفروض يلدو، تحت سترتها التي تفتحها بهذا القدر أو ذاك حسبما تعاني من الحرّ أثناء سيرها، وكأنّه قفا صدر يترأى لك، ولا وجود له، شبيه ببعض ما كانت ترتدي قبل بضعة سنوات وكانت ترغب أن تكتسب حواشيها هذا التفريّض الخفيف. وربطة عنقها - وهي من ذلك القماش السكوتلاندي الذي ظلّت مخلصة له ولكنها حققت ألوانه إلى حدّ بعيد (فأضحى الأحمر وردياً والأزرق ليلكيّاً) حتى ليخيّل إليك تقريباً أنّه من قماش التافتا المدعو عنق الحمام، وهو إذ ذاك أحدث الحديث - كانت ربطة عنقها معقودة تحت ذقنها دون أن تتسنّى رؤية المكان الذي ربطت به وعلى نحو يذكرك مرعاً "بسيور" تلك القبعات التي لم تعد دارجة. وربما كان كافياً أن تستطيع المثابرة على هذا النحو بعض الوقت حتى يقول الشبان وهم يحاولون فهم ملابسها: "أليس أن السيّدة "سوان" تمثّل عصراً بكاملة؟" ومثلما هي الحال في أسلوب جميل يراكم أشكالاً مختلفة

ويعزّز تقليداً خفياً كانت تلك الذكريات غير الواضحة في أثواب السيّدة "سوان" لصداري أو تجعيدات وأحياناً لنزعة تُكتم في الحال إلى "هيا إلى البحر" وحتى لتلميح بعيد وغامض إلى "إليّ أيها الشاب"، كانت تبعث خلف الشكل المحسوس الشبه غير المكتمل بأشكال أخرى أكثر قدماً ما كان بالإمكان العثور عليها فيه وقد تحقّقت على يد الخياطة أو مصمّمة الأزياء، ولكنّ المرء يفكر فيها دونما انقطاع، وتلفّ السيّدة "سوان" بشيء من النبل - وربما أدّت لا جدوى هذه الحلّي إلى أن تبدو وكأنها تستجيب لهدف يتجاوز النفعيّة ربّما بسبب الأثر الذي تحتفظ به من السنوات الماضية أو بسبب نوع من التفرّد في اللباس خاصّ بهذه المرأة كان يضيف على أكثر أثوابها اختلافاً هيئة العائلة الواحدة. كنت تحسّ أنها لا تلبس لراحة الجسم أو زينته فحسب، فقد كانت أثوابها تحيط بها وكأنها لبوس حضارة رقيقة اتخذت صفات روحية.

وحينما كان يقع على "جيلبيرت" التي كانت تقيم عسرونياتها عادة يوم استقبال أمّها أن تتغيّب بخلاف عاداتها وأستطيع من جرّاء ذلك الذهاب إلى استقبال السيّدة "سوان"، كنت أجدّها ترتدي أحد الفسطين الجميلة، وبعضها من التافتا، والبعض الآخر من الفايز أو المخمل أو حرير الصين أو الساتين أو الحرير، ولم تكن رخوة النسيج كالأثواب التي ترتديها في البيت على عاداتها ولكنّها ألّفت أجزائها وكأنّها للخروج خارجاً فكانت تضيف على بطالتها في المنزل ما بعد الظهر ذاك شيئاً من الرشاقة والنشاط. ولا شكّ أن قصّتها البسيطة الجريئة كانت تلائم قوامها وحرركاتها التي تبدو الأكمام وكأنّها تولّف لونها الذي يتبدّل بتبدّل الأيام وكأنّها يخيّل إليك أنّ في المخمل الأزرق عزيمة مفاجئة وفي التافتا الأبيض ليونة في العريكة وأن ضرباً من الاحتشام العظيم المملوء أناقة في طريقة مدّ الذراع قد اتخذ كيما يصبح مرئياً مظهر الحرير الصينيّ الأسود، مظهرًا تتألّق فيه بسمّة التضحيات العظيمة. ولكنّ تعقيد الحلّي التي لا فائدة منها عملياً ولا علّة وجود ظاهرة لها كانت تضيف إلى تلك الفسطين الزاهية في الوقت نفسه شيئاً من التجرّد والحلم والسرّ يتفق والكآبة التي كانت السيّدة "سوان" تحتفظ بها على الدوام في الزرقة على الأقلّ التي تحيط بعينيها وفي سلاميات يديها. وتحت وابل محالب الحظ التي من الياقوت الأزرق والسرخس الرباعي الأوراق الذي من المينا وأيقونات الفضية والقلائد الذهبية والتمائم التي من فيروز وسلاسل الياقوت الأحمر وكرات الياقوت الأصفر كان في الفسطين نفسه هذا الرسم الملون الذي يوالي حياته السالفة فوق "ردة" من القماش، وصف الأزرار الصغيرة هذه التي من الساتين والتي ما كانت تزرر شيئاً ولا يمكن فكّها وشرائط تحاول الإبهاج بدقة التركيز الرقيق واحتشامه، وكلّها تبدو، بقدر ما تبدو الحلّي تماماً - وليس لها فيما عدا ذلك ما يمكن أن يبررها، وكلّانها تكشف عن مقصد، كأنها عربون مودة، كأنها تحتبس سرّاً وتستجيب لخرافة وتحفظ ذكرى شفاء أو أمنية أو حب أو لعبة حبات اللوز. وأحياناً يضيفي ما يوحى بفتحة من طراز هنري الثاني في مخمل الصدار الأزرق وانتفاخ طفيف في فسطان الساتين الأسود إما أن يذكر في الأكمام قرب الكتفين بالثنيات المنفخة لعام ١٨٣٠ وإما أن يذكر على العكس تحت التنورة "بأقفاص" من طراز لويس الخامس عشر، يضيفي كلاهما على الفسطين مسحة خفية توحى بأنه حلّي رسمية ويمزجان بشخص السيّدة "سوان"، إذ يدسان تحت صفحة الحياة الحاضرة كأنما ذكريات مبهمّة من الماضي، فتنة بعض بطالات التاريخ أو الروايات.

فإن حملتها على ملاحظة الأمر قالت: "لست ألعب" الغولف" كالكثيرات من صديقاتي، ولن أعذر على الإطلاق إن لبست كنزة من الصوف مثلهن."

وفي القوضى التي تسود الصالة، كانت السيدة "سوان"، إذ تمر بالقرب مني وهي تعود من اصطحاب زائرة لوداعها أو تحمل صحناً من الحلوى لتقدمه لأخرى، كانت تنتحي بي جانباً مقدار ثانية: "لقد كلفتني "جيلبيرت" تكليفاً خاصاً بدعوتك للغداء بعد غد. ولما لم أكن متيقنة من مشاهدتك فقد كنت أزمع الكتابة إليك لو لم تحي". وظللت أقاوم. وكانت تلك المقاومة تشق عليّ أقل فأقل، إذ عبتاً يحب المرء السم الذي يؤذيه فهو لا يستطيع، بعدما تحرمه إياه ضرورة، أية ضرورة، منذ وقت بدأ يطول، إلا أن يولي بعض الأهمية للراحة التي بات من قبل لا يعرفها ولغياب الانفعالات وصنوف العذاب. ولئن لم يكن المرء صادقاً أيضاً إن قال إنه يود رؤيتها ثانية. فما من شك أنه لن يطيق غيابها إلا إذا منى النفس بقصره، إذ فكر باليوم الذي سيتم فيه اللقاء، على أن المرء يحس كم تصبح هذه الأحلام اليومية بقاء قريب لا ينفك يوجل أقل إيلاماً من لقاء يمكن أن تتبعه الغيرة إلى حد أن خبر العودة للقاء التي نجحها ربما خلف فينا انفعالا شديداً غير محبوب. وليس ما يوجه المرء الآن من يوم إلى يوم نهاية الضيق الذي لا يطاق الناجم عن الانفصال بل تجدّد نهائياً لانفعالات لا تؤدي إلى نتيجة. وكم نفضل على مثل هذا اللقاء الذكرى الطيبة التي نكملها على هوانا بأحلام تبوح فيها تلك التي لا تحين في الواقع، تبوح على العكس بهوانا حينما نكون وحدنا تماماً! لكم نفضل تلك الذكرى التي قد نفلح في جعلها عذبة بمقدار ما نبغتي إذا ما مزجنا فيها شيئاً فشيئاً الكثير مما نشتهي على اللقاء الموجل الذي نواجه فيه شخصاً لم نعد نملي عليه وفق مرادنا الأقوال التي نشتهيها بل لعلنا سنعاني من صنوف جفائه الجديد وسوء معاملته اللامتوقعة! إننا نعلم جميعاً، يوم لا نحب من بعد، أن النسيان وحتى الذكرى الغائمة لا يسببان مقداراً كبيراً من الآلام بقدر ما يسبب الحب التعيس وإنما كنت أفضل، دون أن أقر لنفسي بالأمر، العذوبة المريحة لمثل هذا النسيان المستبق.

إن ما يمكن أن يكون شاقاً في مثل هذه المعالجة باللامبالاة النفسية والعزلة إنما يتناقض أكثر فأكثر لسبب آخر قوامه أنها تضعف تلك الفكرة الثابتة التي هي الحب بانتظار أن تشفيها. وكان حبي لا يزال قوياً إلى حد كاف حتى أهتمّ باسترداد كامل هويتي في عيني "جيلبيرت"، حتى إن كل يوم من تلك الأيام الهادئة الحزينة التي لا أراها فيها والتي تتوالى الواحد تلو الآخر دونما انقطاع ودونما تقادم (حينما لا يدس مزعج أنفه في شؤوني) ما كان يوماً ضائعاً بل يوم أكسبه، ولا جدوى ربما من كسبه إذ يمكن أن يعلن عما قليل أنني شفيت. إن التسليم، وهو من نوع العادة، يسمح لبعض القوى بالتنامي إلى مالا حدود، والقوى اليسيرة التي توافرت لدي لاحتمال غمي في المساء الأول من خلافي مع "جيلبيرت" بلغت مذ ذاك قدرة لا تحد. على أن نزوع كل ما هو كائن إلى الامتداد إنما تعترضه أحياناً إغراءات مفاجئة تنساق وراءها ويزيد من أننا لا نتورع من الانسياق أننا نعلم كم من الأيام بل الشهور استطعنا، ولعلنا لا نزال نستطيع حرمان النفس. فغالبا ما نفرغ دفعة واحدة كيس النقود الذي نوفر فيه لحظة يوشك أن يمتلي، ونوقف العلاج دون أن نتنظر النتيجة

وبعدما تم لنا تَعُودُهُ ففِي يَوْمِ كَانَتِ السَيِّدَةُ "سَوَان" تَرُدُّ لِي فِيهِ أَقْوَالَهَا الْمَأْلُوفَةَ حَوْلَ الْغُبْطَةِ الَّتِي سَتَحِلُّ بِـ "جِيلِبِيرْت" لَوْ تَرَانِي، وَتَضَعُ بِهَذَا النَحْوِ السَّعَادَةَ الَّتِي كُنْتُ أَحْرَمَ نَفْسِي مِنْهَا مِنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ وَكَأَنَّمَا فِي مَتَنَاوِلِ يَدَيِ اضْطَرَبْتُ أَيْمًا اضْطَرَابَ إِذْ أَدْرَكْتُ أَنَّهُ لَا يَزَالُ بِالْإِمْكَانِ تَذُوقُهَا ؛ وَشَقَّ عَلَيَّ انْتِظَارُ الْغَدِ، فَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى الْمُبَادَرَةِ لِمَفْاجَأَةِ "جِيلِبِيرْت" قَبْلَ عَشَائِهَا. أَمَّا مَا أَعَانَنِي عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَدَى نَهَارٍ كَامِلٍ فَخُطَّةُ رَسْمَتِهَا. فَبِمَا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ ذَهَبَ طَيِّ النِّسْيَانِ وَأَنْتِي تَصَالَحْتَ مَعَ "جِيلِبِيرْت" لَمْ أَشَأْ أَنْ أَزُورَهَا مِنْ بَعْدِ إِلَّا بِثُوبِ الْعَاشِقِينَ. سَوْفَ تَصِلُهَا مِنِّي فِي كُلِّ يَوْمٍ أَجْمَلُ الْأَزْهَارِ. فَإِنَّ لَمْ تَسْمَحِ السَيِّدَةُ "سَوَان" مَعَهُ أَنَّهُ لَا يَحِقُّ لَهَا أَنْ تَكُونَ أُمًّا بِالْغَةِ الصَّرَامَةِ، بِإِرْسَالِ يَوْمِي لِلزُّهُورِ فَسَوْفَ أَلْقَى هَدَايَا أَعْلَى ثَمَنًا، فَفَكَّرْتُ فِي إِثَاءِ صَنِيعِي مِنَ الْحَزَفِ الْقَدِيمِ وَهَيْتَنِي إِيَّاهُ عَمَتِي "لِيُونِي" وَكَانَتْ أُمِّي تَتَنَبَّأُ عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِأَنَّ "فَرَانْسَوَاز" سَوْفَ تَجِيءُ إِلَيْهَا قَائِلَةً: "لَقَدْ افْتَرَطَ" وَلَنْ يَظُلَّ مِنْهُ شَيْءٌ أَفْلَمْ يَكُنْ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي هَذِهِ الظُّرُوفِ أَنْ أَبِيعَهُ، أَنْ أَبِيعَهُ كَيْ يُمْكِنَنِي تَوْفِيرُ كَامِلٍ مَا أُرِيدُ مِنْ مَتْعَةٍ لـ "جِيلِبِيرْت"؟ كَانَ يَدُودِي لِي أَنْتِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكْسِبَ بِهِ أَلْفَ فَرَنْكٍ وَأَمَرْتُ بِلَفَّةٍ. كَانَتْ الْعَادَةُ قَدْ حَالَتْ دُونَ أَنْ أَرَاهُ فَكَانَ لِفَرَاغِهِ الْفَضْلُ عَلَى الْأَقْلَى فِي أَنْتِي تَعْرِفْتُ بَعْ. وَحَمَلْتُهُ مَعِي قَبْلَ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْزِلِ "عَائِلَةِ سَوَان" وَحِينَمَا زُوِدْتُ الْحُوْذِيَّ بِالْعِنْوَانِ قُلْتُ لَهُ أَنْ يَجْعَلَ طَرِيقَهُ مِنَ "الشَّانْزِيلِيزِيَّةِ" وَفِي زَاوِيَتِهِ مَخْزُونٌ تَاجِرٌ أَوْانٌ صَنِيعِيَّةٌ كَبِيرٌ كَانَ يَعْرِفُهُ وَالِدِي وَقَدْ نَقَدْنِي فِي الْحَالِ، وَأَنَا فِي ذَهُولٍ شَدِيدٍ، لَا أَلْفَ فَرَنْكٍ مُقَابِلَ الْإِثَاءِ الصِّينِيِّ، بَلْ عَشْرَةُ آلَافٍ. وَأَخَذْتُ تِلْكَ الْأَوْرَاقَ النَّقْدِيَّةَ مُغْتَبِطًا. فَسَوْفَ أَسْتَطِيعُ عَلَى مَدَى سَنَةٍ كَامِلَةٍ أَنْ أَغْمُرَ "جِيلِبِيرْت" كُلَّ يَوْمٍ بِالْوُرُودِ، وَأَزْهَارِ اللَّيْلِكِ. وَعِنْدَمَا صَعِدْتُ إِلَى الْعَرَبَةِ بَعْدَ فِرَاقِ الْبَائِعِ، أَلْقَى الْحُوْذِيَّ نَفْسَهُ، عَلَى نَحْ وَطَبِيعِي جَدًّا، يَنْحَدِرُ فِي شَارِعِ "الشَّانْزِيلِيزِيَّةِ"، بِدَلَا مِنْ الطَّرِيقِ الْمَعْتَادَةِ، بِمَا أَنَّ عَائِلَةَ "سَوَان" كَانَتْ تَقْطُنُ بِالْقَرَبِ مِنَ "الْغَابَةِ". وَكَانَ قَدْ جَاوَزَ زَاوِيَةَ شَارِعِ "بِيرِي" حِينَمَا خَلَّتَنِي فِي الشَّفَقِ أَتَعْرِفُ "جِيلِبِيرْت" قَرِيبًا جَدًّا مِنْ مَنْزِلِ عَائِلَةِ "سَوَان" وَلَكِنَّمَا مَضَى فِي الْإِتِّجَاهِ الْمَعَاكِسِ، مُبْتَعِدَةً عَنْهُ وَتَسِيرُ بِخَطًى وَثِيْدَةٍ وَلَكِنَّمَا ثَابِتَةً إِلَى جَانِبِ شَابٍ كَانَتْ تَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ وَلَمْ أَتُمْكِنْ مِنْ تَمْيِيزِ وَجْهِهِ، وَارْتَفَعَتْ فِي الْعَرَبَةِ وَمَرَادِي أَنْ أَوْقِفَهَا ثُمَّ تَرَدَّدَتْ. فَقَدْ أَضْحَى الْمُتَنَزِّهَاتُ بِعِيدَيْنِ بَعْضُ الشَّيْءِ وَرَاحَ الْخَطَّانُ النَّاعِمَانِ الْمُتَوَازِيَانِ اللَّذَانِ يَخْطُطُهُمَا مَشَاوِرُهُمَا الْبَطْيَاءُ يَغْيِيَانِ فِي ظِلَامِ "الْإِيلِيزِيَّةِ". وَوَصَلْتُ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمَامَ مَنْزِلِ "جِيلِبِيرْت" فَاسْتَقْبَلَتْنِي السَيِّدَةُ "سَوَان" وَقَالَتْ لِي: "سَوْفَ تَغْتَمُ لِدَلِّكَ، وَلَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ أَنْهَا غَيْرُ حَاضِرَةٍ، لَقَدْ أَحْسَسْتُ بِحَرٍّ شَدِيدٍ مِنْذُ قَلِيلٍ فِي أَحَدِ الدَّرُوسِ فَقَالَتْ لِي إِنَّهَا تَبْغِي التَّفْسِيحَ قَلِيلًا مَعَ وَاحِدَةٍ مِنْ صَدِيقَاتِهَا." - "أُظُنُّ أَنَّي لِمَحْتَتَا فِي شَارِعِ الـ "الشَّانْزِيلِيزِيَّةِ". - "لَا أَظُنُّهَا كَانَتْ هِيَ. وَعَلَى أَيِّ حَالٍ لَا تَقُلْ ذَلِكَ لَوَالِدِهَا فَإِنَّهُ لَا يَحِبُّ أَنْ تَخْرُجَ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَاتِ Good Evening".^(١) وَذَهَبْتُ وَقُلْتُ لِلْحُوْذِيَّ أَنْ يَسْلُكَ الدَّرَبَ نَفْسَهُ وَلَكِنِّي لَمْ أَعُثِرْ عَلَى الْمُتَنَزِّهِينَ الْآثْنَيْنِ. فَأَيْنَ ذَهَبَا؟ وَمَاذَا كَانَ يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ فِي الْمَسَاءِ بِمَظْهَرِ التَّسَارُّ ذَاكَ.

وَعَدْتُ وَأَنَا أَمْسُكُ يَأْسًا بِالْعَشْرَةِ آلَافِ فَرَنْكٍ غَيْرِ الْمُؤَمَّلَةِ الَّتِي كَانَ لَا بَدَ لَهَا أَنْ تَمَكِّنَنِي مِنْ تَوْفِيرِ الْعَدِيدِ مِنَ الْمَتَعِ الصَّغِيرَةِ لـ "جِيلِبِيرْت" تِلْكَ الَّتِي صَمَمْتُ الْآنَ أَنْ لَا أَرَاهَا مِنْ بَعْدِ. وَمَا مِنْ

(١) وَرَدَتْ بِالْإِنْكِلِيزِيَّةِ فِي مَتْنِ النَّصِّ.

شك أن ذلك التوقف لدى بائع التحف الصينية قد ملائي غبطة إذ جعلني أمل أنني لن أرى صديقتي من بعد ألبتة إلا راضية عني وشاكرة على أنني لو لم أقم بذلك التوقف ولو لم تسلك العربة شارع "الشانزليزيه" لما كانت التقيت بـ "جيلبيرت" وبذلك الشاب. وهكذا تحمل الواقعة الواحدة أغصاناً متعاكسة والمصيبة التي تورثها تبطل السعادة التي سبق أن سببتها. لقد وقع لي عكس ما يتم في الكثير الغالب، فأنت تشتتهي متعة وتنقصك الوسيلة المادية لبلوغها لقد قال "لابروير": "من تعس الحال أن يحب المرء دون ثروة كبيرة. ولا يظل لك سوى أن تحاول القضاء شيئاً فشيئاً على الرغبة في تلك المتعة، أما فيما يخصني فقد تم لي على العكس الحصول على الوسيلة المادية ولكننا اختلست مني في اللحظة نفسها تلك الغبطة على الأقل من جراء نتيجة مباغتة لذلك النجاح الأولي، إن لم يكن من جراء أثر منطقي له ويبدو على أية حال أنه لا بد أن تختلس منا على الدوام. بيد أن ذلك لا يتم عادة، والحق يقال، في الأمسية نفسها التي اكتسبنا فيها ما يجعلها ممكنة. وفي أغلب الأحيان نوالي بذل الجهود والتأمل بعض الوقت. ولكن السعادة لا يمكن ألبتة أن تحصل. فإن أمكن التغلب على الظروف نقلت الطبيعة الصراع من الخارج إلى الداخل وحملت فؤادي على التبدل شيئاً فشيئاً بما يكفي ليرغب في غير ما سوف يمتلكه. وإن جاء التبدل سريعاً إلى حد أن فؤادنا على التبدل شيئاً فشيئاً بما يكفي ليرغب في غير ما سوف يمتلكه. وإن جاء التبدل سريعاً إلى حد أن فؤادنا لم يتسع له الوقت للتبدل فإن الطبيعة لا تفقد الأمل لذلك في التغلب علينا على نحو متأخر بالحقيقة وأكثر حذقاً ولكنه فعال إلى ذلك. حينذاك يُنتزع منا امتلاك السعادة في الثانية الأخيرة أو هو بالأحرى ذلك الامتلاك نفسه الذي توكل إليه الطبيعة بحلية شيطانية أن يهدم السعادة. فإنما تخلق الطبيعة، بعدما فشلت في كل ما كان في نطاق الوقائع والحياة، استحالة أخيرة، الاستحالة النفسية للسعادة. فظاهرة السعادة لا تتم أو تتسبب في أكثر ردود الفعل مرارة.

وشددت على العشرة آلاف فرنك ولكنها لم تعد تفيدني في شيء. وقد أنفقتها على أية حال على نحو أسرع مما لو بعثت كل يوم يزهور إلى "جيلبيرت"، فقد كنت أجدني حينما يحل المساء تعيساً إلى حد لا أستطيع معه البقاء في المنزل فأبادر إلى البكاء في أحضان نسوة ما كنت أحبهن. فأما أن أحاول إدخال السرور على قلب "جيلبيرت"، فإني ما عدت أتمنى ذلك، إذ العودة إلى منزل "جيلبيرت" ما كانت إلا لتعذبني حتى لقاء "جيلبيرت"، ولعله كان البارحة شديد العذوبة بالنسبة إلي، ما كان ليكفي من بعد، ذلك أنني كنت سأظل قلقاً طوال الوقت الذي لا أكون فيه بالقرب منها. وإنما ذلك ما يقضي إلى أن تزيد امرأة من سلطانها علينا وكذلك من مطلباتها إزاءها من جراء أي عذاب جديد تسببه لنا دون أن تدري في الغالب. وبفضل الأذى الذي ألحقته المرأة بنا تضيق علينا أكثر فأكثر وتضاعف من قيودنا وكذلك من تلك التي ربما بدا لنا كافياً حتى ذاك أن نكبلها بها حتى نحس أننا مطمئنون البال. ولعلني كنت أكتفي أمس فقط، لو لم أحسب أنني أزعج "جيلبيرت"، بالمطالبة بلقاءات قليلة، تلك اللقاءات التي ما عادت لترضيني الآن والتي لعلني كنت أستبدل بها شروطاً أخرى. ذلك لأن المرء في الحب يجعلها أكثر قسوة، بخلاف ما يجري بعد المعارك، ولا يبي يتشدد فيها كلما ألحقت به الهزيمة إن كان بالطبع في وضع يمكنه من فرضها. ولم تكن تلك حالي فيما يخص "جيلبيرت" ولذلك فضلت بادئ الأمر ألا أعود إلى منزل والدتها. لقد ظلمت

أقول لنفسي إن "جيلبيرت" لا تجنبي وإني أعلم ذلك منذ وقت طويل وإني أستطيع لقاءها من جديد إن شئت وأستطيع، إن لم أشأ، أن أنساها مع الأيام. ولكن تلك الأنكار، شأن دواء لا أثر له ضد بعض الإصابات، كانت مجردة من أية قدرة فعالة ضد ذنك الخطئين المتوازيين اللذين أعود فأراهما بين الحين والحين، خطي "جيلبيرت" والشاب وهما يغيبان بخطي وثيدة في شارع "الشانزليزية". كان ذاك داء جديداً سوف يلحق به الوهن في النهاية، كان صورة سوف تراود خاطري ذات يوم وقد تخلصت من كل ما كانت تحوي من ضرر، كمثل تلك السموم القاتلة التي يتداولها المرء دون خطر، وكمثل قليل من الديناميت يستطيع المرء أن يشعل منه سيكارتته دون أن يخشى الانفجار. وفي غضون ذلك كان في داخلي قوة أخرى تناضل بكامل قدرتها ضد تلك القوة الضارة التي كانت تمثل لي دون تغيير مشوار "جيلبيرت" في المساء: فقد كان خيالي يعمل باتجاه معاكس وعلى نحو مفيد كي يحطم هجوم ذاكرتي المتجدد. كانت أولى تلك القوتين توالي بالتأكيد إبراز ذنك المتنزهين في شارع "الشانزليزية" أمام ناظري وتقدم لي صوراً أخرى مزعجة مقتبسة من الماضي، كـ "جيلبيرت" على سبيل المثال وهي ترتفع بمنكبيها حينما كانت والدتها تطلب منها المكوث معي. ولكن القوة الثانية كانت تعمل على مصوّر آمالي فترسم مستقبلاً أكثر اتساعاً وتساهلاً من ذلك الماضي الضيق والمحدود جداً. ففي مقابل دقيقة أرى فيها "جيلبيرت" متجهمة - كم كان ثمة من دقائق أدير فيها مسعى يمكن أن تقوم به في سبيل مصالحتنا وربما خطوبتنا! صحيح أن هذه القوة التي كان الخيال يوجهها نحو المستقبل إنما كان يستقيها مع ذلك الماضي. فبقدر ما سيزول انزعاجي من أن "جيلبيرت" ارتفعت بمنكبيها، بذلك القدر سوف تتناقص كذلك ذكري فتنتها، الذكري التي كانت تجعلني أتمنى أن تعود إلي. على أنني كنت لا أزال بعيداً جداً عن موت الماضي هذا. فقد كنت لا أزال أحبّ تلك التي كنت أحسب بالحقيقة أنني أكرهها. كنت أود أن تكون حاضرة في كل مرة يحدوني فيها حسن التسريحة وبأحسن عافية. وكنت أغضب من الرغبة التي أبدتها العديد من الناس في ذلك الوقت في استقبالي لديهم ورفضت الذهاب. ووقع شجار في المنزل لأنني لم أصحب والدي إلى عشاء رسمي كانت تعزّم حضوره عائلة "بونتان" برفقة ابنة أخ لها تدعى "البيرتين" وهي صبية صغيرة لا تزال طفلة تقريباً. إن فترات حياتنا المختلفة تتداخل على هذا النحو الواحدة في الأخرى. فأنت ترفض بازدياد، من جراء ما تحب وما سوف يلدو لك في يوم غير ذي بال إلى حد بعيد، أن ترى ما لا تكثرت له اليوم وما ستحبه في الغد وما ربما أمكن أن تحبه قبل ذلك، لو قبلت أن تراه، وكان قصّر بذلك عذابك الراهن ليحل محله بالحقيقة عذاباً آخر. أما عذابي فكان أخذاً في التحول، فقد كنت أدهش أن ألمح في أعماق ذاتي هذا الشعور في يوم، وشعوراً آخر في اليوم التالي يوحى بهما بعامة هذا الأمل أو تلك الخشية المتعلقان بـ "جيلبيرت"، "جيلبيرت" التي كنت أحملها في صدري. كان يجدر بي أن أقول لنفسي إن الثانية، إن "جيلبيرت" الحقيقية ربما كانت مختلفة تمام الاختلاف عن تلك وتجهل جميع صنوف الأسف التي أعزوها إليها وتفكر فيّ على الأرجح لا أقل مما أفكر فيها فحسب بل ممل أجعلها تفكر فيّ حينما أكون وحيداً مع "جيلبيرت" الوهمية وأبحث عما يمكن أن تكون نواياها الحقيقية تجاهي وأتخيلها على هذا النحو تصرف انتباهها على الدوام إليّ.

وفي أثناء هذه الفترات التي يستمر فيها الغم فيما هو آخذ في التناقص لابد من التمييز بين الغم الذي يسببه لنا التفكير المستمر بالشخص نفسه وذاك الذي توقظه بعض الذكريات، كمثل جملة لاذعة قيلت أو فعل استخدم في رسالة وصلتنا، ولنقل، ونحن نستبقي أشكال الغم المختلفة لوصفها بمناسبة حب لاحق، إن أول هذين الشكليين أقل قسوة من الثاني بما لا يقاس. ومرد ذلك أن الفكرة التي نحملها عن الشخص إنما تزينها، إذ هو يعيش باستمرار فينا، الهالة التي لا نلبث أن نعيدها إليه وتنطبع على الأقل بهدوء حزن مقيم إن لم تطبعها عذوبة الأمل المتكرر. (ولابد لنا، على أية حال، أن نلاحظ بأن صورة الشخص الذي يعذبنا إنما تشغل حيزاً ضيقاً في تلك التعقيدات التي تزيد من خطورة غم ناجم عن الحب وتطيل فيه وتحول دون شفائه، مثلاً أساس بعض العلل بعيد عن أن يقاس بالحمى التي تنجم عنه والبطء في بلوغ النقاهة). ولئن انعكس على فكرة الشخص الذي نحبه وهج فكر متفائل بعامة، فما ذلك شأن تلك الذكريات الخاصة، تلك الأقوال اللاذعة، تلك الرسالة العدائية (إذ لم أتسلم سوى رسالة واحدة من هذا القبيل من "جيلبيرت")، ولكأنما يقيم ذلك الشخص نفسه في هذه الأجزاء الضيقة إلى حد بعيد وقد بلغ من القوة ما يصعب أن يبلغه في الفكرة المألوفة التي نكوّنها عنه بكليته. ذلك أننا لم نتأمل الرسالة، كما هو شأن المحبوب، في هدوء الأسف الحزين؛ لقد قرأناها والتهمناها يلفنا القلق الفظيع الذي يعترينا من جراء مصيبة غير متوقعة. أما تكون هذا الضرب من الغموم فمختلف. إنها تأتينا من الخارج وقد اتخذت إلى فؤادنا درب العذاب الأكثر قسوة إن صورة صديقتنا التي نظننها قديمة وأصيلة إنما أعيد في الواقع رسمها مرات عديدة على يدنا. أما الذكرى القاسية فلا تزامن تلك الصورة التي تم إصلاحها، فهي من عصر آخر وأحد الشهود القلائل على ماضي رهيب. وبما أن ذلك الماضي مستمر الوجود ماعداً فينا، نحن الذين راقهم أن يحلوا محلّه عصرًا ذهبيًا رائعًا وفردوساً سوف يتصالح فيه الجميع، فإن تلك الذكريات وتلك الرسائل تذكير بالواقع ويحذر بها أن تجعلنا نحس من جراء الألم المفاجئ الذي تخلفه فينا إلى أي حد نحن بعيدون عنه داخل جنون آمال انتظاراتنا اليومية، وليس يعني ذلك أن هذا الواقع ينبغي أن يظل على الدوام واحداً، مع أن الأمر يتفق أحياناً. ثمة نساء كثيرات في حياتنا لم نحاول أن نعود للقائهن في يوم وقد رددن بالطبع على صمتنا غير المقصود على الإطلاق بصمت مماثل، ولكننا لما كنا لا نجبهن فلن نعد السنوات التي قضيناها بعيداً عنهن، غير أننا لا نبالي بذلك المثال الذي ربما أبطله حينما نتفكر في فعالية العزلة كما لا يبالي أولئك الذين يعتقدون بالحدس بجميع الحالات التي لم يصدق فيها حدسهم.

على أن البعد يمكن أن يكون فعالاً، فالرغبة والتوق إلى لقاء جديد يعودان فيولدان في النهاية في القلب الذي يتجاهلنا حالياً. ولكن لابد لذلك من وقت، وليست متطلباتنا فيما يخص الزمان أقل حجماً من تلك التي يطالب بها القلب ليتبدل ولكن الزمن بالضبط أقل ما يسهل علينا إعطاؤه لأن عذابنا قاس ونحن نستعجل حلول نهايته. ثم إن هذا الزمن الذي يحتاج إليه القلب الآخر ليتبدل سوف يستخدمه قلبنا ليتبدل بدوره وما إن يصبح الهدف الذي وضعناه نصب أعيننا قريب المنال حتى يكف عن كونه هدفاً بالنسبة إلينا. فضلاً عن ذلك فإن الفكرة التي مفادها أنه سيضحي قريب المنال وأن ليس من سعادة إلا وبلغها في النهاية حينما لا تبدو من بعد في نظرنا على أنها سعادة، إن

تلك الفكرة تتضمن جزءاً من الصحة، ولكنه جزء فحسب. إنه يضحي من نصيبنا بعدما أصبحنا لا نبالي به. ولكن هذه اللامبالاة جعلتنا بالضبط أقل تشدداً، وهي تمكننا من الاعتقاد بعد الأوان أنه ربما أبهجنا في فترة لعله كان يبدو لنا فيها ناقصاً إلى حد بعيد. فليس المرء متشدداً جداً ولا حكماً صالحاً جداً في مالا يهتم به. وإن لطافة شخص لم نعد نحبه، ولا تزال تبدو مفرطة بالنسبة إلى لامبالائنا، ربما قصرت كثيراً في إرضاء حبننا. إننا نفكر في المتعة التي ربما حملتها لنا تلك الأقوال الرقيقة وذلك الوعد باللقاء. لا بجميع الأقوال والوعود التي وددنا لو تتعها في الحال والتي ربما حلنا دون أن تُنجز من جراء طمعنا، حتى لا يبدو أكيداً أن السعادة التي جاءت في وقت متأخر جداً حينما لا نستطيع من بعد التمتع بها وحينما لم نعد نحبه، هي السعادة نفسها تماماً التي جعلنا فقدانها فيما مضى في تعاسة شديدة. ثمة شخص وحيد يستطيع أن يفصل في الأمر، إنه أنا في ذلك الحين، ولم تعد ههنا؛ ولعله لاشك يكفي أن تعود حتى تضمحل السعادة، سواء أكانت مماثلة أم لا.

وبانتظار أن تتم بعد فوات الآوان هذه التحقيقات لحلم ربما ما اهتممت به من بعد، أخذت سلسلة من الصور العذبة المتجددة باستمرار، لشدة ما أبتلغ، شائي يوم كنت لا أكاد أعرف "جيلبيرت"، أقوالاً ورسائل تلتبس فيها العفر مني وقرر أنها لم تحب في يوم سواي وتطلب الزواج مني، أخذت في النهاية تحتل في ذهني مكاناً أوسع من صورة "جيلبيرت" والشاب التي لم يعد شيء يغذيها. ولعلني ربما عدت مذ ذاك إلى منزل السيدة "سوان" لولا حلم واقائي وكان أحد أصدقائي، مع أنه ليس في عداد من كنت أعرفهم أصدقاء لي، كان يتصرف إزائي بأعظم قدر من الزيف، ويعتقد أنني أقابله بالمثل. وإذ استيقظت على نحو مفاجئ من جراء الألم الذي سببه لي هذا الحلم ورايت أنه مستمر، عدت أفكر فيه من جديد وحاولت أن أتذكر من كان الصديق الذي رأيت في نومي والذي لم يعد اسمه الأسباني واضحاً. وشرعت أفسر حلمي وأنا يوسف وفرعون في الآن نفسه. كنت أعلم أنه ينبغي في الكثير منها ألا نأخذ في الحسبان حتى مظهر الأشخاص الذين ربما كانوا متكرين أو هم تبادلوا وجوههم شأن هؤلاء القديسين المشوهين في الكاتدرائيات والذين أعاد صنعهم علماء آثار جاهلون فوضعوا فوق جسم هذا الرأس ذاك وخلطوا بين صفاتهم وأسمائهم. فأتا ما يحمل الأشخاص منها في حلم فيمكن أن يخدعنا، وينبغي أن نتعرف إلى الشخص الذي نحبه من جوارء شدة الألم الذي عايناه. وقد أنبأني ألمي أن الشخص الذي ما زال يؤلمني زيفه القريب كان "جيلبيرت" التي انقلبت شاباً في أثناء نومي. وقد تذكرت آنذاك أنها رفضت، وهي تضحك ضحكة عربية، أن تصدق نواياي الطيبة فيما يخصها إما صادقة وإما متظاهرة بذلك، في آخر مرة رأيتها فيها يوم منعها أمها من الذهاب إلى حفلة راقصة بعد الظهر. وقد جرّت تلك الذكرى أخرى ثانية في ذاكرتي بطريق التداعي. كان "سوان" من رفض قبل ذلك بكثير أن يؤمن بصدق ما أقول وبأنني كنت صديقاً مخلصاً لـ "جيلبيرت". وعيناً كتبت له فقد حملت "جيلبيرت" رسالتي وأعادتها لي بالضحكة الغامضة نفسها. على أنها لم تعد لي في الحال وقد تذكرت كامل المشهد خلف دغل شجيرات الغار. والمرء يصبح أخلاقياً حالما يضحي تيساً. وقد بدا لي نفور "جيلبيرت" الحالي مني بمثابة عقاب تنزله الحياة بي بسبب المسلك الذي سلكته في ذلك اليوم. فالمرء يظن أنه يتجنب

صنوف العقاب لأنه ينتبه للسيارات لدى اجتياز الشارع وأنه يتجنب المخاطر. ولكنّ منها ما كان باطنياً. فالحادث يحيي من الجهة التي ما فطنت لها، من الداخل، من القلب. لقد أثارت كلمات "جيلبيرت": "فلنوال العراك، إن شئت" الاشمئزاز في نفسي. وتخيّلتها على تلك الصورة، ربّما في منزلها، في حجرة الثياب، مع الشاب الذي أبصرته برفقتها في شارع "الشانزليزيه". وهكذا كنت مجنوناً، الآن وقد عدلت عن أن أكون سعيداً، أن أضع موضع اليقين أنني أصبحت، أنه يمكن أن أصبح على الأقل هادئ النفس، بقدر ما ظننت (منذ وقت قليل مضى) أنني أقيم ناعم البال في السعادة. فما دام قلبنا يحتبس على نحو مستديم صورة كائن آخر، فإن ما يمكن أن يهدم في كل لحظة لا يقتصر على سعادتنا فحسب، فإنّ ما يبدو، بعدما تتلاشى تلك السعادة، بعدما تعذبنا ثم أفلحنا في تخدير عذابنا، خداعاً وزائلاً بقدر ما كانت السعادة نفسها إنّما هي راحة البال. وقد عادت إلّي راحة البال في نهاية المطاف، لأنّ ماداخل عقلنا بفضل أحد الأحلام فبدّل حالتنا النفسية ورغباتنا إنّما يتلاشى بدوره شيئاً فشيئاً: فليس الاستمرار والديمومة وفقاً على أيّ أمر، ولا حتى على العذاب. وإن الذين يتعذبون من جرّاء الحبّ هم، على أيّ حال، أطباء أنفسهم، مثلما يروى عن بعض المرضى. فإذا لا يمكن أن يجيئهم عزاء إلا من الكائن الذي يسبّب عذابهم وأن ذلك العذاب صادر عنهم فإنما يجدون في هذا العذاب في النهاية دواءً لهم، فهو الذي يكشف لهم عنه في لحظة معينة، إذ أن ذلك العذاب يُبرز لهم، كلّما حرّكه في داخلهم، مظهر آخر للشخص المأسوف عليه، وهو مقيت تارة حتى ليفقد المرء الرغبة في لقاءه لأنه يجدد به أن يعذبه قبل أن يستمتع معه، وطوراً عذب حتى لتوليه فضل العذوبة التي تسببها عليه وتتخذ منها مدعاة للأمل. ولكن عينا هذا العذاب الذي تجدد في داخلي في نهاية المطاف. فلم أشأ من بعد العودة إلى منزل السيّدة "سوان" إلّا نادراً. ذلك بادئ الأمر لأنّ شعور الانتظار لدى الذين يحبون ثم هُجروا حتى الانتظار الذي لا يقرون به والذي يعيشون فيه إنّما يتحوّل من تلقاء ذاته وإنه، وإن يكن في الظاهر مماثلاً لذاته، لتتبع حالة أولى بأخرى ثانية تناقضها تماماً. أما الأولى فكانت نتيجة الأحداث المؤلمة التي سبق أن أثارت قلقنا وانعكاساً لها، فإن انتظار ما يمكن أن يجري يمتزج بالرهبة، رهبة تزداد بمقدار ما نرغب في ذلك الحين أن ننشط بأنفسنا، إن لم يجئنا جديد من جهة تلك التي نحبّها، ولسنا ندري أيّ نجاح سيكلّل مسعى ربّما لم يعد من الممكن بعده مباشرة مسعى آخر. على أن انتظارنا الذي يتوالى إنّما يحكمه بعد فترة، حسبما رأينا، ودون أن نتنبه للأمر، الأمل في مستقبل وهمي لا ذكرى الماضي الذي عانينا وطأته. ويكاد يصبح مذ ذاك ممتعاً. ثم إن الأوّل عودنا، إذ يدوم بعض الشيء أن نعيش في ترقب. فالعذاب الذي كابدها أثناء لقاءاتنا الأخيرة لا يزال حيّاً في صدورنا ولكنّه في غفوة. وليس ما يستعجلنا إلى تجديده، يضاف إلى ذلك أنّنا لا نرى تماماً ما يمكن أن نطلبه الآن. فإن امتلاك شيء يسير إضافي في المرأة التي نحبّها لن يفضي إلا إلى جعل مالا نملكه أكثر ضرورة ويطلّ هذا الأخير مع ذلك أمراً متعذّر الانقاص لأنّ حاجتنا إنّما تنبثق من إشباع رغباتنا.

وبعد ذلك انضاف سبب أخير للسبب ذاك كي يحملني على قطع زيارتي للسيّدة "سوان" قطعاً تاماً. وما قوام هذا السبب المتأخّر أنّي نسيت "جيلبيرت" بل محاولة لئسائها على نحو أسرع. وما من شك أنّ زيارتي لدى السيّدة "سوان"، منذ انتهى عذابي الكبير، عادت فأصبحت، بالنسبة إلى ما

ظلّ لديّ من حزن، المهدئ والسلوى الذين كانا عظيمي الفائدة لي في البداية. ولكن السبب في فعالية الأوّل كان يقضي إلى ضرر الثانية، عني أن ذكرى "جيلبيرت" كانت تختلط بتلك الزيارات اختلاطاً حميماً. وما كانت السلوى لتفيدني إلا إذا جعلت أفكاراً ومصالح وأهواء لا دخل لـ "جيلبيرت" بها في صراع مع عاطفة لم يعد وجود "جيلبيرت" يغذيها. وتشغل تلك الحالات النفسية التي يظلّ فيها الشخص المحبوب خارج دائرتها، تشغل إذ ذاك حيزاً يقطع، مهما كان هيناً في البداية، من الحب الذي كان يشغل النفس بكليتها. ولا بدّ أن نجهد في تغذية هذه الأفكار وتنميتها، فيما تتضاءل العاطفة التي لم تعد سوى ذكرى، حتى تنافسها العناصر الجديدة التي أدخلت في الذهن وتنتزع منها قسماً من النفس يتنامى حجماً وتختلسها في النهاية كاملة منها. لقد اتضح لي أنها الطريقة الوحيدة في القضاء على الحب، وكنت لا أزال على قسط من الشباب والشجاعة كافٍ لأقدم على ذلك العمل ولأتحمل أقسى أنواع العذاب الذي يولد من اليقين بأننا سوف نفلح مهما انبغى أن ننق من وقت في ذلك، إن السبب الذي كنت أطرحه الآن في رسائلي إلى "جيلبيرت" بصدد إعراضي عن لقائهما كان تلميحاً إلى سوء تفاهم غامض ووهميّ تماماً وقع بينها وبينى وكنت عقدت باديء الأمر آملاً بأن "جيلبيرت" سوف تطلب مني إيضاحات حوله بيد أنه لا يقع بالحقيقة حتى في أكثر العلاقات تفاهة في الحياة أن يلتمس مراسل إيضاحاً وهو يعلم أن جملة غامضة كاذبة مُتَّهَمَةٌ قد وُضِعَتْ عن قصد كيما يحتجّ، ويسعده جدّاً أن يشعر أنه يقبض بذلك على زمام المبادرة في العمليّات - كما وأن يحتفظ به - والأمر من باب أولى كذلك في علاقات أكثر رقة يتمتع فيها الحب بالكثير من البلاغة واللامبالاة بالقليل من الفضول. ولمّا لم تشكك "جيلبيرت" في سوء التفاهم ذاك لم تحاول معرفته فقد أضحي في نظري أمراً واقعاً أرجع إليه في كلّ رسالة. وهنالك في تلك المواقف المتخذة زوراً في تصنّع الجفاء تأثير سحريّ يحملك على المثابرة عليها فقد بلغ بي الأمر، لكثرة ما أكتب: "منذ أن تباعد قلبيانا" بغية أن تحييني "جيلبيرت": "ولكنهما لم يتابعدا، فلنتصارح"، أن أيقنت أنهما على تلك الحال. وإذا كنت أرذد دوماً: "ربما تبدلت الحياة بالنسبة إلينا ولكنها لن تمحو العاطفة التي خالجتنا" رغبة مني في أن أسمعها تقول لي: "ولكن لم يتبدل شيء أبداً وتلك العاطفة أقوى مما كانت في يوم"، فقد أخذت أعيش مع فكرة أنّ الحياة قد تبدلت بالفعل وأننا سوف نحتفظ بذكرى العاطفة التي لم تعد موجودة، مثلما يبلغ الأمر ببعض عصبيّ المزاج أن يظلوا مرضى على الدوام لأنهم تظاهروا بالمرض. لقد أخذت أرجع الآن في كلّ مرة يقع عليّ فيها أن أكتب إلى "جيلبيرت" إلى ذلك التبدل المتخيّل والذي سيظلّ وجوده قائماً بيننا منذ أن أقرت به ضمناً بالصمت الذي تلتزمه بهذا الشأن في إجاباتها. ثمّ كُفّت "جيلبيرت" عن الاكتفاء بالتورية، وأقرت بنفسها وجهة نظري. ومثلما هو الأمر في الانتخاب الرسمى التي يُعيد فيها رئيس الدولة الذي يرحب به، لم يكن يفوت "جيلبيرت"، في كلّ مرة أكتب إليها: "لقد استطاعت الحياة أن تفرّق بيننا ولكن ذكر الزمن الذي تعارفنا فيه سيدوم"، أن تحجب: "لقد استطاعت الحياة أن تفرّق بيننا ولكنّها لن تستطيع أن تنسينا الساعات الحلوة التي ستظلّ دوماً عزيزة علينا" (ولعلنا كنّا سنرتبك كثيراً في أن نقول لماذا فرقت "الحياة" ما بيننا وأيّ تبدل حدث). ولم أعد أتعب عذاباً مفرطاً. إلا أنني لم أستطع، في يوم كنت أقول لها في رسالة إنني علمت بوفاة بائعة السكر النباتي العجوز في

"الشانزليزية"، لم أستطع، بعدما فرغت من كتابة هذه الكلمات: "ظننت أن ذلك قد ألمك، أما أنا فقد حرّك الكثير من الذكريات في صدري"، أن أملك نفسي عن الإجهاش بالبكاء إذ رأيتني أتحدّث بصيغة الماضي عن ذلك الحبّ، وكأنما الأمر أمر ميت أصبح منسياً تقريباً، ذلك الحبّ الذي لم أنفكّ غضباً عنّي عن التفكير به في يوم على أنه حيّ، على أنه يستطيع على الأقلّ أن ينبعث من جديد. وليس أرقّ من تلك المراسلة بين أصدقاء لا ييغون من بعد لقاء. كانت رسائل "جيلبيرت" في رقّة تلك التي كنت أكتبها لمن لا أبا لي بهم، وكانت تزوّدني بعلامات الحنان الظاهرة نفسها التي أستعذب كثيراً ورودها منها.

على أنّ كلّ إحجام عن لقاءها أخذ يهون شيئاً فشيئاً من اغتنامي. ولما أصبحت أقلّ معزّة لديّ لم يعد للذكرياتي المؤلمة من القوّة ما يكفي لتهدم في ارتدادها غير المنقطع تكون المتعة الناجمة لديّ عن التفكير في "فلورانس" والبندقية. وأخذت أسف في تلك الفترات أنّي أعرضت عن الدخول في السلك الديبلوماسيّ وأنّ صنعت لنفسني حياة اللاترحال كي لا أبتعد عن شابة ربّما لن أراها من بعد وقد نسيته تقريباً. إننا بنينا حياتنا من أجل شخص معين، فإنّ أن لنا أخيراً أن نستقبله فيها لم يأت ذلك الشخص، ثم هو يموت بالنسبة إلينا ونعيش سجناء داخل ما لم يكن معدّاً إلّا له. ولئن بدت البندقية بعيدة جدّاً بالنسبة إلى والديّ وكثيرة الحمى بالنسبة إليّ فقد كان من السهل على الأقلّ أن أذهب دونما تعب للإقامة في "بالبيك". بيد أنّه كان لابدّ لذلك من مغادرة باريس والتخلّي عن تلك الزيارات التي كنت أسمع بفضلها، مهما كانت قليلة، السيّد "سوان" تحدّثني أحياناً عن ابنتها. وقد شرعت أجد فيها على آية حال هذه المتعة أو تلك مما لا دخل لـ "جيلبيرت" فيه.

وحينما اقترب الربيع يعيد البرد ثانية في زمن القديسين الذين من جليد وصقيع أسبوع الآلام اتفق لي كثيراً، إذ ترى السيّد "سوان" أنّ البرد قارس لديها، أن أشهدا تستقبل وهي في فراثها وقد اختفت يداها تحت غطاء أبيض مثألّى لكمّ ضخّم مستو وياقة - وكلاهما من فرو القاقوم - لم تخلعهما السيّد "سوان" وكانا يبدوان وكأنهما آخر مربعات من ثلوج الشتاء أكثر ثباتاً من غيرها ولم تغلح حرارة النار ولا تدرّج الفصل في إذابتها. وكانت توحني إليّ بالحقيقة الكاملة لتلك الأسابيع الصقيعية التي بدأت مع ذلك بالازهار صنف أخرى من البياض في هذه الصالة التي لن أرتادها من بعد، صنف أبعث للنشوة كيباض "الكراوات الثلجية" مثلاً التي تجمع فوق قعّة سوقها الطويلة العارية، كمثّل الشجيرات التي على شكل خطّ دقيق في أعمال الذين سبقوا "رفائيل"، كراتها المجزّأة والمتحدة مع ذلك، كراتها البيضاء بياض ملائكة البشارة والتي تلفّها رائحة الليمون. ذلك أنّ سيّد قصر "تانسونفيل" كانت تعلم أن نسيان لا يخلو من الزهور وإن جاء شديد البرودة، وأنّ الشتاء والربيع والصيف لا تفصل بينها حواجز في إحكام ما يذهب إليه رجل الشارع الذي يتصوّر العالم حتى فترات الحرّ الأولى وكأنه لا يحوي سوى بيوت عارية تحت المطر. وما كنت لأدعي ولا أكثرث بأن السيّد "سوان" تكتفي بما يبعث إليها بستانيتها من "كومبريه" وأنها لا تسدّ الثغرات الناجمة عن إحياء غير كافٍ بفضل اقتباسات من بواكير متوسّطة على يد بائعة زهورها المفضّلة. فقد كان يكفيني كيما يهزّني الحنين إلى الريف أن تذكّرني "الكراوات الثلجية" (التي ما كان لها ربّما

من هدف في ذهن سيدة البيت سوى أن تولّف مع أئانها وأثوابها، بناء على مشورة "بيرغوت"، "سمفونية يزهر فيها اللون الأبيض"، إلى جانب تلج الكمّ الذي تحمله السيّدة "سوان"، بأنّ سحر "الجمعة العظيمة" يمثل أعجوبة طبيعيّة يمكن مشاهدتها في كلّ عام لو كنّا أكثر تعقّلاً، وأنّ تجعل صالة السيّدة "سوان"، يعينها في ذلك عطر لاذع مدوّخ لتويجات أنواع أخرى كنت أجهل أسماءها وكثيراً ما استوقفتني في نزهااتي في "كومبريه"، أن تجعلها في مثل نقاء منحدر "تانسونفيل" الصغير، في مثل بياض زهره الذي بلا أوراق، وتزخر مثله بروائح حقيقيّة.

بيد أن استذكار ذاك المنحدر كان لا يزال من قبيل الإفراط، إذ كان يحتمل أن تغدّي ذكره القليل الذي بقي من حييٍّ لـ "جيلبيرت". ولذلك باعدت أكثر ما بين زيارتي للسيّدة "سوان"، مع أنني لم أعد أتعبد ألّبتة في أئانها، وحاولت أن أراها أقلّ ما يمكن. كنت أسمح لنفسي على الأكثر ببعض النزاهات برفقتها بما أنني مستمرّ في الامتناع عن مغادرة باريس. وأخيراً عاد الصبح، وعاد الدفء. ولما كنت أعلم أن السيّدة "سوان" تخرج خلال ساعة قبل الغداء وتمضي لتقوم ببضع خطوات في شارع "الغابة" بالقرب من ساحة "النجمة" ومن المكان الذي كانوا يدعونه إذ ذاك، بسبب من كانوا يجيئون لمشاهدة الأغنياء الذين لا يعرفونهم إلّا باسم، نادي "المُعذّمين"، حصلت من والديّ أن أستطيع تناول طعام الغداء نهار الأحد - لأنّه لم يكن لديّ فراغ في تلك الساعة أثناء الأسبوع - بعدهم بكثير في الساعة الواحدة والربع وأن أقوم بحولة قبل ذلك. ولم يفتني ذلك في يوم على مدى شهر أيّار ذاك لأنّ "جيلبيرت" قد ذهبت إلى الريف لدى صديقات لها. كنت أصل إلى "قوس النصر" قرابة الظهر، وأقوم بالمراقبة على مدخل الشارع ولا أحوّل عينيّ عن زاوية الشارع الصغير التي تجيء منه السيّدة "سوان" من بيتها، إذ لا يقع عليها سوى اجتياز بضعة أمتار. ولما كانت تحين إذ ذاك الساعة التي يعود فيها كثير من المتنزهين لتناول طعام الغداء فإن عدد المتبقين كان قليلاً ومن أرباب الأناقة في قسمة الأكبر. وفجأة كانت تظهر السيّدة "سوان" على رمال الممر متأخرة مبطلّة زاهية كأجمل زهرة لن تتفتح إلا ظهراً، وتنشر من حولها أثواباً مختلفة على الدوام ولكنني أذكرها خبّازية على وجه الخصوص. ثم هي ترفع وتنشر فوق معلاق طويل، في لحظة أوسع فترة من إشعاعها الصّوّان الحريري لشمسيّة واسعة من ذات لون تتأثر بثلاث فسطانها. وكانت تحيط بها حاشية كاملة يؤلّفها "سوان" وأربعة أو خمسة من رجال المنتديّات جاؤوا في الصباح لزيارتها في منزلها أو هي التقت بهم؛ وكانت جمهرتهم السوداء أو الرماديّة المطوّعة تؤدّي حركات آليّة تقريباً لإطار جامد يحيط بـ "أوديت" فتضفي على هذه المرأة التي كانت تتمتع وحدها بحدّة في العينين هيئة من تنظر أمامها، من بين جميع أولئك الرجال، وكأنما من نافذة اقتربت منها، وتجعلها تنبثق نحيلة غير هيّابة في عري ألوانها الرقيقة وكأنّها تحلي كائن من نوع آخر ومن جنس مجهول وعزم يقارب عزم المحاريين توازي به وحدها حاشيتها العديدة. وكانت، إذ تتبسم سعيدة بالطقس الجميل وبالشمس التي لم تكن مزعجة بعد ولها مظهر الثقة والهدوء الذي، للمبدع بعدما ينجز صنيعه ولا يأبه للباقي، وهي على يقين بأن أثوابها - وإن لم يستغها المارّة العاميون - هي من أكثرها جميعها أناقة، كانت ترتديها لذاتها ولأصدقائها ببساطة دون انتباه مفرط، ولكن دون تجرّد تامّ

كذلك، فلا تحول دون أن تخفق عُقْدُ صدارها وتَوَرَّتْها خفَقاً لطيفاً أمامها شأن مخلوقات لا تجهل وجودها وتدع لها متسامحة أن تنصرف إلى صنوف لهوها وفق سرعتها الخاصة بشرط أن تخضع لحركة سيرها، وكانت ترسل بين الحين والحين على شمسيتها الخبازية التي كثيراً ما كانت تحملها مطوية بعد ساعة وصولها نظراتها، وكأنما على طاقة من بنفسج "بارما"، نظراتها السعيدة والشديدة العذوبة إلى حدّ تبدو معه، حينما لا تحدّق من بعد بأصدقائها بل بحاجة جامدة، وكأنها لا تزال تبسم. وهكذا كانت تحتفظ لأثوابها بتلك المسافة الفاصلة من الأناقة، بل تجعلها فيها، تلك المسافة التي يحترم مجالها وضرورتها الرجال الذين تتحدّث إليهم السيّد "سوان" أكثر من سواهم حديث الأصحاب، ولا يخلو احترامهم من بعض إجلال غير المطلعين ومن إقرار بجهلهم يعترفون أنّ لصديقتهم عليه صلاحية وسلطة مثلما المريض على ما ينبغي أن يتخذ من علاجات خاصّة ولوالدة على تربية أولادها. وكانت السيّد "سوان"، من جرّاء الحاشية التي تحيط بها وتبدو كأنها لا تبصر المارّة وبسبب تأخرها في الخروج سواء بسواء، توحى بتلك الشقة التي قضت فيها صبيحة طويلة جدّاً وينبغي أن تعود إليها عمّا قليل لتناول طعام الغداء. كانت تبدو وكأنها تشير إلى قربها بمشيتها المطمئنة المتواتية الشبيهة بتلك التي تقوم بها بخطى وثيدة داخل حديقتنا. لكنّما يخيّل إليك أنها لا تزال تسوق من حولها أفياء تلك الشقة، أفياءها الداخلية الرطبة. على أنّ رؤيتها ما كانت، بسبب ذلك كلّ، إلا لتزيدني إحساساً بالهواء الطلق وبالدفء. يضاف إلى ذلك أنّ أزهار قبعتها التي من قشّ طيّع وشرائط فسطانها الصغيرة كانت تبدو، بما سلف لديّ من قناعة بأن أثواب السيّد "سوان" كان يربطها بالفصول والأوقات رباط لازم وحيد بفضل الطقوس التي كان لها باع طويل فيها، وكأنها تنبت من شهر آيار انبثاقاً طبيعياً أكثر ممّا يتفق لأزهار الحدائق والأحراج. وكما أعرفّ الرعشة الحديدية التي تهزّ الفصل ما كنت أرفع الطرف إلى أبعد من شمسيتها المفتوحة الممدودة كسماء أخرى أكثر قرباً، سماء مستديرة رفيقة متحرّكة زرقاء. فلئن كانت تلك الطقوس مطلقة فقد كانت تفاخر، وتفاخر السيّد "سوان" بالتالي، بأن تفضّل بالانصباع للصباح والربيع والشمس، وما كانت هذه تبدو راضية كلّ الرضى أن تفضّلت امرأة أنيقة إلى هذا الحدّ فلم تتجاهلها وأن اختارت بسببها فسطاناً من قماش أكثر ألماً وخفّة يذكّر باتّساع فتحته في القبة والأكمام برطوبة العنق والمعصمين، وأن تحمّلت من أجلها جميع ما تتكبّده سيّد كبرى شاعت راضية أن تتناول وتزور في الريف أناساً عاديين يعرفهم الجميع وحتىّ عامة الشعب وأصرّت مع ذلك على أن ترتدي في ذلك النهار أثواباً ريفية. كنت أحيي السيّد "سوان" حال وصولها، فتستوقفني وتقول لي مبتسمة: "Good Morning" (صباح الخير). ونسير بضع خطوات. كنت أدرك أنّ تلك القوانين التي تحكم لباسها إنّما كانت تخضع لها من أجل ذاتها وكأنّما لحكمة سامية هي كبيرة كاهناتها: ذلك أنّي، إن اتفق لها، وقد أحسّت بحرّ مفرط، أن تفتح سترتها أو حتى تنزعها تماماً وتحمّلي إيّاها بعدما ظنّت بإمكانها الاحتفاظ بها مزرّة، كنت أكتشف في القميص ألفاً من التفاصيل المنفذة التي أسعدها الحفظ. في أن تظلّ بعيدة عن الأبصار على غرار بعض أقسام الأوركسترا التي أولاها المؤلف كامل اهتمامه مع أنها لن تبلغ أسماع الجمهور في يوم ؛ أو كنت أبصر في كمّي السترة المطوية فوق ذراعي، كنت أنظر طويلاً، بداعي المتعة أو التلطف، جزءاً طفيفاً رائعاً كشريط ذي لون بديع وقطعة ساتين خبازية

تحجب عادة من أعين الجميع وكلاهما شغلٌ بدقة الأجزاء الخارجيّة شأن تلك المنحوتات القوطيّة في إحدى الكاتدرائيات وقد أخفيت خلف حاجز على ارتفاع ثمانين قدماً وهي في كمال النقوش الغائرة على البوابة الكبيرة، إلا أنه لم يشاهدها أحد قط قبلما أذن لفنان في إحدى رحلاته العارضة أن يصعد للتنزّه في كبد السماء بين البرجين ليشرق على المدينة بأسرها.

أما ما كان يضاعف الانطباع بأنّ السيّدة "سوان" كانت تنزّه في شارع الغابة كأنما في معرّ حديقة تخصّها فإنها - بالنسبة إلى هؤلاء الناس الذين كانوا يجهلون عاداتها في السير على الأقدام - جاءت سيراً على قدميها من غير ما عربة تلحق بها، هي التي تعود الناس أن يصروها منذ أشهر آبار تمر بأفضل الحياض وأجمل لحلل للخدم في باريس وقد جلست باسترخاء وجلال، وكأنها إحدى الإلهات، يداعبها النسيم الدافئ في عربة مكشوفة ضخمة بثمانية نوابض. كانت السيّدة "سوان" تبدو، إذ تسير على قدميها، ولا سيما بمشيئتها التي يُطَبِّئُها الحرّ، وكأنها انساقَت خلف فضولها، كأنها ترتكب مخالفة أنيقة لقواعد التشرّفات شأن هؤلاء الملوك الذين يخرجون من مقصوراتهم أثناء إحدى الحفلات ويوزرون استراحة الجمهور فيختلطون على مدى بضع لحظات بالمشاهدين الآخرين وذلك دونما استشارة أحد، يرافقهم إعجاب يلوّنه بعض الاستنكار لحاشية لا تجرّ أن توجّه أي انتقاد لهم. وهكذا كان يحسّ الجمهور، بين السيّدة "سوان" وبينه، بتلك الحواجز التي تنشأ عن بعض أنواع الغنى والتي تبدو له من أكثرها امتناعاً. إن حيّ "سان جيرمان" يملك حواجزه هو الآخر ولكنها أقلّ استشارة لأنظار "المُعْدمين" وخیالهم. فلن ينتابهم، بالقرب من سيّدة كبيرة أوفر بساطة وأقلّ بعداً عن الشعب ومن السهل الخلط بينها وبين بورجوازية صغيرة، ذلك الإحساس باللاتساوي واللاكرامة الذي يداخلهم في حضرة السيّدة "سوان". وما من شك أن هذه الأنواع من النساء لا يدهشها مثلهم الجهاز اللامع الذي يحيط بها. فهي لا تصرف إليه انتباهها من بعد ولكنها ذلك لشدة ما تعودنه، يعني أن الأمر بلغ بهنّ أن يَرَيْنَهُ طبيعياً جداً وضرورياً جداً وأن يحكمن على غيرهم من الناس حسبما يدون أكثر أو أقلّ اطلاعاً على عادات البلد تلك: إلى حدّ أن أولئك النساء، إن وضعن أحد المارّة في أدنى مرتبة (بما أن العظمة التي تنجلي لديهنّ ويكتشفنها لدى الآخرين مادّية محضة يسيرة المشاهدة طويلة الاكتساب صعبة التعويض) إنما يظهرن له بالطريقة نفسها في أعلى مرتبة، ونقصد في الحال وللوهلة الأولى وبصورة نهائية. ولعل تلك الطبقة الاجتماعية الخاصة التي كانت تعدّ بين صفوفها إذ ذاك نساء يخالطن نساء الطبقة الأرستقراطية مثل "الليدي إيسرائيلز" أو يزمن التردّد عليهن ذات يوم مثل السيّدة "سوان"، تلك الطبقة الوسيطة التي تقع في مرتبة أدنى من حيّ "سان جيرمان" بما أنّها كانت تتودّد إليه ولكنها تسمو على مائيس من حيّ "سان جيرمان" وتتسم بهذا الأمر الخاص الذي قوامه أنّها، بعد ما أفلحت في التخلص من عالم الأغنياء، لا تزال الثروة بعد ولكنها الثروة وقد أصبحت قابلة للتمدّد خاضعة لغاية وفكر أرستقراطيّين، أصبحت المال المطواع الشاعري النقوش الذي يعرف كيف يتسم، لعل تلك الطبقة لم تعد موجودة على الأقلّ بالميزة نفسها والسحر نفسه. ثم إن النساء اللواتي كنّ في عدادها ما كان ليتوافرن لهنّ اليوم ما ألف الشرط الأوّل لسلطانهنّ إذ أنهن فقدن جميعهن تقريباً جمالهنّ بتقدمهنّ في السنّ. على أن السيّدة "سوان" إنّما كانت تبصر، وهي تتقدم في شارع الغابة مهيبة باسمه طيبة، من أعالي أمجاد

صيفها الناضج الذي لا يزال شهياً جداً بقدر ما تفعل من قمة جميل ثرائها، تبصر مثل "هوباتيا"^(٥) جريان العوالم تحت مسيرة قدميها المتباطئتين. وكان شبان يمرّون فينظرون إليها بقلق وهم يحارون إن كانت علاقاتهم الهيئية بها كافية كيما يسمحوا لأنفسهم بتحيتها (أضف إلى ذلك أنهم يخشون، إذ لم يتمّ تقديمهم لـ "سوان" سوى مرة وتكاد، أن لا يتعرّف إليهم). وما كانوا يقدمون على ذلك إلا وهم يرتحفون حيال النتائج ويتساءلون إن كانت مبادرتهم المتهورة في تحديها وانتهائها على الحرمات واعتدائها على سيادة طبقة مصونة الحقوق لن تقضي إلى إطلاق الكوارث من عقالها أو إلى إنزال عقاب إلهي بهم. وكانت تطلق فحسب، كأنما هي حركة مسنّات، إيماءات شخصيات هيئية من أرباب التحيات إن هم إلا الذين يحيطون بـ "أوديت" بدءاً بـ "سوان" الذي كان يرفع قبّعة العالمة المبطنة بالجلد الأخضر بابتسامة أنيقة تعلّمها في حيّ "سان جيرمان"، ولكنّها لا تقترن بها بعد اللامبالاة التي ربّما داخلته فيما مضى. لقد حلّ محلّها (إذ تشبّع إلى حدّ ما بأفكار "أوديت" المسبقة) في الآن نفسه الثبرم من أن يقع عليه الرّد على رجل رديء الملبس نوعاً ما والارتياح لأنّ زوجته تعرف الكثير من الناس، ذلك الشعور المختلط الذي كان يعبر عنه بقوله للأصدقاء الأنيقين الذين يرافقونه: "آخر أيضاً إني، وشرفي، أتساءل أين تعثر "أوديت" على كلّ هؤلاء الناس؟" على أنّ السيّدة "سوان" كانت تلتفت إليّ بعدما تردّ بإشارة من رأسها على عابر السبيل المتهيب الذي أصبح بعيداً عن الأبصار ولكن قلبه يوالي الخفقان، وتقول: "انتهى الأمر إذن؟ ولن تحيى من بعد لزيارة "جيلبيرت"؟" يغطيني أني مستثناة وأنك لا تتهرّب مني تماماً إني أحب أن أراك. ولكنني كنت أحبّ كذلك التأثير الذي كنت تمارسه على ابنتي، وأحسب أنها تأسف للأمر كثيراً بدورها. على أنني لا أريد أن أستبدّ بك فقد لا يظّل لك سوى أن لا تبغي لقايتي أنا الأخرى" - "أوديت، هذا "ساغان" يقرئك السلام"، يقول "سوان" ليلفت انتباه امرأته. وفعلًا كان الأمير يقوم، كما هي الحال في خاتمة مسرحية أو عرض في السيرك أو لوحة قديمة، بتوجيه حصانه وجهة "أوديت" ويرفع إليها تحية واسعة مسرحية وكأنّما رمزية يتعاطم داخلها كل ما تجمّع من كياسة الفارس والسيد العظيم الذي ينحني بإجلال أمام "المرأة"، ولو تجسّدت في امرأة لا تطيق أمّه أو شقيقته التردّد عليها. كانت السيّدة "سوان" على آية حال، وقد تمّ التعرّف إليها داخل شفافية الظلال الرجراجرة والطلاء المشرق الذي تسكبه فوقها شمسيّتها، كانت في كلّ لحظة موضع تحيات آخر الفرسان المختلفين وكأنّما تجري صورههم عدواً فوق ضياء الشارع الأبيض، وهم رجال نوابك كانت أسماؤهم الشهيرة في نظر عامّة الشعب - كـ "أنطون دو كاستيلان" و "أدالير دو مونمو رانسي" وآخرين كثيرين - أسماء أصدقاء ألقتها السيّدة "سوان". ولما كان متوسط العمر - أو التعمير النسبي - أطول بكثير إلى ذكريات الإحساسات الشاعرية منه بالنسبة إلى آلام القلب فقد أعقبته، بعد ما تلاشت منذ فترة طويلة صنوف الغم التي كانت بي آنذاك بسبب "جيلبيرت"، الغبطة التي تداخلني، في كلّ مرّة أريد أن أقرأ، في ما يشبه الساعة الشمسية، الدقائق الواقعة بين الثانية عشرة والرّبع والواحدة من بعد ظهر شهر آيار، إذ أعود فأراني أتحدّث على هذا النحو إلى السيّدة "سوان" تحت شمسيّتها وكأنّما في انعكاسات عريشة من زهر الغليسين.

(٥) Hypatie عالمة يونانية في الرياضيات والفلسفة عرفت بعملها بقدر ما اشتهرت بحمالتها.

القسم الثاني

أسماء البلدان

رسوم أولية سريعة للسيد

"دو شارلوس" و "روبير دو سان لو".

- عشاء في منزل "بلوك". - الأعشية

في "ريفيل". - ظهور "البرتين"

* * *

كنت قد توصلت إلى ما يقارب اللامبالاة التامة حيال "جيلبيرت" حينما ذهبت بعد سنتين إلى "بالبيك" برفقة جدتي. وحينما كان يتملكني سحر وجه جديد، حينما كنت أمل بوساطة فتاة أخرى معرفة الكاتدرائيات القوطية والقصور والحدائق في إيطاليا، كنت أقول في نفسي بحزن: إن حينا بما هو حب يتناول مخلوقاً معيناً، ربما لم يكن أمراً واقعاً تماماً فلن استطاعت تداعيات أحلام ممتعة أو مؤلمة أن تفرقه بعض الوقت بامرأة حتى لتحملنا على الظن بأنها أوجت به على نحو لازم، فإن ذلك الحب يبعث بالمقابل من جديد لينصب على امرأة أخرى إن نحن تحررنا من تلك التداعيات بملء إرادتنا أو دون علم منا، كما لو كان على العكس عقوياً وانطلق من ذواتنا فحسب. بيد أن لامبالاتي كانت بعد متقطعة حين غادرت إلى "بالبيك" وأثناء فترات إقامتي الأولى، فغالبا ما كنت أعيش (إذ يندر جداً أن تكون حياتنا متسلسلة زمنياً فهي تدخل الكثير من الأخطاء التاريخية في توالي الأيام) في فترات تسبق البارحة وما قبل البارحة، تلك الفترات التي كنت أحب فيها "جيلبيرت". حينئذ كان يؤلمني ألا أراها وكأنما الأمر واقع في تلك الفترة. فقد كانت الأنا التي أحببتها، وقد حلت أخرى محلها تماماً على وجه التقريب، تعود إلى البروز من جديد وكان يردها لي أمر تافه أكثر بكثير مما يفعل أمر هام. فقد سمعت على سبيل المثال، كيما أستبق الأمور حول إقامتي في "النور ماندي"، سمعت مجهولاً في "بالبيك" التقيت به على السد البحري يقول: "عائلة مدير وزارة البريد". كان ينبغي أن يبدو لي ذلك القول تافهاً، (بما أنني لم أكن أعلم آنذاك التأثير الذي ستمارسه تلك العائلة على حياتي)، ولكنه سبب لي عذاباً شديداً، ذاك الذي كانت تعانيه "أنا" زالت في أعظم قسم منها منذ زمن طويل في افتراقها عن "جيلبيرت". ذلك لأنني ماعدت فكرت قط في حديث جرى بين "جيلبيرت" واللدنا في حضرتي بخصوص عائلة "مدير وزارة البريد". وذكريات الحب لا تشد عن القوانين العامة التي تحكم الذاكرة والتي تحكمها بدورها قوانين العادة الأكثر شيوعاً. وبما أن هذه الأخيرة تضعف كل شيء فإن ما ذكرنا كائناً أفضل التذكير إنما هو بالضبط ماسبق أن نسيناه (لأنه كان غير ذي شأن وأنا تركنا له هكذا كامل قوته). ولذلك كان أفضل جزء من ذاكرتنا في خارجنا، في هبة ماطرة، في رائحة الهواء الحبيس في غرفة أوراثة أول لهب، وحيثما نعود فنلقى من ذواتنا ما كان ازدراه عقلنا، إذ لم يستخدمه، آخر مؤونة للماضي وأفضلها، تلك التي تعرف كيف تبكيها حين تبدو دموعنا وقد جفت جميعها. في خارجنا؟ بل الأفضل أن نقول في داخلنا، ولكنه قد حُجب عن أنظارنا في نسيان بطول أو يقصر. وإننا بفضل هذا النسيان وحده نستطيع بين الحين والحين أن نعود فنلقى الكائن الذي كناه وأن نتخذ مكاناً قبالة الأشياء كما كان يفعل ذلك الكائن وأن نتألم من جديد لأننا لم نعد نحن بل هو وقد كان يحب مالا ينالي به الآن. إن صور الماضي تشحب شيئاً فشيئاً في وضوح الذاكرة المعتادة وتمحي ولا يظل شيء ولن نعود فنلقاه بعد. أو أننا بالأحرى ما كنا لللقاه من بعد لو لم يجر بعناية احتباس بعض كلمات في النسيان (من مثل "مدير وزارة البريد") مثلما تودع في المكتبة الوطنية نسخة كتاب يحتمل بدونه أن يستحيل العثور عليه.

على أن العذاب وعودة حبّ "جيلبيرت" ذاك لم يدوما أكثر من ذينك اللذين يتفقان لنا في الحلم، لأنّ العادة " القديمة لم تكن، على العكس في هذه المرة، موجودة هناك، في "البليك"، كيما تسهم في دوامهما . ولكن بدت آثار "العادة" متناقضة فإنما يعني ذلك أنّها تخضع لقوانين عديدة. لقد أصبحت في باريس أكثر فأكثر لامبالاة بـ "جيلبيرت" بفضل "العادة" وقد أتمّ تغيير العادة، أي توقّف "العادة" المؤقت، عمل "العادة" حينما ذهب إلى "البليك". إنّها تُضعف ولكنها تولي استقراراً، وتأتي بالتفكّك ولكنها تجعله يدوم إلى مالا حدود. لقد كنت في كلّ يوم منذ سنوات أنسخ حالتي النفسية كيما تيسر لي ذلك عن حالة البارحة. أمّا في "البليك" فإن سريراً جديداً يأتونني في الصباح إلى جانبه فطور مختلف عن فطور باريس ماكان ليعين من بعد الأفكار التي غذت حُبِّي لـ "جيلبيرت" : فهناك حالات (شديدة الندرة بالحقيقة) يبدو فيها تغيير المكان خير وسيلة لكسب الوقت بما أن الإقامة الدائمة تشلّ حركة الأيّام. وجاءت رحلتي إلى "البليك" بمشابة أوّل طلعة يقوم بها متماثل للشفاء لم يكن ينتظر سواها ليتبين أنّه شفي.

ولعلّ مثل هذه الرحلة تتمّ اليوم دون شكّ بالسيارة ظناً منا أنّنا نضفي عليها هكذا متعة أعظم. وسوف نرى أنه، إن تمّ بهذه الطريقة، فربّما جاء بهذا المعنى أو ذاك أقرب إلى الصحة بما أنّنا نتابع عن كسب وفي جوّ من الألفة أشدّ وثوقاً التدرّجات المختلفة التي يتغيّر وفقها وجه الأرض. على أنّ متعة السفر النوعية لا تكمن في إمكان النزول في الطريق والتوقّف حينما يصيبنا التعب، وإنما في جعل الاختلاف بين الذهاب والوصول لاغير ملموس قدر المستطاع بل عميقاً جهد المستطاع، وأن نحسّ به في كليته كاملاً غير منقوص على نحو ما كان في صدرنا حينما كان يحملنا خيالنا من المكان الذي كنّا نعيش فيه إلى قلب المكان المشتهى بقفزة تبدو أقلّ إعجازاً لأنها تقطع مسافة منها لأنها تربط بين شخصيتين متميزتين من الأرض وأنها تنقلنا من اسم إلى اسم آخر، قفزة تلخصها (أفضل مما يفعل المشوار حيث لا نقطة وصول تقريباً بما أنّنا نحلّ حيثما نريد) العملية الغامضة التي تتمّ في هذه الأمكنة الخاصة، عنيّا المحطّات التي تكاد لا تؤلّف جزءاً من المدينة ولكنها تتضمن جوهر شخصيتها مثلما تحمل اسمها مكتوباً على لافتة.

ولكنّ عصرنا به هوس النزوع، في كل لون، إلى الإحجام عن إبراز الأشياء إلا ضمن ما يحيط بها في الواقع فيفضي بذلك إلى القضاء على الجوهري، على العملية التي سلختها عنه. فيعرضون لوحة وسط أثاث وتحف وستائر من العصر نفسه والكل إطار باهت تجيد تأليفه في فنادق اليوم أجهل ربّة بيت بالأمس من اللواتي يمضين نهارهنّ الآن في دوائر المحفوظات والمكتبات، إطار لا تخلف فينا الرائعة التي ننظر إليها من خلاله في أثناء الفرح المسكر نفسه الذي يجدر بنا ألا نطالبها بها إلا في إحدى قاعات المتاحف التي ترمز أفضل بكثير، من جرّاء عريها وخلوها من جميع المميّزات، إلى الأجواء الباطنة التي اعتزل فيها الفنان ليبدع.

على أن تلك الأمكنة الرائعة التي هي المحطّات والتي نرحل منها إلى جهة بعيدة إنّما هي كذلك للأسف أماكن فاجعة، فلننّ تحقق في المعجزة التي بفضلها تصبح البلدان التي ماكان لها وجود

إلا في فكرنا تلك التي سنعيش فيها، فلا بدّ للسبب نفسه أن تتخلى لدى خروجنا من قاعة الانتظار عن أن نعود فنلقى بعد قليل الغرفة الأليفة التي كنّا فيها منذ لحظة فقط. ولا بدّ من حجر كل أمل في العودة للنوم في المنزل حالما قرّرنا الدخول إلى المغارة التنتة التي نلج منها إلى عالم الأسرار، إلى واحد من تلك المشاغل الكبيرة المزجّجة، من مثل مشغل "سان لازار" حيث كنت أمضي للبحث عن قطار "بالبيك" والذي كان ينشر فوق المدينة المخترقة واحداً من تلك الأجواء القاسية المترامية التي تنذر بمخاطر المآسي والتي تشبه بعض أجواء من حادثة تكاد تكون باريسية لـ "مانتينيا" أو "فيرونيز"، والذي ما كان يمكن أن يتم تحت سقفه سوى ما كان من قبيل الفعلة الرهيبة المهيبة كرحيل بالقطار أو رفع الصليب.

لم يُبدِ جسمي أيّ اعتراض حيال تلك الرحلة طوال ما اكتفيت بأن أبصر من زاوية سريري في باريس كنيسة "بالبيك" الفارسية وسط رقع ثلج العاصفة. ولم تبدأ الاعتراضات إلا حينما أدرك أنه سوف يشارك في اللعبة وأنهم سوف يقتادوني عشية وصولي إلى غرفتي التي ستكون مجهولة لديه. وقد زاد من عمق تمرده أنني علمت عشية الرحيل نفسه أن أمي لن ترافقنا إذ فضل والدي، وقد استبقي في الوزارة إلى حين ذهابه مع السيد "دو نوربوا" إلى أسبانيا، أن يستأجر داراً في ضواحي باريس. ولم تكن مشاهدة "بالبيك" لتبدو، على أية حال، أقل ابتغاء في نفسي لأنه ينبغي لي أن أشتريها مقابل داء كان يبدو أنه يصور ويضمن لي، على العكس، حقيقة الانطباع الذي كنت ماضياً أبحث عنه، الانطباع الذي ما كان ليحل "محله أيّ مشهد مساو له على حدّ زعمهم، ولا أيّ منظر كان يمكن أن أبادر إلى رؤيته دون أن يحول ذلك نفسه دون أن أعود فأنام في سريري. وما كانت تلك أوّل مرّة أحس فيها أن الذين يحيون والذين ينالون المتعة ليسوا واحداً. كنت أحسبني أتوق إلى "بالبيك" توقاً يساوي في عمقه توق الدكتور الذي كان يهتم بي وقد قال لي في صبيحة السفر وهو يعجب لمظهري التعيس: "جوابي لك أنني لو استطعت العثور فقط على ثمانية أيام لأمضي وأستنشق الهواء الطلق على شاطئ البحر فلن أنتظر من يرجوني في ذلك. سوف تنعم بسباقات الخيول واليخوت، وسيكون ذلك رائعاً. "أما أنا فقد سبق أن علمت، قبلما أذهب لسماع "لايرما"، أنه مهما كان الأمر الذي أحبه فلن يلقى مكانه إلا في نهاية ملاحقة مؤلمة ينبغي لي في أنائها أن أضحي بأدنى الأمر بمتعي مقابل هذا الخير الأسمى عوضاً عن أن أبحث عنه فيها.

وكانت جدّتي بالطبع تتصور رحلتنا تصوراً مختلفاً بعض الشيء وقد شاءت، وهي على الدوام رغبة رغبتها بالأمس في أن تضفي على الهدايا التي تقدّم لي طابعاً فنياً، وبغية أن تجعل من هذه الرحلة "امتحاناً" قديماً في قسم منه. أن نكرر المسار الذي اتبعته "مدام دو سيفينييه" حينما انطلقت من باريس إلى "لوريان" مروراً بـ "شون" و "بونت أو دومير" بالقطار في جزء منه وبالعربة في الجزء التالي. بيد أنّ جدتي اضطرت أن تتخلى عن هذا المشروع بناء على حظر من والدي الذي كان يعلم كم يمكن، حينما تنظم رحلة بغية أن تأخذ منها كامل المكسب الفكري الذي يمكن أن تتضمنه، كم يمكن التنبؤ بقطارات تفوتك وبأمّعة تفقدها وآلام في الحلق ومخالفات. على أنها كانت تغتبط على الأقلّ لدى التفكير بأننا لن نكون ألبتة، آن الذهاب إلى الشاطئ، عرضة لأن يمنعنا عن ذلك

الوصول المفاجئ لما كانت تدعوه العريضة "سفينيه" بحمولة ملعونة لإحدى العربات بما أننا لن نعرف أحداً في "البليك" إذ لم يزودنا "لو غراندان" برسالة توصية لشقيقته. (والإحجام لم يلق التقييم نفسه لدى عمّتي "سيلين" و"فيكتور" اللتين سبق أن عرفنا فتاةً تلك التي لم تدعواها حتى ذاك سوى "رونيه دو كامبرمير" للتدليل على ألفة الأمس، ولاتزالن تحتفظان منها بتلك الهدايا التي تزdan بها الغرف ويزدان الحديث ولكنّ الواقع لا يتفق وإياها، فحسبنا أنّهما تثاران لإهانتنا بالإقلاع عن التفوه في حضرة السيّدة "لو غراندان" باسم ابنتها وتكتفیان بتبادل التهاني بعد خروجهما بحمل من هذا القليل: "لم أشر أبته إلى من تدرين وأحسب أنّه تمّ إدراك ذلك.")

سوف نسافر إذن من باريس بقطار الواحدة والدقيقة الثانية والعشرين، هذا القطار الذي ما أكثر ما طاب لي البحث عنه في دليل السكك الحديدية، حيث كان يخلف في كلّ مرة رعدة الرحيل بل ما يقارب وهم سعادته، حتى لا أتخيل أنّي أعرفه. وبما أنّ تحديد ملامح سعادة ما في مخيلتنا إنّما ينجم عن تماثل الرغبات التي تبثها في صدرنا أكثر منه عن دقة المعلومات التي توافرت لنا عنه فقد كنت أحسب أنّي أعرفها في تفاصيلها ولا أشك أنّي سأحسّ بمتعة خاصّة في عربة القطار حينما يأخذ النهار بالبرودة وأنامل هذا الأثر أو ذاك لدى اقترابي من هذه المحطة أو تلك، حتى أن هذا القطار الذي كان يوقظ في نفسي على الدوام صور المدن نفسها التي ألفها بضياء ساعات ما بعد الظهر تلك التي يجتازها إنّما كان يبدو لي مختلفاً عن القطارات الأخرى جميعها، وقد بلغ بي الأمر في النهاية، مثلما نفعل في الغالب بشأن شخص لم نره في يوم ولكنّا يطيب لنا أن نتخيل أنّنا فزنا بصداقته، أن أضفي هيئة خاصّة لا تحول على هذا المسافر الفنان والأشقر الذي اصطحبني على دربه وأستودعه على حضيبض كاتدرائية "سان لو" قبل أن يتعد صوب مغرب الشمس.

ولمّا لم يكن باستطاعة جدّتي عقد النّية على الذهاب إلى "البليك" على هذا النحو الغيبيّ فلسوف تتوقّف أربعاً وعشرين ساعة لدى إحدى صديقاتها، ومن هناك أنطلق ثانية في المساء نفسه لتفادي الإزعاج وكذلك ليتسنى لي أن أشاهد في نهار الغد كنيسة "البليك" التي كانت على بعد كاف من "البليك الشاطي"، فيما نقلّ إلينا، وحيث قد لا يتسنى لي الذهاب فيما بعد في بدء علاجي عن طريق الحمامات. ولعلّه كان يشقّ أقلّ عليّ أن أحسّ أن موضوع رحلتي الرائع قد رتب قبل الليلة الأليمة الأولى التي سأدخل فيها إلى منزل جديد وأقبل العيش فيه. إلا أنّه انبغى بادئ الأمر هجر القديم وكانت والدتي قد تدبّرت أمرها كي تستقرّ في ذلك اليوم نفسه في "سان كلو" واتخذت أو تظاهرت باتخاذ جميع الترتيبات لتذهب إلى هناك مباشرة بعدما تصطحبنا إلى المحطة دون أن يتوجّب عليها الرجوع إلى البيت حيث تخشى أن أبغى العودة معها بدلاً من الذهاب إلى "البليك". بل هي قرّرت، بحجة كثرة ما ينبغي لها أن تقوم به في البيت الذي استأجرته منذ قليل وأن الوقت سيعوزها لذلك، وفي الواقع بغية أن تجنّبني قسوة هذا النوع من الوداع، ألاّ تظنّ معنا حتى انطلاق القطار حيث يبدو الفراق فجأة، بعدما أخفي من قبل تحت ستار من المجيء والرواح واستعدادات لا تُلزم بصورة نهائية، مستحيل الاحتمال في حين لم يعد بالإمكان تجنّبه وقد تركز بكليته في لحظة لا أحد لوضوحها العاجز والأخير.

وأخذت أحسنّ للمرّة الأولى أنّه يمكن أن تعيش والدتي بدوني، لأمر آخر سواي، أن تعيش عيشة أخرى. سوف تسكن بمفردها مع والدي الذي ربّما وجدت أن رداءة صحّتي وعصبيّتي يضيفان على عيشته بعض التعقيد والغمّ. كان ذلك الفراق يزيد من غمي لأنني كنت أقولُ في نفسي إنه ربّما ألف بالنسبة إلى والدتي نهاية حَيّيات الأمل المتلاحقة التي سببتها لها والتي كنتها عنيّ وأدركت بعدها صعوبة العطلة المشتركة. وربما كان أيضاً المحاولة الأولى لحياة شرعت تسلّم بها للمستقبل كلّما تقدّمت السنون بها وبوالدي، حياة أراها فيها أقلّ من ذي قبل وتصبح فيها بالنسبة إليّ، والأمر لم يوافني ألْبَتّة حتى في أحلامي المزعجة، غريبة بعض الشيء، تصبح سيّدة تراها تعود وحيدة إلى دار لن أكون فيها وتسالّ البواب إن لم يكن ثمة رسائل منّي.

وكدت لا أستطيع إجابة المستخدم الذي أراد أن يأخذ حقيّتي. وكانت أمي تجرّب، كيما تعزيني، وسائل تبدو لها من أكثرها نجوعاً، وتحسب أن لا طائل من الظهور بمظهر من لا تبصر اغتمامي، فكانت تسخر منه بهدوء قائلة :

- " ما عساها تقول كنيسة "بالبيك" لو علمت أنّك تستعدّ للمبادرة إلى زيارتها بهذا المظهر التبعيس؟ أهذا هو المسافر المفتون الذي يتحدّث عنه "راسكين"؟ وعلى آية حال سوف أعلم إن كنت على مستوى الظروف فإنني سأظلّ ولو بعيدة إلى جانب كتكوتي الصغير. وغداً تصلك رسالة من أمك."

وقالت جدّتي : " يا ابنتي، إني أراك على غرار السيّدة "دو سيفينييه" تضعين خريطة نصب عينيك ولا تفارقيننا لحظة واحدة ."

ثمّ تحاول والدتي أن تسلّيني فتسألني ما عساني سأطلب للعشاء وتنظر بإعجاب إلى "فرانسواز" وتمتدحها لقبّة ومعطف لم تعد تعرفهما مع أنّهما أثارا فيما مضى اشمعازها حينما رأتهما جديدين على شقبة جدّتي، الأولى بالعصفور الضخم الذي كان يحتم فوقها، والثاني الذي تثقله الرسوم السمجة والسبّج. إلا أن "فرانسواز" كانت قلبت المعطف بعد ما بلي فأظهرت قفا قماش واحد اللون جميله. أمّا العصفور فقد جرى نبذه منذ زمن طويل بعد ما انكسر. ومثلما يحيرك أحياناً أن تلقى دقيق الفنّ الذي يجهد في السعي إليه أكثر الفنانين وعياً في أغنية شعبيّة وعليّ واجهة بيت فلاّح جعل وردة بيضاء أو صفراء تفتّح فوق باب في المكان الذي ينبغي بالضبط أن تفتّح فيه - كذلك وضعت "فرانسواز" بذوق ساذج لا يخطئ على القبّة التي أضحت رائعة عقدة المخمل وعقد الشريط الحريري التي تفتنك في رسم لـ "شاردان" أو لـ "وستلر" .

ولما امتدّ الاحتشام والنزاهة اللذان كانا في الغالب يضيفان نبلاً على وجه خادمنا العجوز إلى الملابس التي ارتدتها، كامرأة متحفظة ولكن بدون دناءة، امرأة تعرف كيف " تحافظ على مكانتها وتظّل في مكانها"، بداعي الرحلة بغية أن تكون جديرة بالظهور معنا دون أن يبدو أنها تجهد في إبراز نفسها، فقد كانت "فرانسواز" تذكر، كيما نعود إلى عصر أوفر قدماً، بقماش معطفها

الكرزي المتقادم عهداً ووبر ياققتها التي من فرو ناعم، كانت تذكر بواحدة، أي واحدة، من صور "آن دو بروتانبي" التي رسمها في كتب "الساعات" أحد أرباب الفن القدماء والتي يبدو فيها كل شيء في محله فيما انتشر الإحساس بالانسجام في جميع الأقسام بالتساوي حتى لتعبر غرابة الأثواب بغناها وتقدم عهداً عن الرصانة الورعة نفسها التي تعبر عنها العينان والشفتان واليدان .

ربما لم يكن بالإمكان التحدث عن الفكر بشأن "فرانسواز" . فما كانت تعرف شيئاً، بهذا المعنى الشامل الذي يساوي فيه من لا يعرف شيئاً من لا يدرك شيئاً، فيما عدا الحقائق النادرة التي يستطيع القلب بلوغها مباشرة . إن عالم الأفكار الشاسع لم يكن موجوداً بالنسبة إليها . على أنك كنت تحار إزاء صفاء نظرتها والخطوط الناعمة التي للذات الأنف وتينك الشفتين، إزاء جميع هذه الأدلة التي يفتقر إليها العديد من المثقفين والتي ربما عت لديهم أقصى درجات الأناقة ونبل الترفع الذي يميز صفوة العقول، كنت تحار كأنما إزاء النظرة الذكية الطيبة التي لكلب تعلم مع ذلك أن سائر مفاهيم الشر غريبة عليه، وبمقدورك التساؤل إن لم يكن بين هؤلاء الإخوة المتواضعين الآخرين، عينا الفلاحين، أشخاص هم بمثابة الرجال المتفوقين في دنيا بسطاء العقول أو هم بالأحرى، فيما حكم عليهم قدر ظالم أن يعيشوا بين صفوف بسطاء العقول وقد حرموا نور المعرفة ولكمهم ينتمون إلى الطبائع المختارة انتماء طبعياً وأساسياً أكثر مما يتفق لغالبية الناس المتعلمين، بمثابة أعضاء من الأسرة المقدسة مشتمتين ضائعين فاقدتي العقل، بمثابة أقارب، لم يبرحوا الطفولة، لا رفع العقول، ولم ينقصهم، - على نحو ما يبدو في بريق عيونهم الذي لا يمكن أن نخطيء فيه والذي لا ينطبق فيها مع ذلك على شيء - كيما تتيسر لهم الموهبة، سوى المعرفة.

كانت والدتي تقول لي، وقد رأت أنني أجد مشقة في احتباس دموعي : "كان من عادة ريفولوس" في الظروف العصبية . وبعد، فليس ذلك لطيفاً بالنسبة إلى أمك . ولنتشهد، شأن جدتك، بالسيدة "دو سفينييه" : "سوف أضطر أن أستخدم كامل الشجاعة التي لا تتوافر لك . وكانت تحاول، وقد تذكرت أن مودة الغير تصرف عن الآلام الأنانية، أن تشيع السرور في نفسي بقولها إنها تظن أن رحلتها إلى "سان كلو" ستتم على أحسن حال وإنها راضية عن العربة التي احتفظت بها وإن الحوذي مهذب والعربة مريحة . وكنت أجهد في التيسم إزاء هذه التفاصيل وأحني الرأس إحناءة القبول والرضى . بيد أنها ما كانت تعينني إلا في تمثل رحيل والدتي وتمثلاً أقرب إلى الحقيقة فكنت أنظر إليها، منكمش الفؤاد كما لو تمّ الفراق بينما، في ظل قبعة القش المستديرة تلك التي ابتاعتها من أجل الريف وفي فسطان خفيف ارتدته بسبب ذلك المشوار الطويل في الهاجرة، وكلاهما يجعلان منها امرأة أخرى تدور مذ ذاك في فلك دارة "مونترتو" حيث لن يتسنّى لي أن أراها.

كان الطبيب قد أشار عليّ، بغية تجنبني نوبات الاختناق التي قد يسببها لي السفر، أن أبالغ بعض الشيء في تناول البيرة أو الكونياك آن الانطلاق كيما أكون في تلك الحالة التي يدعوها "النشوة" والتي يضحي الجهاز العصبي فيها مؤقتاً أقلّ وهنا، كنت لا أزال غير متيقن إن كنت سأفعل ذلك

ولكنني أود أن تعترف جدتي، إن اتفق لي التصميم على الأمر، أن الحق والحكمة إلى جانبي ولذلك ذكرت عن الأمر كأنما لا يتناول ترددي سوى المكان الذي سأشرب فيه الكحول، أهو المطعم أم مقصف القطار. إلا أنني، حيال مظهر الملامة الذي اتخذته وجه جدتي و أنها لا تبغي حتى التوقف إزاء هذه الفكرة، صرخت في الحال قائلاً، وقرّ رأيي على فكرة المبادرة إلى الشرب التي أصبح تنفيذه ضروريا لإقامة البرهان على حريتي بما أن الإعلان الشفوي عنه لم يقدّر له المرور دونما احتجاج: "كيف ذلك، تعلمين مدى مرضي وتعلمين ما قال لي الطبيب، وذلك هو النصح الذي تسدينه لي !".

وبعد ما شرحت لجدتي عن توعك صحي، اتخذت، وهي تحبيني : "ولكن هيا أسرع واجلب البيرة أو شراباً آخر إن انبغى أن يفيدك ذلك" مظهراً فيه من الاعتماد والطيبة ما جعلني أرتمي عليها وأعطى وجهها بالقبلاط . ولكن بادرت مع ذلك إلى احتساء الكثير من الشراب في مقصف القطار فلأنني كنت أشعر أنني بدون ذلك سأصاب بنوبة بالغة العنف وأن ذلك ما سوف يورثها أكثر الغم . وحينما صعدت إلى عربتنا في أول محطة لجدتي كم كنت سعيداً في الذهاب إلى "البليك" وإنني أحس أن كل شيء سيتم على أحسن مايرام وإنني بالحقيقة سوف أعود بسرعة أن أكون بعيداً عن أمي وإن هذا القطار كان ممعاً وإن رجل المقصف والمستخدمين الآخرين رائعون إلى حد أنني وددت لو أكرر كثيراً هذه الرحلة لتتوافر لي إمكانية لقائهم مجدداً . ولم يكن يبدو مع ذلك أن جدتي تحس بالغبطة نفسها التي أحس بها من جرّاء كلّ هذه الأخبار السارة . وقد أهابتني وهي تتجنب النظر إليّ : "ربما انبغى لك أن تنام قليلاً"، وحولت عينيها إلى النافذة، وقد سبق أن أرخينا ستارها الذي لم يكن يغطي كامل إطار الزجاج مما كان يدع للشمس أن ترسل فوق خشب الباب الذي من سنديان مدهون والقماش الذي يغطي المقعد (كأنما إعلاناً عن حياة تمتزج بالطبيعة يخلف لديك قناعة أكبر من تلك المعلقة في أمكنة عالية جداً في العربة بجهود الشركة وتمثل مناظر ما كان يمكنني قراءة أسمائها) الضياء الدافئ الناعس نفسه الذي يغفو بعد الظهر في فرجات الغابة .

بيد أنني كنت أبصر جدتي، حين تظن أنني أطبقت عيني، تلقي عليّ نظرة من تحت حجابها المنقط، ثم تستعيدها، ثم تعيد الكرة كمن يحاول تمرينا شاقاً كيما يتعوده.

حينئذ كنت أحدثها فلا يبدو أن الأمر يسرها، مع أن صوتي كان يخلف متعة في نفسي، وكذلك تفعل أدق الحركات في جسمي وأكثرها باطنية، فكنت لذلك أحاول أن تدوم وأدع لكل واحدة من نبرات صوتي أن تتناقل طويلاً على الكلمات وأحس أن كل نظرة من نظراتي تستعذب المكان الذي حطت فيه وتمكث فيه أكثر من الزمن المعتاد . وقالت لي جدتي : "هيا، خذ قسطك من الراحة . فإن لم تستطع النوم فاقراً شيئاً . " وناولتني كتاباً لـ " مدام دو سفينيه " فتحتة فيما استغرقت بدورها في "مذكرات السيدة دو بوسيرجان" . ولم تكن تسافر ألبتة بدون كتاب لهذه أو تلك، فقد كانتا من تفضل من المؤلفين . ولما كنت لا أحرك رأسي في ذلك الحين عن طيب خاطر وأحسّ بمتعة عظيمة في المحافظة على وضع اتخذته جسمي فقد ظلت أمسك بكتاب " مدام

دوسيفينييه " دون أن أفتحها ولم أخفض صوبه عينيّ اللتين لم يكن أمامهما سوى ستارة النافذة الزرقاء. بيد أن تأمل تلك الستارة كان يبدو لي رائعاً وما كنت لأتكلف عناء إجابة من ودّ أن يصرفني عن تأملي. كان لون الستارة الأزرق يبدو لي، لا من جراء حماله فيما أعتقد، بل من جراء تألقه الشديد، وكأنه يزيل جميع الألوان التي سبق أن برزت لعينيّ منذ اليوم الذي ولدت فيه وحتى اللحظة التي انتهت فيها من احتساء شرابي وأخذ يفعل مفعوله إلى حدّ أنها كانت تبدو في نظري، إلى جانب زرقة الستارة هذه، باهتة معدومة بقدر ما يمكن أن يبدو الظلام إذ يستذكره الذين ولدوا مكفوفين وأجريت لهم عمليات متأخرة أبصروا بها الألوان أخيراً. وأقبل مستخدم عجوز يسألنا تذاكرنا، فما انفكّ اللعنان الفضّي المنبعث من أزرار بزته المعدنية يخلب ليّ. وهممت أطلب إليه أن يجلس إلى جانبنا، ولكنه انتقل إلى عربة أخرى. وفكرت، يهزّني الحنين، بحياة عمال السكك الحديدية الذين ينبغي ألا تفوتهم رؤية هذا المستخدم العجوز يوماً واحداً بما أنهم يقضون كامل وقتهم في السكك الحديدية. وأخيراً أخذت تتناقص المتعة التي كنت أحسّ بها في النظر إلى الستارة الزرقاء والإحساس بأنّ فمي نصف مفتوح. وأصبحت أكثر حركة، وتحركت قليلاً، وفتحت الكتاب الذي كانت جدتي دفعته إليّ واستطعت أن أركز انتباهي على الصفحات التي اخترتها من هنا وهناك. وأخذت أشعر، فيما كنت أقرأ، بتعاطف إعجابي بالسيدة "دوسيفينييه".

وينبغي ألا نسمح بأن تضلّلنا خصائص شكلية بحثة ناجمة عن العصر وحياة الصالونات وتبلغ ببعض الناس أن يحسبوا أنهم ختموا مؤلفات "دوسيفينييه" حينما يتم لهم أن يقولوا: "أبعثي بأخبارك أيتها العزيزة" أو "بدا لي أنّ الكونت على قسط وافر من الذكاء" أو "تقلب الحشائش أجمل ما في الدنيا". وقد سبق أن تصوّرت السيدة: "دوسميان" أنها تشبه جدتها لأنها كتبت: "إن صحة السيد "دو لاهولي" على ما يرام ياسيدي وإنه في حالة تمكّنه من سماع أخبار حول وفاته"، أو "آه! أيها المرحّز العزيز، كم ذا يسرني كتابك! فكيف تريدني ألا أجيّب عليه"، أو "يبدو لي، ياسيدي، أنك مدين لي بجواب، أمّا أنا فبحقّاق من عطر البرغموت، وإنّي لمود ثمانية مقابل، ذلك، يأتيني غيرها.. فالأرض لم تحمل في يوم إلى هذا الحدّ؛ وإنما ذلك في الظاهر كيما تحسن في عينيك". وكتبت على هذا النمط نفسه رسالتها حول الفصّاد وحول الليمون، الخ، وتنصّور أنها رسائل للسيدة "دو سيفينييه". ولكنّ جدتي التي أتت إلى هذه الأخيرة من الداخل، من حبّها لزوجها وللطبيعة، علمتني أن أحب مواطن الجمال الحقيقي لديها، وهو مختلف تمام الاختلاف. وكان لا بد أن يزداد عمّا قريب تأثيره في نفسي بقدر ما السيدة "دو سيفينييه" فنانة كبيرة تنتمي إلى الأسرة نفسها التي ينتمي إليها رسام كنت سألتقي به في "بالبيك" وقد كان له أعظم الأثر في رؤيتي للأشياء، عنيت "الستير" وقد تبينت في "بالبيك" أنها تقدم لنا الأشياء بالطريقة نفسها التي يقدمها بها مرتبة ترتيب إحساساتنا بدلاً من أن تشرحها بادئ الأمر عن طريق علتها. بيد أنّي منذ ذلك العصر، وإذ كنت أعيد في تلك العربة قراءة الرسالة التي يظهر فيها ضياء القمر: "لم أستطع مقاومة الإغراء، وما أنا أضع كامل قبعتي وقمصاني، وما كانت ضرورية، وأمضي في ذلك الممرّ ذي الهواء العليل كهواء غرتي، فأجد ألفاً من الطيور الخرافية وجعلاتاً بيضاء وسوداء وعدداً من السرعوفات

الرمادية والبيضاء وألبسة أقيمت ههنا وهناك ورجالاً دفنوا وقوفاً وظهورهم إلى الأشجار، الخ " فتنت من جرّاء ما لعني كنت سميت بعد ذاك الجانب " دوستويفسكي " في " رسائل مدام دو سيفينييه " (أفليست ترسم المناظر بطريقته نفسها، وكذلك الطباع ؟) .

وعندما عدت أستقل القطار وحدي في المساء بعد ما صحبت جدتي ومكثت بضع ساعات في منزل صديقتها، فاني على الأقل لم أجد الليلة التي حلت شاقة . ذلك لأنه ما كان عليّ أن أمضيها في سجن غرفة يمسك بي فيها نعاسها في حال اليقظة . لقد كان يحيط بي النشاط المهدئ لحركات القطار هذه جميعها التي كانت تلازمني وتعرض نفسها للتحدث معي إن لم يوافني النوم وتهدهدني بأصواتها التي كنت أزواج بينها، شأن أصوات الأجراس في " كومبريه "، على هذا الإيقاع تارة وطوراً على ذاك (فأسمع حسبما يحلو لي أربعاً من ثنائيات الإنسان متساوية بادئ الأمر، ثم ثنائية أسنان تنقض بعنف على سوداء) . كانت تعمل على تحييد القوة النابذة في أرقى إذ تمارس عليه ضغوطاً معاكسة تمسك بي في حالة توازن، ضغوطاً أحسّ جمودي ثم نعاسي بعد قليل أنهما يطفوان على صفحته وبهما الانطباع المنعش نفسه الذي ربما زودتني به الراحة الناجمة عن سهر قوَى جبارة داخل الطبيعة والحياة لو تسنيّ لي لحظة أن أتجسد في سمكة تنام في البحر تنقلها في غفوتها التيارات والأمواج، أو في نسر يمدّ جناحيه على كتف العاصفة وحدها .

يعتبر شروق الشمس ملازماً للرحلات الطويلة في السكك الحديدية كالبيض المسلوق والصحف المصورة وورق اللعب والأنهار التي تجدد فيها قوارب لاتفلح في التقدم . وفي لحظة كنت أحصي فيها الأفكار التي ملأت ذهني في أثناء الدقائق السابقة كيما أتبين إن كنت أغفيت منذ قليل أم لا) لحظة كان التشكك نفسه الذي يحملني على التساؤل يزودني بالرد الإيجابي (رأيت في زجاج النافذة فوق حرج صغير أسود غيوماً مثلثة زغبها الناعم من لون وردي فاقد الحياة لن يتبدل من بعد كالذي يمتد على ريش الجناح الذي تمثله أو على الرسم الذي حطته فوقه نزوة الرسام . على أنني كنت أحس خلافاً لذلك أن ذاك اللون لم يكن جموداً ولا هوى، بل ضرورة وحياة . فقد تراكمت بعد قليل خلفه كميات من الضياء . وازدهى وأضحت السماء من حمرة فاتحة أخذت أحهد في استجلائها بصورة أفضل، وذلك بالصاق عيني بزجاج النافذة، لأنني كنت أحسها على صلة بأعماق حياة الطبيعة، ولكن الخطّ الحديديّ بدّل اتجاهه فجأة فانعطف القطار وحلت محل المشهد الصباحي في النافذة قرية ليلية سطوحها زرقاء من جراء ضياء القمر ولها مغسل يلبّخه التماح لبني ليلى تحت سماء لاتزال تنتثر جميع نجومها في أرجائها، وأخذني الغم لفقدان شريطي الوردي في المساء حينما لمحت من حديد، ولكنه كان أحمر هذه المرة، في النافذة المقابلة التي هجرها في منعطف ثانٍ للخطّ الحديديّ، حتى أنني قضيت وقتي أجري من نافذة إلى أخرى كيما أقرب، كيما أجمع الأجزاء المنقطعة المتعاكسة، أجزاء صباحي الجميل القرمزي المتقلب، وأكون عنه منظرأ كلياً ولوحة متصلة.

وأصبح المشهد وعراً شديداً الانحدار وتوقف القطار في محطة صغيرة بين جبلين . ولم يكن يبدو في أعماق الوادي على حافة السيل سوى بيت حارس يغوص في الماء الذي يجري حتى حافة

نوافذه. ولكن أمكن أن يكون مخلوق نتاج أرض تتذوق فيه سحرها الخاص فلا بد أن يكون الفتاة المديدة القامة التي رأيتهما تخرج من ذلك البيت وتأتي إلى المحطة على الدرب الذي كانت تغمره الشمس الشارقة بأشعتها المائلة تحمل جرة من الحليب، حتى أكثر من الفلاحة التي شدّت ماتقت أن أراها تبرز أمامي حينما كنت أضرب على وجهي وحيداً من جهة " ميزيكلز" في إحراج " روسانفيل ". ولا بدّ أنها، في الوادي الذي كانت تلك المرتفعات تحجب عنه سائر العالم، لابد أنها لم تر في يوم أحداً إلا في هذه القطارات التي لا تتوقف إلا مقدار لحظة . ومرت بجانب العربات تقدم القهوة بالحليب لبعض المسافرين المستيقظين . كان محياها الذي كسسته أشعة الصباح حمرة قانية أشد توردا من السماء وأحسست في حضرتها بتلك الرغبة في الحياة التي تنبعث فينا من جديد في كل مرة نعي فيها مجدداً الجمال والسعادة. إننا ننسى على الدوام أنهما فرديان، ونحل محلّهما في ذهننا نموذجاً اصطلاحياً نولفه من استخلاص نوع من الحد الوسط بين مختلف الوجوه التي نالت إعجابنا وبين المتع التي خبرناها فلا يظل لنا سوى صور مجردة تبدو واهنة تفهه لأنه إننا تنقصها بالضبط سمة الشيء الجديد التي تختلف عما عرفنا، تلك السمة الخاصة بالجمال والسعادة . ونحن نحكم على الحياة حكماً متشامماً نفترض أنه صحيح لأننا فلننا أننا ندخل في حسابنا السعادة والجمال حينما أغفلناهما واستبدلنا بهما تأليفات لم يظل منهما فيها ذرة واحدة . وهكذا يتشاب سلفاً من ضجر مثقف يحدثونه عن كتاب جديد لأنه يتخيل ضرباً من مركب نقتبسه من جميع الكتب التي قرأناها، فيما "الكتاب الجميل" شيء خاص وغير متوقع ولم يُصنَّ من مجموع الروائع التي سبقته، بل من أمر لا يكفي تمثلاً السابق لهذا المجموع في مساعدتنا على العثور عليه لأنه بالضبط خارج هذا المجموع . وما أن يحيط المثقف علماً بهذا الكتاب الجديد حتى يشعر، وكان - لحين - ميت الإحساس، أن لديه اهتماماً بالواقع الذي يصوره . كذلك خلفت الفتاة الجميلة في على الفور، وكانت لا تمت بصلة إلى نماذج الجمال التي يرسم خطوطها فكري حينما أكون وحدي، مذاق سعادة معينة (وهي الشكل الوحيد والخاص على الدوام الذي يمكن أن نعرف فيه طعم السعادة)، سعادة ربما تحققت في العيش بالقرب منها . على أن انقطاع " العادة " المؤقت قد فعل فعله ههنا أيضاً إلى حد كبير . فقد جعلت بائعة الحليب تفيد من أن كياني كان بكامله في مواجهتها وهو قادر على تذوق أعنف المتع . ذلك أننا نعيش بالعادة بكياننا المقلص إلى أدنى حد، وتظل معظم حواسنا غافية لأنها تتكلم على العادة التي تعرف ما ينبغي لها أن تفعل ولا حاجة بها إليها . ولكن توقف رتبة العيش لديّ في صبيحة يوم السفر هذه، وتبدل المكان والساعة جعلاً من وجودها أمراً ضرورياً . لقد أخلت السائح عاداتي التي كانت مقيمة ولم تكن صباحية فأسرعت جميع حواسي تتبارى فيما بينها كيما تحل محلها - وتتعالى جميعها كالألواح إلى المستوى غير المعتاد نفسه - من أدناها إلى أكثرها نبلا، من التنفس والشهية والدورة الدموية إلى الإحساس والخيال . ولست أعلم إن كان سحر هذه الأمكنة الموحشة أو همني بأن هذه الفتاة لاتشبه النساء الأخريات فزاد من سحرها ولكنها كانت تفعل بها بالمثل . ولعل الحياة كانت تبدو لي للديدة لو استطعت فقط أن أقضيها معها ساعة فساعة وأن أرافقها حتى السيل، حتى البقرة، حتى القطار وأن أكون دوماً إلى جانبها وأحس أنني معروف لديها وأن لي مكاناً في فكرها . لعلها كانت تكشف لي مفاتيح الحياة

الرفيعة وساعات النهار الأولى . وأشارت إليها أن تأتي لتعطيني قهوة بالحليب، فقد كانت بي حاجة إلى أن تلاحظني . ولم تبصرني فناديتها. كان لون وجهها من فوق قامتها المديدة ذهبيا مورداً إلى حد تبدو معه وكأنها تشاهد عبر زجاج ملون مضاء . وعادت أدراجها وأنا لا أستطيع أن أصرف نظري عن وجهها الذي يزداد اتساعاً كمثل شمس يمكن التحديق فيها وتقرب منك حتى لتجنيء بالقرب منك تماماً وتدع لك أن تشاهدها عن كتب فتبهرك بذهبها وحمرتها ورمقتي بنظرتها الحادة ولكن القطار تحرك فيما كان المستخدمون يفلقون الأبواب . ورأيتها تغادر المحطة وتسلك الدرب ثانية . لقد أشرق النهار الآن تماماً وأخذت أبتعد عن الفجر . وسواء أكانت تلك الفتاة الباعث لحماستي أم أن حماستي سببت أعظم قسم من المتعة التي أصبتها من وجودي بالقرب منها فقد امتزجت بها على أية حال إلى حد أن رغبتني في لقاء بها جديد كانت قبل كل شيء الرغبة الأدبية في ألا أدع حالة الهيجان هذه إلى زوال تام وألا أنفصل إلى الأبد عن الكائن الذي شارك فيها وإن يك على غير علم منه . وما ذلك لأن تلك الحالة جاءت ممتعة، بل لأنها كانت تضفي على وجه الخصوص (مثلما ينتج عن زيادة شد التوتر أو زيادة سرعة اهتزاز عصب صوت مختلف أو لون مختلف) لونا آخر على ما كنت أرى وكانت تدفع بي ممثلاً في عالم مجهول وأكثر إمتاعاً بما لا يقاس . كانت تلك الفتاة الجميلة التي ما أزال ألمحها والقطار يضاعف من سرعة سيره وكأنها جزء من حياة غير تلك التي كنت أعرفها، تفصلها عنها حاشية دقيقة . ولم تعد الأحاسيس التي توقظها الأشياء واحدة فيها، ولعل الخروج منها الآن كان بمثابة أن أموت لداتي . وربما بدا كافياً، كيما أنعم بعلوبة الإحساس بأنني أرتبط على الأقل بهذه الحياة، أن أقطن على مقربة كافية من المحطة الصغيرة كي أستطيع المجيء في كل صباح لأطلب من هذه الفلاحة قهوة بالحليب . ولكنها سوف تكون، وأسفي غائبة دوماً عن الحياة الأخرى التي كنت أمضي نحوها بسرعة متزايدة والتي لم أسلم بالقبول بها إلا بتدبير خطط تمكيني ذات يوم أن أسقل هذا القطار نفسه وأتوقف في هذه المحطة نفسها، هذا المشروع الذي كان من حسناته أيضاً أنه يقدم الزاد لميل مصلحي ناشط عملي ألي خامل متهرب هو من خصائص عقلنا فهو يُعرض تلقائياً عن الجهد اللازم لتعمق في ذواتنا بشكل عام ومتجرد انطباعاً ممتعاً نعمنا به . وبما أننا نبغي من جهة ثانية أن نوالي التفكير به، فهو يفضل تخيله في المستقبل وإعداد الظروف التي يمكن أن تبعثه من جديد إعداداً حاذقاً، الأمر الذي لا ينجينا بشيء عن ماهيته ولكنه يجنبنا تعب إعادة خلقه في ذواتنا ويسمح لنا بأمل الحصول عليه ثانية من الخارج .

تفيد بعض أسماء المدن من مثل " فيزليه " أو " شارتر " أو " بورج " أو " بوفيه " في الدلالة باختصار على كنيستها الرئيسية . ويفضي هذا المعنى الجزئي الذي نأخذ في الغالب فيه - إن تعلق الأمر بإمكانه لانعرفها بعد - إلى نقش الاسم بكامله، فإذا ما أردنا أن نقحم فيه فكرة المدينة - المدينة التي لم نرها قط - فإنه يفرض عليها - شأن القالب - صنوف النقش نفسها ويجعل منها نوعاً من الكاتدرائية الكبيرة من الطراز نفسه . على أنني إنما قرأت في إحدى محطات السكك الحديدية اسم "بالبيك"، وهو من طراز كاد يكون فارسيّاً، فوق مقصف وبحروف بيضاء على لافتة زرقاء . واجتزت مسرعاً المحطة والشارع الذي يفضي إليها وسألت عن الشاطئ كي لا أبصر سوى

الكنيسة والبحر . ولم يبد أنهم أدركوا ما كنت أبغي قوله، فلم تكن " بالبيك القديمة "، " بالبيك التي في الأرض "، والتي كنت فيها، لاشاطعاً ولا مرفأً . صحيح أن الصيادين وجدوا في البحر، بحسب الأسطورة، المسيح العجائبي الذي كان يروي اكتشافه زجاج ملوّن في هذه الكنيسة التي كانت على أمتار مني، وصحيح أن حجر صحن الكنيسة والأبراج قد استخرج من الجروف التي تضربها الأمواج. ولكن هذا البحر الذي تصوره من جراء ذلك يلفظ أنفاسه على حضبيض الزجاج الملون كان على بعد خمسة فراسخ وتزيد، في " بالبيك الشاطي"، وكان برج الجرس، بالقرب من قبتها، وقد تمثلته على الدوام، لأنني قرأت بالأمس أنه جرف نورماندي وعرو هو الآخر تتراكم فيه الحبوب وتدور في بطنه الطيور، وكأنما يبلغ أساساته آخر زيد في الأمواج المتعالية، كان يرتفع فوق ساحة يتفرع فيها خطا

حافلة كهربائية قبالة مقهى يحمل فوق جداره كلمة " بليارد " وقد كتبت بحروف من ذهب . كان يبرز على خلفية من بيوت لا يمتزج بسطوحها أي صار . والكنيسة التي ولجت ساحة اهتمامي مع المقهى وعابر السبيل الذي انبغى أن أسأله طريقي والمحطة التي أزمع العودة إليها، إنما كانت تؤلف كلا واحداً مع مابقى وتبدو بمثابة صدفة، بمثابة أمر أنتجتة أواخر ما بعد الظهر هذا الذي تبدو فيه القبة الناعمة المنتفخة على صفحة السماء وكأنها ثمرة تنضج قشرتها الموردة المذهبة اللاذبة الأشعة نفسها التي تغمر مداخل البيوت. ولكنني لم أشأ التفكير من بعد إلا بمعنى المنحوتات الأزلي حينما تعرفت الرّسل^(١) الذين سبق أن رأيت تماثيلهم مقولة في متحف " الترو كاديرو " والذين كانوا ينتظرونني على جانبي العذراء أمام فتحة البوابة العميقة وكأنما ليكرّموني . كانوا يبدون بوجوههم الطبية المفلطحة العذبة وظهورهم المحنّية وكأنهم يتقدمون مرحبين وينشدون نشيد " هليلويا " في يوم سعيد . ولكنك كنت تلاحظ أن ملامحهم ثابتة لا تتحول كملامح الأموات ولا تبدل إلا إذا درت من حولها . وكنت أقول في نفسي : إنها هنا، هذه كنيسة " بالبيك " وهذه الساحة التي تبدو عارفة بأعجائها هي المكان الوحيد في العالم الذي يضم كنيسة " بالبيك " . كان مارآته حتى الآن صورا لهذه الكنيسة، لهؤلاء الرسل، لعذراء البوابة هذه وكلهم ذائع الصيت، كانت تماثيل مصبوبة فحسب. أمّا الآن فإنها الكنيسة ذاتها، إنه التمثال ذاته، والكل فريد : إنها أكثر من ذاتها .

وربما كانت أقل منها أيضاً . فمثلما يرى شاب، يوم الامتحان أو المباراة، أن الأمر الذي سئل عنه، أن الرصاصة التي أطلقها شيء هين حينما يفكر في احتياطي العلم والشجاعة الذي كان يودّ إبرازه، كذلك كان فكري قد نصب عذراء البوابة خارج النسخ التي تسنى لي أن أراها، لاتطالها التقلبات التي يمكن أن تهدد هذه الأخيرة، وتظل هي هي إن تم إتلاف تلك، وهي مثالية وتتمتع بقيمة مطلقة، فكان يدهشه أن يصير التمثال الذي أقدم عليّ نحته ألف مرة وقد رُدّ الآن إلى مظهره الحجري الخاص وهو يشغل بالنسبة إلى مدى ذراعي مكانا تنافسه فيه لصيقة انتخابية وطرف عصاي، وقد قيد بالساحة ولا يستطيع الانفصال عن منفذ الشارع الكبير ولا يمكنه تجنب نظرات

المقهى ومكتب سيارت النقل وعلى صفحة وجهه يمتد نصف شعاع الشمس الغاربة - وعما قليل، وبعد انقضاء بضع ساعات، نور المصباح الليلي - الذي يمتد نصفه الآخر على مكتب مصرف الخصم، وتبلغه في الآن نفسه، كما هي حال هذا الفرع لإحدى مؤسسات التسليف روائح عفنة تنبعث من مطابخ بائع الحلوى، ويخضع لاستبداد الفرد إلى حد أنني لو وددت أن أسطر توقيعى على هذا الحجر فهي، عنيت العذراء الشهيرة التي حبوتها حتى ذاك بوجود عام وبجمال لاتمسه يد، عذراء "بالبيك" الفريدة (الأمر الذى يعنى الوحيدة، وأسفى)، هي التي سوف ترى جميع المعجبين الذين جاؤوا إلى هذا المكان ليتأملوها فوق جسمها الملوث بالسخام نفسه الذي يعلو الدور المجاورة، أثر قطعة الحكك

والحروف التي تؤلف اسمي دون أن يمكنها التخلص منها، وهي أخيراً ذلك العمل الفني الخالد الذي طال شوقي إليه، هي التي كنت أجدتها وقد استحالت، شأن الكنيسة نفسها، عجوزاً صغيرة من حجر أستطيع أن أقيس ارتفاعها وأعد تجاعيدها . كان الوقت يمضي ولا بد لي من العودة إلى المحطة حيث يقع عليّ أن أنتظر جدتي و "فرانسواز" لنذهب سوياً إلى "بالبيك الشاطيء" وأخذت أذكر مآثره حول "بالبيك" وأقوال "سوان": إنها رائعة وفي مثل جمال سينا " وإذ القيت تبعة ما أصابني من خيبة على أمور عارضة فحسب، على الحالة السيئة التي كنت فيها وتعبي وأنا لا أحسن النظر إلى الأشياء، فقد كنت أحاول جلب العزاء لنفسى وأنا أفكر بأنه لا يزال ثمة مدن أخرى بعد على حالها بالنسبة إليّ وأنا أستطيع ربما عما قريب الدخول، وكأنما وسط زخه من اللائي، في التفريد الندي الذي ينطلق من تقطرات حروف "كامبرليه" واجتياز الضياء المخضوض والوردي الذي يغمر "بونتافن". أما فيما يخص "بالبيك" فما أن دخلت إليها حتى بدا وكأنني فتحت اسماً كان ينبغي أن أحتفظ به محكم الإغلاق، اسماً اندفعت داخل مقاطعه، وقد استغلت المنفذ الذي قدمته غير محاذر وطردت جميع الصور التي عاشت فيها حتى ذاك، حافلة كهربائية ومقهى والناس الذين كانوا يعبرون الساحة وفرع مكتب مصرف الخصم، اندفعت يسوقها على نحو لا يقاوم ضغط خارجي وقوة هوائية داخل المقاطع التي انغلقت عليها وتركتها الآن توطر بوابة الكنيسة الفارسية ولن تنفك تحتويها بعد الآن.

في الخطّ الحديدي الصغير ذي الأهمية المحلية الذي سيقّلنا إلى "بالبيك الشاطيء" التقيت بجدتي ولكنني التقيت بها وحدها - فقد خطر لها أن تبعث "فرانسواز" قبلها كي يتم إعداد كل شيء سلفاً (ولكنّها لم تفلح، وقد زوّدتها بمعلومات خاطئة، إلا في إرسالها في اتجاه خاطئ)، وكانت "فرانسواز" في تلك اللحظة تمضي، ولا يخامرها الشك، بأقصى السرعة باتجاه "نانت" وربما أفادت في "بورديو". وما إن جلست في العربة التي ملأها نور الغروب العابر وحرّ ما بعد الظهيرة الدائم (فيسمح لي الأول، للأسف، أن أبصر بوضوح على وجه جدتي إلى أي حدّ أرهقها الثاني) حتى سألتني: "و"بالبيك"؟ هات نرّ" بابتسامة يشرق فيها أمل المتعة الكبيرة التي تحسب أنني نلتها إشراقاً شديداً إلى حدّ أنني لم أجرؤ أن أقرّ لها بخيبة أملي دفعة واحدة. وقد أخذ الانطباع الذي سعي إليه فكري يشغلني على أية حال أقل فأقل كلما اقترب المكان الذي كان ينبغي لجسمي أن يتعوّده .

كنت أحاول في نهاية هذه الرحلة، ولاتزال على بعد يتجاوز الساعة، أن أتخيل مدير فندق "بالبيك" الذي كنت غير موجود بالنسبة إليه في هذه اللحظة وودت لو أمثل أمامه في صحنبة أكثر مهابة من صحنبة جدتي التي تزعم بالتأكد المطالبة بتخفيضات. كان يبدو لي متمسماً بغطرسة أكيدة ولكنه غير واضح الخطوط.

كان الخط الحديدي الصغير يتوقف بنا في كل لحظة في واحدة من المحطات التي تسبق "بالبيك الشاطيء"، وتبدو بي أسماؤها ذاتها ("انكارفيل" و "ماركوفيل" و "دوفيل" و "بونتاكولوفر" و "أرامبوفيل" و "سان مارس لوفيو" و "هيرمونفيل" و "مينفيل") غريبة في حين أنني لو قرأتها في كتاب لأصبحت على بعض الصلة بعدد من الأمكنة المجاورة له "كومبريه". بيد أنه يمكن لنغمين يؤلفهما على الصعيد المادي العديد من النوطات نفسها ألا يحملا أي تشابه إلى أذن الموسيقي إن هما اختلفا باللون النغمي والتأليف الأوركستراي. كذلك ما كان من أمر يذكّرني، أقلّ مما تفعل تلك الأسماء الحزينة المصنوعة من رمل وأجواء مكشوفة تماماً ومقفرة ومن ملح، وفوقها تنطلق كلمة "فيل" (مدينة) كلفظة "طار" في لعبة "طار الحمام"، باسمي "روسانفيل" أو "مارتانفيل" اللذين كانا من جراء أنني كثيراً ما سمعت شقيقة جدي تنطق بهما على المائدة وفي غرفة الجلوس قد اكتسبا روعة حزينة ربّما امتزجت فيها خلاصات من طعم المرببات ورائحة نار الحطب وورق أحد كتب "بيرغوت" ولون الفخار على صفحة البيت المقابل، واللذين لا يزالان يحتفظان اليوم، حينما يصعدان من أعماق ذاكرتي على هيئة فقاعة هوائية، بزعمهما الخاص عبر تكلس مسافات الأوساط المختلفة التي يقع عليهما اجتيازها قبل الوصول إلى السطح.

كانت تلك محطات صغيرة تشرف على البحر البعيد من عالي هضابها الرملية أو تعدّ النفس ليل على حضيض هضاب زاهية الخضرة مزعجة الشكل كما هي حال الكنية في غرفة فندق وصلت إليه منذ قليل، وتتألف من بضع دارات يمتد خلفها ملعب لكرة المضرب وأحياناً كازينو تحقّق في الهواء البارد رائته وهو مقفر كتيب، محطات صغيرة تريني للمرة الأولى نزلاءها ولكنها تريني إياهم في مظهرهم المعتاد - فلاعبو كرة مضرب بقبّعات بيضاء، ومدير المحطة الذي يعيش هناك بالقرب من أثلاثه ووروده، وسيدة تعتمر قبعة بحار كانت إذ تستدعي سلوكيّها المتخلف وتعود إلى دارتها التي أضيء مصباحها إنما ترسم المسار المعتاد لحياة لن أعرفها في يوم - وتؤدي أشد الأذى بهذه الصور المألوفة إلى حدّ الغرابة الأليفة، إلى حدّ الازدراء، نظراتي المجهولة وفؤادي الذي في غربة. ولكن كم تفاقم عذابي بعد ما حللنا في بهو فندق "بالبيك" الكبير، قبالة الدرج الأثري الذي يقلد الرخام، وفيما كانت جدتي تناقش، غير عابئة أن تزيد من عداء الغرباء الذين ترمع العيش فيما بينهم ومن ازدرائهم أيضاً، تناقش "الشروط" مع المدير، وهو من صنف "المكرشين" ذو وجه وصوت مليئين بالندوب (التي خلفها في الأول استئصال بثور عديدة منه وفي الثاني استئصال اللهجات المختلفة الناجمة عن أصول بعيدة وطفولة تقلبت في بلدان كثيرة)، ولباس رجل مجتمعات ونظرة عالم نفسي يضع، لدى وصول عربة المسافرين، كبار القوم موضع المعدمين ونشالي الفنادق موضع كبار القوم! كان يدي ازدراء عميقاً إزاء الناس الذين تشكّل خمس مئة فرنك، أو بالأحرى خمسة وعشرون ليرة

ذهبية، حسبما يقول مبلغاً في نظريهم ويعلمهم من فئة جماعة منبوذة لم يكن الفندق الكبير مخصصاً لهم، وينسى دونما شك أنه لا يقبض، هو نفسه، خمسين مئة فرنك كمرتب شهري. كان ثمة بالحقيقة في هذا الفندق نفسه جماعة لا يدفعون أثماناً مرتفعة جداً ويحفظون مع ذلك بتقدير المدير بشرط أن يتأكد هذا الأخير أنهم يقترون في الإنفاق لا عن فقر بل عن بخل. فالبخل لا يمكن أن يُفقد المهابة شيئاً إذ هو نقيضة ويمكن بالتالي وجوده في جميع الحالات الاجتماعية. والحالة الاجتماعية كانت الأمر الوحيد الذي يعبره المدير اهتمامه، الحالة الاجتماعية أو بالأحرى العلامات التي تتضمن في نظره أنها مرتفعة كان لا يكشف المرء عن رأسه في دخوله إلى البهو وأن يرتدي بنطالاً فضفاضاً ومغطاً على قد الجسم وأن يخرج "سيكاراً" بحزام من أرجوان وذهب من علبة مصنوعة من جلد مصقول (وكنتم أفقر، وأسفي، إلى جميع هذه الحسنيات)، وكان يرصع أقواله التجارية بعبارات منتقاة ولكنها بخلاف المعنى.

وفيما كنت أسمع جدتي تسأله بلهجة مصطنعة، دون أن يسوعها أنه يصغي إليها وقبعته على رأسه فيما يصفر بين أسنانه: "وماهي... أسعاركم؟... أوه ! إنها باهظة بالنسبة إلى ميزانيتي الصغيرة"، كنت أهرب، وأنا في انتظار على بنك صغير، إلى أعماق أعماق ذاتي وأجهد في الانصراف إلى أفكار أزلية وفي أن لا أدع شيئاً، أي شيء حي، من ذاتي يطفو على صفحة جسمي - وقد أصابها الخدر، كما هي حال الحيوانات التي تتصنع الموت بفعل عملية تثبيط حينما تصاب بجرح - كي لا أتعذب كثيراً في هذا المكان الذي تزيد فيه من إحساسي بالافتقار التام إلى توعده رؤية العادة التي يبدو أنها تيسرت في الوقت نفسه لسيّدة أنيقة كان المدير ييدي لها احترامه باللجوء إلى بعض صنوف التمادي مع الكلب الصغير الذي يتبعها، وللشباب الأنيق الذي يعود تخفي رشته في قبعته ليسأل "إن كان ثمة رسائل له"، ولجميع هؤلاء القوم الذين يساوي تسلق الدرجات التي من رخام كاذب العودة إلى بيوتهم.

وقد رمانى في الوقت نفسه بنظرة "مينوس" و "أياكوس" و "رادامانتوس" ^(١) الصارمة (نظرة غمرت بها نفسي العارية وكأنما في مجهول لم يعد يحميها شيء فيه) سادة يحملون لقب "مدير استقبال" وربما كانوا قليلي الاطلاع على فن "الاستقبال". وعلى بعد قليل منهم، وخلف زجاج مغلق، كانت تجلس جماعة في صالة مطالعة لعله كان ينبغي لي لوصفها أن أنتقي في كتاب "دانتة" على التوالي الألوان التي يضيفها على الجنة وعلى جهنم حسبما كنت أفكر في سعادة المختارين الذين كان يحق لهم أن يقرؤوا فيها بطمأنينة تامة أو في الذعر الذي ربما بعثته في جدتي لو أمرتني بالدخول إليها وهي لا تكثر بهذا النوع من الانطباعات.

وبعد ذلك بفترة تضاعف شعوري بالعزلة. فإذ سبق لي أن أفضيت لجدتي بأنني لم أكن على ما يرام وباعتقادي أننا سوف نضطر للعودة إلى باريس قالت دونما اعتراض إنها خارجة ابتغاء لبعض

(١) Minos, Eaque, Rhadamante : من الشخصيات الأسطورية البارزة في تاريخ اليونان القديم، واشتهروا بالحكمة والتقوى ولذلك يقال إنهم القضاة المشرفون على ديونة الأموات في الحياة الأخرى.

المشتريات، وهي مفيدة سواء أذهبنا أم بقينا (وقد علمت فيما بعد أنها جميعها مخصصة لي إذ كانت "فرانسواز" تحمل معها حاجات ربما كنت بحاجة إليها) . وذهبت بانتظار عودتها أذرع الشوارع التي يزدحم فيها جمهور يحافظ فيها على مايشبه دفء المنازل والتي كانت لاتزال تفتح أبوابها فيها دكان الحلاق وصالة حلواني يتناول فيها بعض الرواد مثلجات أمام تمثال "دوغيه - تروان" . وقد أشاع في صدري من السرور بقدر ما يمكن أن تشيع صورته على صفحات مجلة مصورة من سرور في صدر مريض يقبلها في قاعة انتظار أحد الجراحين. وكنت أدهش أن يكون ثمة أناس يختلفون عني إلى حدّ أن يشير عليّ المدير بهذه النزهة في المدينة على أنها من قبيل التسلية وأن يبدو مكان العذاب الذي قوامه المنزل الجديد أن يبدو لبعضهم بمثابة "مرتج ملذات" على حدّ ما تعلن نشرة الفندق الدعائية التي يمكن أن تبالغ ولكنها موجهة إلى مجموعة كاملة من الزبائن الذين تسامر ميولهم . صحيح أنها كانت تلجأ، كيما تجتذبهم إلى الفندق الكبير، لا إلى "العزيزة الطيبة" و "المنظر الرائع في حدائق الكازينو" فحسب، بل كذلك إلى "قرارات صاحبة الجلالة الموضوعة التي لايمكن مخالفتها على نحو فاضح دون أن يوضح المرء موضع الأجلاف، الأمر الذي لا يؤدّ التعرض له أي رجل في قسط وافر من التهذيب".

وقد زاد من حاجتي إلى جدتي خوفاً من أن أكون تسببت لها بخيبة أمل. فلا بدّ أن عزيمتها ثبّطت وأنها تحسّ أنني إن كنت لأحتمل هذا التعب فالحالة تدعو إلى اليأس من أن يمكن لأية رحلة أن تنفعني وقررت العودة لانتظارها. وجاء المدير يضغط بنفسه على زرّ ؛ وإذا بشخص يدعوته "مصعباً"، ولا يزال مجهولاً لديّ، (وكان يقبع في أعلى نقطة في الفندق، حيثما المنور في كنيسة نورماندية، وكأنه مصور خلف نافذته الزجاجية أو عازف أرغن في غرفته) إذا به يشرح بالانحدار نحوي بخفة سنجاب أهليّ مجدّد سجين، ثم حملني خلفه وهو ينزلق على طول عمود باتجاه قبة الجناح التجاري. وكانت تنتشر في كل طابق على جانبي أدراج توزيع صغيرة وعلى هيئة مراوح ممرات مظلمة تنتقل عبرها وصيفة تحمل وسادة . كنت ألصق فوق وجهها الذي أضفى عليه الشفق غموضاً قناعاً أشدّ أحلامي جوىً ولكنني أقرأ في نظرتها التي ترنو بها إليّ فظاعة عديمي. وكيما أبدّد، في أثناء عملية الصعود التي لا تنتهي، القلق القاتل الذي أعاني منه من جراء اجتيازي صامتاً خفياً تلك الأضواء الخافتة التي لاشاعرية فيها، وليس من نور سوى صفّ عمودي واحد من الزجاج يشكله المرحاض الوحيد في كل طابق، خاطبت عامل الأرغن الصغير صانع رحلتي ورفيق أسري الذي كان يوالي شد زرار آله والضغط على أنايبها. واعتذرت أنني أشغل حيناً كبيراً وأن أحمله قدراً عظيماً من المشقة وسألته، إن كنت لأضايقه في ممارسته لفنّ لجأت بشأنه، كيما أمتدح العازف الماهر، إلى أكثر من إبداء الفضول إذ اعترفت بإيثاري له. ولكنه لم يجبني إمّا لدهشته من أقوالي أو لانصرافه لعمله أو لاهتمامه باللباقة أو لوقر في الأذنين أو احتراماً للمكان أو مخافة الخطر أو لحمول العقل أو بتوجيه من المدير.

قد لا يكون ثمة مايورثنا إحساساً بحقيقة ما كان خارجاً عنا أكثر من تبدل موقع شخص، وإن يك تافهاً، بالنسبة إلينا قبلما تمّ لنا التعرّف به وبعد. لقد كنت الرجل نفسه الذي استقلّ الخطّ

الحديدي الصغير من "البليك" في أواخر بعد الظهر وكنت أحمل في داخلي الروح نفسها. إلا أنه كان في تلك الروح وفي المكان الذي كان يعمره في الساعة السادسة، إلى جانب استحالة تحيل المدير والفندق والخدم، انتظار مبهم متوجس للحظة التي سأصل فيها، كان هنالك الآن البثور المقتلعة في وجه المدير المتعبد الجنسيات (وقد اكتسب بالحقيقة جنسية إمارة "موناكو" مع أنه - حسبما يقول لأنه كان يلجأ دوماً إلى عبارات يحسبها أنيقة دون أن يتنبه أنها خاطئة - من "أصلية رومانية" ^(١) (والحركة التي يقرع بها جرس المصعد والمصعد نفسه وحاشية كاملة من الشخصيات الكراكونية التي خرجت من "صندوق الدنيا" هذا الذي هو الفندق الكبير وكلها لاتقبل الدحض ولاالتبدل وهي محتملة بالعقم شأن كل ماتحقق. على أن هذا التبدل الذي لم أتدخل فيه إنما كان يُتَبَّعُ لي على الأقل أن أمراً خارجاً عني قد حدث - مهما خلا هذا الأمر من الأهمية - وكنت كالمسافر الذي كانت الشمس من أمامه في بدء السباق فيلاحظ أن الساعات قد انقضت حينما يبصر الشمس وراءه. كان التعب قد أنهكني والحمى تهذني ووددت لو أنام ولكني ما كنت أملك ماينبغي لهذا الغرض. وددت لو أستلقي لحظة على الأقل على السرير، ولكن ما فائدة ذلك بما أنه ما كان ليتيسر لي أن أوفر الراحة لمجموعة الأحاسيس هذه التي هي بالنسبة إلى كل منا جسده الواعي إن لم يكن جسده المادي، وبما أن الأشياء المجهولة التي تطوقه كانت، لإرغامها إياه على وضع أحاسيسه على أهبة الدفاع الدائم اليقظة، سوف تحتفظ بنظراتي وسمعي وجميع حواسي في وضع مقلص ومزعج (حتى لو مددت ساقني) شبيه بوضع الكاردينال "لابالو" ^(٢) في القفص الذي لم يكن يسعه فيه الوقوف أو الجلوس. وإنما انتباهنا الذي يضع حاجات في الغرفة والعادة التي تخرجها منها وتوسع لنا مكاناً فيها. فأما المكان فلم يتيسر لي شيء منه في غرفتي في "البليك" (غرفتي بالاسم فقط)، فقد كانت تعج بأشياء لاتعرفني ردت لي نظرة الارتياح التي رميتها بها وأعربت لي، دون أن تحسب أي حساب لوجودي، أنني أحرَبُ رتابة عيشها. واستمرت ساعة الحائط - في حين لم أكن أسمع في البيت ساعتني إلا مقدار بضع ثوان فحسب في الأسبوع حينما أخرج من تأمل عميق - تدلي دون أن تتوقف لحظة واحدة، وبلغة مجهولة، بأقوال لا بد أنها كانت تسيء إلي إذ كانت الستائر البنفسجية الكبيرة تصغي إليها ولاتجيب، ولكنها تفعل بمظهر شبيه بمظهر الناس الذين يرفعون أكتافهم ليظهروا أن رؤية رجل ثالث تغيظهم. وكانت تضفي على هذه الغرفة العالية جداً طابعاً يكاد يكون تاريخياً كان يمكن أن يجعلها مناسبة لمقتل الدوق "دوغيز" وفيما بعد لزيارة سيّاح يقودهم دليل من وكالة "كوك" ولكنها لاتناسب نومي على الإطلاق. وكان يقلقني وجود مكثبات صغيرة مزججة تجري على امتداد الجدران، وعلى وجه الخصوص مرآة كبيرة بقاعدة أوقفت في عرض الحجرة وكنت أحس أن ليس من فرج ممكن بالنسبة إليّ قبل رجليها. وكنت أرفع ناظري في كل لحظة - وما كانت تضايقيهما الحاجات التي في غرفتي في باريس أكثر مما تفعل حلقتي إذ لم تكن من بعد

(١) ورد في النص Originalité بدلا من Origine فحاولنا ردها بـ "أصلية" بدلا من "أصل".

(٢) La Balue من رجال الكنيسة في فرنسا في زمن لويس الحادي عشر، بلغ القمة ثروة ومنزلة ثم أودع السجن بعد اكتشاف اتصالاته السرية بمنافس الملك، وقيل إنه وضع في قفص من حديد.

سوى أشياء ملحقة بأعضائي، سوى تكبير لذاتي - إلى السقف الشديد الارتفاع لهذه المقصورة الواقعة في أعلى الفندق والتي اختارتها جدتي من أجلي؛ وكانت رائحة "طيب العرب" تُقبلُ حتى المنطقة التي تفوق تلك التي نرى فيها ونسمع خفاه، تلك المنطقة التي نختبر فيها نوعية الروائح، كانت تقبل حتى إلى داخل أناي لتشن عليّ في آخر معاقلي هجومها الذي كنت أضع قبائلته، ولا أخلو من تعب، الردّ اللامحدي اللامقطع المتمثل في استنشاق يشوبه الحذر. ولما لم يعد لي دنيا خاصة ولا غرفة ولا جسم إلا ويتهدّده الأعداء الذين يحيطون بي، إلا وتجتاحه الحمى حتى لتبلغ العظم، رأيتني وحيداً وداخلتني رغبة الموت. حينئذ دخلت جدتي، وانفتحت في الحال مساحات لا حدّ لها أمام تفتح قلبي المكبوت.

كانت ترتدي مبدلاً من القطن الرقيق وتعودت أن ترتديه في البيت كلّ مرة كان فيها أحدنا مريضاً (لأنها تحسّ أيضاً أنها أكثر راحة فيه، تقول وهي تخصصّ على الدوام ما تفعله بدوافع أنانية) وهو يمثل من أجل العناية بنا والسهر علينا مريلة الخادمة والمرضة وثوب الراهبة. على أن عناية هؤلاء والعطف الذي بهنّ والفضل الذي لهنّ والجميل الذي ندين به لهنّ إنما تضاعف من الانطباع الذي يخلفه لديك بأنك بالنسبة إليهن رجل آخر وبإحساسك بالعزلة إذ تدع لذاتك عبء أفكارك ورغبتك الذاتية في العيش، فيما كنت أعلم حينما كنت مع جدتي أن الغم مهما تعاطف في صدري فسوف يحتوبه عطف أكثر اتساعاً منه، وأن كل ما يخصني، أن همومي ومشيتي سوف تستند لدى جدتي إلى رغبة استبقاء لحياتي وإنماء لها أقوى بكثير من الرغبة التي بي. وكانت أفكاري تحد امتدادها لديها دون أن تعاني انحرافاً لأنها تنتقل من فكري إلى فكرها دونما تبدّل في الوسط والشخصية. وكمثل من يبغى عقد ربطة عنقه أمام مرآة دون أن يدرك أن الطرف الذي يراه غير واقع بالنسبة إليه في الجهة التي يمد فيها يده، أو مثل كلب يلاحق على صفحة الأرض ظل حشرة يتراقص أمامه - ارتعيت بين ذراعي جدتي، وقد غرّني مظهر الجسم كما هي حالنا في هذه الدنيا التي لا ندرك فيها النفوس إدراكاً مباشراً، وطبعت شفّتي على محيّاها وكأنما أصل على هذا النحو إلى قلبها الواسع الذي تفتحه لي. كنت حينما ألصق شفّتي على هذا النحو بوجنتيها وجبينها أغرف فيها من النفع والغذاء ما أحفظف معهما بجمود الطفل الذي يرضع من ثدي أمه وبجديته ونهمه المطمئن.

وكنّت أنظر بعد ذلك دونما كلل إلى وجهها الواسع الذي يبرز على هيئة سحابة جميلة ملتفة هادئة تحسّ بالحنان يشعّ من خلفها. وكلّ ما كان يداخله قليل من أحاسيسها، مهما هزل، وكلّ ما يمكن على هذا النحو أن يقال لها يكتسب روحانية في الحال ويتقدّس إلى حدّ أنّي كنت أملّس بين راحتي شعرها الجميل الذي لم يكد يتشيب بقدر من الاحترام والحيطة واللطف يوازي ما كنت أفعل لو داعبت فيه طبيعتها. كانت تجد متعة عظيمة في كل مشقة تجنّبني مثيلتها، وتجد في لحظة من الجمود والهدوء بالنسبة إلى أعضائي المتعبة أمراً بالغ الروعة إلى حدّ أنها، حينما رأيت أنها تبغى مساعدتي في الاستلقاء وفي خلع حذائي وقمت بحركة أمنعها بها عن ذلك وأباهر بخلع ملابسني بنفسني، أوقفت بنظرة متوسّلة يدي اللتين لامستا الأزرار الأولى في سترتي وحذائي. وقالت لي:

- "رجوتك. إنه لفرح عظيم بالنسبة إلى جدتك. ولا يفوتك على وجه الخصوص أن تنقر على الجدار إن كنت بحاجة لأمر ما هذه الليلة. فإن سريري يظهر سريرك والحاجز رقيق جداً، هيا أفل ذلك بعد لحظة حينما تصعد إلى سريرك لأرى إن كنا متفاهمين تماماً."

وقد نقرت بالفعل ثلاث مرات في ذلك المساء - وأعدت الكرة بعد أسبوع حينما ألم بي المرض وذلك على مدى بضعة أيام في كل صباح لأن جدتي كانت تريد إعطائي حليباً في ساعة مبكرة. فحينما كنت أحسب إذ ذاك أنني سمعتها تستيقظ - وكى لا تنتظر وتستطيع معاودة النوم في الحال بعد ذلك - كنت أجازف بثلاث ضربات صغيرة خجولة ضعيفة إلا أنها واضحة مع ذلك، لأنني إن كنت أخشى أن أقطع عليها نومها إن اتفق أنني أخطأت وأنها بعد نائمة فما كنت لأبغى كذلك أن تستمر في رصد نداء لم تميزه بادئ الأمر ولن أجرؤ على إعادة الكرة. وما أن كنت أنتهي من نقراتي حتي كنت أسمع ثلاثاً غيرها مختلفة النغمة تتسم بسلطة هائلة وتكرر مرتين لمزيد من الوضوح وتعني: "لا تضطرب، فقد سمعت وسأحضر بعد لحظات" ؛ وكانت جدتي تصل بعد ذلك بقليل. وأقول لها إنني خشيت ألا تكون سمعتني أو حسبت أن أحد الجيران قد نقر، فتضح قائلة:

- "اخلط بين نقرات "كتكوتي المسكين" ^(١) وبين أخرى غيرها، ولكن جدته تتعرفها بين ألف ! أفنظن أن ثمة في العالم ما كان في مثل غيابها واضطرابها وما يتنازعها من خشية أن توقظني وألا يتم فهمها؟ ولكن حتى لو اكتفى فأري الصغير بقرع خفيف لثم في الحال تعرفه ولا سيما حينما يكون فريداً ومدعاة للرثاء مثلما هو فأري . لقد كنت أسمعه يتردد منذ فترة ويضطرب في سريره ويقوم بجميع مناوراته."

وتفتح مصراعي النافذة. كانت الشمس مذ ذاك في الملحق البارز من الفندق تقيم على السطوح كسقاء يغدو إلى عمله في ساعة مبكرة وينجزه بصمت كي لا يوقظ المدينة التي لا تزال تنام والتي يزيد حراكها من خفتها. كانت تقول لي الساعة والطقس المتوقع وأن لاداعي أن أذهب حتى النافذة وأن البحر يغمره الضباب وإن كان المخبز قد فتح أبوابه وأية عربة تلك التي نسمعها: أي كل ما يحيط برفعة الستار هذه القليلة الشأن وصلاة أول النهار هذه وهي غير ذات بال فلا يشهدها أحد، تلك القطعة الصغيرة من الحياة التي لم تكن لسوانا نحن الاثنين والتي سيطيّب لي أن أذكرها أثناء النهار أمام "فرانسواز" أو أمام بعض الغرباء وأنا أتحدث عن الضباب الذي كالقطن المنذوف، والذي ساد في الساعة السادسة صباحاً، للتظاهر بالمعرفة المكتسبة بل للتباهي بدليل مودّة خصصت بها وحدي ؛ هذه اللحظة الصباحية العذبة التي كانت تبدأ مثل سيمفونية بالحوار الإيقاعي لضرباتي الثلاث الذي كان الحاجز يرد عليه، وقد داخله الحنان والفرح وأضحى رخيماً لامادياً ينشد كالملائكة، بثلاث ضربات أخرى أنتظرها بلهفة وتكرر مرتين ويعلم كيف يقل فيها روح جدتي بكليتها بفرح البشارة وأمانة الموسيقى. ولكنني في ليلة وصولي تلك عدت أنألم حينما تركتني جدتي

(١) ورد في النص الفرنسي Mon loup أي ذئبي.

مثلما سبق أن تألمت في باريس لحظة مغادرة البيت. ربما لم يكن ذلك الذعر الذي ألم بي - ويلم بالكثيرين غيري - من جراء النوم في غرفة مجهولة، ربما لم يكن سوى الصيغة الأكثر اتضاعاً الغامضة العضوية اللاواعية تقريباً، صيغة هذا الرفض الكبير اليأس الذي تمنع به الأشياء التي تولف أفضل ما في حياتنا الحاضرة أن نرتدي ذهنياً صيغة تسليمنا بمستقبل لا تظهر فيه، الرفض الذي كان في أساس الهلع الذي غالباً ما جعلتني أحس به فكرة موت والدي ذات يوم وأن ضرورات الحياة قد تضطرنني إلى العيش بعيداً عن "جيلبرت" أو إلى الإقامة فقط إقامة نهائية في بلاد لن أرى فيها أصدقائي من بعد. هذا الرفض الذي كان كذلك في أساس العنت الذي ألقاه في التفكير بموتي أنا أو بقاء كالذي كان "بيرغوت" يعد به البشر في كتبه والذي لن يمكنني أن أحمل معي إليه ذكرياتي وعيوب وطباعي التي ما كانت تسلم بفكرة أن لا تكون من بعد ولا تقبل فيما يخصني لا بالعدم ولا بأبدية لن يتسنى لها أن تكون فيها.

حينما قال لي "سوان" في باريس، ذات يوم كنت فيه متوعلك الصحة على نحو ملموس: "يجدر بك أن ترحل إلى جزر أوقيانيا الرائعة تلك وسترى أنك لن تعود منها ثانية"، وددت لو أجيبه: "ولكنني والحالة هذه لن أرى ابتك من بعد وسأعيش بين أشياء وأناس لم ترهم قط." بيد أن عقلي كان يقول لي: "وما هم بما أنك لن تغتم لذلك؟ فحينما يقول لك السيد "سوان" إنك لن تعود فإنما يعني بذلك أنك لن تود العودة، وبما أنك لن تود العودة فإنما لأنك سوف تكون سعيداً هناك." لأن عقلي كان يعلم أن العادة - العادة التي ستتولى الآن مهمة أن تحبب إليّ هذا المسكن المجهول، وأن تغير مكان المرأة ولون الستائر وتوقف ساعة الجدار - تأخذ على عاتقها أيضاً أن تجعل الرفاق الذين ساؤوا بادئ الأمر في عيننا أعزاء على قلوبنا وأن تهب الوجهه شكلاً آخر وأن تجعل نبرة صوت محبة وأن تبدل في ميل القلوب. صحيح أن لحمة هذه المحبة الجديدة للأمكنة والناس قوامها نسيان القديمة ؛ ولكن عقلي كان يحسب بالضبط أنني أستطيع دون جزع توقع حياة أنفصل فيها نهائياً عن كائنات سوف أفقد حتى ذكراها، فكان يقدم لفؤادي بمثابة عزاء وعداً بالنسيان كان على العكس يزيد من يأسه. وليس يعني ذلك أنه ينبغي أن لا يحس فؤادنا، بعد ما يتم الفراق، آثار العادة المسكنة، ولكنه سوف يستمر حتى ذاك في العذاب. وإن الخشية من مستقبل نحرم فيه رؤية من نحب وحديثهم، ومنهما نستخلص اليوم أئمن أفرحنا، إن تلك الخشية تتعاضد بدلاً من أن تتبدد إن ظننا أنه سينضاف إلى عذاب مثل هذا الحرمان ما يبدو لنا في الوقت الراهن أكثر قسوة منه، عينا أن لا نحس به بمثابة عذاب وأن لا نبالي به، لأن أنانا تكون قد تبدلت والحالة هذه: فليس سحر ذوينا وعشيقتنا وأصدقائنا ما سيتبدد من حولنا فحسب، بل سوف يتم انتزاع مودتنا لهم من فؤادنا الذي تولف اليوم قسماً كبيراً منه انتزاعاً تاماً إلى حد نستطيع معه أن نصادف متعة في هذه الحياة المنفصلة عنهم التي تملأنا فكرتها اليوم هلعاً. سوف يكون الأمر إذن بمثابة موت حقيقي لذاتنا، موت تليه بالحقيقة قيامة ولكن في أنا مختلفة لا يمكن لأجزاء الأنا القديمة التي كُتب عليها الموت أن ترتفع إلى مستوى حبها وإنما تلك الأجزاء - حتى ما كان منها هزيلة كأكثر ما يكون شأن التعلق الغامض بحجم غرفة وبجوها - التي تجزع وترفض ضمن أشكال من التمرد ينبغي أن نبصر فيها شكلاً خفياً

جزئياً ملموساً حقيقياً من مقاومة الموت، من المقاومة الطويلة اليايسة اليومية للموت المجرأ المتتالي على النحو الذي يداخل فيه كامل مدة حياتنا فينزع منا في كل لحظة مزقاً من ذواتنا تتكاثر على جيفتها خلايا جديدة. ولم يكن القلق المذعور الذي أحس به تحت هذا السقف المجهول والشديد الارتفاع، بالنسبة إلى مزاج عصبي كمزاجي (يعني مزاجاً يؤدي فيه الوسطاء، أي الأعصاب، وظائفهم أسوأ الأداء فلا يوقفون شكوى أكثر عناصر الأنا التي ترمع أن تزول اتضاعاً وهي في طريقها إلى الوعي، بل يدعون لها على العكس أن تبلغه واضحة مرهقة مؤلمة لا تحصى)، لم يكن سوى احتجاج صداقة لاتزال باقية في نفسي وأكتنها لسقف مألوف غير مرتفع. وما من شك أن هذه الصداقة سوف تزول إذا احتلت أخرى مكانها (ويكون الموت آنذاك ثم حياة أخرى جديدة قد أتما عملهما المزدوج تحت عنوان العادة) بيد أنها سوف تتألم كل مساء إلى أن تضمحل، وقد ثارت في ذلك المساء على وجه الخصوص، إذ وضعت بمواجهة مستقبل قد تحقق ولا مكان لها فيه من بعد، وأخذت تعذبني بصوت نواحها في كل مرة تحاول فيها نظراتي، وهي لاتستطيع الانصراف عما يجرحها، أن تحط على هذا السقف الذي لا تدركه العين.

ولكن في صباح الغد ١ - وبعدما جاء خادم يوقظني ويأتيني بماء ساخن وبينما كنت أغسل وجهي وأحاول دون جدوى العثور على الأشياء التي كنت بحاجة إليها في حقيبتني التي كنت لا أستخرج منها في غير انتظام سوى تلك التي لا يمكن أن تفيدني في شيء، أية فرحة، وأنا أفكر مذ ذاك في متعة الغداء والنزهة، أن أبصر في النافذة وفي سائر واجهات المكاتب، وكأنما في كوى حجرة على متن سفينة، البحر عارياً لا ظلال عليه مع أنه كان في الظل على نصف امتداده الذي كان يحدده خط دقيق متحرك وأن أتابع بالعين الأمواج التي كانت تندفع الواحدة تلو الأخرى كجماعة من القفازين فوق خشبة للقفز ! وكنت أعود في كل لحظة، وأنا أمسك بين يدي بالمنشفة المتصلبة المنشأة التي كتب عليها اسم الفندق والتي كنت أنفق بها جهوداً لا تجدي في تنشيفي، كنت أعود قرب النافذة لألقي نظرة أخرى على هذا الميدان الخلاب الكثير الجبال وعلى القمم الثلجية لأمواجها التي من حجر الزمرد المصقول الشفاف في هذه النقطة أو تلك، أمواجها التي تقبل بعنف هادئ وبعيسة الأسود تؤلف سفوحها وتهدم تلك السفوح التي تضيف إليها الشمس ابتسامة لا ترف على وجه. تلك النافذة التي كنت سأقف أمامها كل صباح بعد ذلك وكأنما أمام زجاج عربة نمت فيها لترى إن كانت سلسلة جبال مشتهة قد اقتربت في أثناء الليل أو ابتعدت - وهي بالمناسبة تلال البحر تلك التي تستطيع قبل أن تعود إلينا مترقصة أن تتراجع بعيداً جداً إلى درجة أنني ما كنت أبصر، على مسافة بعيدة تموجاتها الأولى في أفق شفاف ضبابي مائل إلى الزرقة كتلك الجليديات التي تراها في أقصى لوحات رسامي "توسكانا" الأوائل، إلا بعد سهل رملي واسع. وفي مرات أخرى كانت الشمس تضحك قريباً مني على تلك المياه التي من خضرة في مثل الطراوة التي تحفظها لمروج جبال "الألب" حركة الضوء الرجراج أكثر مما تفعل رطوبة الأرض (في الجبال التي تمتد فيها الشمس ههنا وهناك كمعلاق ينحدر فرحاً وبقفزات غير متساوية على سفوحه). وإنما الضوء، في هذه الثغرة التي يفتحها الشاطئ والمياه وسط باقي العالم لتسهل مرور الضوء وتراكمه فيها، إنما هو

الذي يغير ويحدد على وجه الخصوص مواقع الوهاد في البحر بحسب الاتجاه الذي يجيء منه والذي تتابعه أعيننا. وليس يبدل اختلاف الضوء اتجاه مكان ولا يضع نصب أعيننا أهدافاً جديدة يبعث فينا رغبة الوصول إليها أقل مما يفعل مشوار طويل قطعناه بالفعل في أثناء رحلة. حينما كانت تجيء الشمس في الصباح من خلف الفندق وتكشف أمام ناظري الرمال المنورة حتى معالق البحر الأولى، كانت تبدو وكأنها تكشف لي عن سفح آخر وتحثني أن أتابع على طريق أشعتها المتحولة رحلة ثابتة ومنوعة عبر أجمل مواقع لمنظر الساعات المتموج. كانت الشمس منذ ذلك الصباح الأول تريني في البعيد، بإشراق ترفّ حول يدها، قمم البحر الزرقاء التي لا تحمل اسماً على أية خريطة جغرافية حتى يأخذها الدوار من جراء رحلتها الرائعة على صفحة قممها ووهادها المدوية التي تغمها الفوضى فتبادر إلى غرفتي تحتمي فيها من الريح وترتاح فوق السرير المخرب وتثر ثرواتها فوق المغسلة المبلولة وفي الحقيبة المفتوحة حيث تزيد من جراء روعتها ذاتها وبذخها الذي في غير محله من الشعور بالفوضى. أما هواء البحر فقد بدا بعد ساعة في قاعة الطعام الكبيرة - وفيما كنا نتناول طعام الغداء ونعصر من "زمزية" ليمونة بضع قطرات ذهبية على سمكي موسى خلقتنا بعد قليل في قصصنا خصلات حسكهما، الجعد كريش الطير، الرنان كمثل قيثارة - بدا من أسف مؤلماً لجذتي أن لا تحس بأنفاسه العلية بسبب الإطار الشفاف والمغلق الذي كان يفصلنا، على غرار واجهة زجاجية، عن الشاطئ ويسمح لنا في الوقت نفسه بمشاهدته كلياً، وكانت السماء تنتشر فيه انتشاراً تاماً حتى تبدو زرقتها وكأنها لون النوافذ، وغيماها البيضاء وكأنها عيب في الزجاج. وكنت أفسد، وقد أقنعت ذاتي بأنني أجلس على الرصيف البحري أو في أقصى البهو الذي يتحدث عنه "بودلير"، إن لم تكن "شمسه المشرقة على البحر" - وهي شديدة الاختلاف عن شعاع المساء البسيط والسطحي كخط مذهب ومرتعش - تلك التي كانت في هذه اللحظة تتوهج في البحر كمحجر الباقوت وتختره وتجعله أشقر لبني اللون كشراب "البيرة"، مؤبداً كالحليب فيما تنتقل بين الحين والحين ههنا وهناك ظلال زرقاء واسعة تبدو وكأنما يتلهى إله في تنقيطها بتحريك مرآة في السماء. والمؤسف أن قاعة الطعام التي في "باليك" لم تكن تختلف بمظهرها فحسب عن "قاعة" كومبريه المطلة على البيوت المقابلة، قاعة "باليك" هذه العارية المليئة بأشعة حضراء كالمياه في حوض سباحة والتي يرفع المد الصاعد وضياء الشمس على بضعة أمتار منها سوراً من زمرّد وذهب لا يمكن دكه ولا يثبت في مكان، وكأنما أمام المدينة السماوية ما كنت أهتم لأحد في "كومبريه" بما أن الكل كان يعرفنا. أما في حياة الحمامات البحرية فإنك لا تعرف جيرانك. ولم أكن قد بلغت بعد من السن ما يكفي للتخلي عن رغبتني في أن أروق الناس وأمتلكهم وظل لديّ من الحساسية ما حال دون ذلك. ولم تتجمع لديّ اللامبالاة الأكثر نبلاً التي ربما خالجت رجل المجتمعات حيال الأشخاص الذين كانوا يتناولون طعام الغداء في قاعة الطعام أو الشبان والشابات الذين يمرون فوق جدار السد والذين كان يعذبني التفكير بأنه لن يتسنى لي القيام برحلات معهم، والعذاب أقل على أية حال مما لو أقدمت جدتي التي لا تأبه باللياقات الاجتماعية ولا تهتم إلا بصحتي على أن تطلب إليهم، والطلب مذل بالنسبة إليّ، أن يقبلوا بي رقيقاً في رحلاتهم. كنت أنظر إليهم بفضول محموم في نور الشاطئ المبهر الذي تتغير فيه الأبعاد الاجتماعية وأتابع حركاتهم جميعها عبر هذه الفتحة

المزججة الواسعة التي تسمح بدخول هذا القدر الوافر من النور سواء أعادوا باتجاه دارة مجهولة أم خرجوا منها يحملون مضاربهم للذهاب إلى ملعب لكرة المضرب أم امتطوا جياداً تدوس حوافرها فوادي. على أن تلك الفتحة كانت تحجب الهواء، وهو عيب فيما ترى جدتي، التي لم تكن تستطيع احتمال فكرة أن أفقد فائدة ساعة من الهواء الطلق ففتحت خلسة أحد ألواح الزجاج مما تناثرت به في الوقت نفسه، بالإضافة إلى لوائح الطعام، الصحف وأغطية الرأس والقبعات العائدة لجميع الذين كانوا يتناولون طعام الغداء. أما هي التي ساندتها الأنفاس السماوية فقد ظلت هادئة تبسم، كالقديسة "بلاندين"، وسط الشتائم التي ضاعفت من إحساسي بالعزلة والغم إذ جمعت ضدنا السائحين باحتقارهم وشعرهم المنكوش وحنقهم.

وكانوا يتألفون في قسم منهم من شخصيات بارزة من أهم مقاطعات هذا الجزء من فرنسا، كرئيس أول من مدينة "كان" ونقيب محامين من مدينة "شيربور" وكاتب عدل مرموق من مدينة "المانس" وجميعهم ينطلقون من النقاط التي كانوا مشتتين فيها طوال العام كمثلي قناصة أو أحجار في لعبة "الداما" ويبادرون إلى التجمع في هذا الفندق، الأمر الذي كان يضفي علي رواد مثل هذه الفنادق الممتازة في "بالبيك"، وهم بالعادة أغنياء تافهون ومن بلدان مختلفة، طابعا محليا بارزا إلى حد ما. كانوا يحتفظون على الدوام بغرفهم ويشكلون مع زوجاتهم اللواتي تداخلهن طموحات إلى الأرستقراطية جماعة صغيرة انضم إليها محام كبير وطبيب كبير من باريس، وكانا يقولان لهم يوم الرحيل:

- "آه! صحيح، أنتم لا تستقلون القطار الذي نستقله، وهذا امتياز فسوف تصلون ساعة تناول الغداء".

- "ومن أين هذا الامتياز؟ أنتم الذين يقطنون العاصمة باريس، المدينة الكبيرة، فيما أقطن في مركز مقاطعة بسيط عدد سكانه مائة ألف، أو بالأصح مائة ألفان حسب التعداد السكاني الأخير. ولكن ما قيمة ذلك إلى جانب عددكم الذي يبلغ مليونين ونصف المليون، أنتم الذين سيلقون من جديد الأسفلت وكامل روعة العالم الباريسي..".

كانوا يقولون ذلك ويشددون على حرف "الراء" على طريقة الفلاحين، دون أن يضمنوا القول أية مرارة إذ كان يمكن لمشاهير من مقاطعتهم أن يجيئوا كسواهم إلى باريس - فقد سبق أن عرضوا مرات عديدة على رئيس محكمة "كان" مقعداً في محكمة النقض - ولكنهم فضلوا البقاء حيث هم حباً بمدىنتهم أو بالعيش الخفي أو بالشهرة أو لأنهم رجعيون أو للمتعة الناجمة عن علاقات الحوار بالقصور وكثيرون على أي حال ما كانوا يلتحقون في الحال بمركز محافظتهم.

وبما أن خليج "بالبيك" كان يولف عالماً صغيراً فريداً داخل العالم الكبير وسلة فصول تجمعت فيها، على شكل دائرة، الأيام بأنواعها والشهور المتوالية إلى حد أنك كنت تبصر نور الشمس يغمر بيوت "ريفيل"، فيما السماء داكنة فوق "بالبيك"، لاني الأيام التي تتسنى لك فيها رؤية هذه المدينة

فحسب، الأمر الذي كان يؤذن بالعاصفة، بل إلى حد أنك كنت أكيداً، بعدما يلف البرد "بالبيك"، أنك واجد على ذلك الشاطئ الآخر شهرين أو ثلاثة من الحر الإضافي، - فقد كان أولئك الذين تبدأ عطلتهم الصيفية، من بين رواد الفندق الكبير، متأخرة أو تدوم فترة طويلة يقومون، حينما تحل الأمطار ويسود الضباب لدى اقتراب الخريف، بتحميل حقيبتهم على زورق يجتازون به الخليج للحاق بالصيف في "ريفيل" أو "كوستدور". كانت تلك الجماعة الصغيرة في فندق "بالبيك" تنظر بارتياح إلى كل قادم جديد، وكان الجميع، فيما يدون أنهم لا يهتمون به، يسألون بشأنه صديقهم رئيس خدم الفندق. فقد كان هو نفسه - "إيميه" - الذي يعود في كل عام لإحياء فصل الصيف ويحجز لهم طاولاتهم، والسيدات عقيلاتهم اللواتي يعلمن أن زوجته تنتظر مولوداً كن يشتغلن بعد وجبات الطعام كل واحدة قطعة من جهاز الطفل فيما يحدجننا بمنظارهن أنا وجدتي لأننا كنا نأكل البيض المسلوق مع السلطة وهو أمر معروف بعائته ولا يقدم عليه أحد في مجتمع مدينة "آلانسون" الراقي. وكانوا يصطنعون موقفاً من السخرية المتعالية حيال أحد الفرنسيين الذي يطلقون عليه لقب "صاحب الجلالة" والذي سبق بالفعل أن نصّب نفسه ملكاً على جزيرة صغيرة من أوقيانيا يقطعها بعض المتوحشين فحسب. كان قد حل في الفندق مع عشيقته الحلوة التي كان الصغار يهتفون لدى مرورها بهم في طريقها إلى المسبح: "عاشت الملكة!" لأنها كانت تنثر فوقهم قطعاً من ذوات الخمسين فلساً. أما رئيس المحكمة ونقيب المحامين فقد كانا يرفضان حتى أن يدو أنهما يصبرانهما، وإن نظر إليها أحد أصدقائهما ظناً من واجبهما إعلاماً أنها عاملة صغيرة .

- "لكن ثمة من أكد لي أنهما يستخدمان الحجرة الملكية في "أوستاند" .

- "بالطبع! فهم يوجرونها مقابل عشرين فرنكاً، وبوسعك أن تأخذها إن راقك ذلك ثم. إنني أعلم علم اليقين أنه أرسل يطلب مقابلة الملك الذي أبلغه أنه لا يجدر به أن يعرف هذا السلطان المهرج".

- "ذلك بالحقيقة مثير. إن ثمة نفرأ من الناس..." .

وما من شك أن كل ذلك كان صحيحاً، بيد أن الكاتب العدل ورئيس المحكمة ونقيب المحامين إنما كان يهزهم الغضب أيضاً إلى هذا الحد وكانوا يعبرون عن سخطهم على نحو ملحوظ لدى مرور ما كانوا يسمونه بالمساخر من جراء الشعور المزعج لديهم بأنهم في نظر قسم وافر من الجمهور محض بورجوازيين طيبين لا يعرفون هذا الملك وهذه الملكة المبذرين لمالهما، والسخط يعلم به صديقهم رئيس الخدم الذي كان مضطراً أن يحسن وفادة العاهلين، وهما أوفر كرمأ منهما أصالة، فكان إذ يدون طلبهما يغمز من بعيد لزيائته القدامى نظرة ذات مغزى وربما كان ثمة أيضاً قليل من هذا الإزعاج نفسه الذي مرده أن يحسبهم الناس خطأ أقل أناقة وألا يمكنهم أن يوضحوا أنهم أكثر أناقة، وذلك في قرارة "السيد الظريف" الذي ينعتون به أحد الشبان المتأنقين وهو ابن مصدور متهتك لأحد الصناعيين الكبار كان كل يوم يتناول طعام الغداء مع الشمبانيا وهو يرتدي سترة جديدة ويضع زهرة أوركيدا في عروته ثم يمضي شاحباً هادئاً وعلى شفثيه ترفاً ابتساماً لا

مبالية فيرمي على طاولة البكارا في الكازينو مبالغ باهظة "لا يملك الوسائل اللازمة لخسارتها" حسبما يقول الكاتب العدل ويتخذ هيئة العالم بالأمور، لرئيس المحكمة الأول الذي كانت زوجته "تعلم من مصادر موثوق بها" أن هذا الشاب المطبوع بطابع أواخر القرن كان يُميت والديه غماً.

وما كان نقيب المحامين من جهة أخرى يكف وأصدقاؤه عن الهزء بسيدة عجوز غنية وذات لقب لأنها لم تكن تنتقل إلا ويصحبها خدم البيت بأسرهم. وكانت زوجة الكاتب العدل وزوجة رئيس المحكمة الأول كلما أبصرناها في قاعة الطعام أثناء الوجبات تتفحصانها بوقاحة بمنظارهما بالمظهر الدقيق المحاذر نفسه الذي تبديانه لو أنها كانت طبقاً يحمل اسماً فخماً ولكن مظهره مريب فيتم استبعاده بحركة متعالية وتكشيرة اشمزاز بعد حكم في غير صالحه تمّ بناءً على ملاحظة منظّمة .

وما من شك أنهما كانتا تتوخيان بذلك أن تبرزاً فحسب أنه إن كانت ثمة أمور تعوزهما - كبعض امتيازات السيدة العجوز في هذا الطرف وأن تكونا على علاقة بها - فما ذلك لأنهما لا تستطيعان بلوغها بل لأنهما لا تريدها. ولكنهما انتهتا إلى إقناع ذاتهما بالأمور، وإن إلغاء كل رغبة، إن إلغاء حب الاطلاع على أشكال الحياة التي لا نعرفها وأمل أن نحسن في أعين أشخاص جدد، وقد حل محلها لدى أولئك النساء تظاهر بالازدراء وغبطة مصطنعة، إن ذلك الإلغاء هو الذي كان من مساوئه حملهن على وضع الكدر تحت عنوان الانشراح وعلى الكذب المستمر على أنفسهن، وهما شرطان يضمنان تعاستهن. بيد أن الجميع في هذا الفندق كانوا يعلمون دون شك بالطريقة نفسها، وإن بصيغ مختلفة، وإن لم يضحوا بكبريائهم فقد كانوا يضحون على الأقل لبعض مبادئ تربوية أو لعادات فكرية بالاضطراب اللذيذ الناجم عن التدخل في حياة مجهولة. ولا ريب أن العالم الصغير الذي كانت تعتزل السيدة العجوز في داخله لم تكن تفسده المראה اللاذعة شأن الجماعة التي تقهقه من حقن فيها زوجتا الكاتب العدل ورئيس المحكمة الأول. لقد كان يفوح منه على العكس عطر رقيق متقادم العهد ولكنه لا يقل اصطناعاً. ذلك أن السيدة العجوز ربما لاقت روعة في الإغراء وفي اجتذاب ما خفي من ودّ جماعة جديدة (الأمر الذي تتجدد به بدورها)، تلك الروعة التي تخلو منها المتعة الناجمة عن قصر علاقات المرء على جماعة من عالمه الخاص وعن التذكر بأن الازدراء غير المطلع الذي يحيط به الغير لا يستحق اهتمامه بما أن ذلك العالم أفضل الموجود. وربما أحست أنها لو وصلت مجهولة إلى الفندق الكبير في "البليك" فربما بعثت بفستانها الذي من صوف أسود وقبعها المتقادمة ابتسامة على شفطي أحد الماجنين الذي ربما همس من "كرسيه الهزاز": "بئس العجوز" أو استثارت على وجه الخصوص سخرية واحد من ذوي القدر قد احتفظ بين سالفه الأسييين، كما هي حال رئيس المحكمة الأول، بوجه ريان وعينين ذكيتين على نحو ما تحب وبادر في الحال ينّبه العدسة المقربة للمنظار الزوجي إلى ظهور هذه الظاهرة الغريبة، وربما كان بداعي الخشية اللاواعية من تلك الدقيقة الأولى التي يعلم المرء أنها قصيرة ولكنها ليست لذلك أقل رهبة - كمثل الغطسة الأولى في الماء - أن ترسل هذه السيدة سلفاً واحداً من خدمها يطلع الفندق على شخصيتها وعاداتها وتقطع على المدير تحياته وتمضني باستعجال فيه من الحياء أكثر مما

فيه كبرياء إلى غرفتها حيث ترفع ستائر شخصية حلت محل تلك التي كانت تتدلى من النوافذ وسواتر وصور شمسية بينها وبين العالم الخارجي الذي كان لابد من التكيف معه، حاجز عاداتها إلى حد أن منزلها الذي ظلت في أحضانه هو الذي كان يسافر أكثر مما تفعل هي.

ولما وضعت بينها من جهة وبين العاملين في الفندق وممّوئيه من جهة ثانية خدمها الذين كانوا ينوبون عنها في الاحتكاك بهذه الإنسانية الجديدة ويحافظون على الأجواء المعتادة حول سيدتهم، وأقامت أحكامها المسبقة بينها وبين السباحين لا تبالي بأن تزج جماعة ما كانت صدقاتها ليستقبلنهم، فقد ظلت مذ ذاك تعيش في عالمها بمراسلة أصدقائها وبالذكرى التي تحفظها عن منزلتها والشعور العميق به وبجودة عاداتها وعمق تهذيبيها. وحينما تنزل كل يوم لتقوم بنزهة في عربتها المكشوفة كانت وصيفتها التي تحمل حاجاتها ورائها وخادمها الذي يتقدمها يبدوان كأولئك الحراس الذين يقفون على أبواب سفارة تزدان بعلم البلد الذي تنتمي إليه فيضمنون لها، على أرض أجنبية، حقها أن تكون خارج أراضي الدولة. ولم تغادر غرفتها قبل منتصف ما بعد الظهر يوم وصولنا، ولم نشاهدها في غرفة الطعام التي صحبنا المدير ساعة الغداء إليها بحمايته لأننا وصلنا حديثاً، كرقيب يسوق أغراراً إلى العريف الخياط ليوصي لهم على ملابس ولكننا شاهدنا بالمقابل بعد لحظة أحد نبلاء الريف وابنته، وهما من أسرة مغمورة في مقاطعة بريتانيا ولكنها عريقة جداً، ويدعيان السيد "ستير ماريا" والأنسة "ستير ماريا"، وكانا قد خصصنا بمالكتهما ظناً منهما أنهما لن يعودا إلا في المساء. ولما جاءا إلى "بالبيك" لمجرد لقاء بعض أصحاب القصور الذين يعرفانهم في الجوار فما كانا يقضيان في قاعة الطعام في الفندق، بين الدعوات المقبولة في الخارج والزيارات التي يقومان بها، سوى الوقت الضروري فحسب. وكانت عجرفتهما تقيهما من أيّ تواؤ إنساني ومن أي اهتمام بالمجهولين الذين يجلسون من حولهم والذين يحافظ السيد "ستير ماريا" فيما بينهم على المظهر المحافى المعجل المتعالي القاسي المتصعب السيئ النية الذي يتخذ المرء في مطعم للسكك الحديدية بين مسافرين لم يره قط ولن يراه ثانية وليس من علاقة يتصورها معهم فيما عدا أن يحمي من أذاهم فرّوجه البارد ومقعده في عربة القطار. وما إن باشرنا طعام الغداء حتى جاء من يطلب إلينا بناء على أمر السيد "دوستير ماريا" الذي وصل منذ لحظة ورجا رئيس الخدم بصوت عال، ودون أية لفظة يعتذر بها إلينا، أن يسهر على ألا تتكرر مثل هذه الهفوة إذ يسوؤه أن احتلّ طاولته "أناس لا يعرفهم".

وما كان بالتأكيد يداخل الشعور الذي يدفع إحدى الممثلات (وهي على كل حال أكثر شهرة بسبب أناعتها وظرفها ومجموعات الخزف الألماني الجميل الذي بحوزتها منها من جراء بعض الأدوار التي أدتها على مسرح "الأوديون") وعشيقها، وهوشاب طائل الثراء انصرفت إلى الثقافة من أجله، ورجلين مرموقين من فئة الأرستقراطيين إلى الاعتزال في الحياة والسفر سوية فحسب وتناول طعام الغداء في "بالبيك" في ساعة متأخرة جداً بعد ما ينتهي الجميع منه وقضاء النهار في صالتهم في لعب الورق، ما كان يداخله أي مقصد سوء وإنما قوامه متطلبات الميل الذي بهم إلى بعض أشكال الحديث الظريف وبعض ما رهدف ذوقاً من طيب المآكل والذي يلاقون من جرائه متعة في العيش

سوية وتناول طعامهم معاً فحسب، ولعله يجعلهم لا يطبقون العيش المشترك مع أناس لم يتسن لهم التدريب على ذلك. لقد كان كل منهم في حاجة لأن يعلم، حتى أمام مائدة طعام جاهزة أو أمام مائدة لعب، أن لدى المدعو أو الشريك الذي يجلس قبالته وجهاً من وجوه المعرفة يسمح له بتعرف سقط المتاع الذي يباهي به الكثير من المنازل الباريسية على أنه أثاث أصيل من "العصر الوسيط" أو "عصر النهضة"، ومعايير مشتركة في كل الأمور للتمييز بين الصالح والطالح والكل كامن في نفسه معلقاً غير مستعمل وليس من شك أن هذه الحياة الخاصة التي كان يرغب هؤلاء الأصدقاء أن يظلوا مغموسين فيها أتى كانوا لم تعد تبرز في تلك اللحظات إلا عبر استحسان أو تعجب نادر وغريب ينطلق وسط الصمت الذي يسود الطعام أو اللعب، أو بسبب الفسطان الرائع الجديد الذي ارتدته الممثلة الشابة لتناول طعام الغداء أو لتلعب البوكر. ولكنها كانت كافية، إذ تلفهم على ذلك النحو بعادات يعرفونها أدق المعرفة، لتحميمهم من أسرار الحياة المحيطة بهم. وفي أثناء فترات ما بعد الظهر الطويلة لم يكن البحر معلقاً قبالتهم إلا على نحو لوحة ممتعة الألوان عُلقت في بهو عازب ثري ولم يكن أحد اللاعبين يرفع عينيه إليها إلا في أثناء فواصل اللعب، وليس لديه إذ ذاك أمر أفضل يفعله، ليستخلص منها دليلاً على الطقس الجميل أو الساعة ويذكر الآخرين بأن العصرية تنتظرهم. وما كانوا في المساء يتعشون في الفندق حيث تدفق الينابيع الكهربائية الضوء دفقاً في قاعة الطعام الكبرى فتضحى بها وكأنها حوض مائي فسيح وغريب يتطاحن أمام واجهته الزجاجية سكان "باليك" من عمال وصيادي أسماك إلى جانب أسر بعض صغار البورجوازيين ولا تبصرهم العين في الظلام، يتطاحنون كيما يشاهدوا الحياة المترفة التي ترجح بلطف في تموجات من الذهب وهي خارقة في نظر الفقراء بمقدار ما هي حياة أسماك ورغويات غريبة (وإنها لمسألة اجتماعية كبيرة أن نعلم إن كان السور الزجاجي سوف يحمي على الدوام مآذبة الحيوانات العجيبة وإن كان القوم المغمورون الذين ينظرون بهم في الظلام لن يبادروا إلى التقاطها في الحوض وافتراسها). وبانتظار ذلك ربما كان في صفوف الجمهور الواقف الذي يختلط في الظلمة كاتب، هاوي سمكيات بشرية كان ينظر إلى فكوك وحوش نسائية مسنة تنطبق على قطعة طعام مزدرد ويستمتع بتصنيفها بحسب الجنس والخصائص الفطرية وبحسب الخصائص المكتسبة كذلك التي تجعل سيده مسنة من بلاد الصرب، تذكر استقالة فمها بسمكة بحرية كبيرة لأنها تعيش منذ طفولتها في مياه حي "سان جيرمان" العذبة، تأكل السلطة كواحدة من أسرة "لاروشفوكو".

وفي تلك الساعة كان يشاهد الرجال الثلاثة ينتظرون بلباس السهرة المرأة التي كانت تخرج بعد قليل من المصعد، بعدما استدعته من غرفتها، وكأنما من صندوق لعب، وهي ترتدي فستاناً جديداً في كل مرة تقريباً ومناديل تختارها وفق ذوق خاص بعشيقها ثم يذهب أربعتهم، وكانوا يرون أن الظاهرة الدولية المتمثلة في الفندق الفخم الذي استوطن "باليك" قد جعلت البذخ يزدهر فيها لا المآكل الطيبة، فيسرعون داخل سيارة لتناول طعام العشاء على بعد نصف فرسخ من هناك في مطعم صغير ذائع الصيت كانوا ينصرفون مع الطاهي فيه إلى محاضرات لا تنتهي حول محتويات لائحة الطعام وإعداد الأطباق. ولم تكن الطريق المحفوفة بأشجار التفاح والتي تنطلق من "باليك"، لم تكن

في نظرهم سوى المسافة التي ينبغي اجتيازها - وتكاد لا تتميز في حلك الليل عن تلك التي تفصل بين مساكنهم الباريزية و "المقهى الإنكليزي" أو البرج الفضي - قبل الوصول إلى المطعم الصغير الأنيق حيث تنشر مناديل العشيقة، فيما أصدقاء الشاب الغني يحسدونه لأن لديه عشيقة أنيقة الملبس إلى هذا الحد، تنشر أمام الجماعة الصغيرة ما يشبه حجاباً عطراً مطواعاً ولكنه يفصل بينها وبين العالم .

أما أنا فقد كنت، لسوء حظّ هداةً بالي، بعيداً عن أن أشبه سائر هؤلاء الناس. فقد كنت أهتم بالكثيرين منهم ووددت أن لا يجهلني رجل متعب الحبين مهترّب النظرة بين غمائم أحكامه المسبقة وتربيته، عنيت سيد المنطقة الكبير الذي لم يكن سوى صهر "لوغرانندان" : فقد كان يحيي بين الحين والحين في زيارة إلى "البليك" ويخلى الفندق في يوم الأحد، من جراء الحفلة الراقصة التي يقيمها مع زوجته في الحديقة، من جزء من نزلاته لأن واحداً أو اثنين من بينهم كانا يدعيان إلى هذه الحفلات ولأن الآخرين كانوا يختارون ذلك اليوم للقيام بنزهة بعيدة كي لا يبدو أنهم لم يدعوا. وكان قد أسيء استقباله على أية حال في اليوم الأول في الفندق حينما لم يكن يعرف الخدم بعد هويته، وقد وصلوا حديثاً من الشاطئ الأزرق. فلم يكن يرتدي الفانيلا البيضاء، بل هو سارع، من جراء عادة فرنسية قديمة وجهل بحياة الفنادق الكبيرة، إلى نزع قبعته حالما دخل إلى بهو تجلس فيه نساء، الأمر الذي حدا بالمدير ألا يلمس حتى طرف قبعته ليرد على تحيته وقد حسب أنه بالتأكيد من أكثر الطبقات اتضاعاً وما كان يدعو الرجل الذي "يخرج من صفوف العوام". وحدها امرأة الكاتب العدل أحست بهجاذب يشدها إلى الوافد الجديد الذي ينضح بكل الخشونة المصطنعة التي يمتاز بها الأنيقون من الناس وأعلنت، بنفاذ البصيرة الذي لا يخطئ والسلطة التي لا اعتراض عليها التي يتمتع بها شخص لا يملك مجتمع مدينة "مانس" الرافي أسراراً بالنسبة إليه، أن المرأة يحس أمامه أنه في حضرة رجل رفيع اللوق رفيع التهذيب يختلف عن كل ما يصادفه المرء في "البليك" وما تحكم أنه لا تحسن مخالطته ما دامت لم تحالطه. ربما كان مرد هذا الحكم المشجع الذي أطلقته على صهر "لوغرانندان" المظهر الباهت الذي لا مرئ لا يوحى بشيء من الرهبة وربما لأنها عرفت في هذا النبيل المزارع الذي له هيئة القندلفت العلامات الماسونية لا كليروسيته الخاصة.

وعبثاً علمتُ أن الشبان الذين كانوا يمتطون الجياد كل يوم أمام الفندق هم أبناء صاحب مخزن أزياء حديثة غير نزيه ما كان والذي ليرضى بالتعرف إليه في يوم فقد كانت "حياة حمامات البحر" تجعل منهم في نظري تماثيل أنصاف آلهة على صهوات الجياد وأفضل ما كان يمكن أن أعقد الآمال عليه أن لا يدعو لنظراتهم أن تقع على الصبي المسكين الذي أمثله والذي ما كان يغادر غرفة الطعام في الفندق إلا ليبادر إلى الجلوس على الرمل. وددت لو أوحى ببعض العطف حتى للمغامر الذي كان ملكاً على جزيرة مقفرة في أوقيانيا وحتى للمصدر الشاب الذي كنت أحب أن أفترضه يخفي خلف مظاهرة الوقحة روحاً وحلة رقيقة ربما أغدقت عليّ وحدي كنوزاً من الحنان، وبما أن مشاهدة المرء مع بعض الأشخاص (خلافاً لما يروى عادة عن علاقات تنشأ أثناء السفر) تستطيع فضلاً عن ذلك أن تضيف إليه على شاطئ يعود إليه أحياناً معاملاً لا يوازيه شيء في حياة المجتمع

الحقيقية، فليس من أمر لا يستبعد في حياة أهل باريس، بل هم يعنون به أشد العناية، كما هو أمر الصداقات التي تنشأ في الحمامات البحرية. وكنت أهتم بالرأي الذي يمكن أن يكونه عني جميع هؤلاء الأعيان المؤقتين أو المحليين الذين كانت نزعتي إلى وضع نفسي موضع الناس وإعادة صياغة حالتهم الفكرية تجعلني أضعهم لافني مرتبتهم الحقيقية، تلك التي ربما شغلوها في باريس مثلاً وقد تكون وضعية جداً بل في المرتبة التي يظنون أنها لا بد مرتبتهم، وإنها لذلك، "بالبيك"، والحق يقال، حيث غياب المقياس العام يعطيهم نوعاً من التفوق والأهمية الخاصة، وما كان ازدراء أي من هؤلاء الأشخاص يشق عليّ، وأأسفي، بقدر ما يشق ازدراء السيد "دوستيرماريا".

ذلك أنني لاحظت ابنته حال دخولها ووجهها الجميل الشاحب الذي يكاد يميل إلى الزرقة وما كان فريداً في شكل قامتها المديدة ومشيتها ويذكر بحق بسلالتها وتربيتها الأرستقراطية، يزيد من وضوح الأمر أنني كنت أعرف اسمها - شأن تلك الفكر المعبرة التي ابتدعها موسيقيون عباقرة والتي تصور توهج اللهب وخيرير النهر وهذوء الحقول بالنسبة إلى المستمعين الذين وجهوا خيالهم الاتجاه الصحيح إذ قرؤوا مسبقاً الكتيب. كانت "السلالة" تضيف إلى مفاتيح الأنسة "دوستيرماريا" علتها فتجعلها أقرب إدراكاً وأوفر كمالاً. كانت تجعلها كذلك أكثر اشتهاً إذ تعلن أنها نادرة المنال مثلما يزيد الثمن المرتفع من قيمة حاجة حسنت لدينا وكان الفرع الوراثي يعطي لون وجهها المؤلف من عصارات مختارة طعم فاكهة البلدان الغريبة أو الخمرة الشهيرة.

غير أن صدفه وضعت فجأة بين أيدينا، أنا وجدتي، وسيلة أضفت علينا في نظر جميع نزلاء الفندق مهابة فورية. ذلك أن مدير الفندق، منذ هذا اليوم الأول ولحظة كانت السيدة العجوز تنزل من شقتها وتمارس، بفضل الخادم الذي كان يتقدمها والوصيفة التي كانت تعدو خلفها تحمل كتاباً وغطاءً منسيين، تأثيرها على النفوس وتستثير لدى الجميع فضولاً واحتراماً بدا واضحاً أن السيد "دوستيرماريا" كان أقل من يستثنى منه، انحنى على جدتي وهمس في أذنها متلطفاً (مثلما يُرون الشاة الفارسي أو ملكة "رانافالو" لمتفرج مغمو لا يمكن بالتأكيد أن تكون له أية علاقة بالعاهل الجبار ولكنه يمكن أن يجد من المتع أن رآه على بضعة خطوات منه): "المركيزة دو فيلباريزيس"، فيما لم تستطع تلك السيدة وهي تبصر جدتي في اللحظة نفسها أن تملك نظرة أطلقت منها الدهشة والغبطة.

يمكن الظن بأن الظهور المفاجئ لأكثر الجنيات اقتداراً خلف ملامح عجوز صغيرة ما كان ليبحث في مقداراً أكبر من السرور وأنا على ما أنا عليه من افتقار لأية وسيلة للاقترب من الآنسة "دوستيرماريا" في بلد لم أكن أعرف فيه أحداً، وأقصد من وجهة النظر العملية، ذلك لأن عدد النماذج البشرية على الصعيد الجمالي محدود جداً حتى لا تتسنى للمرء في الغالب وأينما ذهب غبطة لقاء جماعة من معارفه ودون أن يبحث عنهم في لوحات أرباب الفن القدامى مثلما كان يفعل "سوان". فقد اتفق لي هكذا منذ الأيام الأولى لإقامتنا في "بالبيك" أن ألتقي بـ "لوغراندان" وبواب "سوان" وحتى بالسيدة "سوان" نفسها وقد أضحوا الأول لخادم مقهى والتاني غريباً عابر سبيل لم أره

ثانية والأخيرة مدرب سباحة. وإن ضرباً من المغنطة يجتذب بعض السمات في المظهر والعقلية ويضمها الواحدة إلى الأخرى على نحو لا ينقصم حتى إن الطبيعة حينما تدخل أحد الناس في جسم جديد فإنها لا تشوهه إلى حد بعيد. فقد كان "لوغراندان" الذي استحال خادماً مقهى يحتفظ بقامته وصورة أنفه الجانبية وجزء من ذقنه على حالها. أما السيدة "سوان" فقد تبعها في الذكورة ووظيفة مدرب السباحة لأمظهرها المعتاد فحسب بل طريقة مافي التحدث، ولكنها لم تكن تستطيع أن تأتيني بنفع، وهي تتمنطق بزناها الأحمر، وترفع لأقل ارتفاع في الأمواج الراهية التي تحظر السباحة "لأن المدرسين حذرون فهم نادراً ما يحسنون السباحة"، أكثر مما لعلها كانت تستطيع ذلك في اللوحة الجدارية التي عنوانها "حياة موسى" والتي تعرفها "سوان" فيها بملامح ابنة "جيترو" أما السيدة "دوفيلباريزيس" هذه فقد كانت هي الحقيقية ولم تقع ضحية سحر سلبها قوتها بل كانت قادرة على العكس أن تضع في خدمة قوتي سحراً يضاعفها مرة، سحراً أزمع أن اجتاز بفضلها، وكأنما يحملني جناحاً طائر خرافي، المسافات الاجتماعية اللامحدودة التي كانت تفصلني عن الأنسة "دوستيرماريا" على الأقل في "البليك" في بضع لحظات.

ولكن كان ثمة لسوء الحظ من يعيش أكثر من آخر سواء سجين عالمه الخاص فإنما جدتي ولعلها ما كانت حتى تحتقني ولا فهمتني لو علمت أنني أعلّق أهمية على رأي جماعة لم تلاحظ حتى وجودهم وسوف تغادر "البليك" دون أن تكون حفظت أسماءهم وأني أهدي اهتماماً بأشخاصهم، ولم أجرو على الإقرار أمامها بأنه، لو رآها هؤلاء الناس أنفسهم تتحدث مع السيدة "دوفيلباريزيس" لأصابني من جراء ذلك سرور عظيم لأنني كنت أحس أن المركزية تتمتع بمهابة في الفندق وأن صداقتها ربما رفعت من قدرنا في نظر السيد "دوستيرماريا" وليس يعني ذلك على كل حال أن صديقة جدتي كانت تمثل في نظري بأقل قدر ممكن شخصية من طبقة الأرستقراطيين، فقد كنت شديد التعود على اسمها الذي أضحي مألوفاً في أذني قبل أن يتوقف عقلي لديه عندما كنت أسمع من ينطق به في المنزل وأنا لا أزال طفلاً. ولم يكن يضيف لقبها إليه سوى خاصية غريبة مثلما قد يفعل اسم قليل الاستعمال، على نحو ما يتفق في أسماء الشوارع التي لا نبصر فيها شيئاً أكثر نبلاً في شارع "اللورد بايرون" أو في شارع "روش شوار" الشعبي جداً والمبتذل أو في شارع "دوغرامون" منه في شارع "ليونس رينو" أو في شارع "هيوليت لوبا". وما كانت السيدة "دوفيلباريزيس" لتوحي لي بشخصية من عالم خاص أكثر من ابن عمها "ماك ماهون" الذي لم أكن أميّزه عن السيد "كارنو" وهو رئيس للجمهورية مثله، "وعن راسباي" الذي سبق أن اشترت "فرانسواز" صورته مع صورة "بيوس التاسع". كانت جدتي تدلين بمبدأ قوامه أنه يجدر بالمرء في أثناء السفر ألا يقيم من بعد علاقات مع أحد وأنه لا يذهب إلى شاطئ البحر ليشاهد الناس وأن الوقت يتسع له كاملاً في باريس لتلك الغاية، وأنهم يضيّعون عليك الوقت الثمين الذي ينبغي قضائه بكامله في الهواء الطلق وأمام الأمواج بالمحاملات والتفاهات ولما رأت من الأيسر لها افتراض أن الجميع يشاطرونها هذا الرأي الذي يسمح بتوهم التخفي المتبادل بين أصدقاء قدامى تجمعهم الصدفة في الفندق نفسه، فقد اكتفت لدى سماع الاسم الذي ذكره لها المدير أن تشيح بعينها

وبدت كأنها لاتبصر السيدة "دوفيلباريزيس" التي أدركت أن جدتي لا ترغب في تعرف جديد بالناس فنظرت بدورها في اتجاه مبهم، وابتعدت وظللت في عزلي كغريق بدا أن مركباً يقترّب منه . ثم غاب فيما بعد دون أن يتوقف .

كانت تتناول كذلك وجبات طعامها في قاعة الطعام ،ولكن في الطرف الآخر. ولم تكن تعرف أحداً من الأشخاص الذين يقطنون الفندق أو يجيئون إليه في زيارة، ولاحتي السيد"دو كامبرمير." وقد رأيت بالفعل أنه لم يستلم عليها ذات يوم قبل فيه مع زوجته دعوة نقيب المحامين إلى طعام الغداء، وقد أخذ هذا الأخير، إذ أسكره شرف جلوس هذا النبيل إلى مائدته ،أخذ يتجنب أصدقاءه في الأيام الأخرى ويكتفي بأن يوجه إليهم من البعيد بعينه كي يشير إلى هذا الحدث التاريخي ولكن على نحو حذر كي لا يمكن تفسير الإشارة على أنها دعوة للاقتراب .

وقالت له زوجة الرئيس الأول في المحكمة : "حسن، إنني أأمل أنك ترتدي أحسن الثياب، وأنت رجل أنيق".

وسأل نقيب المحامين وهو يخفي فرحه خلف دهشة مبالغ : "أنيق؟ولماذا؟" ثم قال وقد أحس أنه عاجز عن التظاهر مدة أطول : "بسبب المدعوين لديّ ؟ولكن ما مجال الأناقة في أن يكون لديك أصدقاء على مائدة غداك؟ لا بدّ أن يتناولوا طعام الغداء في مكان ما".

- "بلى، ذلك أنيق! أما كانت أسرة"دو كامبرمير" قل لي؟لقد تعرّعتهم تماماً. إنها مركيزة، وأصبيلة، ولكن لاعن طريق النساء".

- "أوه! إنها امرأة في غاية البساطة، إنها فائنة وليس من كان أقلّ تصنعاً. حسبت أنك تزعم المعجىء، فقد كنت أومئ إليك ...ولعلّني كنت أفدّمك"، يقول وهو يصلح بهتكم طفيف من ضخامة هذا العرض، شأن "أحشوروش" حينما يقول لـ "أستير": "أينبغي أن أعطيك نصف ممالككي؟".

- "لا، لا، لا، لا، نفلّ مختبئين كالبنفسجة المتواضعة" وأجاب نقيب المحامين وقد ازداد جراءة الآن وقد زال الخطر: "ولكنني أكرّر لك أنك أخطأت، فما كانوا ليلتهموك ألن نقوم بلعبتنا الصغيرة في الوراق؟".

- "بطيبة خاطر، فما كنّا نجرو أن نعرض الأمر عليك وأنت الآن تتعامل مع المركيزات!"

- "ولكن ليس فيهنّ ما كان خارقاً إلى هذا الحدّ فإني أتعشى معهن في مساء الغد مثلاً. أتود الذهاب عوضاً عني ؟ إنني أفعل بملء خاطر فإني بصراحة أفضل المكوث ههنا".

- "لا، لا، لا... فقد يعزلونني بتهمة الرجعية" يقول رئيس المحكمة صائحاً وهو يضحك حتى لتدمع عيناه لمزحته تلك. ثم يضيف وهو يلتفت إلى الكاتب العدل : "ولكنك تتردد بدورك على "فيتيرن"؟".

- "أوه! إنني أذهب هناك أيام الآحاد، والمرء يدخل من باب ويخرج من آخر ولكنهم لا يتناولون طعام الغداء في بيتي مثلما يفعلون في بيت نقيب المحامين".

لم يكن السيد "دوستير ماريا" في "بالبيك" في ذلك اليوم لأسف نقيب المحامين الكبير ولكنه قال لرئيس الخدم بلهجة مأكرة:

- "إيميه، بوسعك أن تقول للسيد دوستير ماريا: إنه ليس النبيل الوحيد في قاعة الطعام هذه أما رأيت هذا السيد الذي تناول طعام الغداء برفقتي هذا الصباح؟ هذان الشاربان الدقيقان والمظهر العسكري؟ حسن، إنه المركيز "دو كامبرمير".

- "حقاً؟ إن ذلك لا يدهشني!"

- "سوف يعلمه ذلك أنه ليس الوحيد الذي يحمل لقباً وخذها مني! فلا بأس أن تُخرس هؤلاء النبلاء تدري يا "إيميه"، لا تقل له شيئاً إن شئت، لأن ما أقوله أنا لا أقوله من أجلي، وهو على أية حال يعرف ذلك تماماً"

وفي الغد أقبل السيد "دوستير ماريا" الذي كان يعلم أن نقيب المحامين دافع عن أحد أصدقائه، أقبل يقدم ذاته بنفسه.

- "لقد أراد أصدقاؤنا المشتركون، آل "دو كامبرمير"، أرادوا بحق أن يجمعونا ولكن أيامنا لم تتطابق، لست أدري أنا"، يقول نقيب المحامين الذي يتصور شأن العديد من الكذابين أن لن تكون ثمة محاولة للكشف عن جزئيات قليلة الشأن مع أنها تكفي (إن وضعت الصدفة بين يديك الحقيقة المتواضعة التي تناقضها) لتطيء اللثام عن طباع معينة ولتوحي بالرية أبدأ.

وأخذت أنظر إلى الآنسة "دوستير ماريا" كما أفعل دوماً، ولكن على نحو أيسر أثناء ما ابتعد والدها للتحدث مع نقيب المحامين وبقدر غرابة وقفاتها التي تتسم بالجرأة وتتصف على الدوام بالجمال، كما هي حالها حينما ترفع كأسها فوق ساعديها ومرفقاها على الطاولة، كان جفاء النظرة السريعة الإنهاك لديها والقسوة المتأصلة العائلية التي تحس بها في قرارة صوتها ولا تحجبها تماماً نبراتها الشخصية، وقد أثارت استياء جدتي، وضرب من مسمار الأمان الوراثي كانت تعود إليه حالما تنتهي من إفراغ فكرتها الخاصة في نظرة عين أو نبرة صوت، كان كل ذلك يردّ فكر من كان ينظر إليها إلى السلالة التي أورتها هذا النقص في التواء الإنسان وتغرات في الإحساس وقلة في اتساع المواهب يبرز نقصها في كل حين. وطننتني أحس مع ذلك، إزاء بعض نظرات كانت تمر مقدار لحظة في أعماق حدقتها التي سرعان ما تحف وتحتس فيها تلك العذوبة التي تبلغ حد الاتضاع والتي يخلقها الميل السائد إلى الملذات الجسدية لدى أكثرهن اعتزازاً، تلك التي لا تعترف عما قليل إلا بمهابة واحدة، المهابة التي يتمتع بها في نظرها كل شخص يستطيع أن يذيقها إياها ولو

كان مهرجاناً أو مشعوذاً ربما هجرت زوجها ذات يوم من أجله، وإزاء مسحة من لون وردي شهواني زاه كان يتألق على وجنتيها الشاحبتين شبيه باللون الذي تزدهي به أعماق النيلوفر الأبيض في نهر "فيفون". ظننتني أحس أنها ربما سمحت بيسر أن أبادر وأبحث لديها عن طعم تلك الحياة الشعرية جداً التي كانت تقضيها في مقاطعة "بريتانيه"، تلك الحياة التي ما كان يبدو أنها تعبرها اهتماماً كبيراً إما لفرط تعودها وإما لتأنيق فطري وإما لاشمئزازها من فقر أهلها أو بخلهم، ولكنها تحتويها مع ذلك حبسية داخل جسدها. ولعلها ما كانت تجد إمكانات مقاومة في احتياطي الإرادة الهزيل الذي أورثته والذي كان يضفي على ملامحها شيئاً من الارتخاء وكانت قبة اللباد الرمادية التي تعلوها ريشة مستكبرة تقادم زيتها بعض الشيء تزيدها نعومة في نظري لا لأنها تسجم مع لونها بياض الفضة ولون الرود ، بل لأنها تجعلني أفترضها فقيرة فتقرّ بها بذلك مني. ولما كانت ملزمة بموقف اصطلاحى من جراء وجود والدها ولكنها تعتمد في ملاحظة الدين يقفون أمامها وفي تصنيفهم مبادئ تغاير مبادئه، وربما أبصرت في لا المرتبة القليلة الشأن بل الجنس والعمر. ولو اتفق أن يخرج السيد "دوستيرماريا" ذات يوم بدونها ، وإن أقبلت السيدة "دوفيلباريزيس" على وجه الخصوص تجلس إلى طاولتنا فأولتها بذلك فكرة عنّا تشجّعني على الاقتراب منها ، ربما استطعنا تبادل بعض الأحاديث وضرب موعد وتوثيق علاقتنا ربما استطعنا في شهر ظلّت فيه وحيدة بدون ذويها في قصرها الخيالي أن نقتزّه نحن الاثنين وحيدين في المساء في ضوء الشفق الذي تلتصع فيه خافتة أزهار الخلعنج الوردية فوق الماء الذي أضحى قاتماً وتحت السنديان الذي تضربه الأمواج الخافقة. ربما طفتنا سوية أرجاء هذه الجزيرة التي يطبعها الكثير من الروعة بالنسبة إليّ لأنها احتبست حياة الآنسة "دوستيرماريا" المعتادة ولا تزال ترقد في ذاكرة عينيها. فقد كان يبدو لي أنني ما كنت لأمتلكها حقاً إلا هناك وبعدها يقدّر لي اجتياز تلك الأمكنة التي تلفّها بالكثير من الذكريات - ذلك الحجاب الذي نود رغبتي انتزاعه وهو من تلك التي تضعها الطبيعة بين المرأة وبعض الأشخاص (وبالمقصد نفسه الذي يحملها بالنسبة إلى الجميع على وضع عملية الإنجاب بينهم وبين أكثر المملدات شدة. وبالنسبة إلى الحشرات على جعل الطلع الذي ينبغي أن تحمله قبل رحيق الأزهار) حتى يضطروا وقد خدعهم وهم امتلاكها على هذا النحو امتلاكاً أكثر تماماً، أن يحتلوا بادئ الأمر المناظر التي تعيش ضمن إطارها والتي تبدو أكثر فائدة لخيالهم من لذة الحواس ، بيد أنها ما كانت كافية بدون هذه اللذة لاجتذابهم.

ولكنني اضطرت أن أحول نظراتي عن الآنسة "دوستيرماريا" لأن والدها ، وقد رأى دون شك أن التعرف بشخصية مهمة عملية طريفة ووجيزة تكفي نفسها بنفسها ولا تتطلب كيما تحيء بكامل الأهمية التي تتضمنها سوى مصافحة ونظرة ثاقبة دونما حديث فوري أو علاقات لاحقة، كان قد استأذن نقيب المحامين وعاد يجلس قبالتها وهو يفرك يديه شأن رجل حصل منذ قليل على مكسب ثمين. أما نقيب المحامين فقد كنت تسمعه ، بعد انقضاء الهزة الأولى التي ولدتها تلك المقابلة. شأنه في الأيام التي سلفت ، يتحدث بين حين وآخر إلى رئيس الخدم قائلاً:

- "ولكنني لست ملكاً أنا يا "إيميه"، فبادر واقترب من الملك... قل لي أيها الرئيس، يبدو أنها طيبة جداً سمكات التروية الصغيرة هذه وسنطلب إلى "إيميه" بعضاً منها. "إيميه"، السمكة الصغيرة هذه التي هناك تبدو لي جديدة بثقتنا تماماً، فاحمل إلينا من هذا السمك وبقدر ما نشتهي يا "إيميه"

كان يردد في كل حين اسم "إيميه"، الأمر الذي كان من نتائجه حينما يتفق له أحد على مائدة عشائه أن كان المدعو يقول له: "أرى أنك على أحسن حال في هذا المحل" ويظن من واجبه كذلك أن يلفظ باستمرار اسم "إيميه" من جراء هذه النزعة التي يمتزج فيها في الآن نفسه الخجل والتفاهة والغباء والتي تدفع بعض الناس إلى الاعتقاد أن من الظرف والأناقة تقليد الجماعة الذين يحالسونهم تقليداً حرفياً. كان يردده دون انقطاع ولكنما يقوله بابتسامة إذ كان يهمه أن يعلن على الملأ علاقاته الطيبة برئيس الخدم وتفوقه عليه في الآن نفسه، وكان رئيس الخدم يتسم هو الآخر بابتسامة تدخلها الرقة والاعتزاز كلما تردد اسمه على شفثيه مظهرًا بذلك أنه يشعر بهذا التكريم ويدرك ذلك المزاج.

ومهما بدت وجبات الطعام رهيبة دوماً بالنسبة إليّ في مطعم "الفندق الكبير" الفسيح الذي يغص عادة بالزبائن فقد كانت تضحي أكثر رهبة كلما وصل لقضاء بضعة أيام صاحب لا هذا الفندق الكبير فحسب (أو مديره العام الذي انتخبته شركة ممولين، لست أدري)، بل صاحب سبعة أخرى أو ثمانية، تنتشر في أرجاء فرنسه الأربعة وكان يطوف فيما بينها ليمضي من حين إلى آخر أسبوعاً في أحدها حينئذ كان يطلع في كل مساء وفي أول العشاء تقريباً على مدخل قاعة الطعام هذا الرجل القصير القامة ذو الشعر الأبيض والأنف الأحمر وهو من برودة أعصاب ولياقة خارقتين وكان يُعدّ فيما يبدو، في لندن ومونت كارلو على حد سواء، أحد خيرة أصحاب الفنادق في أوروبا وذات مرة خرجت فيها لحظة في أول العشاء حيّاني إذ مررت أمامه لدى عودتي كي يعلن دونما شك أنني كنت في حماه، ولكنه فعل ببرودة لم أستطع أن أتبين إن كان سببها تحفظ من لا يغفل أي شخص هو أو الاحتقار الذي يديه لنزول لاشأن له. فأما الذين كان لهم على العكس شأن عظيم جداً فقد كان المدير العام ينحني أمامهم بقدر مساوٍ من البرودة ولكن الانحناء أشد والأجفان ينخفضها بنوع من الاحترام والاحتشام كما لو كان أمامه في جنازة والد المتوفاة أو القربان المقدس. ولم يكن يقوم، فيما عدا تلك التحيات الجافة النادرة، بأية حركة كأنما ليرز أن عينيه الملتصعتين اللتين تبدوان وكأنما تطفران من وجهه كائتا تبصران كل شيء وتنظمان كل شيء وتضمنان في "عشاء الفندق الكبير" الكمال في التفاصيل والانسجام في المجموع سواء بسواء. كان يحس بالطبع أنه أكثر من مخرج وأكثر من قائد أوركسترا، إنه قائد أعلى حقيقي ولما كان يحكم أن نظرة متأملة بلغت أقصى شدتها تكفيه ليتيقن أن كل شيء جاهز وأن ليس من خطيئة مرتكبة يمكن أن تؤدي إلى الهزيمة، وكما يتحمل في النهاية مسؤولياته، فقد كان يمتنع لاعتباره كل إشارة فحسب بل حتى عن تحريك عينيه اللتين تحيطان بكامل العمليات وتديرانها وقد جمدهما الانتباه. كنت أحسن أن حركات ملعقتي ذاتها لا تقوته وكان الاستعراض الذي قام به يقطع عليّ شهيتي على مدى العشاء بكامله حتى لو توارى بعد الحساء. أما شهيته فكانت حسنة جداً كما كان بوسعك أن ترى ذلك

أثناء طعام الغداء الذي كان يتناوله شأن فرد بسيط في قاعة الطعام وفي الساعة نفسها التي يتناولها فيها الجميع. لم يكن يميز طاولته سوى أن المدير الآخر، المدير المعتاد كان يظل، فيما هو يأكل، واقفاً إلى جانبه يحدثه طوال الوقت. فقد كان رؤوساً للمدير العام فيحاول لذلك تملقه ويخاف منه خوفاً عظيماً. كان خوفي أقل في أثناء تلك الأغدية إذ كان يضيع حينئذ بين الزبائن فييدي احتشام لواء يجلس في مطعم يومه جنود في ألا يبدو وكأنه يهتم بهم. بيد أنني كنت أتنفس بحرية أوسع حينما كان البواب يعلن عليّ وقد أحاطت به حاشية من خدمه: "إنه ذاهب في صباح الغد إلى "دينار" ومن هناك يذهب إلى "بياريتز" وبعدها إلى "كان".

كانت حياتي في الفندق قد أضحت لا حزينة فحسب لأنني لا أملك علاقات فيه، بل مرعجة لأن "فرانسواز" كانت قد أقامت العديد منها. ويمكن أن يبدو أنه كان لا بد لها أن تسهل أمامنا أموراً كثيرة وكان الأمر بخلاف ذلك تماماً. ولئن لاقى الكادحون بعض المشقة في أن تعاملهم "فرانسواز" بمثابة جماعة من معارفها ولا يستطيعون ذلك إلا لقاء بعض شروط التأديب العظيم إزاءها فلقد كانوا بالمقابل الجماعة الوحيدة التي لها شأن لديها ما إن تغلق في ذلك. كانت مدونتها القديمة تعلمها أنها غير ملزمة بأي شيء تجاه أصدقاء معلمها وأنها تستطيع إن كانت في عجلة من أمرها أن تطرد سيدة جاءت لزيارة جدتي. ولكن أكثر قواعد السلوك دقة وإطلاقاً كانت تنظم أفعالها فيما يخص معارفها هي، أي إزاء جماعة العامة الذين تقبل أن يتخطوا باب صداقتها الصعبة فبعدما. تعرفت "فرانسواز" إلى صاحب المقهى وإلى وصيفة قصيرة القامة كانت تخطط فساتين لسيدة بلجيكية لم تعد تصعد بعد لإعداد حاجات جدتي حالا بعد الغداء، بل تفعل بعد ساعة لأن صاحب المقهى يود أن يعد لها قهوة أو مغليّ أعشاب في القهوة، وأن الوصفة تسألها المجيء إليها لتشاهدها وهي تخطط، وأن الرفض كان مستحيلاً وفي عداد الأمور التي لا يقدم عليها المرء. ثم إنه كان من واجبها مراعاة الوصفة الصغيرة القدر مراعاة خاصة فقد كانت يتيمة وتمت تربيتها لدى غرباء كانت تمضي لقضاء بضعة أيام عندهم بين الحين والحين. كان ذلك الوضع يثير شفقة "فرانسواز" وكذلك ازدراءها الذي يلونه العطف فما كانت تستطيع أن تعدّ من لا جذورها مساوية لها هي التي تملك أسرة وبيتاً صغيراً ورثته عن والديها ويقوم شقيقها فيه بتربية بعض الأبقار. ولما كانت تلك الصغيرة تأمل في الذهاب لزيارة أولياء نعمتها في الخامس عشر من شهر آب، لم تكن تملك "فرانسواز" نفسها أن تردد قولها: "إنها تثير ضحكي فهي تقول: آمل أن أذهب إلى منزلي في الخامس عشر من شهر آب. تقول إلى منزلي أو البلدة ليست حتى بلدتها، فقد التقطها بعض القوم، وتقول إلى منزلي كما لو كان بالحقيقة منزلها. يالللصغيرة المسكينة! ما أشد ما بها من تعاسة أن لا تعلم ما معنى أن يكون للمرء منزل".

ولو لم ترتبط "فرانسواز" بعلاقة إلا مع وصيفات يصطحبهن بعض النزلاء، وكنّ يتناولن طعام العشاء معها في أمكنة البريد ويحسبنها، أمام قبعتها التي من الدانتيلاً وملامحها الجانية الدقيقة، سيّدة ربّما كانت نبيلة، اضطرتها الظروف إلى القيام بمهمة مرافقة لجدتي أو دفعها لتلقها بها ذلك، لو أن "فرانسواز" لم تعرف باختصار القول سوى جماعة لم يكونوا من الفندق لما كان الأذى كبيراً

لأنها ما كانت لتستطيع الحؤول دون أن يفيدونا بشيء من جراء أنهم لا يستطيعون، أية كانت الأحوال. وحتى لو كانوا مجهولين لديها، أن يفيدونا في شيء. ولكنها ارتبطت بعلاقات صداقة كذلك مع مشرف على التموين وعامل في المطبخ ومشرفة على أحد الطوابق. وقد نجم عن ذلك فيما يخص حياتنا اليومية أن أخذت "فرانسواز". التي كانت تدقّ الجرس يوم وصولنا، حين لم تكن تعرف أحداً بعد، كيفما اتفق، لأقلّ الأمور وفي ساعات ما كنّا لنجرؤ، جدّتي وأنا، أن نقدم فيها عليها وتجيئنا إن نحن وجّهنا إليها أقلّ ملاحظة بهذا الشأن: "ولكننا ندفع ما فيه الكفاية من أجل ذلك"، كما لو دفعت بنفسها، أخذت الآن، منذ أن أضحت صديقة إحدى شخصيات المطبخ، الأمر الذي بدا لنا فال خير فيما يخصّ راحتنا، إن ألم بي وبجدّتي برد في أقدامنا، أخذت "فرانسواز" لا تجرؤ أن تدقّ الجرس ولو كانت الساعة عادية تماماً، وتؤكد أن الأمر لن يُستساخ لأن ذلك سوف يضطرهم إلى إشعال الأفران ثانية أو يبلبل عشاء الخدم فيستاؤون. ثم تنتهي بعبارة لم تكن على الرغم من الطريقة غير الواثقة التي تلفظها بها أقلّ وضوحاً وتخطئنا على نحو قاطع: "واقع الأمر أنّ...". وما كنّا لنحْ مخافة أن توجّه لنا أخرى أكثر جسامة: "ذلك أمر ذو بال!..." وقصارى القول أننا أصبحنا بذلك لا نستطيع الحصول من بعد على الماء الساخن لأن "فرانسواز" أضحت صديقة من كان يهتمّ بتسخينها.

وارتبطنا في نهاية الأمر بدورنا بعلاقة صداقة رغماً عن جدّتي ولكن بطريقها، فقد التقت مصادفة ذات صباح هي والسيدة "دوفيلباريزيس" الواحدة بالأخرى على عتبة باب واضطربنا أن تقترب الواحدة من الأخرى ولكنهما لم تفعلوا دون أن تتبادلا مسبقاً إشارات تنم عن دهشة وتردد وتوقفا بحركات تراجع وارتياب وأخيراً باحتجاجات تأدّب واغتياب كما هي الحال في بعض مشاهد لدى "موليير" يقوم فيها ممثلان، كل بدوره، بمناجاة داخلية منذ فترة طويلة وهما على بضغ خطوط الواحد عن الآخر والمفروض أن أحدهما لم ير الآخر بعد، وفجأة يلمح أحدهما الآخر فلا يستطيعان تصديق ما يريان وتتقاطع أقوالهما وبأخذان أخيراً في التحدّث معاً وقد جرى القلب الحوار ويرتمي كلّ منهما بين ذراعي الآخر وأرادت السيدة "دوفيلباريزيس" بداعي التحفّظ مفارقة جدّتي بعد فترة، ولكن هذه الأخيرة فضّلت على العكس أن تستوقفها حتى الغداء إذ كانت ترغب أن تعلم منها كيف تفعل لتأخذ بريدتها قبلنا وتحصل على شواء جيّد (فقليلاً ما كانت السيدة "دوفيلباريزيس" وهي شديدة النهم، تستسيغ طعام الفندق حيث تقدّم لنا وجبات ترى جدّتي التي تستشهد دوماً بالسيدة "دو سيفينييه" أنها "سخية حتى لثمنتك جوعاً". وتعودت المركيزة أن تأتي في كل يوم، بانتظار أن يقدم لها طعامها، فتجلس حيناً بالقرب منا في قاعة الطعام دون أن تسفح بأن نهض وأن نكلّف أنفسنا أي عناء. كنّا على الأكثر غالباً ما نتأخر في حديثنا معها بعد انقضاء العشاء في تلك الآونة القذرة التي تتبعثر فيها الأمواس على الخوان قرب القوط المحلولة. أمّا فيما يخصني فقد كنت أجهد، كيما أحتفظ بفكرة أنني في أقصى نقطة من الأرض وذلك كي أستطيع التولّع بـ "البليك"، أن أنظر إلى أبعد من ذلك وآلاً أبصر سوى البحر وأن أبحث فيه عن انفعالات وصفها "بودلير" وآلاً أدع نظراتي تحطّ على مائدتنا إلا في الأيام التي كانت تُقدم لنا فيها سمكة ضخمة هي ضرب من وحوش

البحر عاصرت ،بخلاف الأمواس والشوك ،الحقبة الأولى التي شرعت فيها الحياة تتدفق في المحيط في زمن السيمريين ،وحوش صُمم جسمها ذو الفقرات التي لا تحصى والأعصاب الزرقاء الوردية على يد الطبيعة، ولكن وفق مخطط معماري، على هيئة كاتدرائية بحرية متعددة الألوان.

وكمثل حلاق يغتبط لدى رؤيته أن ضابطاً يخدمه باحترام خاص قد تعرف إلى زبون دخل منذ قليل وباشر معه حديثاً قصيراً إذ هو يدرك أنهما من الطبقة نفسها ولا يسعه إلا أن يتنسم وهو يبادر إلى جلب طاس الصابون لأنه يعلم أن متعاً اجتماعية ،بل أرستقراطية تنضاف في دكانه إلى الأشغال العادية التي يضطلع بها محض محلّ حلاقة ،كذلك كان يذهب "إيميه" وقد رأى أن السيّد "دوفيلباريزيس" ألفتُ فينا معارف قدامى ،ليحيثنا بأوعية المضمضة بالابسامة المستكبرة في اتضاعها المدروسة في احتشامها التي لسيّد منزل تعلم كيف تنسحب في الوقت المناسب وربّما بدا كذلك كوالد تهزّه السعادة والحنان ويسهر على الخطوبة السعيدة التي عُقدت على مائدته دون أن يعكّر صفوها. كان يكفي على آية حال أن يتمّ التلقظ باسم شخص يحمل لقباً حتى تهزّ السعادة "إيميه"، بخلاف "فرانسواز" التي ما كان يمكن أن يُقال في حضرته "الكونت فلان" دون أن يتجهّم وجهها ويضحى كلامها جافاً مقتضباً ،الأمر الذي كان يعني أنها تهوى النبلاء لا أقلّ ممّا يفعل "إيميه" بل أكثر. ثم إن "فرانسواز" كانت تتسم بالمزية التي تجد أنها لدى الغير أكبر المعايير: لقد كانت متغطرة لم تكن من السلالة المحبّة الفياضة بالطيبة التي ينتمي إليها "إيميه". فهؤلاء يحسّون بغبطة شديدة ويجهرّون بها حينما تروى لهم واقعة مثيرة في كثير أو قليل ولكنها جديدة ولم ترد في الجريدة. أمّا "فرانسواز" فما كانت تودّ أن تبدو في دهشة. ولئن قيل في حضرته إن الأرشيديوق "رودولف"،الذي ما ارتابت يوماً بوجوده، حي يرزق ،لا ميت كما كان يبدو مؤكّداً ،لأجابت "أجل" كما لو تعرف الأمر منذ زمن بعيد. لكنّما كان ينبغي ،كي لا يسعها أن تسمع حتى من فمنا نحن الذين كانت تدعوهم بتواضع كبير مواليتها والذين روضوها ترويضاً كلياً تقريباً اسم أحد النبلاء دون أن تضطرّ إلى كبح حركة غاضبة، لكنّما كان ينبغي أن تشغل الأسرة التي انحدرت منها مكانة في قريتها تتسم باليسر والاستقلال ولا يعكّر صفوها في التقدير الذي كانت تنعم به سوى هؤلاء النبلاء أنفسهم الذين عمل لديهم "إيميه"على العكس بمثابة خادم منذ الطفولة، إن لم تتمّ تربيته على أيديهم بداعي الصدقة. كان إذن على السيّد "دوفيلباريزيس"،في نظر "فرانسواز" أن تستغفر لكونها نبيلة. ولكن هذا الأمر يولف ،بالضبط ،أقله في فرنسه،الموهبة التي يتمتع بها السادة العظام والسيدات الراقيات وشغلهم الوحيد على السواء. وإذا كانت "فرانسواز" تنساق خلف نزعة الخدم الذين لا يكتفون عن جمع ملاحظات جزئية حول صلات مواليتهم بالأشخاص الآخرين يخلصون منها إلى تعميمات خاطئة - كما يفعل البشر فيما يخصّ حياة الحيوانات - فقد كانت تجد في كلّ لحظة أنهم لم يفونا حقناً والاستنتاج يدفعها إليه يسر حبّها المفرط لنا واللذة التي تصيبها من إزعاجنا على حدّ سواء. ولكن، حينما لاحظت "فرانسواز"،دون أن يكون ثمة خطأ ممكن، صنوف المداراة العديدة التي تحيطنا بها وتحيطها هي الأخرى السيّد "دوفيلباريزيس" فقد عذرتها أن تكون "مركيزة". وبما أنها لم تنفك يوماً عن امتنانها لها لكونها مركيزة فقد فضّلتها على جميع الأشخاص

الذين كنّا نعرفهم. أضف إلى ذلك أنّه لم يجهد أحد في أن يكون ودوداً بهذا القدر من الاستمرار. ففي كلّ مرّة تلاحظ فيها جدتي كتاباً تقرؤه السيدة "دوفيلباريزيس" أو تقول إنها استلمحت فاكهة حملتها صديقة إلى هذه الأخيرة، كان أحد الخدم يصعد بعد ساعة يحمل إلينا الكتاب أو الفاكهة. وحينما كنّا نراها فيما بعد كانت تكتفي بالقول ردّاً على شكرنا، وكأنّها تبحث عن عذر لهديتها في بعض وجوه جدواها: "ليس رائعة فنية ولكنّ الصحف تصل متأخرة جدّاً ولا بدّ للمرء من حاجة يقرؤها" أو "من الفطنة دوماً أن يحصل المرء على فاكهة هو أمين منها على شاطئ البحر".

- "ولكن يبدو لي أنكم لا تأكلون المحار ألّبتة"، تقول السيّدّة "دوفيلباريزيس" (وتزيد بذلك من شعور القرف الذي كان بي ساعتها، لأنّ لحم المحار النيء كان يثير اشمئزازي أكثر ممّا تشوّه شاطئ "باليك" في نظري لزوجة المدوسات)، أنّه فاخر على هذا الشاطئ! آه! سوف أقول لوصيفتي أن تبادر لأخذ رسائلكم ورسائلي في الوقت نفسه. كيف ذلك؟ أو تكتب لك ابنتك كلّ يوم؟ ولكن ما عساكم تلاقون مما ينقله أحدكم للآخر!

وصممت جدّتي، بيد أنّه يمكن الظنّ أنّها فعلت ازدراء هي التي كانت تردّد لوالدتي كلمات السيّدّة "دوسيفينييه": "ما إن تردني رسالة حتى أودّ في الحال أخرى، فإنّي لا أحيا إلّا بورودها. وقليلون من الناس جديرون بإدراك ما أحسّ به" وأخذت أخشى أن تطبّق عليّ السيّدّة "دوفيلباريزيس" خلاصتها: "إنّي أبحث عمّن كانوا ضمن هذا العدد الصغير وأتحاشي الآخرين" وانتقلت إلى امتداح الفاكهة التي بعثت بها السيّدّة "دوفيلباريزيس" إلينا ليلة البارحة، وكانت بالفعل جميلة إلى حدّ أن قال لي المدير على الرغم من غيره أطباق فواكه المطبوخة المزدرة: "إنني مثلك أكثر شغفاً بالفاكهة من أي حلوى أخرى" وقالت جدّتي لصديقتها إن استحسانها لها تزايد بقدر ما كانت الفاكهة التي تقدّم في الفندق رديئة بعامّة. وأضافت قولها: "لا أستطيع أن أقول كالسيّدّة "دوسيفينييه" إنّنا لو رغبتا لنزوة في النفس أن نجد فاكهة رديئة لانبغي لنا إحضارها من باريس" - "آه! أجل، فأنت تقرئين السيّدّة "دوسيفينييه". إنني أراك منذ اليوم الأوّل تحملين "رسائلها" (ويفوتها أنّها لم تلمح جدّتي ألّبتة في الفندق قبل أن تلتقي بها على عتبة هذا الباب). ألا ترين أن هذا الاهتمام المستمرّ بابتنتها مبالغ فيه بعض الشيء، فإنّها تفرط في الحديث عنه كيما يكون صادقاً تماماً. وإنما تعوزها التلقائيّة. "ورأت جدّتي أن النقاش عقيم فأخفت "مذكرات السيّدّة دوسيفيريان" إذ جعلت حقيبتها فوقها كي تتجنّب الحديث عن أمور تحبّها في حضرة من لا يسهه إدراكها.

حينما كانت السيّدّة "دوفيلباريزيس" تلتقي "فرانسواز" في الآونة التي (تسميها هذه الأخيرة "الظهر") وتنزل فيها وهي تعتمر قبعة جميلة ويسرّبلها التقدير العام، "لتناول طعامها في غرفة الخدم"، كانت السيّدّة "دوفيلباريزيس" تستوقفها لتسألها عن أخبارنا. وتنقل إلينا "فرانسواز" رغبات المركيزة: "لقد قالت: أقرئهم سلامي"، تقول وهي تقلّد صوت السيّدّة "دوفيلباريزيس" وتظنّ أنّها تستشهد حرفياً بأقوالها فيما لا تشوّهها أقلّ ممّا فعل أفلاطون بأقوال سقراط والقدّيس يوحنا بأقوال يسوع. كانت "فرانسواز" بالطبع شديدة التأثير بهذه الالتفاتات. فأكثر ما تمضي إليه أنّها لم تكن

تصدّق جدّتي وتحسب أن هذه الأخيرة تكذب لصالح طبقته. إذ يدعم الأغنياء بعضهم بعضاً، ساعة تؤكد أن السيّدة "دوفيلباريزيس" كانت فتاة فيما مضى. صحيح أنّه لم يطلّ من تلك الفتنة سوى بقايا هيئة جدّها ما كان بالإمكان أن يستعاد منها جمالها المتهلّم ما لم يكن المرء أوسع حيلة فنيّة من "فرانسواز". فإنّه لا ينبغي أن ننظر فحسب، بل أن نترجم كلّاً من القسمات كي ندرك أي مدى من الجمال بلغته امرأة عجوز .

فالت لي جدّتي: "ينبغي أن أفكر مرّة في سؤالها إن كنت مخططة وإن لم تكن على بعض القريبى بال غير مانت"، فأنارت بذلك حنفي، إذ كيف كان يمكنني الاعتقاد بأصل مشترك بين اسمين ولحا نفسي الأوّل من باب التجربة الدنيء المخجل والآخر من باب المخيلة الذهبيّة؟

كثيراً ما كنت ترى منذ بضعة أيام أميرة "لوكسمبور" التي جاءت تصطف بضعة أسابيع في المنطقة تمر في عربة فخمة. تمرّ فارعة الطول صهباء اللون جميلة يعترى أنفها بعض الطول. لقد توقّفت عربتها أمام الفندق وجاء خادّم يتحدّث مع المدير ثم عاد إلى العربة وحمل معه فاكهة رائعة (كانت تجمع في سلّة واحدة فصولاً مختلفة كالخليج نفسه) ومعها بطاقة كتب عليها: "أميرة لوكسمبور" وسطّرت فيها بعض كلمات بقلم الرصاص. فلأيّ أمير مسافر يقطن ههنا متخفياً كان يمكن أن تهدي هذه الفواكه، هذا الخوخ الأزرق المخضوضر المنور المستدير استدارة البحر في تلك الآونة وهذا العنب الشفاف المعلق بالقضبان اليابسة كأحد أيام الخريف الصافية وهذا الإحّاص الذي بزرقة سماء ما وراء البحار؟ فليس يُحتمل أن تكون الأميرة ابتغت زيارة صديقة جدّتي. بيد أن السيّدة "دوفيلباريزيس" بعثت إلينا عشية اليوم الثاني عنقود العنب النضر الذهبيّ وخوخاً وإحّاصاً عرفناهما أيضاً مع أن الخوخ انتقل شأن البحر ساعة عشائنا إلى اللون الخبّازي وأن بعض أشكال من سحب وردية كانت ترفّ فوق زرقة الإحّاص التي بلون ما وراء البحار. وبعد بضعة أيام التقينا بالسيّدة "دوفيلباريزيس" لدى خروجنا من الحفلة السمفونية التي كانت تقام على الشاطئ في الصباح. ولما كنت موقناً بأنّ الأعمال التي أسمعها فيها (كمقدّمة "لوا نغرين" وافتتاحيّة "تانهويزر" الخ...) إنّما تعبّر عن أسمى الحقائق فقد كنت أجهّد في الارتفاع قدر المستطاع كي أبلغ إلى حيث هي، وكنت أستخلص من ذاتي كيما أفهمها. أفضل وأعمق ما كانت تنطوي عليه نفسي آنذاك واستودعها كلّ ذلك .

بيد أنّي رأيت ونحن نغادر الحفلة الموسيقيّة وإذ توقّفنا في طريقنا إلى الفندق، وأنا وجدّتي، لحظة على السدّ لتبادل بضع كلمات مع السيّدة "دوفيلباريزيس" التي كانت تنقل إلينا أنها أوصت لنا في الفندق على فطائر محمّصة وبيض بالكريما، رأيت أميرة "لوكسمبور" من البعيد آتية باتّجاهنا وهي تستند جزئياً إلى شمسية بطريقة تطبع بها جسمها المديد الرائع بتلك الانحناءة الخفيفة وتجعله يتخذ هذا الخطّ الزخرفيّ العزيز جدّاً على قلب النساء اللاتي كنّ جميلات في عهد الامبراطورية ويعرفن كيف يدعن لجسمهنّ. والكفتان مرخيتان والظهر مدفوع إلى أعلى والخصر أجوف. أن يخفق بليوننة

كمثل مندبل حول هيكل جذع خفيّ وقاس ومائل اخترقه. كانت تخرج كلّ صباح لتقوم بجولتها على الشاطئ في الساعة التي يعود فيها الجميع تقريباً بعد السباحة لتناول الغداء، وبما أن غداها ما كان يتم إلا في الواحدة والنصف فلم تكن تعود إلى دارتها إلا بعدما يهجر السباحون السّد المقفر الحارق بفترة طويلة. وقدّمت السيّدة "دوفيلباريزيس" جدّتي وشاعت أن تقدّمني ولكنها اضطّرت أن تسألني اسمي لأنها لم تكن تتذكّره. ربّما لم تعرفه في يوم أو هي نسيت في جميع الأحوال منذ سنوات عديدة لمن زوّجت جدّتي ابنتها، وبدا أن هذا الاسم قد خلّف في نفس السيّدة "دوفيلباريزيس" انطباعاً شديداً. وفي تلك الأثناء مدّت لنا أميرة "لوكسمبور" يدها وأخذت تلتفت بين الحين والحين وهي في حديثها مع المركيزة لتخصّصنا أنا وجدّتي بنظرات عطف متمزج بها بدايات القبلية التي نضيفها إلى ابتسامتنا حينما نخصّ بها طفلاً رضيعاً مع مرّيته. ثم إنها لا شكّ أخطأت، وهي راغبة ألا تبدو وكأنها تترّجّع في أجواء تسمو على أجوائنا، في حساب المسافة لأنّ نظراتها تشيرت، من جرّاء خطيئة في "العيارات"، بمقدار من الطيبة توقّعت معها اقتراب اللحظة التي ستداعبنا فيها بيدها كحيوانين ودودين أمراً رأسيهما إليها عبر شبك الحاجز في حديقة الحيوانات. واتخذت في الحال فكرة الحيوانات هذه وغابة بولونيا كثافة أشدّ في نظري. فقد كانت الساعة التي يطوف فيها على السّد باعة جوالون يصيرون ويبيعون حلوى وسكاكر وخبزاً محلي. وأوقفت الأميرة أوّل بائع مربّها وهي لا تدري ما تفعل بغية الإعراب عن عطفها. فلم يكن بعد لديه سوى رغيف من الشيلم من صنف ما يرمى للبط. فأخذته الأميرة وقالت لي: "هذا لجدّتك". ولكنها قدّمته لي مع ذلك وهي تقول لي بابتسامة رقيقة: "سوف تعطيها إياه بنفسك" وتحسب أن متعتي سوف تكون أتمّ إن لم يقيم وسطاء بيني وبين الحيوانات. واقترب باعة آخرون فملأت جيوبي من كل ما يحملون، من علب محزومة تماماً، وما لذ من الرقائق وحلوى "البابا" والسكر النباتي. وقالت لي: "أأكل منها وتطعم جدّتك أيضاً"، وأمرت أن يدفع للباعة الزنجي القصير الذي يرتدي الساتين الأحمر والذي كان يتبعها في كلّ مكان ويثير دهشة رواد الشاطئ ثم ودّعت السيّدة "دوفيلباريزيس" ومدّت لنا يدها وقد عقدت النية أن تعاملنا بطريقة صديقتها نفسها كأصدقاء حميمين وأن تضع نفسها في مستوانا. إلا أنها حدّدت مستوانا دون شكّ في موقع أقلّ تدنياً على سلّم الكائنات فقد أعربت الأميرة لجدّتي عن مساواتها لنا بوساطة هذه الابتسامة الأمومية الرقيقة التي نخصّ بها طفلاً حينما نودّعه مثلما نفعل مع شخص كبير. لم تعد جدّتي، بفضل تقدّم غريب على طريق التطوّر، بطّة أو ظبية بل ما لعلّ السيّدة "سوان" كانت تدعوه "بيبي" (baby). وأخيراً عادت الأميرة، بعدما تركتنا نحن الثلاثة، تتابع مشوارها على السّد المشمس وهي تلوي قامتها الرائعة التي كانت تعانق الشمسية البيضاء المبقّعة بالأزرق التي تمسك بها السيّدة "دولوكسمبور" مطوية في يدها، تلوي قامتها كممثل حيّة حول عصا. كانت أوّل صاحبة سمو بالنسبة إليّ، وأقول الأولى لأن الأميرة "ماتيلد" لم تكن أليّة صاحبة سمو بالنسبة إليّ في تصوّراتها. أمّا الثانية فلن تكون دهشتي بها أقلّ، كما سوف نرى فيما بعد، من جرّاء ظرافتها. وقد تعلّمت في اليوم التالي إحدى صيغ تلطّف كبار القوم، وهم الوسطاء المحايون بين الملوك والبورجوازيين، حينما قالت لنا السيّدة "دوفيلباريزيس" "لقد ألفتكما

رائعين. إنها امرأة تتمتع بحصافة كبيرة وبفؤاد واسع وليست كالكثيرات من الملكات أو صاحبات السموّ. إنها تتمتع بقيمة حقيقية. وأضافت السيّدة "دوفيلباريزيس" بهيئة المتيقّن وقد فتنها أن يسعها القول: "أظنّ أنها ستغيب جداً بلقائكما ثانية".

يبد أن السيّدة "دوفيلباريزيس" قالت لي في هذا الصباح نفسه، وهي تفارق أميرة "لوكسمبور"، أمراً زاد من دهشتي ولم يكن من قبيل التلطّف - فقد سألتني قائلة: "هل - أنت ابن المدير في الوزارة؟ أه! يبدو أن والدك رجل رائع، وهو يقوم برحلة جميلة جداً في هذه الآونة".

وكنا قد علمنا قبل بضعة أيّام بوساطة رسالة من أمي أن والدي ورفيقه السيد "دونوربو" فقدنا أمتعتهما.

- "لقد عادا فلقياها أو هما لم يفقداها في يوم بالأحرى، فإليكما ما جرى"، تقول السيّدة "دوفيلباريزيس" التي كانت تبدو أكثر اطلاعاً منا على تفاصيل الرحلة دون أن نعلم كيفية ذلك "أظنّ أن والدك سوف يقدّم موعد عودته إلى الأسبوع القادم إذ من المرجّح أنه سيعدل عن الذهاب إلى منطقة الجزيرة. ولكنه يرغب في تخصيص يوم إضافي لطليطلة لأنّه معجب بواحد من تلامذة "تيتسيانو" لا أذكر اسمه ولا يشاهد كما ينبغي إلّا هناك".

وكنّت أتساءل آية صدفة وضعت في منظار اللامبالاة الذي كانت السيّدة "دوفيلباريزيس" تنظر من بعيد عبر زجاجه إلى اضطراب جمهور الناس الذين تعرفهم، اضطراب محمل زهيد مبهم، وفي المكان الذي تنظر منه إلى والدي قطعة من زجاج مكبر إلى أقصى حدّ كانت تريها على نحو شديد البروز وبأدق التفاصيل كل ما يروق لديه والضرورات التي تضطرّه أن يعود ومتابعه الجمركية وشغفه بالرّسام "الغريكو" وتبرز لها، إذا تغيّر المقادير في سلّم رؤيتها، هذا الرجل وحده بالغ الطول وسط آخرين في غاية القصر كمثّل "جوبيتير" الذي جعل له "غوستاف مورو" قامة تفوق قامات البشر حينما رسمه بالقرب من إحدى الغانيات الهزيلات.

واستأذنت جدّتي السيّدة "دوفيلباريزيس" كي تتمكّن من المكوث فترة أطول أمام الفندق نستنشق الهواء بانتظار أن يُشار إلينا عبر الزجاج بأن غداً قد جهز. وبلغ الأسماع ضوضاء، فإذا هي عشيقة ملك المتوحّشين الشابة تعود للغداء بعدما فرغت من حمّامها.

وصاح نقيب المحامين بحقن وكان يمرّ ساعتها: "إنها بالحقيقة كارثة حتى لنحملك على حجر فرنسه!"

وكانت زوجة الكاتب العدل في تلك الأثناء تحملك في وجه الملكة المزيفة فقال نقيب المحامين للرئيس: "لا أستطيع أن أقول لك كم تزعجني السيّدة "بلانديه" وهي تنظر على هذا النحو إلى هؤلاء الناس. وددت لو أستطيع أن أصفعها. إنهم بذلك إنّما يولون أهميّة لهذه الحثالة التي لا

تبغي بالطبع سوى أن يُهتَمَ بها. الأقل لزوجها أن يَبْهَها إلى أن الأمر مثير للسخرية. وأمّا أنا فلن أخرج من بعد معهما إن بدا أنهما يعيران المتنكرين اهتمامهما.

أمّا محيء أميرة "لوكسمبور" التي وقفت عربتها أمام الفندق يوم حملت معها الفاكهة فلم تحف على جماعة زوجة الكاتب العدل ونقيب المحامين ورئيس المحكمة الأول، وقد ساورهنّ أشدّ القلق منذ بعض الوقت ليعلمن أهى مركيزة حقيقية أم مغامرة هذه المدعوة بالسيّدة "دو فيلباريزيس" التي تتمّ معاملتها بالكثير من مظاهر التكريم الذي تتحرّق هؤلاء السيّدات جميعهنّ إلى أن يُبلّغَن أنها غير جديرة به. وحينما كانت السيّدة "دو فيلباريزيس" تحتاز الردهة كانت زوجة الرئيس الأول، التي تستشفّ العاهرات أنّي كان، ترفع أنفها عن كتابها وتنظر إليها نظرة تنفجر بها صديقاتها في ضحك شديد.

كانت تقول بكبر: "تدريين، أنا أشرع دوماً بسبّ الظنون، ولست أسلم بأنّ المرأة متزوجة بالحقيقة إلا بعدما تُبرز أمامي إخراجات القيد والشهادات المؤثقة. لا بأس عليك على أية حال فسوف أبادر إلى إجراء تحقيقي الصغير."

وفي كلّ يوم تهرع هاتيك السيّدات جميعهن ضاحكات: "إننا تنسقط الأخبار". بيد أنّ زوجة رئيس المحكمة وضعت إصبعها على فمها عشية زيارة أميرة "لوكسمبور".

- ثمّة جديد.

- "السيّدة" بونسان هذه خارقة! ما رأيت قط... ولكن ما وراءك؟ قولي"

- "ما ورائي أن امرأة ذات شعور صفراء تضع قدماً من الحمرة على وجهها وتملك عربة تفوح منها رائحة التفاهة على بعد فرسخ، من تلك التي لا تملك مثلها سوى أولئك الآنسات المحترمات، جاءت منذ قليل لزيارة المركيزة المزعومة".

- "آه! ياربي! أرايت! إنها تلك السيّدة التي رأيناها، ألا تذكر أيها النقيب، ووجدنا أنها تورث انطباعاً سيّئاً، ولكننا ما علمنا أنها جاءت من أجل المركيزة. امرأة يتبعها زنجي، أليس كذلك؟"

- "ذلك بالتمام."

- "آه ما عدت أستغرب بعد الذي قلت. ألسنت تعرف اسمها؟"

- "بلى؟ لقد تظاهرت بالخطأ فأخذت البطاقة، إن الاسم الحركي الذي تحمله هو أميرة "لوكسمبور" أ كم كنت محقاً في حذري! إنها لمتعة أن تخالط ههنا هذا الصنف المسمّى بـ "بارونة آنج".

واستشهد نقيب المحامين بـ"ما توران رينيه" و"ما سبت" أمام رئيس المحكمة الأول.

ينبغي لنا على أية حال ألا نعتقد بأن سوء التفاهم هذا كان مؤقتاً على غرار تلك التي تتشكل في الفصل الثاني من مسرحية هزلية كيما تزول في الفصل الأخير. فقد بدت السيّدة "دولوكسمبور" ابنة شقيق ملك انكلترا وامبراطور النمسا والسيّدة "دوفيلباريزيس"، لقد بدتا على الدوام حينما تجيء الأولى لاصطحاب الثانية في نزهة بعربتها امرأتين غريبتى الأطوار من النوع الذي يصعب تحاشيه في مدن المياه، إن ثلاثة أرباع رجال حيّ "سان جيرمان" ينظر إليهم قسم كبير من البورجوازيين على أنهم معدمون خليون (وإنهم لكذلك أحياناً كلّ بمفرده) ولا يستقبلهم أحد بالتالي. والبورجوازية نزيهة جداً بهذا الصدد، ذلك أن مفاسدهم لن تحول على الإطلاق دون أن يتم استقبالهم بأعظم تقدير حيث لن يتم لها ذلك على الإطلاق، وإنهم يتصوّرون بدورهم إلى أبعد حدّ أنّ البورجوازية تعلم ذلك حتى أنهم يتصنّعون البساطة فيما يخصّهم والقدح بحق أصدقائهم ولا سيما "الذين يرتفع نجمهم"، الأمر الذي يتمّ سوء التفاهم. وإن اتّفق أن يكون رجل من المجتمع الراقي على صلة بالبورجوازية الصغيرة لأنّ واقع الحال أنّه يحتلّ، نظراً لثرائه الباهظ، رئاسة أكثر الشركات الماليّة خطراً، فإنّ البورجوازية التي أبصرت أخيراً رجلاً من النبلاء جديراً بأن يكون من كبار البورجوازيين، ربّما أقسمت أنّه لا يخالط المركز لاعب الميسر المنكوب في مالهو الذي تحسبه عديم المعارف بقدر ما يبدو أكثر لطفاً. ثم هي يطيش صوابها حينما يزوّج الدوق رئيس مجلس إدارة الشركة الضخمة ابنة ابنة الملك الميسر ولكنّ اسمه من أعرق الأسماء في فرنسه، مثلما يفضّل ملك تزويج ابنة ابنة ملك مخلوع على ابنة رئيس جمهورية قائم على رأس عمله. وإنّما يعني ذلك أن كلاً من هذين العالمين يحمل عن الآخر فكرة في مثل وهميّة تلك التي يحملها سكّان شاطئ يقع على أحد أطراف خليج "باليك" عن الشاطئ الواقع في الطرف الآخر: فمن "ريفيل" يشاهد بعض من "مركوفيل" المستكبرة، ولكنّ الأمر يخدع بحدّ ذاته لأن المرء يحسب أنّه يشاهد من "مركوفيل" فيما تظنّ روعة "ريفيل" على العكس غير مرئية في أعظم جزء منها.

لما رأى طبيب "باليك" الذي استدعي لنوبة حمّى ألّمت بي أنّه ينبغي أن لا أمكث طول النهار على شاطئ البحر في هاجرة النهار وفي الحرّ الشديد وسطّر لي بعض الوصفات الصيدلانية، أخذت جدّتي الوصفات باحترام ظاهر تبيّنت فيه في الحال عزمها الأكيد ألا تنفد واحدة منها ولكنّها أخذت في حسابها النصيح على الصعيد الصحيّ وقبلت عرض السيّدة "دوفيلباريزيس" أن تحملنا على القيام ببعض المشاوير في عربتها وطفقت أذهب وأجيء حتى ساعة الغداء من غرفتي إلى غرفة جدّتي. لم تكن تطلّ مباشرة على البحر شأن غرفتي ولكنما يسرح النظر منها في ثلاث جهات مختلفة: في إحدى زوايا السّد وفي إحدى الباحات وفي الحقول، وكان أثنائها مختلّفاً بمقاعده التي طرزت بخيوط معدنية دقيقة وبزهور وردية اللون كأنما تنبعث منها الرائحة اللذيذة النديّة التي تلقاها وأنت داخل. وفي تلك الساعة التي تجيء فيها أشعة من أماكن عرض وكأنما من ساعات مختلفة. أشعة تنكسر بها زوايا الجدار وتضع على الصّوانة بالقرب من شعاع يعكسه الشاطئ مدبجاً مركزها

كأزهار الطريق، وتعلق على الحائط الجناحين المطويين المرتعشين الدافئين لضياء يتأهب لاستعادة طيرائه، وتدفع على غرار حمام قطعة من سجادة ريفية أمام نافذة الفناء الصغير الذي تطرزه الشمس بحاشية مفرضة كورق الكرمة، وتزيد من سحر زخرف الأثاث إذ تبدو وكأنها تعري حرير المقاعد المزهر وتنزع تخاريمه، في تلك الساعة كانت تبدو تلك الغرفة التي أطوف بها حيناً قبل أن أردي ثيابي للنزعة وكأنها موشور تنفك في ألوان الضياء الخارجي، وخلية تنفرط فيها عصارات النهار التي أزمع تذوقها مشتة مسكرة بارزة للعيان، وحديقة آمال تذوب في خفقان أشعة فضية وتويجات ورود ولكني أقدمت قبل كل شيء على إزاحة ستائري في لهفتي لأعلم أي بحر كان يلهو على ضفاف الشاطئ في ذلك الصباح كمثل جنينة البحر. ذلك أن كلا من تلك البحار ما كان يمكث أكثر من يوم واحد. كان ثمة في الغد آخر يشبهه أحياناً، ولكني لم أبصر أثبتة البحر نفسه مرتين متواليتين.

كان من بينها ما كان نادر الجمال إلى حد أن متعتي، إذ أبصره كانت تزداد من جرأ المفاجأة. فبداعي أي امتياز كشفت النافذة في هذا الصباح دون سواه إذ انفتحت أمام ناظري المفتونين الجنينة "غلوكونوميه"^(١) التي كان لجمالها الكسول بأنفاسه المتراخية شفافية زمردة ضبابية. كنت أرى عبرها تدفق العناصر الوزونة التي تلونها؟ كانت تدع للشمس أن تلهو بابتسامة يوهنها ضباب خفي إن هو إلا مساحة خالية مقطعة حول صفحته الشفافة التي أضحت بذلك أكثر اختصاراً وأشد إثارة كمثل تلك الإلهات اللواتي يبرهن النحات فوق باقي الكتلة الصخرية التي لا يحتمل نفسه عناء تهذيبها. كذلك كان بلونه الفريد يدعونا إلى النزعة على تلك الدروب الوعرة الأرضية التي سوف نلمح منها، ونحن نجلس في عربة السيّدة "دوفيلباريزيس" على مدى النهار، نحقق أمواجه اللينة النديّة ولا نبلغها في يوم.

كانت السيّدة "دوفيلباريزيس" تأمر بإعداد عربتها في ساعة مبكرة كي يتسع لنا الوقت للذهاب إمّا إلى "سان مارس لوفيتو" وإمّا إلى صخرات "كيتولم" وإمّا إلى أي مكان نرزه آخر هو بالنسبة إلى عربة بطيئة إلى حد ما بعيد جداً ويقتضي النهار بكامله. وكنت في غمرة الفرح الناجم لديّ عن الرحلة الطويلة التي نزمع القيام بها أدندن لحناً سمعته حديثاً وأمضي في جيئة ورواح بانتظار أن تكون السيّدة "دوفيلباريزيس" قد تأهّبت. فإن كان اليوم يوم أحد لم تكن عربتها وحيدة أمام الفندق فقد كانت عدّة عربات موحدة تنتظر لا الأشخاص المدعوين إلى قصر "فيتيرن" لدى السيّدة "دوكامبرير" فحسب بل أولئك الذين كانوا يصرون، بدلاً من المكوث حيث هم كأطفال معاقبين، أن يوم الأحد يوم مملّ في "بالبيك" فيذهبون فور الغداء ويختبئون في شاطئ مجاور أو يزورون موقعاً أثرياً. وغالباً ما كانت السيّدة "بلانديه" تحجب بلهجة قاطعة حينما يسألونها إن هي ذهبت إلى منزل آل "كامبرير" : "لا، كنّا في شلالات "بيك"، كما لو كان السبب الوحيد الذي لم نقض من أجله النهار في "فيتيرن". فيقول نقيب المحامين بلهجة العطف:

(١) Glaoune هو اسم جنبة البحر والجزء الأول يعني باليونانية اللون الأخضر ويذكر بلون البحر على الشاطئ وترمز جنيات البحر إلى حركة الأمواج وتراقص الضوء على صفحاتها

- "إني أحسك، وكنت بادللك المكان فهو أكثر إمتاعاً".

كان قد انغرس بالقرب من العربات أمام المدخل حيث كنت أنتظر، كمثّل شجيرة من صنف نادر نادماً شاباً ما كان يسترعي الانتباه من جرّاء التناقض الفريد في شعره الملون أقلّ مما تفعل بشرته النباتيّة. أمّا في الداخل، وفي البهو الذي يوافق "النارتكس" أو كنسية الموعوظين في الكنائس الشرقية حيث يحقّ للذين لا يقطنون الفندق أن يمروا. فما كان رفاق الوصيف "الخارجي" يعملون أكثر منه بكثير ولكنهم يقومون على الأقل ببعض الحركات. والمرجّح أنهم كانوا في الصباح يساعدون في التنظيف، ولكنهم كان يمثلون هناك بعد الظهر كمجرّد مغنّين في حوقة يطلّون على المسرح ليزيدوا في عدد الممثلين الصامتين حتى حينما لا يفيدون في شيء. وكان المدير العام، ذاك الذي كان يبعث فيّ أشدّ الخوف، يعتزم زيادة عددهم زيادة بالغة في السنة القادمة إذ كان لديه مشاريع كبيرة. وكان قراره يملأ صدر مدير الفندق بغمّ عظيم وهو يرى أن جميع هؤلاء الأولاد إنّما هم محض مسبّبي مشكلات ويعني بذلك أنهم يعرفلون المرور ولا يفيدون في شيء. كانوا على الأقلّ يملؤون فراغ الحركة ما بين الغذاء والعشاء، ما بين ذهاب النزلاء وعودتهم، شأن تلاميذ السيّدة "دومانتون" الذين يقومون بوصلة مسرحيّة بلباس فتيان يهود في كل مرّة تذهب فيها "أستير" أو "جواد". ولكنّ الخادم في الخارج بألوانه الثمينة وقامته الفارعة النحيلة، وكنت أنتظر في مكان ليس بعيد عنه أن تنزل المركبة، ظلّ يحافظ على جمود ينضاف إليه شيء من الكآبة لأنّ أشقاءه الكبار هجروا الفندق سعياً وراء مصائر لامعة وكان يحسّ أنّه وحيد على هذه الأرض الغريبة وتصل أخيراً السيّدة "دوفيلباريزيس". ربّما انبغى أن يدخل في صلب وظائف الخادم ذي الحلة الرسميّة أن يهتمّ بعربتها ويصعدها إليها، ولكنّه كان يعلم أن شخصاً يصطحب خدمه إنّما يعمل على أن يخدموه ويهب عادة القليل من الإكراميات في الفنادق، وأنّ نبله حيّ "سان جيرمان" القديم يسلكون السبيل نفسه. كانت السيّدة "دوفيلباريزيس" تنتمي إلى تينك الفئتين. ويستخلص الخادم الشجريّ من ذلك أن ليس له أن ينتظر شيئاً من المركبة فيدع لرئيس خدمها ولوصيفتها أن يجلساها مع متاعها ويحلم حزناً بمصير أشقائه المشتته ويحتفظ بحموده النباتيّ.

وكنا نمضي، فندخل بعدما ندور حول محطة السكّة الحديدية بوقت وجيز في طريق ريفيّة أصبحت بعد قليل في نظري مألوفة كطرق "كوميريه" من العطفة التي كانت تبدأ فيها بين البساتين المسيّجة الساحرة حتى الزاوية التي تغادرها فيها والتي تمتدّ على جانبيها أراض محروثة. وكنت ترى داخلها ههنا وهناك شجرة تفاح خرمت بالحقيقة أزهارها ولم تعد تحمل سوى باقة من المدقّات. ولكنّها كانت كافية لتفتنني لأنني كنت أتعرف هذه الأوراق التي لا تضاهي والتي مرّت على مساحتها الواسعة منذ وقت يسير أذبال الساتين الأبيض لأزهارها المحمّرة كما هو أمر سجادة المنصّة في حفلة زواج انقضت الآن.

وكم مرّة وقع لي في باريس في شهر آيار من السنة التالية أن أشتري غصن شجرة تفّاح لدى بائع الزهور وأمضي الليل بعد ذلك أمام أزهارها التي كان يتفتح فيها العطر الكثيف نفسه الذي لا يزال

يعقر بزبدته براعم الأوراق والتي يبدو أن البائع إنما أضاف بين تويجاتها البيض يحدوه كرم يديه لي وميل إبداعاً كذلك وتباين ألوان بارع، أضاف من كل جانب زراً وردياً ملائماً. كنت أنظر إليها وأجعلها تحت ضوء مصباحي - فترة طويلة إلى حدّ أنني كثيراً ما كنت لا أزال في مكاني حينما كان الفجر يكسوها بالحمرة نفسها التي لا بد كان يكسو بها "بالبيك" في الآن نفسه - وأحاول أن أحملها بالخيال إلى تلك الطريق وأن أضاعف من أعدادها وأنشرها في الإطار المعدّ، على اللوحة المهيأة تماماً التي تولفها تلك البساتين المسيجة التي كنت أعرف خطوطها عن ظهر القلب والتي وددت لو أعود فأراها - وسوف أراها ذات يوم - في الفترة التي يغطّي الربيع بألوانه خطوط رسومها بألوانه بدفق النبوغ الفتان.

كنت قد ألفت، قبل أن أستقلّ العربّة، لوحة البحر التي أمضي للبحث عنها وآمل أن أبصرها تحت الشمس الساطعة ولم أكن أشاهدها في "بالبيك" إلا مجزأة بين الكثير من البقع المحصورة التافهة التي لا يقبل بها حلمي، بقع السباحين والمقصورات ويخوت التزهة. ولكن حينما كنت ألمح، وقد وصلت عربّة السيّدة "دوفيلباريزيس" إلى أعلى المنحدر. حينما كنت ألمح البحر بين أغصان الأشجار، حينئذ كانت تزول دونما شكّ من هذه المسافة البعيدة تلك التفاصيل المعاصرة التي جعلته كأنما خارج الطبيعة والتاريخ فيسعني إذ أنظر إلى الأمواج أن أجهد في التفكير بأنها هي نفسها التي يصفها الشاعر "لو كونت دوليل" في مقطوعة "أورستي" حينما كان مقاتلو اليونان الأبطال ذوو الشعور الطويلة "كمثل انطلاقة طيور لاحمة في ضياء الفجر يضربون اللحّة الداوية بمئة ألف مجذاف". ولكنني لم أعد بالمقابل على قرب كافٍ من البحر الذي ما كان يبدو لي نابضاً بالحياة بل جامداً، ولم أعد أشعر بالقوّة تحت ألوانه المنشورة كألوان لوحة بين الأوراق حيث كان يبدو في قلّة تماسك السماء ولكنّه أكثر قتامة منها.

ولما تبينت السيّدة "دوفيلباريزيس" أنني أحب الكنائس أخذت تعذني بأننا سوف نبادر إلى زيارة هذه الكنيسة مرّةً وتلك مرّةً أخرى ولا سيّما كنيسة "كراكفيل" التي تختفي تماماً تحت أوراق لبلابها العتيق"، تقول بحركة من يدها تبدو وكأنها تغمر بذوق رفيع الواجهة غير الموجودة بأوراق أغصان ناعمة غير مرئية كانت السيّدة "دوفيلباريزيس" تملك في الغالب، إلى جانب هذه الإشارة التصويريّة الصغيرة، كلمة صحيحة تحدّد بها روعة بناء أثريّ وميزته الفريدة وتتجنّب على الدوام المصطلحات التقنية ولكنها لا تستطيع أن تخفي أنّها تلمّ إلماً بالأمور التي تتحدّث عنها. وكان يبدو أنها تحاول أن تلقي عذراً لذلك في أنّ أحد قصور والدها الذي نشأت فيه كان واقفاً في منطقة فيها كنائس من نمط ما كان حول "بالبيك" ولعلّه كان من الخزي ألا تكون اكتسبت ميلاً إلى فنّ العمارة، والقصر على أيّ حال أجمل نموذج للعمارة في عصر النهضة. ولما كان إلى ذلك متخففاً حقيقياً وقد عزف فيه من جهة ثانية "شوبان" و"ليست" وقرأ فيه "لامارتين" أشعاره وسطرّ فيه جميع الفنانين المعروفين على مدى قرن خواطر وأنغاماً ووضعوا رسوماً على كتاب العائلة فلم تكن السيّدة "دوفيلباريزيس" تقدّم سوى هذا المنشأ الماديّ البحث لإحاطتها بجميع الفنون إمّا نظرياً وإمّا عن حسن تهذيب أو عن تواضع حقيقيّ أو افتقار إلى الروح الفلسفيّة وتبدو في النهاية وكأنها تنظر إلى

الرسم والموسيقى والآداب والفلسفة على أنها وقف على فتاة نشأت نشأة أرستقراطية إلى أبعد الحدود في بناء أثرى مصنف وشهير. لكأنما لم يكن في نظرها لوحات غير تلك التي يرثها المرء. وقد سرها أن أحبت جدتي عقداً كانت تلبسه ولا يخفيه فسطانها. لقد كان في رسم بريشة "تيتسيانو" الثاني حدة لها ولم يبرح العائلة في يوم فكان يتأكد على هذا النحو أنه حقيقي. كانت لا تود سماع من يتحدث عن لوحات لا يدري أحد كيف تمّ شراؤها على يد أحد الأثرياء إذ كانت متيقنة سلفاً أنها مزيفة ولا يهزها أي شوق لرؤيتها. وكنا نعلم أنها ترسم بدورها زهوراً باللون المائية وقد حدثتها عنها جدتي وقد سبق أن سمعت من يمتدحها، فبدلت السيدة "دوفيلباريزيس" موضوع الحديث عن تواضع ولكن دون أن تبدي دهشة أو سروراً أكثر ممّا تفعل فتاة معروفة إلى حد كافٍ ولا يعجبها المديح بجديد. واكتفت بأن قالت إن ذلك تسلية رائعة لأنه إن لم تكن الزهور التي تبدعها الريشة بديعة فإنما يحملك رسمها على الأقلّ على العيش في صحبة الزهور الطبيعية التي لا يمل المرء جمالها ولا سيّما إن اضطرّ أن ينظر إليها عن كثب ليقدها. ولكن السيدة "دوفيلباريزيس" كانت تهب نفسها عطلة لتريح عينيها.

وقد أدهشنا، أنا وجدتي، أن نبصر إلى أيّ حدّ كانت أكثر "ليبرالية" حتى من أكبر قسم من البورجوازيين. فكانت تعجب أن يثور الناس لطرد "اليسوعيين" قائلة إن الأمر وقع على الدوام حتى في عهود الملكية حتى في أسبانية. وكانت تدافع عن الجمهورية ولا تنعي عليها محاربتها رجال الدين، إلا بهذا المقدار: "لعلني أرى أنّ الحؤول دون ذهابي إلى القُدّاس إن رغبت في ذلك في مثل سوء إلزامي بالذهاب إليه إن لم تكن لي فيه رغبة"، وتطلق حتى بعض كلمات من مثل: "النبلاء اليوم، ما عساهم يكونون!"، "الرجل الذي لا يعمل لا يساوي شيئاً في نظري" ربّما لمحض ما تشعر بالإثارة والحلاوة والبيان الذي تكتسبه بين شفّيتها.

كثيراً ما اتّفق لنا سماع آراء متقدّمة - ولكنّها لا تبلغ حدّ الاشتراكية "بعبع" السيدة "دوفيلباريزيس" - يجري التعبير عنها بصراحة وبالضبط على لسان أحد هؤلاء الأشخاص الذين ترفض نزاهتنا في دقتها ووجعها إزاء ما تكتنه من تقدير لذكائهم شجب أفكار المحافظين حتى قاربنا الظن، أنا وجدتي، بأن قد اجتمع لرفيقتنا الطيبة المعشر مقياس الحقيقة وأنموذجها في كلّ أمر. كنا نصدقها دون جدال فيما تصدر أحكامها على ماتملك من لوحات "تيتسيانو" وعلى أعمدة قصرها وروح النكتة لدى "لوي فيليب". بيد أن السيدة "دوفيلباريزيس" - شأن هؤلاء البحّارة الذين يثيرون الذهول إن وُجّهوا إلى الرسم لدى قدماء المصريين وإلى نقوش "الأثروسيين" ويتحدثون عن الأعمال الفنيّة الحديثة على نحو تافه حتى لتساءل إن لم تكن بالغنا من خطر العلوم التي ضلّعوا فيها لأنّه لا تبرز فيها تلك الضحالة نفسها التي لا بدّ ضمّنها إياها على نحو ما فعلوا في دراستهم الغيبة حول "بودلير" - إن أنا سألتها عن "شاتوبريان" و "بلزاك" و "فيكتور هوغو"، والكلّ جرى استقبالهم بالأمس لدى ذويها ولمحتهم بآم العين، كانت تضحك من إعجابي وتروي عنهم نكات مثيرة مثلما فعلت منذ قليل عن كبار القوم أو رجال السياسة، وتصدر أحكاماً قاسية على هؤلاء الكتاب لأنهم

افتقروا بالضبط إلى ذاك التواضع، إلى ذاك الاحتجاب وذاك الفن البسيط الذي يكتفي بحجرة قلم واحدة ولا يتشاكل، الذي يتجنب قبل كل شيء سخرية التفخيم، إلى تلك البديهة الحاضرة وتلك الميزات التي قوامها الاعتدال في الرأي والبساطة والتي علّموها أنّ القيمة الحقيقية تتسامى إليها. كان واضحاً أنّها لا تتردد في أن تفضّل عليهم رجالاً ربّما تفوقوا بالحقيقة من جرّائها على أمثال "بلزك" و "هوغو" و "فونتان" أو "فيترو" أو "بيرسو" أو "باسكويه" أو "لوبران" أو "سالفاندي" أو "داري".

- "ومثل ذلك روايات "ستندال" الذي بدا لي أنكم معجبون به. ولعلكم كنتم تدهشونه أشدّ الدهشة وأنتم تحدّثونه بهذه اللهجة. وكثيراً ما قال لي والدي الذي كان يلقاه في منزل السيّد "ميريميه" - وهذا على الأقلّ صاحب موهبة - :إنّ "بيل" - وهو اسمه - كان من سوقية مربية ولكنّه صاحب فكاهة على مائدة عشاء ولا يدع لأحد أن يخلّعه فيما يتعلّق بكتبه. وقد وسعكم على آية حال أن تروا بأنفسكم بآية رفعة منكبّين ردّ على مديح السيّد "دو بلزك" المبالغ فيه. لقد كان في ذلك على الأقلّ رجلاً طيّب المعشر."

كان في حوزتها مجموعة تواقيع لجميع هؤلاء الرجال العظام وتحسب فيما يبدو، وهي تذرّع بالعلاقات الخاصة التي أقامت أسرتها أن رأيها فيما يخصّهم أكثر صواباً من رأي شبّان مثلي لم يستطيعوا التردّد عليهم.

- "أظنّ أنّي أستطيع التحدّث عنهم، فقد كانوا يتردّدون على منزل والدي ؛ وينبغي أن نصدّق فيما يخصّهم، كما يقول "سانت بوف" الذي كان واسع الذكاء، الذين رأوهم عن كثب واستطاعوا أن يحكموا حكماً أكثر دقّة على ما كانوا يساوون."

وفيما كانت العربة تتسلّق طريقاً صاعدة بين أراض مفلوحة كانت بعض أزاهير الترنشاه المتردّدة الشبيهة بأزاهير "كومبريه" تتبع عربتنا فتزيد من حقيقة الحقول وتضيف إليها دمغة الأصالة كالزهرة الثمينة التي كان بعض أساطين الفنّ القدامى يوقعون بها لوحاتهم. وتسبقها جياندا بعد قليل ولكنّها نلّيح بعد خطي قليلة واحدة غرست بانتظارنا نجمتها الزرقاء في العشب أمانا. وتتجرّأ كثيرات فتقبّل وتقف على حافة الطريق فإذا ما يشبه السديم يتشكل من ذكرياتي البعيدة والأزهار المؤالفة.

ثمّ نأخذ في الانحدار عن المرتفع. حينئذ كنّا نلتقي بواحدة من تلك المخلوقات تتسلّقه سعياً على الأقدام أو على دراجة أو في عربة خفيفة أو في عربة فاخرة - وهن أزاهير النهار الصاحي ولكنهنّ لسن كأزاهير الحقول لأنّ كلّ واحدة تتضمن شيئاً ليس في الأخرى ويحول دون أن نستطيع إشباع الرغبة التي ولّدها فينا مع مثيلاتها - كفتاة مزرعة تسوق بقرتها أو هي نصف مستلقية فوق عربة نقل، أو ابنة دكانيّ في نزهة، أو أنسة أنيقة تجلس على مقعد عربة مكشوفة قبالة والديها. كان "بلوك" بالتأكيد قد فتح لي عصراً جديداً وغيّر قيمة الحياة في نظري يوم أطلعتني أنّ الأحلام التي نقلتها في عزلي من جهة "ميزيللكيز" حينما أمني النفس بفلاحة تمرّ بي وأخذها بين

ذراعي لم تكن وهماً لا يوافق شيئاً خارج ذاتي، بل إن جميع الفتيات اللواتي كنّا نلتقي بهن كنّ على أتم الاستعداد للاستجابة لمثل تلك الأمنيات سواء أكنّ قرويات أم أنسات. وحتى إن انبغى الآن وقد كنت مريضاً ولا أخرج وحدي ألا أستطيع في يوم ممارسة الحبّ معهنّ فقد كنت مع ذلك سعيداً سعادة طفل ولد في سجن أو مستشفى وظنّ طويلاً أنّ الجسم البشري لا يستطيع أن يهضم إلا الخبز الجافّ والأدوية ثم علم فجأة أنّ الدراق والمشمش والعنب ليست مجرد زينة للحقول بل هي أطعمة لذينة يمكن تمثيلها. إن العالم ليبدو له أفضل والحياة أرحم حتى لو لم يسمح له سجنه أو مرضه بقطف هذه الفاكهة الجميلة. ذلك لأنّ الشوق يبدو لنا أوفر جمالاً وأننا نستند إليه بثقة أكبر حينما نعلم أنّ الواقع يطابقه خارج ذواتنا حتى لو لم يكن ممكن التحقيق بالنسبة إلينا. وإننا نفكر باغتيال أكبر بحياة يمكننا فيها أن نتخيل أننا نشيعه - بشرط أن نستبعد لحين من فكرنا العقبة الصغيرة العارضة الخاصة التي تحول دون أن نحقق الأمر شخصياً. وقد أصبحت، فيما يخص الفتيات الجميلات اللواتي يمررن بي، منذ اليوم الذي علمت فيه أنه يمكن تقبيل وجناتهنّ، أطلع إلى معرفة نفوسهنّ. وقد بدا لي العالم أجدر بالاهتمام.

كانت عربة السيّدة "دوفيلباريزيس" تمضي سريعة، فلايكاد يتسع لي الوقت لأبصر البنية التي تجيء في اتجاهنا. ولكن - بما أنّ جمال الكائنات ليس كجمال الأشياء وأننا نحس أنه جمال مخلوق فريد واع ذي إرادة - حالما كانت سمته الفردية، تلك النفس المبهمة والإرادة المجهولة لديّ، ترتسم في أعماق نظراته الشاردة على شكل صورة صغيرة مقلّصة إلى حدّ بعيد ولكنها كاملة، كنت أحسّ في الحال بيوادر الرغبة في مثل إبهامها وصغر حجمها، وهي الرّدّ الخفي لغبار الطلع المهيأ تماماً للمدقات، الرغبة في ألا أدع لتلك الفتاة أن تمرّ دون أن يتنبّه فكرها لشخصي، دون أن أمنع رغباتها من التوجّه إلى آخر غيري، دون أن أبادر للانغراس في أحلامها والاستيلاء على قلبها. ولكنّ عربتنا تبتعد والفتاة الحلوة أصبحت ورائنا وبما أنّها لا تملك عني أيّاً من التصورات التي تؤلف الشخصية فإن عينيها، ومارأتاني إلا لماماً، قد نسيتاني. أتراني ألفيتها جميلة إلى هذا الحد لأنني لمحتها فحسب؟ ربّما. ذلك أنّ استحالة التوقّف بالقرب من امرأة وخطر ألا نعود فنلقاها في يوم آخر إنّما يكسبها بادئ الأمر على نحو مفاجئ السحر نفسه الذي يضيفه على بلد ما المرض أو الفقر اللذان يحولان دون أن نزوره، أو على الأيام الباهتة التي تبتقت لنا في الحياة القتال الذي سنلقى فيه دون شكّ حتفنا. فلولم تكن العادة لا نبغى أن تبدو الحياة، والحالة هذه، رائعة في عيني قوم تهلّدهم المنية في كلّ ساعة - يعني في عيني البشر كافّة. ثم إن الخيال إن انساق خلف تمنّي مالا نستطيع امتلاكه فإن انطلاقة لا يقيدّها واقع تمت مشاهدته مشاهدة ضافية في تلك اللقاءات التي ترتبط مفاتن عابرة السبيل فيها ارتباطاً مباشراً بسرعة العبور. ويكفي أن يحلّ الليل وتسرع العربة في سيرها بين الحقول أو في المدينة حتى لا يظنّ جذع أنثى تشوّه شأن تمثال من مرمر عتيق السرعة التي تحرفنا والشفق الذي يغمره إلا ويطلق على فؤادنا من كلّ زاوية طريق ومن أعماق كلّ دكان سهام "الجمال"، الجمال الذي ربّما يغربنا أن نتساءل أحياناً إن كان في هذه الدنيا غير ذاك الجزء المتمم الذي يضيفه إلى عابرة سبيل محزاة سريعة التلاشي خيالنا الذي يستثيره الأسف.

ولو استطعت النزول والتحدث إلى الفتاة التي كنا نلقاها فربما بدد أوهامي عيب في بشرتها لم أميزه من العربة. (ولكان بدا لي فجأة حينئذ كل جهد في ولوج حياتها مستحيلاً. ذلك لأنّ الجمال سلسلة من الفرضيات التي تقلصها القباحة إذ تسد الطريق التي سبق أن رأيناها تنفتح على المجهول.) ربما زودتني كلمة واحدة تقولها وزودتني ابتسامة بمفتاح ورموز غير متوقعة كيما أقرأ تعابير وجهها ومشيتها اللذين ربما أصبحا في الحال لاشأن لهما. ذلك ممكن، لأنني ما التقيت في الحياة بفتيات مشتهيات إلى هذا الحد إلا في الأيام التي كنت فيها بصحبة شخص رزين ما استطعت فراقه على الرغم من آلاف الأعذار التي كنت أبتدعها. فبعد بضعة سنوات أعقبت السنة التي ذهبت فيها للمرة الأولى إلى "باليك" وإذ كنت في عربة لأقوم بنزهة في باريس مع صديق لوالدي ولمحت امرأة تمشي مسرعة في الليل رأيت من الجنون أن أفقد بداعي اللياقات حصتي من السعادة في الحياة الوحيدة القائمة دون شك فقفزت أرضاً دون اعتذار وأخذت أبحث عن المجهولة وأضعت أثرها في تقاطع شارعين وعدت فلقيتها في ثالث ووجدتني أخيراً فاقد الأنفاس تحت أحد المصاييح قبالة السيدة "فيردوران" العجوز التي كنت أتجنبها في كل مكان والتي صرخت فرحة ذاهلة: "أوه! لطيف منك أنك جريت لتسلم عليّ!"

كنت أؤكد لجديتي وللسيدة "دوفيلبا ريزيس" في ذلك العام في "باليك"، وساعة تتم تلك اللقاءات، أنه من الأفضل أن أعود وحدي سراً على الأقدام بسبب ألم شديد في رأسي. وكانت ترفضان السماح لي بالنزول فأضيف الفتاة الجميلة (والتقاؤها من جديد أعسر بكثير من العثور على بناء أثري إذ كانت مغفلة الاسم ومتنقلة) إلى مجموعة سائر اللواتي كنت أمني النفس برؤيتهن عن كثب. على أنه اتفق لإحداهن أن عادت فمرت أمامي وضمن شروط حسبت معها أنني سوف أستطيع التعرف إليها حسبما أشاء. كانت تلك بائعة حليب جاءت من مزرعة تحمل كمية إضافية من القشدة للفندق. وظننت أنها تعرفت علي بدورها فقد كانت تنظر إليّ باهتمام ربما كان سببه الدهشة التي سببها لها اهتمامي. وفي الغد، وهو يوم استرحت فيه على مدى الصباح بكامله، وحين جاءت "فرانسواز" نحو الظهر تفتح ستائري سلمتني رسالة وضعت في الفندق من أجلي. وما كنت أعرف أحداً في باليك. فلم أشك أن الرسالة كانت من بائعة الحليب. وكانت من "بيرغوت"، وأسفي، الذي حاول أن يلقاني وهو في طريقه، فلما علم أنني نائم ترك لي هذه الكلمة الرائعة التي جعل لها عامل المصعد مظلوماً ظننته سطر يد بائعة الحليب. لقد خاب أمني خيبة شنيعة، ولم تحمل لي فكرة أن استلام رسالة من "بيرغوت" أكثر صعوبة وأكثر إثارة للزهو أيّ عزاء عن أنها لم تكن من بائعة الحليب. وهذه الفتاة نفسها لم ألقها ثانية أكثر مما تم لي ذلك مع اللواتي كنت ألمحهن فقط من عربة السيدة "دوفيلبا ريزيس". كانت مشاهدتهن ثم فقدانهن جميعاً يزيدان من حالة الاضطراب التي أعيش فيها فأجد بعض الحكمة لدى الفلاسفة الذين يوصوننا بوضع حدّ لرغباتنا (إن هم قصدوا التحدث عن التوق إلى الأشخاص فإنه وحده الذي يمكنه أن يخلّف الضيق في النفس إذ ينطبق على ما كان من المجهول الواعي. أما افتراض أن الفلسفة إنما تقصد التحدث عن الرغبة في الثروات فمن أشد العبث). ولكنني كنت مع ذلك على استعداد لأحكم أن تلك ناقصة لأنني كنت

أقول في نفسي إن تلك اللقاءات تزيد في نظري من جمال عالم ينبت هكذا على سائر الطرقات الريفية أزاهير غريبة وشائعة في الوقت نفسه وهي من كنوز النهار العابرة ومكاسب الزهات غير المتوقعة وقد حالت ظروف طارئة، لعلها لن تتكرر على الدوام، حالت وحدها دون أن أفيد منها وهي التي تزود الحياة بطعم جديد.

ولكني ربما شرعت، في أمني أنني قد أستطيع يوماً، وقد أصبحت أكثر حرية أن ألقى على طرقات أخرى فتيات مشابهات، ربما شرعت مذ ذاك أفسد السمة الفردية البحتة التي تطبع الرغبة في العيش بالقرب من امرأة وجدناها جميلة وأخذت أعتزف اعترافاً ضمناً بوهم تلك الرغبة لمجرد أنني كنت أسلم باحتمال بعثها بوسيلة مصطنعة.

في اليوم الذي اصطحبنا فيه السيدة "دوفيلباريزيس" إلى "كاركفيل" حيث تقوم تلك الكنيسة المغطاة باللبلاب التي سبق أن حدثتنا عنها، والتي شيدت فوق رابية وتشرف لذلك على القرية وعلى النهر الذي يجتازها والذي احتفظ بجسره الصغير من العصر الوسيط، حسبت جدتي أنه ربما سرتني أن أكون وحيداً لمشاهدة هذا البناء فعرضت على صديقتها أن تبادرا لتناول العصرونية في دكان الحلواني الكائنة في الساحة التي كانت تشاهد بوضوح وتبدو بقشرتها المذهبة وكأنها جزء آخر من تحفة كلها قديمة. وتم الاتفاق أن أبادر إلى لقائهما هناك. كان لابد لي في هذه الكتلة الخضراء التي تركت أمامها، في سبيل أن أعرف أن ثمة كنيسة، أن أبذل جهداً يسمح لي أن أحصر أكثر فأكثر فكرة الكنيسة. ذلك أنه كما يتفق للتلاميذ الذين يدركون أتم الإدراك معنى إحدى الجمل حينما يلزمون في عملية الترجمة من اللغة وإليها بتعريفها من الصيغ التي تعودوها، كنت أراني مضطراً، فيما يخص فكرة الكنيسة هذه التي لم تكن بي حاجة إليها عادة أمام قباب أجراس تعرفها من تلقاء ذاتها، أن أعود باستمرار إليها كي لا أغفل أن قوس هذه الخصلة من اللبالب كان هنا قوس عقد زجاجي وأن بروز الأوراق هناك ناجم عن بروز تاج عمود. ولكن ريحاً خفيفة كانت تهب حينئذ فيرتعش لها المدخل المتحرك الذي تجري على صفحته اضطرابات تتدافع وترتفع مثلما النور. كانت الأوراق تتدلق موجات تدفع موجات وتجذب الواجهة النباتية المرتعشة خلفها الأعمدة المتموجة المداعبة المتهربة.

وإذ كنت أغادر الكنيسة رأيت أمام الجسر القديم فتيات من القرية يقفن بكامل زينتهن لأن اليوم ولأريب كان يوم أحد وينادين على الصبية الذين يملون بهن. كان ثمة واحدة طويلة القامة دون الأخريات في لباسها ولكنها تبدو وكأنها تطغي عليهن بضرب من النفوذ - إذ تكاد لاتجيب على مايقبله لها - وتظهر أكثر رزانة وأوفر تصميمًا، وكانت نصف جالسة على حافة الجسر تدلي ساقيها وأمامها وعاء مليء بأسماك اصطادتها على الأرجح منذ وقت قليل. كان لونها مسمرًا وعيناها عذبتين ولكن لها نظرة استخفاف بما حولها وأنفاً صغيراً ناعم الشكل ساخره. كانت نظراتي تحط على بشرتها وكان يمكن لشفتي أن تظنا لدى الاقتضاء أنهما تبعتا نظراتي. ولكنني ماكنت أود الوصول إلى جسدها فحسب بل إلى الشخص الذي كان يعيش داخله أيضاً والذي لانلامسه إلا على نحو واحد قوامه أن نسترعي انتباهه ولا نلجأ إلا على نحو واحد قوامه بعث فكرة فيه.

وكان وجود الصبيّدة الحسناء الداخلي لا يزال يبدو لي مقفلاً وبني شك إن كنت ولجته حتى بعدما لمحت صورتني تنعكس خلصة في مرآة لحظتها وفق مؤشر انعكاس كان مجهولاً لدي كما لو أقمت في ساحة بصر ظبية. وكما لعلّه ما كان يكفيني أن تلاقني شفتاي متعة على شفيتها بل أن تمنحها إياها. كذلك وددت لو أن الفكرة المكوّنة عني التي ستلج ذلك الوجود وتشتبث به لن تقود إليّ انتباهها فحسب بل إعجابها ورغبتها وتضطرها أن تحفظ ذكري حتى اليوم الذي يمكنني فيه أن ألقاها ثانية. وأبصرت آنذاك على بضع خطوات المكان الذي تزمع أن تنتظرنني فيه عربة السيّدة "دوفيلباريزيس". لم تمرّ بي سوى لحظة وقد أحسست مع ذلك أن الفتيات شرعن في الضحك إذ رأينني أتوقّف على هذا النحو. وكنت أحمل خمسة فرنكات في جيبي فأخرجتها منه وأمسكت بقطعة النقود للحظة أمام عيني الفتاة الجميلة قبل أن أشرح لها المهمة التي أكلّفها إياها وكما أزيد من احتمال أن تصغي إليّ، ثم قلت للصبيّدة:

- "بما أنه يبدو أنك من هذه المنطقة فهل تتكرمين بمشوار صغير من أحلي؟ ينبغي الذهاب أمام دكان حلواني تقع، فيما يبدو، على ساحة، ولكنني لأدري أين هي، وهناك تنتظرنني عربة. مهلاً... تسألين كي لا يختلط الأمر عليك إن كانت تلك عربة المركيزة "دوفيلباريزيس". ستبينينها تماماً على أية حال فإنّ لها حصانين."

كان ذلك ما أبغى أن تعرفه كي تحمل عني فكرة عظيمة. إلا أنّي ما إن نطقت بكلمتي "مركيزة" و"حصانين" حتى انتابني فجأة هدوء عظيم. أحسست بأنّ الصبيّدة سوف تذكرني وبجزء من رغبتني في لقاءها ثانية يتلاشى مع هلمي بالألا يمكنني لقاءها ثانية. لقد بدا لي أنّي أقدمت على مسّ شخصها بشفتين خفيفتين وأنّني حسنتُ في عينيها. وقد قلص هذا الاستيلاء بالقوة على فكرها، هذا الامتلاك اللامادي قلص من سرّها الخفيّ بقدر ما يفعل الامتلاك الجسديّ...

وانحدرنا إلى "هوديمينيل"، وغمرتني فجأة تلك السعادة العميقة التي لم أحس بها كثيراً منذ إقامتي في "كومبريه"، سعادة شبيهة بتلك التي أولتاني إياها، في ما أولتا، قبّتا أجراس "مارتنفيل". ولكنها ظلت ناقصة هذه المرّة. فقد اتفق أن رأيت ثلاث شجرات ترتفع على جانب الطريق المحدودة التي كنّا نسير عليها ولا بدّ أنّها كانت بمثابة مدخل إلى ممرّ مشجّر وكانت تؤلف خطوطاً لأراها للمرّة الأولى ولا أفلح في التعرف على المكان الذي تبدو وكأنّها انتزعت منه ولكنّا بي إحساس بأنّه كان مألوفاً لديّ فيما مضى. وإذ تعثر فكري بين سنة بعيدة واللحظة الحاضرة ترنحت ضواحي "بالبيك" وأخذت أتساءل إن لم يكن كلّ هذا المشوار وهمّاً، و "بالبيك" مكاناً لم أذهب إليه في يوم إلا في الخيال، والسيّدة "دوفيلباريزيس" شخصيّة روائية، والشجرات الثلاث الواقع الذي تلقاه حينما ترفع عينيك عن الكتاب الذي كنت تقرأه والذي كان يصوّر لك وسطاً بلغ بك الأمر أن تظنّ أنك نقيّلت بالفعل إليه.

كنت أنظر إلى الشجرات الثلاث وأبصرها تماماً ولكن فكري يحسّ أنها تخفي شيئاً لاأتمكن منه كتلك الحاجات الواقعة بعيداً جداً عنا التي تلامس أصابعنا الممدودة في نهاية ذراعنا المبسوطة

غلافها فحسب بين الحين والحين دون أن تفلح في الإمساك بها. حينئذ نرتاح هنيهة كي نقذف بذراعنا إلى الأمام بقوة أعظم ونحاول بلوغ نقطة أبعد. على أنه كان لابد لي أن أكون وحدي كي يتسنى لفكري أن يجمع شتاته ويتحفز للدفاع. لكم وددت لو أستطيع الانزواء مثلما كنت أفعل في نزهاتي في جانب "غيرمانت" حينما كنت أعزل بعيداً عن ذوي ! بل بدا لي أنه لابد من الإقدام على الأمر. وكنت أعرف هذا الصنف من المتعة الذي يقتضي والحق يقال نشاطاً يمارسه الفكر على ذاته ولكن متع الاستهتار الذي يحملك على التخلي عنها تبدو إزاءها شديدة التفاهة. ما كنت أشعر بتلك المتعة التي كان موضوعها مُستشفاً فحسب، وكان علي أن أصنعها بنفسني، سوى مرّات قليلة، ولكنما يبدو لي في كلّ منها أن الأمور التي جرت في الفترة الفاصلة كانت غير ذات بال تقريباً وأنني أستطيع إن انصرفت إلى حقيقتها وحدها أن أبداً أخيراً حياة حقيقية. ووضعت حيناً من الوقت يدي أمام ناظري ليمكنني إطباقهما دون أن تتبّه السيّدّة "دوفيلبايزيس" للأمر. وظللت لأفكر في شيء ثم وثبت من موقع فكري المكثس الذي تملكته تملكاً أشدّ وثبة أطول باتجاه الشجرات أو بالأحرى في اتجاه داخلي كنت أبصرها في آخر نقطة منه في داخلي. وأحسست ثانية خلفها بالغرض نفسه المعروف لدي ولكنه مبهم ولم أستطع إرجاعه إليّ. ولكنّ كنت أبصرها تقترب ثلاثتها كلما تقدّمت العربة. فأين نظرت إليها قبل ذاك؟ لم يكن ثمة مكان حوالي "كومبريه" له مرّ مشجّر بمدخل من هذا القبيل، كما لم يكن للموقع الذي تذكّرني به مكان في الريف الألماني حيث ذهبت مع جدّتي في إحدى السنين للاستشفاء في مدن المياه. أفينبغي الظنّ أنها أقبلت من سنوات أصبحت مغرقة البعد في حياتي حتى زال من ذاكرتي المنظر الذي كان يحيط بها زوالاً تاماً وأنها، شأن تلك الصفحات التي يهر مشاعرك فجأة أن تعود فتلقاها في مؤلف كنت تظنّ أنك ما قرأته في يوم، ظلّت وحدها تطفو على صفحات سيفر طفولتي الأولى المنسي؟ أم تراها كانت على العكس من قبيل مناظر الأحلام تلك التي لا تتبدّل على الأقل بالنسبة إليّ أنا الذي لم يكن مظهرها الغريب داخلي سوى تجسيد في أثناء النوم للجهد الذي كنت أصرفه في أثناء اليقظة إمّا لأبلغ به السرّ في مكان كنت أستشفّه خلف مظهره، مثلما وقع لي ذلك مرات عدّة في جانب "غيرمانت"، إمّا لأحاول إعادته إلى مكان سبق أن تفت إلى التعرّف به فبدا لي منذ اليوم الذي عرفته فيه سطحياً تماماً شأن "البليك"؟ أكانت محض صورة جديدة تماماً انفصلت من أحد أحلام الليلة السابقة ولكنها أضحت باهتة حتى لتبدو لي وكأنّها تأتي من موقع أبعد بكثير؟ أم أنّي ماريتها في يوم وكانت تخفي خلفها كمثّل شجرات غيرها وخصلة عشب رأيتها جميعها في جانب "غيرمانت"، معنى في مثل غموض ماضٍ سحيق وصعوبة إدراكه حتى أنّي كنت أظنّ، إذ تستدعيني إلى تعميق فكرة، أنّ عليّ التعرّف إلى ذكرى؟ أم هي لم تكن حتى تخفي فكرة وهو تعب في حاسة الرؤية لديّ يريني إيّاها مزدوجة في الزمان مثلما يتم لنا أن نرى الأشياء مزدوجة في المكان؟ لست أدري. ولكنها كانت تتقدّم نحوي؛ ربّما كانت أشباحاً خرافية دائرية لساحرات أو لرَبّات الأقدار تعرض عليّ نبوءاتها. وحسبتها بالأحرى أطيافاً من الماضي ورفاقاً أعزّاء من طفولتي وأصدقاء راحلين يستعيدون ذكرياتنا المشتركة، وكمثّل أشباح تبدو كأنما تسألني أن أصطحبها وأردها إلى الحياة. كنت أتعرف في حركاتها الساذجة المليئة بالحماسة الأسف العاجز الذي لحبيب فقد القدرة على الكلام ويحسّ أنه

لن يستطيع أن يقول لنا ما يريد وما لنفعل في تخمينه. وبعد قليل تخلّت عنها الطريق على مفرق طرق. كانت تذهب بي بعيداً عما أظن أنه حقيقيّ وحده ومالعه كان أسعدني بالحقيقة، فتشبه بذلك حياتي.

ورأيت الشجرات تتعد وهي تلوّح بأيديها اليائسة كأنما تقول لي: مالاتعلمه منّا اليوم لن تعرفه في يوم. فإن تركتنا نتهوى في أقصى هذا الدرب الذي كنّا نحاول أن نرتفع منه إليك فإن جزءاً من ذاك كنّا نجعلك به سوف يهوي كله في العدم وإلى الأبد. ولئن لقيت فيما بعد نوع المتعة والاضطراب الذي خبرته مرّة أخرى منذ قليل وتعلّقت به ذات مساء - بعد فوات الأوان ولكن على مدى الأيام - فإني لم أعلم في يوم من تلك الشجرات نفسها ما كانت تبغي أن تنقله إليّ ولا في أي مكان سبق لي أن شاهدتها. وحينما انعطفت السيّارة فأوليتها ظهري ولم أعد أراها، وفيما كانت السيّدة "دوفيلباريزيس" تسألني لماذا أبدو حالم المظهر، كنت حزينا كما لو اتفق لي أن أفقد صديقاً أو أن أموت لذاتي أو أن أنتشل ميتاً أو أنكر إلهاً.

كان لابد من التفكير في العودة. وكانت السيّدة "دوفيلباريزيس" التي تملك شيئاً من حسن الطبيعة أبعد عن التأثير مما تملك جذتي ولكنها تجيد التعرف حتى خارج المتاحف والمنازل الأرستقراطية إلى الجمال البسيط والعظمة الكامنين في بعض الأشياء القديمة، كانت تقول للحوذيّ أن يسلك طريق "باليك" القديمة وهي قليلة الرّواد ولكنّا تكتنف جانبيها أشجار دردار معمرة كانت تبدو رائعة لناظرنا. وبعد ما عرفنا هاتيك الطريق القديمة عدنا، بغية التغيير، في طريق أخرى، مالم نكن سلكنها في الذهاب، طريق تخترق غابتي "شاترين" و"كانتلو". كانت العصافير المحتجة التي لاتحصى والتي تتجاوب بالقرب منا في الشجر تخلف ذات الإحساس بالهدوء الذي يغمرنا ساعة نطبق عينينا. كنت أصغي وأنا مقيد على مقعدي الجانبيّ مثل "بروميثيوس" على صخرته إلى حوريات البحار. وحينما كنت ألمح بالصدفة أحد تلك العصافير يمرّ من ورقة تحت أخرى فقد كان بينه وبين ذلك الغناء النزر اليسير من الرباط الظاهر حتّى ما كنت أحسبني أرى سبب هذا الغناء في هذا الجسم الصغير المتنقل المستعجب الذي لا بصر له.

كانت تلك الطريق شبيهة بالكثير غيرها ممّا يشاهد في فرنسه تصعد وفق ميل على شيء من القسوة ثم تذهب في انحدار طويل. ولم ألق فيها في ذلك الحين نفسه فتنة كبيرة إذ كنت مسروراً بأن أعود فحسب. بيد أنها أصبحت بعد ذاك في نظري علّة مسرّات إذ ظلّت في ذاكرتي بمثابة بداية اتّصلت بها في الحال، دون أن يحدث انقطاع، جميع الطرقات المشابهة التي قد أمرّ عليها فيما بعد أثناء نزهة أو رحلة ويمكن بفضلها أن تتواصل مباشرة مع فوادي. فما إن تسلك العربة أو السيّارة واحدة من تلك الطرقات التي تبدو وكأنها مواصلة لتلك التي سبق أن اجتزتها مع السيّدة "دوفيلباريزيس" فإنّ ما سوف يستند إليه في الحال شعوري الراهن وكأنّما إلى ماضيّ الأقرب منّي إنّما هي (بعد ماتلاشي السنوات التي تفصل بينها) الانطباعات التي تمّت لي في أوقات ما بعد الظهر تلك وأنا في نزهة بالقرب من "باليك" حينما كانت الأوراق ترسل شذاها الطيّب ويرتفع الضباب

ويبدو غروب الشمس للعين، ما وراء القرية التالية، وكأنه بين الأشجار قرية أخرى حراجية بعيدة لن نصل إليها في المساء نفسه. وسوف تتعزّز تلك الانطباعات وقد رُبِطَتْ بتلك التي كنت أحسّ بها الآن في منطقة أخرى وعلى طريق مشابهة إذ تحيط نفسها بجميع الأحاسيس الثانوية التي تجمع بينها من هواء نقيّ وفصول وكسل وشهية ومرح وتستبعد كلّ ماعداها، وتتخذ بذلك قوام نمط خاصّ من المتعة وما يقارب إطاراً حياتياً لا يتسنى لي لقاءه ثانية إلا فيما بدر عليّ آية حال، ولكنّ استفاقة الذكريات فيه كانت تضع وسط الواقع المدرك على الصعيد الماديّ قسماً لا بأس به من الواقع المستذكر المختلط بالأحلام المتهرّب كي يوقظ فيّ وسط هذه المناطق التي أمرّ فيها أكثر من شعور جمالي، كي يوقظ فيّ رغبة عابرة، ولكنها نائرة، في العيش فيها مذ ذاك إلى الأبد. فكم مرّة بدا لي الجلوس على مقعد جانبيّ قبالة السيّدة "دوفيلباريزيس" والالتقاء بأميرة "لوكسمبور" التي كانت تبعث إليها بتحيّاتها من عربتها والعودة للعشاء في الفندق الكبير، لمحض أنّي شممت رائحة أوراق الشجر، بمثابة سعادة من تلك التي تمتنع على الوصف لا يستطيع لالحاضر ولا المستقبل أن يردّاها ولا يتذكّرها المرء إلا مرّة واحدة في الحياة.

وكثيراً ما كانت تغرب الشمس قبل أن نعود، فأذكر بوجل للسيّدة "دوفيلباريزيس"، وأنا أدلّها على القمر في السماء، هذه العبارة الجميلة أو تلك لي "شاتوبريان" أو "فيني" أو "فيكتور هوغو": "كان يسكب سرّ الكتابة القديم ذاك" أو "يكي مثل "ديانا" على حافة ينابيعها" أو "كان الظلام زفافياً جليلاً مهيباً". وكانت تسألني قائلة:

- "وترى أن ذلك جميل و"عقريّ" حسبما تقول؟ سأقول لك إنني أعجب دوماً إذ أرى أن الناس يأخذون الآن على محمل الجدّ أشياء كان أصدقاء هؤلاء السادة أوّل من يسخر منها فيما هم يقرّون تماماً بمزايهاهم. فلم يكن الناس يحدّثون بلقب عقريّ كمثّل يومنا هذا الذي إن تقلّ لكاتب فيه أنّه لا يملك سوى الموهبة حسب ذلك شتيمة. إنك تذكر لي جملة كبيرة للسيّد "دوشاتوبريان" حول ضوء القمر. وسترى أنّ لديّ ما يدفعني إلى معارضة ذلك. فكثيراً ما كان يجيء السيّد "دوشاتوبريان" إلى منزل والدي. وكان على أيّ حال محبباً حينما نكون وحدنا، فقد كان حينذاك بسيطاً مسلّياً، بيد أنّه ما إن تيسّر له جماعة حتّى يأخذ في التصنّع فيضحي مثيراً للسخرية. كان يدّعي في حضرة والدي أنّه ألقى باستقالته في وجه الملك وأنّه أدار أعمال مجمع انتخاب البابا، ويفوّته أنّه كلّف والدي بنفسه كي يرجو الملك استعادته وأنّ والدي سمعه يحدّث بأكثر التخمينات بعداً عن المعقول حول انتخاب البابا. كان ينبغي أن تسمع حول هذا المجمع الانتخابيّ الشهير السيّد "دوبلاكاس" وهو من غير طينة السيّد "دوشاتوبريان". أمّا فيما يخصّ جمل هذا الأخير حول ضوء القمر فقد أضحت بكل بساطة عبثاً على المنزل. فكلمّا اتفق أن تكون الليلة قمرًا حول القصر وكان ثمة مدعوّ جديد كان يُشار عليه أن يصطحب السيّد "دوشاتوبريان" لاستنشاق الهواء بعد العشاء. ولم يكن يفوت والدي حينما يعودان أن ينفرد بالضيف: "كان السيّد "دوشاتوبريان" شديد البلاغة؟ - أجل. - وقد حدّثك عن ضياء القمر. - نعم، وكيف عرفت ذلك؟ - مهلاً، أمّا قال لك؟" ويذكر له الجملة. - "أجل، ولكن أيّ سرّ في الأمر؟" - "وقد حدّثك حتّى عن ضياء القمر

فوق ريف روما. - "ولكنك ساحر." ولم يكن والدي ساحراً ولكن السيد "دوشاتوبريان" كان يكتفي دوماً بتقديم المقطوعة الجاهزة نفسها.

ولدى سماع اسم "دوفيني" أخذت في الضحك.

- "ذاك الذي كان يقول: "أنا الكونت ألفريد دوفيني." قد يكون المرء "كونت" أولاً يكون، فليس للأمر أية أهمية".

وربما وجدت أن في الأمر مع ذلك بعض الأهمية إذ كانت تضيف قولها:

- "لست متيقنة بادئ الأمر أنه حمل اللقب، وكان على أية حال من سلالة هيئة جداً ذلك السيد الذي روى في قصائده عن "شعار أسرته النبيلة". فما أرفع الذوق وما أكثر ما يثير القارئ ذلك من قبيل ما كان يقول "موسيه"، وهو محض بورجوازي من باريس، بلهجة فخمة: "الباشق الذهبي الذي تزدان به خوذتي." إن سيداً عظيماً حقاً لا يتفوه البتة بمثل هذه الأمور. كان "موسيه" يتمتع ببعض الموهبة على الأقل بوصفه شاعراً. ولكني لم أستطع قط، فيما عدا كتاب "سان مارس"، أن أقرأ شيئاً للسيد "دوفيني"، فالسأم يسقط الكتاب من بين يدي. أما السيد "موليه" الذي كان يتمتع بذلك وكياسة يساويان المقدار الذي ينقص السيد "دوفيني"، فقد تدبر أمره على مايرام وهو يستقبله في المجمع اللغوي. مابك، ألا تعرف خطابه؟ إنه رائعة من خبث ووقاحة.

وكانت تأخذ على "بلاك"، وتدهش أن ينظر إليه أبناء أشقائه بإعجاب، أنه ابتغى وصف مجتمع "لم يكن يرحب به" وروى عنه ألفاً من الأمور اللامعقولة، أما فيما يخص "فيكتور هوغو"، فقد كانت تقول لنا إن والدها السيد "دويون" الذي كان له رفاق بين الشباب الرومانتيكي قد دخل بفضلهم إلى العرض الأول لمسرحية "هيرناني" ولكنه لم يستطع المكوث حتى النهاية لشدة ما وجد أشعار هذا الكاتب، وهو موهوب ولكنه على شيء من الغلواء، مضحكة، ولم يسبغ عليه لقب الشاعر الكبير إلا بفضل مقايضة وبمثابة مكافأة لقاء التسامح المغرض الذي نادى به إزاء هذيان الاشتراكيين الخطير.

وأخذنا نلمح الفندق وأضواءه الشديدة العداء في المساء الأول لدى وصولنا، وقد أضحت الآن حانية عذبة تنبئ بدفء المنزل. وحينما كانت تصل العربية على مقربة من الباب كان البواب والخدم وعامل المصعد، بفيض من المحاملة والسداجة والقلق اليسير من جرّاء تخلفنا، يتجههرون على الأدرج بانتظارنا وأضحوا، بعد ما ألفناهم، من تلك الكائنات التي ما أكثر ما تتبدل أثناء حياتنا مثلما تتبدل بدورنا ولكننا نجد فيها، لحظة تصبح إلى حين مرآة عاداتنا، عذوبة في أن نحس أن صورتنا تنعكس فيهم بأمانة وصدقة. وإننا نفضلها على أصدقاء لم نرهم منذ فترة طويلة لأنها تتضمن قسماً أوفر مما نحن عليه في الحالة الراهنة. وحده الخادم ذو الحلة جيء به إلى الداخل، وقد تعرض لأشعة الشمس في النهار، كي لا يعاني من قسوة العشيّة وقد لفّ بأقمشة صوفية كانت تذكّر، إذا ما قرنت

بكآبة شعره البرتقالي وتورّد وجنتيه الغريب، كانت تذكر وسط الردهة المزججة بنبتة يحفظونها من البرد داخل. دفيئة. كنا نزل من العربى ويساعدنا فى ذلك عدد من الخدم يفوق مايلزم، ولكنهم كانوا يحسّون بأهميّة المشهد ويظنون أنّهم ملزمون بأداء دور فيه. وكنت أشعر بحجوع شديد، فكنت لذلك لأصعد فى الغالب، كى لأؤخر ساعة العشاء، إلى الغرفة التى أصبحت فى نهاية المطاف غرفتي على نحو حقيقي إلى حدّ أنّ رؤية الستائر الكبيرة البنفسجية والمكتبات الواطئة إنما أصبحت تساوي أن ألقى نفسي وحيداً مع هذه الأنا نفسها التى كانت الأشياء، كما الناس، تقدّم لي صورتها، وكنا ننتظر جميعنا فى البهو أن يُقبل رئيس الخدم ويقول لنا إن الطعام جاهز. كانت تلك أيضاً فرصة لنستمع إلى السيّدة "دوفيلباريزيس".

- "إننا نتمادى فى استغلالك" تقول جدّتي.

- "كيف ذلك، إنى فى غاية السرور وأجد ذلك رائعاً"، تحجب صديقتها بابتسامة مغفلة وهي تسرع فى أداها بلهجة رخيصة تتعارض وبساطتها المعتادة.

ذلك أنّها لم تكن بالفعل طبيعيّة فى تلك اللحظات، فقد كانت تذكر تربيّتها والأساليب الأرستقراطية التى يحدر بسيّدة كبيرة أن تُظهر بها للبورجوازيّين أنّها سعيدة لوجودها معهم وأن لا عرفة لديها. والتقصير الوحيد على صعيد التهذيب الحقيقي لديها كان يكمن فى فرط مجاملاتها، فقد كنت أدرك فيها تلك العادة المهنيّة لدى سيّدة من حيّ "سان جيرمان" ترى على الدوام فى بعض البورجوازيّين جماعة قدّرت عليها أن تثير استياءهم فى هذا اليوم أو ذاك فتستغلّ أشدّ الاستغلال جميع الفرص التى يتسنى لها فيها فى سجلّ حسابات لطافتها معهم أن تسجل تقدّماً برصيد دائن يسمح لها بعد قليل أن تسجل فى حقل الديون العشاء أو اللقاء الذى لن تدعوهم إليه. وهكذا فإن حسّها الطبقيّ، بعد ما أثر فيها بالأمس تأثيراً نهائياً ولا يعلم أنّ الظروف أصبحت غيرها الآن وأنّها ستتمنى فى باريس أن تلقانا كثيراً فى بيتها، إن حسّ السيّدة "دوفيلباريزيس" الطبقيّ كان يدفعها بحماس محموم، وكأنّما الوقت المهيأ كيما تبدو لطيفة أضحى قصيراً، إلى أن تضاعف معنا، إذ نحن فى "بالبيك"، من إرسال الورود والشّمَام وإعارة الكتب والمشاور فى عربتها وصنوف العبارات العاطفيّة. وبذلك ظلّت ملاطفات السيّدة "دوفيلباريزيس" اليومية وكذلك السهولة المؤقّتة الصيفيّة التى كانت جدّتي تتقبّلها بها - شأنهما فى ذلك شأن تألق الشاطئ المبهّر وتأجّج الحجرات المتعدّدة الألوان وأنوارها تحت مياه المحيط، وحتى شأن دروس الفروسية التى كان يتمّ فيها تأليه بعض أبناء التجّار على غرار الاسكندر المقدوني - ظلّت فى ذاكرتي بمثابة علامات مميّزة لحياة حمّامات البحر.

- "هيا سلّموا معاطفكم كي يحملوها إلى فوق".

وكانت جدّتي تسلّمها للمدير ويأخذني الأسف بسبب لطائفه معي لقلة المراجعة هذه التى يبدو أنّه يعاني منها.

- "أظن أن هذا السيد جرح في كبرائه" تقول المركيزة. "إنه يحسب نفسه على الأرجح سيداً أكبر من أن يأخذ شالاتكم. إنني أذكر الدوق "دونمور"، وكنت صغيرة جداً بعد، وهو يدخل على والدي الذي كان يقطن الطابق الأخير في فندق "بويون" يحمل حزمة كبيرة تحت ذراعه ورسائل وصحفاً. واحسبني أرى الأمير بلباسه الأزرق في إطار بابنا الذي صنع من خشب جميل، وكان يقوم بذلك "باغار" فيما أعتقد، تلك القضبان الدقيقة، كما تعلمون، والمرنة إلى حد أن نجار الأبنوس كان يجعلها تؤلف أحياناً من العقد الصغيرة والأزهار كأنما شرائط تنعقد حول باقة. وقال لوالدي : "خذ يا "سيروس"، هذا ما أعطاني بوابك من أجلك. لقد قال لي :

"بما أنك ذاهب لدى السيد الكونت فلا داعي لصعود الطوابق ولكن احرص ألا تلتف الجبل." ثم تقول لجدتي وهي تأخذ بيدها : "الآن وقد سلمت أغراضك اجلسي، هيا اقعدي ههنا."

- "إن كان الأمر سواء لديك فلن أجلس في هذا المقعد فهو أصغر من أن يتسع لاثنتين وكبير عليّ وحدي فلن أرتاح فيه."

- "إنك تذكّرني بمقعد ظلّ عندي لفترة طويلة، لقد كان بالتمام كهذا المقعد نفسه، ولكنني لم أستطع الاحتفاظ به في النهاية لأنّ دوقة "دوبرالان" التعيسة هي التي أعطته لوالدتي. ولم تشأ والدتي بادئ الأمر، مع أنها كانت أكثر الناس بساطة، ولكنها لاتزال تحتفظ بأفكار جاءت من عصر آخر ولم أكن منذ ذلك الحين أدركها تمام الإدراك، لم تشأ أن يقدموها للسيدة "دوبرالان" وكانت بعداً آنذاك الأنسة "سيسيتياني"، فيما ترى هذه الأخيرة أنه لايقع عليها بما أنها دوقة أن تقدّم نفسها. وتضيف السيدة "دوفيلباريزيس" وقد فاتها أنها لاتدرك هذا النوع من الفوارق الطفيفة : "وحتى لو لم تكن سوى السيدة "دو شوازول" لكان ادّعاؤها وارداً بالحقيقة. قال "شوازول" هم خيرة كبار القوم ويتحدّرون من شقيقة للملك لويس الثخين وكانوا ملوكاً حقيقيّين في منطقة "باسيني". صحيح أننا نبزّهم بالمصاهرات وذويوع الضيعة ولكنّ القدم واحد تقريباً. وقد نجم عن مسألة الأفضلية هذه حوادث مضحكة كمثّل غداء قدّم بعد ساعة ويزيد استغرقتها إحدى السيدات لتوافق على أن يُعرّف بها. وقد أصبحنا على الرغم من ذلك صديقتين حميمتين وقد أعطت والدتي مقعداً من نمط هذا المقعد كان كلّ واحد يرفض الجلوس فيه مثلما فعلت قبل حين. وذات يوم سمعت والدتي عربية تدخل إلى باحة فندقها وسألت خادماً صغيراً من عساه يكون. "إنها السيدة دوقة لاروشفوكو، ياسيدي الكونتيسة." - "حسن، سأستقبلها." وانقضى ربع ساعة ولا أحد : "عجبا ! أين عساها تكون السيدة دوقة لاروشفوكو؟" - "إنها على الأدراج تفقد أنفاسها ياسيدي الكونتيسة" يقول الخادم الصغير الذي وصل منذ قليل من الريف حيث تعوّدت والدتي لحسن حظّها أن تأخذهم، وكثيراً ما حضرت ولادتهم. فهكذا تجد في بيتك خدماً طيّبين، وذلك أول أنواع الترف. كانت دوقة "لاروشفوكو" بالفعل تصعد بمشقة إذ كانت ضخمة شديدة الضخامة حتى إنّ والدتي، لدى دخولها، ساورها القلق مقدار لحظة وهي تتساءل أين يمكن أن تجلسها. واسترعى انتباهها في تلك اللحظة المقعد الذي أعطتها ليّاه السيدة "دوبرالان" فقالت وهي تدفعه نحوها: "هلا تفضّلت

بالجلوس". وملأته الدوقة حتى حوافيه. على أنها ظلت على الرغم من هذه... الضخامة على شيء من الظرف. وكان أحد أصدقائنا يقول: "لاتزال تشيع حولها بعض الأثر حينما تدخل". "إنها تفعل على الخصوص حينما تخرج"، تجيب أمي التي كانت تجيبها الكلمة أقلّ لياقة ممّا يمكن القبول به اليوم. وما كانوا يلاقون حرجاً حتى في منزل السيّدة "دولاروشفوكو" أن يسخروا في حضرتها من تقاطيعها الفضفاضة فتضحك أوّل من يضحك. وسألت والدتي السيّد "دولاروشفوكو" ذات يوم جاءت فيه لزيارة الدوقة ولم تلمح، وقد استقبلها الزوج في المدخل، الزوجة التي كانت في شرفة في الزاوية القصوى: "أوحذك ههنا؟ أو ليست السيّدة "دولاروشفوكو" موجودة؟ فأني لا أراها". فأجاب الدوق الذي اشتهر بأراء من أقلّ ما عرفت سداداً ولكنّه لا يخلو من شيء من الظرافة: "كم أنت لطيفة!".

وبعد ما أصدع مع جدّتي بعد العشاء كنت أقول لها إنّ الميزات التي كانت تفتننا لدى السيّدة "دوفيلباريزيس" كاللباقة والنعمو والبساطة والاتّضاع ربّما لم تكن قيّمة جدّاً بما أنّ الذين ملكوا أعلى درجاتها لم يبلغوا إلا مبلغ "موليه" و "لوميني" ولئن أمكن أن يجعل غيابها العلاقات اليومية غير مستحيّة فإنه لم يحل دون أن يضحي مزهوون تنقصهم سلامة البصيرة ويسهل الضحك منهم مثل "بلوك"، لم يحل دون أن يضحوا "شاتوبريان" و "فينيني" و "هوغو" و "بلزك"...

إلا أنّ جدّتي كانت تصرخ لدى سماع اسم "بلوك". ثم كانت تمتدح السيّدة "دوفيلباريزيس". وكما يقال إنّ مصلحة الجنس هي التي توجّه ميول كل واحد على صعيد الحبّ وهي التي تجعل النساء النحيفات يبحثن عن الرجال السمان والسمينات عن النحاف كي يتكوّن الطفل كأقرب ما يكون إلى الوضع السويّ، كذلك كانت متطلّبات سعادتني التي تهتدّها العصبية وميلي المرضي إلى الكآبة والعزلة هي التي تجعلها على نحو غامض تولي المقام الأوّل لميزتي الاعتدال وسداد الرأي الخاصّتين لبالسيّدة "دوفيلباريزيس" فحسب بل بمجتمع أستطيع أن ألقى فيه تسليّة وهدوءاً - مجتمع شبيه بالذي تفتح فيه ذكاء أمثال "دودان" و "ريموزا"، ناهيك عن "بوسيرجان" و "جوير" و "سيفينييه"، ذلك الذكاء الذي يضع في الحياة مقداراً من السعادة والكرامة أكبر ممّا تفعل صنوف الإفراط المناقضة التي قادت أمثال "بودلير" و "بو" و "فيرلين" و "رامبو" إلى عذابات وفقدان اعتبار لا تبتغيها جدّتي لحفيدها. وكنت أقاطعها لأعانقها وأسألها إن هي لاحظت جملة قاتلتها السيّدة "دو فيلباريزيس" وفيها تبرز المرأة التي تتمسك بمحتدها أكثر ممّا تقرّ بالأمّ.

وهكذا كنت أضع بين يدي جدّتي انطباعاتي لأنني ما عرفت قطّ مقدار الاعتبار الواجب لأحد الناس إلا بعد ما تدلّني على ذلك. وفي كلّ مساء كنت أبادر وأحمل إليها الرسوم السريعة التي استوحيتها في النهار من جميع تلك الكائنات اللا موجودة التي لم تكن هي.

وذات مرة قلت لها: "لن أستطيع العيش بدونك". فأجابتن بصوت مضطرب: "ذلك ما لايجدر بنا. يجب أن نصنع لنا قلباً أكثر قسوة من ذلك، وإلا فما الذي يحلّ بك إن ذهبت في رحلة؟ أملي على العكس أنك ستكون كثير التعقل شديد السعادة." - "يمكنني أن أكون متعلّلاً إن ذهبت

لبضعة أيام ولكن سوف أعد الساعات." - فلو ذهبت لشهور، (ولمجرد هذه الفكرة أخذ قلبي . ينقبض) بل لسنوات، بل لـ ... "

ونصمت كلانا، ولا يجرؤ أحدهما على النظر إلى الآخر. بيد أنني كنت أعاني من قلقها أكثر مما أعاني من قلقي، فاقتربت لذلك من النافذة وقلت لها بصوت واضح وأنا أشيح بعيني عنها :

- "تعلمين إلى أي حد أنا رجل عادات. فإني تعيش في الأيام الأولى التي تم فيها انفصالي عن الناس الذين أحبهم أكثر ما أحب. إلا أنني أتعود فيما أظل على مقدار الحب نفسه لهم، وتضحي حياتي هادئة عذبة. وقد أتحمّل فراقهم شهوراً وسنين ...".

واضطرت أن أصمت وأن أنظر كلياً من النافذة. وخرجت جدتي لحظة من الغرفة. ولكنني أخذت أتحدث في الغد عن الفلسفة بلهجة من أكثرها لامبالاة، بيد أنني تدبرت أمري كي تنتبه جدتي لأقوالي وقلت إن الأمر الغريب وإن المادية تبدو وكأنها باطلّة بعد مكتشفات العلم الأخيرة وإن المرجح لا يزال خلود الأنفس واجتماعها الآتي.

أبلغتنا السيدة "دوفيلبا ريزيس" أنها لن تستطيع عما قليل لقاءنا كثيراً كذدي قبل، ذلك أن ابناً شاباً لابنة شقيق لها يعدّ لمدرسة "سومير" وهو الآن في ثكنة في الجوار في قرية "دولسير"، يزمع المحيي ليقضي بالقرب منها عطلة تمتد بضعة أسابيع وسوف تصرف له الكثير من وقتها. وكانت قد امتدحت لنا في أثناء نزواتنا ذكاءه الكبير وعلى وجه الخصوص طيبة قلبه. وكنت أتصور مذ ذاك أنه سيشعر بالود نحوي وأنتي سوف أكون صديقه المفضل، وحينما ألمحت عمته لجدتي قبل مجيئه أنه وقع لسوء الحظ بين مخالِب امرأة سيئة السيرة جئن بحبها ولن تدع له أن يفلت، ولما كنت متيقناً أن هذا النوع من الحب إنما يفضي حتماً إلى الجنون والحرمة والانتحار وفكرت في الوقت القصير جداً المخصص لصادقنا، وقد تعاطمت في فوايدي دون أن أكون رأيته بعد، أخذت أبكيها وأبكي المصائب التي تنتظره وكأنما أبكي شخصاً عزيزاً نُقِلَ إلينا منذ قليل أنه مصاب بمرض خطير وأن أيامه معدودة.

وفي إحدى فترات مابعد الظهر القائظة كنت في غرفة طعام الفندق التي تركت نصف مظلمة ليقوها حر الشمس، وذلك بإسدال ستائر كانت تصفّرها فيما تدع هذه لزرقه البحر أن ترفّ بين شقوقها، حينما أبصرت في الممر الأوسط الذي ينطلق من الشاطئ على الطريق شاباً يمر طويلاً القامة نحيفاً مديد العنق يرفع الرأس عالياً باعتزاز، شاباً حادّ العينين له بشرة شقراء وشعر ذهبي يبدو وكأنه امتص أشعة الشمس كلها. كان يسير مسرعاً وقد ارتدى قماشاً طليعاً يميل إلى البياض ماكنت أحسب قط أن رجلاً يجرؤ أن يرتديه. وكانت عيناه بلون البحر وعن إحداهما يهوي في كل لحظة زجاج نظارة. ونظر كل باستغراب إليه وهو يمر، وكانوا يعلمون أن هذا المركز الشاب الذي من أسرة "دوسان لوآن بريه" معروف بأناقته. فقد سبق لجميع الصحف أن وصفت البزة التي قام فيها منذ وقت قريب بدور الشاهد لدوق "أوزيس" الشاب في مبارزة. كان يبدو أن الميزة الخاصّة في

شعره وعينه وبشرته وهيئته، ولعلها كلها كانت تميزه وسط الجمهور على غرار عرق ثمين من حجر عين الهرّ أزرق منور تغلفه مادة خام، إنما ينبغي أن تقابلها حياة تغاير حياة الناس الآخرين ونتيجة لذلك وحينما تنافست عليه أجمل نساء المجتمع الراقي قبل العلاقة التي اشتكت منها السيدة "دوفيلباريزيس" كان وجوده على شاطئ مثلاً بالقرب من الجميلة الذائعة الصيت التي كان يخطف ودها لا يبرزها أتم الإبراز فحسب بل يجذب الأنظار إليه وإليها على حد سواء. وإنما ذلك بسبب أناقته ووقاحة الأسد الغضنفر لديه وبسبب جماله الخارق على وجه الخصوص، والبعض يرى أنه يبدو حتى مختئاً، ولكنهم لا يأخذون عليه ذلك لأنهم يعلمون مقدار رجولته وأنه كان شغوفاً بحب النساء. وكان ابن قرية السيدة "دوفيلباريزيس" ذاك الذي حدثتنا عنه، وابتهجت لفكرة أنني سوف أعرفه على مدى بضعة أسابيع وتأكدت أنه سوف يمنحني كامل مودته. واجتاز بخطى سريعة كامل عرض الفندق وكأنه يلاحق نظارته ذات الزجاج الواحدة التي كانت ترفرف كفراشة أمامه. كان آتياً من الشاطئ وكان البحر الذي يملأ زجاج الردهة إلى نصفه يصنع له خلفية يبرز عليها بكامل قامته كما هي الحال في بعض رسوم شخصية يعني فيها بعض الرسامين، دونما احتيال من أي نوع على أدق أنواع الملاحظة للحياة الحالية ولكن بانتقاء إطار مناسب لنموذجهم كمرج للعب البولو أو الغولف وميدان سبق وسطح ينحت، تقديم مقابل حديث لتلك اللوحات التي كان يبرز فيها المعلمون الأوائل الصورة البشرية في الموقع الأول من المنظر الطبيعي. كانت تنتظره أمام الباب عربة بجوادين. وفيما كانت نظارة ابن قرية السيدة "دوفيلباريزيس" تستأنف قفرائها المرححة على الطريق المشمسة أقدم هذا الأخير، بالأناقة والسلطان اللذين يفلح عازف بيانو كبير في إبرازهما في أكثر اللمحات بساطة حيث لم يكن يبدو ممكناً أن يفلح في إظهار تفوقه على عازف من الدرجة الثانية، فأخذ الزمام الذي سلمه إياه الحوذي وجلس بالقرب منه وأطلق العنان للحياد فيما كان يفضّ رسالة سلمه إياها مدير الفندق.

ولكن بأية غيبة أصبت في الأيام التالية حينما تبينت، في كل مرة لقيته فيها في الخارج أو في الفندق - بياقته العالية وهو يوازن باستمرار حركات أعضائه حول نظارته المتهربة المتراقصة التي تبدو وكأنها مركز ثقلها -، أنه لا يحاول التقرب منا ورأيت أنه لا يحنينا مع أنه ما كان يمكن أن يجهل أننا أصدقاء عمته ! وإذ تذكرت اللطافة التي سبق أن أبدتها لي السيدة "دوفيلباريزيس" والسيد "دو نوربوا" من قبلها أخذت أحسب أنهما ربما كانا نبيلين من الصنف الممازح وأن ثمة لا بدّ بنداً خفياً في القوانين التي تحكم الطبقة الأرستقراطية ربما سمح للنساء ولبعض الدبلوماسيين أن يتخلوا في علاقاتهم مع الطبقة الدنيا ولسبب كنت أجهله عن الغطرسة التي كان ينبغي لمركز شاب أن يمارسها على العكس ممارسة لا رحمة فيها. كان يمكن لعقلي أن يقول لي خلاف ذلك. ولكن خاصية السن المضحكة التي كنت أجتازها - وليست جذباء على الإطلاق بل هي شديدة الخصب - قوامها أننا لانتشير العقل فيها وأن أقل صفات الأشخاص تبدو وكأنها جزء لا يتجزأ من شخصيتهم. فالمرء لا يعرف الهدوء إذ تحيط به من كل جانب الوحوش والآلهة. وليس من حركة على وجه التقريب بدرت منا آنذاك إلا ونود فيما بعد لو نستطيع شطيطها. على أن ما ينبغي أن نأسف

له على العكس فإننا لانملك من بعد العفوية التي كانت تدفعنا إلى القيام بها. وإنما يرى المرء الأمور فيما بعد رؤية عملية وفي توافق تام مع باقي المجتمع، ولكن سن المراهقة هو الزمن الوحيد الذي تعلمنا فيه شيئاً.

وقد لاقى تلك الواقعة التي كنت أستشفها لدى السيد "دوسان لو"، مع كل ماتتضمنه من قسوة طبيعية، ما يؤكدها في موقفه منا كل مرة كان يمر فيها بالقرب منا بجسمه الفارع المنتصب دوماً ورأسه المرفوع ونظراته الثابتة، بل القاسية إذ الكلمة لاتفي بالغرض تماماً، الخالية من ذلك الاحترام الغامض الذي نكنه لحقوق المخلوقات الأخرى وإن لم تكن تعرف عمك والذي كان من شأنه أنني لم أكن واحداً أمام سيدة عجوز وأمام مصباح غاز. كانت تلك التصرفات الشديدة الجفاء بعيدة عن الرسائل الساحرة التي كنت لبضعة أيام خلعت أتخيل أنه يسطرها لي ليثني وده بقدر ما تبعد عن حماسة المجلس والشعب الذي تصوّر مريض الخيال أنه يستثيره بخطاب باقٍ على الأيام حالته الباهتة المغمورة إذ يلقي نفسه، بعدما حلم وحده لحسابه الخاص وفي العلن، وبعدها هدأت الهتافات الخيالية، يعود بخفي حنين. وحينما عادت السيدة "دوفيلباريزيس" فحدثنا، تحاول دون شك أن تمحو الانطباع السيئ الذي خلفته فينا تلك المظاهر التي تنم عن طبيعة متعجرفة وشريرة، حينما حدثنا عن طيبة حفيدها التي لاتنضب (وكان ابن إحدى بنات أشقائها ويكبرني بقليل) عجبت كيف يضافون في المجتمع، خلافاً لكل حقيقة، صفات الطيبة على من قلبهم حجر حتى ولو كانوا لطافاً من ناحية أخرى مع أشخاص لامعين يتمون إلى وسطهم. وأضافت السيدة "دوفيلباريزيس" نفسها، وإن على نحو غير مباشر، توكيداً للملامح الأساسية، وهي أكيدة بالنسبة إلي، التي تسم طبيعة ابن قريبتها في يوم التقيت فيه بكليهما في طريق ضيقة إلى حد أنه لم يسعها إلا أن تعرفه بي. وبدا وكأنه لم يسمع أن اسماً يذكر أمامه فلم تهتز عضلة في وجهه. وأبرزت عيناه اللتان لم يلتصقا فيهما أي نور ضعيف ينم عن تواضع إنساني، إفرافاً في جمود اللحظ ولا جدواه ولعله ما من أمر لولاه كان يميزهما عن مرأتين لاهية فيهما. ثم حدثني إليّ بتينك العينين القاسيتين كما لو يود الاستعلام عني قبل أن يرد لي تحيتي ومدّ بحركة مفاجئة بدت وكأنها تنجم عن منعكس عضلي أكثر منها عن فعل إرادي مدّ ذراعه بكامل طولها وفتح لي يده عن بعد وقد جعل بيني وبينه أكبر مسافة فاصلة ممكنة. وحينما بعث إليّ في الغد ببطاقته حسب أن الأمر أمر مباراة على الأقل. ولكنه لم يحدثني إلا عن الأدب وأعلن بعد حديث طويل أنه راغب أشدّ الرغبة أن يلقاني عدّة ساعات كل يوم. ولم يرهني في أثناء هذه الزيارة عن ميل شديد جداً إلى أمور الفكر فحسب، بل أعرب لي عن ودّ لايماشي كثيراً تحية البارحة. وحينما رأيته يكرر تلك التحية كلما يعرفونه بأحدهم أدركت أنها مجرد عادة اجتماعية ينفرد بها قسم من أسرته وقد أكسبت أمه جسمه تلك العادة، وكانت شديدة الاهتمام أن يحسن تهذيبه على نحو رائع. كان يقوم بتلك التحيات دون أن يفكر فيها أكثر مما يفكر بأثوابه الجميلة وبشعره الجميل. وكان الأمر خلواً من الدلالة الأخلاقية التي أوليته إياها بادئ ذي بدء، وشيئاً تعلمه محض التعلم كمثال تلك العادة الأخرى التي تعودها في أن يطلب تقديم نفسه في الحال إلى ذوي من كان يعرفه والتي أضحت لديه غريزة إلى حد أنه انقضّ عليّ إذ رأيته غداً

لقائنا وسألني دون أن يحيني أن أذكر اسمه لجدتي التي كانت بالقرب مني بالسرعة المحمومة نفسها التي تعصف به لو أن هذا الطلب ناجم عن غريزة دفاعية كالحركة التي يتقي بها ضربة أو يطبق بها عينيه أمام رشقة ماء يغلي والتي لعله كان من الخطر بدونها أن يمكث ثانية أخرى.

ورأيت بعد انقضاء طقوس التعاويذ الأولى هذا الكاهن المستخف يضحى ألطف شاب التقيته في يوم ومن أكثرهم تودداً كمثّل جنّية شكسة تخلع مظهرها الأول وتزدان بصنوف الجمال والسحر . وقلت في نفسي : "حسن، لقد اغتررت بخصوصه ووقعت ضحيه سراب ولكني لم أفر على الأول إلا لأقع في آخر، فهو سيد كبير شغوف بطبقة النبلاء ويحاول تخفية الأمر . " بيد أنّ كل روعة تهذيب "سان لو" وسائر لطفه كانا سيكشفان لي بعد انقضاء وقت قليل عن كائن آخر ولكنه يختلف عن ذلك الذي كنت أشتبه به.

ذلك أن هذا الشاب الذي يبدو أرستقراطياً ورياضياً متعالياً لم يكن يكنّ احتراماً أو يدي فضولاً إلا لأموال الفكر ولاسيما لهذه التظاهرات التحديثية في الآداب والفنّ التي كانت تبدو مدعاة لهزه عمته الشديد . وكان مشبعاً من جهة ثانية بما كانت تدعوه بالتشذقات الاشتراكية ويفيض بأشدّ الاحتقار لطبقته ويقضي ساعات في دراسة "نيتشه" و "برودون" . كان واحداً من أولئك المثقفين الذين يهزم الإعجاب بسرعة ويسجنون أنفسهم بين دفتي كتاب، وهمهم سمو الفكر فحسب . ثم إن التعبير عن هذه النزعة المجردة إلى أبعد حدّ والتي كانت تبعد "سان لو" كثيراً عن مشاغلي المعتادة كان يزعجني بعض الشيء مع أنّه يبدو لي مؤثراً . وبوسعي أن أقول إنني حينما علمت تمام العلم من كان والده ويوم فرغت من قراءة مذكرات زاحرة بالطرائف حول هذا الكونت المشهور المدعو "دومارسانت" الذي يختصر الأناقة التي تمتاز بها إلى حدّ بعيد حقبة أصبحت الآن بعيدة أصابني الحقن، وقد عمرت ذهني الأحلام ورغبت في الحصول على إيضاحات حول الحياة التي قضّاها السيد "دومارسانت"، أن تسامي "روبير دوسان لو" إلى حب "نيتشه" و "برودون" عوضاً عن أن يكتفي بأن يكون ابن أبيه وأن يكون قادراً على توجيه خطاي عبر الرواية المتقدمة الطراز التي ألّفها حياة هذا الأخير . وما كان والده ليشاطرنّي أسفي، فقد كان هو الآخر رجلاً ذكياً يتجاوز حدود حياته كرجل مجتمعات راقية . وإن لم يتسع له الوقت لمعرفة ابنه فقد تمنى أن يساوي هذا الأخير أكثر منه . ويقيني أنه كان سيعجب به، خلافاً لبقية الأسرة، ويغبط أن يهجر ما ألف صنوف لهوه الهزيلة إلى تأملات جافة، وربما قرأ خفية، دون أن ييوح بالأمر بالتواضع الذي يميّز السيد الكبير الذكي، الكتاب المفضلين لدى ابنه كي يقيس مدى تفوق "روبير" عليه .

كان ثمة على أي حال هذا الأمر الذي ينطوي على بعض الأسى وقوامه أنه إن قدر السيد "دومارسانت" ذو العقل المنفتح إلى حد بعيد ابناً شديداً الاختلاف عنه حتى قدره فإن "روبير دوسان لو" بوصفه من جماعة تحسب أن الجدارة وقف على بعض صيغ الفنّ والحياة كان يحفظ ذكرى يملؤها الحنان ولكنما يخالطها شيء من الازدراء لوالد اهتم طوال حياته بالصيد وسباق الخيل وتشاءب في عروض "فاغر" وشغف بتناج "أوفباخ" . لم يكن "سان لو" على قدر من الذكاء كافٍ

ليدرك أن القيمة الفكرية لا تمت بصلة إلى الالتزام بصيغة جمالية معينة وكان يخص "فكرية" السيد "دومارسانت" إلى حد ما بنوع الازدراء نفسه الذي كان يمكن أن يديه لـ "بوالديو" أو لـ "لايش" ابن لـ "بوالديو" أو ابن لـ "لايش" كانا من أنصار أكثر الأدب رمزية أو أكثر الموسيقى تعقيداً . كان "روبير" يقول: "كانت معرفتي بوالدي سيرة جداً، ويبدو أنه كان رجلاً ظريفاً . مصيبتة كانت العصر الموسي الذي عاش فيه فأن يولد المرء في حي "سان جيرمان" ويعيش في عصر "هيلين الجميلة" أمر يؤدي إلى كارثة في حياة ما . ولو كان بورجوازيًا صغيراً شغوفاً بالحلبة لتغير ربما عطاؤه، فمنهم حتى من يقول إنه كان يهرى الأدب. ولكن كيف لنا أن نعلم، وما كان يعنيه بالأدب إنما يتألف من أعمال فنية بالية فحسب. "أما فيما يخصني فلفن كنت أجد "سان لو" على شيء من الجدية فإنه ما كان يفهم إلا أن أكون أكثر جدية . فإذا كان لا يقدر أمراً إلا بقدر ما يحتوي عليه من ذكاء ولا يدرك افتتان الخيال الذي توليني إياه بعض المؤلفات التي يحكم أنها سطحية، كان يعجب أن يمكنني الاهتمام بها أنا الذي كان يتصور، هو، أنه أدنى مني بكثير .

ومنذ الأيام الأولى كسب "سان لو" ود جدتي لا باللطف المستمر الذي كان يبذل قصارى جهده في الإعراب عنه لكلينا فحسب بل بالعفوية التي كان يطبعه بها كما يطبع كل شيء . والعفوية - لأنها دونما شك تسمح بتحسس الطبيعة خلف تفنن الإنسان - إنما كانت الصفة التي تفضلها جدتي على كل الصفات سواء أتجلى في الحقائق حيث لا تحب أن يكون ثمة أحواض شديدة الانتظام كما هي حال حديقة "كومبريه"، أم في المطبخ حيث تكره تلك "التركيبات" التي تكاد لا تعرف فيها الأطعمة التي استخدمت في إعدادها، أم في الأداء على البيانو الذي لا تريده بالغ التائق مفرط الإتقان وقد بلغ بها الأمر أن تبدي إعجاباً خاصاً بالنوطة المتعثرة والنوطة الناشزة لدى "روبنشتاين" تلك العفوية كانت تستسيغها حتى في ثياب "سان لو" وهي طيبة لأناقة لا تزويق فيها ولا تصنع، لا تيسر فيها ولا نشاء . ويزيد من قدر هذا الشاب الغني لديها الطريقة اللامبالية الطليقة التي يبديها في العيش وسط البذخ دون أن تفوح منه رائحة المال ودون عجرفة، بل هي تلقي سحر تلك العفوية في العجز الذي لازمه - وهو يزول بعامة مع الطفولة آن تزول بعض الخصائص الفيزيولوجية التي تسم تلك السن - في أن يحول دون أن يعكس وجهه انفعالاتاً ما . فإن أمراً كان يتوق إليه مثلاً ولا يتوقعه كان يبعث فيه، وإن اقتصر على كلمة تهنئة، غبطة مفاجئة لاهبة سريعة التصعد والانتشار إلى حد لا يقوى معه على احتباسها وإخفائها، فتحتل وجهه على نحو لا يقاوم التواء السرور وتغشى بشرة خديه التي رقت بإفراط حمرة شديدة وتعكس عيناه الخجل والفرح - وكانت جدتي تتأثر أعماق التأثر بمظهر الصراحة والأناقة الرقيق هذا الذي ما كان على أية حال خداعاً لدى "سان لو"، على الأقل في الفترة التي ربطتني به الصداقة . على أنني عرفت شخصاً آخر، ومثله كثيرين، لم تكن الصراحة الفيزيولوجية الكامنة في تلك الحمرة العابرة لتتنافي البتة لديه والمخادعة الأخلاقية، فكثيراً ما تقيم البرهان فحسب على الحدة التي تشعر بالمتعة حتى لتصاب بالعجز إزاءها وتضطر إلى الإعراب عنها للآخرين طبائع قادرة على أحط صنوف المكر . على أن ما كانت جدتي تعشقه على وجه الخصوص في عفوية

"سان لو" بالطريقة التي يقر بها دون مواربة بوداده لي والذي توافيه للتعبير عنه كلمات لعلها لا تستطيع أن تجد هي، فيما تقول، ما كان أكثر صحة ويتسم بحب حقيقي، كلمات كانت تصدقها "سيفينييه" و"بوسيرجان". ولم يكن يجد حرجاً في الهزء بمعايبي - التي اكتشفتها بدقة أشاعت المسرة في نفسها - ولكن بحنان، كما لعلها فعلت هي، فيما يشيد على العكس بفضائله بحرارة واسترسال لا يعرف تحفظات الجفوة التي يظن بعامة شبان في سنه أنهم يولون بفضلها أهمية لأنفسهم. وكان ييدي في تفادي أقل إزعاج يلم به وفي وضع أغطية فوق ساقي إن أخذ الطقس في البرودة دون أن أتنبه للأمر وفي تدبر أمرة دونما إعلان عن ذلك للمكوث معي في المساء إلى ساعة متأخرة إن أحسّ أنني حزين أو متعب الصحة، كان ييدي حذراً ترى جدتي أنه مبالغ فيه من وجهة نظر صحتي التي ربما كان مزيد من القسوة خيراً لها ولكنه كان يترك فيها أعمق الأثر بوصفه برهاناً على مودته لي.

وسرعان ما تم الاتفاق بيني وبينه أننا أصبحنا صديقين حميمين وإلى الأبد وكان يقول "صدقتنا" كما لو تحدث عن أمر هام ولذيل كائن خارج ذواتنا وقد دعاه بعد قليل أفضل مسرة في حياته - إن وضعنا جانباً حبه لعشيقته. كانت تلك الأقوال تسبب لي ضرباً من الغم وكنت مربكاً في الاستجابة لها لأنني ما كنت أشعر في وجودي معه وفي التحدث إليه - ولعل تلك كانت حالتي مع أي سواه - بشيء من تلك السعادة التي كان يمكن على العكس أن أحس بها حينما كنت بدون رفيق. فكنت أحس أحياناً وأنا وحدي إحدى تلك الانطباعات التي توليني هناء للذيل تتدفق من أعماق نفسي. ولكن ما إن يتفق لي أن أكون مع أحدهم، وما إن أتحدث إلى صديق حتى يعكس فكري مساره ويوجه أفكاره باتجاه محادثتي هذا لا باتجاهي أنا، وحينما كانت تسير في هذا الاتجاه المعاكس كانت لا تكسبني أية متعة. فبعدما يتم لي فراق "سان لو" كنت أضع بوساطة كلمات نوعاً من الترتيب في الدقائق المشوشة التي قضيتها معه، فأقول في نفسي إن لذي صديقاً طيباً، وإن الصديق الطيب أمر نادر. وكنت أتلذذ في أن أحس أنني محاط بخبرات عسيرة الاكتساب ما كان بالضبط عكس المتعة الطبيعية لدي، عكس المتعة الناجمة عن أنني استخرجت من ذاتي وحملت إلى النور أمراً كان دفيناً في عتمتي الداخلية. فإن قضيت ساعتين أو ثلاثاً في التحدث مع "رويير دوسان لو" وكان أن أعجب بما قلت له، كنت أحس بنوع من تبيكيت الضمير والأسف والتعب لأنني لم أظل وحدي وقد جهزت أخيراً للعمل. ولكنني كنت أقول في نفسي: إن ذكاء المرء ليس وفقاً على نفسه وإن أعظم الناس قد رغبوا في التقدير وإنه لا يسعني احتساب ساعات كوّنت فيها عن نفسي فكرة رائعة في ذهن صديقي بمثابة الضائعة وأقنع نفسي بيسر أنه ينبغي لي أن أسعد بذلك وكنت أتمنى ألا تنزع مني هذه السعادة في يوم تمنياً يزداد شدة بقدر ما لم يتم لي الشعور به. فالمرء يخشى أكثر ما يخشى زوال خبرات ظلت خارج ذواتنا لأن فزادنا لم يستول عليها. كنت أحسني قادراً على ممارسة فضائل الصداقة خيراً من كثيرين غيري (لأنني أقدم دوماً خير أصدقائي على تلك المصالح الشخصية التي يتعلق بها الآخرون ولا تساوي شيئاً في نظري) لا على بلوغ الفرح من جراء شعور يزِيل الفوارق الكائنة بين نفسي ونفوس الآخرين - مثلما هنالك فوارق بين نفوس كل واحد منا -

عوضاً عن أن يزيد بها . وفي مقابل ذلك كان فكري بين حين وآخر يتبين في "سان لو" كائناً أعمّ منه هو "النبيل" كان يحرك أعضائه ويرتب حركاته وأعماله وكأنه روح داخلية . حيث كنت وحيداً في تلك اللحظات، مع أنني بالقرب منه، كما لعلي كنته أمام منظر طبيعي أدركت التناقض فيه . ذلك أنه لم يكن من بعد سوى موضوع يسعى حلمي إلى تعميقه . كنت أحس فرحاً شديداً أن ألقى فيه على الدوام هذا الكائن السابق القديم العهد، هذا الأرستقراطي الذي يطمح "روبير" بالضبط إلى أن لا يكونه، ولكنه فرح عقل لا فرح صداقة . وما كنت أحس في الخفة الخلقية والجسدية التي تطبع تودده بهذا القدر من الظرافة، وفي الطلاقة التي يقدم بها عربته لجذتي ويصعدها إليها، وفي الحداقة التي يقفز بها من مقعده حينما يخشى عليّ من البرد ليلقي بمعطفه عليّ ككتفي، ما كنت أحس فيها فحسب المرونة الوراثة التي تميز الصيادين الكبار الذين ألفوا منذ أجيال أجداد هذا الشاب الذي ما كان ينزع إلا إلى أمور الفكر . وازدراؤهم للثروة الذي، إذ بقي لديه إلى جانب الميل الذي به إليها كي يتمكن من الاحتفال بأصدقائه على نحو أفضل. كان يجعله يضع وسائل بذخه على أقدامهم بهذا القدر من اللامبالاة . كنت أحس فيها على وجه الخصوص اليقين أو الأوهام التي توهم بها السادة العظام أنهم "أكثر من الآخرين" والتي لم يستطيعوا من جرأها أن يورثوا "سان لو" تلك الرغبة في أن ييدي أنه "مساو للآخرين"، ذلك الخوف أن يبدو مفرطاً في مجاملاته والذي كان بالحقيقة مجهولاً لديه وهو الذي يلطخ أصدق مظاهر الود الشعبي بهذا القدر من الجفاء والتضع . وكنت آخذ على نفسي أحياناً أنني أستمتع على هذا النحو باحتساب صديقي عملاً فنياً أي بالنظر إلى حركة جميع أجزاء كيانه وكأننا نظمته ووفقت بينها فكرة عامة ارتبطت بها جميعها ولكنه لم يكن يعرفها ولا تضيف بالتالي شيئا إلى صفاته الخاصة، إلى هذه القيمة الشخصية التي يؤلفها الذكاء والأخلاق والتي كان يعلق عليها هذا القدر من الأهمية .

بيد أنها كانت إلى حد ما شرط وجودها . فإنما كان يتسم ذلك النشاط العقلي وتلك التطلعات الاشتراكية التي تدفعه إلى التماس صداقة طلاب شبان مدّعين لا أناقة في ملبسهم بشيء من النقاء الحقيقي والتجرد لا يتفق لهم لأنه كان نبيلاً . كان يلتمس بصدق، إذ يحسب أنه وريث طبقة جاهلة وأنانية، أن يغفروا له ذلك المنبت الأرستقراطي الذي كان يفتنهم على العكس فيسعون بسببه إليه فيما يتظاهرون إزاءه بالجفاء وحتى بالوقاحة . وكان يسوقه ذلك إلى القيام بمحاولات تقرب من أناس لعلّ ذوي كانوا يدهشون، وهم مخلصون للأصول الاجتماعية في "كومبريه"، ألا يتحول عنهم . وفي يوم كنت أجلس فيه و"سان لو" على الرمل سمعنا شتائم تنطلق من خيمة كنا نوليها ظهرنا ضد أعداد اليهود الكبيرة التي تعج بها "بالبيك" . كان الصوت يقول: "لا تستطيع أن تخطو خطوات دون أن تلتقى أحدهم . لست مبدئياً ضد جنس اليهود على نحو قاطع ولكنهم ههنا فيض ولا يطرق أسماعك إلا ما كان من هذا القبيل: " قل لي يا أبراهام، لقد رأيت جاكوب"، لكأنك في شارع أبو قير . " وأخيراً خرج الرجل الذي كان يحمل على هذا النحو على إسرائيل من الخيمة ورفعنا ناظرينا إلى عدو السامية هذا، فإذا هو رفيقي "بلوك" . وسألني "سان لو" في الحال أن أذكره أنهما التقيا في المسابقة العامة التي أحرز "بلوك" فيها جائزة الشرف، ثم في جامعة شعبية .

وأكثر ما هنالك أنني كنت أبتسم أحياناً أن أعثر لدى "روبير" على تعاليم اليسوعيين في الضيق الذي تولده فيه خشية جرح شعور الآخرين كلما وقع أحد أصدقائه المثقفين في زلة اجتماعية أو جاء أمراً مضحكاً ما كان يعلق عليه، هو "سان لو" أية أهمية ولكنه يحس أن الآخر ربما أصابه الخجل إن لاحظ أحد الأمر . وإنما "روبير" من كان يحمرّ خجلاً كما لو أنه كان المذنب، كذلك اليوم مثلاً الذي أضاف فيه "بلوك" وهو يعدّه أن يبادر إلى لقائه في الفندق:

- "بما أنني لا أستطيع احتمال الانتظار وسط الأناقة الزائفة التي تطبع هذه الخانات الكبيرة وأنه قد يغشى على من جراء العجر هناك، قل لعامل المصعد أن يخرسهم وأن يعلمك في الحال."

وما كنت شخصياً شديد التمسك بمجيء "بلوك" إلى الفندق فلم يكن في "البليك" وحده لسوء الحظ، بل برفقة شقيقاته اللواتي كان لهن فيها الكثير من الأقارب والأصدقاء . على أن هذه الجماعة اليهودية كانت ملفتة للانتظار أكثر منها ممتعة . وكان شأن "البليك" كشأن بعض البلدان، شأن روسيه أو رومانيه، حيث تعلمنا دروس الجغرافيا أن السكان اليهود لا يتمتعون فيها بالامتياز نفسه الذي اكتسبوه في باريس مثلاً ولم يبلغوا فيها درجة الاندماج نفسها فحينما كانت بنات أعمام "بلوك" وكان أعمامه أوبنو دينهم، ذكوراً أو إناثاً، يؤمّن الكازينو، وقد اجتمعوا على الدوام لا يخالطهم أي عنصر آخر، البعض إلى الحفلة الراقصة والآخرين ينعطفون باتجاه لعبة "البكارا"، كانوا يؤلفون موكباً متجانساً في حد ذاته ويختلف تمام الاختلاف عن الناس الذين كانوا ينظرون إليهم أثناء مرورهم ويلقونهم ههنا في كل عام دون أن يبادلوهم قط التحية، سواء في مجتمع آل "كامبرمير" أو جماعة رئيس المحكمة أو بورجوازيون كباراً أو صغاراً أو حتى بعض تجار حبوب من باريس ما كانت بناتهم الحميلات المعزّزات الساحرات الفرنسيات كتمثيل مدينة "رانس" ليقلبن الاختلاط بهذا القطيع من البنات القليلات التهذيب اللواتي يبلغ بهن اهتمامهن بأزياء مراكز الاصطياف البحرية حد الظهور على الدوام وكأنهن يعدن من صيد القريدس أو هن في طور رقص "التانغو" . أما فيما يخص الرجال فقد كان البروز الشديد في قسماهم يذكر، على الرغم من تألق بدلات "السموكن" والأحذية الملمعة، بتلك البحوث التي يعتونها بالذكاء لرسامين كان عليهم وضع رسوم إيضاحية للأناجيل أو لكتاب ألف ليلة وليلة ففكروا بالبلاد التي يجري فيها المشهد وجعلوا للقديس بطرس أو لعلّي بابا بالضبط الوجه الذي لأضحك شخصية في "البليك" . وعرفني "بلوك" بشقيقاته اللواتي كان يخرسهن بأقصى الحفاء وكن يضحكن بأعلى أصواتهن لأقل نكات شقيهن وهو موضع إعجابهن ومعبودهن . وقد كان من المرجح لذلك أن يتضمن هذا الوسط كأي وسط آخر، وربما أكثر من أي وسط آخر، الكثير من المباهج والميزات والفضائل . على أنه كان ينبغي الدخول إليه لاختبار ذلك . ولكنه ما كان يروق أحداً ويحس بذلك ويرى فيه البرهان على عداة للسامية يقف في وجهه صفّاً متراصاً مغلقاً لا يفكر أحد على أية حال في شق درب إليه . أما فيما يخص عامل المصعد^(١)، فقد قلل من فرص دهشتي أن سبق لـ "بلوك" أن سألني قبل بضعة أيام

(١) Lift وردت بالإنكليزية وجاءت على لسان "بلوك" Laift لتوهه أن حرف i يلفظ دوماً ai بالانكليزية

لماذا جئت إلى "البليك" (ويبدو له على العكس طبيعياً جداً أن يكون هو هناك) وإن كان ذلك "بأمل التعرف إلى الجميلات"، ولما قلت له إن هذه الرحلة توافق إحدى أقدم أمنيّاتي، إلا أنها أقل عمقا لدي مع ذلك من أمنيّتي في الذهاب إلى "البندقية" أجاب: " أجل، بالطبع، لتناول المثلجات مع السيدات الجميلات فيما تنظّاهر بقراءة "حجارة فينايس" ^(١) للورد "جون راسكين"، هذا الكاتب الممثل الحزين وأحد أكثر من يملك ضجراً. " كان "بلوك" يحسب إذن بالتأكيد أن جميع الأفراد الذين ينتمون إلى الجنس المذكور في انكلترا لوردات، وليس ذلك فحسب بل إن حرف z يلفظ على الدوام z أما "سان لو" فقد كان يحد أن هذه الخطيئة التلفظية إنما تتناقص خطورتها بمقدار ما كان يرى فيها نقصاً في مجال تلك المبادئ الاجتماعية تقريباً التي كان صديقي الجديد يزدرجها بقدر ما يملك ناصيتها. ولكن خشيته من أن يحسب "بلوك" بعد فوات الوقت، وقد علم ذات يوم أنهم يقولون "فينس" وأن "راسكين" لم يكن لورداً، أن "روبير" ألفاه مضحكاً، إن خشيته تلك حملت هذا الأخير على الشعور بأنه مذنب كما لو أنه خلا من ذلك التسامح الذي يفيض منه وكما لو أحس بالحمرة التي ستكسو ذات يوم دون شك محيا "بلوك" تكسو محياه مسبقاً وبحركة معكوسة. فقد كان يعتقد تماماً أن "بلوك" يعلق على تلك الخطيئة أهمية أكثر منه، الأمر الذي أقام "بلوك" عليه البرهان بعد ذلك بقليل في يوم سمعني أقول فيه "ليفث" فقطعني بقوله:

آه ! يقولونها "ليفث" وأضاف بلهجة جافة متعالية ؛ "وليس للأمر في جميع الأحوال أهمية أية كانت". والجملة تماثل رد الفعل، وهي واحدة لدى جميع الناس الذين يداخلهم الاعتزاز بالنفس، في أشد الظروف خطورة وفي أقلها على حد سواء، فيكشفون آنذاك، كما هي الحال في هذه الأخيرة سواء بسواء، إلى أي مدى يبدو الأمر المعني مهماً في نظر ذاك الذي يعلن أن لا أهمية له والجملة مأسوية أحياناً، تلك التي تنطلق قبل سواها، وما أشد أساها إذ ذاك، من شفتي أي رجل على شيء من الاعتزاز بالنفس وقد سلبوه منذ قليل آخر أمل كان يتشبث به برفض خدمة يؤدونها له: "حسن لا أهمية لذلك على الإطلاق. سأتدبر أمري بطريقة أخرى". والطريقة الأخرى التي لا أهمية على الإطلاق أن يتحول إليها قد تكون الانتحار أحياناً.

ثم قال لي "بلوك" أشياء في غاية اللطف، وكان رغباً بالتأكيد أن يكون لطيفاً معي. ولكنه سألني مع ذلك: "أمن جراء ميل بك إلى الارتفاع إلى مصاف النبلاء - وهم نبلاء جانبيون جداً على أية حال، ولكنك لا تزال ساذجاً - تعاشر "دوسان لوآن بريه" ؟ لا بد أنك تحتاز أزمة سنوية حادة. قل لي هل أنت سنوبي ؟ بلى، أليس كذلك ؟" وليس يعني ذلك أن رغبته في التودد إلي قد تبدلت، ولكن ما يدعى في فرنسية غير صحيحة إلى حد ما "بسوء التربية" كان عيبه، وبالتالي العيب الذي لم يكن يلاحظه وبالأولى ذاك الذي ما كان يظن أنه يمكن للآخرين الامتناع منه.

ليس تواتر الفضائل المتماثلة لدى الجميع، في أوساط البشر، أكثر غرابة من تعدد العيوب

(١)حجارة البندقية ويلفظها "بلوك" فينايس لتوهمه المبدأ السابق نفسه

الخاصة بكل فرد . وليس الحس السليم دونما شك " الأمر الأكثر انتشاراً في العالم " بل الطيبة . فالمرء يدهش أن يراها من تلقاء ذاتها في البقع البعيدة أبعد ما يكون، القصية أكثر ما يكون، كما تزهو في بطن وادٍ شقيقة بغيرها من شقائق سائر العلم ولم ترها في يوم ولا عرفت ألبتة سوى الريح التي تهز أحياناً قبعتها الحمراء المتوحدة . وأن هذه الطيبة القائمة وإن لم تمارس، وقد شلتها المصالح، وفي كل مرة لا يحول دافع أناني دون أن تفعل، كما هي الحال في أثناء قراءة رواية أو صحيفة، تفتح وتتجه حتى داخل فواد ذاك الذي يظل رقيقاً كهواي مسلسلات، وهو قاتل في الحياة، إلى الضعيف والبار والمضطهد. على أن تنوع العيوب ليس أقل روعة من تماثل الفضائل . فإن لدى أكثر الناس كملاً عيباً معيناً يثير الاستنكار أو الحنق . فهذا يتمتع بدكاء عظيم ويرى كل شيء من وجهة نظر سامية ولا يقول ألبتة سوءاً في أحد، ولكنه ينسى في جيبه أكثر الرسائل أهمية وقد طلب إليك بنفسه أن تسلمه إياها، ثم يفوت عليك موعداً أساسياً دون أن يعتذر إليك، والبسمة على شفتيه، لأنه يفخر بأنه لا يعرف الساعة في يوم . وذاك يتمتع بالكثير من الرقة واللين والأساليب الناعمة إلى حد أنه لا ينقل لك ألبتة عن نفسك إلا الأمور التي يمكن أن تسعدك ولكنك تحس أنه يصمت عن بعضها ويدفنه في فواده حيث يفسد وهو مختلف عن كل ما عداه، وإن المتعة التي يلقاها في أن يراك عزيزة عليه حتى ليفضل أن يمينك تبعاً على أن يفارقك . وثالث يتصف بصراحة أكثر ولكنه يبلغ بها حد التمسك بأن تعلم، بعدما قدمت أهداراً حول حالتك الصحية لأنك لم تبادر بزيارته، أنك شوهدت متجهاً إلى المسرح وأن وجهك ينضغ بالعافية، أو أنه لم يستطع الاستفادة كلياً من المسعى الذي قمت به من أجله والذي عرض عليه على أية حال ثلاثة آخرون القيام به وليس يدين لك به والحالة هذه إلا على نحو طفيف . ولعل الصديق السابق كان سيتظاهر في كلا الطرفين بأنه يجهل أنك ذهبت إلى المسرح وأن أشخاصاً آخرين كان يمكن أن يؤديوا له الخدمة نفسها . فأما هذا الصديق الأخير فإنه يشعر بحاجة أن يردد أو يكشف لأحدهم ما يمكن أن يزعجك أكثر ما يكون الإزعاج وتفتته صراحته ويقول لك بحزم: "إني على هذه الشاكلة"

وآخرون يزعجونك بفضولهم المفرط أو بلا مبالاتهم المطلقة حتى لتستطيع التحدث إليهم عن أكثر الأحداث إثارة دون أن يدروا ما الخبر، فيما يظل آخرون شهوداً ليجيوك إن كانت رسالتك تتعلق بأمر يخصك أنت لاهم . أو هم إن قالوا لك إنهم سيجيئون ليطلبوا منك أمراً ولا تجرؤ على الخروج مخافة أن تفوتك فرصة لقائهم لا يجيئون ويدعونك تنتظر أسابيع لأنهم ظنوا، إذ لم يتسلموا منك الجواب الذي لا تطالب به رسالتهم على الإطلاق، أنهم أغضبوك. وبعضهم يحدثونك، مسترشدين برغبتهم لا برغبتك فلا يدعون لك أن تنبس بكلمة إن كانوا فرحين ويرغبون في لقائك؛ أياً كان العمل الملح الذي يقع عليك إتمامه؛ فأما إذا شعروا أنهم متعبون من جراء الطقس أو أنهم معكرو المزاج فلست تستطيع استخراج كلمة من أفواههم ويواجهون جهودك بفنور وخمول ولا يكلفون أنفسهم عناء الإجابة على ما تقول حتى بكلمات يتيمة أكثر مما يفعلون لو لم يسمعو . إن كلاً من أصدقائنا قد لصقت به معاييه إلى حدٍ يضطر معه كيما تظل على محبته أن نسلها - بالتفكير بنبوغه وبطيبة قلبه وحنانه - أو أن لا نحسب لها بالأحرى حساباً فنبدى في سبيل ذلك

كامل حسن نيتنا . بيد أن إصرارنا في تفاضينا عن رؤية معيبة صديقنا إنما يفوقه إصراره على الانصراف إليها من جرّاء عى قلبه أو ذاك الذي يتهم به الآخرين . ذلك أنه لا يراه أو يحسب أن ليس من يراه . وبما أن خطر أن لا نروق الغير ناجم بوجه خاص عن صعوبة تقدير مالا يلاحظ عليه وما يلاحظ فإنما يجدر على الأقلّ ألا يتحدث المرء عن نفسه بداعي الحذر لأن ذلك موضوع يمكن التأكّد فيه من أن رؤية الآخرين ورؤيتنا الخاصة لا تتوافقان البتّة . ولئن اتّفق لنا من المفاجآت حينما نكتشف حياة الآخرين الحقيقية والعالم الحقيقي خلف العالم الظاهر بقدر ما يتّفق لدى زيارة بيت عاديّ المظهر ولكنّ داخله مليء بالكنوز أو بعتلات اللصوص أو بالجثث، فلن يصيبنا أقلّ منها إن نحن علمنا من الكلام الذي يتناولوننا في غيابنا آية صورة مختلفة كلّ الاختلاف كانوا يحملونها في أذهانهم عنّا وعن حياتنا بدلاً من تلك التي كوّناها عن أنفسنا بفضل ما كان كلّ منهم يقوله عنها . ويمكننا إذن في كل مرّة تحدّثنا فيها أن نتيقّن أن أقوالنا الحذرة التي لا سوء فيها والتي تمّ الإصغاء إليها بتأدّب ظاهر وموافقة كاذبة إنما أدّت إلى أكثر التعليقات حقاً أو مرحاً وأقلها في جميع الأحوال عطفاً علينا . وإن أقلّ ما نتعرّض له أن نزعج من جرّاء التفاوت الكائن بين الفكرة التي نحملها عن ذواتنا وأقوالنا، ذلك التفاوت الذي يجعل أقوال الناس عن أنفسهم مثيرة للسخرية إثارة تلك الدمدومات التي يجود بها هواة موسيقى مزيفون يحسّون بحاجة دمدمة لحن يحبونه فيعوضون عن قصور همساتهم غير الراضحة بحركات حازمة وهيئة مُعجّبة لا يبرّرها ما ينقلونه إلى أسماعنا . ولا بدّ أن نضيف إلى العادة السيئة في التحدّث عن النفس وعن معايينا تلك العادة الأخرى التي تبدو كأنها تولّف وإيّاها كتلة واحدة قوامها أن نشجب لدى الآخرين عيوباً شبيهة بالضبط بالعيوب التي فينا . وإنما يتحدث المرء على الدوام عن هاتيك العيوب وكأنما تلك طريقة في التحدّث المشدود دوماً إلى ما يطبعنا إنما يلاحظه أكثر من أيّ أمر آخر لدى الغير . فيقول قصير النظر عن آخر سواء: " ولكنّه يكاد لا يستطيع فتح عينيه" ؛ وتساور الشكوك مصدوراً حول السلامة الرويّة لدى أصلبهم عوداً؛ ولا يتحدث قدر إلا عن الحمامات التي يحجم عنها الآخرون ؛ ويزعم كرية الرائحة أنّ ثمة من تنبعث منه روائح كريهة ؛ ويصير الزوج المخدوع في كلّ مكان أزواجاً مخدوعين، والمرأة الطائشة نسوة طائشات، والمتحدلق المتحدلقين . ثم إن كلّ نقيصة، شأن كل مهنة، تتطلّب معارف خاصة وتطوّرهما وليس بغضبنا أن نبرز تلك المعارف . فالشاذّ جنسياً يكتشف الشاذّين، والخياط الذي دعي إلى المجتمع الراقي ما كاد يحدّثك بعد حتى أعجب بقماش ردائك وتتحرق أصابعه شوقاً إلى تحسّس ميزاتها، وإن سألت بعد حديث دام بضع لحظات مصاباً بأسنانه عن رؤية الصريح حولك لنقل إليك عدد أسنانك غير الصالحة وليس ما يبدو له أكثر أهمية ولك، بعدما لاحظت أسنانه، أكثر إضحاكاً . ولسنا نحسب الآخرين عمياناً حينما نتحدّث عن أنفسنا فحسب بل نتصرّف كما لو كانوا كذلك . فثمة إله خاصّ بالنسبة إلى كلّ منا يخفي عييه أو يعده بحججه عن الأنظار مثلاً يطبق عيون الذين لا يغتسلون ويسدّ أنوفهم دون خطّ الوسخ الذي يحملونه في أذانهم ورائحة التعرّق التي تعشّش في ثنيات الذراعين ويقنعهم أنّهم يستطيعون نقل هذه وذاك دونما حرج في المجتمع الذي لن يلاحظ شيئاً . ويتصوّر الذين يلسون أو يهدون اللآلئ المزيفة أنّها ستعد حقيقة .

كان "بلوك" سعي التهذيب مريض الأعصاب متحذلقاً، وكان لانتماه لأسرة لايحترمونها تماماً يحتمل وكأنما في قاع البحار الضغوط التي لا تحصى التي يمارسها عليه المسيحيون على السطح، وليس هم فحسب، بل كذلك المسافات المتنوّدة للطبقات اليهودية التي تفضل طبقته وكل واحدة منها توسع التي هي أدنى منها مباشرة احتقاراً. ولعلّ شقّ الطريق إلى الهواء الطلق بالارتفاع من أسرة يهودية إلى أسرة يهودية كان سيقتضي "بلوك" عدّة آلاف من السنين. فخير له محاولة فتح منفذ من جهة أخرى.

حينما حدّثني "بلوك" عن أزمة السنوية التي لابد أنّي كنت أجتازها وطلب إليّ الإقرار أمامه بأنني كنت سنوياً كان بوسعي أن أجيبه: "لو كنت كذلك لما تردّدت عليك". ولكنني قلت له فقط إنه كان قليل الودّ. حينئذ أراد أن يعتذر ولكن حسب الطريقة التي هي بالضبط طريقة الرجل غير المهذّب الذي يزداد سعادة في العودة عن أقواله أن يلقي فرصة يزيد بها سوءاً، فقد أخذ يقول لي الآن في كلّ مرة يلتقيني فيها: "سامحني، لقد جلبت لك الغمّ والعذاب وأسأت إليك دونما سبب. على أنّك لا تستطيع أن تتصوّر - والإنسان بعامة وصديقك بخاصة حيوان شديد الغرابة - الحنان الذي أحمله لك أنا الذي يضايقك إلى هذا الحدّ من القسوة. وكثيراً ما بلغ بي الأمر حدّ ذرف الدموع." وسمعتة يطلق شهقة.

أما ما كان يدهشني لدى "بلوك" أكثر من عادته السيئة فإلى أيّ مدى كانت نوعيّة حديثه غير متساوية. فقد كان هذا الفتى المتصعّب جدّاً الذي يقول عن أكثر الكتاب شهرة: "إنه غبيّ فظيح وهو معتوه تماماً"، كان يروي بين حين وآخر نوادر ليس فيها ما يضحك بمرح كبير ويذكر هذا الرجل الضحل تماماً على "أنه رجل طريف حقاً". ولم تزل تلك الازدواجية في الحكم على ذكاء الناس وقيمتهم والاهتمام الذي يثيرونه تدهشني إلى اليوم الذي عرفت فيه "بلوك" الوالد.

ولم أحسب أننا سوف نفلح يوماً في التعرف إليه لأنّ "بلوك" الابن كان قد تحدّث بالسوء عني إلى "سان لو" وعن "سان لو" إليّ. وقد قال لي "روبير" على وجه الخصوص إنني كنت (على الدوام) سنوياً شنيعاً. "بلي، بلي" يقول، "إنه يفتنه التعرف بالسيد لللوغراندان" كانت طريقة "بلوك" تلك في إبراز كلمة علامة السخرية والأدب في آن واحد. ودهش "سان لو" الذي لم يسبق أن سمع في يوم اسم "لوغراندان": "ولكن من عساه يكون؟" - "آه! إنه شخص عظيم جدّاً"، يجيب "بلوك" ضاحكاً وهو يضع يديه في جيبي سترته برعشة المقرور ويقينه أنه يتأمل في تلك اللحظة الهيئة الطريفة التي لأحد نبلاء الأقاليم الخارقين الذين لا تساوي جماعة "باريه دوريفيبي" شيئاً إذا ما قيست بهم. كان يعزّي النفس عن أنه لا يفلح في تصوير السيّد "لوغراندان" بإعطائه عدداً من "اللامات" وبتدوّه ذلك الاسم كما يفعل بخمرة معتقة. على أنّ تلك المتع الذاتية كانت تظل مجهولة لدى الآخرين. ولئن تحدّث بالسوء عني إلى "سان لو" فلم ينقل إليّ أقل من ذاك عن "سان لو". وقد عرف كلّ منا تفاصيل ضروب النميمة تلك منذ اليوم التالي، وما ذلك لأننا ردّدناها الواحد للآخر، الأمر الذي كان بدا لنا مستنكراً جدّاً ولكنّه يبدو طبيعياً جدّاً ولا مفرّ منه تقريباً في

نظر "بلوك" حتى أنه فضّل، في خشيته، وإذ حسب بحكم المؤكّد أنه لن يقدم إلا على اطلاع هذا أو ذاك على ما يزعم أن يعرفه، أن يتخذ الخطوة الأولى فاتحاً بـ "سان لو" ناحية وأقرّ له أنه تحدّث بالسوء عنه عمداً كي يُردّد الأمر على مسامعه وأقسم له بـ "زوس بن خرونوس"^(١) حارس الأيمان أنه يحبّه وأنه يذلّ النفس في سبيله ومسح دموعه من عينه . وتدبّر أمره في اليوم نفسه كي يلقاني وحدي واعترف أمامي وصرّح أنه عمل لمصلحتي لأنه يعتقد أن ثمة نوعاً من العلاقات الاجتماعية وخيم العقاب بالنسبة إليّ وأنني "أساوي أكثر من ذلك" . ثم أخذ يدي بتأثر السكارى، مع أن سكره كان عصبياً محضاً، وقال لي "صدّقني، ولتضع "كبير" ^(٢) السوداء يدها عليّ في الحال وتحتر بي أبواب "هاديس"^(٣) تلاحقني كراهية الناس إن لم أنتحب البارحة طوال الليل وأنا أفكر فيك وفي "كومبريه" وفي مودتي اللامحدودة لك وفي بعد ظهيرات في الصفّ أنت حتى لا تذكرها . أجل، طوال الليل، أقسمت بذلك، ولكنني أعلم للأسف، بما أنني عارف بالنفوس، أنك لن تصدّقني . وما كنت أصدّقه بالفعل وما كان قسمه بـ "كبير" يضيف وزناً كبيراً إلى تلك الأقوال التي أحسّها تستبطن في اللحظة نفسها وفيما هو آخذ في حديثه، لأن العبارة الهيلينية كانت لدى "بلوك" أدبيّة بحثة . وأيا كانت الحال فما إن يأخذ في الحنان ويرغب أن يفيض حناناً على واقعة مختلفة حتى كان يقول: "أقسم لك" للذة هستيرية في الكذب أكثر منه لغاية حملك على الاعتقاد بأنّه يقول الحقيقة .

وما كنت أصدّق ما يقوله لي ولكنني لا أحمل له ضغينة لأنني ورثت عن أمي وجدتي عجزني عن الحقد حتى على من كانوا أكبر ذنباً وألا أدين ألبّة أحداً .

وما كان "بلوك" على ذلك فتى شريفاً على نحو مطلق، فقد كان قادراً على إثبات الكثير من البوادر اللطيفة. ولما لم يعد لي بعد خيار، منذ زالت تقريباً سلالة "كومبريه"، السلالة التي تحدّث منها أفراد ظلّوا على حالهم تماماً مثل جدّتي وأمي، إلّا بين بهائم شرفاء ميّتي الإحساس صادقين سرعان ما تبرّز لك محض رنة صوتهم لا يهتمّون ألبّة بأمور حياتك - وبين جنس آخر من الناس يفهمونك ما داموا بالقرب منك ويعزّونك ويرقّون حتى لتدمع عيونهم ويثأرون لأنفسهم بعد ساعات فيسخرّون منك بقسوة ولكنهم يعودون إليك وهم دوماً على مثل تفهّمهم وظرفهم واندماجهم المؤقت بك، ففي اعتقادي أنني أفضل على الأقلّ معايشة هذه النوعية من الناس إن لم أفضل قدرهم الخلق . وعاد "بلوك" يقول: "لا تستطيع أن تتصور ألمي حينما أفكر فيك ؛ وهذا في الأساس جانب يهودي إلى حدّ ما" يضيف قوله بلهجة ساخرة وهو يقلّص حدقة عينه كما لو كان الأمر أن يحدّد بالمجهر كمّيّة ضئيلة جداً من "الدم اليهودي" وكما ربّما استطاع أن يقول (ولكنه ما كان ليقول) سيّد فرنسي كبير جاء في عداد جدوده . وكلّهم مسيحيّون "صاموئيل بيرنار" أو في زمن

(١) le Kronion Zeus زوس كبير الآلهة وسيد الأولمبوس (جبل في اليونان).

(٢) Ker لعلها من آلهات الموت.

(٣) Hades إله جهنم.

أكثر تقادماً مريم العذراء التي يدعى اللاويون^(١)، فيما يقال أنهم ينحدرون منها، "يعاود الظهور لدي". ثم يضيف: "إني أحب أن أفرد على هذا النحو في عواطفني الجزء الضئيل على آية حال الذي يمكن رده إلى أصولي اليهودية". لقد تفوه بهذه الحملة لأنه بدا له من الظرف والجرأة على حد سواء أن يقول الحقيقة حول جنسه، تلك الحقيقة التي كان يتدبر نفسه في المناسبة ذاتها كي يلفها إلى حد غريب، كالبخلاء الذين يقررون تسديد ديونهم ولا تحالفهم الجرأة إلا على دفع نصفها. وإن نوع الغش الذي قوامه أن يجرؤ المرء على إعلان الحقيقة ولكن بأن يمزج بها قسماً لا بأس به من الأكاذيب التي تفسدها لأكثر شيوعاً مما نعتقد وحتى لدى الذين لا يمارسون ذلك بالعادة إذ تيسر لهم بعض الأزمات في الحياة، وبخاصة تلك التي تكون فيها علاقة حب في خط فرصة تعاطيه.

وانتهت كل صنوف الطعن التي وجود بها "بلوك" سرّاً لـ "سان لو" ضدّي ولي ضدّ "سان لو" بدعوة إلى العشاء. ولست على تمام اليقين بأنه لم يقدّم بادي الأمر بمحاولة ليظفر بـ "سان لو" وحده. والمعقولة تجعل تلك المحاولة مرجحة ولكنها لم تتكامل بالنجاح لأن "بلوك" إنما قال لي ولي "سان لو" ذات يوم: "أيها المعلم العزيز وأنت أيها الفارس الذي يحبك "أريس"^(٢)، "دوسان لو أن بريه" يمارّض الحياء، بما أنني التقيت بكما على شاطئ "أمفيتريت"^(٣) الذي يدوّي بالأمواج المزبدة قرب خيام الـ "مينير" ذوي المراكب السريعة، فهل تودان المجيء كلاكما في أحد أيام الأسبوع لتناول العشاء لدى والذي الشهير الذي لا عيب فيه؟" كان يوجه لنا تلك الدعوة لأنه يرغب الارتباط بعلاقة أوثق مع "سان لو" الذي سيدخله الأوساط الأرستقراطية، حسبما يأمل. ولعل تلكمنية لو جاءت على لساني ومن أجلي، لعلها كانت بدت لـ "بلوك" علامة أبشع أنواع السنوية وتطابق تماماً الرأي الذي يحمله عن جانب كامل من طبيعتي لم يكن يعتبره على الأقل حتى ذلك الجانب الرئيسي. ولكنمنية نفسها تبدو له إن صدرت عنه البرهان على حب حميد للاستطلاع من جانب عقله الذي يتوق إلى بعض التفرجات الاجتماعية التي يمكن أن يلقي فيها بعض الفائدة الأدبية. أما السيد "بلوك" الوالد فقد أحس بصدمة عنيفة حينما قال له أبنه إنه سوف يصطحب للعشاء أحد أصدقائه وقد سرد بلهجة المرضا والتهمك لقبه واسمه: "المركز دوسان لو أن بريه"، وصاح قائلاً: "المركز دوسان لو أن بريه! ياويحك!" ولجأ إلى الشتيمة التي تمثل لديه أقوى دليل على التبجيل الاجتماعي. وألقى على ابنه القادر على الارتباط بمثل هذه العلاقات نظرة معجبة كانت تعني: "إنه مدهش حقاً. فهل هذه الآفة النادرة ولدي؟" وسببت لرفيقي من السرور بقدر ما يتم له لو أضيف إلى راتبه الشهري خمسون فرنكاً. ذلك أنّ "بلوك" لم يكن مرتاحاً في بيته وكان يحس أنّ والده يعدّه ضالاً لأنه كان يعيش في جوّ من الإعجاب بـ "لو كونت دوليل" و "هيريديا" وغيرهم من "النور" فأما العلاقات مع "سان لو أن بريه" الذي سبق أن كان والده رئيس قناة السويس! (ياويحك) فتلك نتيجة "الاجدال فيها".

(١) LesLevy: لاوي ابن يعقوب وقد أطلق اسمه على سبط من أسباط إسرائيل خرج منهم الكهنة أو اللاويون..

(٢) Ares إله الحرب لدى اليونان ويقابله مارس لدى الرومان.

(٣) ملكة البحر تمثل في عربة تجرها الدلافين فوق الماء.

وازداد بنفس المقدار أسفهم أن تركوا في باريس المنظار المجسم مخافة إتلافه . وكان "بلوك" الوالد يتقن وحده فن استخدامه أو يملك على الأقل حقّ استخدامه . وما كان يقوم بذلك على أية حال إلا نادرا وبروية تامّة في الأيام التي تقام فيها حفلات ويحضر خدام من الرجال احتفاءً بذلك . فكان ينبثق من حفلات المنظار المجسم هذه كأنما امتياز ومنة ينالها المحظيون بالنسبة إلى من يحضرونها . وبالنسبة إلى ربّ البيت يقيما جاء شبه الذي تصفيه الموهبة وما كان يمكن أن يجيء أوفر اتساعاً له لو تمّ أخذ المنظار على يد السيّد "بلوك" نفسه وكان الجهاز من اختراعه . كانوا يقولون في الأسرة: "أما كنت مدعواً البارحة إلى منزل "سلومون"؟ - "كلا، لم أكن من المختارين ! وما الذي قدّم هناك ؟" - "احتفال عظيم، المنظار المجسم وكل ما يدور حوله . " - "آه ! إن قدّم المنظار المجسم، فإنّي أسف إذ يبدو أنّ "سلومون" رائع حينما يعرضه."

وقال السيّد "بلوك" لابنه: "ما عساك تريد، ينبغي ألا نعطيه كل شيء دفعة واحدة فيظل لديه على هذا النحو ما يشتهيّه ."

لقد راودته بالتأكيد في حنائه الأبوي وكيفا يثير مشاعر ابنه فكرة استحضر الآلة . ولكن الزمن المادي كان يعوزهم أو هم ظنوا بالأحرى أنه سيعوزهم . بيد أننا اضطررنا أن نطلب إرجاء العشاء لأن "سان لو" لم يستطع أن يبرح المكان إذ كان ينتظر عمّاً يزعم المجيء لقضاء ثمان وأربعين ساعة بالقرب من السيدة "دوفيلباريزيس" وبما أن هذا العم كان شديد الولع بالترينيات الرياضية ولا سيما رياضة السير الطويل على الأقدام وسوف يقطع الطريق من القصر الذي يقضي فيه الصيف سيراً على الأقدام في قسم كبير منه ويمضي الليل في المزارع فقد كان الوقت الذي سيصل فيه إلى "بالبيك" غير محدد تماماً . ولقد كلّفني "سان لو"، وهو لا يجرؤ على مغادرة المكان، أن أحمل إلى "أنكارفيل" حيث مكتب الاتصالات اللاسلكية البرقية التي كان صديقي يبعث بها يومياً إلى عشيقته . كان العم الذي ينتظرونه يدعى "بالاميد" وقد أخذه عن اسم ورثه عن جدوده أمراء صقلية . وحينما كنت أعرّض فيما بعد في قراءاتي التاريخية على ذلك الاسم نفسه وقد حمّله كبير القضاة هذا أو أمير الكنيسة ذاك، كميدالية جميلة من عصر النهضة - والبعض يقولون كتحفة قديمة حقيقية - لازمت الأسرة على الدوام تنتقل من سلف إلى خلف بدءاً من ديوان الفاتيكان وحتى عم صديقي، كنت أحس بالمتعة المقصورة على أولئك الذين لا يستطيعون تشكيل مجموعة ميداليات أو متحف للرسم فيبحثون عن الأسماء القديمة (كأسماء مناطق وثائقية وطريقة كخريطة قديمة أو منظر فروسية أو لافتة أو مجموعة أعراف، وأسماء معمودية يدوي فيها ويوافي الأسماع في النهايات الفرنسية الجميلة القصور اللساني والنبرة التي تشتم بسوقية عرقية واللفظ الخاطي الذي كان أجدادنا يلحقون بموجبه بالكلمات اللاتينية والسكسونية تشويهاً دائمة أضحت فيما بعد المشرّعات الرفيعة الشأن في كتب القواعد) ويقدمون لأنفسهم، بإجمال القول، بفضل مجموعات الأصوات القديمة هذه حفلات موسيقية شأن الذين يحوزون آلات "فيولا" كبيرة وصغيرة كي يعزفوا موسيقى الأمس على آلات قديمة . وقد نقل إليّ "سان لو" أن عمه "بالاميد" كان يتميز حتى في المجتمع الأرستقراطي الأكثر انغلاقاً على ذاته بأنه عسير الملتقى بنوع خاص ومتعالٍ ومتشبهت بأرستقراطيته

ويؤلف مع زوجة أخيه وبعض الشخصيات المختارة الأخرى ما كان يدعى بنادي العنقاء . وكان مرهوب الجانب وحتى هناك من جراء ما ييدي من صنوف الوقاحة إلى حد أنه اتفق فيما مضى لأناس في المجتمع الراقي كانوا يودون التعرف به وطلبوا ذلك من أخيه نفسه أن ووجهوا بالرفض . "لا"، لا تطلبوا مني أن أقدمكم لأخي "بالاميد" فقد نقرن جهودنا جميعا بجهود زوجتي ولا نستطيع ذلك، أو قد تعرضون إلى ألا يكون لطيفا ولست أريد ذلك." وكان في نادي الفروسية قد سمي مع بعض الأصحاب مقني عضو لا يسمحون أن يقدموا لهم البتة . وكان يعرف لدى كورت باريس بلقب "الأمير" نظراً لأناقته واعتزازه بنفسه .

وحدثني "سان لو" عن شباب عمه، وقد انقضى منذ زمن بعيد. فقد كان يجيء كل يوم بنسوة إلى شقة كان يملكها مع اثنين من أصدقائه في مثل جماله، الأمر الذي كانوا يدعّون من جرائه بـ"ربات الفتنة الثلاث".

- "ذات يوم طلب رجل هو اليوم الرجل الأكثر بروزاً في حي "سان جيرمان"، كما قد يقول "بلزاك"، ولكنه كان ييدي ميولا غريبة في فترة أولى مؤسفة إلى حد ما . طلب إلى عمي أن يجيء إلى تلك الشقة . ولكنه ما إن وصل حتى أخذ ييوج بعواطفه لا للنسوة بل لعمي "بالاميد" وتظاهر عمي بأنه لا يفهم وخرج بصديقيه بحجة ما، ثم عادوا فأمسكوا بالمتهم وجردوه من ثيابه وضربوه حتى سال دمه وألقوا به خارجاً في برد بلغ عشر درجات تحت الصفر وهناك تمّ العثور عليه وقد أشرف على الموت، وقد قام القضاء بتحقيق تحمل المنكود الحظ أقصى المشقة ليحملة على العدول عنه . ولعل عمي لا يقوم اليوم بتنفيذ عمل في مثل هذه القسوة . ولست تتخيل عدد أبناء الشعب الذين يحيطهم بحبه، هو الكثير الاستعلاء مع ذوي المجتمعات الراقية، ويحميهم على أنهم يقابلونه بنكران الجميل فخدام خدمه في فندق يلقي له خدمة في باريس، وفلاح يأمر بتعليمه مهنة . وإنما ذلك الجانب اللطيف نوعاً ما الذي يتوافر له بعكس الجانب المجتمعي . "ذلك أن "سان لو" كان ينتمي إلى هذا الصنف من شبان المجتمع الراقي الذين اتخلدوا مواقعهم على ارتفاع أمكن معه أن تنمي هذه العبارات: "وإنما اللطيف إلى حد ما لديه، أن الجانب اللطيف إلى حد ما لديه"، وهي بذرات ثمينة سرعان ما تنتج طريقة في تصور الأشياء يحسب المرء نفسه فيها لا شيء والشعب كل شيء، وما هو، باختصار القول، عكس الكبرياء الشعبي . " يبدو أنه لا يمكن أن نتصور إلى أي مدى كان المثل الذي يحتذى به وإلى أي حد كان يسير مجتمع شبابه بأسره . كان يفعل فيما يخصه ما يروقه أكثر ما يروق وما يرتاح إليه أكثر ما يرتاح، ولكن الأمر يتم تقليده في الحال على يد المتحذلقين . فإن عطش في المسرح وأمر أن يجيئوا بشراب إلى زاوية مقصورته القصية امتلأت الصالات الصغيرة الواقعة خلف كل مقصورة بالمرطبات في الأسبوع التالي . وفي صيف كثير الأمطار شكوا فيه من بعض الآلام الرئوية أوصى على معطف من قماش من وبر اللاما طييع، ولكنه دافئ، ويكاد لا يستخدم إلا في صنع أغطية السفر، وحافظ على أقلامه الزرقاء والبرتقالية . ورأى كبار الخياطين زبائنهم يوصونهم في الحال على معاطف زرقاء ذات حواشٍ ولها وبر طويل . ولئن رغب لسبب، أي سبب، أن ينزع كل سمة احتفالية عن عشاء في قصر كان يمضي فيه النهار ولم

يحمل معه، بغية الإشارة إلى هذا الفارق، لباساً رسمياً وجلس إلى المائدة بستره ما بعد الظهر أصبح الزي السائد تناول العشاء بالستره العادية . وإن استخدم بدلا من ملعته شوكة أو أدوات طعام من اختراعه أوصى صائغاً عليها أو أصابعه لتناول قطعة من الحلوى، لم يعد يسمح بالتصرف على نحو آخر . وقد داخلته رغبة في أن يسمع ثانية بعض رباعيات موسيقية لـ "بتهوفن" (إذ هو على الرغم من جميع أفكاره السخيفة بعيد عن الغباء ويتمتع بمواهب كثيرة) واستقدم فنانين ليقوموا بعزفها له ولبعض الأصدقاء في كل أسبوع. فكان غاية الأناقة في ذلك العام الدعوة إلى اجتماعات قليلة الرواد يتم فيها سماع موسيقى الحجرة . وأظن على أية حال أنه لم يصبه الملل في حياته فلا بد وهو بمثل جماله أن توافره العديد من النساء ولعلني من جهة ثانية لا أستطيع أن أقول لك بالضبط أيهن إذ هو شديد التكتم . ولكنني أعلم أنه كثيرا ما خدع خالتي المسكينة، الأمر الذي لم يحل دون أن يكون رائعا معها وأنها كانت تعبه وأنه بكأها على مدى سنوات . ولا يزال يذهب كل يوم تقريبا إلى المقبرة حينما يكون في باريس."

وفي صبيحة غداة اليوم الذي حدثني فيه "روبير" على هذا النحو عن عمه فيما كان ينتظره، وعبثاً فعل على أية حال، وفيما كنت أمر وحدي أمام الكازينو في عودتي إلى الفندق أحسست أن أحداً كان ينظر إليّ وما كان بعيد عني . فأدرت رأسي فأبصرت رجلا في حوالى الأربعين من عمره، وكان شديد طول القامة وعلى شيء من السمعة وله شاربان شديدا السواد، يحدق إليّ بعينين وسّعهما الانتباه، فيما يضرب بنطاله بخيصرانة، بعصبية ظاهرة . وكانت تخترق عينيه بين حين وآخر وفي كل اتجاه نظرات بالغة النشاط كمثل تلك التي ينفردها أمام شخص مجهول أناس يوحى إليهم، لسبب أو لآخر، بأفكار لا تراود آخر سواهم - من مثل المجانين أو الجواسيس على سبيل المثال . ثم رماني بنظرة جانبية أخيرة تجمعت فيها الجراءة والحذر والسرعة والعمق، كطلقة أخيرة يطلقها المرء لحظة الهرب، واتخذ فجأة، بعدما أجال النظر من حواله . هيئة شاردة متعالية، وتحول بانقلاب مفاجئ في كامل شخصه إلى إعلان انغمس في قراءته وهو يدمدم لحن أغنية ويرتب الوردة الريانة التي تتدلى من عروته وأخرج مرتين أو ثلاثاً ساعته وشد فوق عينيه قبعة من القش الأسود أطال حاشيتها بيده الموضوع على صورة واقية كأنما ليبصر إن لم يحج أحد وأبدى حركة الاستياء التي يبرز المرء فيها حسبا يعتقد أنه عيل صبره من الانتظار ولكنه لا يقوم بها ألبته حينما ينتظر حقاً، ثم ردّ قبعة إلى خلف فكشف عن قصة شعر قصيرة جداً استبقت مع ذلك في كل جانب جناحي حمامة موججين على شيء من الطول وأطلق الزفرة القوية التي يطلقها الأشخاص الذين لا يشعرون بالحر الشديد بل بالرغبة في إبداء الإحساس بالحر الشديد . وراودتني فكرة نصّاب فنادق ربما سبق أن استرعينا انتباهه أنا وحدثني في الأيام السابقة، وكان يعد لفعله شريرة، وأخذ يتبين منذ قليل أنني فاجأته وهو يرقبني . وربما كان يحاول فحسب، بغية تضليلي عن طريق مظهره الجديد، أن يعبر عن الشرود والتجرد ولكنه يفعل بمبالغة عنيفة حتى ليبدو وكأنما يهدف إلى تبديد الشكوك التي لا بد ساورتنى بمقدار يساوي على الأقل ثأره لإذلال سمته إياه على غير علم مني . وليبعث في نفسي لا

فكرة أنه لم يبصرني بل أنني موضوع أقل بكثير من أن يسترعي انتباهه . كان يقوس قامته كمن يتحدى ويزم شفثيه ويرفع شاربه ويركز في نظراته شيئاً من اللامبالاة والقسوة وما يقارب الإهانة، حتى إن غرابة ملامحه كانت تجعلني أحسبه لصاً وطوراً فاقد العقل . بيد أن هندامه الشديد الأناقة كان أكثر رصانة وأكثر بساطة من جميع المستحتمين الذين كنت أشاهدهم في "باليك"، وكان مطمئناً بالنسبة إلى سترتي التي كثيراً ما أذلها بياض ملابسهم البحرية الناصع والمبتذل . ولكن جدتي كانت آتية نحوي.

وقد قمنا بجولة معاً ؛ وكنت في انتظارها بعد ذلك بساعة أمام الفندق الذي دخلت إليه لحظة عندما شاهدت السيدة "دوفيلباريزيس" تخرج بصحبة "سان لو" والمجهول الذي حدد لي بشدة أمام الكازينو. واخترقني نظراته بسرعة البرق على نحو ما فعلت لحظة لمحته، ثم ارتدّت، وكأنه لم يبصرني، تقف أدنى بقليل كليلة أمام عيني كالنظرة المحايدة التي تتظاهر بأنها لا تبصر شيئاً في الخارج وهي عاجزة أن تقرأ شيئاً في الداخل، النظرة التي تعبر فحسب عن السرور لإحساسها من حولها بالأهداب التي تباعدها باستدارتها الهائلة، النظرة التقية الجامدة التي لبعض المنافقين والنظرة المغرورة التي لبعض الأغبياء . ورأيت أنه غير بدلته . كانت البدلة التي يرتديها أكثر قتامة ؛ ذلك ولا شك لأن الأنافة الحقيقية أقل بعداً عن البساطة من الزائفة . بيد أنه كان ثمة أمر آخر: فقد كنت تشعر من مسافة أقرب أنه إن كاد اللون يكون مفقوداً تماماً في ملابسه فما ذلك لأن أقصاه عنها لا يبالي به بل لأنه يحرمه بالأحرى عن نفسه لسبب أو آخر . وكان الاعتدال الذي تبرزه يبدو وكأنه من ذلك الناجم عن الخضوع لحمية أكثر منه عن فقدان الشهية . وكان خيط من لون أحضر عاتم ينسجم في قماش البنطال وخط الجوارب بدقة تكشف عن رهافة ذوق تمّ ترويضه في كل مكان وقد تمّ له هذا التغاضي الوحيد بداعي التسامح فيما تبدو بقعة حمراء على ربطة العنق تكاد لا تراها وكأنها تمازج لا تجرؤ الأقدام عليه .

وقالت السيدة "دوفيلباريزيس": "كيف حالك ؟ إنني أقدم لك ابن شقيقي البارون "دوغيرمانت"، فيما يغمغم الرجل المجهول . دون أن ينظر إليّ، في غير وضوح: "سترني ذلك" ويتبعها بقوله "إيه، إيه، إيه" ليضفي على تلطيفه شيئاً من التحامل على النفس ثم يثني خنصره وسبابته وإبهامه ويمد إلى إصبعه الثالثة وينصره ولاخاتم فيهما فأشد عليهما من فوق قفازه السويدي، ثم هو يتحول عني إلى السيدة "دوفيلباريزيس" دون أن يرفع نظره إليّ . وقالت هذه الأخيرة ضاحكة:

"يا إلهي، أتراني فقدت عقلي ؟ ها إنني أدعوك البارون "دوغيرمانت" . إنني أقدم لك البارون "دوشارلوس" . وتضيف قولها: " وليس الخطأ على أي حال كبيراً إلى هذا الحد فإنك مع ذلك من آل "غيرمانت" ."

وخرجت جدتي في تلك الأثناء فسرنا سوية . ولم يشرفني عم "سان لو" بكلمة واحدة ولا حتى بنظرة واحدة . ولكن كان يتفرّس في وجوه المجهولين (وقد أطلق في أثناء هذا المشوار القصير مرتين أو ثلاثاً نظراته المخيفة العميقة على هيئة مسبر على جماعة يعبرون السبيل عديمي الشأن ومن

أكثر الأسر وضاعة) فإنه في مقابل ذلك لم ينظر في أية لحظة، إن حكمت في الأمر انطلاقاً من ذاتي، إلى من كان يعرفهم - كشرطي في مهمة سرية ولكنه يدع أصدقاءه خارج دائرة الرقابة التي تقتضيها مهنته . وتركته هو وجدتي والسيدة "دوفيلباريزيس" يتبادلون الحديث واستوقفت "سان لو" خلفهم:

- "قل لي، أتراني سمعت تماماً ؟ لقد قالت السيدة "دوفيلباريزيس" لعمك إنه من آل "غير مانت".

- "أجل بالطبع، فإنه "بالاميد دو غير مانت" .

- "ولكن أهو من آل "غير مانت" أنفسهم الذين يملكون قصرًا بالقرب من كومبريه" ويزعمون أنهم ينحدرون من "جنفييف دو بربان" ؟

- "حتمًا، وربما أحبابك عمي، وهو من أشد من تعلق بالشعارات، إن "صيحتنا"، صيحتنا الحربية التي أضحت فيما بعد "باسافان"، كانت بادئ الأمر "كومبريزيس"، يقول ضاحكاً كي لا يبدو وكأنه يزهو بامتياز الصيحة هذا الذي كانت تتمتع به البيوتات الملكية وحدها تقريباً ورؤساء العصابات العظام . "إنه شقيق مالك القصر الحالي" .

وهكذا كانت أشد أواصر القرى تربط بآل "غير مانت" السيدة "دوفيلباريزيس" هذه التي ظلت فترة طويلة جداً في نظري السيدة التي أعطتني شوكلاته تمسك بها بطة حينما كنت صغيراً، وكانت آنذاك أكثر بعداً عن جانب "غير مانت" منها لو كانت سجنية في جانب "ميزيكليز"، وأقل تالفاً وقد جعلتها أدنى مكانة من تاجر البصريات في "كومبريه"، والتي أخذت الآن في ارتفاع خيالي مفاجئ يوازي الهبوط الذي لا يقل مفاجأة عنه والذي تتعرض له أشياء أخرى في حوزتنا، وهذا وذاك كلاهما إنما يدخلان في طور مراهقتنا وفي أجزاء حياتنا التي يستمر فيها شيء من هذه المراقبة تغيرات في مثل تعدد استحالات "أوفيديوس" .

- "ألا توجد في هذا القصر جميع التماثيل النصفية العائدة لأسياد "غير مانت" القدامى؟"

وأجاب "سان لو" بلهجة ساحرة: "بلى . وإنه لمشهد رائع . على أنني أجد، وأقولها بيني وبينك، كل هذه الأمور تافهة إلى حد ما . إلا أن في "غير مانت"، والأمر أكثر إثارة، رسماً مؤثراً تماماً لعمتي بريشة "كارير" . إنه جميل كممثل لوحات "ويستلر" أو "فيلاسكيز"، يضيف "سان لو" الذي لم يكن يحافظ دوماً بدقة على سلم المراتب في اندفاع العقائدي المستجذ . "هنالك أيضاً لوحات مؤثرة لـ"غوستاف" مورو" . إن عمتي ابنة شقيقة صديقتك السيدة "دوفيلباريزيس" وقد نشئت على يدها وتزوجت ابن عمها الذي كان كذلك ابن أحد أشقاء عمتي "دوفيلباريزيس"، وهو دوق "غير مانت" الحالي" .

- " وما عسى يكون عمك إذن ؟ "

- " إنه يحمل لقب البارون "دو شارلوس" . فحينما توفي أخو جدي كان ينبغي أن يحمل عمتي "بالاميد" على نحو نظامي لقب أمير "لوم" الذي كان لقب شقيقه قبل أن يصبح دوق "غير مانت" ، لأنهم يبدلون في أسمائهم في هذه الأسرة مثلما يبدلون في قمصانهم . ولكن لعمتي أفكاراً خاصة حول هذا كله ولما كان يرى أنهم يفرطون بعض الشيء في استخدام الإمارات الإيطالية وألقاب عظماء أسبانيه الخ . ومع أنه كان يملك حق الخيار بين أربعة أو خمسة من ألقاب الأمراء فقد احتفظ بلقب البارون "دو شارلوس" احتجاجاً وببساطة يداخلها الكثير من الكبرياء . "كل الناس أمراء، يقول، في يومنا هذا، فلا بد لك إذن أن تملك ما يميزك ؛ لسوف أحمل لقب أمير حينما أود السفر متخفياً." وليس في اعتقاده من لقب أعرق من لقب البارون "دو شارلوس" . وسوف يزودك عمتي، كيما يبرهن لك أنه سابق للقب آل "مونمورانسي" الذين كانوا يقولون زوراً إنهم أول بارونات في فرنسه فيما هم الأولون في منطقة "إيل دو فرانس" فحسب حيث كانت معازل إقطاعهم، سوف يزودك بشروح على مدى ساعات، وبسرور يفعل لأنه على الرغم من رهاقة حسه وعمق موهبته يرى أن ذلك موضوع حديث مثير تماماً ، يقول "سان لو" مبتسماً . "وإذ لست على شاكلته فلن تحملني على التحدث عن الأنساب، فلست أعرف ما كان قاتلاً وبالياً أكثر منها، والحياة قصيرة جداً "

لقد أخذت أتعرّف الآن في النظرة القاسية التي جعلتني منذ قليل أدير رأسي بالقرب من الكازينو تلك التي رأيتها مثبتة عليّ في "تانسو نفيل" آن ناديت السيّدة "سوان" على "جيلبيرت" .

- " ولكن ألم تكن السيّدة "سوان" في عداد العشيقات الكثيرات اللواتي قلت إنهن توافرن لعمك السيّد "دو شارلوس" ؟

- "لا، على الإطلاق ! وأعني أنه صديق كبير لـ "سوان" وقد دعمه على الدوام دعماً كبيراً . ولكن لم يقل أحد قطّ إنه كان عشيق امرأته، ولعلك تثير في المجتمع الكثير من الدهشة إن بدا أنك تصدّق ذلك."

ولم أجروّ على الإجابة بأنهم ربّما داخلتهم دهشة أكبر في "كومبريه" لو بدا أنني لا أصدّق ذلك.

اغتنبت جدّتي كثيراً بالسيّد "دو شارلوس" . كان يولي دونما شكّ جميع قضايا المنشأ والوضع الاجتماعي أهمية قصوى، وقد لاحظت جدّتي ذلك ولكن دون أن تبدي شيئاً من تلك القسوة التي يداخلها بالعادة حسد خفيّ واغتيال لرؤية آخر يستمتع بمكاسب نرغب فيها ولا نستطيع حيازتها . ولما كانت جدّتي على العكس راضية عن حالها ولا يؤسفها ألّبتة أنها لا تعيش في مجتمع أكثر رونقاً ولا تستعين إلا بعقلها لمراقبة عيوب السيّد "دو شارلوس" فقد كانت تتحدّث عن عمّ "سان لو" بهذا العطف المتجرّد المشرق الذي يقارب الودّ والذي نكافئ به موضوع ملاحظتنا المتجرّدة مقابل

المتعة التي تزودنا بها ويزيد منه أن الموضوع كان يستشفان هذه المرة شخصية تبرزه مطامحه . وهي طريقة على الأقل إن لم تكن مشروعة . إبرازاً واضحاً فوق الأشخاص الذين كان يتسنى لها بعامة لقاءهم . على أن جدتي كانت قد اغتفرت بهذا اليسر للسيد "دوشارلوس" تحييزه الأرستقراطي بالنظر إلى الذكاء ورقة المشاعر اللذين يتحلى بهما على وجه الخصوص وكانا شديدين لديه إلى حد بعيد خلافاً للعديد من أهل المجتمع الذي كان "سان لو" يسخر منهم . بيد أن هذا التحيز لم يضح به العم ولا ابن أخيه سواء بسواء لميزات أسمى . فقد وفق السيد "دوشارلوس" بالأحرى بينه وبينها . فإن كان يملك بوصفه سليل دوقات . "نمور" وأمراء "لامبال" وثائق وأثنا وسجّاداً ورسوماً أنجزها لأجداده "رافائيل" و"فيلاسكيز" و"بوشيه" ويستطيع أن يقول إنه بالضبط "يزور" متحفاً ومكتبة بمجرد الطواف بذكريات أسرته كان يضع على العكس كامل تراث الأرستقراطية في المقام الذي انزله منه ابن أخيه . وربما لم يشأ كذلك، وهو أقل عقائدية من "سان لو" وأقل تشدداً بالكلمات وأكثر واقعية في ملاحظة الناس . أن يهمل عنصر جاه أساسياً في نظرهم ويمكن أن هو وقر لخياله متعاً خالية الغرض أن يكون في الغالب عوناً شديد الفعالية في نشاطه النفعي . وأن باب الجدل لا يزال مفتوحاً بين من كانوا من هذه النوعية وبين الذين يخضعون للمثل الأعلى الداخلي الذي يدفعهم إلى التخلص من تلك المكاسب للسعي إلى تحقيقه فحسب . فيشبهون بذلك الرسامين والكتاب الذي يتخلّون عن براعتهم والشعوب الفنانة التي "تحدث" والشعوب المحاربة التي تتخذ مبادرة نزع السلاح الشامل والحكومات المطلقة التي تنقلب ديمقراطية وتلغي قوانين قاسية دون أن يكافئ الواقع في الغالب سعيهم النبيل، إذ يفقد هؤلاء مهارتهم وأولئك تفوقهم، وتضاعف النزعة السلمية الحروب بعض الأحيان، والتسامح الجرائم . ولئن كان لا يمكن النظر إلى جهود الصدق والتحرر لدى "سان لو" إلا على أنها بالغة النبيل، إن حكمنا عليها من زاوية عواقبها الخارجية، فقد كان من الجائز الاغتياب بفقدانها لدى السيد "دوشارلوس" الذي أمر بنقل قسم كبير من خشية فندق "غيرمانت" الرائعة إلى منزله عوضاً عن أن يستبدل بها . شأن ابن أخيه، أثناً من الطراز الحديث وقطعاً من صنف "لوبور" و"غيومان" . وليس أقل صحة من ذلك أن مثل السيد "دوشارلوس" الأعلى كان شديد التصنع وأنه كان، إن أمكن مقارنة هذه الصفة من كلمة المثل الأعلى، اجتماعياً بقدر ما كان فنياً فقد كان يرى في بعض النساء ذوات الجمال العظيم والثقافة النادرة واللواتي امتزجت أسماء جدّاتهن قبل قرنين بجميع أمجاد النظام القديم وكامل أناقته كياسة تجعله لا يستطيع الاستمتاع إلا بصحبتهن . وليس من شك أن الإعجاب الذي يخصهن به كان صادقاً إلا أن الإعجاب تداخله إلى حد كبير ذكريات تاريخية عديدة توقظها أسماؤهن مثلما تولّف ذكريات العصور القديمة أحد أسباب المتعة التي يلقاها المثقف في قراءة قصيدة للشاعر "هوراسيوس" ربما كانت أدنى من قصائد من آيماننا قد يظل هذا المثقف نفسه عديم الاهتمام بها . كانت كل واحدة من تلك النساء في مقابل بورجوازية جميلة، كانت في نظره مثلما هي في مقابل لوحة معاصرة تمثل طريقاً أو عرساً تلك اللوحات القديمة التي يعرف المرء تاريخها بدءاً بالبابا أو الملك اللذين أوصيا عليها ومروراً بهذه الشخصيات أو تلك التي يذكرنا وجودها بالقرب منهم عن طريق الهبة أو الشراء أو الاستيلاء أو الميراث بحدث أو على الأقل بمصاهرة ذات أهمية تاريخية وبالتالي

بمعارف اكتسبناها، ويضفي عليها فائدة جديدة ويزيد من الإحساس بغنى ما تحيط به ذاكرتنا أو سعة اطلاعنا. كان السيد "دوشارلوس" يفتبط أن يقضي تحيز مماثل لتحيزه بحوله دون أن يخالط هذا النفر من كبريات السيدات نساءً أقل صفاءً عرق. إلى تقديمهن على مذبذب ولعه خالصات في نبلهن الذي لم تشبه شائبة كمثل واجهة من القرن الثامن عشر تجثم فوق أعمدتها المسطحة التي من رخام ورديّ ولم تبدل الأزمنة الحديثة شيئاً فيها .

كان السيد "دوشارلوس" يكرّم لدى هاتيك النساء "نبل" العقل والقلب الحقيقي، ويتلاعب على هذا النحو باللفظة بالتباس يخدعه هو نفسه وفيه يقيم زيف هذا التصور الهجين، هذا اللبس المؤلف من أرستقراطية وأريحية وفن، ولكنما يقيم كذلك فيه سحره وهو محفوف بالمخاطر بالنسبة إلى جماعة مثل جدتي ربما بدا لها التحيز الأكثر فظاظاً والأكثر براءة مع ذلك لدى نبيل لا تهمه سوى الأحياء ولا يقيم وزناً للباقي، ربما بدا لها مدعاة للسخرية، ولكنها تنهار مقاومتها ما إن يبرز شيء أمامها تحت مظاهر التفوق العقلي حتى إنها كانت تجدد الأمراء أكثر ما يحسد بين جميع الرجال لأنهم استطاعوا أن يتخذوا أمثال "لابروير" و"فينلون" بمثابة مربين .

وفارقنا أمام الفندق الكبير أبناء آل "غيرمانت" الثلاثة، فقد كانوا يزعمون الذهاب لتناول طعام الغداء في منزل أميرة "لوكسمبور" . وحينما كانت جدتي تودّع السيدة "دوفيلباريزيس" و"سان لو" عاد السيد "دوشارلوس" بضع خطوات إلى الوراء . ولم يكن بعد كلمتي حتى ذلك، وقال لي بعد أن وصل بالقرب مني: " سوف أتناول الشاي هذا المساء بعد تناول العشاء في شقة عمتي، "فيلباريزيس" وأمل أنك ستكرّم بالمجيء مع السيدة جدتك . " ثم لحق بالمركبة.

ومع أن اليوم كان يوم أحد فلم يكن أمام الفندق عربات أكثر مما في بداية الموسم . كانت زوجة الكاتب العدل على وجه الخصوص ترى أنه من باهظ التكاليف استئجار عربة في كل مرة لتجنب الذهاب لدى أسرة "كامبرير" فكانت تكتفي بالبقاء في غرفتها .

وكانوا يسألون الكاتب العدل قائلين: "هل السيدة "بلانديه" متوعدة الصبح ؟ فإننا لم نشاهدها اليوم."

- "إنها تشكو من ألم طفيف في الرأس . فالحر . وهذه العاصفة ؛ يكفيها أقلّ القليل . ولكنني أعتقد أنكم ستشاهدونها هذا المساء، فقد أشرت عليها بالنزول، ولا يمكن إلا أن يعود عليها ذلك بالخير ."

لقد حسبت أن السيد "دوشارلوس" شاء أن يكفر عن قلة التهذيب التي صدرت عنه بحقي في أثناء مشوار الصباح بدعوته إيانا على هذا النحو إلى شقة عمته التي لم أشك أنه أنبأها بالأمر . إلا- أنني حينما وصلت إلى صالة السيدة "دوفيلباريزيس" وأردت أن أحیی ابن أخيها، عبثاً أخذت في الدوران حوله وهو يروي بصوت حادّ قصة فيها بعض التحريج بواحد من أقاربه فلم أستطع الظفر

بنظراته . وقررت أن أحبيّه وبصوت قوي لأنبئه بحضوري، ولكنني أدركت أنه لاحظ الأمر، فقبل أن تنطلق كلمة واحدة من بين شفّتيّ ولحظة كنت أنحني رأيت إصبعيه ممدوتين كي أشدّ عليهما دون أن يلتفت إليّ أو يقطع حديثه . كان بالتأكيد قد رأي دون أن يظهر ذلك ولاحظت حينئذ أن عينيه اللتين لا تثبتان ألبتة على محدّته كانتا تنتقلان باستمرار في كل اتجاه كعيون بعض الحيوانات المذعورة أو عيون هؤلاء الباعة العاملين في الهواء الطلق الذين يتفحصون، فيما يجودون بكلامهم المعسول ويعرضون بضاعتهم غير القانونية، ودون أن يدبروا رءوسهم . نقاط الأفق المختلفة التي يمكن أن تجيء الشرطة منها . وقد أدهشني بعض الشيء في تلك الأثناء أن أرى أن السيّدة "دو فيلبا ريزيس" التي سعدت بمجيئنا كانت تبدو وكأنها لا توقّعه . وزاد من دهشتي أن أسمع السيّد "دوشارلوس" يقول لجذّتي: "آه ! إنها لفكرة طيبة تلك التي خطرت لكّم بالمحيي . ذلك رائع، أليس كذلك يا عمّتي ؟" وليس من شكّ أنّه لاحظ دهشة هذه الأخيرة لدى دخولنا وحسب بوصفه رجلاً تعود أن يعطي النعمة الأساسية، نوبة الـ"لا"، أنّه يكفيّه ليحيل هذه الدهشة فرحاً أن يشير إلى أنّه يشعر به بنفسه وأنّ ذلك هو الشعور الذي ينبغي أن يثيره مجيئنا . وقد صدقت حساباته في ذلك لأنّ السيّدة "دو فيلباريزيس" التي كانت تقدر ابن أخيها بالغ التقدير وتعلم إلى أيّ مدى كان يصعب أن يحسن المرء في عينه بدت فجأة وكأنها وجدت لجذّتي صفات جديدة ولم تنفكّ عن الاحتفاء بها . ولكنني لم أستطع إدراك أن يكون السيّد "دوشارلوس" قد نسي في بضع ساعات الدعوة المقتضية جدّاً ولكنها مقصودة في الظاهر إلى حدّ بعيد ومتعمّدة تماماً تلك التي وجّهها إليّ في الصباح نفسه، وأنّ دعا فكرة انطلقت كلّها منه "فكرة طيبة" راودت جذّتي . وقلت له بهوس في الدقة احتفظت به حتّى السنّ التي أدركت فيها أنّك لا تعلم الحقيقة حول المقصد الذي داخل رجلاً بسؤاله عنه وأنّ الخطر الناجم عن سوء تفاهم من المرجح أنّه لن يفتن أحد له أقلّ من ذاك الناجم عن إلحاح ساذج: "ولكن، تذكر تماماً يا سيّدي، أليس كذلك، أنّك أنت من طلب إليّ في هذا الصباح أن نجيء هذا المساء ؟" ولم تكشف أيّة حركة وأيّ صوت أن يكون السيّد "دوشارلوس" قد سمع سؤالي . وإذا رأيت ذلك أعدت الكرة كالدبلوماسيين أو كهؤلاء الشبان المتخاصمين الذين ينفقون عزيمة صادقة لا كلل فيها ولكنها لا طائل تحتها في الحصول على إيضاحات صمّم الخصم على أن لا يقدّمها . ولم يجبني السيّد "دوشارلوس" أكثر ممّا فعل من قبل . ونحّيل إليّ أنّي أبصر ابتسامة ترفّ على شفّتيه، ابتسامة الذين يحكمون من على الطبايع وصنوف التربية .

وبما أنّه كان يرفض أيّ إيضاح فقد حاولت أن أقدم لنفسني إيضاحاً ولم أفلح إلا في التردّد بين العديد منها وربما لم يكن أي منها هو الصحيح . فربّما لم يتذكر وربما كنت أنا من أساء فهم ما قاله لي صباحاً . . . والأكثر احتمالاً أنّه لم يشأ عن عجرة أن يبدو وكأنه حاول اجتذاب أناس كان يحقرهم وفضّل أن يلقي عليهم تبعة مبادرتهم إلى المحيي . ولكن لماذا أصرّ، إن كان يحقّقرنا، على أن نجيء، أو على أن تجيء جذّتي بالأحرى، ذلك أنّه وجّه الحديث إليها وحدها من بيننا في أثناء تلك الأمسية ولم يوجّهه مرة واحدة إليّ . كان يكتفي، وهو يتحدّث إليها وإلى السيّدة "دو فيلباريزيس" على السواء حديثاً بالغ الحرارة وقد اختبأ إلى حد ما خلفهما كما لو كان في زاوية

مقصورة قصبة، إذ يحول بين حين وآخر النظرة الباحثة التي يرسلها من عينيه الثاقبتين، كان يكتفي بتثبيتها على وجهي بالجدية نفسها ومظهر الاهتمام نفسه الذي يديه لو كان مخطوطاً من العسير حلّ رموزه .

ولا ريب أن وجه السيد "دوشارلوس" كان شبيهاً بوجه العديد من الرجال الجميلين لو لم تكن ثمة هاتان العينان . وحينما قال لي "سان لو" بعد ذلك، وهو يروي لي عن آخرين من آل "غير مانت": "إنهم بالطبع لا يبدون بهذا المظهر الأصيل، مظهر السيد الكبير حتى أطراف أنامله الذي يبدو به عمي بالاميد"، مؤكداً أن المظهر الأصيل والأناقة الأرستقراطية لم يكن فيهما على الإطلاق ما خفي أو كان جديداً بل قوامهما عناصر تعرّفت إليها دون صعوبة ودون أن أحسّ بانطباع خاص، كان ينبغي أن أشعر أن واحداً من أوهامي يتلاشى . بيد أن هذا الوجه الذي كانت تضفي عليه طبقة خفيفة من المساحيق هية وجه مسرحي إلى حدّ ما عبثاً كان السيد "دوشارلوس" يغلق ملامحه إغلاقاً تاماً، فقد كانت العينان بمثابة صدع، بمثابة كوة لم يستطع وحدها إغلاقها، وكنت تحسّ فجأة، حسب النقطة التي اتخذت مكانك فيها بالنسبة إليه، أن شعاعاً يمرّ بك منها وقد انطلق من جهاز داخلي لا يبدو أن فيه ما يطمئن حتى بالنسبة إلى من كان يحمله في داخله، دون أن يتحكم به تماماً، في حالة من التوازن اللامستقر الذي يوشك دوماً أن يفرط . وكان ما تعبر عنه تلك العينان من حذر وقلق مستمرّ، إلى جانب كامل الإرهاق الذي من جرّأهما يطبع الوجه، مهما بولغ في رسمه وترتيبه، فيبرز حول العينين وحتى حدود زرقه تعاطمت دائرتها، كان يذكرّ بعملية تخفّ، بعملية تنكّر قام بها رجل ذو سلطان أضحى في خطر أو محض رجل خطر ولكنّه واقع في مأساة . وددت لو أستشفّ ما كان ذلك السرّ الذي لم يكن يحمله الرجال الآخرون في صدورهم والذي سبق أن أظهر لي نظرة السيد "دوشارلوس" غامضة إلى هذا الحدّ عندما رأيته في الصباح قرب الكازينو . ولكني لم أعد أستطيع الظنّ، مع ما أعرفه الآن عن أهليه، بأنها نظرة لصّ أو هي، بعد ما سمعت ما سمعت من حديثه، نظرة مجنون . فلن كان جافاً إلى هذا الحدّ معي فيما كان بالغ اللطف مع جدتي فربما لم يكن مرّة ذلك نفور شخصي ؛ ذلك أنه بقدر ما كان بعامّة رقيقاً بحق النساء اللواتي كان يروي عن عيوبهنّ دون أن يتخلّى عادة عن تسامح كبير . بذلك القدر كان يحسّ تجاه الرجال، والشبان منهم بخاصّة . بكرهية يذكرّ عنفها بتلك التي يحسّ بها بعض أعداء المرأة تجاه النساء . فقد قال السيد "دوشارلوس" عن اثنين أو ثلاثة من الشبان المخنثين من أسرة "سان لو" أو من أصدقائه المقربين وقد ذكر هذا الأخير أسماءهم مصادفة، قال بلهجة تكاد تكون ضارية وتخالّف تماماً بروده المعتاد: "إنهم سفلة تافهون . وفهمت أن ما كان يأخذه فوق كلّ شيء على شباب اليوم أنهم يجاوزون الحدّ في التخنّث . كان يقول بازدراء: "إنهم نساء حقيقيات" . ولكن أية عيشة ما كانت لتبدو مخنّثة إزاء تلك التي يودّ أن يعيشها الرجال والتي لم يجدها في يوم وافية العزيمة والرجولة ؟ (فقد كان هو نفسه، في رحلات يقطعها سيراً على الأقدام وبعد ساعات من الجري، يلقي بجسده اللاهب في الأنهار الجليدية .) وما كان يرتضي حتى أن يضع رجل خاتماً واحداً في إصبعه.

يبد أن هذا التعتت في الرجولة لم يحل دون أن يتحلى بأرق أنوع الإحساس . فقد أجاب السيّد "دوفيلباريزيس" التي كانت ترجوه أن يصف لجذّتي قصراً أقامت فيه السيّد "دوسيفينييه" ثم أضافت إنها ترى شيئاً من المغالاة الكلامية في هذا الغمّ الناجم عن مفارقة هذه السيدة المملّة المدعوّة "دوغرينيان":

- "ليس ما يبدو لي، على العكس، أكثر صحّة . ولقد كان ذلك على آية حال عصراً كانت تلك المشاعر مفهومة فيه أحسن الفهم . وإنّ ساكن "مونوموتابا" لدى "لافونتين" إذ يجري إلى منزل صديقه الذي ظهر له في نومه على شيء من الكتابة . والحمامة التي ترى أن أعظم الشرور هو غياب الحمامة الأخرى، ربّما تبدّيا لك يا عمّتي في مثل غلواء السيّد "دوسيفينييه" إذ لا تستطيع انتظار اللحظة التي ستفرد فيها بابتها . وما أجمل ما تقول لها حينما تفارقها: "إن هذا الفراق يولد ألماً في نفسي أحسه على غرار ألم في الجسم والمرء في الغياب سخّيّ بالساعات، فهو يتقدّم عبر زمن يصبو إليه ."

كانت جذّتي شديدة الغبطة لسماعها من يتحدّث عن هذه "الرسائل" بالضبط كما لعلها كانت فعلت، وتدهش أن يستطيع رجل إدراكها على أحسن وجه . وكانت ترى للسيّد "دوشارلوس" صنوفاً من النعومة والحساسية أنثويّة . وقلنا بعد ذلك فيما بيننا، عندما أضحيّنا وحدثنا وتحدّثنا عنه كلانا، إنّه لا بد خضع لتأثير عميق فرضته عليه امرأة هي أمّه، أو هي فيما بعد ابنته إن كان له أولاد. أمّا أنا ففكرت في نفسي: "هي عشيقه"، إذ عدت إلى التأثير الذي بدا لي أن عشيقه "سان لو" مارسه عليه والذي يسمح لي أن أتبيّن إلى أيّ حدّ ترهف النساء مشاعر الرجال الذين يعيشون معهنّ.

وأجابت السيّد "دوفيلباريزيس" قائلة: "من المرجّح أنه لم يكن لديها، ما إن تصبح بالقرب من ابنتها، ما تقوله لها ."

- "بلى بالتأكيد . وإن اقتصر الأمر على ما كانت تدعوه "بالأمور الطفيفة جدّاً حتى يلاحظها غيري وغيره" . وكانت على أية حال بالقرب منها . وهذا "لابروير" يقول لنا إن ذلك كل شيء: "أن تكون بالقرب ممن تحبّ ويستوي لديك أن تحدّثهم أو لا تحدّثهم . " وأضاف السيّد "دوشارلوس" بصوت حزين: "وإنّه لعلّ حقّ، فتلك السعادة الوحيدة ؛ وإنّما الحياة . وأسفي، قد أسّيء في تدبيرها إلى حدّ أنك نادراً ما تتلّوق تلك السعادة، وكانت السيّد "دوسيفينييه" أقلّ من سواها مدعاة للرثاء، فقد سلّخت قسماً كبيراً من حياتها بالقرب ممن كانت تحبّه."

- "لقد فاتك أنّ الأمر لا يتعلّق بالحبّ، بل بابتها ."

فعاد يقول بلهجة المطّلع، لهجة حازمة وتقارب أن تكون حاسمة: "ولكن ليس المهم في الحياة ما نحبّ بل أن نحبّ . وأن ما كانت تحسّ به السيّد "دوسيفينييه" إزاء ابنتها يمكن أن يشبه

بالضبط الحبّ الجارف الذي وصفه "راسين" في مسرحيّة "أندروماك" أو مسرحية "فيدر" أكثر بكثير ممّا تشبّيه العلاقات التي أقامها الفتى "سيفينييه" مع عشيقاته . وهو كذلك شأن حبّ هذا المتصوّف أو ذاك لإلهه . وإنما تنجم الحدود الضيّقة جداً التي نرسمها حول الحبّ من جهلنا الكبير بالحياة فحسب .

وسأل "سان لو" عمّه بلهجة يشوبها ازدراء طفيف: "أتحبّ أندروماك وفيدر كثيراً ؟"

فأجاب السيّد "دوشارلوس": "إن آية مأساة لـ "راسين" تطبعها الحقيقة أكثر من مسرحيّات السيّد "فيكتور هوغو" جميعها."

وهمس "سان لو" في أذني قائله: "الناس بالحقيقة شيء مروع، يفضّلون "راسين" على "فيكتور هوغو"، ذلك بالحقيقة أمر فظيع ! لقد اغتم بصدق لأقوال عمّه . ولكنّه يجد عزاء في أن يقول "بالحقيقة" وخصوصاً في قوله "فظيع" .

لم يكن السيّد "دوشارلوس" يكشف عن شعور رقيق يندر بالفعل أن يبدي مثله الرجال في تلك الأفكار حول الكآبة الناجمة عن العيش بعيداً عمّا يحبّه المرء (والتي لا بدّ حملت جدتي على أن تقول لي إن ابن شقيق السيّد "دوفيلباريزيس" كان يدرك بعض الأعمال الفنيّة أفضل بكثير من عمّته وإنّ لديه على وجه الخصوص شيئاً يضعه فوق معظم جماعة النادي) . كان صوته نفسه، شأن بعض أصوات الكوتترالتو التي لم تراخَ فيها إلى حدّ كافٍ الطبقة الوسيطة والتي يبدو غناؤها وكأنّه إنشاد ثنائي يتناوبه رجل شاب وامرأة شابة، يتوقف لحظة يعبر عن تلك الأفكار البالغة الرقة على نوطات عالية ويتخذ عذوبة غير متوقعة ويبدو كأنه يحوي فرق غناء من خطيبات وأخوات يسكن حناهن . على أنّ عشّ الفتيات الذي كان السيّد "دوشارلوس" سيئاً أشدّ الألم، أن يبدو، على الرغم من كرهه للتخنث أيّاً كان، وكأنه يآويه في صوته فلم يكن يقتصر فيه على أداء المقطوعات العاطفيّة وتنغيمها . فغالباً ما كان يطرق الأسماع، فيما يتحدّث السيّد "دوشارلوس" . ضحكتهن الحادّة النديّة، ضحكة تلميذات داخلات أو نساء مدلّلات يتدبّرن أمر قريهّن بصنوف من خبث النّمات الداهيات .

فقد روى أنّ منزلاً سبق أن كان لأسرته ونامت فيه "ماري انطوانيت" وكانت حديقته من تصميم "لونوتر" أصبح الآن ملكاً لرجال المال الأثرياء من عائلة "إسرائيل" الذين اشتروه . "وإسرائيل، وهو الاسم الذي يتكّن به هؤلاء الناس، إنما يبدو لي اسم جنس وعرق أكثر منه اسماً علماً . ولست تدري، ربّما لم يتكّن هذا الصنف من الناس بأسماء وأشير إليهم باسم الجماعة التي ينتمون إليها فحسب" . وصرخ قائله: "ليس في الأمر ما يضير ! أن يكون منزل آل "غير مانت" ويضحي ملكاً لعائلة "إسرائيل" !!! ويدكرني ذلك بالرفة التي في قصر "بلوا" والتي قال لي فيها الحارس الذي يقود الزوار: "ههنا كانت "ماري ستوروات" تقيم صلاتها وههنا أضع الآن مكانسي" . ولست أبغي بالطبع أن أعلم شيئاً عن هذا المنزل الذي لطّخ شرفه، وكذلك عن ابنة عمي "كلارا دو شيميه" التي

هجرت زوجها . ولكنني أحفظ بصورة الأول ولا يزال على حاله، كما أحفظ بصورة الأميرة حين لم يكن في عينيها الواسعتين من نظرات إلا لابن عمي . وإنما تكتسب الصورة شيئاً من الكرامة التي تنقصها حينما تكف عن كونها نسخة عن الواقع وترينا أشياء لم تعد موجودة . " ثم قال لجذتي: "بوسعي أن أزودك بوحدة منها بما أن هذا النوع من هندسة البناء يعجبك"، ولما رأى في تلك اللحظة أن منديله المطرّز الذي في جيبه تبرز منه حواشي ملونة واره بحركة سريعة وعلى وجهه ملامح الذعر التي تملو محيّا امرأة بالغة الاحتشام على غير براءة وهي تخفي مفاتيح تحكم بفرط من التحفظ أنها قليلة الاحتشام.

وعاد يقول: "تصوري أنّ هؤلاء الناس بدؤوا بتخريب حديقة "لونوتر"، وهو أمر مستنكر كتمزيق إحدى لوحات "بوسان" سواء بسواء . وكان ينبغي أن تودع عائلة "إسرائيل" السجن لذلك." ثم أضاف بعد لحظة صمت وهو يتنسم: "صحيح أنّ ثمة دونما شكّ أموراً أخرى كثيرة كان ينبغي من جرّائها أن يقيموا فيه ! إنك تتصورين على أية حال الأثر الذي تخلّفه حديقة إنكليزية أمام هذا الطراز المعماريّ ."

وقالت السيّدّة "دوفيلباريزيس": "ولكنّ البيت من طراز "تريانون" الصغير نفسه، وقد أمرت "ماري أنطوانيت" مع ذلك بإقامة حديقة إنكليزية فيه."

فأجاب السيّد "دوشارلوس": "حديقة تشوّه بالحقيقة واجهة "غابرييل" . ولعلّه الآن من الوحشية بالتأكيد هدم "المزرعة"، ولكنني أشكّ مع ذلك أن تكون بهذا الصدد لإحدى نزوات السيّدّة "إسرائيل" الروعة نفسها التي تلازم ذكرى الملكة."

وفي أثناء ذلك كانت جذتي قد أشارت لي بأن أصعد للنوم على الرغم من إلحاح "سان لو" الذي كان قد ألمح في حضرة السيّد "دوشارلوس"، واعظيم خجلتي، إلى الكتابة التي كثيراً ما تتناهى في المساء قبل النوم والتي كان لابدّ أن يجدها عمّه أمراً يفتقر إلى الكثير من الرجولة . وتأخّرت بضع لحظات ثم ذهبت ودهشت أشدّ الدهشة حينما سمعت قليلاً بعد ذلك من يطرق باب غرفتي وإذا سألت من الطارق تناهى إليّ صوت السيّد "دوشارلوس" وهو يقول بلهجة جافة :

- "أنا شارلوس . هل يمكنني الدخول ياسيّد ؟" وعاد يقول باللهجة نفسها بعد ما أغلق الباب: "كان ابن أخي يروي منذ قليل، يا سيد، أنّك تشكو بعض الإزعاج قبل النوم وأنك معجب من جهة أخرى بكتب "بيرغوت" . وبما أنني أحمل في حقيبي كتاباً له لا تعرفه على الأرجح فإنني أجيئك به كي أساعدك على قضاء هذه الآونة التي تحسّ أنّك غير سعيد فيها ."

وشكرت السيّد "دوشارلوس" بانفعال وقلت له إنني خشيت على العكس أن يكون ما قاله "سان لو" عن انزعاجي لدى اقتراب الليل قد أظهرني أمام عينيّه أكثر غباء ممّا كنت .

فأجاب بنبرة أكثر علوبة: "لا بالتأكيد . قد لا تملك مزايا شخصيّة، لست أدري، وما أقلّ من يملكون ! ولكنك تملك الشباب إلى حين على الأقلّ وذلك إغراء على الدوام . وأندح الحمامات

على آية حال، يا سيد، أن يجد المرء المشاعر التي لا يحسّ بها مضحكة أو معيبة . وإنّي أحبّ الليل وتقول إنّك تخشاه ؛ كما أحبّ الورود ولي صديق تصيبه الحمى من جرّاء رائحتها . أفنظنّ لذلك أني أحسبه أقلّ شأنا مني ؟ إنّي أجهد في فهم كلّ شيء وأحترس من شجب أيّ شيء . لا تبلغ على أية حال في الشكوى، ولكنني لن أقول إن صنف الكآبة هذه ليست شاقّة فإنّي أعرف ما يمكن أن يتباك من عذاب لأمر قد لا يفهمها الآخرون . ولكنك قد أجدت على الأقل بصرف مودتك إلى جدّتك . إنّك تراها كثيراً . ثمّ إنّ حنان مصرّح به وأعني حناناً يُردُّ لك، وما أكثر ما لا يمكن أن تقول عنه ذلك !"

كان يذرّع الغرفة ذهباً وإياباً، ينظر إلى هذه الحاجة ويرفع تلك . وكان يخيل أنّ لديه أمراً ينبغي التصريح لي به ولكنّه لا يرى بآية عبارات يفعل . فأضاف قوله :

- " لديّ هنا كتاب آخر لي " بيرغوت " وسأتيك به " ؛ وقرع الجرس، فجاء خادم بعد حين، وقال السيّد " دوشارلوس " بلهجة متعالية: " هيّا ابحت لي عن رئيس الخدم، فليس ههنا سواه من يستطيع القيام بمهمّة على نحو ذكيّ. " وسأل الخادم: " أهو السيّد "إيميه"، ياسيّد؟ " - " لست أعرف اسمه ؛ بلى . أتذكر أنّي سمعت من يدعوه "إيميه" . هيّا أسرع فإنّي مُعجل. " وأجاب الخادم وهو يود أن يبدو على اطلاع بالأمر: " سيكون في الحال ههنا، فقد رأيته بالضبط في الأسفل. " وانقضى بعض الوقت، وعاد الخادم . " إنّ السيّد "إيميه" نائم، ياسيّد ؛ ولكنني أستطيع القيام بهذه المهمّة. " - " لا، عليك أن توقظه فحسب. " - " لا أستطيع يا سيّد، فإنّه لا ينام ههنا. " - " دعنا وشأننا إذن. " وقلت، بعدما ذهب الخادم: ولكنك شديد الطيبة ياسيّد، يكفيني كتاب واحد لي "بيرغوت" - " وهو ما يبدو لي على آية حال. " كان السيّد "دوشارلوس" يمشي . وانقضت بضع دقائق على هذا النحو، ثم دار على نفسه بعد لحظات من التردّد واستدراكات عديدة وألقى إليّ بصوته الذي عاد فأضحى لاذعاً: " طابت ليلتك ياسيّد"، ومضى.

وبعد هذه العواطف السامية كلها التي سمعته يردّها في ذلك المساء دهشت أشد في الغد الذي كان يوم رحيله أن سمعت السيّد " دوشارلوس " يقول لي، على الشاطئ بعد الظهر ولحظة كنت أزمع أن أستحمّ، وفيما كان يقترب مني لينبئني بأنّ جدّتي في انتظاري حال خروجي من الماء، يقول، وهو يقرص رقبتني، بألفة وضحكة سوقيّتين:

- " ولكننا لا نبالي ألّبت بجدّتنا، أليس كذلك، أيّها الوغد السافل؟ "

- " كيف ذلك، إنني أعشقها ياسيّد! .. "

فقال وهو يتراجع خطوة وبهيّة بالغة الحفاة: " مازلت شاباً ياسيّد ويجدر بك أن تفيد من ذلك تتعلّم أمرين: أولهما أن تمتنع عن الإعراب عن مشاعر أكثر تلقائيّة من أن لا يُضربها المرء، وثانيهما

ألا تنقُصَ للإجابة على الأمور التي تُقال قبل اكتناه مدلولها، فلو احتطت لنفسك منذ قليل لجَنبت النفس أن تبدو وكأنك ترسل الكلام جزافاً كالطُرش وأن تضيف بذلك إلى المراسي المطرزة على ثوب السباحة لديك أضحوكة ثانية. لقد أعرتك كتاباً لـ "بيرغوت" أنا بحاجة إليه، فاعمل على أن تبعث به إليّ في غضون ساعة على يد رئيس الخدم هذا الذي يحمل اسماً مضحكاً يفيض عنه ^(١) والذي أفترض أنه ليس نائماً في هذه الساعة. لقد جعلتني أتنبّه إلى أنني حدثتك مساء البارحة عن إغراءات الشباب قبل الأوان بكثير. ولعلّي كنت أدّيت لك خدمة أفضل بتنبيهك إلى طيشه وتناقضاته وقلة إدراكه. أأمل ياسيدي ألا يكون هذا الحمام البارد أقلّ فائدة لك من سباحتك. ولكن لا تنظّل هكذا دون حراك فقد تصاب بالبرد. إلى اللقاء ياسيدي."

وليس من شكّ أنه أسف لهذه الأقوال. فقد وصلني بعد وقت قليل الكتاب الذي أعارني إياه والذي بعثت به إليه لا عن طريق "إيميه" الذي كان في "عطلة"، بل عن طريق عامل المصعد - وقد جُلّدَ بسختيان أنزل في صفحته في قطعة من الجلد المحزّز تمثّل في بروز خفيف غصناً من زهر آذان الفأر.

بعد ما ذهب السيّد "دوشارلوس" تسنّى لنا أخيراً، أنا و "روبير" أن نذهب لتناول طعام العشاء في منزل "بلوك". وأدركت أثناء ذلك الاحتفال الصغير أنّ الحكايات التي كان يجدها رفيقنا مضحكة بأيسر السبل إنّما كانت حكايات للسيّد "بلوك" الوالد وأن الرجل "الغريب تماماً" كان أبداً واحداً من أصدقائه يراه على هذا النحو. هنالك عدد من الناس ننظر إليهم بإعجاب في طفولتنا، فوالد أشدّ ظرفاً من باقي الأسرة، وأستاذ يفيد في نظرنا من المبتاهزينقا التي يكشفها لنا، ورفيق أطول باعاً منا (مثلما سبق أن كان "بلوك" بالنسبة إليّ) يحتقر "موسيه" كاتب "الرجاء بالله" في حين لا نزال نحته، وحينما نكون قد بلغنا مرحلة العم "لوكونت" أو "كلوديل" لا يثير حماسه من بعد سوى:

"في" سان بليز" وفي "زويكا"
كنت، كنت مطعمّن النفس"...
ويضيف إليها:

"بادوفا" مكان شديد الجمال
فيه دكاترة في الحقوق عظام...
ولكنني أفضل الـ "بولنتا"...
وتمرّ "التوباتيل"
في معطفها الأسود الطويل
ولا يحفظ من "الليالي" جميعها سوى هذا المقطع:

(١) اسم رئيس الخدم Aime أي المحبوب أو الحبيب.

"في الهافر أمام الأطلسي
وفي البندقية، في الليدو القبيح
حيث يُقبل البحر الأدرياتي الشاحب
ليموت فوق عشب أحد القبور".

ذلك أننا، بالنسبة إلى من نبدي به إعجاباً وثقة، نجمع له ونورد بإعجاب أشياء أدنى بكثير من تلك التي لو انصرفنا إلى عبقرتنا الخاصة لرفضناها بقسوة، مثلما يستخدم كاتب في رواية كلمات وشخصيات بحجة أنها حقيقية وهي تشكل في المجموعة الحية على العكس وزناً زائداً جزءاً لا شأن له. إن رسوم "سان سيمون" التي خطها دون أن يعجب بنفسه، لا ريب في ذلك، رائعة، أما اللوحات التي يوردها على أنها جذابة على لسان ظرفاء عرفهم فقد ظلت قليلة الشأن أو أصبحت متعذرة الفهم. ولعله كان يترفع عن استنباط ما يورده على أنه بالغ الرقة أو زاهي الألوان على لسان السيّد "كورنويل" أو لويس الرابع عشر، والأمر تجدر ملاحظته على أية حال لدى كثيرين غيره ويحتمل تفسيرات مختلفة يكفي أن نستبقي منها الآن هذا التفسير وقوامه أننا، في الذهنية التي "نراقب" بها، في مستوى أدنى بكثير من ذاك الذي نكون فيه حينما نبتكر.

كان هنالك إذن داخل ريفي "بلوك" قطعة من "بلوك" الوالد يتخلف بها هذا الأخير عن ابنه مقدار أربعين عاماً فيروي طرائف سخيفة ويضحك منها داخل صديقي بقدر ما كان يفعل "بلوك" الوالد الخارججي الحقيقي، إذ كانت تنضاف إلى الضحكة التي يطلقها هذا الأخير، ولا ينسى أن يردّد الكلمة الأخيرة مرتين أو ثلاثاً كي يحسن الجمهور تدوّق حكايته. الضحكة الصاخبة التي لم يكن يفوت الابن أن يحمّي بها حكايات والده. وهكذا كان "بلوك" الشاب، بعدما يتم له قول الأمور الأكثر ذكاءً، يبرز المكتسبات التي أخذها عن أسرته فيروي لنا للمرة الثلاثين بعض النكات التي كان "بلوك" الوالد يستخرجها (في الوقت الذي يستخرج فيه سترته الرسمية) في الأيام الاحتفالية فحسب التي كان "بلوك" الشاب يصطحب فيها أحداً يجدر به أن يفتنه: كأحد أساتذته أو زميل له يحوز سائر الجوائز أو أنا و"سان لو" في ذلك المساء. يقول مثلاً: "ناقد حربيّ طويل الباع استنتج بطريقة علمية، مدعماً استنتاجه بالبراهين. لأية أسباب محتمّة سوف يُهزم اليابانيون وينتصر الروس في الحرب الروسية اليابانية" أو "إنه رجل بارز يعدّونه مالياً كبيراً في الأوساط السياسية وسياسياً كبيراً في الأوساط المالية". كانت هذه الحكايات قابلة التبدّل مع واحدة عن البارون "دوروتشيلد" وثانية عن السيّد "روفوس إسرائيل"، وهما شخصيتان يحري وضعهما على المسرح بأسلوب ملتبس يمكن أن يحملك على الاعتقاد بأن السيّد "بلوك" قد عرفهما معرفة شخصية.

وقد وقعت بنفسني في الفخّ وحسبت بدوري، من جرّاء الطريقة التي تحدّث بها "بلوك" الوالد عن "بيرغوت". أنه كان في عداد أصدقائه القدامى. ولكن السيّد "بلوك" لم يكن يعرف مشاهير الناس إلا "بدون أن يعرفهم" لأنّه شاهدتهم من بعيد في المسرح أو الشوارع. وكان يتصوّر علاوة

على ذلك أن هيئته واسمه وشخصيته لم تكن مجهولة لديهم وأنهم كثيراً ما يضطرون إذ يلمحونه أن يقاوموا رغبة خفية في المبادرة إلى تحيته. إن رجال المجتمعات الراقية لا يفهمون أهل المواهب والفن الأصيل على نحو أفضل لأنهم يعرفونهم ويستقبلونهم على موائد العشاء. ولكنك حين تسنى لك أن تعيش قليلاً في المجتمعات الراقية فإن غياب أهلها يحملك على أن تمنى بشدة لو تعيش في الأوساط المتواضعة التي لا يعرف المرء فيها إلا "دون أن يعرف" وعلى أن تفترض فيها الكثير من الذكاء. وكنت أزمع أن أثبت ذلك وأنا أتحدث عن "بيرغوت".

لم يكن "بلوك" الوحيد الذي يلقي نجاحاً لدى شقيقاته اللواتي لا يكفّ عن الصباح بهن مغمغماً وهو يغوص برأسه في قصعته فكان يضحكن بذلك حتى لتدمع عيونهن وكن على أية حال قد تبين لغة شقيقتهن التي كن يتكلمنها بطلاقة كما لو أنها كانت إلزامية والوحيدة التي يمكن أن يستخدمها أناس أذكاء. فحينما وصلنا قالت الكبرى لواحدة ممن يصغرنها: "امضي وأبلغني والدك الحكيم وأملك الموقرة" فقال لهن "بلوك": "أيتها الكلبات، أقدم لكن الفارس "سان لو" ذا الرماح السريعة الذي جاء لبضعة أيام من "دونسيير" ذات المنازل التي من حجر صقيل والغنية بالحياد "ولما كان سوقياً بقدر ما كان مثقفاً فقد كان الخطاب يُحتتم عادة بمزاج أقل هوميروسية: "هيا أقللن من فتحة أريدتكن ذات المشابك الجميلة، فما هذا التصنع الذي أرى؟ إنه ليس والدي على كل حال" وتهاوى الأنسات "بلوك" في عاصفة من الضحك، وقلت لشقيقتهن مدى ما أولاني من مسرات إذ أوصاني بقراءة "بيرغوت" الذي تعشقت كتبه.

كان لـ "بلوك" الأب الذي لا يعرف "بيرغوت" إلا من بعيد وحياة "بيرغوت" إلا من أقاويل عامة الناس. كان له طريقة غير مباشرة كذلك في الاطلاع على مولفاته بالاستعانة بأحكام ظاهرها أدبي. كان يعيش في عالم الأمور التقريبية الذي نشيد فيه الفراغ ونطلق الأحكام في الضلال ولا يقلل انعدام الصحة والكفاءة فيه من الثقة بالنفس، بل العكس صحيح. وإنها لمعجزة الاعتزاز بالذات الخيرة، فإذا تيسر للقليل من الناس علاقات لامعة ومعارف عميقة يحسب أولئك الذين تعوزهم أنهم الأوفر نصيباً لأن نظرة المدرجات الاجتماعية تجعل كل صف يبدو هو الأفضل بالنسبة إلى من يشغله ويرى أن أعيان القوم الذين يسميهم ويدهم دون أن يعرفهم وييدي رأيه فيهم ويحتقرهم دون أن يفهمهم هم أقل حظوة منه وأسوأ قسمة ومدعاة للرتاء وحتى في الحالات التي لا يكفي فيها تكثير الحسنات الشخصية الزهيدة عن طريق الاعتزاز بالذات لتضمن لكل واحد كمية السعادة التي تلزمه والتي تفوق الكمية الممنوحة للآخرين. فإن الحسد ههنا ليسد هذا الفارق. صحيح أن الحسد إن تمّ التعبير عنه بجمل زاخرة بالازدراء فلا بد من ترجمة "لا أريد التعرف به" بـ "لا أستطيع التعرف به" وهو المعنى العقلي: أما المعنى الذي يداخله الهوى فهو بالتأكيد "لا أريد التعرف به". وإننا لنعلم أن ذلك غير صحيح ولكننا لا نقوله مع ذلك بداعي الخلدعة المحضة، بل نقول لأننا هكذا نشعر ويكفي ذلك لإزالة المسافة الفاصلة أي لبلوغ السعادة.

وإذ تُفسح المركزية الذاتية على هذا النحو لكل إنسان أن يبصر العالم المنتضد تحتته وهو ملك عليه، فقد كان السيد "بلوك" يسمح لنفسه أن يكون ملكاً لا يرحم حينما يبصر وهو يتناول الشكولاته

في الصباح توقيع "بيرغوت" في أسفل مقالة في الصحيفة التي لم يكدها بعد، فيجود عليه متعاليًا بمقابلة يختصرها ويصدر حكمه ويخص نفسه بالمتعة المريحة التي قوامها أن يردد بعد كل بلعة من الشراب الغالي: "بيرغوت" هذا أصبح متعذر القراءة. كم يمكن أن يكون هذا الحيوان مزعجاً حتى ليبلغ بك أن تلغي اشتراكك، ما أشدّ تعقيدها وأي حشو فارغ! ويتناول من جديد "عروساً" بالزبدة.

كانت أهمية "بلوك" الوالد قد امتدت قليلاً خارج دائرة رؤيته الخاصة. فقد كان أولاده بادی الأمر يعدّونه رجلاً متفوقاً. والأولاد ينزعون دوماً إلى انتقاص والديهم وإما إلى إعلاء شأنهم، والوالد أيداً أفضل الآباء بالنسبة إلى الابن الصالح حتى بمعزل عن جميع الأسباب الموضوعية الداعية إلى الإعجاب به. على أن هذه الأخيرة لم تكن غائبة تمام الغياب لدى السيّد "بلوك" الذي كان متعلماً رقيقاً ودوداً بالنسبة إلى ذويه. كانوا في أقرب الأسر يزدادون أنساً به بقدر ما تدور حفلات العشاء والسهرات العائلية، في تفتت الحياة البورجوازية، حول أشخاص يقال عنهم إنهم محبوبون ومسّلون ولعلهم في المجتمع لا يصادفون نجاحاً أكثر من عشيتين، فيما تحكم على الناس في المجتمع الراقي وفق معيار غير معقول على أية حال وحسب قواعد خاطئة ولكنها ثابتة بالمقارنة مع مجموع الأنيقين الآخرين. وفي هذا الوسط الذي لا وجود فيه أخيراً لأمجاد الأرستقراطيين الزائفة فإنما يستبدلون بها امتيازات أكثر لا معقولة. من ذلك أن تشابهاً مزعوماً في شكل الشاربين والأنف المرتفع كان. فيما يخص أسرته وحتى درجة بعيدة جداً من القرابة. يجعلهم يدعون السيّد "بلوك" بـ دوق أو مال المزيف ("أوليس الذي يعتمر

في دنيا" خدم المتنديات" قبعته بالورب ويرتدي سترته مشدودة عليه ليظهر بـ "فيما يعتقد بمظهر الضابط الأجنبي. أو ليس نوعاً من الشخصية بالنسبة إلى رفاقه؟)

كان التشابه من أكثرها غموضاً. على أنه يخيل إليك أنه بمثابة لقب. كانوا يردّدون قولهم: "بلوك؟ أيّ بلوك؟ دوق أو مال؟" مثلما يقال: "الأميرة مورا؟ أية أميرة؟ ملكة نابولي؟" وهناك عدد من العلامات الطفيفة الأخرى كان يضيفي عليه في النهاية في نظر أبناء العم أناقة مزعومة. كان السيّد "بلوك" الذي لم يبلغ به الحال حدّ اقتناء عربية يستأجر من الشركة بعض الأيام عربية مكشوفة بجوادين ويحتاز بها غابة بولونيا وقد استلقى بالعرض مسترخياً يضع إصبعين على صدغه وآخرين تحت ذقنه، ولئن كان الذين لا يعرفونه يرون بسبب ذلك أنه "صاحب مشكلات" فقد كانوا يوقنون في الأسرة أن العم "سالمون" ربما استطاع، فيما يخصّ الأناقة، أن ينافس "غرامون" - كادروس" كان من أولئك الأشخاص الذين تتعتم زوايا أخبار المجتمع في صحيفة "الرايكالي" حينما توافيهم المنية وبسبب مائدة مشتركة مع رئيس تلك الصحيفة في أحد مطاعم الشوارع بـ "الوجه الذي يعرفه الباريسيون تمام المعرفة". وقد قال "بلوك" لـ "ولسان لو" إن "بيرغوت" يعلم تمام العلم لماذا كان. هو السيّد "بلوك" لا يحبه وإنه كان يتجنب نظراته حالما يلحظه في المسرح أو الندوة. وكست الحمرة وجه "سان لو"، لأنه فكر أن هذه الندوة لا يمكن أن تكون نادي السباق الذي سبق

أن كان والده رئيساً له. وكان لابد أن تكون من جهة أخرى ندوة مغلقة نسبياً إذ قال السيد "بلوك" إن "بيرغوت" ما عاد يُستقبل اليوم فيها على حدّ زعمه. ولذلك سأل "سان لو" وهو يرتجف خوفاً من "أن يقلل من شأن الخصم"، إن كانت تلك الندوة ندوة الشارع الملكي التي كانت أسرة "سان لو" تعدها "دون المستوى" وحيث يعلم أنهم يستقبلون بعض اليهود فأجاب السيد "بلوك" بلهجة لامبالية فيها اعتزاز وحجل: "لا" إنها ندوة صغيرة ولكنها أوفر إمتاعاً وتدعى "ندوة الحمقى" ويطلقون فيها أحكاماً قاسية على الرأي العام. وسأل "بلوك" الابن والده كيما تتوافر له فرصة لكذبة مشرفة: أليس السيد "روفوس إسرائيل" رئيساً لها؟ دون أن يرتاب أنّ رجل المال هذا لم يكن يتمتع في نظر "سان لو" بما يتمتع به من مهابة في نظر ذويه. ولم يكن السيد "روفوس إسرائيل" بالحقيقة في "ندوة الحمقى" بل واحد من موظفيه، بيد أنه كان على علاقة طيبة بربّ عمله وكان في حوزته لذلك بطاقات تعود لرجل المال الكبير فيقدّم واحدة منها للسيد "بلوك" حينما يسافر هذا الأخير على خطّ كان السيد "روفوس" مديره، الأمر الذي كان يحمل "بلوك" الوالد على أن يقول: "سأمر على الندوة لأطلب توصية من السيد "روفوس". وكانت البطاقة تمكّنه من أن يهرر رؤساء القطارات. وأبدت الأنسات "بلوك" اهتماماً أكبر بـ "بيرغوت" فعدن إليه بدلاً من موالاة الحديث حول "الحمقى"، وسألت الصغرى أختها بلهجة من أكثرها جدّة إذ كانت تظنّ أن ليس في العالم للدلالة على أرباب المواهب من تعابير غير تلك التي يستخدمها: "أتراه" كدعاً "مدهشاً حقاً" "بيرغوت" هذا؟ أهو من فئة "الدرأويش" العظام، من "الكدعان" أمثال "فيليه" أو "كاتول"؟ وقال السيد "نسيم بيرنار": "لقد التقيت به في عدّة اجتماعات عامّة إنه أخرق وضرب من شخصيّة شليميل^(١)". لم يكن في هذا التلميح إلى أقصوصة "شاميسو" ما يضير إلى حدّ بعيد، ولكنّ هذا النعت "شليميل" كان من ضمن تلك اللغة المحليّة التي نصفها ألماني والنصف يهودي كانت تفتن السيد "بلوك" في استعمالها بين الأقربين ولكنّها يجدها سوقيّة وفي غير محلّها في حضرة الغرباء ورمى لذلك عمّه بنظرة قاسية وقال "بلوك": "إنه رجل موهبة" وقالت شقيقته بلهجة رصينة كأنما لتقول إنّ لي عدري في هذه الشروط: "آه!" وقال "بلوك" الوالد بازدراء: "جميع الكتاب أصحاب موهبة". وقال ابنه وهو يرفع شوكته ويغضّ عينيه بلهجة مستهزئة شيطانيّة: "بل يبدو أنه يزعم ترشيح نفسه للأكاديمية" فأجاب "بلوك" الوالد الذي لم يكن يبدو أنه يحتقر الأكاديمية احتقار ابنه وبناته: "دعك من هذا، فليس يملك الحجم اللازم" - "والأكاديمية منتدّى على كلّ حال، و"بيرغوت" لا يتمتع بأيّة ضمانّة" يقول عمّ السيّد "بلوك" الغنيّ. وهو شخص وديع لا يعرف الأدب. ولعل نسبة "بيرنار" كانت كافية لتوقظ وحدها مواهب التشخيص لدى جدّي. إلا أنها ربّما بدت لا تنسجم إلى حدّ كاف مع وجهه كان يبدو وكأنما جيء به من قصر "داريوس" وأعيد تركيبه على يد السيّد "ديولافوا" لولم يسهم اسم "نسيم"، وقد اختاره هاور رغّب في أن يكلّل هذا المحيّا الذي من مدينة "سوس" بإكليل شرقي. في أن يرفرف من فوقه جناحاً ثور برأس إنسان من خورساباد. ولكن السيّد "بلوك" لم يكن يكفّ عن شتم عمّه إمّا لأن البساطة المستسلمة لمن كان هدف مضايقاته كانت تستثيره وإمّا لأنّ الدارة يدفع أجرتها السيّد "نسيم بيرنار" فيبغي المستفيد أن يُظهر أنه يحتفظ باستقلاله وأنّه على وجه

(١) schelemihl بطل رواية للكاتب "شاميسو" (Chamisso) باع ظله للشيطان في مقابل المال ثم عاد فاسترده بعد عذاب طويل.

الخصوص لا يحاول عن طريق المصانعات أن يضمن لنفسه ميراث الغنيّ المقبل*. صاح السيد "بلوك" قائلاً، فيما يحني السيد "نسيم بيرنار" حزيناً فوق صحته لحية جعدة كالتي للملك "سارغون": بالطبع حينما تتوافر ثمة حماقة سخيفة تقولها أمكننا التأكد أنك لن تدعها تفلت. ولعلك كنت أول من يلحس قدميه لو كان حاضراً هنا. "وكان رفيقي يشبه كثيراً شقيق جدّه منذ أن أضحت لحيته في مثل تجعيد تلك وزرقتها.

وقال السيد "نسيم بيرنار" لـ "سان لو": "ويحك، أأنت ابن الميركيز "دومارسانت" ؟ لقد عرفته تمام المعرفة " وظننت أنه ينبغي أن يقول "عرفته" بالمعنى الذي كان "بلوك" يعرف فيه "بيرغوت"، أي بمجرد الرؤية. ولكنه أضاف قائلاً: "كان والدك أحد أصدقائي الحميمين " وفي أثناء ذلك كست وجه "بلوك" حمرة شديدة. وبدا والده شديد الانزعاج فيما تضحك الآنسات "بلوك" وهنّ يكتمن ضحكتهن. ذلك أنّ الميل إلى التناهي، وقد كتبه "بلوك" الوالد وأبناؤه، قد ولد لدى السيد "نسيم بيرنار" عادة الكذب المتواصل. فقد كان السيد "نسيم بيرنار" على سبيل المثال يأمر أثناء سفره أن يجيئه خادمه في الفندق على نحو ما ربّما يفعل بلوك" الوالد، بجميع صحفه إلى قاعة الطعام وفي منتصف الغداء حينما يجتمع الكلّ هناك ليتبنوا تماماً أنه يسافر وبصحته خادماً. إلا أن العم كان يقول للناس الذين يرتبط معهم بصداقة إنه عضو في مجلس الشيوخ، الأمر الذي ما كان ابن الشقيق يُقدم عليه البتّة وبعثاً يوقن أنهم سيعلمون ذات يوم أنّ اللقب متحلّ إلا أنّه لا يستطيع في تلك اللحظة نفسها أن يقاوم رغبته في انتعاده. كان السيد "بلوك" يتألم كثيراً من حرّاء أكاذيب عمّه وجميع ما تسبّب له من إزعاجات. فقال بصوت خافت لـ "سان لو": "لا تعره انتباهك فإنّه كثير الكذب" الأمر الذي زاد من اهتمامه إذ كان شديد الاهتمام بنفسية الكذّابين وأكمل القول رفيقنا "بلوك": "بل وأكذب من "أوديسيوس" الذي من "إيتاكا" مع أنّ "أثينية" دعتة أكذب الناس. " وصاخ السيد "نسيم بيرنار" قائلاً: "ويحي! ما كنت أتوقع لوالدك تناول طعام العشاء مع ابن صديقي! ولكن لديّ في باريس صورة لوالدك ورسائل منه ما أكثرها كان يدعوني على الدوام "عمّي" ولم يدر أحد سبب ذلك. كان رجلاً فائناً مثلاً. وإنّي أذكر عشاء في منزلي في "نيس" حضر فيه "ساردو" و"لايش" و"أوجيه" وتابع السيد "بلوك" الوالد بلهجة ساخرة: و"موليير" و"راسين" و"كورنيي" وأتمّ ابنه التعداد إذ أضاف قائلاً: و"بلوتوس" و"ميناندروس" و"كاليدياسا" وقطع السيد "نسيم بيرنار" روايته فجأة وقد جرح شعوره وظلّ صامتاً حتى نهاية العشاء فحرم نفسه عن زهد متعة عظيمة.

(*) كان هذا الأخير محروح الشعور أن تتم معاملته بهذه الفظاظة في حضرة رئيس الخدم، فهمس بجملة متعذرة الفهم كنت تميز فيها فقط: "حيما يحضر" الميسخورييس" وميسخورييس تعني في الكتاب المقدس خدام الله وكان آل "بلوك" يستخدمون اللفظة فيما بينهم للدلالة على الخدام ويدون على الدوام اغتياباً بذلك لأن اليقين بأنه لن يفهمهم لا المسيحيون ولا الخدام أنفسهم إنما كان يبحث في نفس السيد "نسيم بيرنار" والسيد "بلوك" حماسة لميزتهم الخاصة المضاعفة في كونهم "أسيادا" و"يهودا" ولكن سبب هذا الارتياح الأخير كان ينقلب سبب استياء عندما يكون ثمة أناس وكان يرى "بلوك"، حيما سمع عمه يقول "ميسخورييس" أنه يبالغ في إبراز جانبه الشرقي، مثلما تغتاظ امرأة لعب دعت بعض صديقاتها مع جماعة راقية إن هن المحن إلى مهنهن كسساء لعوبات أو يستخدمن كلمات غير لائقة ولذلك مبدلاً من أن يخلف رجاء عم "بلوك" في صدره بعض الأثر لم يستطع هذا الأخير، وقد خرج عن طوره، أن يملك نفسه من بعد، فلم يضع بعدها فرصة واحدة يسب فيها عمه التعيس

وقال "بلوك": "سان لو" ياذا الخوذة البرونزية عد فخذ قليلاً من هذه البطّة ذات الفخدين المكتنزين شحمًا، اللذين سكب عليهما مضحّي الطيور الداجنة الشهير العديد من أكواب النبيذ الأحمر".

كان من عادة السيّد "بلوك"، بعدما طلع بالمتعقّ من الحكايات عن السيّد "روفوس إسرائيل" وآخرين إكراماً لصديق مرموق أن يتعدّد، وقد أحسّ أنّه مرّ مشاعر ابنه إلى درجة الحنان كي لا يهون في عيني الفتى الصغير بيد أن السيّد "بلوك" كان يضيف إن توفر سبب رئيسي تماماً، كحالته مثلاً حينما نجح ابنه في امتحان "الأكريكاسيون"، كان يضيف إلى مجموعة الطرائف المعتادة هذه النكتة الساخرة التي يخصّص بها بالأحرى أصدقاءه الشخصيين والتي أحسّ "بلوك" الأصغر باعتزاز شديد إذ رآه يرويها لأصدقائه هو: "ذنب الحكومة لا يغتفر، فإنها لم تستشر السيّد "كوكلان" ! وقد أعلن السيّد "كوكلان" أنّه مستاء" (كان السيّد "بلوك" يفخر بأنّه رجعي ويحتقر جماعة المسرح).

إلا أن الحمرة كست وجوه الأنسات "بلوك" وشقيقتهم حتى بلغت أطراف الآذان لشدة ما أصابهم من تأثر حينما أمر "بلوك" الوالد كيما يبدو ملكي التصرف حتى النهاية إزاء زميلي ابنه أن يحضروا الشامانيا وأعلن بلهجة لا مبالية أنّه عمل كيما يزيد من بهجتنا على حجز ثلاثة مقاعد للعرض الذي كانت تقدّمه في العشية نفسها في الكازنيو فرقة أوبرا هزليّة، كان يأسف أن لم يستطع الحصول على مقصورة، فقد شغلت جميعها. كثيراً ما جربها على آية حال، والمرء أفضل حالاً في الصالة. ولئن كان عيب الابن، يعني ما كان يحسبه الابن خافياً على أعين الآخرين، لئن كان الفظاظلة، فعييب الوالد كان البخل. ولذلك تمّ تقديم نبيذ عاديّ فوّار في قنيّة بمثابة شامانيا كما تمّ استئجار مقاعد في الأمكنة المخصّصة للعامة التي تساوي نصف القيمة وذلك بمثابة مقاعد في الصالة، وقد أدخل في روعه بأعجوبة بفضل تدخل عيبه السماوي أن لن يلاحظ الفارق أحد لا على المائدة ولا في المسرح (حيث كانت جميع المقصورات خالية) وحينما سمح لنا السيّد "بلوك" أن نغمس شفتينا في أفداح عريضة يزيناها ابنه باسم "أكواب عميقة الجنبات" دعانا لمشاهدة لراحة كان يعشقها إلى حدّ أنّه كان يحملها معه إلى "بالبيك" وقال لنا إنّها من أعمال "روبنس". وسأله "سان لو" بسداجة إن كانت تحمل توقيعاً فأجاب السيّد "بلوك" وقد كسا الاحمرار وجهه أنّه اقتطع التوقيع بسبب الإطار، الأمر الذي لا يرتدي آية أهميّة بما أنّه لا يبغي بيعه. ثم صرفنا بسرعة ليغوص في "الجريدة الرسمية" التي كانت أعدادها تزحم المنزل والتي أضحت قراءتها ضرورية له، فيما قال لنا، "من جرّاء وضعه البرلماني" الذي لم يزودنا بأية إيضاحات حول طبيعته. الحقّة وقال لنا "بلوك": "أخذ منديلاً لأن ريح الجنوب وريح الشمال تتنافسان فوق البحر الكثير الأسماك وإن تأخرنا بعد العرض فلن نعود إلا في تبشير الفجر ذي الأنامل الأرجوانية". ثم سأل "سان لو" قائلاً، حينما أصبحنا في الخارج (وارتجفت خوفاً إذ سرعان ما أدركت أن "بلوك" إنّما كان يتحدث عن السيّد "دوشارلوس" بهذه اللهجة الساخرة): "بالمناسبة، من كان ذاك الكراكوز العظيم الذي كان

يرتدي بدلة عاتمة والذي شاهدتك تأخذه في نزهة على الشاطئ صبيحة قبل البارحة؟" فأجاب "سان لو" مغضباً: "إنه عمي" وكانت "الزلة" للأسف بعيدة عن أن تبدو في نظر "بلوك" أمراً ينبغي تجنبه فأخذ يتلوّى من الضحك: "تهاني، كان ينبغي أن أحزر إنه رائع الأناقة وله سحنة مضحكة جداً ليخرف من أفضل طراز" وردّ "سان لو" بحق: "إنك مخطئ أتم الخطأ، فهو شديد الذكاء." - "يوسفني ذلك إذ هو إذ ذاك أقلّ كمالاً وددت كثيراً على أية حال لو أتعرف إليه فإنني متأكد أنني قد أسطر روايات مناسبة على دراويش من هذه الطينة، وهذا إن مرّ أمامك يقتلك ضحكاً. ولكنني قد أهمل الجانب الكاريكاتوري في السحنة التي أضحككني، عذري إليك، فترة طويلة. والجانب في أساسه مبتذل في نظر فنان مولع بحمال الجمل الشكلي، وقد أبرز الجانب الأرستقراطي لدى عمك الذي يخلف فيك باختصار القول أثراً ضخماً ويدهشك حالما تنقضي الضحكة الأولى من جراء أسلوب رفيع جداً" ثم قال وهو يوجّه حديثه إليّ في هذه المرة: "لكن ثمة أمراً في مجال مختلف تماماً أريد أن أسالك عنه وفي كل مرة نجتمع فيها ينسيني إله من ساكني "الأولمبوس" السعداء، ينسيني تماماً أن أسالك هذه المعلومات التي كان يمكن أن تقيديني من قبل أعظم الفائدة وسوف تقيديني بالتأكيد. فمن هي تلك المرأة الجميلة التي التقيتك بصحبته في حديقة الحيوانات يرافقها سيّد أحسب أنني أعرفه بالشكل وفتاة طويلة الشعر؟" وكنت قد لاحظت تماماً أنّ السيّد "سوان" لم تكن تذكر اسم "بلوك" بما أنها ذكرت لي اسماً آخر ووصفت صديقي بأنه تابع لوزارة لم أفطن ألبته مذ ذاك أن أستعلم إن كان دخلها. ولكن كيف كان يمكن لي "بلوك" الذي طلب، حسبما قالت لي حينذاك، التعرف إليها أن يجهل اسمها؟ لقد أصابني من الدهشة ما ظللت معه فترة دون إجابة فقال لي: "تهاني في جميع الأحوال، فلا بد أنك لم تحسّ بالملل معها، لقد سبق أن التقيت بها بضعة أيام قبل ذلك في قطار "الحزام"، وقد تكرّمت بفكّ حزامها لصالح خادملك وإني ما قضيت ألبته فترات في مثل روعتها، وكنا نزمع اتخاذ جميع التدابير للتلقي ثانية حينما دفعت قلة الدوق شخصاً كانت تعرفه إلى الصعود ما قبل المحطة الأخيرة" ولم يبدُ أن الصمت الذي لزمته قد راق "بلوك"، فقال لي "كنت آمل أن أعرف بفضلك عنوانها وأن أبادر فأتلوّق في منزلها عدّة مرّات في الأسبوع متع" إيروس^(١) العريزة على قلوب الآلهة، ولكنني لا ألح بما أنك اخترت التكم بشأن محترفة وهبتني ذاتها ثلاث مرّات على التوالي وبأكثر الطرق تفتناً بين باريس و"مطلع النهار". سوف أعود فألقاها بالتأكيد في هذه العشيّة أو تلك."

وذهبت لزيارة "بلوك" بعد ذلك العشاء. ورد لي زيارتي ولكنني كنت قد خرجت، وشاهدته "فرانسواز" يسأل عني ولم تكن بعد بالمصادفة قد رآته حتى ذاك مع أنه جاء إلى "كومبريه". ولم تعلم لذلك سوى أن أحد السادة الذين كنت أعرفهم قد مر ليراني وتحهل لأيّ سبب، وكان لباسه عادياً ولم يخلف لديها انطباعاً كبيراً. ولكن عبثاً كنت أعلم أن بعض أفكار "فرانسواز" الاجتماعية

(١) إله الحب لدى قدماء اليونان

سوف تظلّ دوماً مستغلقة عليّ، وكانت ربّما تقوم في جزء منها على خلط بين الكلمات وأسماء أخذ بعضها مرّة وإلى الأبد محلّ بعضها الآخر. إلا أنني لم أستطع أن أمنع نفسي، أنا الذي منذ زمن بعيد عن طرح أسئلة على نفسه في تلك الحالات، عن البحث عمّا يمكن أن يحمله اسم "بلوك" من أمر عظيم في نظر "فرانسواز". ذلك أنني ما إن قلت لها إن ذلك الشاب الذي أبصرتُه كان السيّد "بلوك" حتى ارتدّت بضغ خطوط إلى الوراء لشدة ما كان ذهولها وخيبتها عظيمين، وصاحت بهيئة المصعوق: "كيف ذلك، أهذا هو السيّد "بلوك"؟ كما لو انبغى أن تملك شخصية بمثل تلك المهابة هيئة "تكشف لك" في الحال أنك في حضرة أحد عظماء الأرض، وبطريقة من يجد أن شخصية تاريخية ليست على مستوى شهرتها كانت تردّد بلهجة منفعة تحسّ فيها بالنسبة إلى المستقبل بذور ارتياحية شاملة: "كيف ذلك، أهذا هو السيّد "بلوك"؟! حقاً لا يخيّل إليك ذلك حينما تراه" كانت تبدو وكأنّها تحقّد عليّ لذلك كأنما ضحمت لها في يوم شخص "بلوك". ولكنّها تكرّمت وأضافت: "حسن، مع كلّ ما يمكن أن يكون عليه السيّد "بلوك" فإن باستطاعة سيدي أن يقول إنه يضاهيه تماماً"

ووقعت لها بعد قليل بشأن "سان لو" الذي كانت تعبه خيبة من نوع آخر ومدة أقلّ: فقد عرفت أنّه جمهوري. لقد كانت "فرانسواز" ملكية على الرغم من أنّها تقول، وهي تتحدّث مثلاً عن ملكة البرتغال بقلة الاحترام تلك التي تمثّل لدى الشعب أقصى الاحترام: "أميليا، أخت فيليب". فأما أن يقف مركز، وقد بهرها في صفّ الجمهورية فأمر لا يبدو حقيقياً في نظرها من بعد. وكانت تبدي التبرّم نفسه كما لو أنّي أعطيتها علبة حسيّتها من ذهب فشكرتني عليها بفيض من العاطفة ثمّ كشف لها جواهرها أنّها من طلاء. وسحبت في الحال تقديرها لـ "سان لو" ولكنّها أعادته إليه بعد قليل إذ فكّرت أنّه لا يستطيع، وهو المركز "دوسان لو"، أن يكون جمهورياً وأنّه كان يتظاهر بحسب بداعي المصلحة لأن الأمر يمكن أن يعود عليه، مع الحكومة القائمة، بالنفع الكبير. ومنذ ذلك اليوم توقّف جفاؤها إزاءه وحنقها عليّ. كانت تقول حينما تتحدّث عن "سان لو" "إنّه مرء"، تقولها بابتسامة عريضة طيبة يدرك منها المرء تمام الإدراك أنّها أخذت تقدره من جديد بقدر ما فعلت في اليوم الأوّل وأنّها غفرت له.

ولكنّ صدق "سان لو" وتجرده كانا على العكس مطلقين، وإنّما ذلك النقاء الأخلاقي الكبير الذي إذ لا يستطيع أن يشيع ذاته كلياً داخل شعور أناني كالحبّ ولا يلاقي من جهة أخرى في نفسه الاستحالة التي لديّ على سبيل المثال، استحالة العثور على غذاء روحيّ في غير ذاته، إنّما هو الذي كان يجعله قادراً حقاً على الصداقة بقدر ما كنت عاجزاً عنها.

ولم تكن "فرانسواز" في ضلال أقلّ حول "سان لو" حينما تقول إنّه يبدو هكذا وكأنّه لا يزدري الشعب ولكنّ ذلك غير صحيح، فما كان عليك إلا أن تراه حينما كان يفتاظ من حوذيّه. لقد اتّفق بالفعل لـ "روبير" بعض الأحيان أن يؤنّب بعض الخشونة ولكنها لديه أقلّ برهاناً على الشعور

بالفارق بين الطبقات منها على المساواة بينها. فقد قال لي بمثابة ردّ على اللوم الذي كنت أوجهه إليه لأنه عامل ذاك الحوذي بخشونة: "ولكن لماذا أتصنع التحدّث إليه بأدب؟ أو ليس مساوياً لي؟ أو ليس منّي في مثل قرب أعمامي وأولاد أعمامي منّي؟ تبدو وكأنك ترى أنّه يجدر بي معاملته باحترام معاملة الأذني" وأضاف باشمزاز: "إنك تتكلم كالأرستقراطيّين".

ولئن كان ثمة بالفعل طبقة يحسّ إزاءها بالكراهية والنحيّز فإنّما كانت الأرستقراطيّة وإلى حدّ الاعتقاد بصعوبة يتفوّق شخص من المجتمع الراقي بقدر ما يعتقد بسهولة يتفوّق رجل الشعب. وإذا كنت أحدثه عن أميرة "لوكسمبور" التي التقيتها مع عمته قال لي: "

- "إنّها بلهاء كمثيلاتهما جميعهن، وهي على آية حال قريبتني إلى حدّ ما."

ولما كان متحيّزاً ضدّ الجماعة التي تتردّد عليه فنادرًا ما كان يرتاد المجتمع الراقي وكان الموقف المستخفّ أو العدائي الذي يتخلّده فيه يزيد لدى جميع الأقربين من أهله الغمّ الناجم عن علاقته بامرأة من "دنيا المسرح"، علاقة ينعون عليها أنّها مشوومة بالنسبة إليه وأنّها نمت لديه على وجه الخصوص روح الانتقاد تلك وروح التمرد، وأنّها "أفقدته سواء السبيل" بانتظار أن يفقد مكانته تمامًا. ولذلك كان الكثير من الرجال السطحيّين في حيّ "سان جيرمان" لا يرحمون حينما يتحدثون عن عشيقته "روبير" كانوا يقولون: "المومسات يؤدّين وظيفتهنّ وهنّ كغيرهن في ذلك سواء بسواء. أمّا هذه فلا ! لن نغفر لها! فقد أساءت كثيراً إلى شخص نحبه" لم يكن بالتأكيد أوّل من شدّت قدمه إلى قيد. ولكن الآخرين كانوا يلهون لهو رجال المجتمع وظلّوا يفكرون في السياسة وفي كلّ شيء تفكير أهل المجتمع. أمّا هو فقد كانت أسرته تجده "ناقماً". ولم تكن تتبيّن أنّه فيما يخصّ العديد من شباب المجتمع الراقي إنّما تكون عشيقتهم في الغالب معلّمهم الحقيقي، والعلاقات التي من هذا القبيل مدرسة الأخلاق الوحيدة التي يطّلعون فيها على ثقافة رفيعة ويتعلّمون فيها المعارف غير المغرضة، ولولا ذلك لظلّوا غير مثقفي العقول قساة في صداقاتهم يفتقرون إلى اللين والدوق. والمرأة حتّى في طبقات الشعب الدنيا(التي كثيراً ما تشبه الطبقات العليا فيما يخصّ البذاءة) تميل، إذ هي أرقّ شعوراً وأشدّ إرهافاً وأوفر فراغاً، إلى بعض اللباقات وتحترم بعض مواقع الجمال في الشعور والفنّ وتضعها، وإن هي لم تدرّكها، فوق ما كان يبدو مشتتاً كما يكون لدى الإنسان من مال ومكانة. وسواء أتعلى الأمر بعشيقته أحد رواد النوادي الشباب كـ "سان لو" أم بعشيقته عامل شاب (فالكهربائيون مثلاً يعدّون اليوم في صفوف الفروسية الحقّة) فإنّ عشيقته ينظر إليها بالكثير من الإعجاب والاحترام حتّى لا يعتمها على ما تحترمه هي ذاتها وتعجب به، وبذلك ينقلب سلّم القيم بالنسبة إليه، فإنّها بسبب جنسها نفسه ضعيفة وتعترتها اضطرابات عصبية لا تفسّر. ولعلّها كانت تثير سخرية هذا الشابّ القويّ لدى رجل، وحتى لدى امرأة غيرها، لدى امرأة هو ابن أخيها أو ابن عمّها ولكنه لا يستطيع رؤية من يحبّها تتعذّب. فالنبييل الشابّ الذي له عشيقته شأن "سان لو" إنّما يتعوّد حينما يمضي لتناول العشاء معها في الملهى أن يحمل في جيبه مسحوق الناردين الذي قد تحتاجه وأن يأمر الخادم بحزم ودون سخرية أن يهتمّ بإغلاق الأبواب دونما ضجّة وألا يضع طحالب رطبة

على المائدة كي يجنب صديقته ذلك الضيق الذي لم يشعر به في يوم فيما يخصه والذي يؤلف في نظره عالماً خفياً علمته أن يؤمن بحقيقته، الضيق الذي يرثي له الآن دون أن يحسّ لذلك بحاجة إلى معرفته والذي سيرثي له حتى عندما ستحسّ به آخريات غيرها. إن عشيقه "سان لو" (شأن الرهبان الأوائل في العصر الوسيط فيما يخصّ المسيحية) قد علمته الإشفاق على الحيوانات لأنها كانت تتعشقها، فلا تنتقل ألبته دون قلبها وترنجاتها وبيغاواتها، وكان "سان لو" يسهر عليها بعناية الأم ويعدّ الذين لا يحسنون إلى الحيوانات من صنف البهائم. وإن ممثلة، أو ما كان على حدّ زعمها من هذا القبيل، كتلك التي كانت تعيش معه - سواء أكانت ذكيرة أم لا، وهو أمر كنت أجهله - إنما جنته مخاطر السنوية وشفته من الطيش إذ جعلته يجد مخالطة نساء المجتمع مملة ويرى من باب المشقة وجوب الذهاب إلى أمسية. ولكن شغلت العلاقات الدنيوية بفضلها حيزاً أقلّ في حياة عشيقها الشاب، فقد علمته عشيقته أن يسبغ على صداقاته نبلاً ورقة مشاعر في حين كان الغرور أو المصلحة سيوجّهانها مثلما ستطبعها الخشونة لو كان مجرد رجل منتديات. فسرعان ما كانت تميّز، بغريزة المرأة لديها وإذ كانت تقدّر أكثر من سواها لدى الرجال بعض صفات الرقة التي ربما أنكرها بدونها أو استخفّ بها، ذاك الذي من بين أصدقاء "سان لو" يحمل له مودة حقّة وتفضله. وكانت تفلح في حمله عنوة على الإحساس بجميل هذا الأخير، وعلى أن يعرب له عن ذلك، وعلى ملاحظة الأشياء التي تشيع السرور في نفسه وتلك التي تبعث فيها الغم. وأخذ "سان لو" بعد قليل، دون أن تكون به حاجة من بعد إلى أن تنبّه، يهتمّ بكلّ ذلك، وفي "بالبيك" التي لم تكن حاضرة فيها وبالنسبة إليّ أنا الذي لم تره قطّ والذي ربّما لم يحدثها بعد عنه حتى في رسائله، كان يغلق من تلقاء ذاته نافذة عربة استقلها ويعدّ الأزهار التي تؤذيني، وحينما اضطرّ لدى رحيله أن يودّع عدّة أشخاص في الآن نفسه تدبّر أمره لمفارقتهم قبل الأوان بقليل كي يظلّ وحده معي وآخر الكلّ ويقيم هذا الفارق بينهم وبينّي ويعاملني معاملة تختلف عن الآخرين. كانت عشيقته قد فتحت عقله على اللامرئي وأدخلت شيئاً من الجدّية في حياته وضروباً من الرقة في فؤاده، إلّا أن كلّ ذلك قد خفي على الأسرة الباكية التي كانت تردّد قولها: "سوف تقتله تلك العاهرة وإنها بانتظار ذلك تلطّعه بالعار". والصحيح أنّه كان قد فرغ من جني كامل الفائدة التي يمكن أن تمنحه إياها، وما كانت الآن إلا سبباً في عذاب لا ينقطع، ذلك أنّها أخذت تكرهه وتعذبه. فقد شرعت ذات يوم تجده غيباً ومضحكاً لأن الأصدقاء الذين اتّخذتهم في صفوف كتاب وممثلين شباب قد أكّدوا لها أنّه كذلك فكانت تردّد بدورها ما قالوا بهذه الحماسة وانعدام الحذر اللذين يبيدهما المرء في كلّ مرّة يستقي فيها من الخارج ويتبنّى آراء وعادات كان يجهلها كلياً. كانت تعلن بملء الخاطر، شأن أولئك الممثلين، أنّ الهوة بينهما يتعدّر اجتيازها لأنهما من جنس مختلف وأنها من أهل الفكر وهو عدوّ الفكر بالمولد ومهما زعم في ذلك. كان ذاك الرأي عميقاً في نظرها فتحاول إثباته في أكثر أقوال عشيقها تفاهة وفي أقلّ حركاته. ولكن حينما أفنّعها الأصدقاء أنفسهم علاوة على ذلك أنّها إنما تهدم، فيما يقولون، الآمال الكبرى التي بشرت بها، وذلك في صحبة لا تلائمها، وأن عشيقها سوف يؤثر عليها في نهاية المطاف، وأنّها تخرب مستقبلها الفني في العيش معه، فقد انضافت إلى احتقارها لـ "سان لو" الكراهية نفسها التي تعمرها لو أنّه أصرّ على أن ينقل إليها مرضاً قاتلاً. كانت تلتقي به

أقل ما يمكن فيما توالي تأجيل لحظة القطيعة النهائية والتي كانت تبدو لي قليلة الاحتمال إلى حد بعيد. كان "سان لو" يقدم في سبيلها على توضيحات يبدو من العسير معها أن تلقى رجلاً آخر يقبل الإقدام على مثلها، ما لم تكن فاتنة الجمال (ولكنه لم يشأ في يوم أن يريني صورتها قائلاً لي: "إنها ليست بادئ الأمر على جمال كبير، ثم إنها لا تنجح في الصور إذ هي صور آتية أخذتها بنفسها بآلة الكوداك" وربما زودتك بفكرة خاطئة عنها"). ولم يخطر لي أن ميلاً جارفاً إلى الشهرة، حتى عندما لا تتوافر لنا الموهبة، وأن التقدير، مجرد التقدير الخاص، الذي يغدقه أشخاص يتمتعون بالمهابة بالنسبة إلينا، يمكن أن يؤلفا (وربما لم تكن تلك حال عشيقته "سان لو") حتى في نظر امرأة لعوب، دوافع أكثر حسماً من متعة كسب المال. أمّا "سان لو" الذي لم يكن يحسب عشيقته، دون أن يدرك تمام الإدراك كلّ ما كان يحول في خاطرها، صادقة تماماً في مآخذها الظالمة عليه ولا في عهود الحبّ الأبدي التي تقطعها، فقد كان يوافيه بعض الأحيان شعور بأنها سوف تهجره حينما تستطيع ذلك وقد رفض لهذا السبب، تدفعه دونما شك غريزة البقاء في حبّه الذي ربما فاق "سان لو" نفسه بُعد نظر، وإذ يبدى من جهة أخرى دهاء عملياً كان يتفق لديه وأكثر اندفاعات القلب زخماً وأقلّها تبصراً، رفض أن يشكّل لها رأس مال واقتضى مبلغاً ضخماً كي لا يعوزها شيء ولكنه لا يسلمها إياه إلا يوماً بعد يوم. وليس من شك أنها كانت تنتظر، إن هي فكرت حقاً بهجرانه، تنتظر بأعصاب باردة أن تكون "جمعت أرباحها"، الأمر الذي ربما اقتضى ولا شك المبالغ التي يجود بها "سان لو" وقتاً قصيراً جداً ولكنه على أية حال وقت يُمنح علاوة ليمدّ في سعادة صديقي الجديد أو في شقائه.

لقد بدأت هذه الفترة المساوية في علاقتهم - التي بلغت الآن النقطة الأكثر حرجاً والأشدّ قسوة بالنسبة إلى "سان لو"، فقد حظرت عليه البقاء في باريس حيث يغيظها وجوده وأرغمته على قضاء عطلة في "البليك" بالقرب من ثكنته - بدأت ذات مساء في منزل عمّة "سان لو" الذي حصل منها على إذن بأن تحيي صديقته لتلقي أمام العديد من المدعوين مقاطع من مسرحيّة رمزية سبق أن مثلتها مرّة على مسرح طليعي وجعلته يقاسمها الإعجاب الذي تحسّ به هي نفسها.

ولكنّها حينما ظهرت، تحمل زنبقة في يدها وترتدي لباساً تم نقله عن "أمة الرب" (١) وسبق أن أقنعت "روبير" أنّه "نظرة فن" حقيقة، استقبلتها لدى دخولها إلى ذلك الحفل المؤلّف من أرباب منتديات ودوقات ابتسامات أحالها أسلوب الإنشاد الرتيب وغرابة بعض الكلمات وتردادها الكثير ضحكاً متصلاً جرى كتمه بادئ الأمر ثم أضحى لا يقاوم إلى حدّ أن المنشدة المسكينة لم تستطع الاستمرار وفي الغد اتجهوا بالإجماع باللائمة على عمّة "سان لو" لأنها سمحت لفنّانة مضحكة إلى هذا الحدّ أن تظهر في منزلها ولم يكتفوا أحد الدوقة المشهورين أن عليها إلقاء التبعة على نفسها إن هي جرّت عليها الانتقاد:

(١) Ancilla Domini هي قول العذراء للملاك إذ بشرها بأنها ستصبح والدة المسيح واللوحه للرسام "فرانچيليكو"

- "عجباً! هم لا يقدمون لنا مشاهد بهذه القوة! ولو توافرت لهذه المرأة الموهبة، ولكنها ليست على شيء منها ولن تكون على شيء في يوم. يا الله! ليست باريس بمثل الغباء الذي يقولون وليس المجتمع مؤلفاً من بلهاء فحسب. لقد ظننت هذه الأنسة الصغيرة بالطبع أنها تذهل باريس، ولكن باريس أعسر من أن يدهشها ذلك، وثمة على أية حال أمور لن يحملونا على ازدرادها".

أما الفنانة فقد خرجت وهي تقول "سان لو":

- "لدى أية بلهوات، لدى أية فاجرات فاقدت التهذيب لدى أي أوغاد رमित بي؟ ثم إنني أفضل أن أقول لك إنه ما من رجل من الحاضرين إلا وغمز لي بعينه وداعبني بقدمه ولأنني رفضت محاولاتهم حاولوا الثأر لأنفسهم".

وقد أحالت تلك الأقوال نفور "روبير" من أرباب المجتمعات الراقية كراهية أكثر عمقاً وأشدّ مرارة يبعثها في نفسه على نحو خاص أقل من يستحقونها من أقارب متفانين أوفدتهم الأسرة وجهوداً في إقناع صديقة "سان لو" بأن تقطع علاقتها به، وهو المسعى الذي كانت تعرضه وكأنه من وحي حبه لها. ومع أن "روبير" كفّ في الحال عن التردد عليهم فقد كان يظنّ حينما يكون بعيداً عن صديقته كما هي حاله الآن، أنهم يفيدون من ذلك، هم أو غيرهم ليعيدوا الكرة وربما نالوا حظوة لديها وحينما كان يتحدث عن الماجنين الذين يخدعون أصدقاءهم ويحاولون إفساد النساء ويجهدون في الإتيان بهن إلى بيوت الدعارة كان وجهه ينضح ألماً وكراهية.

- "لعلني أقتلهم ويكتني ضميري أقلّ ممّا يفعل لكلب هو على الأقلّ حيوان لطيف وصادق ومخلص إليك من هم أهل للمقصلة أكثر من الأشقياء الذين قادهم إلى الجريمة الفقر وقسوة الأغنياء

"كان يقضي الجزء الأكبر من وقته في إرسال كتب وبرقيات إلى عشيقته وفي كلّ مرة كانت تجد فيها عن بعد، فيما تمنعه عن المجيء إلى باريس، وسيلة للخصام معه كنت أعلم ذلك من ملامح وجهه المهلهلة. ولما كانت عشيقته لا تقول له ألبتة ما تأخذه عليه، ويرتاب هو أنها إن لم تكن تقوله فلأنها ربما لا تعرفه وأنها ضاقت به ذرعاً فحسب، ودّ مع ذلك لو يحصل على إيضاحات، فكان يكتب إليها: "قولي لي أيّ سوء فعلت، فأني على استعداد للاعتراف بأخطائي"، إذ كان من نتائج الحزن الذي يحسّ به اقتناعه بأنه أساء التصرف.

إلاّ أنها كانت تجعله ينتظر انتظاراً لا حدود له جوابات خالية إلى ذلك من المعنى، ولذلك كنت أرى "سان لو" يعود من البريد مقطّب الحبين على الدوام تقريباً وفي الغالب صفر اليدين، وكان الوحيد مع "فرانسواز" الذي يذهب من بين نزلاء الفندق جميعهم لجلب رسائله أو ليحملها بنفسه لنفاد صبر العاشق فيما يخصه ولحذر الخدام فيما يخصها، وكانت البرقيات تضطرّه إلى السير مسافات أطول.

حينما قالت جدتي بهيئة تفيض غبطة، بضعة أيام بعد العشاء في منزل أسرة "بلوك"، إن "سان لو" سألها منذ قليل إن كانت لا تود أن يصورها قبل أن يغادر "بالبيك"، وحينما رأيت أنها ارتدت لذلك أجمل ملابسها ولا تزال مترددة بين عدة تسريحات أحسست بشيء من الحق لهذه الفعلة الصبائية التي أدهشتني كثيراً فيما يخصها، وقد بلغ بي الأمر أن أتساءل إن لم أكن أخطأت بشأن جدتي وإن كنت لا أضعها في مكانة عالية جداً وإن كانت بمثل ما ظننت على الدوام من تجرد فيما يخص شخصها وإن كانت لا تتصف بما كنت أحسبه غريباً عليها أكثر الغرابة، عنيت الدليل.

ولكنني تركت لهذا الاستياء الذي يسببه لي مشروع الجلسة الفوتوغرافية، ولا سيما الارتياح الذي تبدو جدتي وكأنها تحس به من جراحتها، أن يستبين على نحو كاف كيما تلاحظه "فرانسواز" وتبادر عن غير قصد إلى مضاعفته وهي تسمعني مقالة عاطفية مشفقة لم أشأ أن أبدو وكأنني أوافقها عليه.

— "آه يا سيدي، سيدتي المسكينة هذه التي ستغيب أيما غبطة أن يؤخذ رسمها، كما أنها ستضع القبة التي دبرتها لها صديقتها العتيقة "فرانسواز"، دعها تفعل يا سيدي."

وأقنعت نفسي أنني لم أكن قاسياً في هزئي من رقة مشاعر "فرانسواز" إذ أتذكر أن أمي وجدتي، وهما المثالان اللذان أحذيهما في كل شيء، غالباً ما فعلا كذلك إلا أن جدتي قالت لي وقد لاحظت أنني أبدو متكدراً، إنها تتخلى عن جلسة الرسم هذه إن أمكن أن تزعجني. ولم أشأ ذلك وأكدت لها أنني لا أرى في الأمر ما يضير. وتركتها تتزين ولكنني حسبت أنني أبدي نفاذ بصيرة وقوة بإسماعها بعض أقوال ساخرة جارحة تهدف إلى إبطال أثر المتعة التي يبدو أنها تجدها في أخذ رسمها حتى أنني إن أجبرت على مشاهدة قبة جدتي الرائعة فقد أفلحت على الأقل في أن أزيل عن وجهها ملامح الغبطة تلك التي كان ينبغي أن تسعدني والتي تبدو لنا، مثلما يتفق ذلك في الأغلب ما دام الذين نحبههم أفضل ما يكون الحب لا يزالون على قيد الحياة، بمثابة المظهر المغيظ الذي يتجلى به عيب وضيق أكثر منها بمثابة صيغة السعادة الثمينة التي نود لو تتوافر لهم علي يدنا، كان مزاجي المعكر ناجماً على وجه الخصوص عن أن جدتي بدت في ذلك الأسبوع وكأنها تتهرب مني وأنتني ما استطعت أن أخص بها نفسي لحظة واحدة لا في النهار ولا في العشيّة. فحينما كنت أعود بعد الظهور لأنفرد بها قليلاً يقولون لي ليست هناك أو هي أغلقت على نفسها مع "فرانسواز" لمشاورات طويلة لا يؤذن لي بتعكيرها. وحينما كنت أفكر، بعدما قضيت السهرة خارجاً مع "سان لو"، في طريق عودتي باللحظة التي سأستطيع فيها لقاء جدتي ومعانقتها، عبثاً كنت أنتظر أن تقر على الحائط تلك النقرات الطفيفة التي تقول لي أن أدخل لأتمنى لها ليلة سعيدة فلا أسمع شيئاً. وكنت أستلقي في النهاية على سريري وفي نفسي بعض الحقد من أنها تحرمني بما تبدي من لامبالاة جديدة تماماً عوّلت عليها كثيراً وأظّل أصغي، خافق الفؤاد شأني في أيام طفولتي، إلى الجدار الذي لا ينطق بكلمة، ثم أنام بين دموعي.

اضطرّ "سان لو" في هذا اليوم، شأنه في الأيام السابقة، أن يذهب إلى "دونسير" حيث استدعو الحاجة إليه الآن على الدوام حتى نهاية ما بعد الظهيرة بانتظار أن يعود إليها نهائياً. وأسفت ألا

يكون في "بالبيك"، فقد رأيت نساء شابات بدا لي من بعيد أنهن فائتات ينزلن من العربات وتدخل بعضهن إلى قاعة الرقص في الكازنيو والأخريات إلى دكان بائع المثلجات وكنت في واحدة من فترات الشباب تلك الخالية من حبٍّ معيّن، الشاغرة، التي يتوق المرء فيها إلى "الجمال" ويبحث عنه ويراه في كل مكان - كما العاشق المرأة التي شغف بها - فإن مكنتنا علامة حقيقية واحدة - القليل الذي نتيبّه من امرأة نراها من بعيد أو من الخلف - من إسقاط "الجمال" أمامنا فإننا نتخيّل أننا عرفناها ويخفق فؤادنا ونحث الخطى ونظل دوماً على نصف اليقين بأنها كانت هي بشرط أن تكون المرأة قد توارت، ولسنا ندرك خطأنا إلا إذا استطعنا اللحاق بها

كان يستهويني بآية حال، بتزايد أوجاعي، أن أبالغ في قيمة أبسط صنوف المتعة بسبب المصاعب نفسها التي تعترضني لبلوغها. فالنساء الأنيقات، كنت أحسب أنني الممحهن في كل مكان لأنني ما كنت أقربهن في أي مكان، لمزيد من التعب إن كنت على الشاطئ ومزيد من الخجل إن كنت في الكازنيو أو في دكان حلواني. مع أنني كنت أود أن أعلم، إن أُنبي أن أموت عمّا قريب، كيف كانت عن كتب وفي الواقع أجمل فتيات يمكن أن تجود بهنّ الحياة، وإن كان من سيفيد من هذا الجواد آخر غيري أو حتى لا أحد (فلم أكن أتبيّن أن رغبة في الامتلاك تكمن في أساس فضولي) ولعلني كنت أجرؤ على الدخول إلى قاعة الرقص لو كان "سان لو" معي. وإذا كنت وحيداً مكثت أمام الفندق الكبير فحسب أنتظر لحظة الذهاب للقاء جدتي حينما أبصرت خمس بنات أوسناً، ولا يزلن بعد في آخر السدّ تقريباً يضطربن كبقعة غريبة، يتقدّمن مختلفات بالمظهر والمسلك عن سائر الأشخاص الذين تعودنا رؤيتهم في "بالبيك" بقدر ما يمكن أن تبدو زمرة من طيور النورس جاءت من حيث لا ندرى وتقوم بخطى معدودة على الشاطئ - تلحق المتخلفات بالأخريات مرفرفة بأجنحتها - بنزهة يبدو هدفها غامضاً بالنسبة إلى المستحمين الذين تبدو وكأنها لا تراهم بقدر ما هو محدد تحديداً واضحاً بالنسبة إلى عقلها كطيور.

كانت إحدى هاتيك المجهولات تدفع بيدها دراجتها أمامها، وتمسك اثنتان أخريان بعضي للعبة الغولف، وكان لباسهن يختلف عن لباس فتيات "بالبيك" الأخريات اللواتي كانت من بينهن من يمارسن الألعاب الرياضية دون أن يتخلدن لذلك لباساً خاصاً.

كانت الساعة تلك التي تجيء فيها السيّدات والرجال في كل يوم للقيام بجولتهم على السد فيتعرضون لئيران المنظار الذي لا رحمة فيه والذي كانت تتيبّه عليهم، وكأنهم ينقلون عبياً تصر على معاينة أدق تفاصيله، زوجة رئيس المحكمة الأول، وهي تجلس باعتزاز أمام كشك الموسيقى وسط صف المقاعد الرهيب هذا الذي سيبدرون بأنفسهم عمّا قليل إلى الجلوس فيه بعدما تحولوا من ممثلين إلى نقّاد ليحكموا بدورهم على الذين سيمرون أمامهم. كان جميع هؤلاء الناس الذين يسرون بمحاذاة السد وهم يترجحون بشدة كما لو كان سطح سفينة (إذ لا يقلحون في رفع ساق دون أن يحركوا في الوقت نفسه ذراعهم ويحولوا عيونهم ويعيدوا توازن أكتافهم ويعوضوا بحركة ترجيح في الجانب المقابل الحركة التي قاموا بها في الجانب الآخر، ودون أن تحتقن وجوههم)

ويتظاهرون بأنهم لا يرون الأشخاص الذين يسرون إلى جانبهم أو يجيئون في الاتجاه المعاكس ليوموا أنهم لا يهتمون بهم ولكنهم يختلسون النظر إليهم كي لا يقع لهم أن يصدموهم، كانوا على العكس يتعشرون بهم ويصطلمون بهم لأنهم كانوا بالمقابل موضع الاهتمام الخفي نفسه من جانبهم، الاهتمام الذي يخفونه تحت ستار التعالي الظاهر نفسه، لأن حب الجمهور - والخشية منه بالتالي - هو أحد أقوى الدوافع لدى الناس جميعهم إما لأنهم يحاولون إعجاب غيرهم أو إدهاشهم وإما ليعربوا لهم عن احتقارهم: فالاعتزال لدى المتوحد، حتى الكلي منه الذي يدوم إلى آخر الحياة إنما ينطلق في الغالب من حب غير متزن للجمهور يتغلب على أي شعور آخر إلى حد أنه يفضل، إذ لا يستطيع أن يفوز لدى خروجه بإعجاب البوابة والمارة والحوذي المتوقف، أن لا يروه البتة وأن يتخلى لذلك عن كل نشاط يستوجب الخروج خارجاً.

أما البنيات اللواتي شاهدتهن فقد كن يمضين قدماً، وسط جميع هؤلاء الناس الذين كان بعضهم يلاحقون فكرة ولكنهم يفصحون حركتها إذ ذاك بتقطع في الحركات وشروء في النظرات يقل الانسجام فيهما كما في ترنج جيرانهم المشبوه، يمضين دون تردد ولا توتر إذ ينفذن بالضبط الحركات التي ييغنها وقد اكتسب كل من أعضائهن استقلالاً تاماً بالنسبة إلى سواء واحتفظ الجزء الأكبر من أجسامهن بهذا الجمود الذي يبهنا إلى حد بعيد لدى راقصات الفالس المجيدات ولم يعدن بعيدات عني، وكن كلهن على جمال مع أن لكل واحدة قسما تختلف تمام الاختلاف عن الأخريات ولكنني كنت أبصرهن، والحق يقال، منذ لحظات قليلة ودون أن أجرؤ على التحديق إليهن، الأمر الذي لم يتسن لي بعد معه إضفاء شخصية خاصة على آية منهن. وفيما عدا واحدة كان أنفها المستقيم وبشرتها السمراء يجعلانها مختلفة وسط الأخريات كمثل ملك مجوس عربي القسما في لوحة من لوحات عصر النهضة، كنت لا أعرفهن إلا بزواج من العيون القاسية العنيدة الضاحكة لهن، وبوجنتين اتخلد فيهما اللون الوردى تلك الصبغة الحاسية التي تحمل إليك صورة زهر الجيرانيوم حتى تلك الملامح لم أكن بعد قد ألصقت أياً منها على نحو لا ينقصم على واحدة من الفتيات دون أخرى. وحينما كنت أرى (حسب الترتيب الذي تنتشر فيه هذه المجموعة الفتية وهي رائعة لأنها تتجاور فيها أكثر المظاهر اختلافاً وأن جميع الألوان فيها تتقارب ولكنها غامضة على غرار موسيقى لا أفصح في فصل جمالها والتعرف إليها لحظة تمر أمامي، وكنت ميمزتها ثم نسيته في الحال) شكلاً بيضوياً أبيض وعينين سوداوين وعينين خضراوين تبرز أمامي لم أكن أدري أهي نفسها التي سبق أن فتننتني منذ قليل ولا أستطيع ردّها إلى هذه الفتاة التي تسنى لي أن أفضلها عن الأخريات وأتعرّفها. كان ذلك الغياب داخل عيني للحدود التي ساقمها عما قليل بينها ينشر عبر جماعتهم موجاً متناسقاً وانبعثاً مستمراً لجمال مبهم جماعي متنقل.

ربما لم تكن المصادفة وحدها في الحياة هي التي اختارت جميع هاتيك الصديقات على هذا القدر من الجمال كيما تجمع بينهن. فربما كانت تلك الفتيات (اللواتي كان مظهرهن كافياً للكشف عن طبيعتهم الجريئة الطائشة القاسية) بالغات الحساسة إزاء كل ما يثير السخرية وإزاء كل قباحة، وعاجزات عن التأثر بما كان من قبيل الفكر أو الأخلاق، فالفين أنفسهن بين أترابهن يحسن

إحساساً طبيعياً بالنفور إزاء جميع اللواتي كان الخجل والارتباك وغياب اللباقة وما سوف يسمّيه "بالنمط الثقيل" يفضح لديهن ميولا فكرية أو عاطفية فاستبعدنهنّ، فيما ارتبطن على العكس بعلاقة صداقة مع أخريات يدفعهن إليهن مزيج من الجمال والرشاقة والأناقة الجسمية، وهي الصيغة الوحيدة التي يستطعن فيها تمثّل الصراحة التي تتسم بها طبيعة فاتنة والوعد بساعات طيبة يقضينها سوياً. وربما كانت الطبقة التي ينتمين إليها والتي ما كنت لأستطيع تحديدها قد بلغت في تطورها ذلك الحدّ الذي ينتج فيه وسط اجتماعي شبيه بمدارس النحت المتناسقة الخصبة التي لا تبحث بعد عن الملامح المعدّبة، على نحو طبيعي وبغزارة، أجساماً جميلة بسيقان جميلة وخصوص جميلة ووجوه تنضج عافية وراحة بمظهر رشيق مكرر، وذلك إمّا بفضل الإثراء وتوافر أوقات الفراغ، وإما بفضل العادات الرياضية الجديدة التي انتشرت حتى في بعض الأوساط الشعبيّة ورياضة بدنية لم تنضف بعد إليها رياضة الفكر. أفلم تكن نماذج من الجمال البشري تتسم بالنبل والهدوء تلك التي كنت أراها أمام البحر وكأنّها تماثيل تقف في وجه الشمس على أحد شواطئ اليونان؟

كنّ يديّن، وكأنّما حكمن من داخل سربهن الذي كان يتقدّم بمحاذاة السد كمنذب مضبيء أن الجمهور المحيط بهنّ تولفه كائنات من جنس آخر وما كان حتى عذابه ليوقظ في نفوسهن شعوراً بالتضامن، كأنهن لا يرينه ويجبرن الأشخاص المتوقفين على الابتعاد على نحو ما يفعلون لدى مرور آلة أفلتت ولا ينتظر منها أن تتجنب المشاة ويكتفين على الأكثر، إن ولىّ رجل عجوز لا يرتضين وجوده ويرفضن ملاسته، إن ولىّ بحركات مرتعدة أو خائفة ولكنها متسعة ومضحكة، بأن يتبادلن النظرات ويضحكن. وما كنّ يديّن إزاء ما لم يكن من جماعتهن أي تظاهر بازدرائه إذ كان ازدراؤه الصادق كافياً. على أنّهنّ ما كنّ يستطعن رؤية حاجز دون التلهي باحتيازه بالاستعداد للوثوب من فوقه أو بالقفز والقدمان مضمومتان، فقد كنّ يزخرن بل يفضن من ذلك الشباب الذي يحس المرء بكبير الحاجة إلى إنفاقه إلى حدّ أنه لا يدع البتّة، حتى حينما يكون نهب الحزن أو الأوجاع، وينساق في ذلك خلف ضرورات السن أكثر منه خلف مزاجه اليوميّ، لا يدع فرصة للقفز أو الترحلق تمرّ به دون أن ينصرف إليها بملء وعيه فيقطع سيره البطيء ويملؤه - كما يفعل "شوبان" بالجملة الأكثر كآبة - بانعطافات رشيقة تمتزج فيها النزوة العابرة بالبراعة. كانت امرأة صاحب مصرف عجوز قد أجلسّت زوجها، بعدما ترددت بين اتجاهات مختلفة، على مقعد قبالة السدّ يقيه كشك الموسيقيين الريح والشمس. وكانت قد غادرته منذ قليل، إذ رآته مرتاحاً في جلسته، لتذهب وتشتري له صحيفة تقرؤها له فيما بعد وتروّج عنه، وهي فترات غياب قصيرة كانت تتركه وحيداً في أنثائها ولا تتجاوز بها البتّة حد الدقائق الخمس، الأمر الذي يبدو له طويلاً جداً، ولكنها كانت تكرر مرات كافية ليختلّ إلى الزوج العجوز الذي تحيطه بعنايتها وتحجبها عنه في آن واحد أنه لا يزال قادراً على العيش كسائر الناس ولا حاجة له البتّة بالرعاية. وكانت منصة الموسيقيين تولف فوقه مقفراً طبيعياً ومغرياً أخذت الكبرى في المجموعة الصغيرة تعدو عليه دون تردد وقفزت من فوق العجوز المذعور الذي لامست القدمان الرشيقتان قبعته البحرية مما أثار ضحك الفتيات الأخريات ولاسيماً عينين خضراوين في

وجه دمية أبدأ بشأن هذه الفعلة إعجاباً ومرحاً خيل إلي أنني أميز فيهما قليلاً من الحياء، حياء
خجول ومتباه لا يتوافر لدى الأخريات. وقالت إحدى أولئك الفتيات بصوت سكير مخنوق وبلهجة
نصف ساعرة: "ياللعجوز المسكين، إنه يشق عليّ فهو يبدو نصف ميت". ووالين السير بضع خطوات
ثم توقفن لحظة في منتصف الطريق، دون أن يبالين بإيقاف حركة المارة، كومة غير منتظمة مترابطة
غريبة مزققة كأنها اجتماع استشاري لطيور اجتمعت لحظة تجمع الطيران، ثم واصلن نزهن البطيخة
على امتداد السد فوق البحر.

لم تعد ملامحهن الساحرة الآن مختلطة غير مميزة. فقد قسمتهن وجمعتهن (إذ كنت أجهل اسم
كلّ منهن) حول الطويلة القامة التي قفزت من فوق المصرفي العجوز، والقصيرة التي تبرز على الأفق
البحري وجنتاه الممثلتان المورّدتان وعيناها الخضراوان، وذات اللون المسمّر والأنف المستقيم
التي تبدو مختلفة وسط الأخريات، وأخرى ذات وجه في بياض البيضة يرسم فيه أنف صغير قوساً
دائرياً كمنقار كتكوت، وجه من مثل ما يتوافر لبعض صغار الشباب، وأخرى غيرها فارة الطول
ترتدي معطفاً بدون أكمام (كان يضفي عليها مظهراً فقيراً جداً ويكذب إلى حد بعيد تصرفها الأنيق
حتى إن التفسير الذي كان يتبادر إلى الذهن قوامه أن لهذه الفتاة أبوين رفيعي المكانة يضعان
اعتزازهما فوق مستوى المستحامين في "البليك" وأعلى من أناقة الملبس حتى لدى أبنائهما كيما
يستوي في نظرها تماماً أن يدعاهما تنزه فوق حاجز السد في لباس ربما حكم صغار القوم أنه بالغ
التواضع)، وفتاة ذات عينيّن برّاقتين ضاحكتين ووجنتين سميتين كامدتين تحت قبعة سوداء يغور
فيها رأسها وكانت تدفع دراجة وتمايل أردافها بشدة مستخدمة، إذ مررت بالقرب منها، ألفاظاً عامية
شديدة البذاءة (ميزت بينها مع ذلك جملة "عاش حياته" المشوومة) تقولها صائحة بأعلى صوتها إلى
حد أنني تخلّيت عن الافتراض الذي أقمته أساسه فوق معطف رفيقتها وخلصت بالأخرى إلى أن
جميع هؤلاء الفتيات كن ينتمين إلى الجماعات التي تتردد على ملاعب سباق الدراجات ولا بد أنهن
العشيقات الفتيات جداً لمتسابقين الدراجات. ولم يدخل على أية حال في أي من افتراضاتي إمكان
أن يكنّ فاضلات. فقد أدركت للوهلة الأولى - في الطريقة التي يتبادلن بها النظرات وهن
يضحكن، وفي النظرة الملحاحة لذات الوجنتين الكامدتين - أنهن ما كن كذلك. وكانت جدتي على
كل حال قد سهرت دوماً عليّ بنزاهة بالغة الرقة حتى لأعتقد أن مجموع الأشياء التي يجب ألا
نقدم عليها لا يتجزأ وأن فتيات أبدين قصوراً في احترام الشيخوخة إنما تستوفقهن فجأة رقة الضمير
حينما يدور الأمر حول متع أكثر إغراء من القفز فوق ابن ثمانين.

على أن الرد الذي تتبادلن نظراتهن، الآن وقد انفردت كل منهن بخصائصها، نظراتهن التي تتوقد
بالزهر والروح الرفاقية والتي يشرق فيها بين الحين والحين الاهتمام تارة وطوراً اللامبالاة الوقحة التي
تتألق بها كل واحدة حسبما يدور الأمر حول صديقاتها أو المارة، إلى جانب ذلك الشعور بمعرفة
بعضهن بعضاً معرفة حميمة كافية كي يتنزهن على الدوام سوية، إنما كان يقيم بين أجسامهن
المستقلة المنفصلة، فيما يتقدمن على مهل، روابط خفية ولكنها متسقة كظلال واحدة دافئة وجو

واحد يجعل منهم كلا متجانساً في أجزائه بقدر ما كان مختلفاً عن الجمهور الذي ينتشر موكبه
على مهل في وسطه.

وفيما كنت أمر بالقرب من السمراء ذات الوجنتين الضخمتين التي كانت تدفع دراجة، التقت
نظراتي مقدار لحظة بنظراتها الجانبية الساحرة المنبثة من أعماق ذلك العالم اللإنساني الذي كان
يحتبس حياة هذه العشيبة الصغيرة، هذا المجهول العسير المنال الذي لا يمكن بالتأكيد أن تبلغ إليه
فكرة ما كنت عليه أو أن تجد لها فيه مكاناً.

فهل أبصرتني تلك الفتاة التي تعتمر قبعة لحواشي لها تغمرها حتى أقصى جبينها، وهي تنصرف
تماماً إلى ما تقوله رفيقاتها، هل أبصرتني لحظة التقائي البريق الأسود المنبث من عينيها؟ وإن هي
أبصرتني فماذا أمكن أن أمثل في عينيها؟ ومن أعماق أي عالم كانت تميزني؟ لعله كان من الصعب
عليّ أن أقوله بقدر ما يعسر علينا، حينما تبدو لنا عبر المنظار الفلكي بعض الخصائص في كوكب
محاور، أن نخلص منها إلى أن بشراً يقطنونه وأنهم يروننا وأية أفكار أمكن أن توقف فيهم هذه
الرؤية.

ولو ظننا أن ليست عينا مثل تلك الفتاة سوى قرص ملتصق من الميكا لما تقنا إلى معرفة حياتها
وشدها إلينا. ولكننا نحس أن ما يلتصق داخل هذا القرص العاكس ليس ناجماً عن تركيبه المادي
وحده، وأنها الأطياف العاتمة المجهولة لدينا لتلك الأفكار التي يكرّنها هذا الشخص فيما يخص
الناس والأماكن التي يعرفها - كمروج ميادين سباق الخيول ورمل الدروب التي ربما قادني إليها على
متن دراجة عبر الحقول والأحراج، تلك الحورية الصغيرة التي هي أشد فتنة في نظري من حورية
الجنة الفارسية - وأنها كذلك أطياف البيت الذي تزعج الدخول إليه والمشروعات التي تضعها أو التي
توضع من أجلها، وأنها على وجه الخصوص هي، برغباتها وصنوف ودها ونفورها وإرادتها الغامضة
المستمرة. كنت أعلم أنني لن أمتلك راكبة الدراجة الفتية هذه إن لم أمتلك كذلك ما كان دفيناً في
عينيها. وإنما حياتها كلها بالتالي ما كان يبعث الرغبة في نفسي، رغبة مؤلمة لأنني كنت أحسها
متعدرة التحقيق. ولكنها مسكرة لأن ما سبق أن كان يبعث في ذاتي وكفّ فجأة عن أن يكون كل
حياتي، إذ لم يعد سوى جزء صغير من المجال الممتد أمامي الذي كنت أتحرق إلى اجتيازه والذي
تولفه حياة تلك الفتيات، كان يعدني بهذا الامتداد للذات، بهذه المضاعفة الممكنة للذات التي هي
السعادة. وليس من شك أن فقدان أية عادة مشتركة بيننا - وأية فكرة مشتركة أيضاً - كان لابد أن يزيد
من صعوبة أن أصادقهن وأن أحسن في عيونهن. بيد أنه ربما كان بفضل تلك الفوارق والشعور بأنه
لا يدخل في تركيب طبيعة تلك الفتيات وأعمالهن عنصر واحد أعرفه أو أملكه إن أخذ يعقب الشبح
في التعطش - الشبيه بما يحترق به جوف أرض عطشى - إلى حياة سوف تمتصها نفسي بقدر متزايد
النهم وجرعات كبيرة وتشرب تام لانقصان فيه لأنها لم تبلغها منها حتى ذاك قطرة واحدة.

كنت قد أطلت النظر إلى راكبة الدراجة ذات العينين البراقتين إلى حد بدت معه وكأنها لاحظت
الأمر فقالت للكبرى كلمة لم أسمعها ولكنها أضحكت هذه الأخيرة. ولم تكن تلك السمراء،

والحق يقال، من كانت تروقني أكثر ما تروق لأنها كانت بالضبط سمراء وأنه منذ اليوم الذي أبصرت فيه "جيلبيرت" في منحدر "تانسونفيل" الصغير ظلت فتاة صهباء مذهبة البشرة تمثل في نظري المتل الأعلى المتعذر المنال. ولكن أما أحببت "جيلبيرت" نفسها لأنها على وجه الخصوص تبتد لي محاطة بتلك الهالة التي قوامها أنها صديقة "بيرغوت" وأنها تمضي لزيارة الكاتدرائيات معه؟ أنما كنت أستطيع على النحو نفسه أن أغتبط لأنني رأيت تلك السمراء تنظر إلي (الأمر الذي كان يبعث فيّ أمل أن تتزايد سهولة إقامة علاقات معها بادئ الأمر)، ذلك أنها سوف تقدمني لفائدة الشفقة التي قفزت من فوق العجوز، ولقاسية الفؤاد التي قالت: "يشقّ عليّ هذا الشيخ المسكين"، ولجميعهم على التوالي، وكانت تتمتع على أية حال بالجاه الناجم عن أنها الرفيقة التي تلازمهن؟ على أن الافتراض بأنني أستطيع أن أضحي ذات يوم صديق هذه أو تلك من أولئك الفتيات، وأن تلك العيون التي كانت نظراتها تدهشني أحيانا وهي تلهو عليّ دونما علم منها كشعاع شمس على صفحة جدار يمكنها في يوم بسميما عجائبي أن تدع فكرة وجودي وبعض المحبة لشخصي نسابان عبر جزيفاتها التي تدق عن الوصف وأنني سأستطيع بدوري اتحاذ مكانتي بينهن وفي الموكب الذي ينشره بمحاذاة البحر، - كان ذلك الافتراض يبدو لي وكأنه يحتبس تناقضا لا حلّ له كما لو ظننت من الممكن، وأنا أقف متفرجا أمام إفريز "اتيكي" أو لوحة جدارية تمثل موكبا أن أتخذ مكانا بين المطرقات الإلهيات وقد ملكهنّ حبي.

فهل كانت سعادة التعرف بتلك الفتيات إذن ضرباً من المُحال؟

لعلها بالتأكيد ما كانت أول ما أتخلّى عنه من هذا القليل، فما كان عليّ إلا أن أتذكر العديد من المجهولات اللواتي حملتني العربة التي تبتعد بأقصى سرعة إلى هجرهنّ إلى الأبد حتى في "البليك" حتى السرور الذي تشيعه المجموعة الصغيرة في نفسي، وهي رفيعة المظهر كأنما تؤلفها عذراوات هيلينيات. إنما كان ينجم عن أنّها تتسم بشيء من هروب عابرات السبيل. وإن سرعة زوال الأشخاص الذين لا نعرفهم، والذين يضطروننا إلى الإقلاع من الحياة المعتادة حيث تكشف الساء اللواتي نتردد عليهن عن عيوبهنّ في نهاية المطاف، إنما تضعنا في حالة المطاردة تلك التي لاشيء يكبح فيها من بعد جماع الخيال. فإما جردناها من متعنا فإنما يعني ذلك ردّ تلك المتع إلى محض ذاتها أي إلى لاشيء. وربما فتنتني هؤلاء الفتيات أقل لو تم عرضهنّ لدى إحدى أولئك القوادات اللواتي بدا جليا على كل حال أنني لا أحتقرهنّ وعُزلنّ عن العنصر الذي كان يوليهنّ الكثير من الألوان والغموض. فلابدّ للخيال، وقد أيقظه الشك في إمكان بلوغ غرضه، أن يبدع هدفا يحجب الآخر عنا ويحول، إذ يحلّ محلّ لذّة الحواسّ فكرة الولوج في حياة معيّنة، دون أن نتعرّف إلى تلك اللذّة وأن نحسّ مذاقها الحقيقي ونقلصها إلى مداها. لابدّ أن يحلّ بيننا وبين السمكة التي رأيناها مرّة تُقدّم على مائدة لبدأ أنها لا تساوي آلاف الحيل وصنوف الموارد اللازمة لناخذها، لابدّ أن يحلّ، في عشيات الصيد، اضطراب الماء الذي يبرز على صفحته، دون أن نعلم تمام العلم ما نحن فاعلون به، ماملس من اللحم وغام من الشكل في انسياب زرقاء شفافة رجرجاة.

لقد أفادت تلك الفتيات كذلك من هذا التبدل في النسب الاجتماعية الذي يميز حياة حنّامات البحر. ذلك أن جميع الامتيازات التي نستطيع بها ونعظم في وسطنا المعتاد تضحي لامرئية هناك، بل هي زالت في الواقع، وفي مقابل ذلك لا يتقدم الأشخاص الذين نفترض لديهم مثل تلك الامتيازات على غير وجه حقّ إلا ويضخمهم امتداد مستعار، امتداد كان يزيد من سهولة أن تتخذ مجهولات، وفي ذلك النهار أولئك الفتيات، أهمية عظيمة في عيني ويجعل من المستحيل عليّ أن أطلعهم على ما يمكن أن أكون عليه من أهمية.

ولكن جاء لصالح نزعة المجموعة الصغيرة أن لم تكن سوى فقرة من هروب عابرات سبيل لا ينقطع، هروب ألقني على الدوام، فقد رُدّ ذاك الهروب هنا إلى حركة بطيئة حتى لتقارب الجمود. فأن تبدّو الوجوه بالضبط في طور قليل السرعة إلى هذا الحدّ، الوجوه التي لا يحملها إحصار بل هي هادئة واضحة، أن تبدو جميلة بعد في عيني فإنما كان ذلك يحول دون أن أعتقد، مثلما فعلت كثيراً حين كانت تحملني عربة السيدة "دوفيلباريزيس"، أن بعض التفاصيل، من مثل بشرة مبقعة وعيب في فتحات الأنف ونظرة تافهة وابتسامة كثرة وقوام قبيح، ربما حلّت عن قرب أكثر، وإن اتفق لي أن أتوقّف لحظة، ربما حلّت في وجه المرأة وجسمها محلّ تلك التي كنت دونما شك تخيلتها، فقد كانت تكفيني رشاقة في القوام ولون نديّ ألمحه كيما أضيف إليهما في الحال عن حسن قصد كشفاً رائعة ونظرة ساحرة كنت أحمل على الدوام في خاطري ذكراها أو فكرتها السابقة، إذ أن تلك التحليلات السريعة لشخص نبصره لماماً إنما تعرّضنا على هذا النحو للأخطاء نفسها التي توقّعنا فيها تلك القراءات المفرطة السرعة التي نُحلّ فيها، انطلاقاً من مقطع واحد ودون أن نفسح لأنفسنا مجال تعرّف المقاطع الأخرى، محلّ اللفظة المكتوبة أخرى تختلف عنها أشدّ الاختلاف وتزوّدنا بها ذاكرتنا. ولم يكن بالإمكان أن تسير الأمور الآن على هذا النحو. فقد نظرت ملياً إلى وجوههنّ، ورأيت كلاً من تلك الوجوه، لا في جميع صوره الجانيّة، وفيما ندر مواجهة، ولكن وفق مظهرين أو ثلاثة فيها من الاختلاف ما يكفي كي أستطيع القيام إما بالتصحيح وإما بالثبّت وإقامة البرهان على مختلف افتراضات الخطوط والألوان التي تقدّمها النظرة الأولى جزافاً، وكي أثبّت أنه لا يزال فيها، من خلال التعابير المتعاقبة، شيء مادي لا يتحول. وكان يمكنني لذلك أن أقول في نفسي قول اليقين إنه لم يتفق لي قطّ لافي باريس ولا في "بالبيك" وفي أفضل افتراضات ما كان يمكن أن تكون عليه عابرات السبيل اللواتي استوقفن نظراتي، حتى إن تيسّر لي البقاء للتحديث معهنّ، من خلف في نفسي ظهورهنّ ثم اختفاؤهنّ دون أن أعرفهنّ أسفاً أكبر مما قد تخلف هؤلاء ومن الهسي أن مودّتهنّ يمكن أن تجنّبي بهذا القدر من النشوة. فلم يقع لي أن رأيت لا بين الممثلات ولا بين الفلاحات أو الأنسات نزيلات المدارس الدينيّة الداخلية ما كان بمثل ذلك الجمال وقد طبع بهذا القدر من المجهول وكان ثميناً على نحو لا يقدر ويحتمل أنه متعذّر المنال إلى هذا الحدّ. لقد كنّ أنموذجاً رائعاً وفي أحسن حالة للسعادة المجهولة والممكنة في الحياة إلى حدّ أنني كنت يائساً، وكاد يك ون ذلك لأسباب فكرية، أن لا أستطيع القيام ضمن شروط فريدة لاتدع أي مكان لخطأ محتمل بتجربة ما يقدمه لنا الجمال المشتبهى مما كان زائحاً بالأسرار وما نتعزّى

عن أننا لن نمتلكه في يوم فهي البهائم المذلة - مثلما رفض أن يفعل "سوان" في السابق قبل "أوديت" - لدى نساء لم نشههن من قبل، إننا نموت دون أن نكون عرفنا في يوم ما كانت عليه تلك اللذة الأخرى. وما من شك أنَّهُ يكن أن لا نكون في الواقع لذّة مجهولة وأن يضمحل سرّها عن كُتب وألا تكون سوى إسقاط لهُ ريمحضى سراب. ولكنني لأستطيع في هذه الحالة إلا أن ألقى التبعة على حتمية قانون في الطبيعة - قانون إن ينطبق على هذه الفتيات ينطبق على سائر الفتيات - لأعلى رداءة الموضوع. فقد كان اللطيف كنت أصطفيه من بينها جميعاً متبياً بارتياح عالم النبات أنه لا يمكن أن تجتمع لنا أنواع أكثر قدرة من أنواع هذه الأزهار الفتية التي كانت تقطع في هذه اللحظة أمامي خطّ المياه بسياجها المنقوش، كمثل أكمة من ورود "بنسلفانيا" تزدان بها حديقة فوق الجرف وتنحصر بينها كلّ المسألة التي يقصّها مركب بخاري في المحيط وهو بطيء في انسيابه على الخطّ الأفقي الأزرق الذي يتدرج ساق إلى أخرى حتى نستطيع فراشة كسلى تخلفت في أعماق التويج الذي جاوزه جسم السيفينة منذ فترة طويلة، وتستطيع، كيما تطير وهي واثقة أنها ستصل قبل السفينة، انتظار ألا يفصل بين قفلة هذه الأخيرة والبتلة الأولى في الزهرة التي تمخر صوبها سوى جزء صغير لازوردي زاهد

وعدت لأنّه كان عليّ أنه أنه لتأجيل طعام العشاء في "ريفيل" بصحبة "روبير" وأن جدتي كانت تضطرنني قبل الذهاب إلى الإسكندرية في تلك العشيّات مدة ساعة على سريري، وهي قبلولة أمر طبيب "بالبيك" بعد حين أن نعلم طائر بسائر العشيّات الأخرى.

ولم تكن على أيّ حال بحالهم سيبيل أن تعود، إلى مغادرة حاجز السدّ والدخول إلى الفندق عن طريق البهو، يعني من الحلفاء أصيحت الأيام الآن في تمام الصيف، بفضل تسبيق شبيه بما يتم نهار السبت في "كومبريه" من كذا - تنفد قبل الموعد بساعة طويلة إلى حدّ أن الشمس كانت لانزال عالية في كبد السماء - جئنا بعد ما تحمّدت العشاء في الفندق الكبير في "بالبيك" وكأنما تلك ساعة عصرونية. ولذلك كانت الرقعة الواسعة المزججة ذات المزالق تظلّ مفتوحة على سوية السدّ، ولا يقع عليّ إلا تحطّي، أطولتين سنّ خشب فأجدني في قاعة الطعام التي كنت أغادرها في الحال لأستقلّ المصعد.

ولدى مروري أمام المكتبة في السمير باتسامة وغنمت، لا يخالجنني أي اشمئزاز، أخرى علت محيّا، وكانت عنايتي الملهمة: لقد وراثت منذ وجودي في "بالبيك" حقنها فيه وتحويلها شيئاً فشيئاً على غرار أحد مستحضرات التجميل الطبيعى. فقد أضحت قسماته مألوفة لدي ومحملة بمعنى تافه ولكنّه يبيّن كخطّ مقروء. ولم تعد نشبه في شيء تلك الحروف الغريبة التي لاتطاق والتي حملها إليّ وجهه في ذلك اليوم الأول التي أصبحت فيه أمامي شخصاً أصبح الآن منسياً أو إن أنا أفلحت في استذكاره يصعب التعرف إليه من الحسبر مائلته بالشخصية التافهة المهذبة التي لم يكن سوى صورتها الكاريكاتورية القبيحة المستمرة. - ورننت، بعيداً عما انتابني من خجل وكآبة عشيّة وصولي، أنادى عامل المصعد الذي لهم يديلاً صامناً فيما كنت أرتفع إلى جانبه في المصعد وكأنما في

قفص صدري متحرك ينزلق على طول العمود الصاعد، بل كان يردّد قائلاً: "ما عاد ثمة من الناس بمقدار ما كان منذ شهر. سيدوون بالرحيل ففترات النهار تتناقص." كان يقول ما يقول لا لأنه صحيح، بل لأن لديه التزاماً في قسم آخر من الشاطئ أوفر دفناً وودّ لو نرحل جميعنا بأسرع ما يمكن كيما يغلق الفندق أبوابه وينعم ببضعة أيام قبل أن يعود إلى عمله الجديد. ولم تكن عبارتا "يعود" و"الجديد" متناقضتين بآية حال، ذلك أنّ لفظة "يعود" كانت فيما يخص عامل المصعد الصيغة المعتادة لللفظة "يأشر". الأمر الوحيد الذي أدهشني أنه ارتضى أن يقول "عمل" لأنه كان ينتمي إلى هذه البروليتارية الحديثة التي ترغب في أن تمحو آثار نظام الخدم في اللغة. وقد أعلمني بعد لحظة على أيّ حال أنه سوف يحوز في "الوضع" الذي "يعود" إليه "رداء" أجمل و"مرتبة" أفضل. أما لفظنا "بزة الخدمة" و"الأجور" فتبدوان له باليتين وغير لائقتين. ولما كانت المفردات، بتناقض لا يصدق، قد استمرت لدى "أرباب العمل" على الرغم من كل شيء بعد زوال مفهوم اللامساواة فقد كنت أسيء دوماً فهم ما يقوله لي عامل المصعد. فمن ذلك أن الأمر الوحيد الذي كنت أهتم به أن أعلم إن كانت جدتي في الفندق. ولكن عامل المصعد كان يقول لي مستبقاً أسفلي: "لقد خرجت هذه السيدة من شقتكم منذ قليل." وكنت أخدع على الدوام فأظنّ أنها جدتي. لا، هذه السيدة التي هي مستخدمة لديكم فيما أعتقد. "ولما كانت الطاهية لا تدعى مستخدمة في لغة البورجوازيين القديمة التي لا بد زالت فقد كنت أفكر مدى لحظة: "ولكنه على ضلال، فلسنا نملك معملاً ولا مستخدمين." ثم أتذكر فجأة أن اسم المستخدم، شأن إطلاق الشارين بالنسبة إلى نُدل المقاهي، يطلق على الخدام لإرضاء كبريائهم وأن تلك السيدة التي خرجت منذ قليل هي "فرانسواز" (ربما في زيارة إلى المقهى أم هي مضت تراقب خياطة وصيفة السيدة البلجيكية) ولكن ذاك الإرضاء لم يكن بعد كافياً لعامل المصعد فقد كان يطيب له أن يقول وهو يرثي لحال طبقته "لدى العامل" أو "لدى صغير القوم" مستخدماً المفرد نفسه الذي يلجأ إليه "راسين" حينما يقول: "الفقير...". إلا أنني لم أعد أتحدث عادة إلى عامل المصعد لأن حماس اليوم الأول والخجل لديّ كانا قد وليا بعيداً. فهو من كان يظل الآن دون أن توافيه أجوبة في أثناء الرحلة القصيرة التي كان يقطع مسافتها عبر الفندق المحوف على هيئة دمية والذي يتخذ النور في أعماقها نعومة المخمل لا يتناقض شيئاً فشيئاً وترق به أبواب الموزعات أو درجات السلالم الداخلية التي تحيلها إلى تلك الصفرة المذهبة الواهية المفعمة بالأسرار كغروب يقطع فيه "رامبرانت" تارة دعامة نافذة أو ذراع بشر. وفي كل طابق كان ثمة نور ذهبيّ ينعكس على السجادة فيؤذن بغياب الشمس وينبئ عن نافذة المراحيض.

كنت أتساءل إن كانت الفتيات اللواتي رأيتهن منذ قليل يقطن "بالبيك" ومن عساهنّ كنّ. وعندما تتوجه الرغبة على هذا النحو وجهة جماعة بشرية صغيرة تصطفها فكل ما يمكن أن يتعلق بها يضحي باعثاً للانفعال ثم للأحلام. فقد اتفق أن سمعت سيّدة تقول على حاجر السّد: "إنها صديقة الصغيرة سيمونية" بمظهر تدقيق المستكبر الذي يوضح قائلاً: "إنّه الرفيق الذي لا يفارق الصغير لاروشفوكو." وكنت تحسّ في الحال في وجه الشخص الذي ينقل إليه الأمر ميلاً إلى إمعان النظر

في صاحبة الحظّ التي كانت "صديقة الصغيرة سيمونية". وهو بالتأكيد امتياز لا يبدو موفوراً لجميع الناس. ذلك أن الأرستقراطية أمر نسبي. فهناك قرى صغيرة نائية قليلة الغلاء ترى فيها ابن تاجر أثاث بمثابة أمير الأناقة ويسيطر سلطانه على بلاط له وكأنه أحد أمراء "غال" الصغار. غالباً ما حاولت مذ ذاك أن أتذكر كيف تردد في داخلي على الشاطئ اسم "سيمونية" هذا، ولا يزال حينذاك غير واضح في شكله الذي لم أحسن تمييزه وكذلك فيما يخص مدلوله وإشارته إلى هذا الشخص أو ربما ذاك، ويتسم باختصار القول بذلك الغموض وتلك الجدة اللذين يؤثران فينا إلى حد بعيد فيما بعد حينما يكون ذلك الاسم الذي تنحفر حروفه في كل ثانية أكثر فأكثر في نفوسنا من جراء اهتمامنا الذي لا ينقطع قد أضحي (وهو ما لن يتفق لي بشأن الصغيرة "سيمونية" إلا بضع سنوات بعد ذاك) اللفظ الأول الذي نلقاه (إما لحظة استيقاظنا وإما بعد إغماء) حتى قبل فكرة الساعة والمكان الذي نحن فيه، بل ربما قبل كلمة "أنا" كما لو أضحي الشخص الذي يُطلق عليه ذاتنا أكثر من ذاتنا وكما لو كانت فترة الراحة التي تنتهي قبل أية فترة أخرى، كما لو كانت، بعد لحظات من اللاوعي، تلك التي لم نفكر في أثنائها به... ولست أعلم لماذا قلت في نفسي منذ اليوم الأول إن اسم "سيمونية" كان ينبغي أن يكون اسم واحدة من الفتيات. ولم أعد أكف عن التساؤل عن كيفية إمكان التعرف بأسرة "سيمونية"، وذلك على يد أناس تحكم أنهم يفوقونها- الأمر الذي لن يكون عسيراً إن كن مجرد عاهرات بسيطات من صفوف الشعب- حتى لا يمكنها أن تحمل عني فكرة زرية. ذلك أنه لا يمكنك أن تحيط تمام الإحاطة وأن تقوم بامتصاص كامل لمن يزدريك مادمت لم تقهر ذلك الازدراء. وإننا في كل مرة تحتل نفوسنا فيها صورة نساء مختلفات إلى هذا الحد وما لم يقض عليها النسيان أو منافسة صور أخرى، لانعم بالراحة إلا إذا حولنا تلك الغريبات إلى ما يشبهنا، إذ تتمتع نفسنا بهذا الصدد بنوع رد الفعل والنشاط نفسه الذي يميز جسمنا المادي الذي لا يمكن أن يتغاضى عن دخول جسم غريب إلى باطنه دون أن يعمل في الحال على هضم الدخيل وتمثله. كان لابد أن تكون الصغيرة "سيمونية" أجملهن جميعاً- ومن ربما أمكن أن تصبح، فيما بدا لي، عشيقتي لأنها الوحيدة التي بدت مرتين أو ثلاثاً على التوالي، وهي تلتفت نصف التفاتة، وكأنها شعرت بنظرتي المثبتة عليها. وسألت عامل المصعد إن لم يكن يعرف في "البليك" جماعة من آل "سيمونية" فأجاب إذ لا يود أن يقول إنه يحجل شيئاً بأنه يبدو له أنه سمع من يتحدث بهذا الاسم. ولما وصلت إلى الطابق الأخير، رجوته أن يأمر من يأتيني بآخر لوائح الغرباء.

وخرجت من المصعد ولكني عوضاً عن أن أمضي إلى غرفتي سرت قدماً في الممر لأن الخادم المشرف على الطابق، مع أنه يخشى التيارات الهوائية، كان قد فتح في الزاوية القصوى النافذة التي تطل لاعلى البحر بل على الرابية والوادي ولكنها لا تنفس المحال ألبتة لرؤيتهما لأن زجاجها وهو من النوع العاتم كان مغلقاً في أكثر الأحيان. ووقفت أمامها وقفة قصيرة وما ينبغي لأقدم صنف التكريم للمنظر الذي كانت تكشف عنه في هذه المرة ما بعد الرابية التي يستند إليها الفندق والتي لاتضم سوى بيت أقيم على مسافة صغيرة منه، إلا أن خط المنظور وضياء المساء كانا يضيفان عليه، فيما يحافظان على حجمه، نقوشاً بديعة وبريقاً مخملياً وكأنما على واحد من تلك الأبنية

الهندسية المنمنمة، من مثل معبد صغير أو كنيسة صغيرة من المصوغات والمينا يستخدمان بمثابة مذابر ولا يعرضان إلا في ما ندر لتكريم المؤمنين. على أن لحظة التعبد تلك جاوزت حدها لأن الخادم الذي كان يمسك مجموعة مفاتيح بيد ويحييني بالأخرى، وهو يلمس قلنسوة القندلفت التي يعتمرها ولكن دون أن يرفعها من جراء هواء المساء النقي والبارد أقبل يغلق مصراعي النافذة كما يفعل بمصراعي مذبح فحجب عن عيني المتعبتين البناء المصغر والزخيرة الذهبية.

ودخلت غرفتي، كانت اللوحة التي أجدها في نافذتها تتبدل كلما تقدم بنا الفصل. كان الجو بادئ الأمر مشرقاً ولا يضحى قاتماً إلا حينما يتردى الطقس. وكان البحر حينئذ، داخل الزجاج الأخضر الضارب إلى الزرقة الذي ينفخه بأمواجه المستديرة، كان البحر الذي رصّ بين مضلعات نافذتي الحديدية كأنما داخل رصاص زجاج ملون يعثر على طول حافة الشاطئ الصخرية العميقة خطوط مثلثات مريشة بريد جامد مخطط بنعومة ريشة أو زغب خطهما قلم "بيتزا نيلو" وتم تثبيتهما بواسطة هذه المينا البيضاء القشدية المظهر التي لا تتحول وتمثل طبقة من الثلج في زجاجات "غاليه".

وبعد قليل تقلصت ساعات النهار، وحينما كنت أدخل غرفتي كانت السماء البنفسجية، وكأنما وسمها شكل الشمس القاسي الهندسي العابر الساطع (الشبيه بصورة تمثل علامة عجائية أو ظهوراً روحياً)، تنحني صوب البحر على محور الأفق كمثل لوحة دينية فوق المذبح الرئيسي فيما تبدو أقسام الغروب المختلفة، في واجهات مكبات الأكاجو الواطية التي تغطي الجدران على امتدادها، وكنت أردّها بالفكر إلى اللوحة الرائعة التي اقتطعت منها، تبدو كذلك المشاهد المختلفة التي نفّذها فيما مضى أحد أرباب الفن القدامى لجمعية دينية على مذبح تعرض مصاريحه في قاعة متحف الواحد إلى جانب الآخر وقد فصل بعضها عن بعض فيردها خيال الزائر وحده إلى مكانها في أسفل صدر المذبح.

وحينما كنت أصعد إلى غرفتي بعد بضعة أسابيع كانت الشمس قد غابت.. وكان شريط من سماء حمراء فوق البحر متراس حاد المقطع كمرق اللحم الهلامي المجدّد، وشبيه بذلك الذي كنت أشاهده في "كومبريه" فوق "الحلجلة" لدى عودتي من النزهة واستعدادي للنزول إلى المطبخ قبل العشاء، ثم كانت السماء بعد قليل، فوق البحر الذي أضحى بارداً أزرق كالسّمك المدعو بالبورّي، وقد اكتسبت اللون الوردي نفسه الذي لواحدة من سمك السلمون الذي ربّما قدّم لنا عما قليل في "ريفيل"، كانت هذه السماء وذاك الشريط يذكّيان المتعة التي ساصبها من جراء ارتداء حلتي الرسمية بغية الخروج للعشاء. وفوق البحر على مقربة من الشاطئ تحاول أدخنة أن يرتفع بعضها فوق بعضها الآخر طبقات تتزايد اتساعاً، أدخنة يسود السخام ولكنها صقيلة متماسكة كالعقيق بادية الثقل حتى لتبدو أعلاها، وهي تميل فوق الجذع المشوه وحتى خارج مركز ثقل تلك التي حملتها حتى الآن، وكأنها توشك أن تجتذب هذا البناء الذي بلغ الآن منتصف السماء وتدفع به في البحر. إن رؤية سفينة تبتعد كمسافر في الليل كانت تخلف في هذا الانطباع نفسه الذي تمّ لي

في عربة القطار بأنني أتححر من ضرورات النوم ومن الاحتجاز داخل غرفة. ولم أكن أحس على أية حال أنني في الغرفة التي كنت فيها بما أنني أزمع مغادرتها بعد ساعة لأستقل العربة. وارتيمت على سريري. كانت صور البحر تحيط بي من كل جانب كما لو كنت على سرير أحد المراكب التي كنت أبصرها بالقرب مني والتي ربما دهش المرء أن يراها تتحرك ببطء في الظلام كطيور تمّ عاتمة ساكنة ولكنها لاتنام.

ولم تكن في الغالب إلا مجرد صور. فقد كنت أنسى أن إقفار الشاطئ الكئيب يتعاضد خلف ألوانها، الشاطئ الذي تحول فيه ربح المساء الحائرة التي أحسست بها لدى وصولي إلى "باليك" بقلق عظيم. ولم أعد على أية حال، حتى في غرفتي، وأنا أنصرف تماماً إلى الفتيات اللواتي رأيتهن يخطرون أمامي، في حالة نفسية تتسم بما يكفي من الهدوء والتجرد كيما أخرج بانطباعات جمالية عميقة حقاً. كان انتظار العشاء في "ريفيل" يزيد مزاجي طيشاً فيما يعجز فكري عن أن يضيف عمقاً خلف لون الأشياء إذ كان يسكن في ذلك الحين سطح جسمي الذي سأبادر إلى كسائه كيما أحاول الظهور بأبهج مظهر ممكن أمام عيون النساء اللواتي سيحلّون إليّ في المطعم المشع بالأنوار. ولو لم تنطلق من تحت نافذتي طيور الخطف والسنونو في طيران عذب لايعرف الكلل انطلاقة نافورة مائية، انطلاقة ألعاب نارية حية تجمع الفسحات التي تفصل بين سهامها العالية بالانطلاقة البيضاء الثابتة على هيئة أنلام أفقية طويلة، لولا هذه المعجزة الساحرة المتمثلة في هذه الظاهرة الطبيعية المحلية التي كانت تربط المناظر الممتدة أمام عيني بالواقع لأمكنني الظن بأنها محض انتقاء يتحدد كل يوم بين لوحات تعرض جزافاً في المكان الذي أقيم فيه ودون أن تربطها به علاقة لزوم. فمرة عرض لرواسم يابانية ترى فيها، إلى جانب قصاصة رقيقة لشمس حمراء مستديرة استدارة القمر، سحابة صفراء تبدو وكأنها بحيرة ترسم عليها سيوف سوداء على غرار أشجار ضفتها، وخطاً بلون وردي رقيق لم يتفق لي أن رأيته ثانية منذ أول علبة تلوين يتنفخ على هيئة نهر تبدو المراكب على ضفتيه وكأنها تنتظر على اليابسة أن يبادروا إلى جرّها لوضعها في الماء. وكنت أقول في نفسي بالنظرة المتعالية السئمة الطائشة التي ينظر بها هاوٍ أو تنظر امرأة أثناء طواف يتم بين زيارتين اجتماعيتين في أرجاء معرض فني: "عجيب، غروب الشمس هذا أمر مختلف، بيد أنه سبق لي أن رأيت بمثل علوبة هذا الأخير وبمقدار ما يبعث فيك من دهشة." وكنت أصيب متعة أوفر في الأمسيات التي تبدو فيها سفينة امتصها الأفق وميّعها فتبدو من لونه ذاته، كما هي الحال في إحدى اللوحات الانطباعية، إلى حد أنها تبدو من المادة نفسها كذلك وكأنما اقتطع جسمها وحبالها، التي دقت فيها وشقت، في زرقة السماء الضبابية. وأحياناً يملأ المحيط كامل نافذتي تقريباً وقد زاد في ارتفاعها شريط من السماء يحيط به من الأعلى فقط خط لونه من زرقة البحر نفسها فأظنه لايزال هو البحر بسبب ذلك ولايدن بلونه المختلف إلا لفعل الضوء. وفي يوم آخر كان البحر يرسم في القسم السفلي فحسب من النافذة فيما يمتلئ كامل القسم المتبقي بالكثير من الغيوم التي يتراص بعضها فوق بعض شرائط أفقية حتى لتبدو ألواح الزجاج من جراء تعمّد الفنان أو اختصاص لديه وكأنها تقدم "دراسة سحب" بينما تعرض الواجهات المختلفة في المكتبة سحباً مشابهة ولكنها في جزء آخر من

الأفق وقد اختلفت لوناً من جراء الضياء فتبدو وكأنما تقدم ما يشبه التكرار العزيز على قلوب بعض أساتذة الفن المعاصرين لمظهر واحد لا يتبدل يباشرونه دوماً في ساعات مختلفة ولكننا يمكن أن نشاهد جميعها في الآن نفسه وفي الحجرة نفسها بفضل ثبات الفن وقد نفذت بالباستيل ووضعت تحت الزجاج. وأحياناً ينضاف بتائق بديع إلى صفحة السمع والبحر المتماثلين في لونهما الرمادي شيء من اللون الوردي فيما تبدو فراشة أغفت في أسفل النافذة وكأنها تخط بجناتها في أسفل هذا "التراوج الرمادي الوردي" القريب من نهج أعمال "وستلر" التوقيع المفضل لدى الأستاذ "شيلسيا"، ثم يزول حتى اللون الوردي ولا يظل شيء أنظر إليه. فكنت أنهض لحظة وقبل أن أستلقي ثانية كنت أسدل الستائر الكبيرة وكنت أبصر من سريري خط الضوء الذي يمش فوقها فتأخذ العتمة ويدق شيئاً فشيئاً. ولكنني كنت أفسح للساعة التي تعودت فيها الجلوس إلى المائدة أن تموت هكذا في أعلى الستائر دون أن أغتمّ ودون أن أبدي لها أسفاً لأنني أعلم أن هذا النهار من نوع يغاير الأنهر الأخرى وهو أكثر امتداداً كمثّل النهار القطبي الذي يقطعه الليل دقائق معدودات فقط. كنت أعلم أن أنوار مطعم "ريفيل" الساطعة تنهياً للخروج من حادرة هذا الغسق بتحول بديع. فأقول في نفسي: "حان الوقت"، وأتمطّي فوق السرير وأنهض وأفرغ من أمور نظائفي. كنت ألقى لذة في هذه اللحظات اللامحدية التي خفت من كل عبء مادي والتي كنت ألقا فيها، فيما الآخرون يتناولون طعام العشاء في الأسفل. إلى استخدام القوى المتراكمة لديّ في سكوت هذا النهار لمجرد تنشيف جسمي وارتداء لباسي الرسمي وعقد ربطة عنقي والقيام بجميع هذه الحركات التي كانت توجهها مذاك المتعة المرتقبة في لقاء ثان لهذه المرأة التي سبق أن استرعت انتباهي آخر مرة في "ريفيل" والتي بدا أنها تنظر إليّ ولعلها ما غادرت المائدة حيناً إلا بأمل أن ألقها بها. وإنما كنت أغتبط بأن أضيف إلى نفسي كل هذه المغريات لأنصرف بكامل شخصي ونشاطي لحياة جديدة حرة لاهم فيها، أدمع فيها صنوف حيرتي بهدوء "سان لو" وأنتقي من بين أصناف التاريخ الطبيعي وواردات البلدان جميعها تلك التي ربما أغرت نهمي أو خيالي بما تؤلف الأطباق غير المألوفة التي أوصى عليها صديقي في الحال.

وحلت في نهاية المطاف الأيام التي لم أعد أستطيع فيها العودة من السد عبر قاعة الطعام، فلم يعد زجاج نوافذها مفتوحاً إذ الليل قد حل في الخارج وأسراب الفقراء والفضوليين الذين اجتذبهم وهج الأنوار التي لا يستطيعون بلوغها تتدلى على جوانب الخلية الزجاجية المتألّلة المألوسة عناقيد سوداء تقسو عليها الرياح الشمالية.

ودق الباب. فإذا هو "إيميه" الذي أصرّ أن يحمل إليّ بنفسه لوائح الغرائب الأخيرة.

واهتم "إيميه" قبل ذهابه بأن يقول لي إن "دريفوس" مذنب وألف مذنب. وقال لي: "سوف تتوافر معرفة كل شيء لا في هذا العام، بل في العام المقبل، ومن قال لي ذلك سيد على علاقة وثيقة جدا بالأركان العامة." وسألته إن هم لن يقرروا كشف كل شيء في الحال قبل نهاية العام. فأردف "إيميه" يقول: "لقد وضع سيكارت"، وهو يمثل المشهد بالإيماء ويهز رأسه وسبابته مثلما فعل عميله يريد

بذلك أن يقول: ينبغي ألا نكون متطلبين. "لن يتم ذلك في هذا العام يا "إيميه"، يقول وهو يربت على كفتي. فالأمر غير ممكن. أما في الفصح فلي! وضرب "إيميه" بلطف على كفتي وهو يقول لي: "تري، إنني أريك بالضبط كيف فعل". إما لأن ألفة أحد كبار القوم أرضت غروره وإما لأستطيع على نحو أفضل تقدير قيمة الحجة والأسباب التي تدعونا للأمل بصورة صحيحة تماماً.

وأصبت برعشة طفيفة في القلب حينما شاهدت في الصفحة الأولى من لائحة الغرباء الكلمات التالية: "سيمونيه وعائلته". فقد كنت أحمل في صدري أحلاماً قديمة يعود تاريخها إلى طفولتي وكان يزودني فيها بكامل الحنان الذي يعمر قلبي ولكنه، فيما يحس به، لا يتميز عن تلك الأحلام، كائن يختلف عني ما أمكن الاختلاف. أما هذا الكائن فقد قمت بصنعه مرة أخرى مستخدماً في سبيل ذلك اسم "سيمونيه" وذكرى التناسق الذي كان سائداً بين الأجسام الفنية التي رأيتها تنتشر فوق الشاطئ في موكب رياضيّ خليق بالفن القديم وبـ "جوتو". لم أكن أدري من كانت من بين تلك الفتيات الآسنة "سيمونيه"، إن اتفق أن تدعى واحدة منهن بهذا الاسم، ولكني أعلم أن الآسنة "سيمونيه" تحبني وأنا سوف أحاول التعرف بها بفضل "سان لو". إلا أنه لسوء الطالع لم يحصل على تمديد لإجازته إلا بناء على هذا الشرط وكان ملزماً بالعودة كل يوم إلى "دونسير". على أنني ظننت أنه يمكنني الاعتماد من أجل حمله على الإخلال بواجباته العسكرية، حتى على ما كان أكثر من محبته لي، على الفضول نفسه الذي يميز عالم الطبيعة البشرية والذي كثيراً ما داخلني - حتى دون أن أكون رأيت الشخص الذي يجري فيه الحديث ولمجرد سماعي من يقول إن ثمة أمينة صندوق حلوة لدى بائع فواكه - في التعرف بصنف جديد من الجمال النسائي. ولكني ما كنت على حق، بشأن ذلك الفضول. حينما أملت أن أثيرة في صدر "سان لو" بالتحديث إليه عن فتاتي، فقد شله لفترة طويلة

لديه الحب الذي به لتلك الممثلة التي كان عشيقها. ولعله كان يقمعه لوأحسن أقل ما يحسن به بسبب ضرب من الاعتقاد الخرافي بأن إخلاص عشيقته يمكن أن يرتبط بإخلاصه هو. وإنما انطلقنا للعشاء في "ريفيل" دون أن يعدني بالاهتمام بفتياتي اهتماماً جاداً. كانت الشمس، حينما كنا نصل إلى هناك في الفترات الأولى، قد غابت منذ قليل، ولكننا لا يزال ثمة نور. وفي حديقة المطعم التي لم تشعل أنوارها بعد كان الحر يتلاشى ويترسب وكأنما في قعر وعاء تبدو هلامية الهواء الشافة العاتمة على امتداد جوانبه شديدة التماسك إلى درجة تبدو بها شجيرة ورد كبيرة ملتصقة بالجدار المظلم الذي تمدد على صفحته عروقاً وردية وكأنما هي من نوع الشجر الذي يشاهد في صميم حجر عقيق يمان. وبعد قليل لم نعد نغادر العربية إلا والليل قد حلّ ويغلب حتى ألا ننتقل من "باليك" إلا ساعتها إن كان الطقس ردياً وأجلنا وقت الإسراع بأمل هدأة جوية. إلا أنني كنت في تلك الأيام أسمع هبوب الريح دون اكتساب إذ أعلم أنه لا يعني الرجوع عن مقاصدي والاحتباس داخل غرفة، وأعلم أن المصاييح التي لا تحصى في قاعة الطعام الواسعة في المطعم الذي سندخله على صوت موسيقى الفجر سوف تقهر بيسر الظلمة والبرد إذ تلصق بهما مكايها الذهبية الواسعة، فكنت أصعد متهللاً إلى جانب "سان لو" في العربية التي تنتظرنا تحت وابل المطر.

كانت أقوال "بيرغوت" التي يقول فيها إنه مقتنع، على الرغم من مزاعمي، بأنني مهياً لأتذوق على وجه الخصوص متع العقل قد أعادت لي بشأن ما يمكن أن أفعله فيما بعد أملاً يخييه كل يوم السأم الذي أعانيه من الجلوس إلى طاولة لمباشرة دراسة نقدية أو رواية . فكنت أقول في نفسي: "ربما لم تكن المتعة التي أصبناها في تسطير صفحة جميلة المقياس الصادق لقيمتها، ربما لم تكن سوى حالة ثانوية تنضاف إليها في الغالب ولكن غيابها لا يمكن أن يقيم حجة مسبقة ضدها . وربما تم تأليف بعض الروائع فيما يتشاءب كاتبها . " وكانت جدتي تهذي شكوكي بقولها إنني سوف أعمل بجهد وفرح إن كنت في صحة جيدة . ولما رأى طبيبي من الحكمة أن ينهني إلى المخاطر الكبيرة التي يمكن أن تعرضني لها حالتي الصحية ورسم لي جميع صنوف الحيلة الواجب اتباعها لأتجنب وقوع حادث فقد أخذت أخضع جميع المتع للهدف الذي حكمت أنه أشد خطراً منها بما لا يقاس وقوامه أن أكتسب قوى كافية لأتمكن من تحقيق العمل الفني الذي ربما حملته في داخلي وأخضعت نفسي مذ أضحيته في "البليك" لرقابة دقيقة ومستمرة ؛ فما من أحد يستطيع حملي على لمس فنجان القهوة الذي ربما حرمني من نوم الليل الضروري كي لا يصيبني التعب في الغد . ولكن حينما كنا نصل إلى "ريفيل" كانت تتلاشى في الحال - بسبب الإثارة الناجمة عن متعة جديدة وإذ أجدني في هذا القطاع المختلف الذي يزجنا فيه الظرف الاستثنائي بعدما قطع النخيط الذي نسجناه بطول أناة منذ العديد من الأيام والذي كان يقودنا باتجاه التعقل -، وكأنما لن يكون غداً ألبنة من بعد ولاغايات سامية يجب تحقيقها، تلك الآلية الدقيقة لقواعد صحية حكيمة التي كانت تعمل للحفاظ عليها . وفيما كان أحد الخدم يطلب مني معطفي كان "سان لو" يقول لي:

- "ألن تصاب ببرد ؟ لعله من الأفضل لك أن تحتفظ به فليس الطقس حاراً جداً" .

فأجيب: "لا، لا"، ولعلي ما كنت أحسن بالبرد، ولكنني لم أعد أعرف في جميع الأحوال خشية أن يصيبني المرض وضرورة ألا أموت وأهمية أن أعمل . فكنت أسلم معطفي ؛ وندخل قاعة المطعم على أنغام موسيقى حربية يعزفها الفجريون، وتقدم بين صفوف الموائد المثقلة بالطعام وكأنما في درب ممد إلى المجد، وإذ نحسّ بالحماسة المتلهلة التي يبعثها في جسمنا إيقاع الأوركسترا التي كانت تغدق علينا تكريماً عسكرياً واستقبال المنتصرين هذا الذي لم نكن أهلاً له كنا نخفيها نحلف هيئة رزينة حافية ومشية ثقلاً الإعياء كي لا نحكي تلك المتأنقات في المقاهي الغنائية اللواتي يجثن أداء مقطوعة خلاعية على أنغام لحن حربي فيدخلن المسرح جاريات بالمظهر الحربي الذي لقائد منتصر .

كنت منذ تلك اللحظة رجلاً جديداً لم يعد حفيد جدتي ولن يذكرها إلا لدى الخروج، ولكنّه الشقيق المؤقت للخدم الذين يزعمون أن يقدموا لنا الطعام .

أما كمية البيرة . والشمبانيا من باب أولى، التي ماوددت في "البليك" بلوغها في مدى أسبوع في حين كان يمثل طعم هذه المشروبات في هدوء وعبي ووضوح رؤيته لذة واضحة القيمة ولكننا يضحي بها بيسر . أما كمية البيرة فقد كنت أبتلعها في مدى ساعة واحدة وأضيف إليها شيئاً من

"البورتو" وأنا أكثر شروداً من أن أستطيع تذوقه . وكنت أعطي عازف الكمان الذي فرغ من عزفه الليرتين الذهبيتين اللتين وفرتهما منذ شهر من أجل القيام بشراء مالم أكن أتذكره . وكان بعض الخدم الذين يقومون بتقديم الطعام يهربون، وقد أفلتوا بين الطاولات، بأقصى السرعة وعلى راحتهم المبسوطة قصعة يبدو منها أنّ هدف هذا النوع من السباق هو ألا يدعوها تهوي . وكانت منفعات الشوكولاته تصل بالفعل إلى المكان المقرر دون أن تنقلب وتظلّ حبّات البطاطا المحضّرة بالطريقة الإنكليزية على الرغم من العذو الذي لابدّ زعزعها مرتبة شأنها في البداية حول حمل "بويك" . واسترعى انتباهي أحد هؤلاء الخدم، وكان بالغ الطول قد اكتسى رأسه بشعر أسود رائع وخضّب وجهه بلون يذكر ببعض أصناف الطيور النادرة أكثر منه بصنف البشر . وكان إذ يجري دون انقطاع، وربّ قائل دون هدف، من أقصى القاعة إلى أقصاها إنّما يذكر بواحدة من تلك البغاوات التي تملأ الأقفاس الكبيرة في حدائق الحيوان بالوانها المتوهجة واضطرابها اللامدرك وبعد قليل انتظم المشهد، في ناظري على الأقلّ، على نحو أكثر نبلاً وسكينة. فقد أخذ كل ذلك النشاط المدوّج يستقرّ بانسجام هادئ. كنت أنظر إلى الطاولات المستديرة التي تملأ المطعم لجمهرتها التي لا تحصى كأنما هي كواكب على نحو ما تمثّل هذه الأخيرة في لوحات الأمس المرمرية . لقد كان ثمة على كلّ حال قوّة جذب لا تقاوم بين مختلف الكواكب، فقد كان المتعشّون على كل طاولة لا ينظرون إلّا إلى الطاولات التي لا يجلسون إليها، باستثناء صاحب دعوة غنيّ ههنا أفلح في اصطحاب كاتب مشهور فكان يجهد في أن يستخلص منه بعض مزايا الطاولة الدوارة أقوالاً تافهة تدهش بها السيّدات. ولم يكن الاتساق بين هذه الطاولات الكواكبية ليحول دون الدوران المستمرّ لجماعة الخدم العديدة وكانوا، لأنهم وقوف بدل أن يكونوا جلوساً شأن المتعشّين، يتحرّكون في فلك علويّ . لا ريب أن أحدهم كان يسرع لحمل مقلّات وتبديل خمره وإضافة أقداح . ولكن طوافهم المستمر ما بين الطاولات المستديرة كان يستخلص في النهاية على الرغم من تلك الأسباب قانون سيره المدوّج والمنظّم. وخلف كتلة من الأزهار تجلس أمينتنا صندوق بشعّتان انصرفتا إلى حسابات لا تنتهي وتبدوان كساحرتين تهتمان بطريق الحسابات الفلكية بتوقع التقلّبات التي يمكن أن تحدث هذه القبة السماوية المصمّمة وفق علوم العصر الوسيط. وكنت أرني قليلاً لحال جميع المتعشّين لأنني أحس أن الطاولات المستديرة لم تكن كواكب في نظرهم لأنهم لم يجرؤوا في الأشياء تقطيعاً يريحنا من مظهرها المعتاد ويسمح لنا بإدراك وجوه التشابه. كانوا يظنون أنهم يتناولون عشاءهم مع هذا الشخص أوذاك وأن الطعام سيكلّف هذا المقدار تقريباً وأنهم سيعيدون الكرة في الغد. وكانوا يبدون وكأنهم لا يحسّون البتّة بانتشار مركب خدم صغار يحملون على شكل تطواف خبزاً في سلال إذ لم يكن لديهم في تلك اللحظة على الأرجح شغل ملح. كان بعضهم، ولا يزالون في مستقبل العمر وقد أرهقهم الصفعات التي يكيلها لهم رؤساء الخدم لدى مرورهم يحلقون بنظرات كئيبة إلى حلم بعيد ولا يعزّيهم عن ذلك إلا تعرّف أحد ربائن فندق "باليك" بهم. وكانوا فيما مضى مستخدمين فيه، فيتوجه بالحديث إليهم ويقول لهم شخصياً أن يرفعوا الشمبانزا التي لم تكن صالحة للشرب، الأمر الذي كان يملوهم زهواً.

كنت أسمع هدير أعصابي التي نعمت بارتياح مستقل عن الأمور الخارجية التي يمكن أن توليها إياه والتي كان أقل تحرّك أسببه لجسمي وانتباهي كافياً ليولد في الإحساس به مثلما يولد ضغط طفيف الشعور باللون في عين مطبقة. كنت احتسيت حتى ذلك الكثير من شراب الـ "بورتو"، ولكن كنت أطلب المزيد فذلك من جرّاء تأثير الارتياح الذي حملته الأقداح الجديدة. وكنت أدع للموسيقى أن تقود بنفسها متعتي على كل نوبة موسيقية فكانت تقبل حينئذ لتحط عليها طائعة. ولكن كان مطعم "ريفييل"، شأن تلك الصناعات الكيميائية التي تنتج فيها بكميات كبيرة عناصر لا نلقاها في الطبيعة إلا عرضاً ونادراً جدّاً، لمن كان يجمع في آن واحد نساء تناديني في أعماقهن احتمالات السعادة أكثر ممّا قد يتوافر لي مصادفة في الزهات أو الرحلات على مدى عام، فإن هذه الموسيقى التي كنّا نسمعها - وهي من صنوف التأليف الموسيقي لرقصات فالس ومسرحيات غنائية ألمانية وأغنيات من المقاهي الموسيقية وكلّها جديد عليّ - كانت تشكل بدورها كنّاها مكان ملذات مجنّحة يضاف فوق الآخر وهو أبعد على النشوة منه. ذلك أن كلّ فكرة موسيقية، وهي فريدة على نحوها تكون امرأة، لم تكن تخصّ محظياً معيّناً، كما لعلّ هذه الأخيرة كانت تفعل، بسرّ اللذة التي تحتويها. فقد كانت تعرضه عليّ وتنظر إليّ من طرف العين وتقبل عليّ في مشية تتسم بالغنج أو اللذالة وتدنو منّي وتداعيني كما لو أضحت فجأة أشدّ فتنة أو أكثر اقتداراً أو أوفر غنى. وكنت أجد في تلك الألحان شيئاً من القسوة؛ ذلك لأن كل إحساس معرّج بالجمال وكلّ بريق للعقل كانا مجهولين لديها، فاللذة الجسدية وحدها قائمة بالنسبة إليها. وإنّها الجحيم الأشدّ قسوة والأكثر افتقاراً إلى المنافذ بالنسبة إلى الغير، إن التعيس الذي تقدّم له هذه اللذة - هذه اللذة التي تذوّقها المرأة المحبوبة مع آخر - وكأنّها الشيء الوحيد الكائن في العالم بالنسبة إلى التي تملؤه بكليته. ولكني فيما كانت أردّد بصوت خافت نوبات هذا اللحن وأبادله قبلته، كانت اللذة الخاصة به التي يذيقني إياها تضحي عزيزة عليّ إلى حدّ أنني ربّما هجرت ذوّي للحاق بالفكرة الموسيقية في الدنيا الفريدة التي تنشئها في عالم اللامرئي خطوطاً تفيض بالنعومة الحاملة تارة وطوراً بالحيوية. ومع أنّ لذة كتلك ليست من النوع الذي يضفي قيمة أكبر على الشخص الذي تنضاف إليه لأنّه وحده من يحسّ بها، ومع أنّه، في كلّ مرّة سؤنا أثناء حياتنا في عيني امرأة لمحتنا، كانت تجهل إن كنّا نملك في تلك اللحظة أو لا نملك ذلك الهناء الداخلي والذاتي الذي ما كان بالتالي ليبدّل شيئاً في الحكم الذي أصدرته بحقنا، فقد كنت أحسّني أوفر قوّة وأكاد لا أقاوم كان يبدولي أنّ حبي لم يعد أمراً مزعجاً يمكن الهزء منه بل هو يتمتع بالضبط بالجمال المؤثر والإغراء اللذين لتلك الموسيقى التي تشبه بدورها وسطاً مؤنساً التقينا فيه أنا ومن كنت أحبّها وقد أضحيننا فجأة حميمين.

لم تكن ترتاد ذلك المطعم نساء فاسقات فحسب بل كذلك جماعة من دنيا الأناقة الرفيعة كانوا يجيئون لتناول العصرية في نحو الساعة الخامسة أو يقيمون فيه ولائم عشاء. كانت العصريونيات تتمّ في رواق طويل مزجج ضيق على شكل ممرّ يمتدّ انطلاقاً من الردهة إلى قاعة الطعام على أحد جوانب الحديقة التي لا يفصله عنها (باستثناء بعض أعمدة من الحجر) سوى الزجاج الذي يتمّ فتحه ههنا أو هنالك. الأمر الذي كان ينجم عنه، علاوة على التيارات الهوائية الكثيرة، التماعات للشمس

مفاجئة متقطعة وضوء مبهر غير ثابت يكاد يحول دون تمييز "المتعصرنات"، فيخيل لذلك إليك، حينما يكن هناك وقد تكوّن طاولتين فطاولتين على امتداد القطارة الضيقة، وإذا كنّ يتلألأان في كلّ حركة يقمن بها لاحتساء الشاي أو تبادل التحية ما بينهما، أن ثمة خزّاناً أوقفه كلّس فيها الصبياد الأسماك المتألقة التي اصطادها والتي تتلألأ أمامك في بريقها المتبدّل. ونصفها خارج الماء تغمره أشعة الشمس.

وبعد بضع ساعات وفي أثناء العشاء الذي كان يُقدّم بالطبخ في قاعة الطعام كانت تضاء الأنوار مع أنه لا يزال ثمة ضوء في الخارج، الأمر الذي كنت معه تبصر أمامك في الحديقة بالقرب من أكشاك تستمدّ نورها من ضوء الشفق وتبدو كأنّها أطيايف المساء الشاحبة، ممرات معرّشة تخترق خضرتها القاتمة آخر أشعة الشمس وتبدو من القاعة المضاءة بالمصابيح والتي يقدّم فيها العشاء، تبدو من خلف الزجاج - لا كما لعله كان يقال عن السيّدات اللواتي كنّ يتناولن العصرية في أواخر بعد الظهر على امتداد الممرّ الضارب إلى الزرقة والذهبيّ في شبكة متألّلة نديانة - بل كأنّها نباتات حوض مائي عملاق شاحب الخضرة أنواره خارقة الطبيعة. وتتمّ مغادرة الموالد. ولئن ظلّ المدعوون أثناء الطعام، فيما ينفقون الوقت في النظر إلى مدعوي الطاولات المجاورة والتعرّف بهم واستسمائهم، يشدّهم إلى مائدتهم الخاصة ترابط تام، فإن قوّة الجذب التي تحملهم على الدوران في فلك مضيفهم ذاك المساء كانت تفقد من قوتها حينما كانوا يتجهون بغية احتساء القهوة إلى ذاك الممرّ نفسه الذي استخدم لتناول العصرية. وغالباً ما كان يتفق أن تتخلّى هذه المائدة أو تلك أثناء السير عن جسيم أو أكثر من جسيماتها كانت تنفصل، بعدما تعرّضت بشدّة لحاذية المائدة التي تنافسها، كانت تنفصل عنها إلى حين ويحلّ محلّها فيها رجال أو سيّدات جاؤوا يحيون أصدقاء لهم قبل أن يلحقوا بالركب وهم يقولون: "ينبغي أن أسرع للحاق بالسيد . الذي أنا ضيفه هذا المساء. " لكأنّما كان ثمة على مدى لحظات باقتان منفصلتان تبادلنا بعض أزهارهما. ثم كان يخلو الممرّ نفسه. وكثيراً ما لا يضاء هذا الممشى الطويل، إذ كان لا يزال هنالك نور حتى بعد العشاء، فيبدو إذ تكتنفه الأشجار التي تتدلّى في الخارج من الجانب الآخر للزجاج وكأنّه ممرّ في حديقة مشجرة حالكة السواد. وأحياناً تتأخّر فيه مدعوة في الظلام. وقد لاحظت فيه ذات مساء كنت أجتازه للخروج أميرة "لوكسمبور" الجميلة تجلس وسط جماعة لا أعرفها. وكشفت عن رأسي دون أن أتوقّف، فعرفتني وأحنت رأسها وهي تبسم. وانبعثت من تلك الحركة نفسها وارتفعت رخيمة فوق تلك التحية بكثير بعض الكلمات الموجهة إليّ ولا بدّ أنّها كانت تمنيات لليلة سعيدة طويلة بعض الشيء لا لكي أتوقّف بل لتتمّ بها التحية فحسب ولتجعل منها تحية منطوقة. ولكنّ الكلمات ظلّت غير مميّزة وتواتر الصوت الذي سمعته وحده عذباً وبدا لي موسيقياً حتى لكأنّ عندليباً أخذ يغني بين أغصان الأشجار المحلوكة.

وإن اتّفق أن قرّر "سان لو"، لاختتام الأمسية مع زمرة أصدقاء له سبق أن التقيناها، أن يتوجّه إلى كازينو أحد الشواطئ المجاورة وإن وضعني وحدي، وهو ذاهب معهم، في عربة فقد كنت أوصي الحوذي أن يذهب بأقصى سرعة كي يتناقص طول اللحظات التي سأقضيها دون أن يتوافر لي عون

من يعفيني من أن أقدم بنفسني لحساسيتي - بالرجوع إلى الوراء وبالخروج من السلبية التي وقعت فيها وكأنما داخل مسننات - تلك التبدلات التي كنت ألقاها من الآخرين منذ وصولي إلى "ريفيل". وما كان الاصطدام المحتمل بعربة تحيء في الاتجاه المعاكس على تلك الدروب التي لا تتسع إلا لواحدة والتي يخيم عليها ليل دامس، ولا قلة ثبات أرض الجرف التي غالباً ما تنزلق، ولا قرب سفحه الذي يطلّ عامودياً على البحر، ما كان شيء من ذلك كلّه يلقي في الجهد الصغير اللازم ليحمل إلى عقلي تمثّل الخطر والخشية منه. فكما أنه ليست الرغبة في أن يصبح المرء مشهوراً، بل تعودّه أن يكون مجدداً هو الذي يمكنه من إنتاج عمل فني، كذلك ليس تهلّل اللحظة الحاضرة بل أفكار الماضي الحكيمة هي التي تساعدنا على الحفاظ على المستقبل. ولئن سبق لي أن ألقيت بعيداً عنيّ لدى وصولي إلى "ريفيل" عكازات التفكير ومراقبة الذات التي تعين ضعفتنا على السير في الطريق القويمة فأجدني فريسة ضرب من اللاتوافق النفسي فقد كان الكحول الذي توترت به أعصابي توتراً خارقاً قد أضفى على الدقائق الراهنة ميزة وسحراً لم ينتج عنهما أن أصبحت أهلاً أكثر من ذي قبل للدفاع عنها ولا حتى أكثر تصميماً على ذلك، فاذ تدفعني حماستي إلى تفضيلها ألف مرّة على باقي حياتي فقد كانت تعزلها عنها فإذا أنا سجين الحاضر شأن الأبطال، شأن السكيرين. ولم يعد ماضي، وقد احتجب مؤقتاً، يُسقط أمامي ظلّ ذاته هذا الذي ندعوه مستقبلاً. ولما وضعت هدف حياتي لا في تحقيق أحلام ذاك الماضي بل في سعادة الدقيقة الحاضرة فإنني لم أعد أبصر أبعد منها، إلى حدّ أنني كنت، وبتناقض ما كان إلا ظاهراً، في اللحظة التي أشعر فيها بمتعة خارقة، وأحسّ فيها أنّ حياتي يمكن أن تكون سعيدة وينبغي أن تكتسب في نظري قيمة أكبر، كنت في تلك اللحظة أدعها دون تردّد، بعدما تخلصت من الهموم التي استطاعت أن توحى بها إليّ حتى ذاك، رهينة حادث طارئ. وإنما كنت باختصار القول أركز بين دفتي أمسية واحدة اللامبالاة التي عمّت فيما يخص باقي الناس كامل حياتهم حيث يواجهون يومياً ودوناً ضرورة مخاطر رحلة في البحر أو نزله بالطائرة أو السيارة في حين ينتظرونهم في المنزل الشخص الذي سيحطّم موتهم أو في حين لا يزال يرتبط بهشاشة دماغهم الكتاب الذي يؤلّف ظهوره القريب العلة الوحيدة لوجودهم. والأمر واحد لوجاء أحدهم إلى مطعم "ريفيل"، في الأمسيات التي نمكث فيها هناك، وقد عقد العزم على قتلي، فإذا كنت لا أبصر من بعد إلا في مكان بعيد لا حقيقة لوجوده جدّتي وحياتي الآتية والكتب التي ينبغي لي تأليفها، وإذا كنت ألتصق كثيراً برائحة المرأة التي تجلس إلى المائدة المجاورة وبتأدّب رؤساء الخدم وشكل الفالس التي تعزف، والتصق بالإحساس الراهن لا امتداد لي أبعد من حدوده ولا هدف سوى ألا أفصل عنه، فإنني كنت أموت مشدوداً إليه وأسمح بأن أدبج دون أن أبدي مقاومة أو حركة كنهلة خدّرتها رائحة الدخان ولا تهتمّ من بعد بالحفاظ على مؤونة جهودها المتراكمة وعلى نحل خليتها.

وينبغي أن أقول علاوة على ذلك إن قلة الشأن التي كانت تهوي فيها أكثر الأمور خطراً في مقابل ثورة حواسّي العنيفة كانت تحتوي في النهاية حتى الآنسة "سيمونية" وصديقاتها. فقد أخذت عملية التعرّف بهنّ تبدو لي الآن سهلة ولكنها لا تثير اهتمامي لأنّ إحساسي الراهن وحده، بفضل

قوته الخارقة والغبطة التي تبعثها أقلّ تبدلاته وحتى محض استمراره، هو الذي كان يرتدي أهمية في نظري. وما كان كامل ما تبقى، الأهل والعمل والمتع وفتيات "البليك"، يساوي أكثر من فقاعة رغوة وسط ريح قوية لا تدع لها أن تستقرّ، وما كان له وجود إلا بالنسبة إلى هذه القوة الباطنة: فالسكر يحقق على مدى ساعات قليلة المثالية الذاتية والظواهرية المحضة، فلا شيء من بعد إلا ظواهر ولا وجود له إلا تبعاً لذاتنا السامية. وليس يعني ذلك على أيّ حال ألاّ يستطيع حبّ حقيقي، إن اتفق لنا شيء منه، الاستمرار في حالة كمثلك. ولكننا نحسنّ تماماً، شأننا في وسط جديد، أن ضغوطاً مجهولة قد غيرت أبعاد هذا الشعور إلى حدّ أننا لا نستطيع احتسابه مشابهاً. إننا نلقي هذا الحبّ نفسه ولكنه في موقع آخر ولا يضغط من بعد علينا وقد ارتضى الإحساس الذي يوليه إياه الحاضر والذي يكفيني لأننا لانهتم بما لم يكن راهناً. ولكنّ المعامل الذي يغيّر القيم على هذا النحو لا يغيّرها للأسف إلا في ساعة السكر هذه. فالأشخاص الذين فقدوا أهميتهم والذين كنّا ننفخ عليهم مثلما نفعل على فقاعات صابون سوف يستعيدون في الغد كثافتهم، و ينبغي أن نحاول من جديد العودة إلى مباشرة الأعمال التي لم تكن تعني شيئاً بل الأدهى من ذلك أن حساب الغد هذا، وهو حساب الأمس ذاته، الذي سنواجه حتماً مشكلاته، هو الحساب الذي يحكمنا حتى في أثناء تلك الساعات إلا في نظرنا نحن. فإن كانت بالقرب منا امرأة فاضلة أو تناصبنا العداء فأنما يبدو لنا هذا الأمر العسير جدّاً نهار البارحة - وقوامه أن نفلح في إعجابها - إنما يبدو لنا الآن مليون مرّة أكثر يسراً دون أن يكون به شيء من ذلك لأننا لم نتغيّر إلا في أعيننا نحن، إلا في أعيننا الباطنة. و تبدو بدورها مستاءة في اللحظة نفسها أن سمحنا لأنفسنا ببعض التمادي بقدر استيائنا في الغد لأننا نقدنا الخادم مئة فرنك وللسبب نفسه الذي أجّل فقط بالنسبة إلينا، يعني غياب السكر.

ما كنت أعرف آية من النساء اللواتي كنّ في "ريفيل" واللواتي كنّ يدين لي، إذ يؤلّف جزءاً من سكري مثلما تؤلّف الانعكاسات جزءاً من المرأة، ألف مرّة أكثر اشتهاً من الأنسة "سيمونية" التي يتناقص وجودها شيئاً فشيئاً. و نظرت إليّ شقراء فتية وحيدة كتيبة المظهر من تحت قبعة القش التي شكّت بزهو الحقول، نظرت إليّ لحظة بهيئة حالمة و بدت لي محببة. ثمّ جاء بدور أخرى، فثالثة، وأخيراً سمراء مثالقة المحيّا، وكلهن معروفات تقريباً، إن لم يكن لديّ فلدي "سان لو".

ذلك أنّه قبل أن يتعرّف بعشيقته الحالية كان قد سلخ فترة طويلة في دنيا المحجون المغلقة إلى حدّ أنّه ما من امرأة تقريباً من بين جميع النساء اللواتي كنّ يتعشّين في تلك الأمسيات في "ريفيل"، واللواتي كان العديد منهنّ هناك بالتصادف إذ جئن إليّ شاطئ البحر، بعضهنّ للقاء عشيقهنّ والأخريات لمحاولة العثور على عشيق، إلا ويعرفها لأنه قضى معها - هو أو واحد من أصدقائه - ليلة على الأقلّ. وما كان يلقي التحية عليهنّ إن كنّ بصحبة رجل ويتظاهرن بدورهن بأنهنّ لا يعرفنه فيما ينظرن إليه أكثر من سواه لأنّ اللامبالاة التي اشتهر بها إزاء آية امرأة لم تكن على خشبة مسرحه كانت توليه في نظر هؤلاء النسوة مهابة خاصة. و تهمس إحداهنّ قائلة: "إنه العزيز "سان لو"، ويبدو أنّه لا يزال على حبّ هذه الغيبة. إنها حبّ الكبير. ما أجمل الفتى! إنني ألقاه ساحراً! وآية أناقة! هنالك من النساء من يتوافرن لهنّ حظّ رائع. إنه لا غبار عليه في كلّ مجال. لقد عرفته تمام المعرفة

حينما كنت مع "دورليان". لقد كانا متلازمين كالظل. وأية حياة ماجنة في ذلك الحين! ولكن الأمور تبدلت ولا يدع لها أن تستمر. آه! يمكنها أن تقول إنها كبيرة الحظ. وإنني أتساءل ما عساه يجد فيها. لا بد أنه مع ذلك شديد الغباء. إن لها قدمين شبيهين بالمراكب وشاربين من النمط الأميركي وثياباً داخلية وسخة! وأظن أن عاملة صغيرة لا ترتضي سراويلها. هيّا انظري قليلاً آية عينين له فقد يلقي المرء نفسه في النار في سبيل رجل كهذا. اخرسي، ويحك، لقد عرفني، إنه يضحك. آه! لقد كان يعرفني تمام المعرفة. ما عليك إلا أن تحدّثه عني. "كنت أفاجيء بينهم وبينه نظرة، ووددت لو يقدمني لهاتيك النساء و أن يمكنني أن أطلب منهنّ موعداً و أن يمننّ به عليّ حتى لو لم أستطع القبول. فبدون ذاك ربّما ظلّ وجههنّ في ذاكرتي خلواً من هذا الجزء من ذاته - وكانما احتجب خلف حجاب - هذا الجزء الذي يختلف باختلاف النساء كلهن ولا يسعنا تخيله لدى إحداهنّ إن لم نبصره فيها ولا يظهر إلا في النظرة الموجهة إلينا والتي توافق على رغبتنا وتعدنا بأنها سوف تلبّي. على أن وجههنّ، وإن بدا مقلصاً إلى هذا الحدّ، كان بالنسبة إليّ أكثر بكثير من وجه النساء اللواتي أعلم أنهن فاضلات ولا يبدو لي كوجههنّ في ذاكرتي. خلواً من هذا الجزء من ذاته - وكانما احتجب خلف حجاب -، هذا الجزء الذي يختلف باختلاف النساء كلهن ولا يسعنا تخيله لدى إحداهنّ إن لم نبصره فيها ولا يظهر إلا في النظرة الموجهة إلينا والتي توافق على رغبتنا وتعدنا بأنها سوف تلبّي. على أن وجههنّ، وإن بدا مقلصاً إلى هذا الحدّ، كان بالنسبة إليّ أكثر بكثير من وجه النساء اللواتي أعلم أنهن فاضلات ولا يبدو لي كوجههنّ عاديّاً دون خلقيّة تؤلّفه قطعة واحدة لا كثافة لها. وما من شكّ أنه لم يكن بالنسبة إليّ ما لا بدّ أنه كان بالنسبة إلى "سان لو" الذي كان يتذكّر ويرى، خلف لا مبالاة القسمات الجامدة، وهي شفافة فيما يخصه، إذ تتظاهر بأنها لا تعرفه وخلف سخافة التحيّة نفسها التي ربّما وجّهت كذلك لأيّ سواه، كان يتذكّر ويرى ما بين شعور محلولة وشفقين مهالكين وعينين نصف مطبقتين لوحة كاملة صامتة كتلك التي يغطّيها الرسّامون بلوحة محتشمة ليخدعوا بها غالبية الزوّار. أمّا فيما يخصّني، أنا الذي كان يشعر أن لم ينفذ شيء من كيانه إلى هذه أو تلك من هاتيك النساء ولن يُحمّل فيها علي الدروب المجهولة التي ستسير عليها في أثناء حياتها، فقد ظلّت تلك الوجوه بالتأكيد مغلقة. بيد أنه كان يكفيني مذ ذاك أن أعلم أنها كانت تتفتح حتى تبدو لي ذات قيمة ما كنت لأراها لها لو لم تكن سوى ميداليات جميلة عوضاً عن أن تكون قلائد تختفي خلفها ذكريات حبّ. وأمّا فيما يخصّ "روبير" الذي يكاد لا يطيق المكوث في مكانه حينما يكون جالساً ويخفي خلف ابتسامة رجل البلاط النهم الذي به للتصرّف تصرّف رجل الحرب فقد كنت أتبين، إمّا أحسنت النظر إليه، كم كان لا بدّ لقوّة عظم وجهه المثلث الشكل أن تكون نفسها من شدّة بأس أسلافه و هي أقرب أن تكون لنبال فوّار النشاط منها لمثقف ناعم. ذلك أنّ البناء الجريء وهندسة عصر الإقطاع كانا يبرزان خلف البشرة الناعمة. وكانت رأسه تذكر بتلك الأبراج في قلعة عتيقة ظلّت شرفاتها غير المستخدمة بارزة للعيان ولكنّها تمّ إعدادها من الداخل بمثابة مكتبة.

و كنت أقول في نفسي في عودتي إلى "بالبيك" عن واحدة من هاتيك المجهولات قدّمني لها دون أن أتوقّف لحظة وأكاد مع ذلك لا أتنبه للأمر: "ما أطيبها امرأة! " مثلما يتمّ غناء لازمة. كانت

تملي عليّ تلك الأقوال بالتأكيد حالة عصبية أكثر منها رأي يتسم بالدوام. بيد أنه لا يقلّ عن ذلك صحة أنني لو كنت أحمل ألف فرنك معي ولا يزال هنالك جواهريون في حوانيتهم في تلك الساعة لاشتريت للمجهولة خاتماً. وحينما تنقضي ساعات حياتنا وكأنما على مستويات شديدة الاختلاف فإنه يتفق للمرء أن يقدّر من نفسه أكثر مما ينبغي في سبيل أشخاص مختلفين يبدون لك في الغد عديمي الشأن. ولكنك تحسّ أنك مسؤول عمّا قلته لهم البارحة وتبني الوفاء بوعدك.

ولما كنت أعود في تلك الأمسيات في ساعة متأخرة كنت أسرّ بأن ألقى في غرفتي التي لم تعد تناصيني العداء السرير الذي ظننت في يوم وصولي أنه سوف يستحيل دوماً عليّ أن أرتاح فيه وحيث كانت تبحث أعضائي المرهقة الآن عن السند المعين، فكان الفخذان منيّ والوركين والكفتان، كانت تجهد جميعها على التوالي أن تلتصق كلّ نقطة فيها بالشراشف التي تغطي الفراش كما لو ابتغى تعبى، شأن نحات، أن يسبك قالباً كاملاً لجسم إنساني. ولكني ماكنت أستطيع النوم إذ كنت أحسّ باقتراب الصباح، وقد هجرني الهدوء وهجرني العافية. كان يبدو لي في ضيقي أنني لن أجدّهما بعد في يوم. كان لابدّ لي أن أنام نوماً طويلاً لأنتقيهما. ولكنما ستوقظني على أية حال، وإن أغفيت، الفرقة السمفونية بعد ساعتين. و فجأة يأخذني النوم وأهوي في هذا السبات العميق الذي ينكشف لنا فيه الرجوع إلى الشباب واستعادة السنين الماضية والمشاعر الضائعة والتحرّر من حاجات الجسد وهجرة الأرواح واستذكار الأموات وأوهام الجنون والعودة إلى ممالك الطبيعة الأكثر أوّلية (إذ يقولون إنّنا غالباً ما نبصر حيوانات في الحلم ولكننا يفوتهم أننا فيه على الدوام تقريباً حيوان حرم من هذا العقل الذي يلقي على الأشياء شعاعاً من يقين، ولا تقدّم فيه على العكس لمسرح الحياة سوى رؤية مهزوزة يلاشيها النسيان في كلّ دقيقة إذ تزول الحقيقة السابقة أمام الثانية التي تليها كما يزول عرض بالفانوس السحري أمام آخر يليه حينما يتمّ تبديل الصفيحة الزجاجية) وجميع تلك الأسرار التي نحسب أننا لا نعرفها فيما يتمّ بالحقيقة اطلاعنا عليها كلّ ليلة تقريباً بالإضافة إلى السرّ الآخر العظيم، سرّ الفناء والقيامة. لقد جعلت منيّ الإنارة المتعاقبة النائمة لمناطق أظلمت في ماضيّ، لقد جعلت مني، إذ أضحت أكثر شروداً من جرّاء عمليّة الهضم العسيرة لعشاء "ريفيل"، كائناً لعلّ أقصى سعادته أن يلتقي بـ"لوغراندان" الذي اتفق أن تحدثت إليه في الحلم.

ثمّ إن حياتي نفسها قد حجبتها عنيّ حجياً كلياً مناظر جديدة كذلك التي تقام على حافة خشبة المسرح والتي يقدّم ممثلون أمامها فاصلاً ترفيهياً فيما تتمّ خلفها عمليّات تبديل اللوحات. أمّا المناظر التي كنت أقوم فيها آنذاك بدوري فكانت من نمط الحكايات الشرقيّة وما كنت أعلم فيها شيئاً عن ماضيّ ولا عن نفسي بسبب هذا القرب الشديد لمناظر تفصلني عنهما. وكنت محض شخص يضرب بالعصي وتُنزل به عقوبات مختلفة من جرّاء خطيئة لم أكن أتبيّنها ولكنّ قوامها أنني أكثر من شرب البورتو. وفجأة أستفيق وألاحظ أنني لم أسمع الفرقة السمفونية بفضل نوم طويل. كان بعد الظهر قد حلّ، وقد تأكّدت من ذلك في ساعتني بعد عدّة محاولات لأستوي في فراشي، محاولات غير مجدية بادئ الأمر تقطّعها لحظات يهوي رأسي بها على الوسادة، ولكن من النوع القصير الذي يلي النوم وصنوف الانتشاء الأخرى سواء أكانت الخمرة مصدرها أو نقاهة معيّنة.

و كنت متيقناً على آية حال أن الظهر قد انقضى حتى قبلما أنظر إلى الساعة. لم أكن مساء البارحة سوى كائن مُفرغ فاقده الوزن ولا أستطيع (إذ ينبغي أن يكون المرء قد استلقى ليتمكن أن يجلس، وأن يكون قد أغفى ليتمكن أن يصمت) التوقف عن الحركة أو الكلام و كنت لاقوام لي ولا مركز ثقل وقد اندفعت ويبدو لي أنني ربما استطعت موالاة رحلتي الكئيبة حتى القمر. ولكن لم تبصر عيناي الساعة في أثناء نومي فقد أفلح جسمي في حسابها وقاس الوقت لا على ميناء ساعة مثلت تمثيلاً سطحياً بل بوزن متدرج لجميع قواي المستعادة التي جعلها، شأن ساعة جدارية ضخمة، تنحدر درجة فدرجة من دماغي إلى باقي جسمي حيث أخذت تراكم الآن حتى أعلى ركبتني كامل موارثها الوفيرة. وإن صحَّ أنَّ البحر كان فيما مضى وسطنا الحيوي الذي لا بدَّ أن نغمر فيه دما كيما نستعيد قوائنا، فتلك حال النسيان والعدم الذهني، إذ يبدو المرء حينذاك وكأنه يغيب عن الزمان بضع ساعات. ولكنَّ القوى التي تنضبت في أثناء ذلك الوقت دون أن يتم إنفاقها إنما تقيسه بواسطة كميتها بمثل دقة أنقال الساعة الجدارية أو الكومات المتداخلة في الساعة الرملية. ولست تستطيع من جهة أخرى الإفلات من نوم كهذا على نحو أيسر ممَّا يتم لك في السهر الطويل لشدة ما تنزع الأشياء جميعها إلى الدوام، وإن صحَّ أنَّ بعض المخدرات تحمل عليَّ النوم فإنَّ النوم الطويل مخدر يفوقها قوة ويعسر بعده على المرء أن يفيق. وكمثل بحار يصبر تماماً الرصيف الذي سيربط به قاربه، ولا يزال مع ذلك تهزه الأمواج، فقد كان يخيل إليَّ تماماً أنني أنظر إلى الساعة وأنهض ولكنَّ جسمي يعود فيأخذ النوم في كل لحظة. كان الهبوط عسيراً وقد أهويت مرتين أو ثلاثاً على وسادتي قبل أن أنهض وأبلغ ساعتني وأقارن الوقت الذي تشير إليه مع ذاك الذي تشير إليه وفرة المواد التي لدى ساقبي المنهكين.

وأخيراً كنت أبصر بوضوح: "الساعة الثانية بعد الظهر"، وأقرع الجرس، ولكني أغوص في الحال في نوم كان ينبغي أن يكون هذه المرة أطول بما لا يقاس إن حكمت في الأمر بما لقيت لدى الاستيقاظ من راحة ورؤية لليل لا محدود تجاوزته. وبما أن استيقاظي إنما سببه دخول "فرانسواز" وكان قرعي للجرس سبباً لهذا الدخول، فإن هذه الإغفاءة الجديدة، التي كان يبدو أنها لا بدَّ جاءت أطول من تلك وقد جلبت لي الراحة والنسيان، لم تدم أكثر من نصف دقيقة.

وتفتتح جلدتي باب غرفتي فأطرح عليها ألف سؤال حول أسرة "لوغراندان".

ليس يكفي القول إنني عدت إلى الهدوء والعافية، ذلك أن ما فصلني عنهما البارحة كان أكثر من مجرد مسافة فقد وقع عليَّ طوال الليل أن أكافح ضدَّ تيار معاكس، ثم إنني لم أجد نفسي بالقرب منهما فحسب فقد عادا إلى داخلي. وفي نقاط محدّدة، ولا تزال تؤلمني بعض الشيء داخل رأسي الفارغ الذي سيتحطم ذات يوم فيدع لأفكاري أن تفلت إلى الأبد، كانت هذه الأخيرة قد استعادت مكانها مرة أخرى ولقيت من جديد تلك الحياة التي لم تفلح حتى الآن، وأسفي، في الاستفادة منها.

لقد نجوت مرة أخرى من استحالة النوم وسيل النوبات العصبية والغرق فيها. ولم أعد أخشى كل ما كان يتهددني عشية البارحة حينما كنت أفترق إلى الراحة. لقد انفتحت أمامي حياة جديدة.

ودون أن آتني بحركة واحدة، إذ لا أزال منهّد القوى وإن دبّت فيّ العافية، كنت أتذوّق تعبي منهللاً، فقد سبق له أن عزل وحطّم عظام ساقيّ وذراعيّ وأجسّ أنها جُمعت أمامي وتناهب للتلاحم وأنتي سوف أنهضُها إمّا غنيت فقط شأن مهندس الأمثال.

وذكرت فجأة الشقراء الفتية ذات المظهر الكتيب التي شاهدتها في "ريفييل" والتي نظرت إليّ مقدار لحظة. كثيرات غيرها على مدى الأمسية بكاملها بدين لي ممتعات وقد انتصبت الآن وحدها في أعماق ذكرياتي. كان يخيّل إليّ أنها لاحظتني وكنت أتوقع أن يجيئني أحد الخدم في "ريفييل" لينقل إليّ كلمة منها. لم يكن "سان لو" يعرفها ويعتقد أنها فتاة لا ثقة. ولعله من العسير على المرء أن يراها، أن يراها دون انقطاع. ولكنّي كنت مستعداً لكلّ شيء في سبيل ذلك ولم أعد أفكر إلا بها. والفلسفة غالباً ماتروي عن أفعال حرة وأفعال مسيرة. وربما لم يكن ثمة ما كان مفروضاً علينا كلياً أكثر من ذلك الذي يعمل، بفضل قوّة صاعدة ثمّ ضغطها أثناء العمل، وبعدما يخلد فكريا إلى الراحة، على إعادة ذكرى على هذا النحو، وكانت حتّى ذلك قد مهّدت على سويّة الأخريات من جرّاء قوّة الشرود الضاغطة، ويجعلها تندفع لأنها كانت تحوي على غير علم منا وأكثر من الأخريات سحراً لا ننتبه له إلا بعد انقضاء أربع وعشرين ساعة. وربما لم يكن كذلك من فعل في مثل حرّيته لأنّه لا يزال خطو من العادة، من هذا النوع من الهوس الذهني الذي ييسر في الحبّ الانبعاث الحصريّ لصورة شخص معيّن.

كان ذلك اليوم بالضبط غد اليوم الذي شهدت فيه مرور موكب الفتيات الجميل أمام البحر. وسألت بشأنهن العديد من رواد الفندق الذين كانوا يفدون في كلّ عام تقريباً إلى "بالبيك"، فلم يستطيعوا تزويدي بالمعلومات. وقد أوضحت لي صورة فوتوغرافية السبب فيما بعد. فمن ذا كان يستطيع الآن أن يتعرّف فيهنّ، وما كدن يهجرن، ولكنهن هجرن، سنّاً يتبدّل فيها المرء تماماً، هذه الكتلة غير المتبلورة الرائعة، ولا تزال طفولية بعد، لبنيات كان يمكن أن يراهن المرء، لبضع سنوات خلّت، جالسات على الرمل على شكل دائرة حول خيمة وكأنهنّ مجموعة نجوم يضاء مبهما لا يميّز المرء فيها عينيّن أكثر التماعاً من سواهما ووجهاً ماكرّاً وشعراً أشقرّاً إلا ليضيّعها وسرعان ما تختلط داحل لا وضوح السديم وبياضه.

وما من شكّ أن ما كان يفتقر إلى الوضوح في تلك السنوات التي لا تزال غير بعيدة إنما الجماعة نفسها لا رؤية تلك الجماعة كما كانت حالهن البارحة في أوّل ظهور لهن أمامي. كان هؤلاء الأطفال الحديثو السنّ لا يزالون حينذاك في هذه الدرجة الأولية في التكوّن، تلك التي لم تضع الشخصية فيها خاتمها على كلّ وجه. وكمثل تلك الأجسام البدائية التي قلّ أن يوجد فيها الفرد بحدّ ذاته وإنما تولّفه الكتلة المرجانية أكثر ممّا يؤلّفه كلّ من الفروع المكوّنة للكتلة، كنّ يمكن محتشدات على الدوام. وأحياناً توقع إحداهن جارتها أرضاً فتنتلّق إذ ذاك ضحكة صاحبة تبدو وكأنّها التجلّي الوحيد لحياتهن الشخصية فتزهّرن جميعهنّ معاً وتمّحي بها وتختلط تلك الوجوه الحائرة القسّمات المتلوية في تجمّد عنقود واحد متألّج راعش. وفي صورة قديمة زودتني بها ذات

يوم واحتفظت بها كانت جماعتهن الطفولية تتألف من ذلك من عدد المشاركات نفسه الذي ألف فيما بعد موكبهن النسائي. وإنك لتحسّ فيها أنّهن لا بدّ ألفن من ذلك بقعة فريدة ترغم على النظر إليهنّ ولكنّما لا يستطيع المرء تعرّفهنّ فيها إفرادياً إلا بالمحاكمة العقلية وبترك المجال مفتوحاً لجميع التحولات الممكنة في أثناء الشباب إلى الحدّ الذي تجور فيه تلك الأشكال التي أعيد تأليفها على شخصية متميّزة أخرى ينبغي كشف هويتها بدورها وربما اتّفق لوجهها الجميل، بسبب ترافقه وقامة مديدة وشعر أجعد، أن يكون فيما مضى هذه القسمات المتلوّية المتغصّنة الجعدة التي تزوّدنا بها الصورة الفوتوغرافية. وغالباً ما كان يقع لأفضل صديقاتهنّ، من جرّاء أن المسافة التي قطعتها السمات الجسمانية لكلّ من تلك الفتيات في وقت قليل كانت تجعل من تلك السمات معياراً شديداً الإبهام وأنّ ما كان مشتركاً بينهما وجماعياً كان من ذلك شديد البروز، أن يخلطن بين واحدة وأخرى في تلك الصورة إلى حدّ أنّه ما كان يمكن أن يحسم الشكّ في النهاية سوى هذا الأمر أو ذاك في ملبسهنّ ممّا كانت إحداهنّ على يقين بأنها ارتدته باستثناء الأخريات. وكنّ منذ الأيام الشديدة الاختلاف والشديدة القرب مع ذلك. كنّ لا يزلن ينسقن وراء الضحك مثلما تبينّت ذلك البارحة، ولكنّه ضحك لم يعد ضحك الطفولة المتقطّع والآليّ تقريباً، وهو استرخاء تشنجي كان فيما مضى يغوص في كلّ لحظة بتلك الرؤوس. مثلما كانت كتل الأسماك في نهر الـ "فيفون" تتبدّد وتختفي لتتشكّل من جديد بعد لحظة. لقد أضحي لملامجهنّ الآن سلطان على ذواتهنّ وأصبحت أعينهنّ مثبّطة على الهدف الذي تلاحقه. كان لابدّ البارحة من قلة وضوح نظرتي الأولى وارتعاشها كيما أخلط على نحو غير مميّز، مثلما فعل الفرح الصاحب الماضي والصورة القديمة. بين الفروع المرجانية التي تفرّدت اليوم وانفصلت عن الكتلة المرجانية الشاحبة.

وما من شكّ أنّي كثيراً ما منّيت النفس لدى مرور فتيات جميلات بلقائهنّ ثانية. وما كنّ يعاودن الظهور عادة، ولعلّ الذاكرة التي سرعان ما تنسى وجودهنّ تسترجع لملامجهنّ بصعوبة. وربّما لم تعرّفهنّ عيوننا، فيما يتفق لنا أن تخطر أمامنا فتيات أخريات لن نلقاهنّ كذلك ثانية. ولكنّما المصادفة تردهنّ أحياناً بالحاح أمامنا، وهو ما وقع للجماعة الصغيرة الوقحة. وتبدو المصادفة إذ ذاك جميلة لأنّنا نميّز داخلها كأنما بداية تنظيم وجهه لتأليف حياتنا، وإنّها لتولي الإخلاص سهولة وحتمية وفي بعض الأحيان - وبعد انقطاعات أمكن أن تحمل لنا أمل أن نكفّ عن التذكّر - قسوة، الإخلاص لصور سوف نظنّ فيما بعد أنّه كتب علينا امتلاكها ولعلّنا بدونها كنّا نسيناها بادئ الأمر ييسر كبير شأن صور غيرها كثيرة.

وسرعان ما أدركت إقامة "سان لو" نهايتها، ولما يتمّ لي لقاء تلك الفتيات ثانية على الشاطئ، كان يمكث في "بالبيك" بعد الظهر وقتاً أقصر من أن يستطيع الاهتمام بهنّ ومحاولة التعرّف بهنّ من أجلي. وكان يتوافر له في المساء متسع أكبر من الوقت ويوالي اصطحابي كثيراً إلى "ريفيل". وإنك لتجد في تلك المطاعم، كما هي الحال في الحدائق العامّة والقطارات، أناساً احتجبوا خلف مظهر عاديّ ويذهلنا اسمهم إن اتّفق أن اكتشفنا بعد استفسار عارض أنّهم ليسوا الوافد العاديّ المسالم الذي افترضناه بل هم لا يقلّون عن كونهم الوزير أو الدوق الذي كثيراً ما سمعنا من

يتحدّث عنه. وقد سبق لنا أن شاهدنا أنا و"سان لو" مرتّين أو ثلاثاً في مطعم "ريفبيل"، وحين يشرع الجميع في مغادرة المكان، رجلاً طويل القامة مفتول العضلات منتظم القسما متشّيب اللحية، ولكن نظّرتة الحالمة تطلّ تحدّق بجد في الفراغ، يقبل ويجلس إلى إحدى الطاولات. وفيما كنّا نسال صاحب المطعم ذات مساء من عسى يكون هذا المتعشّي المنعزل المتخلّف، قال لنا: "كيف ذلك، أما كنتما تعرفان الرسّام الشهير "إيلستير" ؟ كان "سوان" قد ذكر اسمه مرّة أمامي وقد نسيت تماماً بأيّ شأن. ولكنّ إغفال إحدى الذكريات، شأن إغفال أحد أطراف الجملة في قراءة ما، لا يسهّل الشكّ بل انبثاق يقين مبكر. فقلت لـ "سان لو". إنّه أحد أصدقاء "سوان" وفنان ذائع الصيت عظيم القدر. وفي الحال مرّت بي وبه، كما الرعشة، فكرة أنّ "إيلستير" فنان عظيم ورجل مشهور ثم إنّه ما كان يرتاب، وقد اختلطنا بالنسبة إليه مع المتعشّين الآخرين، بالحماسة التي تخلّفها فينا فكرة نبوغه. ولاريب أن جهله بإعجابنا به ومعرفتنا لـ "سوان" ما كان ليطلّ عينا لو لم نكن في الحمامات البحرية. بيد أنّنا إذ ظللنا في سنّ لا تستطيع الحماسة فيها أن تطلّ صامته وانتقلنا إلى حياة يبدو فيها أخطاء حقاً سطرنا كتاباً مديلاً باسمينا كشفنا فيه النقاب لـ "إيلستير" عن قروين يتعشّقان فنّه وصديقين لصديقه الكبير "سوان" يتمثّلان في الشخصين الجالسين على خطوات منه وطلبنا فيه إليه أن نعرب به عن احترامنا. وأخذ خادماً على عاتقه حمل تلك الرسالة المستعجلة إلى الرجل الشهير.

ربما لم يكن "إيلستير" مشهوراً بعد في ذلك الحين بالقدر الذي داعبه صاحب المؤسّسة وما أصبح عليه بعد ذلك بسنوات قليلة على أنّه حذر ولكنّه كان أحد الأوّلين في ارتياد هذا المطعم حين لم يكن بعد سوى ما يشبه المزرعة وفي اصطحاب عشيرة من الفنّانين إليه وقد هجروه جميعاً إلى مكان آخر حالما أصبحت المزرعة التي كان يجري تناول الطعام فيها في ظلّ كُتّة بسيطة مركزاً أنيقاً، وما كان "إيلستير" نفسه يعود إلى هذا المكان إلا من جرّاء غياب زوجته التي يسكن معها في مكان ليس بعيد عن هناك). ولكنّ الموهبة الفدّة، حتّى إنّ لم يُعترف بعُدّها، إنّما ينجم عنها بالضرورة بعض ظاهرات الإعجاب من تلك التي استطاع صاحب المزرعة أن يميّزها في أسئلة أكثر من إنكليزية واحدة مرّت هناك وهي متعطّشة إلى المعلومات حول الحياة التي كان يقضيها "إيلستير" أو في عدد الرسائل التي ترد هذا الأخير من البلاد الأجنبية. وقد لاحظ صاحب المطعم أكثر من ذلك أنّ "إيلستير" كان يكره الإزعاج في أثناء الشغل وأنّه كان ينهض ليلاً ليصحب جليساً يقف أمامه عارياً على شاطئ البحر حينما تكون الليلة قمراء وقد أسر في نفسه أن هذا القدر من الجهود لم يذهب هدراً ولا جاء إعجاب السيّاح بغير وجه حقّ حينما تمّ له أن يتعرّف في إحدى لوحات "إيلستير" إلى صليب من الخشب كان مغروساً في مدخل "ريفبيل"، فكان يردّد بذهول: "إنّه هو بالتمام، فثمة أجزاءه الأربعة! آه، وأيّ جهد ينفق كذلك في هذا السبيل!"

وما كان يدري إن كانت لوحة صغيرة لـ "شروق الشمس على البحر" وهبه إيّاها "إيلستير" لا تساوي ثروة.

ورأيانه يقرأ رسالتنا ويضعها في جيبه ويتابع عشاءه ويشعر في طلب حوائجه وينهض يبغي الذهاب وكنا على كبير يقين أننا صدمناه بمسعاينا إلى حد أننا نتمنى الآن (بمقدار ما خشنا) أن يمضي دون أن يكون لاحظنا ولم نفكر لحظة واحدة بأمر كان ينبغي أن يدور لنا من أكثرها أهمية وقوامه أن تحمّسنا لـ "إيلستير"، الذي ما كنا لنسمح بأن يُشكّ بصدقه والذي كان بوسعنا إقامة البرهان عليه في أنفاسنا التي يقطعها الانتظار ورغبتنا في أن نقدم على أي عمل صعب أو بطولي في سبيل الرجل العظيم، لم يكن إعجاباً مثلما تصوّرناه لأننا لم نشاهد قط أي شيء لـ "إيلستير". كان يمكن لشعورنا أن يتخذ بمثابة موضوع له فكرة "الفنان العظيم" لاعمالاً فنياً كان مجهولاً لدينا. كان ذلك بالأكثر إعجاباً في الفراغ والإطار العصبي والهيكلي العاطفي لإعجاب فارغ المضمون، يعني شيئاً يرتبط بالطفولة ارتباطاً لا انفصام له بمقدار غياب بعض الأعضاء لدى الإنسان البالغ. لقد كنا بعد طفلين. كان "إيلستير" في تلك الأثناء يوشك أن يبلغ الباب حينما انعطف فجأة وأقبل علينا. وجرفني دعر لذيذ من مثل مالم يكن بوسعي أن أعانيه بعد بضع سنوات لأنه في الوقت الذي تقلل فيه السن القدرة على ذلك فإن تعود المجتمع يقضي آية فكرة في بعث فرص بمثل هذه الغرابة والإحساس بهذا النوع من الانفعالات.

وفي الكلمات القليلة التي أقبل "إيلستير" يقولها لنا وهو يجلس إلى مائدتنا لم يجنبي ألبتة في مختلف المرات التي حدثته فيها عن "سوان". وأخذت أعتقد أنه لا يعرفه. ولكن ذلك لم يحل دون أن يطلب مني الذهاب لألقاه في مشغله في "البليك"، تلك الدعوة التي لم يوجهها لـ "سان لو" والتي أكسبتني إياها بضع كلمات جعلته يحسب أنني أحبّ الفنون، وما كانت توصية "سوان" لتكسبني إياها لو كان "إيلستير" على علاقة صداقة به (لأن نصيب المشاعر المتجرّدة أكبر ممّا يعتقد في حياة الناس). وغمرني بلطف يفوق لطف "سان لو" بقدر ما يفوق هذا الأخير أنس بورجوازي صغير. ذلك لأن لطف السيد الكبير إذا ما قورن بلطف فنان كبير بدا وكأنه تمثيل وتصنع. كان "سان لو" يحاول أن ينال الإعجاب أمّا "إيلستير" فكان يحبّ أن يعطي وأن يهب من ذاته. ولعله كان يهب كلّ ما يملك من أفكار وأعمال فنية وما تبقى، وهو في عينه أقلّ بكثير، لمن استطاع أن يفهمه. ولكنه لقلّة توافر المجتمع الذي يمكن احتماله كان يعيش في عزلة وفي توحّش كان رجال المجتمع الراقي يدعونه تصنعاً وسوء تهذيب والسلطات العامة روحاً شريرة وجيرانه جنوناً وأسرته أنانية واستعلاءً.

ولا ريب أنه فكر أوّل الأمر بسرور، داخل العزلة نفسها، أنه يخاطب عن بعد، بواسطة أعماله، أولئك الذين لم يقدره حقّ قدره أو جرحوا شعوره ويزودهم بفكرة أرفع عن نفسه. وربّما عاش إذ ذاك وحيداً لا بداعي اللامبالاة بل بداعي حبّ الآخرين، ومثلما تخلّيت عن "جيلبيرت" لأعود فأبرز أمامها ذات يوم بمظهر محبّب أكثر كان هو يخصّ بعضهم بعمله الفني بمثابة عودة إليهم يحبّونه من خلالها دون أن يلقوه ويعجبون به ويتحدّثون عنه. فليس الزهد كلياً على الدوام في بدايته حينما نعتقد العزم عليه بروحنا القديمة وقبل أن يتمّ له التأثير فينا عن طريق ردّ الفعل، سواء في ذلك زهد المريض والراهب والفنان والبطل. على أنه إن ودّ الإنتاج لبعض الناس فقد عاش لذاته وهو ينتج بعيداً عن

المجتمع الذي أضحي لايبالي به. فقد ولدت معاناه العزلة حبّ هذه الأخيرة في نفسه على نحو ما يتفق بالنسبة إلى كلّ أمر عظيم خشيناه بادئ الأمر لأننا نعلم أنّه لا يتلاءم وأموراً صغيرة تهمنا ويحرمنا إياها أقلّ مما يفصلنا عنها. وإنّما قوام كامل اهتمامنا قبل معرفته أن نعلم إلى أيّ مدى يمكننا أن نوفّق بينه وبين بعض المتع التي تكفّ عن كونها متعاً حالما يتيسّر لنا أن نعرفه.

ولم يمكث "إيلستير" وقتاً طويلاً في التحدث إلينا. وقد منّيت النفس بالذهاب إلى مشغله في غضون اليومين أو الأيام الثلاثة القادمة، إلّا أنّنا غداة تلك الأمسية، وإذ كنت قد صحبت جدّتي إلى غاية السدّ باتجاه جروف "كانا بفيل"، التقينا لدى العودة، في زاوية أحد الشوارع الصغيرة المؤدية إلى الشاطئ على نحو عامودي، بفتاة كانت تسير، منكّسة الرأس كحيوان يُعاد به غضباً إلى الاسطبل وتمسك بعصيّ للغولف، أمام امرأة حازمة هي على الأرجح مربيّتها الإنكليزية أو مربيّة إحدى صديقاتها وتبدو شبيهة برسم "جيفريز" من أعمال "هوغارت"، حمراء الوجه كما لو كان شربها المفضّل "الحين" بدلاً من الشاي وتمدّ بعققة سوداء لبقايا مضغّة شارباً لها متشّياً ولكنّه غزير. كانت البنيّة التي تسير أمامها شبيهة بفتاة المجموعة الصغيرة التي كان لها عينان ضاحكتان في وجه حامد ممتلئ الخدين تظّلله قُبعة سوداء. كانت تلك التي تعود في هذه اللحظة تعتمر هي الأخرى قبعة سوداء ولكنها تبدو أكثر جمالاً من تلك وخطّ أنفها أكثر استقامة وفتحت في الأسفل أكثر اتساعاً وأشدّ اكتنازاً. ثم إن تلك بدت لي فتاة متعجرفة شاحبة اللون وهذه طفلة مروّضة مورّدة اللون. بيد أنّي خلصت، بما أنّها كانت تدفع أمامها درّاجة ممائلة وترتدي قفازين مائلين من جلد الأيل، إلى أن الفروق ربّما نجمت عن الطريقة التي كنت أجلس بها وعن الظروف لأنّه من غير المرجّح أن يكون ثمة في "بالبيك" فتاة ثانية وجهها على ذلك مماثل إلى هذا الحد وقد جمعت في ملابسها الخصائص نفسها. وأرسلت في اتّجاهي نظرة سريعة. وحينما التقيت في الأيام التالية بالمجموعة الصغيرة على الشاطئ، وحتى حينما عرفت فيما بعد جميع الفتيات اللواتي كنّ يؤلفنها، لم يتوافر لي اليقين المطلق في يوم بأنّ آية منهنّ - حتى تلك التي كانت تشبهها أكثر ما تشبهها من بينهنّ، وأعني فتاة الدّراجة - كانت بالتمام تلك التي رأيتهَا ذلك المساء في آخر الشاطئ وفي زاوية الشارع. تلك الفتاة التي كادت لا تختلف، مع أنّها تختلف بعض الشيء، عن التي كنت لاحظتها في الموكب.

ومنذ فترة مابعد الظهيرة تلك أصبحت فتاة عصيّ الغولف، ويفترض أنّها الآنسة "سيمونية"، هي التي أخذت تشغل بالي أنا الذي فكّر على وجه الخصوص في الطويلة في الأيام السابقة. كانت تتوقّف كثيراً وسط الأخريات فتضطرّ صديقاتها اللواتي يبدون وكأنّهن يحترمنها كثيراً إلى التوقّف كذلك. وإنّي أعود فأراها الآن على هذا النحو تتوقّف لمتعة العينين في ظلّ قُبعتها، أراها ترسم خطوطاً على الشاشة التي يملأها البحر خلفها وتفصلها عني فسحة شفّافة لازوردية هي الزمن الذي انقضى مذكاً، وإنّها الصورة الأولى التي دقّت في ذاكرتي، الصورة المشتتة والملاحقة ثم المنسية ثمّ المستعادة لمحيّا كثيراً ما أسقطته مذكاً في الماضي ليمكنني أن أقول في نفسي عن فتاة كانت في غرفتي: "إنّها هي".

وربما كانت صاحبة اللون الغرنوقي والعينين الخضراوين من لعلتي اشتهيت أكثر ما اشتهيت التعرف إليها أيضاً. وآية كانت في جميع الأحوال تلك التي كنت أفضل رؤيتها، في هذا اليوم أو ذاك، فقد كانت الأخريات بدونها كافيات لهزّ مشاعري، إذ كان شوقي، وإن انصب مرة على واحدة دون سواها ومرة على أخرى، يوالي - شأن غموض نظرتي في اليوم الأول - في الجمع بينهم وفي أن يجعل منهمّ العالم الصغير المنفصل الذي تدخله حياة مشتركة والذي لا ريب أنهمّ كنّ يغيّن على آية حال تأليفه. ولعلتي كنت، إذ أضحي صديق إحداهن، سادخل - شأن وثني مرهف الذوق أو مسيحي رقيق الحاشية لدى البرابرة - مجتمعاً يجدد الشباب وتسوده العافية واللامبالاة واللذة والقسوة وانتفاء الطابع الفكري والفرح.

كانت جدتي التي رويت لها عن التقائي بـ "إيلستير"، والتي كان يبهجها كلّ ما يمكن أن أكسبه على الصعيد الفكري من صداقته، ترى من غير المنطق واللفظ ألاّ أكون بادرت بعد لزيارته. لكنّي ما كنت أفكر إلا في المجموعة الصغيرة ولا أجرؤ على الابتعاد وقد أعوزني التأكد من الساعة التي ستمرّ فيها تلك الفتيات فوق السدّ. كانت جدتي تعجب كذلك لأنّاتي، فقد تذكّرت فجأة البرّات التي أهملتها حتى الآن في زاوية صندوقي. فكنت أرّدي كلّ يوم بزة مختلفة، وقد بلغ بي الأمر أن كتبت إلى باريس كي يبعثوا إليّ بقبعات جديدة وربطات عنق جديدة.

وإنه لسحر عظيم ينضاف إلى الحياة في مركز حمامات بحرية كما هي حال "البليك" إن أصبح وجه فتاة جميلة، وجه بائعة محاربات أو حلوى أو زهور، وقد ارتسم بألوان زاهية داخل فكرنا، إن أصبح يومياً ومنذ الصباح بالنسبة إلينا هدف كلّ من تلك الأيام المشرقة التي لا عمل فيها والتي نقضيها على الشاطئ، فإذا هي حينئذ من جرّاء ذلك، وإن تكن خالية من الأعمال، رشيقة كأيام العمل موجّهة ممغنطة تندفع بلطف وجهة لحظة قرية، تلك التي سنلذّذ فيها، فيما نبتاع فطائر وأزهاراً ومحاربات برؤية الألوان مبثوثة على وجه امرأة في مثل نقاء الألوان على صفحة زهرة. إلا أنّك، فيما يخصّ هؤلاء البائعات الصغيرات، تستطيع بادئ الأمر التحدّث إليهن، الأمر الذي يجنّبك أن تشيد بالخيال الجوانب الأخرى التي لا تزودك بها الملاحظة البصرية البسيطة. وأن تعيد ابتكار حياتهنّ وتغالي في سحرها وكأنّما أمام صورة مرسومة. ويمكنك أن تعلم على وجه الخصوص، لأنك بالضبط تتحدّث إليهنّ، أين يمكن لقاءهنّ وفي آية ساعات. بيد أنّ الأمر لم يكن البتّة على هذا النحو بالنسبة إليّ فيما يخصّ فتيات المجموعة الصغيرة. فلما كنت جاهلاً بعاتاتهنّ كنت أبحث، حينما لا أشاهدنّ في بعض الأيام ولا أدري سبب غيابهنّ، إن كان هذا الغياب أمراً ثابتاً وإن كنّ لا يُشاهدنّ إلا مرة كلّ يومين أو حينما يكون الطقس كذا أو إن كان ثمة أيام لا يُشاهدنّ فيها البتّة. وكنت أتصوّر نفسي سلفاً صديقاً عليهنّ وأقول لهنّ: "ولكنّك ما كنتنّ هناك في يوم كذا؟ - آه، أجل، ذلك لأنّ اليوم كان يوم سبت ولانجىء البتّة السبت لأنّ...". ولو أنّ الأمر في مثل بساطة أن نعلم أنّه من غير المفيد أن نلجّ في نهار السبت المشووم وأننا نستطيع التجوال في الشاطئ في كلّ اتجاه، والجلوس أمام واجهة الحلواني والتظاهر بأكل فطيرة خفيفة والدخول لدى تاجر الغرائب

وانتظار ساعة الاستحمام والحفلة الموسيقية ووصول مياه المدّ وغروب الشمس وحلول الليل دون أن نشاهد المجموعة الصغيرة المشتهاة ؛ ولكنّ اليوم المشؤوم ربّما لم يعاود الكرة مرّة في الأسبوع، ولعلّه لا يقع بالضرورة في يوم سبت. وربّما كان لبعض الظروف الجوية تأثير عليه أو كانت بعيدة كلّ البعد عنه. وكم من الملاحظات المتأنيّة. لا الهادئة بأيّة حال، ينبغي لنا جمعها حول الحركات غير المنتظمة في ظاهرها لتلك العوالم المجهولة قيل أن يمكننا التيقّن أنّنا لم نخدعنا المصادفات وأن توقعاتنا لن تُضللّ قبل أن نستخلص القوانين الثابتة التي اكتسبناها بفضل تجارب قاسية والتي تحكم علم الفلك المولّه هذا! وإذ أذكر أنّي لم ألقه في مثل هذا اليوم نفسه كنت أسرّ لذاتي بأنهن لن يأتين وأنّه لا جدوى من مكوثي على الشاطئ، فيتفق أن المحجّن. وكنّ في مقابل ذلك لا يحثن في يوم حسبت، بقدر ماتمّ لي افتراض أنّ ثمة قوانين كانت تنظّم عودة تلك المجموعات النجميّة، أنّه ينبغي أن يكون يوم يمن. بيد أنّه كان ينضاف إلى شكّي الأوّل هذا بأنّي سألقاهنّ أو لا ألقاهنّ في اليوم نفسه آخر أدهى بكثير وقوامه إن كنت سألقاهنّ في يوم لأنّني أجهل إجمالاً إن كنّ لن يرحلن إلى أميركا أو يعدن إلى باريس. وكان ذلك كافياً لأشعر في حجبّ. وقد يملّكك ميل إلى شخص ما، إلا أنّه لا بدّ لتفجير هذه الكتابة وهذا الشعور بما لا يمكن تداركه وصنوف الضيق هذه التي تهيج مناخ الحب - ولعله هو بالأحرى، لاشخص معين، الهدف نفسه الذي يحاول الهوى أن يشدّه بلهفة إليه - لا بدّ من احتمال استحالة ما. هكذا كانت تنشط مدّ ذلك تلك التأثيرات التي تتكرر في غضون ظروف غراميّة متلاحقة (يمكن أن تقع على أيّة حال ولكنّها تتمّ بالأحرى في حياة المدن الكبرى بشأن عاملات نجهل أيام عطلتنّ ويرعبنا أنّنا لم نشاهدنّ ساعة خروج عاملات المشغل)، أو التي تحدّدت على الأقلّ في غضون مناسباتي الغراميّة. وربّما كانت لاصقة بالحب، وربّما أقبل كلّ ما كان ميزة خاصّة بالأوّل ينضاف إلى ما يليه بالذكرى، بالإيحاء، بالعادة ويضفي، من خلال الفترات المتعاقبة في حياتنا، طابعاً عاماً على مظاهره المختلفة.

كنت أتخذ جميع الحجج ذريعة لأبادر إلى الشاطئ في الساعات التي يحدوني فيها أمل إمكان لقاءهن. وإذ لمحتنّ ذات مرّة في أثناء غدائنا لم أعد آتي إليه إلّا متأخراً وأنا في انتظار لا ينتهي على السدّ للحظة مرورهنّ هناك، وأظنّ طوال الوقت اليسير الذي أقضيه جالساً في قاعة الطعام أسائل بعينيّ زرقة الزجاج، وأنهض قبل المحليات كي لا يفوتني لقاءهنّ إن اتّفق أن تنزّهن في غير الساعة المحدّدة وأغناظ من جدّتي في قسوتها اللامتعمة حينما تحملني على المكوث معها إلى ما بعد الساعة التي تبدو لي مواتية. وكنت أحاول أن أمدّ في طول الأفق بأن أضع كرسيّ بالورب، فإن وقع لي أن ألمح أيّاً من الفتيات فكاننّ رأيت، إذ يشاركن جميعهنّ في الجوهر الخاصّ نفسه، في هلوسة متنقّلة شيطانيّة قبالي شيئاً من الحلم المعادي، والمشتهي بتلفّ مع ذلك، الذي كان لا وجود له قبل ذاك بلحظة إلا في دماغي، وهو راكد فيه على أيّة حال على نحو مستمرّ.

ما كنت أحبّ أيّة منهنّ، إذ أحبهن كلّهن، بيد أن لقاءهنّ المحتمل كان العنصر اللذيذ الوحيد في أيّامي وكان يبعث وحده في صدري آمالاً كالتّي نحطّم بها كل العقبات، امالاً يعقبها الحقن في

الغالب إن لم تتفق لي رؤيتهم. كانت تلك الفتيات في ذلك الحين يحجن جدتي بالنسبة إلي. ولعلّ رحلة كانت تروقني في الحال إن غنت الذهاب إلى مكان لابدّ من فيه. وإنما كان فكري مشدوداً بلطف إليهنّ حينما أظنّ أنّي أفكر في أمر آخر أو في لا شيء. ولكن حينما كنت أفكر فيهنّ، وإن لم أدر عن ذلك، فإنّما كنّ في نظري، على نحو أكثر بعداً عن الشعور، تموجات البحر الوعرة الزرقاء وارتسام موكب أمام البحر. وإنما البحر ما كنت أمل لقاءه إن ذهبت إلى مدينة من فيها. فالحبّ الذي ينصبّ حصراً على شخص ما إنّما هو أبداً حبّ شيء آخر.

أخذت جدتي تعرب لي عن ازدراء يبدو لي ناجماً عن نظرة ضيقة بعض الشيء، لأنني كنت أنهما شديد الاهتمام بالغولف وكرة المضرب وسمحت أن تفوتني فرصة مشاهدة فنّان تعلم أنّه من أكبرهم في أثناء عمله والاستماع إلى حديثه. وكنت قد تبّينت في "الشانزليزية" فيما مضى وأدركت مذ ذاك أفضل من ذي قبل أنّنا إذ نعشق امرأة فإنّما نسقط فيها محض حالة من حالات نفسنا، وأن المهمّ بالتالي ليس قدر المرأة بل عمق الحالة، وأن الانفعالات التي تبعثها فينا فتاة عادية يمكن أن تعيننا على أن نجذب إلى وعينا أجزاء من ذاتنا أشدّ صميمية والصق بشخصيتنا وأكثر بعداً وأوفر جوهراً مما تفعل المتعة التي يولينا إيّاها حديث رجل متفوّق أو حتّى التأمّل المعجب بأعماله الفنيّة.

واضطرت في النهاية أن أنصاع لجدتي بانزعاج يزيد فيه أنّ "إيلستير" كان يسكن بعيداً إلى حد ما عن السدّ في أحد أحدث شوارع "بالبيك". واضطرتني حرّ النهار أن أستقلّ الحافلة الكهربائيّة التي تمرّ في شارع "الشاطئ" فكنت أحهد، كيما أحسب أنّي في مملكة "السيميرين" القديمة، وربّما في موطن الملك "مارك" أو في موقع غابة "بروسيلاند"، في أن لا أنظر إلى البذخ الزهيد القيمة في الأبنية التي تنتشر أمامي والتي ربّما كانت دارة "إيلستير" من أوفرها قباحة في فخامتها ولكنّه استأجرها مع ذلك لأنّها الوحيدة من بين سائر الدارات المتوافرة في "بالبيك" التي يمكن أن تيسّر له مرسماً فسيحاً.

وقد احتوت، وأنا أشيح أيضاً بوجهي. الحديقة التي ازدهت بمرجة - بمساحة مصغرة كما هي الحال لدى أيّ من بورجوازيّ ضاحية باريس - وتمثال صغير لبستاني متطرّف وكرات زجاجيّة تنظر إلى صورتك فيها وحواشٍ من أزهار البيغونيا وعريش صغير تستريح في ظلّه كراس هزّاة حول طاولة حديديّة. بيد أنّي، بعد جميع هذه الحوائب التي تطبعها البشاعة الحضريّة، لم أعد أعير انتباهي زخارف الأفاريز البنيّة حينما أصبحت داخل المرسى وألفيتني في أتمّ السعادة، ذلك أنّي فيما يخصّ جميع الدراسات التي من حولي كنت أحسّ بإمكان ارتقائي إلى معرفة شاعريّة خصبة بالمسرات لأشكال كثيرة لم أكن فصلتها حتّى ذاك عن المنظر الكلّي للواقع. وبدا لي مرسم "إيلستير" بمثابة مختبر لإعادة خلق العالم أستخلص فيه، من الركام الذي يمثل جميع مانرى من أشياء، إذ رسمها على مستطيلات مختلفة من القماش وُضعت في كلّ اتجاه، موجة هنا تسفح بحرق فوق الرمال زبداء الليلكيّ، وشاباً هناك في قماش سميك أبيض يستند إلى ذراعه فوق سطح أحد المراكب. وقد اكتسبت ستره الشاب والموجة المتناثرة مكانة جديدة بما أنّهما يستمرّان في الوجود وإن فقدّا ما كان يعتبرانه يؤلّف قوامهما إذ لا تستطيع الموجة أن تبلّك من بعد ولا السترة أن تكسو أحداً.

كان المبدع لحظة دخلت في طور إنجاز شكل الشمس لدى المغيب بالريشة التي يمسكها بيده.

كانت الستائر مسدلة في جميع الجوانب تقريباً والمرسم بارداً إلى حد ما ومعتماً إلا في مكان يلقي فيه الضياء الشديد على الجدار زخرفته الساطعة العابرة. وحدها نافذة صغيرة مستطيلة يحيط بجنباتها زهر العسل ظلّت مفتوحة وكانت تطلّ من خلف حديقة مستطيلة على شارع عريض. فكان الجو في الجزء الأكبر من المرسم عاتماً شفافاً كثيف الكتلة ولكنه نديّ متألّق في الزوايا حيث يرصّعه الضياء كمتل كتلة من الكريستال الصخري يلتصع ههنا وهناك أحد سطوحه المنحوت الصقيل كأنه مرآة ويتقرّح. وفيما كان "إيلستير" يرالي الرسم نزولاً عند رغبتني كنت أجول في نصف العتمة ذاك أتوقّف أمام لوحة ثمّ أمام أخرى.

وما كان العدد الأكبر من تلك التي تحيط بي ماكنت أفضل أن أشاهده له من تلك الرسوم التي تعود إلى طريقتيه الأولى والثانية، كما تنوّه بذلك مجلّة فنيّة إنكليزية كانت مرّية على طاولة صالة الاستقبال في الفندق الكبير، الطريقة الأساطيرية وتلك التي خضع فيها لتأثير اليابان وكلاهما ممثّلتان أروع تمثيل، فيما يقال، في مجموعة السيّد "دو غيرمانت". كان ما لديه في مرسمه يكاد يقتصر بالطبع على مناظر بحريّة أخذت هنا في "البليك". بيد أنّه كان بوسعي أن أميز فيها أنّ سحر كلّ منها قائم على ضرب من تحوّل الأشياء الممثلة شبيه بالتحوّل الذي ندعوه في الشعر مجازاً وأنّه إن كان الله الآب قد خلق الأشياء بإطلاق أسماء عليها، فإن "إيلستير" كان يعيد خلقها بنزع تلك الأسماء عنها أو بإطلاق أسماء أخرى عليها. وإنّما تستجيب الأسماء التي تدل على الأشياء، إنّما تستجيب على الدوام لمفهوم عقليّ غريب عن انطباعاتنا الحقيقية يضطرّنا إلى أن نزيل منها كل ما لا يتعلّق بذلك المفهوم.

لقد سبق أن وقع لي أحياناً أمام نافذتي في فندق "البليك"، في الصباح حينما كانت "فرانسواز" تنزع الأغطية التي تحجب النور، وفي المساء حينما كنت أنتظر لحظة اللهاج مع "سان لو"، أن أُنخذ من جرّاء تأثير ناجم عن أشعة الشمس قسماً في البحر أكثر عتمة بمثابة شاطئ بعيد أو أن أنظر بغبطة إلى منطقة زرقاء غير واضحة المعالم دون أن أدري إن كانت من البحر أو السماء. وسرعان ما كان عقلي يعيد بين العناصر الخطّ الفاصل الذي كان انطباعي قد أزاله. وكان يتفق لي من هذا القبيل في غرفتي في باريس أن أسمع شجاراً وما يقرب أن يكون فتنة إلى أن أردّ إلى علتها، إلى عربة تقترّب جلبة سيرها على سبيل المثال، تلك الضجّة التي كنت أزيل منها حينذاك تلك الرعقات الحادة والناشرة التي سمعتها أذني بالحقيقة ولكن عقلي يعلم أن ليس من عجالات تحدنها. وإنّما صُنعت أعمال "إيلستير" من تلك اللحظات النادرة التي يبصر فيها المرء الطبيعة على نحو ماهي عليه، على نحو شاعري. وكانت إحدى صوره المجازيّة الأكثر تردّداً في المناظر البحريّة التي كانت إلى جانبه في هذه اللحظة، كانت بالضبط تلك التي تشبّه الأرض بالبحر فتحذف كلّ خطّ فاصل بينهما. كان ذلك التشبيه الذي يتكرّر في لوحة واحدة بصورة ضمنيّة وعلى نحو لا يعرف الكلل هو الذي

يدخل فيها تلك الوحدة القويّة المتعدّدة الأشكال التي كانت سبب الحماسة التي يثيرها رسم "إيلستير" في صدر بعض الهواة، ولا يتبينون أحياناً ذلك السبب بوضوح.

كان "إيلستير" على سبيل المثال قد هيأ ذهن المتفرّجين لمجاز من هذا القبيل - في لوحة تمثّل مرفأ "كاركتوي"، لوحة أنجزها منذ أيام قليلة وأطلت في النظر إليها - وذلك بأن استخدم تعابير بحريّة حصراً للمدينة الصغيرة وحضريّة حصراً للبحر. فإمّا أن تحجب المنازل جزءاً من المرفأ إذ يمتدّ حوض لإصلاح السفن أو حتى البحر نفسه على شكل خليج داخل اليابسة، كما يتفق ذلك باستمرار في منطقة "بالبيك" هذه، فإذا السطوح في الجانب الآخر من الطرف المتقدّم الذي شيدت عليه المدينة تبرز فوقها (على غرار ماقد تفعل المداخل أو قيب الأجراس) الصواري التي تبدو وكأنها تجعل من السفن التي تعود إليها شيئاً حضريّاً شيد على اليابسة وتزيد في هذا الانطباع مراكب أخرى ظلّت على امتداد المكسر ولكنها متراصة الصفوف حتى ليتحدّث الناس فوقها من مركب إلى آخر دون أن يمكن تمييز الخط الفاصل بينها وبين فرجة الماء، وهكذا كان يبدو أسطول الصيد الصغير هذا أقلّ التصاقاً بعالم البحر من كنائس "كريكيك" مثلاً، تلك الكنائس التي تبدو في البعيد، والماء يحيط بها من كلّ جانب لأنك كنت تشاهدها بمعزل عن المدينة في ابيضاض الشمس والأمواج، وكأنها تنبثق من المياه التي تنفّخت مرمرأ أو زبدأ، وتولّف، وقد لفّها نطاق قوس قزح متعدّد الألوان، لوحة خياليّة روحانية. وقد أفلح الرسّام في أماميّة الشاطئ في تعويد العين أن لا تبصر حدّاً ثابتاً وخطاً فاصلاً مطلقاً بين اليابسة والمحيط. كان الرجال الذين يدفعون مراكب إلى البحر يجرون في الماء وعلى الرمل سواء بسواء، فقد كان يعكس في بلله هياكل كما لو كان ماءً. والبحر نفسه ما كان يتقدّم على نحو منتظم بل يتبع تعرجات الشاطئ الرملي الذي كان المنظور يزيد من تعرجه حتى لتبدو سفينة في عرض البحر، وتكاد تحجبها منشآت الصناعة البحرية التي تمتدّ داخل البحر، وكأنها تمخر داخل المدينة. وتبدو نسوة يجمعن القريدس بين الصخور، لأنّ الماء يحيط بهنّ وبسبب المنخفض الذي يهبط بالشاطئ، بعد حاجز الصخور الدائري (من الجانبين الأكثر اقتراباً من اليابسة)، إلى مستوى البحر. وكأنهنّ داخل مغارة بحريّة، تكتنف جوانبها القوارب والأمواج وقد انفتحت ما بين المياه التي تباعدت تحميها على نحو عجائبيّ. ولئن كانت اللوحة بكاملها تخلف هذا الانطباع عن المرفأ التي يمتدّ فيها البحر داخل اليابسة وتبدو اليابسة فيها من البحر والناس برمائيّين، فإن قوّة العنصر البحريّ كانت تنفجر في كلّ مكان. فقد كنت تحسّ، بالقرب من الصخور وعلى مدخل الرصيف حيث كان البحر مضطرباً، كنت تحسّ، من جرّاء جهود البحارة وميلان القوارب المضطّجعة بزاوية حادّة إزاء العموديّة الهادئة التي تبرز بها المخازن والكنيسة ومنازل المدينة التي يعود بعضهم إليها وينطلق الآخرون منها إلى الصيد، أنهم يسرعون بخشونة على متن الماء كأنما على ظهر حيوان جموح سريع العدو كانت قفزاته المفاجئة ستلقي بهم أرضاً لولا مهارتهم. وكانت زمرة من المتنزهين تخرج على متن قارب يهتزّ كعربة خفيفة، وبخار متهلّل ولكنه متيقظ أيضاً يقوده كأنما بأعنة ويمضي بالشرع المتوثّب وكلّ يقف في مكانه تماماً كي لا يزيد من الثقل في أحد الجوانب ولا ينقلب، ويسرعون هكذا عبر الحقول المشمسة والأمكنة الظليلة مندفعين فوق السفوح.

وكان صباحاً جميلاً على الرغم من العاصفة التي هبت. وتكاد حتى تحس كذلك بالتأثيرات القوية التي كان على التوازن البديع الذي تبدو به القوارب الساكنة أن يطلها وهي تنعم بالشمس والبرودة في الأجزاء التي يبدو فيها البحر ساكناً حتى لتكاد الانعكاسات تبدو أوفر صلابة وحقيقة من هياكل المراكب التي تبخرت بفعل ضياء الشمس وجعلها المنظور يتراكب بعضها فوق بعضها الآخر. أو لعلك كنت بالأحرى لا تقول بأجزاء أخرى من البحر. فقد كان بين تلك الأجزاء قدر من الفروق يماثل ما كان بين واحد منها والكنيسة المنبثقة من المياه والمراكب التي وراء المدينة. وكان العقل بعدها يجعل مادة واحدة مما كان هنا أسود بفعل العاصفة وفي البعيد موحد اللون تماماً مع السماء وصقياً مثلها وهناك شديد البياض من شمس وضباب وزبد، شديد الكثافة بعيد الشبه بالأرض تكتنفه المنازل إلى حد تفكر معه بطريق رُصفت بالحجارة أو بحقل ثلجي يصيبك الذعر أن تبصر عليهما سفينة ترتفع عمودياً وعلى اليبس كمثلية عربية تمرح وهي خارجة من مخاضة، إلا أنك تدرك بعد فترة وأنت تبصر فوق الهضبة الصلبة العالية اللامتناهية مراكب مترنحة، أنه لا يزال هو البحر يتمثل في جميع مظاهره المختلفة.

ومع أنهم يقولون بحق إنه لا تقدّم في الفن ولا اكتشافات، بل هي تنحصر في العلوم، وإنه إذ يعاود كل فنّان لحسابه الخاصّ جهداً فردياً فلا يمكن أن يلقي عوناً أو إعاقة في جهود آخر سواء، إلا أنه لا بد من الاعتراف بأن الفنّ السابق يفقد شيئاً من أصالته على نحو رجعيّ بمقدار ما يبرز الفنّ بعض القوانين وبعدها تقوم صناعة ما بتعميمها. لقد عرفنا منذ بدايات "إيلستير" ما يدعونه صوراً فوتوغرافية "رائعة" لمناظر أو لمدن. فإن حاولنا إيضاح ما يعنيه الهواء في هذه الحالة بتلك الصفة لوجدنا أنها تنطبق عادة على صورة غريبة لشيء معروف، صورة تختلف عن تلك التي تعودنا رؤيتها، غريبة ولكنها حقيقية وهي لهذا السبب تضاعف من ذهولنا لأنها تدهشنا وتخرجنا من عاداتنا فيما تردنا في الآن نفسه إلى داخل ذواتنا إذ تدكّرنا بانطباع معين، فواحدة من تلك الصور "الرائعة" ستوضح لنا على سبيل المثال قانون المنظور. وترينا هذه الكاتدرائية التي تعودنا أن نراها في أوسط المدينة وقد صوّرت على العكس من نقطة مصطفة تبدو منها ثلاثين مرّة أعلى من المنازل وقد امتدّت على ضفة النهر التي هي في الواقع بعيدة عنها. وقد سبق لجهد "إيلستير" في ألاّ يعرض الأشياء على مثل ما يعلمها، بل وفق تلك الأوهام البصرية التي تولّف نظرنا الأولى، أن قاده بالضبط إلى توضيح بعض من قوانين المنظور وهي إذ ذاك أشدّ إذهالاً لأنّ الفنّ كان الأول في إمطة اللثام عنها. فيبدو نهر بسبب انعطاف مجراه وخليج بسبب تقارب الحروف الظاهر وكأنهما يحفران وسط السهل أو الجبال بحيرة مغلقة تماماً من كلّ جانب. وفي لوحة أخذت من "البليك" في يوم صيف قاطط كان يبدو فيها انحسار للبحر داخل أسوار من الغرانيت الورديّ اللون وكأنه ليس من البحر الذي يبدأ في نقطة أبعد. ولم يكن يوحى بتواصل المحيط سوى طيور النورس التي تحوم حول ما يبدو للناظر أنه من الحجر فتنتسّم على العكس نداوة الماء. وثمة قوانين أخرى كانت تُستخلص من تلك اللوحة نفسها كمثلية رشاقة الأشعة البيضاء القمرية على حضيض الحروف الضخمة، وكانت تبدو فوق المرأة الزرقاء كأنها فراشات غافية، وبعض صنوف التعارض بين شدّة

سواد الظلال وشحوب الضوء. فقد حظي تلاعب الظلال هذا الذي جعلته الصورة الفوتوغرافية مبتدلاً بدوره باهتمام "إيلستير" إلى حدّ أن طاب له فيما مضى أن يرسم لوحات سراب حقيقي يبدو فيه حصن يتّوجه برج على هيئة حصن دائريّ تماماً يعلوه برج في قمته وفي أسفله برج مقلوب إمّا لأن النقاء الخارق في طقس صحو قد أضفى على الظلال التي تنعكس في الماء صلابة الحجر وبريقه، وإمّا لأنّ الضباب الصباحي جعل الحجر في مثل ضبابية الظلال. كذلك كان يبدأ ما وراء البحر خلف صفّ من الحراج، بحر جديد يلونه غروب الشمس بلون الورد وإن هو إلا السماء. كان النور الذي يبتدع، كأنما أجساماً صلبة جديدة، يدفع بهيكل المركب الذي يرسل عليه ضياءه إلى خلف الهيكل الذي بقي في الظلّ فيقيم كأنما درجات سلّم من الكريستال على الصفحة المستوية على الصعيد الماديّ ولكنما تكسرها الإنارة، صفحة البحر في الصباح. وكان النهر الذي يجري تحت جسور المدينة قد تمّ رسمه من نقطة يبدو منها مقطعّ الأوصال كليّاً ينسبط ههنا على شكل بحيرة، ويدقّ هناك فإذا هو خيط ماء، ويقطعه في مكان آخر قيام هضبة دونه تتّوجّها الأشجار وإليها يبادر إنسان المدينة في المساء إلى تنسّم هواء المساء العليل، وما كان يؤمّن انتظام خطوط هذه المدينة المزعزعة سوى خطّ قباب الأجراس العموديّ الذي لا ينثني، تلك القباب التي لا تذهب صعداً بل هي تبدو بالأحرى، حسب شاقول الثقالة الذي يرسم الإيقاع كأنما في لحن سير ظافر، وكأنها تمسك الكتلة التي تفوقها إبهاماً، كتلة المنازل المتناضدة في الضباب، معلقة من تحتها، على امتداد النهر المحطّم المفكّك. (وبما أنّ أعمال "إيلستير" الأولى تعود إلى الفترة التي كان يجري فيها تزويق مناظر الطبيعة بحضور إنساني) فقد كان الدرب، هذا الجزء نصف المؤنس في الطبيعة، فوق الجرف وفي الجبل ضحيّة انكسافات المنظور شأن النهر أو المحيط. وسواء أحال حرف جبل أم ضباب شلال أم البحر دون أن تتابع خطّ الطريق المتّصل الجليّ بالنسبة إلى المتنزه لا بالنسبة إلينا، فقد كان الإنسان الصغير التائه بثيابه المتقادمة الزيّ في هذه الأمكنة المنعزلة يبدو في الغالب كأنما استوقف أمام هاوية، إذ الدرب الذي يسير عليه ينتهي هناك، فيما نرى، على ارتفاع يجاوزه بثلاث مئة متر في أحراج الصنوبر تلك، بعين داخلها الحنان وبقلب مطمئنّ، بياض رمله الدقيق الرفيق بقدم المسافر يعود إلى الظهور ولكنّ سفح الجبل كان قد حجب عنا شرائطه الوسيطة التي تدور حول الشلال أو الخليج.

وكان يزيد من الإعجاب بالجهد الذي يبذله "إيلستير" لينزع عنه في إزاء الواقع جميع مفاهيم عقله أنّ هذا الرجل الذي كان يصطنع الجهل قبل أن يرسم وينسي كلّ شيء عن نزاهة (لأنّ ما نعرفه ليس ملكاً لنا) كان يتمتع بالضبط بعقل مثقّف ثقافة استثنائية. فلمّا كنت أعترف له بالخيبة التي أصابتنني أمام كنيسة "بالبيك" قال لي:

- "كيف تصيبك الخيبة من جرّاء هذه البوابة، فإنها أجمل كتاب مقدس قصصيّ أمكن أن يراه الشعب قطّ. إنّ هذه العذراء وسائر النقوش النافرة التي تروي حياتها إنّما تمثّل التعبير الأوفر رقة والأكثر إلهاماً في قصيدة العبادة والمدائح الطويلة هذه التي سينشئها العصر الوسيط تمجيداً للعذراء. فلو تعلم ما تمّ للنحات الشيخ من اكتشافات رقيقة وأفكار عميقة وشعر رائع، إلى جانب الدقّة الأكثر

تأنيًا في ترجمة النص المقدس! ففكرة هذا القماش الرقيق الكبير الذي يحمل فيه الملائكة جسد العذراء وهو أكثر قدسية من أن يجرؤوا مسه مباشرة (وقلت له إن الموضوع نفسه عولج في كنيسة "سانت أندريه دي سان"، وكان قد شاهد صوراً فوتوغرافية لبوابة هذه الكنيسة الأخيرة، ولكنه لفت انتباهي إلى أن الحماسة التي يبديها هؤلاء الفلاحون الصغار الذين يسارعون جميعاً حول العذراء أمر مختلف عن وقار الملاكين العظمين الإيطاليين المظهر تقريباً الممشوقين الرقيقين)؛ والملاك الذي يحمل نفس العذراء ليجمعها إلى جسدها؛ وفي لقاء العذراء وأليصابات حركة هذه الأخيرة التي تلامس نهد مريم وتعجب أن تحسه منتفخاً؛ والذراع المربوطة للقبالة التي لم تشأ تصديق الحبل ببلادنس دون أن تلمس يدها؛ والنطاق الذي ترمي به العذراء إلى القديس توما لتقدم له البرهان على قيامتها؛ وذلك الحجاب أيضاً الذي تنتزعه العذراء عن صدرها لتحجب به عري ابنها الذي تجمع الكنيسة من أحد جنبيه الدم الذي هو شراب سرّ القربان المقدس، فيما يقف الكنيس اليهودي الذي حلت نهاية عهده في الجانب الآخر معصوب العينين يحمل صولجاناً نصف محطّم ويقلت منه إلى جانب التاج الذي يسقط عن رأسه لوحى الشريعة القديمة؛ والزواج الذي إذ يساعد زوجته الشابة، ساعة الدينونة الأخيرة، على مغادرة القبر يضغط بيدها على قلبه ليطمئنها ويرهن لها أنه يخفق حقاً، أقما تلك كذلك فكرة لطيفة ولقبة بديعة؟ والملاك الذي يذهب بالشمس والقمر وقد أصبحا لا جدوى منهما بما أنه قبل أن نور الصليب سيكون سبع مرّات أكثر قوّة من نور الكواكب؛ وذلك الذي يغمس يده في الماء المعدّ لحمام يسوع ليرى إن كانت سخوته كافية؛ وذلك الذي يخرج من السحاب ليضع الإكليل على جبين العذراء؛ وجميع أولئك الذين ينحنون من أعالي السماء بين أعمدة شرفات أورشليم السماوية ويرفعون أيديهم من دعر أو ابتهاج لدى رؤية عذابات الأشرار وسعادة المختارين! فإن أمامك ههنا جميع دوائر السماء وإنها لمقطوعة شعريّة لاهوتية ورمزية عملاقة. ذلك من دنيا الجنون، ذلك من دنيا الآلهة وإنه ليفوق ألف مرّة كلّ ما ستشاهده في إيطاليه حيث تمّ على آية حال نقل هذا الإفريز نقلاً حرفياً على يد نحّاتين أقلّ نبوغاً بكثير. فأنت تدرك أن كلّ ذلك مسألة نبوغ. ليس ثمة فترة يتمتّع فيها كل الناس بالنبوغ، فكلّ ذلك مجرد مزاح ربّما فاق رواية العصر الذهبيّ. صدّقني، إن الذي قام بنحت هذه الواجهة كان في مثل اقتدار جماعة اليوم الذين تعجب بهم أشدّ الإعجاب وكان صاحب أفكار في مثل عمق أفكارهم. ولو ذهبنا سوياً لأريتك ذلك. إن ثمة بعض أقوال من رتبة صلاة "انتقال العذراء" ترجمت بحذافاة لم يبلغ مثلها "رودون".

لم تكن تلك الرؤيا السماوية التي كان يحدثني عنها ولا تلك القصيدة اللاهوتية العملاقة التي كنت أدرك أنها سطرّت هناك، لم تكونا مع ذلك، حينما انفتحت عيناى اللتان تعجّان بالأسواق أمام الواجهة، ما رأيت. فقد حلّته عن تماثيل ضخمة لقديسين وضعت فوق طوالات وتولّف نوعاً من الممرّ العريض. فقال لي: "إنه ينطلق من أقصى العصور ليقضي في النهاية إلى يسوع المسيح. فمن جهة أجداده بالروح ومن جهة أخرى ملوك يهوذا أجداده بحسب الجسد. إن جميع القرون ماثلة هنا. ولو أمعنت النظر في ما بدا لك أنه طوالات لاستطعت أن تسمي الجاثمين فوقها، فتحت قدمي

موسى كنت عرفت العجل الذهبي، وتحت قدمي إبراهيم الكيش، وتحت قدمي يوسف الشيطان الذي يقدم المشورة لامرأة "بوتيفار".

وقلت له كذلك إنني كنت أتوقع رؤية بناء فارسيّ تقريباً وإن ذلك دونما ريب من أسباب تقديرى الخاطئ. فأجاب قائلاً: "لا، في قولك الكثير من الصحة. فإن بعض الأقسام شرقية تماماً. وهناك تاج عمود ينقل موضوعاً فارسياً بدقة بلغت حدّاً لا يكفي معه استمرار التقاليد الشرقية لشرحها. ولا بدّ أنّ النحات نقل عن صندوق صغير حملة بحّارة معهم." وسوف يريني بالفعل فيما بعد صورة تاج عمود أبصرت عليه تنانين صينية إلى حدّ ما يفترس بعضها بعضاً، ولكنّ هذه المنحوتة الصغيرة لم تسترّع انتباهي داخل مجمل البناء الذي لم يكن يشبه ما أرّنتي إيّاه تلك الكلمات: "كنيسة فارسية تقريباً".

لم تكن المسرّات الفكرية التي كنت ألتذوقها داخل ذاك البناء، لم تكن لتحول دون أن أحسّ بالألوان الدافئة ونصف عتمة الحجرة المتألّفة، وفي أقصى النافذة الصغيرة التي يكتنف جنباتها زهر العسل، في الشارع الريفيّ تماماً، بصلابة جفاف الأرض التي تحرقها الشمس ولا يحجبها سوى شفافية البعد وظلال الأشجار، مع أنها جميعها تحيط بنا كأنما رغم إرادتنا. وربما جاء الهناء اللاواعي الذي يبعثه في نفسي ذلك النهار الصيفيّ يزيد، على نحو ما يفعل الرافد، الفرح الذي تبعثه في نفسي رؤية "مرفأ كاركتوي".

كنت أحسب "إيلستير" متواضعاً ولكنني أدركت أنّني كنت على ضلال إذ رأيت وجهه تلوّنه الكتابة حينما جئت على ذكر كلمة المجد في معرض شكريّ له. فالذين يعتقدون أنّ أعمالهم خالدة - وكانت تلك حال "إيلستير" - يتخذون عادةً وضعها في حقبة ليسوا من بعد فيها سوى تراب. وإنّما تأثير فكرة المجد أشجانهم إذ تضطربهم إلى التفكير بالزوال لأنها لا تنفصل عن فكرة الموت. وغيّرت الحديث لأبدّد سحابة الكتابة المستكبرة تلك التي حملتُ بها جبين "إيلستير" غير متعمد. فقلت له وأنا أفكر في الحديث الذي تبادلناه مع "لوغراندان" في "كومبريه" والذي كان يسرّني أن أسمع رأيّه فيه: لقد أشاروا عليّ أنّ لا أذهب إلى مقاطعة "بريتانيه" لأنّ ذلك ضارٌّ بالنسبة إلى ذهن ميّال إلى الأحلام. فأجابني قائلاً: "لا، لا، حينما يكون الدهن ميّالاً إلى الأحلام فلا ينبغي أن نقصيه عنها وأن نخصّه منها بمقادير. فإنّ ذهنك لن يعرف أحلامه مادمت تصرفه عنها. وسوف تصبح ألعوبة ألف من الظواهر لأنّه لم يتسنّ لك إدراك طبيعتها. ولكن كان قليل من الحلم أمراً خطيراً، فليس مايشفيك منه قدراً من الحلم أقلّ بل قدراً أكبر، بل كامل الحلم. جدير بالمرء أن يعرف أحلامه معرفة كلية كي يعاني منها فيما بعد. وثمة نوع من الفصل بين الحلم والحياة غالباً مايجدي أن نقوم به حتى لأتساءل إن لم يجدر بنا ممارسته على سبيل الاحتياط وعلى نحو وقائي مثلما يزعم بعض الجراحين أنّه ينبغي إزالة الزائدة الدودية لدى جميع الأطفال لتفادي إمكان حدوث التهاب الزائدة مستقبلاً".

كنّا قد ذهبنا أنا و"إيلستير" إلى أقصى المرسم أمام النافذة التي تشرف من خلف الحديقة على شارع عرضاني ضيّق يكاد أن يكون درباً صغيراً في قرية. وقد جئنا إلى هناك لنستنشق هواء أواخر

مابعد الظهر وقد أصبح بارداً. وكنت أحسبني بعيداً عن فتيات المجموعة الصغيرة فقد انصرفت في النهاية لرجاء جدتي أن أبادر للقاء "إيلستير" وذلك إذ ضحيت لمرة واحدة بأمل لقائهن. ذلك أن المرأة لا يدري أين يوجد ما يبحث عنه وغالباً ما يتعد فترة طويلة عن المكان الذي يدعوننا إليه الجميع لأسباب أخرى. ولكننا لانشك بأننا ربما رأينا فيه بالضبط الشخص الذي نفكر فيه. كنت أنظر على نحو غير محدد إلى هذا الدرب الريفي الذي كان خارج المرسم ويمر قريباً جداً منه ولكنّه ليس ملكاً لـ "إيلستير". وفجأة ظهرت تسير فيه بخطى سريعة راكبة الدراجة الفتية التي من المجموعة الصغيرة، وعلى شعرها الأسود قبعتها التي تخفضها على وجنتيها السمينتين وعينيها المرتحتين للملاحتين بعض الشيء، وفوق ذلك الدرب السعيد الحظ الذي امتلأ على نحو عجيب بعذب الوجود رأيتها تحت الشجر تحيي "إيلستير" تحية صداقة مشرقة كأنها قوس قزح يجمع في نظري بين عالمنا الأرضي ومناطق حسبتها حتى ذاك متعذرة الإدراك. وزادت فاقتربت لتمدّ يدها للرسام دون أن تتوقف ورأيت أنّ لها شامة على ذقنها. وقلت لـ "إيلستير": "تعرف هذه الفتاة يا سيد؟" وأنا أدرك أنّه ربما استطاع أن يعرفني بها وأن يدعوها إلى منزله. وامتلاً ذاك المرسم الهادي بأفقه الريفي بأمر إضافي لذيذ، كما هو شأن منزل كانت تطيب الإقامة فيه لأحد الأطفال ثم هو يعلم أنّه يعدّ له إلى ذلك، بفضل السخاء الذي تتمتع به الأشياء الجميلة والناس الكرام في مضاعفة عطايهم إلى مالا حدود، عصرونية بديعة. وقال لي "إيلستير" إنّها تدعى "البييرتين سيمونية" وسَمّي لي صديقاتها الأخريات اللواتي وصفتهن له بدقة كافية لاتدع له مجالاً للشك تقريباً. وقد ارتكبت خطأ بشأن وضعهن الاجتماعي ولكن بعكس الاتجاه المعهود في "البليك". فقد كنت أنظر بسهولة إلى أبناء أصحاب حوانيت يمتطون الجياد على أنّهم أمراء. أمّا هذه المرأة فقد وضعت في وسط مشبوه بنات من البورجوازية الصغيرة الشديدة الثراء من دنيا الصناعة والأعمال. وكان ذاك الوسط لأوّل وهلة أقلّ ما يشير اهتمامي إذ لا يملك في نظري الأسرار التي تحيط بالطبقة الشعبية أو بمجتمع شبيه بمجتمع آل "غير مانت". ولا ريب أنّي ما كنت ربما أفلحت في مقاومة الفكرة التي قوامها أنّهن بنات تجار كبار لو لم يضيف عليهن إزاء عيني المفتوتتين الفراغ الباهر الذي يسم حياة الشواطئ مهابة مسبقة لن يفقدنها من بعد. ولم يسعني سوى أن أعجب إلى أي مدى كانت البورجوازية الفرنسية مُحترَفاً رائعاً لأكثر صنوف النحت تنوعاً. فكم من نموذج غير متوقع، وأي ابتكار في طابع الوجوه، وأي حزم في القسمات وآية نضارة وآية سداحة! كان يخيل إليّ أن هؤلاء البورجوازيين العتاق الذين انحدرت منهم رئات الصيد وهاتيك الحوريات هم أعظم المثالين. وقبل أن يتسع لي الوقت لأتّبين تحوّل هؤلاء الفتيات على الصعيد الاجتماعي، ولشدة ما تتخذ اكتشافات العطاء تلك والتبدلات في الفكرة التي نحملها عن شخص ما آنية تفاعل كيميائي، كانت قد أقامت خلف مظهر النمط السوقي لتلك الفتيات اللواتي حسبتهنّ عشيقات متسابقين دراجات وأبطال ملاكمة فكرة أنّهنّ يستطعن تماماً أن يكن على علاقة صداقة مع أسرة هذا أو ذاك من الكتاب العُدل الذين كنّا نعرفهم. لم أكن أدري تماماً من عسى تكون "البييرتين سيمونية"، وكانت تجهل بالتأكيد ما سوف تصبح ذات يوم بالنسبة إليّ. حتى اسم "سيمونية" هذا الذي سبق أن سمعته على الشاطئ لو طلب إليّ أن أكتبه لكتبته بنون مشددة ولا يداخلني شك بالأهمية التي تعلقها تلك الأسرة على ألا تملك سوى

نون غير مشددة. فكلما انحدرت في السلم الاجتماعي تعلقت السنوية بتوافه ربما لم تكن عديمة القيمة أكثر من امتيازات الأرستقراطية ولكنها تدهشك أكثر لأنها أشد إبهاماً وأكثر التصاقاً بكل فرد. فربما كان هنالك جماعة من آل "سيمونية" قاموا بأعمال فاشلة أو ربما كان أسوأ. ومهما يكن من أمر فإن آل "سيمونية" قد غضبوا على الدوام حينما يتم تشديد النون في اسمهم وكأنما ذلك افتراء عليهم وكانوا يفخرون بأنهم قوم "سيمونية" الوحيدون بنون غير مشددة ربما فحار آل "مونمورانسي" بأنهم أول بارونات فرنسه. وسألت "إيلستير" إن كانت تلك الفتيات يقطنن "بالبيك" فأجاب بنعم بالنسبة إلى بعض منهن. كانت دارة إحداهن تقع بالضبط في أقصى الشاطئ حيث تبدأ جروف "كانا بقيل". ولما كانت تلك الفتاة صديقة كبيرة لـ "البيرتين سيمونية" فقد أصبح ذلك لي سبباً إضافياً للاعتقاد بأن هذه الأخيرة هي التي التقيت بها حينما كنت مع جدتي. صحيح أن ثمة الكثير من تلك الشوارع التي تعامد الشاطئ وتخط الزاوية نفسها إلى حد لا أستطيع معه أن أحدد بالضبط أيها كان. وإنك لتود أن تتذكر علي نحو دقيق ولكن الرؤية كانت غير واضحة في تلك اللحظة نفسها. بيد أنه كان من الثابت عملياً أن "البيرتين" وتلك الفتاة التي دخلت إلى منزل صديقتها كانتا تولفان شخصاً واحداً مفرداً. ولكنني لو أردت على الرغم من ذلك، وفيما تنتبذ الصور التي لا تحصى والتي خلفتها لدي فيما بعد لالعبة الغولف السمرء، مهما اختلف بعضها عن بعضها الآخر، (لأنني أعلم أنها تعود كلها لها) وأني لو أستعيد جبل الذكريات فبمقدوري استعراض جميع تلك الصور دون أن أبرح الشخص نفسه، وذلك تحت ستار هذا التماثل وكأنما في درب تواصل داخلي، لو أردت في مقابل ذلك أن أعود القهقري حتى تلك الفتاة التي التقيت بها يوم كنت مع جدتي فلا بد لي من العودة إلى الهواء الطلق. وإني متيقن أن من أعود فالقها هي "البيرتين" وهي نفسها التي كانت كثيراً ما تقف وسط صديقاتها أثناء النزهة تتجاوز بقامتها أفق البحر ؛ ولكن هذه الصور جميعها تظل منفصلة عن تلك لأنني لا أستطيع أن أضفي عليها على نحو لاحق هوية لم تكن تملكها في نظري أن لفت انتباهي ؛ ومهما أمكن أن يؤكد لي حساب الاحتمالات فإن تلك الفتاة ذات الوجنتين السميتين التي رمتني بنظرة شديدة الجراءة في زاوية الشارع الصغير والشاطئ والتي أظن أنه كان يمكن أن أظفر بحبها، لم أرها ألبتة ثانية بالمعنى الحصري لكلمة رأى ثانية.

فهل انضافت حيرتي بين مختلف فتيات المجموعة الصغيرة اللواتي ظلن يحتفظن كافة بشيء من السحر الجماعي الذي سبق أن بعث الاضطراب بادئ الأمر في نفسي، هل انضافت هي الأخرى إلي تلك الأسباب كي تدع لي فيما بعد، حتى في زمن حبي الأكبر - حبي الثاني - لـ "البيرتين"، ضرباً من الحرية المتقطعة والوحيدة جداً في ألا أحبها؟ لقد احتفظ حبي أحياناً ببعض "حرية الحركة" بينه وبين صورة "البيرتين" مما كان يتيح له، شأن إضاءة غير مركزة، أن ينتقل على الأخريات قبل أن يعود فيحط عليها وذلك لأنه هام بين جميع صديقاتها قبل أن يتجه نهائياً إليها. ولم يكن يبدو لي أن الصلة بين الألم الذي أحسّه في قلبي وذكرى "البيرتين" لازمة إذ ربما استطعت أن أربطها بصورة فتاة أخرى، الأمر الذي كان يسمح مقدار لحظة بملاشاة الواقع، لا الواقع الخارجي فحسب شأن الحال في حبي لـ "جيبيرت" (الذي تبين أن حالة باطنة كنت أستخلص فيها من ذاتي وحدها الميزة

الفريدة والطابع الخاص لدى من كنت أحبّ وكلّ ما كان يجعله لازماً لسعادتي)، بل حتّى الواقع الباطن والذاتيّ المحض.

- "ليس يمرّ يوم إلا وتخطر هذه أو تلك من بينهنّ أمام المرسم وتدخل لتقوم بزيارة قصيرة لي"، يقول "إيلستير" ويبحث اليأس هكذا في نفسي من جرّاء فكرة أنني لو بادرت إلى زيارته حالما طلبتُ إليّ جدّتي ذلك لكنت على الأرجح قد تعرّفت منذ زمن طويل ير "البيرتين".

وابتعدتُ ولم تعد تُشاهد من المرسم. وخطر لي أنّها بادرت إلى اللحاق بصديقاتها على السّد. ولو أتيح لي أن أكون هناك مع "إيلستير" لتعرّفت بهنّ. واستنبتت ألف حجة كي يرضى بالمجيء للقيام بجولة معي على الشاطئ. لم أعد أنعم بالهدوء نفسه الذي سبق ظهور الفتاة داخل إطار النافذة الصغيرة الشديدة السحر حتّى ذاك في ظلّ زهر العسل وهي الآن خالية تماماً. وبعث "إيلستير" في نفسي غبطة يخالطها العذاب إذ قال لي إنه سيخطو بصحّتي بضع خطوات ولكنّه مضطرّ أن ينهي بادئ الأمر القطعة التي كان يرسمها. وكانت أزهاراً ولكنّها من غير تلك التي لعلّني كنت أفضّل أن أوصيه برسمها أكثر ممّا يرسم لأحد الأشخاص كيما أطلع ممّا يكشفه لي نبوغه على ما بحثت عنه كثيراً إزاءها دون جدوى - كأزاهير الزعرور البيضاء والوردية وأزهار الترنشاه وأزاهير التفاح. وكان "إيلستير" يحدثني فيما يرسم عن علم النبات وأنا لا أصغي إليه تقريباً، فلم يعد يكفي نفسه بنفسه وقد أصبح من بعد محض الوسيط اللازم بين تلك الفتيات وبينني. والمهابة التي كان يضيفها عليه، بضع لحظات قبل ذلك. نبوغه في نظري لم تعد ذات قيمة إلا بوصفها تضفي بعض المهابة عليّ في نظر المجموعة الصغيرة التي سيتمّ تقديمي إليها على يده.

كنت في جيئة ورواح وأنا أنتظر بفارغ الصبر أن يكون فرغ من عمله وكنت آخذ دراسات لأنظر إليها وكثير منها قد تكلّس بعضه فوق بعض وصفحته إلى الجدار. وألفيتني على هذا النحو أبرز لوحة بالألوان المائية لا بدّ أنها كانت تعود إلى زمن في حياة "إيلستير" أقدم بكثير وقد بعثت في نفسي تلك النشوة الخاصة التي تجود بها أعمال فنيّة لا تتسم بصنع رائع فحسب بل تحوي كذلك موضوعاً فريداً وساحراً إليّ حدّ أنّنا نخصّه هو بقسم من سحرها كما لو لم يقع على الفنّان إلاّ اكتشاف ذلك السحر وإلاّ ملاحظته، وقد سبق أن تحقّق مادياً في الطبيعة، ونقله. فأما أن يكون وجود مثل تلك الموضوعات الجميلة حتّى بمعزل عن ترجمة الرّسام لها ممكناً فأمر يرضي فينا نزعة ماديّة فطريّة يكافحها العقل وهي بمثابة ثقل يوازن صنوف التجريد الجماليّ. وكانت - تلك اللوحة المائية - رسماً لامرأة شابة غير حلوة بيد أنّها نموذج غريب، ويغطّي رأسها منديل قريب الشبه بقبّعة مستديرة عليها حاشية شريط حريريّ كرزيّ اللون، وكانت تمسك بإحدى يديها اللتين يقفّازين من النوع النصفني لفافة مشعلة فيما ترفع الثانية على سوّية ركبتيها نوعاً من قبّعة الحداق الكبيرة وهي محض ستارة من قشّ لاتقاء الشمس، وعلى مقربة منها مزهريّة مليئة بالورود فوق طاولة كثيراً ما ينجم تميّز تلك الأعمال على وجه الخصوص، وهي الحال هنا، عن أنها نفذت في شروط خاصّة لا تبيّنها بادئ الأمر تبيّناً واضحاً، كأن تكون الملابس الغريبة لجليس نسائي، على سبيل المثال، زياً

تنكّرياً لحفلة تنكّرية راقصة، أو على العكس أن يكون المعطف الأحمر الذي لشيخ يبدو وكأنه ارتداه إرضاء لنزوة من نزوات الرسّام ثوب الأستاذ أو المستشار أو شال الكاردينال. كان طابع الالتباس لدى الشخص الذي يقع رسمه أمامي ناجماً، دون أن أدرك ذلك، عن أنه كان لممتلئة شابة من الزمن الماضي بتياب نصف تنكّرية بيد أن قبعته المستديرة التي كان شعرها منفوشاً تحتها ولكنّه قصير، وسترتها المخملية التي لا بطانة لها والتي تنشق عن صدرية بيضاء جعلتاني أتردّد حول زيّ الجليس وجنسه حتى أنني ما كنت أعلم بالضبط على ما تقع عيناى فيما عدا أنها أرقّ اللوحات المرسومة وما كان يعكّر المتعة التي توليني إيّاها سوى حشية أن يفوت عليّ "إيلستير" الفتيات إن تأخّر لأن الشمس مالت وانحدرت في السافذة الصغيرة. لم يكن شيء في تلك اللوحة المائية قد تمّت ملاحظته محض ملاحظة في الواقع وتمّ رسمه بسبب فائدته في المشهد، فالتياب لأنه ينبغي أن تكون المرأة بتيابها والمزهرية بداعي الأزهار. أمّا زجاج المزهرية الذي يُعشق لذاته فقد كان يبدو وكأنه يحتوي الماء الذي تفوص فيه سوق أزهار القرنفل في ما كان بمثل صفائه وبمثل ميوعته تقريباً. وكانت ملابس المرأة تلفها بمادّة تتسم بسحر مستقلّ وأخويّ، وإنها لو استطاعت الأعمال الصنعية أن تنافس روائع الطبيعة في سحرها لفنّاعة ولذيلة للملمس العين ونضرة الألوان كفراء قطّة وتوجيهات قرنفل وريش حمامة. وكان بياض الصدرية، وهي في نعومة الإريزير وعلى ثيابها الخفيفة جريسات كجريسات زنايق الوادي، يتلألأ بأضواء الحجرة المنعكسة وهي حادة بدورها ورقيقة في تنوع ألوانها كبقايات زهور تزيّن القماش. وكان يعلو مخمل السترة الملتصع المصّدّف، كان يعلو ههنا وهناك شيء منفضّ مفروض أزغب يذكرّك بتشتت أزهار القرنفل في الإناء. ولكنك كنت تحسّ على وجه الخصوص أنّ "إيلستير"، الذي لم يكن يبالي بما يمكن أن يبدو لا أخلاقياً في تنكّر ممثلة شائعة كان الفن الذي ستؤدّي به دورها أقلّ أهمية دونما شكّ في نظرها من الجاذب المثير الذي سوف تبديه لحواس بعض المشاهدين المتبلّدة أو المتهتكة، قد اهتّم على العكس بهذه الملامح الملتبسة وكأنّها بعنصر جماليّ أهّل لأن يبرز وقد عمل ما بوسعه ليلفت الأنظار إليه. فعلى امتداد خطوط الوجه كان الجنس يبدو وكأنّه على شفا الإقرار بأنّه جنس فتاة على شيء من الاسترجال. ثم يتلاشى، وتلقاه من جديد في نقطة بعدها يوحى أكثر ما يوحى بفكرة مخنّث فتى فاسق حالم، ثم يعادو الهرب ويظّل متعلّز الإدراك. ولم يكن طابع الكآبة الحاملة في النظرة، بتعارضه والأمور الثانوية التي من دنيا المجنون والمسرح، ما كان أقلّها إثارة. وكنت تظنّ على أية حال أنّه لابدّ مصطنع وأنّ الشخص الشاب الذي يبدو كأنّه يعرض نفسه للمداعبات في هذه البرّة المغرية قد رأى على الأرجح من المثير أن يضيف إليها التعبير الخياليّ عن عاطفة دنيئة وعن غمّ لم يجزّ السوح به. وكان قد خطّ في أسفل الرسم: "السيدة ساكربان، تشرين الأوّل ١٨٧٢" ولم أستطع أن أملك إعجابي - "أوه، لاقيمة لذلك، إنها عجالة شباب، وكانت برّة لصالح مجلة منوعات. كل ذلك بعيد جدّاً الآن -" وما الذي حلّ بالجليس؟" وحاءت دهشة أثارها أقوالي تسقّ على وجه "إيلستير" الهيمّة اللامبالية الساهية التي طرحها عليه بعد مضيّ ثانية. وقال لي: "هاه أعطني سريعاً هذه اللوحة، فإني أسمع السيدة "إيلستير" آتية. ومع أنّ المرأة الشابة ذات القبعة المستديرة لم تمثّل، بالتأكيد، أيّ دور في حياتي، فليس يجدي أن تقع عينا امرأتي على هذه اللوحة المائية. وإنّي لم أحفظ بها إلا بمثابة

وثيقة مسئلة حول المسرح في تلك الحقبة. وقبل أن يخفي "إيلستير" اللوحة خلفه حدّق إليها بانتباه، ولعله لم يرها منذ فترة طويلة وهمس قائلاً: "ينبغي أن لا أحتفظ بغير الرأس فأسفل اللوحة رديء الرسم حقاً إلى حدّ بعيد وتبدو اليدان من عمل مبتدئ". واغتمت لوصول السيّد "إيلستير" التي ستزيد في تأخيرنا. وبعد قليل اكتست حافة النافذة بلون ورديّ، ولعلّ خروجنا سيكون خسارة محضة فلم يعد ثمة أيّ نصيب لنا في لقاء الفتيات ولا أهميّة من بعد بالتالي أن تفارقنا السيّد "إيلستير" بسرعة تزيد أو تقلّ ولم تمكث على آية حال فترة طويلة جدّاً. وقد ألفيتها مملة إلى حدّ كبير. كان بوسعها أن تكون جميلة لو كانت في العشرين من سنيها تقود ثوراً في الريف الروماني ولكنّ شعرها الأسود كان آخذاً في البياض وكانت عادية دون أن تكون بسيطة لأنها تحسب أنّ فخامة الحركة وجلال الوقفة أمران يتطلّبهما جمالها المرموق الذي أفقده السنون على آية حال جميع مواطن إغرائه. وكان يؤثّر فيك ولكنّا يدهشك أن تسمع "إيلستير" يقول كلّما سنع القول وبعدوبة تفيض احتراماً كما لو يبعث في نفسه محض النطق بهذه الكلمات الحنان والإجلال: "يا جميلتي غابريلا" وحينما أطلعت فيما بعد على رسم "إيلستير" الأساطيري اكتسبت السيّد "إيلستير" في نظري أنا الآخر جمالاً. وأدركت أنّه خصّ في الواقع بطابع يكاد يكون إلهياً نموذجاً معيّناً مثاليّاً يختصره ببضعة خطوط، ببضعة رقوش عربيّة تتردّد دون انقطاع في أعماله الفنيّة، ومعياراً معيّناً، بما أنّه كرّس كامل وقته وكامل الجهد الفكري الذي يسعه القيام به وكامل حياته باختصار القول لمهمّة إبراز هذه الخطوط على نحو أفضل ونقلها نقلاً أوفر أمانة. كان ما يوحى به هذا المثل الأعلى لـ "إيلستير"، كان بالحقيقة طقوساً جليّة وصارمة إلى حدّ لا يتيح له البتّة أن يكون راضياً. كان ذلك المثل الأعلى الجزء الأكثر حفاء من ذاته: ولم يستطع من جرّاء ذلك أن ينظر إليه بتجرّد ويستخلص منه انفعالات إلى اليوم الذي لقيه فيه وقد تحقّق في الخارج، في جسم امرأة، جسم تلك التي أصبحت فيما بعد السيّد "إيلستير" والتي استطاع أن يلقاها لديها - مثملاً لا يتفّق لنا ذلك إلا بالنسبة إلى مائيس ذاتنا - جديراً بالثناء مؤثراً إلهياً. وأية راحة من جهة أخرى أن يضع شفتيه على هذا "الجمال" الذي كان ينبغي له حتى ذاك أن يستخلصه من ذاته والذي يقدّم له الآن، وقد تجسّد على نحو خفيّ، لسلسلة من صنوف المشاركة الروحيّة الفعّالة! لم يكن "إيلستير" في تلك الحقبة في فجر الشباب الذي لا ينتظر فيه تحقّق مثله الأعلى إلا من قوة الفكر فقد كان يقترب من السنّ التي يعتمد المرء فيها على قضاء حاجات الجسد لحفز قوى الروح والتي يشرع فيها تعب الروح، بالميل الذي يبعثه فينا إلى المادّيّة، وتناقض النشاط بإمكان تقبّل مؤثرات دون مقاومة، يحملنا على الإقرار بأنّ ثمة بعض الأجسام وبعض المهن وبعض الإيقاعات المتميّزة التي تحقّق مثلنا الأعلى على نحو تلقائيّ حتى لأنّناي براعة فنيّة حتى دونما نبوغ وبمحض نقل حركة كتف وتوتر عنق. إنها السنّ التي نعشق فيها مداعبة الجمال بالعين خارج ذواتنا، وبالقرب منا، وفي طنفسه، وفي رسم أوّل جميل لـ "تيتسيانو" يُعثر عليها لدى تاجر سلع عتيقة، ولدى عشيقه في مثل جمال لوحة "تيتسيانو". وحينما أدركت ذلك لم أعد أستطيع رؤية السيّد "إيلستير" دون أن تداخلني الغبطة وفقد جسمها من ثقله لأنّني ملأته بفكرة، فكرة أنها مخلوقة لا مادّيّة ورسم من أعمال "إيلستير". ولقد كانت رسماً في نظري وفي نظره هو الآخر دون شك. إن معطيات الحياة لا تدخل في حساب الفنان وليست في

نظره سوى فرصة للكشف عن عبقريته وإنك لتحسّ تماماً إمّا رأيت عشرة رسوم مترافقة لأشخاص مختلفين قام "إيلستير" بتنفيذها أنها قبل كلّ شيء من أعمال "إيلستير". بيد أنه بعد مدّ العبقرية الصاعد هذا الذي يغمر الحياة حينما يتعب الدماغ فإن التوازن يتحطّم شيئاً فشيئاً وتعود الحياة إلى التغلّب كمثّل نهر يستعيد مجراه بعد التيار المعاكس الناجم عن مدّ عظيم. فقد استخلص الفنان شيئاً فشيئاً في أثناء امتداد الفترة الأولى قانون عطائه اللاواعي وصيغته. إنه يعرف آية مواقف إن كان روائيا وآية مناظر إن كان رساما، تزوده بالمادة التي لا أهمية لها في حدّ ذاتها ولكنها ضرورية لبحوثه كما هي حال المخبر أو المرسوم، وهو يعلم أنه صنع روائع بتلاعب أضواء مخففة ووخزات ضمير تبدّل من فكرة الذنب، وبوساطة نسوة يقفن تحت الأشجار أو يغمرهنّ الماء إلى النصف على هيئة تماثيل. ثم يأتي يوم لن تتوافر له فيه من بعد، من جرّاء وهن دماغه، القدرة على القيام، إزاء تلك المواد التي كانت تستخدمها عبقريته، بالجهد الفكري الذي يستطيع وحده إنتاج عمله الفنيّ، ولكنه سوف يوالي السعي خلفها ويسعد بوجوده بالقرب منها بسبب المتعة الروحية التي توقظها في نفسه، وإن هي إلا بداية العمل وهو، إذ يحيطها بنوع من المعتقد الخرافي كما لو كانت تسمو على الأمور الأخرى وكما لو يكمن فيها مدّ ذاك جزء وافر من العمل الفنيّ الذي تحتويه جاهزاً إلى حدّ ما، لن يمضي إلى أبعد من التردّد على النماذج والشغف بها. فسوف يتحدث بلا نهاية إلى مجرمين أدركتهم التوبة وآلّف تبيكت ضمائرهم واصطلاحهم بالأمس موضوع رواياته، ويتنازع منزلاً في الريف في منطقة يخفّف فيها الضباب النور، ويقضي ساعات طوالاً ينظر إلى نسوة يستحمن، ويجمع الأقمشة الجميلة وهكذا كان جمال الحياة، وهو قول خلو إلى حدّ ما من المدلول ومرحلة واقعة قبل حدود الفنّ، وقد رأيت "سوان" فيما مضى يتوقّف فيها، المرحلة التي سيتراجع شيئاً فشيئاً إليها ذات يوم أمثال "إيلستير" من جرّاء تباطؤ العبقرية الخلاقة والولع بالأشكال التي كانت عوناً لها والرغبة في إنفاق أقلّ جهد ممكن .

وكان قد أتى أخيراً على وضع آخر جرة ريشة في أزهاره. وأضعت لحظة في النظر إليها، وما كان لي فضل في الإقدام على ذلك لأنّي أعلم أن الفتيات لن يكنّ على الشاطي. على أنّي كنت سأنظر إليها حتى لو حسبت أنّهن لا يزلن هناك وأن هذه الدقائق الضائعة تفوتنّ عليّ، إذ كنت ربّما أقول في نفسي إن "إيلستير" يهتّم بأزهاره أكثر منه بلقائي مع الفتيات. كانت طبيعة جدّيّ، وهي بالضبط نقيض أنايتي الكليّة، تنعكس مع ذلك في طبيعتي. فقد كنت، في ظرف لا يتعرّض فيه فرد لا أبالي به، وقد أظهرت دوماً له المودة أو الاحترام، إلّا للإزعاج فيما أنا فيه عرضة للخطر، كنت لا أستطيع إلّا أن أرثي لحاله ممّا ألمّ به من إزعاج وكأنّما من أمر جليل. وأن أحسب الخطر المحيّق بي كلاشيء. إذ كان يبدو لي أن الأمور لابدّ ظاهراً له بهذه المقاييس. وكنت أذهب، كيما أقول الأمور على حقيقتها، حتى إلى أبعد من ذلك فلا أكتفي بأن لا أسف للخطر الذي أعرّض له بل أسعى إلى مجابهة ذلك الخطر وأحاول على العكس فيما يخصّ الخطر المحيّق الآخرين أن أجنبهم إيّاه حتى ولو أصبحت أكثر عرضة لأن أصاب أنا. ومردّ ذلك أسباب عدّة ليست في صالحني. منها أنّي إن كنت أعتقد على وجه الخصوص، ما دمت أتفكّر في الأمور فحسب، أنّ

الحياة غالية على، ففي كل مرة ألفتني في غضون حياتي تحاصرني هموم أخلاقية أو اضطرابات عصبية فحسب، وهي صبيانية أحياناً حتى لتخونني الجراحة في روايتها، إن اتفق أن يحلّ آنذاك ظرف غير متوقع يحمل لي في طياته احتمال أن ألقى حتفي، كان هذا الاهتمام الحديد طفيفاً بالنسبة إلى غيره إلى حدّ أنني كنت أستقبله بشعور من الارتياح يبلغ حدّ الابتهاج. وقد اتفق هكذا أن عرفت هذا الأمر الذي كان يبدو لي، حينما أعمل الفكر، غريباً عن طبيعتي ويصعب إلى حدّ بعيد تصوّره، عنيت نشوة الخطر، مع أنني أقلّ الناس شجاعة بيد أنني حتى لو كنت، حينما يداهم خطر مميت، في فترة كلية الهدوء والسعادة، لا يسعني إن كنت برفقة شخص آخر إلا أن أضعه في مأمن وأن أختار لنفسني المكان الخطير. وعندما علّمني عدد كبير كاف من التجارب أنني كنت أتصرّف دوماً على هذا المنوال وبسرور، اكتشفت، وأعظمي خجلتي، أن سبب ذلك أنني كنت شديد التأثر برأي الآخرين بعكس ما اعتقدت دوماً به وأكدته. وليس لهذا النوع من الاعتزاز الخفي بالنفس أية علاقة بالزهو أو الكبرياء. ذلك أن ما قد يرضي هذه أو ذاك لا يبعث في نفسي أية مسرة وقد أحججت دوماً عنه ولكن الجماعة الذين أفلحت أمامهم في إخفاء المكاسب الصغيرة التي كان يمكن أن تزودهم عني بفكرة أقلّ رداءة لم أستطع في يوم أن أحجب عن نفسي متعة أن أظهر لهم أنني أهتم باستبعاد الموت عن دربهم أكثر مني عن دربي. وبما أنّ الدافع لديّ آنذاك هو الاعتزاز بالنفس لا الفضيلة، فإني من الطبيعي جداً أن يتصرّفوا في كل مناسبة على نحو مغاير. وما أبعدني عن أن ألومهم في ذلك، ولعلني كنت ربما أقدم علي الأمر لو كان الدافع لديّ فكرة واجب سيبدو لي في هذه الحالة ملزماً لهم ولي على حدّ سواء. وإني على العكس أجدهم حكماء إلى حدّ بعيد في المحافظة على حياتهم في حين لا أستطيع أن أحول دون أن أضع حياتي في الموقع الثاني، الأمر الذي يبدو محالاً ومستكراً على نحو خاص منذ أن خلّفتي أثبتت أن حياة العديد من الناس الذين أقف أمامهم حينما تنفجر قبلة أقلّ قيمة بكثير. بيد أنّ الفترة التي كنت سأعني فيها فارق القيمة هذا كانت لا تزال بعيدة يوم تلك الزيارة لـ "إيلستير" ولم يكن ثمة من خطر وإنما مجرد ألا يبدو عليّ أنني أعلّق على المتعة التي كنت أتحرّق شوقاً إليها، وذلك نذير للاعتزاز الخبيث بالذات، أهمية أكبر ممّا على عمل الرسّام المائي الذي لم يفرغ منه. وأخيراً تمّ ذلك وما إن أضحيّت خارجاً حتى تبين أن الوقت أبكر ممّا كنت أعتقد، لشدة امتداد النهار في ذلك. الفصل، وذهبتنا إلى السّد، وكم حيلة لجأت إليها كي أحمل "إيلستير" على المكوث في المكان الذي كنت أحسب أنه لا يزال يمكن أن تمرّ الفتيات منه! وما كنت أكفّ، وأنا أريه الجروف التي تتعالى بالقرب منّا، عن سؤاله التحدّث عنها كيما أنسيه الساعة وأحمله على المكوث وبدا لي أننا سنكون أوفر حظاً في تطويق الجماعة الصغيرة بالذهاب إلى أقصى الشاطئ قلت لـ "إيلستير" وقد لاحظت أن إحدى تلك الفتيات كانت كثيراً ما تذهب إلى تلك الجهة: "وددت أن أشاهد معك هذه الحروف من مكان أقرب بقليل" وأضفت دون أن أفكر بأن طابع الحدة الذي كان يتجلّى بهذا القدر من القوة في "مرفأ كاركتوي" من أعمال "إيلستير"، إنّما يعود ربما إلى رؤية الرسّام أكثر منه إلى مزية خاصة بهذا الشاطئ 'حدثني عن "كاركتوي" في هذه الأثناء آه! كم أودّ الذهاب إلى "كاركتوي" أربما كان، منذ أن رأيت هذه اللوحة، أكثر ما أتوق إلى معرفته بالإضافة إلى "رأس راز" الذي ربّما اقضى من هنا رحلة كاملة على

آية حال" فأجابني "إيلستير": "وحتى لو لم يكن أكثر قرباً فسوف أشير عليك مع ذلك بـ"كاركتوي". إن "رأس راز" رائع ولكنه في نهاية المطاف لا يزال الحرف النورماندي أو البريتاني العظيم الذي تعرفه. أما "كاركتوي" فأمر مختلف تماماً بصحوره التي تمتد على شاطئ خفيض ولست أعرف في فرنسه ما يضاهيه ويدكرني ذلك بالأحرى ببعض مناظر فلوريدا. إنه غريب جداً وهو على أية حال موحش إلى حد بعيد كذلك. وهو واقع بين "كليثور" و"ينهوم" وتعلم مدى إقفار هذه النواحي، إن خط الشواطئ لساحر إن الشاطئ عادي هنا، أما هناك فلست أستطيع أن أقول لك بأي سحر يتسم وأية عدوبة."

وحلّ الليل وانبغي أن نعود، وكنت أعيد "إيلستير" باتجاه دارته حينما برزت فجأة في أقصى الشارع، كـ"مفيسو فيليس" يطلع فجأة أمام "فاوست"، وكأنما ذاك محض تجسيد خيالي شيطاني للمزاج المناقض لمزاجي والحيوية الهمجية القاسية التي خلا منها ضعفي وفرط حساسيتي المولمة ونزعتي الفكرية - بعض بقع من الجوهر الذي يستحيل الخلط بينه وبين أي شيء آخر، بعض أعداد متفرقة من مجموعة الفتيات المرجانية، وكُن يبدن وكأنهن لا يرينني، ولا يستبعد مع ذلك أنهن كنّ ولا شك يطلعن عليّ آنذاك حكماً ساخرًا. ولما أحسست أن اللقاء بينهما وبيننا واقع حتماً وأن "إيلستير" يزعم أن يناديني أدركت ظهري كسباح يوشك أن يتلقى الموجة، وتوقفت تماماً وتركت رفيقي الذائع الصييت يوالي طريقه وظللت في الخلف أنحني صوب واجهة بائع عاديّات كنا نمرّ أمامه في تلك اللحظة وكأنما أخذني اهتمام مفاجئ بتلك الواجهة. وما كان يغضبي أن أبدو قادراً على التفكير بغير تلك الفتيات وأعلم مذاك على نحو غامض أنني سوف أتخذ، حينما يدعوني "إيلستير" كي يقدمني، نوع النظرة المستفسرة التي تكشف لا عن الدهشة، بل عن رغبة المرء في أن يبدو في دهشة - على قدر ما يبدو كل منا مثلاً رديفاً أو القريب طويل باع في القراسة - وأنني ربما بلغ بي الأمر أن أشير إلى صدري بالبنان كي أسأل: "أهو أنا الذي تناديه؟" وأسرع والرأس مخفوضة طاعة وخضوعاً والوجه يخفي ببرودة الإزعاج من جرّاء أنني أقصى عن تأمل خزيّات عتيقة ليتمّ تقديمي إلى أشخاص لا أرغب في معرفتهم. كنت في تلك الأثناء أنظر إلى الواجهة بانتظار اللحظة التي سينطلق فيها اسمي من فم "إيلستير" ليصيبني مثل رصاصة مرتقبة وغير مؤذية. وكان من نتيجة يقيني بتقديمي إلى الفتيات لا أن أمثل إزاءهن دور اللامبالاة فحسب بل أن أحسّ بها. وتمّ كنتم متعة التعرف بهنّ، وقد أضحت مذاك محتمة، وتمّ تقليصها فبدت لي أقلّ من متعة التحدّث إلى "سان لو" وتناول العشاء مع جدتي والقيام برحلات في الضواحي سوف آسف أن أضطرّ على الأرجح إلى إهمالها من جرّاء علاقتي بأشخاص قليلي الاهتمام بالآثار التاريخية. ولم يكن ما يخفف من المتعة التي ساصبها وشوكت تحقيقها فحسب بل فوضى تحقيقها إن قوانين في مثل دقة تلك التي تحكم توازن السوائل تحافظ على تنصّد الصور التي نولفها في ترتيب ثابت يقلبه قرب حلول الحدث رأساً على عقب. كان "إيلستير" يزعم أن ينادي عليّ، وما كنت تصورت على الإطلاق لافي غرفتي ولا على الشاطئ أنني سأتعرف على هذا النحو بتلك الفتيات. أما ما كان يوشك الوقوع فحدث مختلف لم أكن معداً له، وما كنت أتعرف فيه لا شوقي ولا موضوعه، وكدت آسف أن أكون خرجت مع

"إيلستير". وهناك على وجه الخصوص تقليص المتعة التي ظننتني بادئ الأمر سأصيبها ومردّها اليقين بأن ليس ثمة ما يستطيع من بعد انتزاعها مني. فاستعادت وكأنما بفضل قوة مطاطة كامل ارتفاعها حينما كُفّت عن معاناة كابوس ذلك اليقين في اللحظة التي قررت فيها أن أدير رأسي فرأيت "إيلستير" الذي وقف على بضع خطوات مع الفتيات يستودعنهن. وكان وجهه من كانت أقربهن إليه، وهو سمين تشرق فيه نظراتها، كان يبدو وكأنه قطعة حلوى اقتطع فيها حيز لرقعة من السماء. كانت عينها، وإن شخصت نظراتها، تخلف انطبعا بالحركة مثلما يقع في بعض أيام الرياح القوية حيث يسمح الهواء، مع أنه غير منظور، تبين السرعة التي يمر بها على زرقة السماء. والتقت نظراتها بنظراتي مقدار لحظة كصفحات السماء المرحلة أيام العاصفة والتي تقترب من سحابة أقل سرعة فتحاذيها وتلامسها وتجاوزها ولكننا يجهل بعضها بعضاً وتمضي بعيداً عن بعضها. كذلك تقابلت نظراتنا مقدار لحظة وكل منها يجهل ما تتضمنه القارة السماوية الماثلة أمامه من وعود وصنوف وعيد بالنسبة إلى المستقبل. بيد أن نظراتها غامت قليلا في اللحظة التي مرت فيها بالضبط تحت خط نظراتي دون أن تخفّف سيرها. كذلك القمر، في ليلة صافية تدفعه فيها الرياح، يمر تحت سحابة ويحجب إشراقه لحظة ثم سرعان ما يعود إلى الظهور. ولكن "إيلستير" كان قد فارق الفتيات دون أن يناديني وسلكن طريقاً مختصرة، أما هو فأقبل نحوي. لقد انهار كل شيء.

قلت إن "البيرتين" لم تبد لي في ذلك اليوم مثلها في الأيام السابقة وسوف تبدو لي في كل مرة مختلفة. ولكنني شعرت في تلك اللحظة أن بعض التبدلات في مظهر شخص وأهميته وحجمه يمكن أن تنجم كذلك عن قابلية التحول في بعض الحالات التي تقف بين هذا الشخص وبيننا. وأن إحدى الحالات التي تلعب أهم دور بهذا الصدد إنما هي الظن (فظني في ذلك المساء بأنني سأتعرف إلى "البيرتين" ثم زواله جعلها بفواصل بضع ثوان غير ذات شأن تقريبا في عيني ثم عظمة الأهمية إلى ما لا حدود، وبعد بضع سنوات حمل إلي ظني ثم زوال الظن بأن "البيرتين" كانت تخلص لي تغييرات مماثلة).

صحيح أنه سبق لي في "كومبريه" أن رأيت غمي أن لا أكون بالقرب من أمي يتناقض أو يتعاضد وفق الساعات وحسبما ألح هذه أو تلك من الصغيتين الكبيرتين اللتين تتوزعان إحساسني، غمي ذاك وهو طوال بعد الظهر خفيّ خفاء ضياء القمر ما دامت الشمس ساطعة ثم هو إذ يحل الليل يسود وحده نفسي القلقة بدلا من ذكريات واهنة قريبة. بيد أنني علمت في ذاك اليوم، إذ رأيت "إيلستير" يفارق هؤلاء الفتيات دون أن يناديني، أن تبدلات الأهمية التي ترتديها في نظرنا هذه المتعة أو ذاك الغم يمكن أن لا تنجم عن تناوب هاتين الحالتين فحسب بل عن تبدل في مكان اعتقادات خفية تبرز لنا الموت على سبيل المثال غير ذي شأن لأنها تسكب عليه ضياء من دنيا الأوهام وتتيح لنا هكذا أن نعلّق أهمية على ارتياد أمسية موسيقية قد تفقد من سحرها إن زال فجأة لدى نبأ مفاده أننا سوف نرد الموت على المقصلة، الاعتقاد الذي يغمر هذه الأمسية. صحيح أن شيئا في داخلي كان يعلم دور الاعتقادات هذا، عنيت الإرادة، ولكنها عبثا تعلمه إن استمرّ العقل والإحساس في تجاهله. وهذان الأخيران صادقان حينما يظنان أننا نرغب في هجر عشيقه تعلم إرادتنا وحدها أننا متعلقون

بها. ذلك أنه يغشّي عليهما الاعتقاد بأننا سوف نلقاها ثانية بعد لحظة. فإن زال ذلك الاعتقاد وعرفا فجأة أن هذه العشيقة ذهبت إلى غير رجعة فإن العقل والإحساس يضحيان آنذاك، وقد فقدتا تركيزهما، كمن فقد عقله وتتعاظم المتعة الهينة إلى مالا حدود.

تبدل في الاعتقاد وعدمية الحب كذلك، الحب السابق الوجود والمتنقل الذي يتوقف أمام صورة امرأة لمحض أن تلك المرأة تكاد تكون متعذرة المنال. والمرء مذ ذاك يفكر في المرأة التي يتمثلها بصعوبة، أقل مما في وسائل التعرف إليها وتنمى فينا حالة كاملة من صنوف الضيق النفسي وتكفي لتثبيت حينا فيها، هي موضوعه الذي نكاد لا نعرفه ويصبح الحب مترامي الحدود، ولسنا نفكر إلى أي مدى تشغل المرأة الحقيقية فيه حيزاً ضيقاً. فإن خلونا فجأة من القلق وضيق النفس، شأني في اللحظة التي رأيت فيها "إليستير" يتوقف مع الفتيات فإنه ليبدو فجأة، بما أنها هي التي تولف كامل حينا، أن هذا الأخير قد تلاشى أن نمسك أخيراً بالطريدة التي لم نفكر تفكيراً كافياً بما تساوي. فما عساني كنت أعرف عن "البيرتين"؟ صورة جانبية أو اثنتان على البحر أقل جمالا بالتأكيد من صورة نسوة "فيرونيز" اللواتي كان يجدر بي أن أفضلهن عليها لو انقذت لأسباب جمالية بحتة. ولكن هل كان يمكن أن أنقاد لأسباب أخرى بما أنني لا أستطيع، بعد زوال قلقي، أن ألقى سوى تلك الصور الجانبية الصامتة ولا أملك شيئاً غيرها؟ فمنذ أن أبصرت "البيرتين" انتابني كل يوم بشأنها آلاف الأفكار وتابعت مع ما كنت أسميه أنا وهي حواراً داخلياً كاملاً كنت أسألها فيه وأجعلها تحيب وتفكر وتعمل. وما كانت "البيرتين" الحقيقية التي لمحتها على الشاطئ، ما كانت تبرز، ضمن سلسلة لا محدودة من أصناف لـ "البيرتين" متخيلة تتالي في صدري ساعة إثر ساعة، إلا في المقدمة، مثلما لا تظهر النجمة، "ميتكة" الدور، في سلسلة طويلة من العروض، إلا في العروض الأولى فحسب و"البيرتين" تلك كانت محض طيف تقريباً، وكل ما انضاف إليها كان من ابتكاري لشدة ما تطفئ الإسهامات التي تأتي عن طريقنا في مجال الحب - حتى إذا لم ننظر إلا من وجهة نظر الكم - على تلك التي تجئنا عن طريق المحبوب. وإن ذلك ليصح في صنوف الحب الفعلية كأكثر ما تكون. فمنها ما يمكن لا أن يتكون فحسب بل أن يبقى حول الزهيد من الأمور - حتى من بين تلك التي نعمت باستجابة جنسية فقد رزق أستاذ سابق لجدتي في مادة الرسم ابنة من عشيقة مغمورة. وماتت الوالدة بعد مولد الطفلة بوقت وجيز فاغتم مدرس الرسم من جراء ذلك غماً عظيماً لم يمهله بعدها فترة طويلة. وفي الأشهر الأخيرة من حياته فكرت جدتي وبعض سيدات من "كومبريه" لم يشأن في يوم حتى التلميح إلى تلك المرأة في حضرة أستاذهن، ولم يكن عاش معها على أية حال علنياً وكانت علاقته بها قليلة، أن يضمن مصير الابنة الصغيرة بالتشارك ما بينهما لتأمين إيراد لها مدى الحياة. وكان أن قدمت جدتي بعرض الأمر، واضطرت إلى زجر بعض الصديقات: فهل كانت تلك البنية جدية حقاً بالاهتمام، وهل كانت حتى ابنة ذلك الذي يظن أنه والدها؟ فلا يمكن البتة أن تكون على ثقة مع نساء على شاكلة الأم. وأخيراً قرّ رأيهن. وجاءت البنت الصغيرة تقدم الشكر، وكانت قبيحة وشبيهة بمدرس الرسم العجوز شهباً قطع جميع الشكوك. ولما كان شعرها كل ما تملك من أمر حسن فقد قالت سيدة للأب الذي جاء بها: "ما أجمل شعرها!"

وأضافت جدتي وفي اعتقادها أن التلميح إلى ذاك الماضي الذي تظاهروا دوماً بتجاهله لم يعد ذا مغزى إذ ماتت المرأة المذنبه وأصبح الأستاذ شبه ميت: "ذلك لابد في الأسرة، فهل كان لوالدتها مثل هذا الشعر الجميل؟" وأجاب الوالد بسداجة: "لست أدري، فما رأيها قط إلا بقبعة".

كان لابد من اللحاق بـ "إيلستير" ولمحت نفسي في مرآة، فلاحظت، علاوة على الكارثة التي حلت بي من جراء أنني لم أعترف بهن، أن ربطه عنقي بالورب وأن قبعتي تكشف عن شعري الطويل، وما كان يلائمني بيد أنه كان من حسن الحظ مع ذلك أن التقين بي حتى على هذا النحو مع "إيلستير" ولايستطعن أن ينسيتني وكان من حسن حظي أيضاً أن ارتديت في ذلك اليوم، بناء على مشورة جدتي، صدرتي الحلوة التي كنت على وشك تبديلها بأخرى قبيحة وأن حملت أجمل عصا لدي، ذلك أنه لا يتم ألبة حدث نرغب فيه على غرار ما فكرنا فإن حسنات أخرى ما كنا نأمل فيها تبرز لنا بدلا من الحسنات التي ظننا أننا نستطيع الاعتماد عليها، والكل يتعادل. وكنا نخشى ما كان أسوأ إلى حد أننا نميل في النهاية إلى أن نرى أن المصادفة في المجموع ككل كانت بالأحرى إلى جانبنا وقلت لـ "إيلستير" إذ وصلت بالقرب منه: "قد كنت سرور كثيراً لوتعرفت إليهن" - فلماذا تظلل إذن على بعد أميال؟ "كانت تلك الأقوال التي تفوه بها، لا لأنها تعرب عن فكرته، فلو أنه كان راغباً في الاستجابة لرغبتي لكان من السهل تماماً عليه أن يناديني، بل ربما لأنه سمع جملاً من هذا النوع المألوف لدى أناس عاديين أخذوا بحرم، ولأن الرجال العظام أنفسهم شبيهون بالأناس العاديين في بعض الأمور ويتناولون الأعدار اليومية من الجعبة نفسها مثلما يتناولون الخبز اليومي لدى الخباز نفسه، وإما لأن مثل تلك الأقوال التي ينبغي أن تُقرأ بالمقلوب إلى حد ما لأن حرفها يعني عكس الحقيقة إنما هي النتيجة اللازمة لرد فعل ما وخطه البياني السلبي "لقد كنّ على عجلة من أمرهن" وفكرت أنهن منعهن على وجه الخصوص من استدعاء شخص لا يشعرن بكثير من الود نحوه، ولولا ذلك لما قصر في الأمر بعد جميع الأسئلة التي طرحتها عليه حولهن والاهتمام الذي رأى تماماً أنني أبديه إزاءهن.

وقال لي قبل أن أفارقه على عتبة بابه: "كنت أحدثك عن "كاركتوي" لقد رسمت لوحة أولية صغيرة يشاهد فيها ما يحيط بالشاطئ على نحو أفضل واللوحة لا بأس بها ولكنها شيء مختلف" ثم أضاف: "سوف أعطيك لوحتي هذه، إن سمحت، عربوناً لصدقتنا" ذلك لأن من يحرمونك الأشياء التي ترغب فيها إنما يعطونك غيرها .

- "لعلني كنت أحب كثيراً أن أحوز صورة فوتوغرافية عن رسم "السيدة ساكريان" الصغير إن كان لديك منها ولكن ما عسى يكون هذا الاسم؟" - "إنه اسم شخصية أدّى دورها جليسي في مسرحية غنائية صغيرة سخفية" - "ولكنك تعلم أنني لا أعرفها على الإطلاق ياسيدي ويبدو أنك تظن العكس". وسمعت "إيلستير". وقلت: "ليست مع ذلك السيدة "سوان" قبل زواجها"، قلت بفضل واحد من تلك التلاقيات الطارئة المفاجئة بالحقيقة، وهي إجمالاً نادرة إلى حد ما ولكنها كافية بعد وقوعها لتزود بشيء من الأساس نظرية الحذل إن وجّهنا عنايتنا إلى إغفال جميع الأخطاء التي قد

تطلبها، ولم يحر "إيلستير" جواباً، كان بالفعل رسماً لـ "أوديت دو كريسي" ولم تشأ الاحتفاظ به لأسباب عديدة بعضها بين إلى حد بعيد. وكان ثمة أسباب أخرى، فالرسم سابق للفترة التي نظمت فيها "أوديت" ملامحها فجعلت من وجهها وقامتها ذلك الابتكار الذي ينبغي أن يحترم خطوطه العريضة عبر السنين حلاقوها وخياطوها، وهي نفسها - في طريقة جلوسها وحديثها وإبتسامها ووضع يديها وإرسال نظراتها وتفكيرها - وكان لابد من فساد عاشق أدركه الشبح كيما يفضل "سوان"، على العديد من صور "أوديت" التي لا تقبل التبدل والتي تمثلها زوجته الفاتنة، الصورة الصغيرة التي في غرفته والتي ترى فيها تحت قبة من القش تزئنها أزهار بنفسج الثالوث امرأة شابة نحيلة بشعة إلى حد ما منفوشة الشعر متعبة القسمات.

وحتى لو لم يكن الرسم سابقاً لانتظام ملامح "أوديت" وفق طراز جديد، شأن الصورة الفوتوغرافية المفضلة لدى "سوان" بل لاحقاً لها لكانت رؤية "إيلستير" كافية لزرع الفوضى في هذا الطراز الفالعبقية الفنية تعمل على غرار درجات الحرارة الشديدة الارتفاع التي تتمتع بقدرة تفكيك مركبات الذرات وجمع هذه الأخيرة وفق ترتيب معاكس تماماً يوافق نمطاً آخر وإنما تهدم نظرة الرسام الكبير، كل هذا التناقض المصطنع الذي فرضته المرأة على ملامحها والذي تراقب كل يوم قبل خروجها استمراره في المرأة وتكلف القبة المائلة والشعر الأملس والنظرة اللعوب ضمانة استمراريتها، إنما تهدمها في ثانية واحدة وتقوم محلها بتجميع ملامح المرأة على نحو يرضى به مثلاً أعلى أثوياً وتصويرياً يحمله في نفسه وغالباً ما يقع كذلك أن ترى عين باحث كبير أنى كان، ابتداء من سن معينة، العناصر الضرورية لإقامة العلائق التي تهمة وحدها ولعلمهم يستطيعون، شأن هؤلاء العمال وهؤلاء المقامرين الذين لا يتشددون في أمرهم ويرتضون ما يقع تحت يدهم، أن يقولوا بصدد أي شيء إنما يفي ذلك بالغرض فقد اتفق من هذا القبيل أن أغرقت ابنة عم لأميرة "لوكسمبور" فيما مضى، وهي من أروع الجميلات، بفن كان جديداً في ذلك العصر فطلبت من أعظم الرسامين الطبيعيين أن ينجز رسمها وفي الحال وجدت عين الفنان ما تبحث عنه في كل مكان، فكان على اللوحة بدلا من السيدة الكبيرة مستخدمة صغيرة ومن ورائها منظر فسيح مائل بنفسجي اللون يذكر بك بساحة "بيغال" ولكن حتى لو لم يبلغ الأمر هذا الحد، فلن يجهد رسم امرأة على يد فنان كبير، لن يجهد على الإطلاق في إرضاء متطلبات المرأة - شأن تلك التي تدفعها مثلاً، عندما يدب المشيب، إلى أن تؤخذ لها صور فوتوغرافية بلباس بُنية تقريباً يبرز قامتها التي ظلت فتية وتبدو به وكأنها شقيقة ابنتها أو حتى ابنة ابنتها على أن "تحرّم" هذه الأخيرة بشبابها بالقرب منها إن قضت الحاجة ودعت المناسبة - وليس ذلك فحسب بل هو يبرز على العكس المساوي التي تحاول إخفاءها والتي تزيد من إغرائه لأنها تحمل "طابعاً" معيناً كممثل وجه شاحب أو حتى ضارب إلى الخضرة، ولكنها كافية لتخيب أمل المشاهد العادي وتحطم في نظره المثل الأعلى الذي كانت المرأة ترفع باعتزاز دعائمه وكان يضعها في شكلها الواحد المتفرد خارج حدود باقي البشر وأعلى منهم إلى أبعد الحدود وليست من بعد، وقد هوت من عليائها وأقامت خارج نموذجها الخاص الذي كانت تتربع فيه لا تشوبها شائبة، سوى امرأة، آية امرأة، فقدنا كل ثقتنا في تفوقها وذلك النموذج

إنما جعلنا منه قوام جمال أمثال "أوديت"، بل شخصيتها وهويتها إلى حد أنه يُسَوَّلُ لنا أمام المرسم الذي جرّدها منه لا أن نصيح قائلين: "كم لحق به من بشاعة" بل "ما أقل ما يشبهها" ونكاد لا نصدّق أن تكون هي، ولا نتعرفها بيد أن ثمة كائنات نحسّ تماماً أنه سبق لنا أن رأيناها ولكن ذلك الكائن ليس "أوديت" إن وجه ذلك الكائن وجسمه وهيئته معروفة تماماً لدينا وإنها لتذكرنا، لا بتلك المرأة التي ما كانت تقف ألبتة على هذا النحو ولا ترسم جلستها المألوفة خطوطاً غريبة ومثيرة إلى هذا الحد، بل بنساء أخريات، بجمع أولئك اللواتي رسمهم "إيلستير" واللواتي أحب على الدوام، مهما أمكن أن يكرن مختلفات، أن يجعلهن ينتصبن على هذا النحو مواجهة، والرجل مقوسة تجاوز التنورة والقبعة المستديرة الواسعة التي يمسكها باليد تقابل على نحو متناظر، على سوية الركبة التي تغطيها، تلك الاسطوانة الأخرى التي أخذت مواجهة، عنيقا الوجه والرسم العبقري أخيراً لا يفكك نموذج امرأة بحسب ما حده غنجه وتصورها الأناني للجمال فحسب، بل هو لا يكتفي، إن كان قديماً، أن يزيد في عمر الأصل على نحو ما تفعل الصورة الفوتوغرافية بإظهاره في ثياب ذهب زيه فليس يبطل في الصورة المرسومة طريقة لباس المرأة فحسب، بل كذلك الطريقة التي كان يرسم بها الفنان وكانت تلك الطريقة، طريقة "إيلستير" الأولى، قيد النفوس الأكثر فداحة بالنسبة إلى "أوديت"، لأنّه يجعل منها، شأن صورها الفوتوغرافية آنذاك، صغرة ماجنات معروفات، بل لأنّه يجعل رسمها معاصراً لواحد من الرسوم الكثيرة التي وضعها "مانيه" أو "ويستلر" نقلا عن نماذج كثيرة مرتحلة أصبحت ضحية النسيان أو ملكاً للتاريخ .

كان الاكتشاف الذي قمت به فيما يخص هوية نموذجي يدعيني إلى هذه الأفكار التي كنت أحتجّها بصمت إلى جانب "إيلستير" فيما أعود به إلى منزله حينما ساقني هذا الاكتشاف إلى آخر ثان أكثر إثارة بالنسبة إليّ ويتعلّق بهوية الفنان. لقد سبق أن أنجز رسماً لـ "أوديت دو كريسبي" فهل يمكن أن يكون هذا الرجل العبقري، هذا الحكيم، هذا المتوحد، هذا الفيلسوف ذو الحديث الرائع والذي يحيط بكل أمر، هل يمكن أن يكون الرسام المضحك الفاسق الذي احتضنه آل "فيردوران" فيما مضى؟ وسألته إن كان عرفهم وإن لم يتفق أن كانوا يلقبونه حينذاك بالسيد "بيش" فأجابني أن نعم دونما ريكة وكما لو تناول الأمر قسماً من حياته أضحى قديماً بعض الشيء وكما لولا يرتاب بأمر الخيبة الغريبة التي يعيشها فيّ، ولكنه قرأها، وهو يرفع عينيه، على صفحة وجهي وعلت وجهه دلائل الاستياء ولعل رجلاً أقل سموً بعقله وقلبه، لعله اكتفى، فيما كنّا قد وصلنا تقريباً إلى منزله بأن يستودعني بجفاء وتجنب بعد ذلك أن يلقاني من جديد ولكن "إيلستير" لم يسلك هذا المسلك معي، فقد كان يحاول، بوصفه معلماً حقيقياً ورّماً كانت سيّته الوحيدة على صعيد الإبداع البحث أن يكون معلماً حقيقياً بمعنى كلمة المعلم، هذا لأنّه ينبغي للفنان كيما يكون تماماً ضمن حقيقة الحياة الروحية أن يظل وحيداً وألا ييذر شيئاً من أنه حتى لصالح تلاميذه - ، أن يستخلص من كل مناسبة، سواء أعلقت به أم بالآخرين، ماتحتويه من حقيقة في سبيل إرشاد أفضل للشبان. وقد فضل والحالة هذه على الأقوال التي ربّما تأرت لاعتزازه بذاته تلك التي يمكن أن تعلّمني. فقال لي: "ليس من رجل مهما يكون حكيماً لم يتفوّه، في هذه الفترة أو تلك من شبابه،

بأقوال أو لم يقض حياة تزعجه ذكرها ومنيته لو يلغياها. على أنه ينبغي ألا يأسف لذلك على نحو مطلق لأنه لا يمكن له التثبت بأنه أصبح حكيماً، بقدر ما يبدو ذلك ممكناً، إلا إذا مر بجميع ضروب التجسيد المضحكة أو البشعة التي ينبغي أن تسبق هذا التجسيد الأخير. إنني أعلم أن ثمة شباناً، أبناء وأحفاداً لرجال مرموقين، عملهم مربوهم نبالة الفكر والأناقة الأخلاقية منذ المدرسة. وربما لم يقع علمهم أن يحذفوا شيئاً من حياتهم وبوسعهم أن ينشروا كل ما قالوه وأن يذيلوه بتوقعيهم، ولكنهم فقراء النفوس وذرية ضعيفة لعقائدين وحكمتهم سلبية وعقيمة. فالحكمة لا توهب ولا بدّ من اكتشافها بعد مشوار لا يستطيع أحد أن يقطعها نيابة عنا ولا يستطيع أن يجتنب إياها، إذ هي نظرة إلى الأشياء، إن الحيات التي تعجب بها والمواقف التي تجدها نبيلة لم يرتبها والد الأسرة أو المربي بل سبقتها بدايات شديدة الاختلاف وأثر فيها كل ما كان سائداً حولنا من شر أو تقاهة وإنها لتمثل كفاً وانتصاراً وإنني أدرك أن لا تكون صورة ما كنا عليه في فترة أولى واضحة المعالم وأن لا تحظى في جميع الأحوال بإعجابنا. على أنه يجدر بنا أن لا ننكرها لأنها شهادة عشناها حقاً وأنا إنما استخلصنا، وفق قوانين الحياة والفكر التي لدينا، من العناصر المشتركة في الحياة ومن حياة المخترقات والجماعات الفنية إن تعلق الأمر برسّام، ما تجاوزها "وكنا قد وصلنا أمام باب، وقد خاب أمني أن لم يتم لي التعرف بتلك الفتيات. بيد أنه قد تتوافر الآن إمكانية لقائهنّ في الحياة، فقد كففت عن مجرد المرور في أفق خلّت أنني لن أبصرهن في يوم يطلعن فيه. ولم يعد يضطرب من حولهنّ ما يشبه هذا الجيشان الكبير الذي كان يفصل بيننا وإن هو إلا ترجمة الرغبة الدائبة النشاط المتحركة الملحة التي يغدوها القلق ويبعثها في نفسي تعذّر الوصول إليهن وهروبهن ربما إلى غير رجعة. كنت أستطيع الآن أن أريح شوقي إليهنّ وأن أدخره إلى جانب الكثير غيره مما كنت أؤجل تحقيقه حالما أعلم أنه أضحي ممكناً. واستودعت "إيلستير" ووجدتني وحيداً. حينئذ رأيت دفعة واحدة في خاطري، على الرغم من خيبة أمني، جميع تلك المصادفات التي ما كنت لأرتاب بإمكان حدوثها، كان يكون "إيلستير" بالضبط على علاقة بتلك الفتيات وأن تكون أولئك اللواتي كنّ لا يزلن بالنسبة إليّ في الصباح محض وجوه في لوحة، خلقيتها البحر قد رأيتني، قد رأيتني أرتبط بصداقة رسّام عظيم أصبح يعرف الآن شوقي إلى التعرّف بهنّ وسوف يسدي له العون دونما شك. كل ذلك سبب لي متعة، ولكن تلك المتعة ظلت خفيفة عليّ، فقد كانت من أولئك الزوّار الذين ينتظرون كيما ينبئوننا بحضورهم أن يكون الآخرون قد فارقونا وأن نكون وحدنا، حينئذ نبصرهم ونستطيع أن نقول لهم: أنا ملك أيديكم، ونصغي إليهم ويتفق أحياناً أن يكون انقضى العديد من الساعات ورأينا الكثير من الناس ما بين اللحظة التي دخلت فيها تلك المتعة إلى نفوسنا واللحظة التي نستطيع فيها أن نعود إليها حتى لنخشى أن لا يكونوا انتظرونا. ولكنهم طويلاً الأناة لا يكلّون وما إن يذهب الجميع حتى نجدهم قبالتنا. وأحياناً نكون نحن المتعبين إلى حدّ يبدو لنا معه أنه لن يتوافر في فكرنا الموهن ما يكفي من قوة كي نحجز تلك الذكريات وتلك الانطباعات التي تولّف أنانا الهشة بالنسبة إليها المكان الوحيد الذي يمكن أن تأوي إليه وصيغة التحقق الوحيدة، وربما أصابنا الأسف لذلك لأن الحياة تكاد لا تثير اهتمامنا إلّا في الأيام التي يختلط فيها تراب الوقائع برمل سحري ويضحى فيها حادث عادي حافزاً للخيال، حينئذ يطلع فجأة من أضواء الحلم شامخ

من العالم المتعذر الإدراك ويدخل في حياتنا، في حياتنا التي نبصر فيها كالتائم اليقظان الأشخاص الذين حلمنا بهم بشوق الملهوف حتى ظننا أننا لن نشاهدهم في يوم خارج الحلم .

وزاد من قيمة الهدوء الذي حمله إليّ احتمال تعرّفي الآن بتلك الفتيات حينما أشاء أنني ما كنت أستطيع موالاة ترقبهنّ في الأيام التالية التي شغلت بالإعداد لرحيل "سان لو". كانت جدتي راغبة أن تعرب لصديقي عن شكرها إزاء صنوف اللطف العديدة التي أبداها لها ولي. وقلت لها إنه كبير الإعجاب بـ "برودون" وأوحيت إليها بفكرة استقدام رسائل عديدة بخط يد هذا الفيلسوف كانت قد اشترتها. وجاء "سان لو" لمشاهدتها في الفندق في اليوم الذي وصلت فيه وهو عشية رحيله. وقرأها بنهم وهو يقلّب كل ورقة باحترام ويحاول استظهار الجمل، ثم نهض وأخذ يعتذر لجدتي أن يكون مكث وقتاً طويلاً جداً حينما سمعها تجيبه قائلة:

- "لا، خذها معك، إنها لك فإنما أحضرتها لأعطيك إياها"

وتملكه فرح لم يستطع السيطرة عليه أكثر مما يتاح له بحالة جسدية تحري دون تدخّل الإرادة وأضحى لونه قمرزياً مثل طفل أقدمنا على معاقبته وتأثرت جدتي لرؤية جميع الجهود التي قام بها (دون أن يفلح) ليتمالك الفرح الذي كان يهزه أكثر منها بجميع آيات الشكر التي كان يمكن أن يتفوه بها أما هو فظل يرجوني، وقد خشي أن يكون أساء الإعراب عن شكره، أن أثبل عذره وهو ينحني في الغد من نافذة القطار المحلي الصغير الذي استقله للانتحاق بشكنته، وكانت بالفعل قرية البعد وقد فكر في أن يذهب إليها بالعربة كما كان يفعل في الغالب حينما كان عليه أن يعود في المساء وليس الأمر أمر رحيل نهائي. بيد أنه كان ينبغي له في هذه المرة أن يضع أمتعته الكثيرة في القطار. فرأى من الأسلم أن يستقله بدوره آخذاً في ذلك برأي المدير الذي أجاب بعدما استشير "أن الأمر يتوازن تقريباً" في العربة أو القطار الصغير، يريد بذلك أن يقول إنه "يتساوى" (كما لعل "فرانسواز" كانت تعبّر عنه بقولها "الأمر يعني ذاته ونفسه". واستنتج "سان لو" من ذلك قوله: "فليكن، سأستقل القطار الصغير". ولعلني كنت أستقله بدوري، لو لم أكن متعباً وأرافق صديقي إلى "دونسيير". على أنني وعدته، طوال كامل الوقت الذي ظللنا فيه في محطة "بالبيك" - أي الوقت الذي قضاه سائق القطار الصغير في انتظار أصدقاء متخلفين ما كان يؤدّ الذهاب بدورهم وكذلك في تناول بعض المرطبات - أن أبادر لزيارته عدة مرات في الأسبوع. ولما كان بلوك قد جاء بدوره إلى المحطة - الأمر الذي سبب لـ "سان لو" إزعاجاً كبيراً - وإذا رأى هذا الأخير أن صاحبنا كان يسمعه يرجوني المجيء إلى "دونسيير" للغداء والعشاء والسكنى هناك فقد قال له في النهاية بلهجة بالغة الجفاء، لهجة كان عليها أن تصلح من لطف الدعوة المفتعل وأن تحول دون أن يأخذها "بلوك" على محمل الجدّ: "إن مررت ذات يوم في "دونسيير" في عشية لا أرتبط فيها بموعد كان بوسعك أن تسأل عني في الشكّة، ولكنني مرتبط على الدوام تقريباً". وربّما خشي "روبير" كذلك ألا أجيء وحيداً فمكنتني على هذا النحو من الحصول على رفيق طريق وعلى مشجع وفي ظنه أنني أكثر ارتباطاً بـ "بلوك" مما كنت أصرح به.

وخشيت أن تكون تلك اللهجة وتلك الطريقة في دعوة امرئ فيما يُشار عليه بالامتناع عن المجيء قد جرحنا شعور "بلوك" ورأيت أنه كان من الأفضل لـ "سان لو" أن لا يقول شيئاً ولكنني أخطأت، فبعد انطلاق القطار وطوال الوقت الذي سرنا فيه سوياً حتى تقاطع الشارعين حيث كان ينبغي أن نفرق إذ يتجه شارع إلى الفندق والآخر إلى دارة "بلوك"، لم يكف هذا الأخير عن سؤالني عن اليوم الذي سذهب فيه إلى "دونسيير"، ذلك أنه "من السماحة بمكان فيما يخصه أن لا يلبي دعوة "سان لو" بعد "جميع ضروب اللطافة التي خصه بها". وسرّني أنه لم يلاحظ، أو أنه كان قليل الاستياء إلى حد يرغب معه في التظاهر بأنه لم يلاحظ بأية لهجة قليلة الاستعجال، وتكاد لا تكون متأدبة، تمت الدعوة ووددت مع ذلك لو جنب "بلوك" نفسه سخرية الذهاب في الحال إلى "دونسيير". ولكنني ما كنت أجزؤ أن أسدي إليه نصحاً لا يمكن إلا أن يسوءه إذ يُبرز له أن "سان لو" كان أقل استعجالاً مما يبدو هو متحمساً. وكان أكثر حماسة مما ينبغي، ومع أن جميع العيوب التي به من هذا القبيل إنما تعادلها مناقب بارزة لاتتفق لآخرين أكثر تحفظاً، فقد كان يبلغ بقلة التحفظ حداً يورث الإزعاج. فالأسبوع لا يمكن، لمن يسمعه، أن ينقضي دون أن نذهب إلى "دونسيير" (ويقول "نذهب" إذ أحسب أنه كان يعتمد بعض الشيء على حضوري كيما يلقي العذر لحضوره). وقد استوقفتني على طول الطريق، أمام القاعة الرياضية الغارقة في أشجارها وأمام ملعب كرة المضرب وأمام دار المختار وأمام بائع المحاربات، وهو يتوسل إليّ أن أحدد يوماً، ولما لم أفعل فارقتني غاضباً وهو يقول لي: "افعل ما يطيب لك يا سيدي، أما أنا فإني مضطر في جميع الأحوال أن أذهب إلى هناك بما أنه دعائي".

لقد خشيت "سان لو" كثيراً أن لا يكون أحسن في شكر جدتي إلى حد أنه كلفني بعد الغد أن أنقل إليها شكره في رسالة وصلتني منه من المدينة التي كان يقيم في موقعها والتي بدت على المغلف الذي طبع البريد اسمها عليه وكأنها تبادر إليّ بسرعة وتقول لي إنه كان يفكر فيّ بين أسوارها وفي مقر لويس السادس عشر للفرسان. كان الورق يحمل شعار "دومارسانت" وقد ميزت فيه أسداً يعلوه تاج ينتهي بقبعة أعيان فرنسه.

"بعد رحلة، يقول لي، تمت على ما يرام وفيما أقرأ كتاباً ابتعته في المحطة وهو بقلم "أرفيدبارين" (إنه كاتب روسي فيما أعتقد، وقد بدا لي أنه كُتِبَ كتابة رائعة بالنسبة إلى أجنبي، ولكن زودني برأيك فلا بد أنك تعرف ذلك أنت لجة العلم الذي قرأ كل شيء) أراني عدت وسط هذه الحياة السمجة التي أحسنتني منفيّاً فيها وأسفني إذ لايتوافر لي فيها ما خلّفته في "بالبيك"، هذه الحياة التي لا ألقى فيها أية ذكرى وداد وأي سحر فكري، الحياة التي قد تحتقر جوّها دونما شك مع أنه لا يخلو من سحر. كل شيء يبدو لي قد تغير منذ أن غادرتها، إذ بدأت في هذه الفترة الفاصلة إحدى أكثر الفترات أهمية في حياتي، تلك التي يعود إليها تاريخ صداقتنا. وأملّي أنها لن تنقضي في يوم. ولم أتحدّث عنها وعنك إلا إلى شخص واحد، إلى صديقتي التي فاجأنتني بمجيئها لقضاء ساعة بالقرب مني. إنها تودّ كثيراً التعرف بك وأظن أنكما سوف تتفقان إذ هي بدورها طويلة باع في الأدب. وكما أفكر من جديد، في مقابل ذلك، في أحاديثنا وأعيش من جديد تلك الساعات التي لن

أنساها ألبتة فقد اعتزلت أصحابي، وهم فتیان ممتازون ولكنهم عاجزون تماماً عن إدراك ذلك. ولعلّي كدت أفضّل فيما يخص ذكرى اللحظات التي أمضيتها معك أن أstdذكرها لذاتي فقط في اليوم الأول ودون أن أكتب إليك. ولكنني خشيت عليك، أنت الفكر المرفف والفؤاد الشديد الحساسية، أن تقلق إن لم تصلك رسالة. إن أنت بالطبع تكرّمت وانحدرت بفكرك إلى الفارس الحشن الذي يقع عليك الكثير في سبيل تشذيبه وجعله على شيء من الإرهاق وأكثر أهليّة بك."

كانت تلك الرسالة تشبه إلى حد بعيد في رقتها تلك التي تخيلت. حينما كنت لا أعرف بعد "سان لو"، أنه سوف يسطرها لي في تلك الأحلام التي أقصاني عنها جفاء استقباله الأول إذ وضعني إزاء واقع شديد البرودة لم يكتب له البقاء. وبعدما وصلتي، وفي كل مرة كانوا يجيئون فيها بالبريد ساعة الغداء. كنت أعلم في الحال حينما تجيء رسالة منه، إذ كانت تحمل دوماً ذاك الوجه الثاني الذي يبرزه كائن في أثناء غيابه والذي ليس من سبب، بدون قسماته (بدون حروف الكتابة) كي لا نظن أننا ندرك نفساً فردية شأن ما هي الحال في خطّ الأنف أو نبرات الصوت.

كان يطيب لي الآن المكوث أمام طاولة الطعام فيما يتم رفع الفضلات ولم أعد أقصر النظر على جانب البحر إن لم تكن الفترة تلك التي يمكن أن تمر في أثنائها فتيات المجموعة الصغيرة. فقد أخذت أحاول أن ألقى في الواقع، وأعشق بمثابة أمر شاعري حركة السكاكين التي توقفت ولا تزال موضوعة بالورب، والاستدارة المكورة لقوطة محلولة تدخل الشمس في ثنياتها قطعة من المحمل الأصفر، والقدح الذي أفرغ إلى نصفه والذي يبرز هكذا على نحو أفضل اتساع أشكاله الكريمة، وفي قعر زجاجه الشفاف الذي يضاهي تكثف ضوء النهار بقية خمرة عاتمة ولكنها تتلألأ بالألوان، وتنقل الأحجام، وتحول السوائل بفعل الأضواء، وتبدل لون الخوخ الذي ينقلب من خضرة إلى زرق ومن زرق إلى لون الذهب في قصبة الفواكه التي غلت إلى نصفها، ورحلة الكراسي القديمة التي تبادر مرتين في كل يوم إلى الإقامة من حول غطاء المائدة الممدود فوق الطاولة وكأنما فوق مديح تقام عليه أعياد الشراهة وعليه ظلت في زوايا المحارات بعض قطرات ماء لمّاعة وكأنما في أجران ماء مقدسة صغيرة من حجر. كنت أحاول أن ألقى الجمال حيث لم يخطر لي ألبتة أن يكون، في أكثر الأشياء استعمالاً وفي أعماق حياة "الطبيعات الميتة".

حينما أفلحتُ بعد بضعة أيام من رحيل "سان لو"، في حمل "إيلستير" على إقامة حفلة مسائية صغيرة ألتقي فيها بـ"البيرتين" أسفت ألا أستطيع الاحتفاظ بالفتنة والأناقة المؤقتتين تماماً اللتين وجدوهما لديّ لحظة كنت أغادر الفندق الكبير (وقد نجمتا عن استراحة طويلة وعن عناية خاصة بشؤون الملبس)، وكذلك بنفوذ "إيلستير" من أجل الظفر بشخص آخر أشد ظرفاً، لقد أسفت أن أنفق كل ذلك لمجرد متعة التعرف بـ"البيرتين". كان عقلي يحكم أن تلك المتعة قليلة القيمة إلى حد بعيد منذ أن أصبح واثقاً بذاته. ولكن الإرادة في داخلي لم تشارك لحظة واحدة في ذلك الوهم، الإرادة التي تمثل الخادم الدؤوب الذي لا يتبدل لشخصياتنا المتعاقبة، إنها تختفي في الظلام مزدرة لا تكلّ في إخلاصها وتعمل دون انقطاع، ودون أن تهتمّ بتغيرات أنا، على أن لا يعوزها الضروري

في يوم. ففي أثناء ما يشرح العقل والإحساس، لحظة توشك رحلة مشتهاة أن تتحقق، في التساؤل إن كانت حقاً جديرة بالتحقق تدعمها الإرادة التي تعلم أن هذين السيدين البطالين سوف يعاودان اعتبار تلك الرحلة رائعة إن اتفق لها أن لا تتم، تدعهما يتحدثان أمام المحطة ويضاعفان من صنوف حيرتهما، ولكنها تهتم بقطع التذاكر وبوضعنا في العربة بانتظار ساعة الرحيل. وإنها لا تتبدل بقدر ما العقل والإحساس متقلبان ولكنها تبدو وكأنما لا وجود لها تقريباً بما أنها صامتة ولا تدلي بدوافعها. وإنما تخضع الأجزاء الأخرى في أنانا لعزمها الثابت ولكن دون أن تراها فيما تميز بوضوح صنوف تشكّلها هي. لقد باشر إحساسي وعقلي إذن نقاشاً حول قيمة المتعة التي قد تورثها معرفة "البيرتين" فيما كنت أنظر في المرأة إلى صنوف الزينة الباطلة الهشة التي يودّان الاحتفاظ بها على حالها لمناسبة أخرى ولكن إرادتي لم تسمح بمرور الساعة التي ينبغي الذهاب فيها وكان أن زوّدت الحوذي بعنوان "إيلستير". أما عقلي وإحساسي فقد تيسر لهما، إذ حُتم القضاء، أن يحتسبا الأمر مؤسفاً، ولو اتفق لإرادتي أن تقدّم عنواناً آخر لوقعنا في الفخ.

حينما وصلت إلى منزل "إيلستير" بعد ذلك بقليل حسبت بادئ الأمر أن الأنسة "سيمونية" لم تكن في المرسوم. كان هنالك بالتأكيد فتاة جالسة بفستان من الحرير حاسرة الرأس ولكنني ما كنت أعرف منها هذا الشعر الرائع ولا هذا الأنف ولا هذا اللون وما كنت ألقى فيها تلك الشخصية التي استخلصتها من راكبة دراجة شابة تتنزه بمحاذاة البحر وهي تعتمر قبعة عريضة. وكانت على الرغم من ذلك "البيرتين". ولكنني لم أهتم بها حتى حينما علمت ذلك. فحينما يكون المرء شاباً يموت لذاته ساعة يدخل إلى أي اجتماع راقٍ ويصبح رجلاً مختلفاً، إذ أن كل صالة عالم جديد نخضع فيه لمنطق أخلاقي آخر فنركّز انتباهنا على أشخاص ورقصات ولعبات ورق، سرعان ما ننساها في الغد، كما لو انبغى أن تحوز اهتمامنا على الدوام. ورأيتني وأنا مضطرب للتقدم باتجاه حديث مع "البيرتين" إلى اتباع درب لم أرسمه، درب كان يتوقف في بادئ الأمر أمام "إيلستير" ويمرّ بمجموعات أخرى من المدعّرين كان يذكر اسمي أمامهم ثم يحاذي طاولة المأكولات حيث تقدم لي حلوى بتوت الأرض فأكلها فيما أصغي لأحراك بي إلى موسيقى يشعرون في عزفها، رأيتني أولي هذه الوقائع المختلفة الأهمية نفسها التي أوليها لتعريفي بالآنسة "سيمونية"، هذا التعريف الذي لم يعد سوى إحدى تلك الوقائع والذي نسيت أنه كان ليضع دقائق خلعت الهدف الوحيد لمجيئي. أو ليس ذلك على أية حال أمر صنوف سعادتنا الحقّة ومصائبنا الكبيرة في حياتنا الفعلية؟ فإنه ليردنا، ونحن وسط أشخاص آخرين، من تلك التي نحياها الرد الإيجابي أو القاتل الذي كنا ننتظره منذ عام. بيد أنه لا بد من متابعة الحديث وتنضاف الأفكار بعضها إلى بعضها الآخر فتؤلف صفحة قلماً تطفو على وجهها بين الحين والحين الذكرى التي تفرقها عمقاً ولكنها ضيقة الرقعة وقوامها أن المصيبة حلّت بنا. فان كانت السعادة بدلاً من المصيبة فربما اتفق أن لا نتذكر إلا بعد مرور عدة أعوام أن أعظم حدث في حياتنا العاطفية قد وقع، دون أن يتسع لنا الوقت لنخصّه بفترة اهتمام طويلة وحتى لنعيه، ضمن اجتماع راقٍ على سبيل المثال وما ذهبنا إليه إلا لانتظار ذاك الحدث.

وحينما طلب "إيلستير" مي المحيي ليقدمني لـ "البيرتين" التي جلست في مكان أبعد بقليل فرعت بادئ الأمر من تناول حلوى بالقهوة وسألت باهتمام سيّداً عجوزاً تعرفت إليه منذ قليل،

وحسبت أنه يسعني أن أقدم له الوردة التي أعجب بها في عروة سترتي، أن يزودني بمعلومات مفصلة عن بعض أسواق البيع النورماندية. وليس يعني ذلك أن التقديم الذي تلاه لم يبعث في أية متعة ولم يرتد في نظري بعض الخطورة. فأما المتعة فلم أعرفها بالطبع إلا بعد ذلك بقليل حينما ظلمت وحيداً بعدما عدت إلى الفندق فأضحيت ذاتي من جديد. فأمر المتع كأمر الصور الفوتوغرافية، ما أخذته بحضور المحبوب لا يعدو كونه صورة سلبية يتم تظهيرها فيما بعد، وبعدها يعود المرء إلى منزله ويحد في متناوله هذه الحجرة السوداء الداخلية التي يظل مدخلها مسدوداً مادامنا في حضرة الناس.

ولئن تم على هذا النحو تأجيل تعرفي بالمتعة بضع ساعات فقد أحسست في الحال، في مقابل ذلك، بخطورة ذلك التقديم. فعبتُ نحس ساعة التقديم أننا مُنَحْنَا وأصبحنا نحمل "بطاقة" صالحة لمتع مقبلة، وكنا نحري وراءها منذ أسابيع، فإننا ندرك تماماً أن إحرازها إنما يضع حداً بالنسبة إلينا، لالتحريات شاقة فحسب-الأمر الذي لا يمكن إلا أن يملأنا حيوراً-، بل لوجود كائن ما، ذاك الذي شوّه خيالنا وضاعفت من حجمه خشيتنا وقلقنا ألا يمكننا التعرف إليه في يوم. ففي اللحظة التي يدوي فيها اسمنا بين شفتي المقدّم ولاسيما إن أحاطه هذا الأخير، كما فعل "إليستير"، بتعليقات تقرظية-تلك اللحظة المقدسة الشبيهة باللمحة التي يأمر فيها الجنى، في أثناء مشهد سحري، أن يضحى شخص على نحو فجائي شخصاً آخر-يتلاشى ذاك الذي تقنا إلى التقرب منه، إذ كيف يظل بادئ الأمر شبيهاً بذاته بما أن النظرة الواعية والفكرة اللا مدركة اللتين كنّا نبحث عنهما قد حلت محلّهما في العينين اللتين كانتا بالأمس تتمركزان في اللانهاية(واللتين ظننا عينيها التاهيتين غير المركزتين الياستين المتبايتين لن تفلحا ألبتة في لقاءهما) صورتنا التي ارتسمت كأنما في أعماق مرآة تبتسم؟ وإن كان تجسد ذاتنا في ما كان يبدو لنا مختلفاً أكثر الاختلاف عنا هو ما يبدل أكثر ما يبدل الشخص الذي تمّ تقديمنا له فإن شكل هذا الشخص لا يزال مبهماً بعض الشيء، ويمكننا أن نتساءل هل سيكون إلهاً أم طاولة أم طشتاً. ولكن الكلمات القليلة التي ستقولها لنا هذه المجهولة سوف توضح ذاك الشكل بمثل سرعة مثالي الشمع أولئك الذين يصنعون أماناً تمثالاً نصفياً في مدى خمس دقائق. وتضفي عليه صبغة نهائية تستبعد جميع الفرضيات التي كانت تنصرف إليها بالأمس رغبتنا وخیالنا. وليس من شك أن "ألبيرتين" لم تظل بالنسبة إلي، حتى قبل أن تحضر إلى حفلة بعد الظهر تلك، ذاك الشيخ الوحيد الجدير بملازمة حياتنا والذي تمثله عابرة سبيل لا نعرف عنها شيئاً وما كدنا نميز ملامحها.

كانت قرابتها بالسيدة "بونتان" قد سبق أن قلّصت تلك الفرضيات المثيرة إذ سدّت أحد السبل التي يمكن أن تنتشر فوقها. فبقدر ما كنت أقترّب من الفتاة وتزداد معرفتي بها كانت تلك المعرفة تتم عن طريق عملية الطرح إذ تحلّ محلّ كلّ جزء من الخيال والرغبة فكرة تساوي أقلّ منهما بكثير، فكرة كان ينضاف إليها بالحقيقة ما يوازى، في مجال الحياة، ما تمنحه بعض الشركات المالية بعد تسديد السهم الأصلي وتدعوه سهم الانتفاع. لقد كان اسمها وصلات القربى لديها حداً أولياً يحدّ افتراضاتي، وكان لطفها، فيما كنت ألقى بالقرب منها شامتها الصغيرة على الخلد تحت العين، حداً

آخر. وأخيراً أدهشني أن أسمعها تستعمل العبارة الظرفية "على أكمل وجه" بدلاً من "تماماً" وهي تتحدث عن شخصين فتقول عن الواحد "إنه مجنون على أكمل وجه ولكنه لطيف جداً مع ذلك"، وعن الآخر "إنه سيد عادي على أكمل وجه وممل على أكمل وجه". ومهما يكن من أن استعمال "على أكمل وجه" هذا قليل الاستحسان فإنه يشير إلى درجة من الحضارة والثقافة ما كنت أستطيع أن أتصور أن راقصة الدراجة وربة الغولف الماجنة تبلغها. ولم يحل ذلك على أية حال دون أن تتغير "البيرتين" مرات عديدة أيضاً بالنسبة إلي بعد هذا التحول الأول. فالصفات والعيوب التي يبرزها كائن مرتبة في أمامية وجهه إنما تتراصف وفق تشكيل مختلف تماماً إن نظرنا إليه من جانب مختلف، مثلما الأبنية التي تنتشر في نظام مبتر على خط واحد في إحدى المدن تتدرج في العمق من وجهة نظر ثانية وتتبادل أحجامها النسبية. فقد ألفت "البيرتين" في البداية وجلة بعض الشيء بدلاً من صلابة المظهر، وبدت لي لا ثقة أكثر منها سيئة التهذيب إن انطلقنا في حكمنا من العبارات التي وسمت بها جميع الفتيات اللواتي حدثتُها عنهن: "إنها سيئة التصرف"، إنها غريبة الأطوار". وكان ما يجلب النظر في وجهها صدغ على شيء من الاحمرار ولا تروك رؤيته، لاتلك النظرة الفريدة التي كنت أعاود التفكير فيها على الدوام حتى ذاك. بيد أن تلك محض رؤية ثانية وكان ثمة غيرها دون شك مما سوف أنتقل إليها على التوالي. وهكذا لا يمكننا الوصول إلى معرفة كائن معرفة دقيقة، إن كانت تلك المعرفة ممكنة، إلا بعد ما نتعرف الأخطاء البصرية الأولى، ولا يتم ذلك دون تلمس وتردد، على أن تلك المعرفة غير ممكنة؛ ذلك أنه فيما يتم تصويب النظرة التي أخذناها عنه يتبدل هو لحسابه الخاص بما أنه ليس هدفاً جامداً، ونحسب أننا نلحق به فيبدل مكانه، وإذ نظن في النهاية أننا نراه على نحو أوضح فإنما أفلحنا في توضيح محض الصور القديمة التي سبق أن أخذناها عنه ولكنها لم تعد تمثله.

بيد أن ذلك المسعى إلى ما لمحنه فحسب، وما صرفنا وقتاً كافياً في تخيله، إن ذلك المسعى، أية كانت الخييات المحتملة التي لابد يحملها معه، هو الوحيد الذي يتسم بالصواب بالنسبة إلى الحواس ويغذي فيها الشوق إليه. فأني سأمر حزين يطبع حياة الناس الذين يمضون مباشرة في عربة، بداعي الكسل أو الخجل، لدى أصدقاء عرفوهم دون أن يكونوا حلموا بهم من قبل ودون أن يجروا ألبته أن يتوقفوا على الطريق بالقرب مما يشتهون!

وعدت إلى المنزل وأنا أفكر في حفلة بعد الظهر تلك وأعود فأرى قطعة الحلوى بالقهوة التي فرغت من تناولها قبل أن أدع لي "إيلستير" أن يصحبني بالقرب من "البيرتين" والوردة التي أعطيتها للسيد العجوز، وجميع تلك الجزئيات التي تنتقيها الظروف على غير علم منا والتي تؤلف بالنسبة إلينا ضمن ترتيب خاص وعرضي لوحة اللقاء الأول بيد أنه خيل إلي أنني أبصر تلك اللوحة من زاوية أخرى ومن نقطة بعيدة جداً عني فأدركت أنه لم يكن موجوداً بالنسبة إلي فحسب حينما كنت أروي لي "البيرتين" بعد بضعة شهور عن أول يوم عرفتها فيه فذكرتني، وأثارت دهشتي الشديدة، بقطعة الحلوى والزهرة التي أعطيتها وكل ما كنت أحسب أنه لا يهم أحداً سواي، إذ لا يمكن أن أقول ذلك، بل إنه لم يشاهده أحد سواي ووجدته على هذا النحو منقولاً على نسخة ثانية ما كنت

أرتاب بوجودها في فكر "البيرتين". لقد أدركت منذ ذلك اليوم الأول، حينما استطعت أن أبصر لدى العودة الذكرى التي كنت أحملها، أية خدعة تم تنفيذها ببراعة وكيف تحدثت فترة إلى شخص حل محلها بفضل مهارة المشعوذ ودون أن يحمل شيئاً من ذلك الذي لاحقته زمناً طويلاً على شاطئ البحر. كان بوسعي على أي حال أن أستشف ذلك بما أن فتاة الشاطئ قد صنعتها يداي. بيد أنني كنت أحس على الرغم من ذلك، بما أنني ماثلت في حديثي مع "إيلستير" بينها وبين "البيرتين"، كنت أحس لزاء هذه الأخيرة بالتزامي الأدبي بالبر بوعود الحب التي قطعها لي "البيرتين" الوهمية. تتم خطوبة بالوكالة ويحسب المرء نفسه ملزماً بالزواج فيما بعد من الشخص الوسيط. ولكن زال من حياتي على نحو مؤقت على الأقل قلتي كانت ذكرى التصرفات اللائقة وعبرة "عادي على أكمل وجه" والصدغ الذي تكسوه الحمرة كافية لتهدئته، فقد كانت تلك الذكرى توظف في نوعاً آخر من الرغبة كان يمكن، مع أنها عذبة لا ألم فيها على الإطلاق وأشبه بعاطفة أخوية، أن تصبح على مر الأيام في مثل خطورة تلك إذ تبعث في نفسي في كل لحظة الحاجة إلى تقبيل هذه الشخصية الجديدة التي كانت تصرفاتها اللائقة وحجلها وجاهزيتها اللا متوقعة تضع حداً لانطلاقة خيالي اللامحددة ولكنها تبعث في امتناناً يلونه الحنان. وبما أن الذاكرة تشرع في الحال في أخذ صور يستقل بعضها عن بعضها الآخر وتزيل أية رابطة وأي تطويعين المشاهد الممثلة فيها، فإن آخر صورة في المجموعة التي تعرضها لاتقضي حتماً على ما سبقها منها. فقد كنت أرى قبالة "البيرتين" العادية المؤثرة التي تحدثت إليها "البيرتين" الغامضة قبالة البحر. لقد أضحت الآن ذكريات. أي لوحات لاتبدو لي إحداها أكثر حقيقة من غيرها. وكيفا أجيء على نهاية أمسية التعارف الأولى تلك فقد ذكرت، وأنا أحاول أن أرى ثانية الشامة الصغيرة فوق الخد تحت العين، أنني رأيت الشامة من منزل "إيلستير"، حينما ذهب "البيرتين"، فوق الدفن. كنت ألاحظ باختصار القول، حينما أراها، أن لها شامة ولكن ذاكرتي التائهة كانت تنقلها بعد ذلك على وجه "البيرتين" وتضعها ههنا تارة وطوراً هناك.

وعبثاً يخيب أمني بعض الشيء من أنني ألفت الآنسة "سيمونية" فتاة قليلة الاختلاف عن كل ما كنت أعرفه. فمثلما لم تحل غيبة ظني أمام كنيسة "باليك" دون رغبتني في الذهاب إلى "كامبيرليه" و"بونتافن" و"البندقية"، كذلك كنت أقول في نفسي إنه سوف يسعني بطريق "البيرتين" على الأقل أن أعرف صديقاتها في المجموعة الصغيرة، إن كانت هي نفسها غير ما أملت أن تكون.

وظننت بادئ الأمر أنني سأخفق، فقد رأيت من الخير لي أن لا أحاول كثيراً رؤيتها وأن أنتظر فرصة يتوافر لي بها لقاءها بما أنها ستمكث فترة طويلة في "باليك" وسأملك كذلك. بيد أنني خشيت أشد الخشية، حتى إن اتفق لي الأمر كل يوم، أن تكفي بالرد على تحيتي من بعيد، تلك التحية التي لن تفيدني في شيء إن تكررت يومياً على تلك الحال طوال الفصل.

وبعد ذلك بوقت قليل اقتربت مني على السد، ذات صباح سبق أن تساقط فيه المطر وكان الطقس بارداً تقريباً، فتاة ترتدي قبة صغيرة وفروة لليدين وكانت شديدة الاختلاف عن تلك التي

رأيتها في اجتماع "إيلستير" حتى ليبدو تعرّف الشخص نفسه فيها عملية مستحيلة بالنسبة إلى الفكر. بيد أن فكري أفلح في ذلك، ولكن بعد ثمانية من الدهول لم تخفَ عليّ "البرتين" فيما أعتقد. ثم إنها جعلتني أحس من جهة ثانية، وأنا أذكر في تلك اللحظة "التصرفات اللائقة" التي سبق أن أدهشتني، بالدهشة المعاكسة من جراء لهجتها القاسية وأسلوبها الذي يتسم بطابع "المجموعة الصغيرة". وكان الصدغ على أية حال قد كفّ عن كونه المركز البصري المطمئن في الوجه إما لأنني كنت أقف في الجهة الأخرى وإما لأن القبة غطته، وإما لأن الالتهاّب لم يكن دائماً. وقالت لي: "أي طقس هذا ! الحقيقة أن صيف "باليك" الذي لا ينتهي مزحة كبيرة. ألا تفعل شيئاً ههنا؟ فما نراك ألبته في الغولف ولا في حفلات الكازينو الراقصة، وأنت لاتمارس كذلك ركوب الخيل. كم ينبغي أن تحس بالملل ! أليست ترى أن المرء "يتبلّد" في البقاء طوال الوقت على الشاطئ؟ آه ! إنك تحب الشمس طويلاً ؟ لديك متسع من الوقت على أية حال. وأرى أنك لست مثلي، فإني أعشق جميع أنواع الرياضة ! ألم تحضر مسابقات نهر الـ"سوني"؟

لقد ذهبنا إلى هناك بالترام وإني أدرك أنك لاتجد سلوى في استقلال "طمبر" من هذا القبيل ! لقد استغرق المشوار ساعتين ! ولعلي كنت أقطع المسافة ثلاث مرات ذهاباً وإياباً على دراجتي النارية. لقد أحسست بالرهبة من جراء السهولة التي كانت تقول بها "البرتين" الترام و "الطمبر"، أنا الذي سبق أن أعجب بـ"سان لو" حينما دعا على نحو طبيعي جداً بـ"ذي اللقات" القطار الصغير المحلي بسبب العطفات التي لاحصر لها في طريقه. كنت أحس بتفوقها في صيغة من التسميات عشيّة أن تلاحظ تدني مستواي فيها وتزدرية. أضف أن فيض المتردافات التي تملكها المجموعة الصغيرة للدلالة على هذا القطار لم يتكشف لي بعد. كانت "البرتين" في حديثها تظل ثابتة الرأس مُضَيِّقَةً المنحرفين لا تحرك إلا طرفي شفّتها، فكان ينجم عن ذلك لهجة متباطئة فيها حنة ربما تضافت في تأليفها صفات رقيقة وراثية ونزعة الشباب إلى تصنع رباطة الجأش البريطانية ودروس معلمة أجنبية وتضخم احتقاني في غشاء الأنف. كان يمكن أن يبدو ذلك الصوت مقبياً، وسرعان ما كان يتراجع حينما تزداد معرفتها بالناس ويعود طفولياً بطبيعته. إلا أنه كان فريداً وكان يفتنني. وفي كل مرة تمر بي بضعة أيام دون أن ألقاها كنت أستثير ذاتي وأنا أردد لنفسني: "ما نراك ألبته في الغولف" بالصوت الأخرى الذي قالتها به منتصبه القامة لاتتحرك رأسها. وكنت أحسب حينذاك أن ليس من كان أكثر اشتهاً.

كنا نؤلف في ذلك الصباح واحداً من تلك الأزواج التي تزين السد ههنا وهناك باجتماعها وتوقفها لمجرّد تبادل بعض عبارات قبل الافتراق ليعاود كل على حدة نزهته المختلفة. وقد أفدت من ذلك الجمود لأبصر وأعلم نهائياً موقع الشامة. ومثلما تم لي بشأن جملة لـ"فانتوي" كانت قد فتننتني في السوناتا وظلّت ذاكرتي تنقلها من البداية إلى الختام إلى اليوم الذي استطعت فيه، والتوزيع في يدي، أن أجدها وأثبتها داخل ذاكرتي في مكانها في حركة السكيرتزو، كذلك الشامة التي تذكرتها على الخد تارة وعلى الذقن أخرى توقفت نهائياً على الشفة العليا تحت الأنف. كذلك يتفق لنا أن نلقي بدهشة أبياتاً نعرفها عن ظهر قلب في مقطوعة ما كنا نرتاب بوجودها فيها.

وفي تلك اللحظة، وكأنما لتتكاثر بملء الحرية أمام البحر المجموعة التزيينية الغنية التي يؤلفها في تنوع أشكالها مرور موكب العذارى الجميل. العذارى المقمرات والمورديات في آن معاً وقد أحرقتهن الشمس والرياح، وقامت صديقات "البيرتين" ذوات السيقان الجميلة والقامة الطيعة، بيد أنهن شديداً الاختلاف بعضهن عن بعض، بإبراز زمريتهن التي انتشرت وتقدمت في اتجاهنا أكثر قرباً من البحر وعلى خط يوازيه. واستأذنت "البيرتين" في أن أرافقها بضع لحظات. ولكنها للأسف اكتفت بأن حيتهاً بيدها، فقلت لها: "ولكن صديقاتك سوف يتذمرن إن تركتهن" آملاً أن نقوم بنزهة معاً.

واقترب منا شاب منتظم القسماط يمسك بيده مضربين. وكان لاعب "البكارا" الذي كانت حماقاته تثير سخط زوجة رئيس المحكمة الأول. وحيّاً "البيرتين" بهيئة جافة لامبالية كان يتصور بالطبع أن أقصى التأنيق قائم عليها. فسألته قائلة: "هل أنت آت من الغولف يا "أوكتاف"؟ وهل سارت الأمور على ما يرام؟ وهل كنت في أحسن أحوالك؟" فأجاب: "أوه! ذلك بقرني، فإني في مأزق". - "وهل كانت "أندريه" هناك؟" - "أجل. وقد سجلت سبعاً وسبعين". - "أوه! هذا رقم قياسي". - "سبق أن سجلت البارحة اثنتين وثمانين".

لقد كان ابن صناعي شديد الثراء لا بد يضطلع بدور على شيء من الأهمية في تنظيم المعرض العالمي المقبل. وقد أذهلني إلى أي مدى تنامت لدى هذا الشاب والأصدقاء الذكور الآخرين القليلين جداً لتلك الفتيات معرفة كل ما كان من قبيل الملابس وطريقة ارتدائها وأصناف السيكار والمشروبات الإنكليزية والحياد-والتي كان يملكها حتى أدق تفاصيلها بمعصومية متعالية تبلغ حد تواضع العالم وصمته- تنامت بمعزل عن غيرها ودون أن يرافقها أقل ثقافة فكرية. فما كان يتردد ألبتة بشأن ملازمة "السموكن" أو البيجامه ولكنه لا يرتاب بالحالة التي يمكن فيها استخدام هذه الكلمة أو تلك أولاً يمكن، وحتى بأبسط قواعد الفرنسية. كان لابد أن يكون هذا التفاوت بين الثقافتين واحداً لدى والده رئيس نقابة الملاكين في "بالبيك"، فقد كان يقول في رسالة مفتوحة إلى الناجيين أمر منذ حين بلصقها على جميع الجدران: "لقد أردت أن أرى المخترار "لأكلمه" فيها فلم يشأ الإصغاء لشكواي العادلة". كان "أوكتاف" يحوز في المقصيف جوائز في جميع مسابقات "البوسطن" و"التانغو"، الخ، الأمر الذي يساعده، لو شاء ذلك، على إتمام زواج مغرٍ في وسط "حمامات البحر" هذا حيث تتبنى الفتيات "مراقصهن" بالمعنى الحقيقي لا المجازي. وأشعل سيكاراً وهو يقول لـ "البيرتين": "تسمحين" مثلما يستأذن امرؤ في إنهاء عمل مستعجل فيما هو يتحدث. ذلك أنه لا يستطيع ألبتة "أن يظل دون أن يفعل شيئاً" مع أنه لم يفعل شيئاً في يوم. وبما أن البطالة التامة تملك في النهاية آثار العمل الزائد عن الحد نفسها في المجال النفسي وفي حياة الجسم والعضلات سواء بسواء فقد بلغ الأمر بالعدم الفكري الذي كان يسكن خلف جبين "أوكتاف" الحالم أن أورثه، على الرغم من مظهره الهادئ، رغبة شديدة وغير مجدية في التفكير كانت تحول دون أن ينام الليل مثلما قد يتفق ذلك لميتافزقي مجهد.

وإذ فكرتُ أنني إن عرفت أصدقاء تلك الفتيات فسوف تزدد فرص لقائي بهنّ أوشكت أن أطلب إليها أن تعرّفني به. وقلت ذلك لـ "البيرتين" حالما ذهب وأنا أردّد قائلاً: "إنني واقع في مأزق". وكنت أفكر أن أغرس في ذهنها فكرة القيام بذلك في المرة القادمة. فصاحت قائلة: "ويحك إلا أستطيع أن أقدمك لعاشق ثريّات. فههنا يعجّ المكان بأمثالهم! ولكنهم ربّما لم يستطيعوا التحدّث إليك. إنّ هذا الأخير يجيد اللعب بالغولف لا أكثر. إنني خبيرة بهذا الأمر، لن يوافق ذوقك على الإطلاق." وقلت لها: "سوف تتذمّر صديقاتك إن تركتهن على هذا النحو"، آملاً أنها ستقترح عليّ المضيّ معها للحاق بهنّ. "دعك من هذا، فلسن بحاجة إليّ." والتقينا بـ "بلوك" الذي وجّه إليّ ابتسامة رقيقة ذات مغزى وإذ ارتبك بشأن "البيرتين" التي لم يكن يعرفها، أو هو على الأقل كان يعرفها "دون أن يعرفها"، فقد خفض رأسه صوب ياقته بحركة قاسية غليظة. وسألني "البيرتين": "هذا البربريّ ما اسمه؟ لست أدري لماذا يحييني وهو لا يعرفني. ولذلك لم أردّ له تحيته." ولم يتسع لي الوقت لأجيب "البيرتين" إذ قال وهو يتجه مباشرة إلينا: "استمعيك عذراً لمقاطعتك ولكنني أردت أن أثبّحك إلى أنني ذاهب غداً إلى "دونسير". لست أستطيع الانتظار من بعد دون إخلال بالأدب، وأتساءل ما عسى "سان لو أن بره" يظنّ بي. وإنني أثبّحك إلى أنني سأستقل قطار الساعة الثانية، وأنا رهن إشارتك." ولكنني لم أعد أفكر إلا في لقاء "البيرتين" ومحاولة التعرّف بصديقاتها، "ودونسير" كانت تبدو لي في أقاصي العالم بما أنّهن لا يذهبن إليها وربّما جعلتني أعود بعد الساعة التي يذهبن فيها إلى الشاطئ. وقلت لـ "بلوك" إنّ الأمر يستحيل عليّ. "حسن، سأذهب وحدي. وسأقول لـ "سان لو"، حسبما ورد في البيتين المضحكين الذين كتبهما السيّد "آرويه" (٢)، وذلك بغية إبهاج نزعة الإكليروسية:

"اعلم أنّ واجبي لا يرتبط بواجبه

فليخلف به إن شاء، أمّا أنا فينبغي أن أوّديه"

وقالت لي "البيرتين":

– "اعترف أنّه شابّ جميل نوعاً ما، ولكن كم يثير قرفي!"

لم أفكر في يوم أنه يمكن لـ "بلوك" أن يكون شاباً وسيماً، وقد كانه بالحقيقة. فقد كان له وجه محبّب، إلى جانب رأس على شيء من البروز وأنف شديد العقفة ومظهر بالغ اللطافة واقتناع بلطفاته. ولكنّه ما كان يستطيع أن يروق "البيرتين". وربّما كان ذلك على آية حال بسبب الجوانب السيئة لدى هذه الأخيرة، بسبب قسوة المجموعة الصغيرة وقلة إحساسها وفضاضتها مع كلّ ما كان سواها. وحينما قمت فيما بعد بالتعارف بينهما لم يتناقص نفور "البيرتين". كان "بلوك" ينتمي إلى وسط جعلوا فيه بين الهزء من العالم الراقي والاحترام الكافي الذي لا بدّ مع ذلك أن يديه رجل

(٢) Arouet اسم "فولتير" الحقيقي.

"نظيف اليدين" تجاه السلوك اللائق نوعاً من الحلّ الوسط الخاصّ يختلف عن سلوك المجتمع الراقي وهو مع ذلك نوع من السلوك الاجتماعي يفرد ببشاعته فحينما كانوا يقدّمونه كان ينحني بانتماسه يداخلها الارتياح والاحترام المفرط في الآن نفسه ويقول إن تعلق الأمر برجل: "أنا في غاية الغبطة يا سيّدي" بصوت يهزّأ من الكلمات التي يتفوّه بها ولكنّه يعي أنّه لرجل لا يتسم بالفظاظة. وما إن تنقضي هذه الثانية الأولى التي يكرّسها لعرف كان يتبعه ويهزّأ منه في الآن نفسه (على نحو ما كان يقول في الأول من كانون الثاني: "أتمنّى لك فيها الخير والسعادة") حتى يتخذ هيئة رقيقة مأكرة و"يتفوّه بأشياء حاذقة" كانت في الغالب تفيض حقيقة ولكنها "تستثير أعصاب" البيرتين. وحينما قلت لها في ذلك اليوم الأوّل أنّه يدعى "بلوك" صاحبت قائلة: "كنت أراهن أنه يهودي، فذلك طريقته في الملازمة والترامي". "كان "بلوك" على آية حال سوف يثير سخط "البيرتين" فيما بعد بطريقة أخرى، فقد كان شأن العديد من المثقفين لا يستطيع أن يقول الأمور البسيطة ببساطة، وإذ يجد لكل منها نعتاً يتسم بالحذقة ثم يبادر إلى التعميم. وكان ذلك يزعج "البيرتين" التي لا تحبّ كثيراً أن يهتمّ الناس بما تفعل، وأن يقول "بلوك" بعد ما لوت قدمها ولزمت الهدوء: "إنّها على مقعدها الطويل ولكنها لا تكفّ، بداعي تعدّد الحضور، عن أن ترتاد في الآن نفسه ملاعب غولف غامضة وملاعب كرة مضرب عادية." كان ذلك محض "كلام مرصوف" ولكنّه ربّما كان كافياً بسبب الصعوبات التي تحسّ "البيرتين" أنّ الأمر يمكن أن يجلبها لها مع أناس سبق لها أن رفضت دعوتهم بقولها إنّها لا تستطيع الحركة، كيما تنفر فجأة من سحنة الشاب الذي كان يقول تلك الأمور ومن رنة صوته.

وافترقنا أنا و "البيرتين" وقد تواعدنا على الخروج مرّة معاً لقد تحدّثت إليها دون أن أدري أين تسقط أقوالي وما تنقلب إليه أكثر مما يتفق لي ذلك لو ألقى حصي في هاوية لا قرارة لها. فأما أن يتمّ ملؤها بعامة على يد الشخص الذي نوجّهها إليه بمعنى يستخلصه من جوهره الخاصّ وهو شديد الاختلاف عن ذاك الذي ضمّنّا تلك الأقوال نفسها فأمر تكشفه لنا الحياة اليومية باستمرار. فإن اتفق إلى ذلك أن نكون بجانب شخص تربيته مستعصية علينا (كترية "البيرتين" بالنسبة إليّ) ومجهولة ميوله وقراءاته ومبادئه، فلسنا ندري إن كانت أقوالنا توقظ في نفسه ما يشبهها أكثر ممّا تفعل لدى حيوان قد يقع علينا مع ذلك أن نفهمه بعض الأمور، حتى لتبدو لي محاولة ارتباطي بصداقة "البيرتين" كمثّل اتصال بالمجهول إن لم نقل بالمستحيل، وكمثل تمرين صعب صعوبة ترويض حصان، ممتع إمتاع تربية النحل أو زراعة شجيرات الورد.

لقد سبق أن ظننت لساعات خلت أنّ "البيرتين" لن تردّ على تحيّيّ إلاّ من بعيد، فإذا بنا نفترق منذ قليل وقد عزمنا على رحلة نقوم بها معاً. وقرّرت أن أكون أكثر جرأة مع "البيرتين" حينما ألتقي بها ورسمت لنفسني سلفاً خطة كلّ ما سوف أقوله لها وحتى كلّ المتع التي سوف أطلبها منها (الآن وقد تولد لديّ الانطباع التامّ بأنّها لا بدّ من النمط اللعوب). ولكنّ الفكر يتأثر كالنبات، كالخلية كالعناصر الكيميائية، وأما الوسط الذي يبدّله إن غمس فيه فظروف وإطار جديد. فحينما وجدتني ثانية بصحبة "البيرتين" قلت لها، وقد أضحت مختلفاً من جرّاء حضورها ذاته، غير ما سبق أن رسمت. ثم تساءلت وقد تذكرت الصدغ الملتهب، إن كانت "البيرتين" لن تقدّر أكثر من ذلك

تلطفاً تعلم أنه خالي الغرض. وكنت أخيراً أحسن بالحيرة إزاء بعض نظراتها وابتساماتها. فقد كان يمكن أن تدلّ على خفة في الأخلاق وكذلك على مرح يشوبه شيء من البلاهة لدى فتاة تستهويك حيويتها ولكنها تملك أساساً من الاستقامة. ولما كان التعبير نفسه يمكن أن يحتمل معاني مختلفة في الوجه كما في اللغة فقد كنت حائراً كتلميذ إزاء صعوبات ترجمة عن اليونانية.

والتقينا في الحال تقريباً في تلك المرة "آندريه" الطويلة القامة، تلك التي سبق أن قفزت من فوق رئيس المحكمة الأول. واضطرت "ألبرتين" أن تعرفني بها. وكان لصديقتها عينان فاتحتان إلى حدّ مدهش مثلما هو المدخل في شقّة ظليلة من الباب المفتوح إلى غرفة يتخللها ضوء الشمس وانعكاس خضرة البحر الذي يغمره النور.

ومرّ خمسة رجال كنت أعرفهم أتمّ المعرفة بالوجه منذ إقامتي في "البليك". وكثيراً ما تساءلت من يكونون. وقالت لي "ألبرتين" في قهقهة يلونها الازدراء:

"ليسوا جماعة على قسط كبير من اللطف. أما العجوز القصير القامة المخضّب الشعر الذي يضع قفازين أصفرين فإنّ عليه مسحة خاصة وهو حسن الهيئة، ألا ترى: إنه طبيب الأسنان في "البليك". وأما السمين فهو المختار، لا ذاك السمين الشديد القصر فلا بدّ أنّك رأيت هذا الأخير، إنه أستاذ الرقص وهو كذلك على شيء من القبح ولا يطبق احتمالنا لأننا نثير الكثير من الضجيج في المقصف ونقضي على مقاعده ونبغي الرقص دون سجادة ولم يمنحنا لذلك الجائزة البتّة مع أنّه ليس من يحسن الرقص سوانا. إنّ طبيب الأسنان رجل طيّب القلب ولعلني كنت حييته لأثير سخط أستاذ الرقص، ولكنني ما كنت أستطيع لأنّ معهم السيد "دوسانت كروا" المستشار العام وهو رجل من عائلة كريمة جداً انحاز إلى جانب الجمهوريين لقاء مال. ولم يعد يلقي عليه التحية أيّ شخص نظيف اليد. إنه يعرف عمّي بسبب الحكومة ولكنّ بقية الأسرة أولته ظهرها. أما الهزيل الذي يرتدي مشمعاً فقائد الفرقة الموسيقية. ويحك، كيف لاتعرفه ! إنه يعزف أروع العزف. ألم تذهب لسماع "خيالة الريف"؟ آه ! إنّي أجد ذلك رائعاً ! إنه يقدّم حفلة عزف هذا المساء ولكننا لانستطيع الذهاب إليها لأنها تقام في قاعة دار البلدية. لا بأس علينا في المقصف، أمّا في دار البلدية التي نزعوا منها المسيح فسوف تصاب والدة "آندريه" بالسكتة إن ذهبنا إليها. ستقول لي إنّ زوج خالتي في الحكومة. ولكن ما عساك تريد؟ إن خالتي تطلّ خالتي. ولكنني ما من أجل ذلك أحبها فلم تراودها البتّة سوى رغبة واحدة: أن تتخلّص مني. أمّا المرأة التي كانت حقاً بمثابة والدتي والتي كانت مزدوجة الفضل بما أنها لا تمثّل شيئاً بالنسبة إليّ فصديقه أحبها على أيّة حال بمثابة أم، وسوف أريك صورتها." واستحوذ على انتباهنا لحظة "أوكتاف" بطل الغولف ولاعب البكارا، وظننت أنّي اكتشفت رابطة قريبي بيننا لأنني علمت في أثناء الحديث أنّه على قرابة بآل "فيردوران" وأنهم إلى ذلك يكتنون له بعض الحب. ولكنّه روى بازدراء عن أيام الأربعاء المشهورة وأضاف أنّ السيّد "فيردوران" يجهل استعمال السموكن الأمر الذي يجعل لقاءه مزعجاً في بعض المسارح الغنائية حيث تفضّل إلى حدّ بعيد ألاّ يسمع صيحة: "مرحباً يا فتى" يطلقها سيّد يرتدي سترة وربطة عنق

يرتديهما كانت عدل في قرية، ثم فارقنا "أوكتاف"، وبعد قليل جاء دور "آندريه" التي وصلت أمام دارتها حيث دخلت دون أن تكون قالت لي كلمة واحدة طوال المشوار بكامله. وزاد من أسفي لذهابها أن مرّت، فيما كنت ألقت انتباه "البيرتين" إلى أيّ حدّ بدت صديقتها جافة معي وأقارب بين الصعوبة في حدّ ذاتها التي يبدو أنّ "البيرتين" تعاني منها في إفساح المجال لي لمصادقة رفيقاتها والعداء الذي بدا أنّ "إيلستير" اصطدم به في اليوم الأوّل، وذلك كيما تستجيب أمنيتي، مرّت فتيات حيّتهنّ وهنّ الآنسات "دامبر وساك"، وقد حيّتهنّ "البيرتين" بدورها.

وظننت أنّ وضعي إزاء "البيرتين" سوف يتحسنّ بذلك، لقد كنّ بنات إحدى قريبات السيّدة "دوفيلباريزيس" وكانت تعرف بدورها السيّدة "دولوكسمبور". كان السيّد "دامبر وساك" وعقيلته يملكان دارة صغيرة في "البليك" وكانا يعيشان حياة من أكثرها بساطة. وهما فاحشا الثراء، ويرتديان على الدوام السترة نفسها بالنسبة إلى الزوج وفسطانا عاتماً بالنسبة إلى الزوجة. وكان كلاهما يؤدّيان لجذّتي تحيّات واسعة لا تقضي إلى شيء. أمّا البنات، وهنّ في غاية الجمال، فكانت ملاسهنّ أكثر أناقة، ولكنّها أناقة المدينة لا الشاطيء. كان يبدو عليهنّ، بفساطيتهنّ الطويلة وقبعاتهنّ الواسعة، وكأنّهنّ ينتمين إلى صنف بشري يغاير صنف "البيرتين". وكانت هذه الأخيرة تعلم تمام العلم من هنّ. "آه! إنك تعرف بنات "دامبر وساك" الصغيرات؟ فأنت تعرف جماعة في غاية الأناقة." وأضافت كما لو كان في الأمر تناقض: "وهم على آية حال في غاية البساطة. إنهنّ لطيفات جدّاً ولكنّهما أحسن تهذيبهنّ إلى حدّ أنّه لا يُسمح لهنّ بالذهاب إلى المقصف ولا سيّما بسببنا، لأنّ تصرفنا لا يروق ألبيّة في المجتمع. هل يعجبك؟ بالطبع، المسألة مسألة ذوق. إنهنّ بالضبط صنف الفتيات البريات، وربّما كان للأمر سحره الخاص، فإن كنت تحبّ الفتيات الصغيرات البريات فإنّ لك ما تشتهي. والظاهر أنّ بوسعهنّ إثارة الإعجاب بما أن إحداهن مخطوبة للمركز "دوسان لو". وقد أوردت الأمر الصغرى غمّاً كثيراً إذ كانت مولعة بذلك الشاب. أمّا أنا فإنّما يثير أعصابي محض طريقتهم في التحدّث من طرف الشفتين. ثمّ إنهن يتزيّنن بأزياء مضحكة، فيذهبن إلى الغولف بفساطين من حرير. إنهن يتأقنن في ملابسهنّ بتصنع يفوق ما يتفق لنسوة مسنّات أقنن فنّ اللباس. هاك السيّدة "إيلستير"، فتلك امرأة أنيقة. فأجبت أنّها بدت لي شديدة البساطة في ملابسها. فأخذت "البيرتين" في الضحك. "إنّها ترتدي ملابس في غاية البساطة بالفعل ولكنّها تلبس بطريقة رائعة وهي تنفق إنفاقاً عظيماً كي تصل إلى ما ترى أنّه من البساطة." كانت أثواب السيّدة "إيلستير" لا تسترعي انتباه من لا يملك الذوق السليم والمعتدل في أمور الملبس، وكان يعوزني. أمّا "إيلستير" فكان يملكه إلى أقصى درجاته حسبما قالت لي "البيرتين". ولم أكن ارتبت بالأمر ولا بأن الأشياء الأنيقة والبسيطة التي تملأ مرسومه كانت روائع طالما اشتهاها ولاحقها من صفقة إلى أخرى فأحاط بكامل تاريخها إلى اليوم الذي كسب فيه ما يكفي من المال ليتمكّن من امتلاكها. ولكنّ "البيرتين"، وهي في مثل جهلي بهذا الشأن، لم تكن تستطيع أن تعلّمني شيئاً. أمّا بشأن الملابس، وقد بصّرتها بذلك غريزة الفتاة المغناجة وربّما أسف

الفتاة الفقيرة التي تذوق بمزيد من التجرد والرقّة لدى الأغنياء مالا يسعها أن تتزيّن به، فقد عرفت كيف تحدّثني أحسن الحديث عن تأنق "إيلستير"، وهو متشدّد إلى حدّ أنّه كان يجد آية امرأة رديئة الملبس وكان إذ يضع دنيا بأسرها في علاقة تناسّب وفي فوارق طفيفة يوصي لامرأته بأثمان باهظة على شمسّيات وقبعات ومعاطف علّم "البيرتين" كيف تجدها ساحرة وما كان لشخص يعوزه الذوق أن ينتبه لها أكثر ممّا فعلت أنا. وكانت "البيرتين" التي انصرفت قليلاً إلى الرسم دون أن يتجمّع لديها على آية حال، حسبما تقرّ به، أي "استعداد"، كانت تحس بإعجاب كبير تجاه "إيلستير" وقد أصبحت بفضل ما قاله لها وأراها إيّاه خبيرة باللوحات على نحو يناقض إلى حدّ بعيد تحمّسها لـ "خيالة الريف". ذلك أنّها كانت بالحقيقة شديدة الذكاء، مع أنّ الأمر يكاد لا يلاحظ بعد، وأنّ الغباء في الأمور التي تقولها لم يكن غبائها، بل غباء وسطها وسنّها. لقد أثر "إيلستير" فيها تأثيراً خيراً ولكنّه جزئي. ولم تكن جميع صبيغ العقل قد بلغت لدى "البيرتين" درجة النمو نفسها، فقد كان ذوقها في الرسم قد لحق تقريباً بلذوقها في أمور الملبس والزينة وجميع أشكال الأناقة ولكنّها لم يلحق به ذوقها في الموسيقى الذي ظلّ بعيداً إلى الورا.

وعبثاً كانت "البيرتين" تعرف من كانت الأنسات "أمبروساك"، ولما كان من يستطيع الكثير لا يستطيع بالضرورة القليل، فإني لم أجدها بعدما حيّيت تلك الفتيات أكثر استعداداً لأن تعرفني بصديقاتها. "أنت شديد الطيبة في إيلائهن هذه الأهميّة. لا تعهرن انتباهك، فّلسنّ على شيء. وماذا يمكن أن تمثّل تلك الصبيّات الصغيرات في نظر رجل بمثل قدرك؟ إنّ "آندريه" علي الأقلّ مرموقة الذكاء. إنّها بنية طيبة مع أنّها غريبة الأطوار على أكمل وجه، أما الأخريات فهنّ حقاً حمقاوات." وبعدها فارقت "البيرتين" انتابني فجأة غمّ كبير أن أخفي "سان لو" عليّ خطوبته وأن اقترف أمراً سيئاً سوء أن يتزوّج دون أن يكون قطع صلاته بعشيقته. بيد أنّه تمّ تقديمي لـ "آندريه" بعد بضعة أيّام ولما تحدّثت فترة طويلة إلى حدّ ما فقد اغتنمت الفرصة لأقول لها إنني أودّ لقاءها في الغد، ولكنها أجابتني أن الأمر مستحيل لأنّها لقيت والدتها في حالة سيّئة بعض الشيء ولا تودّ أن تدعها وحدها. ولما ذهبت بعد يومين لزيارة "إيلستير" حدّثني عن المودة الكبيرة التي تكنّها لي "آندريه". وإذا أحبته قائلاً: "ولكنّي أنا الذي يكنّ لها الكثير من المودة منذ اليوم الأوّل وقد طلبت إليها أن ألقاها مجدداً في الغد ولكنّها ما كانت تستطيع." فقال لي "إيلستير": "أجل، إنني أعرف ذلك فقد روت لي عنه، وقد أسفّت للأمر، إلّا أنّها سبق أن قبلت دعوة إلى غداء في الهواء الطلق على عشرة فراسخ من هنا وكان ينبغي أن تذهب إلى المكان في عربة عامّة ولم يسعها من بعد أن تعتذر." ومع أنّ الكذبة كانت غير ذات بال، بما أنّ "آندريه" على معرفة قليلة بي، فما كان يجدر بي أن أستمّر في التردّد على شخص قادر على مثلها. فإنّما يكرّر الناس إلى مالا نهاية ما قد فعلوه. فإن ذهبت في كلّ عام لزيارة صديق لم يستطع المرّات الأولى أن يجيء إلى الموعد الذي حدّدته أو هو أصيب بالزكام فسوف تعود فتلقاه مصاباً بزكام آخر ولن تجده في موعد آخر لم يجيء إليه لسبب واحد دائم يظنّ أنّه يرى مكانه أسباباً مختلفة يستخلصها من الظروف.

وفي صباح أحد الأيام التي تلت الصباح الذي قالت لي فيه "آندريه" إنّها مضطّرة أن تبقى إلى جانب والدتها كنت أسير بضع خطوات مع "البيرتين" التي رأيته ترفع في طرف جبل صغير شعاراً

غريباً كان يجعلها شبيهة بلوحة "عبادة الأصنام" من أعمال "جوتو". وإنما يدعونه على آية حال "ديابولو"^(١)، وقد أدركه العناء إلى حد أن المعلقين في المستقبل سوف يمكنهم التحدث، أمام رسم فتاة تمسك بواحد منها، وكأنما أمام هذه الصورة الرمزية في "الأرينا"^(٢)، حول ما تمسك به يدها. وبعد لحظة جاءت صديقتهم ذات المظهر الفقير التي قهقهت في اليوم الأول تقول بلهجة شديدة القسوة: "إنه يثير شفقتي هذا العجوز المسكين" وهي تتحدث عن السيد العجوز الذي لامسته قدما "آندريه" الخفيفتان، جاءت تقول لـ "البيرتين": "مرحباً، تراني أزعجكم؟" وكانت قد خلعت قبعتها التي كانت تزعجها فإذا شعرها ينسدل على جبينها كمثل نوع نباتي رائع ومجهول في دقة أوراقه ونعومتها. ولم تجب "البيرتين" بشيء وربما أثار سخطها أن تراها حاسرة الرأس، وصمتت صمتاً شديداً البرودة لم تبرح الأخرى مكانها على الرغم منه وقد ظلت على مسافة مني من جراء "البيرتين" التي كانت تتدبر أمرها أحياناً لتبقى وحدها ومعها وأحياناً لتسير معي فيما تتركها وراءنا. واضطرتت كيما تقدمني أن أسألها ذلك في حضرة الأخرى. حينئذ رأيت في اللحظة التي ذكرت فيها اسمي على وجه تلك الفتاة وفي عينيها الزرقاوين، وكنت قد وجدت لها هيئة شديدة القسوة حينما قالت "هذا العجوز المسكين، إنه يثير شفقتي"، رأيت ابتسامة تمر وتشرق فليبة محبة، ومدت لي يدها. كان شعرها مذهباً ولم يكن وحده كذلك، فلن كانت وجنتاها مؤردتين وعيناها زرقاوين وإنما كالسما الذي لاتزال تغمرها حمرة الصباح الأرجوانية ويلوح العسجد فيها في كل مكان ويشرق.

وتحمست في الحال وقلت في نفسي إنها طفلة خجول أن تحب، وإنما ظلت معنا من أجلي ومن جراء حبها لي على الرغم من صنوف جفاء "البيرتين" وإنما لابد أسعدها أن تستطيع البوح أخيراً بتلك النظرة المشرقة الطيبة أنها سوف تكون رفيقة معي بقدر فسوتها إزاء الآخرين. وليس من شك أنها لاحظتني على الشاطئ حتى حينما كنت لا أعرفها بعد وفكرت في ذلك، وربما سخرت من الرجل العجوز كيما تثير إعجابي بها وكانت متجهمة الوجه في الأيام التالية لأنها لم تفلح في التعرف بي. لقد سبق أن لمستها من الفندق تنزه في المساء على الشاطئ، والأرجح أنها كانت تفعل بأمل أن تلتقي بي. ولم تكن الآن تلازم خطانا، وقد ضايقها وجود "البيرتين" وحده بقدر ما يتم لها من جراء وجود كامل المجموعة الصغيرة على الرغم من موقف صديقتها المتعاطف جفاء، إلا بأمل أن تظل الأخيرة وأن تضرب لي موعداً في حين تتوافر لها فيه وسيلة الهرب دون أن تعلم أسرتها وصديقاتها بالأمر وتحديد موعد في مكان أمين قبل القداس أو بعد الغولف. وكان يزيد من صعوبة لقاءها أن "آندريه" كانت على علاقة سيئة بها وكانت تكرهها. وقالت لي: "لقد احتملت طويلاً زيفها الفظيع وسفالتها والوساخات التي لاتحصى التي اقترفتها بحقّي. لقد احتملت كل شيء بسبب

(١) نوع من الألعاب مؤلف من كرة على هيئة مخروطين متصلين القمة تقذف إلى أعلى بواسطة حل مشدود إلى خشبتين. وتستعاد بعد قذفها.

(٢) Arena كيسة صغيرة شهيرة في مدينة بادوفا تزينا رسوم جدارية من أعمال الرسام الإيطالي (جوتو) (Giotto).

الأخريات. ولكن السهم الأخير طفح به الكيل. " وروت لي عن ثروة قامت بها تلك الفتاة

وكان يمكن بالفعل أن تسيء إلى "آندريه".

بيد أن الأقوال التي وعدتني بها نظرة "جيزيل" للحظة التي تركنا فيها "البيرتين" معاً لم يتم لها أن تُقال، لأن "البيرتين" التي اتخذت مكانها بإصرار فيما بيننا تابعت الإجابة باقتضاب متزايد عن أقوال صديقتها ثم توقفت نهائياً ممّا حمل هذه الأخيرة في النهاية على هجر المكان. وأنحيت باللائمة على "البيرتين" لأنها كانت مزعجة إلى هذا الحد. "سوف يعلمها ذلك أن تكون أكثر تحفظاً. ليست فتاة سيئة ولكنها مبرمة. وإنه لا حاجة بها أن تدس أنفها أينما كان. فلماذا تلامزنا دون أن يُطلب منها ذلك؟ لقد كنت على وشك أن أطردها. وإنني أكره على آية حال أن تصف شعرها على هذا النحو فذلك يجعلها من الصنف المبتذل. " كنت أنظر إلى وجنتي "البيرتين" فيما كانت تحدثني وأسائل نفسي أي عطر وأي مذاق يمكن أن يتوافر لهما؛ لم تكن في ذلك اليوم نظرة البشرة بل كانت ناعمتها ومن لون ورديّ موحّد ضارب إلى البنفسجي قشديّ المظهر شأن بعض الورد التي يكسوها طلاء شمعيّ. لقد كنت شغوفاً بهما شغف المرء أحياناً بنوع من الزهور. وأجبتها قائلاً: "لم ألاحظ ذلك من قبل. " - "ولكنك نظرت إليها بما فيه الكفاية، وكان يخيل للمرء أنك تنوي القيام برسمها"، تقول دون أن يهدئ من فورتها أنها هي التي كنت أنظر إليها ساعتها بإمعان. "ولست أحسب مع ذلك أنها تروك، فليست ألبتة غرض مداعبة، ولا بدّ أنك تحبّ فيما يخصك نوع الفتيات هذا. لن يتسع لها من بعد على آية حال أن تلامز الناس وأن تطرد لأنها عائدة عمّا قليل إلى باريس. " - "وهل تعود صديقاتك الأخريات معها؟ " - "لا، وحدها تعود فقط، هي ومريبتها لأن عليها أن تعيد امتحاناتها. إنها ذاهبة للدراسة تلك الصبيّة المسكينة. وليس الأمر مفرحاً بالتأكيد فيمكن أن يتفق أن تقع على موضوع سهل، إذ الصدفة واسعة جداً. من ذلك أن إحدى صديقاتنا طرح عليها الموضوع التالي: "اروي عن حادث شهادته". ذلك حظّ كبير. ولكنني أعرف فتاة كان عليها أن تعالج (كتابياً علاوة على ذلك): "من تفضّلين أن تتخذه صديقاً، "السيست" أم "فيلانت"؟ لكم كانت تربكتني الإجابة عنه! ما ذلك بادئ الأمر، وبصرف النظر عن كل شيء، سؤال يطرح على فتيات. فالفتيات يصادقن فتيات أخريات ولا يعقل أن يتخذن رجالاً بمثابة أصدقاء. (وبعثت تلك الجملة الرعدة في نفسي إذ برهنت لي أن حظّي كان قليلاً بالقبول في صفوف المجموعة الصغيرة). ولكن ما عسالك تستطيع أن تقول في هذا الموضوع حتى لو طرح السؤال على الشبان؟ لقد كتبت عدّة أسر لصحيفة "الغالي" شاكية صعوبة مثل هذه الأسئلة. والأنكى أن الموضوع عولج مرتين على نحو مناقض تماماً وذلك في مجموعة من خيرة وظائف الطلاب الفائزين. الكلّ رهن بالفاحص. فقد كان أحدهم يودّ أن يُقال إن "فيلانت" رجل مجتمع مدهن ومنافق، وآخر إنّه لا يمكن إلا أن تعجب بـ "السيست" إلا أنّه مشاكس إلى حدّ بعيد ولا بدّ من تفضيل "فيلانت" عليه على صعيد الصداقة. فكيف تريد ألاّ يتيه الطلاب إن كان الأساتذة على خلاف فيما بينهم؟ والأمر لا يزال هيئاً. ففي كلّ عام تتزايد الصعوبة. وقد لا تستطيع "جيزيل" تجاوز الورطة إلا بدعم قويّ. "

وعدت إلى الفندق ولم تكن جدتي هناك، فانتظرتها طويلاً. وحينما عادت أخيراً توسلت إليها أن تسمح لي بالقيام ضمن شروط تفوق كل توقع برحلة ربما دامت ثمانى وأربعين ساعة، وتناولت طعام الغداء معها وأوصيت على عربة وأمرت بنقلي إلى المحطة. لن تدهش "جيزيل" أن تراني هناك. وبعدها نبذل القطار في "دو نسيير" فإن في قطار باريس "عربة ممرراً" أستطيع أن أصطحب "جيزيل" فيها، فيما تغفي مرتبتها، إلى زوايا مظلمة وأن أضرب لها موعداً بشأن عودتي إلى باريس أحاول أن أقربه ما أمكن التقريب. ثم أرافقها، حسبما تعرب لي عن رغبتها، حتى "كان" أو حتى "إيفرو" وأستقل القطار التالي. ومع ذلك ما عساها كانت تظن لو علمت أنني ترددت طويلاً بينها وبين صديقاتها وأنتي وددت أن أظفر بحبها وحب "البيرتين" والفتاة ذات العينين الفاتحتين و "روز موند" سواء بسواء ! بتبكي الضمير، لذلك وقد أوشك أن يجمعي الآن بـ "جيزيل" حب متبادل. كنت أستطيع أن أؤكد لها على أية حال بتمتعي الصديق أن "البيرتين" لم تعد تروقني. فقد رأيتهما يتبعان في هذا الصباح لتحدث إلي "جيزيل" وهي توليني ظهرها تقريباً. كان شعرها الذي يبدو مختلفاً من الخلف وأشد سواداً يلتمع، كما لو غادرت الماء منذ قليل، فوق رأسها الذي تحنيه في حرد. وذهب بي التفكير إلى شخص رعديد، وجعلني ذلك الشعر أجسد في "البيرتين" روحاً أخرى تغاير ما فعل حتى ذاك وجهها البنفسجي ونظرتها المفعمة بالأسرار. كان شعرها الملتمع خلف رأسها كل ما استطعت أن ألمحه منها في لحظة واحدة وهو وحده الذي ما زلت أراه. وإنما تشبه ذاكرتنا تلك المخازن التي تعرض في واجهتها لشخص معين هذه الصورة مرة وتلك مرة أخرى. وتظل إلى أحدثها بالعادة وحدها في مكان بارز بعض الوقت. كنت أصغي فيما يستحث الحودي حصانه إلى كلمات الامتنان والحنان التي تقولها لي "جيزيل" وقد انبثقت جميعها من ابتسامتها الحلوة ويدها الممدودة، : ذلك أنني في فترات حياتي التي لم أكن فيها عاشقاً وأرغب في أن أكونه لم أحمل في نفسي فقط مثلاً أعلى في الجمال الجسماني رأينا أنني كنت أتعرفه من بعيد في كل عابرة سبيل كافية البعد حتى لا تتعارض ملامحها الغائمة مع تلك المماثلة، بل أحمل أيضاً الطيف النفسي - وهو دائم الأهمية للتجسد - للمرأة التي ستقع في غرامي والتي ستكون النسخة المطابقة في التمثيلية الغرامية التي سطرتهما كلها في ذهني منذ طفولتي والتي تبدو كل فتاة محبة راغبة الرغبة نفسها في تمثيلها بشرط أن تتمتع إلى ذلك بالمواصفات الجسمانية لتلك الوظيفة. وكان سيناريو تلك التمثيلية وحوادثها ونصها نفسه، كانت كلها تحتفظ بصيغة لا تتبدل أية كانت النجمة الجديدة التي أرشحها للاضطلاع بالدور لأول مرة أو لإعادته.

وبعد بضعة أيام على الرغم من الحماسة الزهيدة التي أبدتها "البيرتين" في تقديمنا كنت أعرف مجموعة اليوم الأول الصغيرة بأسرها، وقد بقيت بكامل أعضائها في "بالبيك" (فيما عدا "جيزيل" التي لم أستطع، من جراء وقفة مطولة أمام سور المحطة وتبدل في مواعيد القطارات، أن ألحق بها في القطار، وقد انطلق خمس دقائق قبل وصولي، والتي لم أعد أفكر فيها على أي حال) بالإضافة إلى اثنتين أو ثلاث من صديقاتهن عرفنني بهن بناء على طلبي. ولما كان أمل المتعة التي قد ألقاها لدى فتاة جديدة إنما يأتي من فتاة أخرى عرفتها بطريقها، فقد كانت أقربهن عهداً تبدو إذ ذاك كواحد

من أنواع الورد تلك التي نحصل عليها بفضل وردة من نوع آخر. وإذ كنت أنتقل من تويج إلى آخر في سلسلة الأزهار هذه، فقد كانت متعة التعرف إلى أخرى مختلفة تردني إلى تلك التي كنت مدينا بها لها بامتنان يداخله قدر من الشوق يماثل أمني الحديد. وبعد قليل أخذت أقضي كامل ساعات النهار برفقة تلك الفتيات.

بيد أننا نستطيع، وأسفي، أن نميز في الزهرة الغضة كأكثر ما تكون النقاط الخفية التي ترسم مذ ذاك في نظر الشخص المطلع ما سوف يكون، من جراء جفاف أو إثمار اللب المزهر اليوم، الشكل الثابت والمقدر مذ ذاك للبذرة. وإتلك لتتابع بابتهاج أنفاً شبيهاً بموجة صغيرة ينتفخ بها ماء الصباح الباكر انتفاخاً لذيذاً وتبدو جامدة يمكن رسمها لأن البحر ساكن إلى حد لا تبصر معه تيار الموج. والوجوه البشرية تبدو وكأنها لا تتغير أن تنظر إليها لأن الدورة التي تقوم بها أشد بطلاً من أن نلاحظها. بيد أنه كان كافياً أن تبصر إلى جانب تلك الفتيات أمهن أو عمتهن لتقيس المسافات التي تكون تلك القسما، بتأثير جاذبية داخلية يمارسها أنموذج شنيع بوجه عام، قد اجتازتها في أقل من ثلاثين عاماً حتى ساعة تضاول الأنظار وتلك التي لا يوافي فيها الوجه نور من بعد وقد غاص بكامله تحت خط الأفق. كنت أعلم أنه إنما يقيم، في مثل عمق وحتمية الوطنية اليهودية أو الطبائع الوراثة المسيحية لدى أولئك الذين يظنون أنهم الأكثر تحرراً من عرقهم، خلف ازهار بشرية "البرتين" و"روزموند" وأندريه" الموردة أنف ضخمة يجهلنها، وقد أدخِر للظروف، وفم بارز وكرش ربما آثار الدهشة ولكنه ينتظر في الواقع خلف الستار وهو على استعداد للدخول إلى المسرح حتمياً غير متوقع، تماماً مثل النزعة الدريفوسية^(*) الإكليروسية أو هذه البطولة الوطنية والإقطاعية التي تنبثق فجأة، حينما تقضي الظروف، من طبيعة سابقة للفرد نفسه يفكر فيها ويحيا ويتطور ويتقوى أو يموت دون أن يمكنه تمييزها عن الدوافع الخاصة التي يضعها موضعها. وإنما ترتبط حتى ذهنياً بالقوانين الطبيعية أكثر مما نظن بكثير ويمتلك فكرنا سلفاً، كمثل تلك الخفيات الإلقاح وكمثل تلك التجليات، الخصائص التي نحسب أننا ننتقيها. ولكننا لا ندرك سوى الأفكار الثانوية دون أن نبصر العلة الأولى (كالجنس اليهودي والأسرة الفرنسية، الخ) التي أنتجت بالضرورة والتي نبرزها في اللحظة المناسبة. وفيما تبدو لنا بعضها على أنها نتيجة تفكير مدروس والأخرى على أنها ناجمة عن إهمال في شؤون نظافتنا، ربما أخذنا عن أسرنا، مثلما تأخذ الفراشيات شكل بذرتها، الأفكار التي نحيا بها والمرض الذي نموت به سواء بسواء.

لقد رأيتهن، وكأنا في أغراس تنضج فيها الأزهار على فترات مختلفة، في صورة سيدات مسنات

على شاطي "باليك"، رأيت تلك البذرات القاسية والعساقل الرخوة التي سوف تنقلب إليها

(*) نسبة إلى Dreyfus وهو ضابط يهودي فرنسي اتهم بتهريب معلومات إلى المخابرات الألمانية وظلت قضيته فترة طويلة الشغل الشاغل للرأي العام الفرنسي بين حامل عليه ومدافع عنه.

صديقاتي ذات يوم. ولكن ما همّ، وفي هذه الفترة فصل الأزهار؟ لذلك كنت أبحث عن عذر كي لا أكون حراً حينما تدعوني السيّدة "دو فيلبا ريزيس" إلى نزهة. ولم أقم بزيارات لـ "إيلستير" فيما عدا تلك التي رافقتني فيها صديقاتي الجديّدات. ولم يسعني حتّى أن أجد عصراً واحداً للذهاب إلى "دو نسيير" للقاء "سان لو" حسبما سبق أن وعدته به. ولعلّ اجتماعات الطليقة الراقية والمحادثات الجدية وحتّى الحديث الودّي، لعلّها إن هي حلّت محلّ نزهاتي مع هؤلاء الفتيات كانت تخلف في الأثر نفسه الذي يصيبنا لو صبحونا ساعة الغداء لا لتناول الطعام بل لإلقاء نظرة على مجموعة صور. فالرجال والشبان والنساء المسنّات أو الناضجات ممّن نحسب أننا نأنس بصحبهم إنّما يقيمون بالنسبة إلينا على محض مساحة مستوية لا كثافة لها لأننا لا نعيهم إلّا بالإدراك البصريّ المقصور على نفسه. وإنّما يتجه هذا الإدراك إلى الفتيات على أنّه مفوّض عن الحواسّ الأخرى، فتمضي هذه في البحث عن مختلف خصائص الشّم واللمس والمذاق الواحدة تلو الأخرى وتتذوقها هكذا حتّى دونما لجوء إلى اليدين والشفّتين، وتستطيع بفضل فنون تبديل المواقع موهبة التأليف بين الأمور التي تبرع فيها الرغبة أن تردّ إلينا خلف لون الوجنتين أو الصدر الملمس والمذاق والملاسمات الممنوعة فتضفي على هؤلاء الفتيات الكثافة المعسولة نفسها التي تصنعها حينما تتنقل بين أغراس الورود أو في كرم تلتهم عناقيده بعينيها.

وإن كان الطقس ماطرًا، ومع أنّ الطقس الرديء ما كان يخيف "البيّرتين" التي كنّا نراها أحياناً بمشعّها تمرّ سريعة على درّاجتها تحت زخات المطر، كنّا نمضي النهار في المقصف حيث كان يبدو لي من المستحيل ألا أذهب إليه في تلك الأيام. وكنت أحسّ بأشدّ الازدراء تجاه الآنسات "دامبر وساك" اللواتي لم يدخلنه أبنة. ولم أكن أتردّد في مساعدة صديقاتي في تدبير الخدع لأستاذ الرقص. وكنا نتعرّض بوجه عام لبعض تعنيفات المدير أو المستخدمين الذين يفتصبون سلطة المدير لأنّ صديقاتي، وحتّى "آندريه" التي ظننتها لذلك في اليوم الأول مخلوقة شيطانية والتي كانت على العكس هئيّة العود ومثقفة وكثيرة الأوجاع في ذلك العام ولكنها كانت على الرغم من ذلك أقلّ خضوعاً لحالتها الصحيّة منها لما فطرت عليه هذه السنّ التي تحرف كلّ شيء وتخلط في جوّ من المرح بين المرضى والمعافين، لأنّهنّ ماكنّ يستطعن الذهاب من الردهة إلى قاعة الاحتفالات دون أن يجمعن قواهنّ ويقفزن فوق المقاعد ويعدن أدراجهنّ مترحلات يحافظن على توازنهنّ بحركة رشيقة لليدين ويغنّين مازجات جميع الفنون في أوّل الشباب هذا، شأن شعراء العصور الأولى الذين لم تنفصل الفنون الأدبيّة بعد بالنسبة إليهم والذين يمزجون في قصيدة ملحمة الإرشادات الزراعية بالعاليم اللاهوتيّة.

و"آندريه" هذه التي بدت لي أكثرهنّ جفاءً في اليوم الأوّل كانت أكثر رقة بما لا يقاس وأكثر ودّاً وأوفر نعمة من "البيّرتين" التي كانت تبدي لها الحنان الرقيق العذب الذي تبديه الشقيقة الكبرى. كانت تحيّي إلى المقصف فتجلس إلى جانبي وتعرف-بعكس "البيّرتين" كيف ترفض رقصة فالس، أو حتّى كيف تتخلّى، إن كنت متعباً، عن الذهاب إلى المقصف لتأتي إلى الفندق. كانت تعرب عن مودّتها لي ولـ "البيّرتين" بلطائف عاطفيّة تبرهن عن أروع إدراك لأمر القلب لعلّه كان

ناجماً في جزء منه عن حالتها المرضية. وكانت تملك على الدوام ابتسامة مشرقة لتعذر ولدنة "البيرتين" التي كانت تعبر تعبيراً عنيفاً ساذجاً عن الإغراء الشديد الذي تحمله لها حفلات اللهو التي لا تعرف، شأن "أندريه"، أن تفضل عليها دونما تردد الحديث معي.

فحينما كانت تقترب ساعة الذهاب إلى عسرونية تُقدّم في ملعب الغولف كانت تتأهب إن كنا كلنا مجتمعين في ذلك الحين، ثم تُقبل على "أندريه" هيّا يا "أندريه" ما عساك تنتظرين للمجيء؟ تعلمين أننا ذاهبات لتناول العسرونية في ملعب الغولف. فتجيب "أندريه" وهي تشير إليّ: "لا، أظنّ للتحديث معه." - "ولكنك تعلمين أنّ السيّد "دوريو" قد دعّتك"، تقول "البيرتين" صائحة كما لو لا يمكن تفسير نية "أندريه" في البقاء معي إلّا بالجهل الذي لا بدّ هي فيه أنها مدعوّة. وتجيب "أندريه" قائلة: "هيّا لا تكوني بلهاء إلى هذا الحد يا صغيرتي". ولاتلحّ "البيرتين" مخافة أن يُعرض عليها البقاء بدورها. وتهزّ رأسها وتجيب قائلة: "افعلي ما يحلو لك"، مثلما نقول لمرضى يتلذذ بقتل نفسه شيئاً فشيئاً، "أما أنا فأسرع إذ أظنّ أنّ ساعتك متأخرة"، ثم تطلق ساقها للريح. إنها رائعة، ولكنها غريبة الأطوار"، تقول "أندريه" وهي تغمر صديقتها بابتسامة تداعبها وتحكم بها عليها في الآن نفسه. ولكن بُني "البيرتين" في ميلها هذا إلى اللهو بعض ما أبدت "جيلبيرت" في الفترات الأولى فلأنّ بعض الشبه قائم، فيما هو يتطوّر، بين النساء اللواتي نحبهن على التوالي، ذلك الشبه الذي مرّده ثبات مزاجنا لأنّه هو الذي يختارهنّ، مستبعداً جميع اللواتي لا يكنّ مناقضات لنا ومكملات في الوقت نفسه، أي من شأنهنّ أن يشبعن حواسنا ويعدّبن فؤادنا. وإنّ تلك النسوة لمن إنتاج مزاجنا، وصورة وارتسام بالمقلوب والنسخة السلبية عن إحساسنا، وهكذا قد يستطيع روائي أن يرسم في غضبون حياة بطله ما تتالي من صنوف عشقه في صور متشابهة تقريباً وأن يولينا من جراء ذلك انطباعاً، لا بأنّه يقلد نفسه، بل بأنّه يبتكر لأن ثمة زخماً أقلّ في تحديد مصطلح ممّا في تكرار مُعدّة للإيحاء بحقيقة جديدة. على أنّه يجدر به أن يسجّل في طبع المحبّ مؤشر تحوّل يتضح تدريجياً كلّما بلغ مناطق جديدة ومناخات أخرى في الحياة. ورّبما عبّر كذلك عن حقيقة إضافية إن امتنع، فيما هو يرسم طبائع مميّزة لشخصياته الأخرى، عن خصّ المرأة المحبوبة بأيّ طابع. إننا نعرف طبائع من لانبالي بهم، ولكن كيف يمكننا إدراك طبع كائن يختلط بحياتنا ولا نميّزه عمّا قليل عن ذاتنا ولا نكفّ عن القيام بافتراضات تزخر بالقلق ونعدّل فيها باستمرار حول دوافعه؟ إن توقنا إلى المرأة التي نحبّ يتجاوز في مسعاه الطابع المميّز لهذه المرأة، إذ ينطلق من خلف حدود العقل. ولعلنا لو استطعنا التوقف أمامه لما شئنا ذلك دونما شكّ. ذلك لأنّ غرض بحثنا القلق أكثر أهمية من خصائص الطباع تلك الشبيهة بهذه المعينات الدقيقة في بشرتنا التي تولّف تشكيلاتها المختلفة تفرد "التعريق" في جسمنا. وإنّ أشعّتنا الحديسيّة لتخترقها وليست الصور التي تأتينا بها صور وجه معيّن، بل تمثّل شموليّة الهيكل العظمي الكتيبة المؤلمة.

ولمّا كانت "أندريه" بالغة الثراء و"البيرتين" فقيرة ويّيمة، فقد كانت "أندريه" تمكّنها من الإفادة من بلذتها بأريحية كبيرة. أما فيما يخصّ مشاعرها نحو "جيزيل" فلم تكن بالضبط ما سبق أن ظننت. فقد وردت بعد قليل أخبار من الطالبة، وحينما أبرزت "البيرتين" الرسالة التي وردتها منها،

تلك الرسالة التي قصدت بها "جيزيل" تزويد المجموعة الصغيرة بأخبار رحلتها ووصولها فيما تعتذر عن تقاعسها عن الكتابة للأخريات دهشت أن أسمع "آندريه" التي حسبتها على أشد الخلاف معها تقول: "سوف أكتب لها غداً لأنني إن انتظرت رسالتها أولاً فيمكن أن أنتظر طويلاً فهي مهمة إلى أبعد حد". ثم أضافت وهي تلتفت إليّ: "قد لا تجدها بالطبع رائعة، ولكنها طيبة إلى حد بعيد، ثم إنني أشعر حقاً بمودة عظيمة نحوها". واستخلصت من ذلك أن خلافاً "آندريه" لم تكن تدوم فترة طويلة.

وإذ كنا نزمع الذهاب على الدراجات إلى الحرف أو الريف، فيما عدا تلك الأيام الماطرة، كنت أحاول قبل ذلك بساعة أن أتائق في مذهري وأخذ في التفجع إن لم تحسن "فرانسواز" إعداد حوائجي. ولكنها كانت حتى في باريس ترفع باعتزاز وحنق قامتها التي أخذت السنون تحنيها لأقل ما تؤخذ بخطأ هي المتواضعة الرقيقة اللطيفة حينما يدغدغ اعتزازها بذاتها. ولما كان هذا الاعتزاز يؤلف المحرك الأكبر في حياتها فقد كان ارتياحها وصفو مزاجها في تناسب مباشر مع صعوبة الأمور التي تطلب منها. أما تلك التي تقع على عاتقها في "بالبيك" فقد كانت سهلة إلى حدّ تبدي معه على الدوام تقريباً امتعاضاً يتضاعف فجأة مرةً وتقرن به ملامح ساخرة مستكبرة حينما كنت ألدّم، ساعة الذهاب لملاقة صديقاتي، من أن قبعتي لم تنظف بالفرشاة أو أن ربطات عنقي غير مرتبة. وكانت، لمحض ملاحظة أن ستره لم تكن في مكانها، لاتباهي بأي اهتمام "أغلقت عليها بدلاً من أن تدعها للغبار" فحسب، بل تأسف، وهي تثني على أعمالها نداء يماشي الأصول، أن لا يكون من العطلة في شيء تقريباً ما تقضي من أيام في "بالبيك" وأنه قد لا يوجد شخص ثان مثلاً ليعيش مثل هذه الحياة، تأسف هي التي كان يمكن أن تتحمل الكثير من المشاق دون أن تحكم لذلك أنها فعلت شيئاً. "لأفهم كيف يمكن أن يترك المرء حاجاته على هذا النحو، وهات نر إن كانت تستطيع أخرى أن تهدي في هذه الفوضى. إبليس نفسه قد يضلّ طريقه". أو هي تكفي بأن تتخذ سيماء ملكة وهي ترميني بنظرات ملتهبة وتلتزم صمتاً تقطعه حالما تكون أغلقت الباب وسارت في الممر: وكان يدوي حينئذ بأقوال أحسها مليئة بالشتائم ولكنها تظلّ مبهمة كأقوال شخص المرحية التي تسرد أقوالها الأولى خلف الحاجز قبل دخولها على خشبة المسرح. على أن "فرانسواز" كانت تبدو، حينما كنت أستهذ هكدا للذهاب مع صديقاتي، وإن لم ينقص شيء وكانت صافية المزاج، كانت تبدو مع ذلك صعبة لاتطاق. ذلك أنها كانت تستخدم مزاحات كنت أطلققتها على تلك الفتيات تدفعني حاجتي إلى التحدث عنهنّ فتتخذ هيئة من يكشف لي عما لعلني كنت أعرفه خيراً منها لو كان الأمر صحيحاً، بيد أنه لم يكن كذلك لأن "فرانسواز" أساءت الفهم. كان لها شأن سائر الناس طبعها الخاص الذي لا يشبه لدى أحدهم ألبتة طريقاً مستقيمة ولكنه يهملنا بعطفاته الغريبة المحتمة التي لا ينتبه لها الآخرون والتي يشق علينا وجوب المرور فيها. ففي كلّ مرة كنت أصل فيها إلى نقطة "القبة ليست في موضعها" و"اسم آندريه أو ألبيرتين" كانت تضطرني "فرانسواز" إلى سلوك دروب ملتوية وغير معقولة كانت تؤخرني كثيراً. والأمر كذلك حينما كنت أطلب إعداد "سندوتشات" بالجنة والسلطة وشراء قطع حلوى سوف أكلها ساعة العصرية

فوق الجرف بصحبة تلك الفتيات، وكان يمكن أن تدفعها كل واحدة بدورها لو لم يكن مغرضات إلى هذا الحد، تقول "فرانسواز" التي كانت تهب حينئذ لمساعدتها ردة ورائية كاملة من الجشع والسوقية القروية والتي يُخيل إليك أن نفس المتوفاة "أولالي" المقسمة قد تجسدت في نظرها، على نحو أشد أناقة مما في القديس "ايلوا" في الأجسام الفاتنة لصديقاتي في المجموعة الصغيرة. كنت أسمع تلك التهم وأنا حائق إذ أحسني أصطدم بأحد تلك الأمكنة التي كان يضحي الدرب الريفى المألوف الذي يؤلفه طبع "فرانسواز" غير سالك بعدها، ولا يدوم طويلاً لحسن الحظ. وبعدها يُعثر على السترة وتعدُّ "السندويشات" كنت أمضي وأبحث عن "البيرتين" و"آندريه" و"روزموند" وغيرهن أحياناً ثم كنّا ننطلق سيراً على الأقدام أو على الدراجات.

لعلني كنت فضلت فيما مضى أن تتم هذه النزهة في طقس ماطر. كنت أحاول آنذاك أن ألقى في "بالبيك" "بلد السيميرين" وكانت الأيام الحلوة أماً يجدد ألا يوجد هناك وتدخلاً لصيف المستحقين التافه في هذه المنطقة القديمة التي يحجبها الضباب. ولكني الآن ربما بحثت بتلهف عن كل ما سبق أن ازدريته واستبعدته عن عيني، لاعتن تلاعب أشعة الشمس فحسب بل عن سباقات اليخوت كذلك وسباقات الخيل، للسبب نفسه الذي ما كنت أبغي معه سوى بحور كثيرة العواصف والذي قوامه أن هذه ترتبط شأن تلك فيما مضى بفكرة جمالية، ذلك أنه سبق أن ذهبنا أحياناً برفقة صديقاتي لزيارة "إيلستير" فكان ما فضل أن يعرضه في الأيام التي تحضر فيها الفتيات بعض الرسوم التخطيطية لصاحبات يخوت جميلات أو رسم أولي أنجز في ميدان سباق خيل بجوار "بالبيك". وأفضيت بادئ الأمر إلى "إيلستير" وأنا خجلان أنني لم أرتض الذهاب إلى الحفلات التي سبق أن أقيمت فيه، فقال لي: "لقد كنت مخطئاً، فما أحلاه وما أغربه كذلك. فهناك أولاً هذا الكائن الخاص، الفارس، الذي يحقّ إليه الحجم من الأنظار والذي يقف أمام الممرّ كتيباً أشهب في سترته المتألقة لا يؤلف وحصانه المتوثب الذي يشده إليه سوى كتلة واحدة، فما أحب أن تبرز حركاته التي تملئها المهنة وأن تظهر البقعة الملتصقة التي يؤلفها وتؤلفها كذلك كسوة الأحصنة على أرض ميدان السباق ! وأي تحول لجميع الأشياء في هذا الامتداد الشاسع المضىء في ميدان سباق تذهلك فيه كثرة الظلال والانعكاسات الضوئية التي لا تبصرها إلا هناك ! وما أكثر ما تكون النساء جميلات فيه ! لقد كانت الحفلة الأولى رائعة بوجه خاص، وكان ثمة نساء في غاية الأناقة وسط نور ندي هولاندي يحس المرء فيه ببرودة الماء المتغلغلة تدانخل الشمس نفسها، لم أر النساء في يوم يصلن في عرباتهن أو المناظير على عيونهن في مثل هذا النور الناجم دونما شك عن الندوة البحرية. أه ! كم كنت أحب أن أعبر عنها ! لقد عدت من تلك السباقات فاقد العقل تعتمل في صدري رغبة، وآية رغبة، في العمل ! " ثم إنه أبدى افتتاحاً بحفلات سباق اليخوت أكثر منه بسباقات الخيول وأدركت أن سباقات يخوت ولقاءات رياضية تسبح فيها نسوة أنيقات الملبس في ضياء أزرق مخضوضر على أرض ملعب بحري لسباق الخيول كان يمكن أن تكون في نظر فتان حديث موضوعاً ممتعاً بقدر الاحتفالات التي ما أكثر ما كان يحب وصفها أمثال "فيرونيز" و"كارباتشيو". وقال لي "إيلستير": "إنما يزيد من صحة تشبيهك أن تلك الاحتفالات كانت في قسم منها مائة بسبب المدينة

التي كانا يرسمان فيها. بيد أن جمال القوارب في ذلك الزمان كان قائماً في الغالب على ثقلها وعلى تعقيدها. وكان ثمة، كما هي الحال هنا، مباريات فوق الماء تُقام بعامّة على شرف سفارة ما شبيهة بالتي صورتها "كارباتشيو" في "أسطورة القديسة أورسولا". لقد كانت السفن ضخمة وقد بُنيت مثل العمارات وتبدو وكأنها برمائية، كمثل مدن بندقيّة مقلّصة داخل تلك، حينما كانت تُربط بوساطة جسور متحركة وقد جُلّت بالساتين القرمزيّ والسجاد الفارسي وتقلّ نسوة بأثواب من البروكار الكريّ أو الدمقس الأخضر على مقربة من الشرفات المرصّعة بالرخام المتعدّد الألوان التي تطلّ منها بغية الفرجة نساء أخريات بأثوابهنّ ذات الأكمام السوداء والفتحات البيضاء المطرّزة باللآلئ أو المزينة بالتخاريم، فلا تدري من بعد أين تنتهي الأرض وأين يبدأ الماء ومالا يزال القصر أو هو أصبح السفينة أو المركب الشراعي أو السفينة الضخمة أو مركب الدوج. "كانت" "البيرتين" تصغي بانتباه المتلهّف إلى تفاصيل الملابس تلك وصور البدخ التي يصفها لنا "إيلستير". فصاحت قائلة: "آه! وددت لو أرى التخاريم التي تحدّثنا عنها، فإن غرزة البندقيّة جميلة إلى حدّ بعيد. وما أكثر ما أحبّ الذهاب إلى البندقيّة على أيّة حال!" وقال لها "إيلستير": "ربما أمكنك عمّا قريب مشاهدة الأقمشة الرائعة التي كانوا يرتدونها هناك. فلم تكن تتسنى رؤيتها إلا في لوحات رسامي البندقيّة أو في كنوز الكنائس، والأمر نادر جداً، وربما اتّفق لواحد منها أن يمرّ ضمن بيعة علنيّة. بيد أنّه يقال إنّ فناناً من البندقيّة يدعى "فورتوني" قد عثر على سرّ صنعها وإن النساء سوف يستطعن، قبل انقضاء بضع سنوات، التنزّه ولاسيما المكوث في منازلهن في أثواب من البروكار الرائع روعة البروكار الذي كانت البندقيّة تزينه برسوم من المشرق من أجل سيّداتها الأرستقراطيات. ولكنّي لا أدري إن كنت سأحبّ ذلك كثيراً وأنّ لن يبلغ ذلك مبلغ الأثواب التي تناقض زمانها بالنسبة إلى نساء اليوم وإن تبخترن في سباقات اليخوت، ذلك أنّه فيما يخصّ مراكبنا الترفيحية الحديثة إنما الأمر يناقض تماماً عصر البندقيّة "سيّدة بحر الأدرياتيك". إن أعظم سحر اليخوت وأثاث اليخوت وأزياء مسابقات اليخوت إنما يقوم على بساطة أشياء البحر فيها، وما أكثر ما أحبّ البحرا إنّي أعترف لك أنّي أفضّل أزياء اليوم على أزياء عصر "فيرونيز" وحتى "كارباتشيو". إن الجميل في يخوتنا - ولاسيما اليخوت المتوسطة، فلست أحبّ الضخمة منها إذ هي أقرب إلى السفينة، فأمرها كأمر القبعات: هنالك قدر معين ينبغي الحفاظ عليه - هو هذا الشيء المتساوي البسيط المضيء الرماديّ الذي يتخذ في الطقس الغائم الضارب إلى الزرقة مظهراً ضبابياً قشدياً. وينبغي أن تبدو الغرفة التي نقف فيها وكأنها مقهى صغير. وإنّما أزياء النساء على ظهر أحد اليخوت من القبيل نفسه، فالظريف هو تلك الأزياء الرشيقة البيضاء الموحّدة اللون التي من قماش أولينون أو قطن لمّاع أو كتّان والتي تشكّل في ضياء الشمس وزرقة البحر بياضاً في مثل تألق شراع أبيض. ثمة على أيّة حال عدد قليل جداً من النساء أنيقات الملابس، ولكنّ بعضهنّ رائعات. كانت الأنسة "ليا" في ميدان السباق تعتمر قبعة صغيرة بيضاء وتحمل شمسية صغيرة بيضاء، وكان ذلك أخذاً. ولست أدري ما لعنّي أعطي لأحوز تلك الشمسية الصغيرة". لشّد ماوددت أن أعلم بما تختلف تلك الشمسية الصغيرة عن سواها ولعلّ "البيرتين" كانت تؤدّ ذلك أكثر منّي لأسباب ثانية مردّها الغنج الأنثوي. ولكنّ الاختلاف كان قائماً في القصة، شأن ما كانت "فرانسواز" تقول فيما يخصّ المعجنات المنفخة: "إنه سرّ الصنعة". وكانت بالغة الصغر، بالغة

الاستدارة كشمسية صينية، يقول "إيلستير". وذكرتُ شمسيات بعض النساء، فلم تكن البتّة وافية بالغرض. كان "إيلستر" يجد جميع تلك الشمسيات قبيحة. فقد كان يجعل، هو صاحب الذوق الصعب الرفيع، في أمر زهيد هو كلّ شيء، قوام الفارق بين ما ترتديه ثلاثة أرباع النساء وحاجة حلوة تفتنه وتثير رغبته في الرسم "ليحاول تقديم أشياء في مثل جمالها"، على نقيص ما يقع لي أنا الذي يورثه البلخ، أيّ بلخ، العقم.

وقال لي "إيلستير"، وهو يشير إلى "البيرتين" التي كانت تلتصع بالشهوة عيناها: "انظر، هاك بُنيّة أدركت كيف تكون القبّة والشمسية". وقالت للرسّام: "كم أحبّ أن أكون غنيّة لأملك يختاً! وسوف أسالك النصح لتربيته. وآية رحلات حميلة سوف أقوم بها! وما أجمل أن أذهب إلى ساق الخيوت في "كوف" ثم سيارة! هل ترى أن أزياء النساء فيما يخصّ السيّارات حلوة؟" وأجاب "إيلستير": "لا، ولكنها ستضحى كذلك. وثمة على آية حال القليل من الخيّاطين، هالك واحد أو اثنين، "كالو" مع أنّه يبالغ في ميله إلى الدانتيل، و "دوسيه" و "شيريوي" وأحياناً "باكان". أمّا البقيّة فتتير الاشتمزاز. وسألتُ "البيرتين" قائلاً: "هنالك إذن فرق شاسع بين أثواب لي "كالو" وغيرها لأيّ خيّاط آخر؟" فأجابت: "ضخم بالطبع يا صغيري. آه! عفوك! بيد أنّ ما يكفّف ثلاث مئة فرنك في مكان آخر إنّما يكفّف لديهم، وأسفي، ألفي فرنك. ولكنّا ليس من وجه شبه بين الاثنين، والأمّر واحد في نظر الذين لا يفقهون في ذلك شيئاً." وأجاب "إيلستير": "بالضبط، ولكن دون أن يبلغ بنا أن نقول إنّ الفرق عميق عمق ما هو كائن بين تمثال في كاتدرائية "رانس" وكنيّسة القديس أوغسطينوس". ثمّ قال وهو يوجّه الحديث إليّ على نحو خاصّ، لأن الأمر يرجع إلى حديث لم يشارك فيه تلك الفتيات وما كان على آية حال ليثير اهتمامهنّ: "هاك مثلاً، إذ نحن بصدد الكاتدرائيّات، كنت أحدثك في ذاك اليوم عن كنيّسة "البليك" وكأنا عن جرف كبير، عن تكدّس عظيم من حجارة المنطقة، ولكن انظر بالمقابل"، يقول وهو يريني لوحة بالألوان المائية، "إلى هذه الجروف (إنها خطوط أوليّة أخذت بالقرب من هنا في محلّة "كرونييه")، انظر إلى أيّ مدى تذكّر هذه الصخور الضخمة القطوع الناعمة الخطوط بالكاتدرائيّات. "لكنّا كانت بالفعل أفاوساً ضخمة وردية اللون، ولكنّها تبدو، وقد رسمت في يوم قائل، وكأنّها تحوّلت إلى غبار وبخرها الحرّ الذي كاد يمتصّ البحر وقد انقلب على امتداد اللوحة إلى حالة غازيّة تقريباً. وفي ذلك اليوم الذي قضى فيه الضياء تقريباً على الواقع كان هذا الأخير قد تركّز في مخلوقات عاتمة شفافة توحى بطريق التضادّ بحياة أشدّ روعة وأوفر قرباً، عنيت الظلال. فقد هجرت غالبيّتها عرض البحر الملتهب والتجّات ظمأى إلى البرودة على أقدام الصخور لتأمن حرّ الشمس، فيما تطفو أخرى ببطء على سطح الماء كالذلافين وتتشبّث بجنبات قوارب متهادية فتزيد فوق الماء الشاحب من اتّساع أجسامها بحسبها المصقول الأزرق. وريّما كان الظمأ إلى الرطوبة التي تشيعها هو الذي يورث أكثر ما يورث الإحساس بقيظ ذاك اليوم والذي جعلني أقول صارخاً كم كنت أسف أنّي لا أعرف محلّة "كرونييه". وأكّدتُ "البيرتين" و "آندريه" أنّي لا بدّ ذهبت إلى هناك مئة مرّة. لقد وقع الأمر في تلك الحال دون علم منّي ودون أن أرتاب بأن مشهدها يمكن أن يوحى إليّ ذات يوم بمثل ذاك الظمأ إلى الجمال، لا الجمال الطبيعي بالضبط كهذا الذي بحثت عنه حتّى الآن في جروف "البليك"، بل

المعماري بالأحرى. ولعلني ما كنت أستطيع أنا على وجه الخصوص الذي لم يلقَ البتة، وقد جاء ليرى مملكة العواصف، لم يلقَ، في زهاته برفقة السيِّدة "دو فيلبا ريزيس" المحيط حقيقياً إلى حدِّ كافٍ وسائلاً إلى حدِّ كافٍ وزاخراً بالحياة إلى حدِّ كافٍ ويخلف إلى حدِّ كافٍ الانطباع بأنَّه يقذف جبال مياهه، وما كنّا نشاهده في الغالب إلّا من البعيد وقد ارتسم في فجوة الأشجار، لعلني ما كنت أستطيع، أنا الذي ما أحبُّ أن يراه هادئاً إلّا تحت كفن من ضباب الشتاء، الاعتقاد بأنني سوف أحلم الآن ببحر استحال محض بخار ضارب إلى البياض وقد فقد الكثافة واللون. ولكنَّ "إيلستير"، شأن هؤلاء الذين يحملون في تلك القوارب التي خدّرها الحرّ، فقد تلوّق سحر ذلك البحر إلى حدِّ من العمق أفلح معه في أن يرّد ويثبت على لوحته حركة الماء الخفيفة وخفّة دقيقة سعيدة. وما كنت تفكّر من بعد إذ ترى هذه الصورة السحرية إلا بالطواف في العالم لاستعادة النهار الهارب في روعته الآتية الغافية.

فكما أنني، قبل هذه الزيارات لمنزل "إيلستير" وقبل ما اتَّفَق لي أن أشاهد له لوحة بحرية وضعتُ فيها امرأة شابة، ترتدي فستاناً من القطن الأزغب أو اللينون في يخط يرفع العلم الأميركي، "الصنوبري" الروحي لفلسطين من اللينون الأبيض ولعلّ في مخيلتي التي داخلتها في الحال رغبة لا تروني في أن أرى في الحال فساطين من اللينون الأبيض وأعلاماً قرب البحر كما لو لم يتَّفَق لي ذلك في يوم حتّى ذلك، كما أنني جهدت على الدوام أمام البحر أن أفصي على السواء من ساحة بصري المستحقين في الخطّ الأوّل واليخوت ذات الأشعة الشديدة البياض كملابس الشاطئ وكلّ ما كان يحول دون أن أفنع نفسي بأنني إنّما أتأمل المياه التي من الأزمان السحيقة والتي كانت تنشر حياتها المبهمة نفسها قبل ظهور النوع الشري، وحتّى تلك الأيام المشرقة التي تدور لي وكأنّها تخلع على الشاطئ الضباب والعواصف هذا المظهر التافه الذي لصيف عامّة الناس وتضع فيه محض علامة توقّف وما يقابل ما يسمّى في الموسيقى بالفواصل الإيقاعي الزائد - كذلك أصبح الطقس الرديء الآن هو الذي أخذ يبدو في نظري وكأنّما أصبح حدثاً عارضاً مشووماً لا يمكن من بعد أن يوسع لنفسه مكاناً في دنيا الجمال: لقد أصبحت أرغب بحرارة أن أمضي لألاقي في الواقع ما كان يتّير حماسي إلى حدِّ بعيد وآمل أن يكون الطقس موافقاً بما يكفي لأبصر من أعلى الجروف الظلال الزرقاء نفسها التي في لوحة "إيلستير".

ولم أعد على امتداد الطريق أتخذ من يدي ستاراً شأني في تلك الأيام التي كنت أنصوّر الطبيعة فيها وكأنّما تدخلها حياة سبقت ظهور الإنسان وتناقض جميع تلك التحسينات المملّة التي أدخلتها الصناعة والتي جعلتني حتّى ذلك أنقأب ضجراً في المعارض العامّة أو لدى بائعات القبعات، وكنت أحاول ألا أبصر من البحر سوى ذلك المقطع الذي لا مراكب بخارية فيه كيما أتمتله وكأنّه من العصور السحيقة ولا يزال يعاصر الحقب التي انفصل فيها عن الأرض، أو هو يعاصر على الأقلّ القرون الأولى في اليونان، الأمر الذي يمكنني أن أردّد في نفسي بصدق تامّ أبيات "العَمّ لو كُوت" (*)

(*) الشاعر "لو كُوت دليل" (Leconte de Lisle).

العزيزة على فواد "بلوك":

"لقد ذهبوا، ذهب ملوك السفن السريعة
يحملون فوق البحر العاصف، وأسفي،
رجال اليونان البطلة ذوي الشعور الكثيفة".

ولم يعد بمقدوري احتقار بائعات القبعات إذ قال لي "إيلستير" إن الحركة الرقيقة التي يصنعن
بها التجميعية الأخيرة واللمسة القصوى للعقد أو الريش الذي يعلو قبعة منجزة ربما استهواه ردها
بقدر ما تفعل حركة فرسان السباق (الأمر الذي فتن "البيرتين").

بيد أنه كان ينبغي انتظار عودتي، بالنسبة إلى بائعات القبعات إلى باريس، وبالنسبة إلى سباقات
الخيول واليخوت إلى "بالبيك" حيث لن تقام من بعد قبل العام المقبل. ولا يمكن حتى أن تلقى يخبثاً
يحمل نساء بأثواب من اللينون الأبيض.

وكنا كثيراً ما نلتقي بشقيقات "بلوك" اللواتي كنت أراني مضطراً لتحيتها منذ أن تناولت طعام
العشاء في منزل والدهن. أما صديقتي فكان لا يعرفهن. وكانت "البيرتين" تقول: "لا يسمحون لي
باللعب مع إسرائيليات". ولعل الطريقة التي تقول بها "إسرائيلي" بدلاً من "إسرائيلي" (*) كانت كافية
لتشير، حتى إن لم يتم سماع أول الجملة، إلى أن تلك الشابات البورجوازيات بنات الأسر المتدنية
لم تكن تحركهن مشاعر الود نحو الشعب المختار وهن لا يذعن بسهولة أن اليهود يذبحون
الأطفال المسيحيين. "وصديقاتك على أية حال سيئات المسلك"، تقول "آندريه" باهتسامة تشير إلى
أنها تعلم تماماً أنهن لسن صديقتي. وتجيب "البيرتين" بلهجة الحزم التي يتسم بها شخص مجرب:
"شأن كل ما يمت بصلة إلى العشيرة". والصحيح أن شقيقات "بلوك"، وهن فائضات الملابس ونصف
عاريات في الوقت نفسه، ماكن يخلفن بمظهرهن المضني الحريء الباذخ القدر انطباعاً
عظيماً. وكانت إحدى بنات أعمامهن التي لم تتجاوز الخامسة عشرة تثير استنكار المقصف من جراء
ما تبدي من إعجاب بالأنسة "ليا" التي كان السيد "بلوك" الوالد يقدر موهبتها أعظم القدر، ولكن
ذوقها لم يكن مقبولاً ولا سيما فيما يخص الرجال.

كنا نتناول العصورية بعض الأيام في إحدى المزارع المطاعم في الجوار، وهي المزارع المسماة
"ديزيكور" و "ماري تيريز" و "دولاكرواديرلاند" و "دو باغاتيل" و "دو كالفورني" و "ماري
أنطوانيت". وكانت المجموعة الصغيرة قد اختارت هذه الأخيرة.

إلا أننا كنا نصعد أحياناً، بدلاً من الذهاب إلى إحدى المزارع، حتى أعلى الحرف وبعدما نصل

(*) طريقة درج عليها معظم الفرنسيين في قلب حرف S إلى SZ إن وقع قبل حرفي M و R تأثراً باللفظ اليوناني للحرف
في المواقع نفسها.

ونجلس على العشب كنّا نحلّ حزمة السندويشات والحلوى. كانت صديقاتي يفضلن السندويشات ويعجن أن يريني أكل قطعة واحدة من الحلوى بالشوكولاته التي تزيناها خطوط قوطية من السكر أو قطعة من الحلوى بالمشمش. ذلك أنه لم يكن لديّ ما أقوله للسندويشات بالجبن والسلطة، وهو غذاء جديد جاهل. أمّا الحلوى فكانت مثقفة، وأمّا الحلوى بالمشمش فثرثرة. وكان في الأولى تفاهات كريما وفي الثانية ندوة فاكهة تعرف الكثير عن "كومبريه" وعن "جيلبيرت"، "جيلبيرت" التي من "كومبريه" فحسب، بل تلك التي من باريس والتي سبق أن لقيتها في عصر ونياتها. كانت تذكرني بقصصات أفراس الحلوى الصغيرة، قصصات ألف ليلة وليلة التي كانت تسلي عمتي "ليونى" عظيم التسلية بموضوعاتها حينما كانت "فرانسواز" تحبها يوما بعلاء الذين أو المصباح السحري وآخر بعلي بابا أو النائم اليقظان أو السندباد البحري الذي يبحر من البصرة حاملاً كل أمواله. وددت كثيراً لو أعود فأراها، ولكنّ جذّتي لا تعلم ما حلّ بها وتظن على أية حال أنها قصصات عادية تمّ شراؤها في المنطقة. وما همّ، فقد كانت نقوشها الصغيرة بألوانها العديدة ترصّع "كومبريه" القائمة في مقاطعة "شامبانيا"، مثلما الزجاج الملون ذو الأحجار الكريمة المرتعشة في الكنيسة العاتمة، ومثلما عروض المصباح المسحور في أول عتمة غرفتي. ومثلما أزارار الهند الذهبية وليلك فارس أمام مرأى المحطة وسكة حديد المحافظة، ومثلما مجموعة الأواني الصينية العتيقة التي تملكها شقيقة جذّتي في منزل السيّدّة الريفية العجوز العاتم.

كنت لا أبصر أمامي، وأنا مستلق فوق الحرف، سوى مروج ومن فوقها لا السموات السبع التي في علم الطبيعة المسيحي بل تناضد سماءين فحسب، أولاهما أكثر دكنة - هي البحر - ومن فوقها أخرى أكثر شحوباً. وكنا نتناول العصرونية وإن اتفق أن حملت معي أيضاً تذكاراً صغيراً يمكن أن يروق هذه أو تلك من صديقاتي عمر الفرح بسدة مفاجئة وجهنّ الشفاف الذي أضحى أحمر في مدى لحظة إلى حدّ أنّ شفاهنّ لم تكن تقوى على احتباسه فينفجرن بالضحك ليدعن له أن ينطلق. كنّ متجمعات من حولي، وبين الوجوه القليلة التباعد كان الهواء الذي يفصل بينها يرسم دروباً لازوردية كأنما شقّها بستانيّ شاء أن يجعل بعض المتسع ليستطيع التجوال بنفسه وسط حميلة من الورد.

وكنا بعد نفاذ مؤونتنا نلعب ألعاباً ربّما بدت لي حتّى ذاك مملة، وهي أحياناً في مثل الصبيانية التي تطبع لعبة "أيها البرج احترس" أو "من يضحك أول الضاحكين"، ولكني ما عدت أتخلّى عنها مقابل امبراطورية. فقد كان فجر الشباب الذي لا تزال تصطبغ بحمرته وجوه تلك الفتيات والذي كنت مذ ذاك خارج حدوده، وفي سنيّ أنا، كان ينير كلّ شيء أمامهنّ ويرز، شأن الألوان الهوائية في لوحات بعض المعلمين الأوائل، التفاصيل الأكثر تفاهة في حياتهنّ على خلفية مذهبة. كانت وجوه تلك الفتيات نفسها تختلط لدى غالبيتهنّ بحمرة الفجر المبهمة تلك التي لم تنبثق منها بعد قسماتهنّ الحقيقية. فما كنت تبصر سوى لون رائع لا تستطيع أن تميّز خلفه ما ينبغي أن يصبح بعد بضع سنوات خطوط ملامحهنّ. أمّا ملامح اليوم فلم تكتسب أية سمة نهائية ولا يمكن أن تكون سوى شبه مؤقت بواحد من أعضاء الأسرة المتوفين خصته الطبيعة بهذه المحاملة التذكارية. وما

أسرع ما تحلّ اللحظة التي لا يظل للمرء ما يتوقّعة فيها، تلك التي يجمد فيها الجسم ضمن تقاطيع ثابتة لاتعجب مفاجآت من بعد، والتي يفقد المرء فيها كلّ أمل، إذ يبصر شعوراً تتساقط أو تشيب حول وجوه لا تزال فتية، مثلما يبصر على الشجر في قلب الصيف أوراقاً يابسة، وما أشدّ قصر هذا الصباح المشرق حتى ليلبغ الأمر بالمرء ألا يحبّ سوى الفتيات الفتيات جدّاً اللواتي لا يزال الجسد يعمل لديهنّ على غرار عجيبة ثمينة. فما هنّ سوى دفق من مادة قابلة للتمدّد يكتفها في كل لحظة الانطباع العابر الذي يسودهنّ. لكان كلّ واحدة بالتناوب تمثال صغير للمرح وجذبة الشباب والغنج والدهشة تقوبله ملامح صريحة وكاملة ولكنها زائلة. وإنما تضيفي هذه المرونة الكثير من التنوّع والسحر على اللفتات اللطيفة التي تبديها الفتاة لنا. وهي لا غني عنها كذلك بالتأكيد لدى المرأة، وتلك التي لا نحسن في عينيها أو التي لا تسمح لنا أن نرى أننا حسناً لديها إنما تتخذ في عينيها شيئاً من التماثل المملّ، على أن تلك اللطائف نفسها لا تحمل من بعد معها، ابتداء من سنّ معينة، تحولات طفيفة فوق وجه صلبته نضالات الحياة وجعلته إلى الأبد مكافحاً أو متهللاً. فهذا يبدو - من جرّاء استمرار فعل الطاعة التي تخضع الزوجة للزوج - وجه جندي أكثر منه وجه امرأة. وذاك يبدو، وقد حفرته التضحيات التي قبلت بها الأمّ كل يوم في سبيل أولادها، وجه رسول. وآخر يبدو، بعد سنوات من المحن والعواصف، وجه بحار عتيق متمرس، لدى امرأة تنبئك ثيابها وحدها عن جنسها. صحيح أن الألفاظ التي تحيطنا بها امرأة لا تزال تستطيع، حينما نحبّها، أن تزرع الساعات التي نقضيها بالقرب منها بمباهج جديدة. بيد أنها ليست على التوالي بالنسبة إلينا امرأة مختلفة. فمرحها يظلّ خارج حدود وجه لم يتبدّل. أمّا اليقظة فسابقة لمرحلة التصلب الكامل ومن ذلك ينتج أننا نحسّ بالقرب من الفتيات بهذا التجدد الذي يخلفه منظر الأشكال وهي في طور تغيير لا يقطع وتحرك ضمن تعارض لا مستقر يذكرّ بإعادة الخلق المستمرة لعناصر الطبيعة الأولية التي نتأمل فيها أمام البحر.

لعلني ما كنت أضحيّ فقط بحفلة راقية بعد الظهر وبنزهة برفقة السيّدة "دو فيلباريزيس" في سبيل لعبة ورق صديقاتي أو حزّوراتهن، فقد نقل إلى "روبير دو سان لو" عدّة مرّات أنه طلب إذناً لمُدّة أربع وعشرين ساعة وسوف يقضيها في "بالبيك" بما أنني لا أذهب لزيارته في "دو نسيير". وقد كتبت إليه في كلّ مرة ألاّ يفعل متدّرعاً بأنّي مضطّرّ إلى التغيب في ذلك اليوم بالضبط لأبادر للقيام في الحوار بواجب عائليّ بصحبة جدّتي. ولا ريب أنه أصدر حكماً شيئاً بحقي علم على لسان عمته ما قوام الواجب العائلي وأيّ أشخاص كانوا يقومون بالمناسبة بدور الجدة وربما لم أكن على خطأ مع ذلك في التضحية لا بمتع المجتمعات الراقية، بل بمتع الصداقة في سبيل قضاء كامل النهار في تلك الحديقة والذين يقوون على ذلك - وهم الفنانون بالحقيقة وكنت منذ فترة طويلة على يقين بأنني لن أضحيّ فناناً في يوم - يقع عليهم أيضاً أن يعيشوا لذواتهم، فيما الصداقة بمثابة إعفاء لهم من ذلك الواجب وتنازل عن الذات حتى المحادثة، وهي صيغة الإعراب عن الصداقة، هذان سطحي لا يقدّم لنا أي مكتسب. فبوسعنا التحدث على مدى حياة كاملة دون أن نقول شيئاً فيما عدا الترداد الذي لا ينتهي لفراغ دقيقة ما، فيما يتم الاتجاه الوحيد الذي لا يوصد أماننا والذي

نستطيع التقدم فيه، بقدر من المشقة أكبر بالحقيقة، من أجل نتيجة قوامها الحقيقة وليست الصداقة مجردة من الفضيلة فحسب، شأن المحادثة، بل هي إلى ذلك مشرومة، ذلك أن الشعور بالملل الذي لا يمكن إلا أن يحس به بالقرب من صديق لهم، يعني بالمكوث على سطح ذاتهم بدلاً من متابعة رحلة اكتشافاتهم في الأعماق، أولئك الذين من بيننا قانون نموهم داخلي محض، ذلك الشعور بالملل إنما تقنعنا الصداقة بتصويبه حينما نلغي نفسنا وحيدين، وبأن نذكر بانفعال الأقوال التي أسمعنا صديقنا وأن ننظر إليها على أنها إسهام ثمين في حين لسا بمثابة أبنية يمكن أن تضاف إليها حجارة من الخارج، بل أشجار تستمد من نسغها الخاص العقدة التالية في جذعها والقسم الأعلى في أوراقها كنت أكذب نفسي وأوقف النماء الذي كنت بالفعل أستطيع وقفه، أن أكبر حقاً وأكون سعيداً حينما كنت أغبط نفسي أن أكون موضع حب وإعجاب لدى كائن في مثل طيبة "سان لو" وفي مثل ذكائه ومثل مجذبه، وحينما كنت أكيف عقلي لا مع انطباعاتي المهمة الخاصة التي كان من واجبي أن أستجليها بل مع أقوال صاحبي الذي كنت أحاول جاهداً، فيما أرددها لنفسي - فيما أحمل على ترادها لي هذا الآخر غيرنا الذي يعيش فينا والذي يسرنا على الدوام أعظم السرور أن نلقي بعبء تفكيرنا عليه - أن ألقى له جملاً مختلفاً تماماً عن الجمال الذي كنت ألاحقه بصمت حينما كنت وحيداً حقاً ولكنه قد يولي "روبير" ويوليني ويولي حياتي قيمة أكبر، أما في الجمال الذي كان يجعله لي هذا الصديق أو ذاك فقد كنت أبعد لنفسي فيه وقد وُفِّت الوحدة داخل جو دافئ مريح وأرغب كريم النفس أن أضحي بذاتي في سبيله وأنا عاجز باختصار القول عن تحقيق ذاتي، ولكن كانت المتعة التي كنت أتذوقها بالقرب من تلك الفتيات أنانية على العكس، فلم تكن على الأقل قائمة على الكذب الذي يحاول حملنا على الاعتقاد بأننا لسا في عزلة محتمة ويحول دون أن نقر لأنفسنا حينما نتحدث بأننا لم نعد نحن من يتكلم وأنا نتقبل حينئذ على شبه الآخرين لاعلى شبه أناس نختلف عنهم، كانت الأقوال المتبادلة بين فتيات المجموعة الصغيرة وبيننا قليلة الأهمية ونادرة على أية حال تقطعها فيما يخصني فترات صمت طويلة ولم يكن ذلك ليحول دون أن أصيب في الاصغاء إليهن حينما يكلمنني من المتعة ما أصيب في النظر إليهن واكتشاف لوحة زاهية الألوان في صمت كل واحدة منهن فقد كنت أصغي بلذة لزقزقتهن، إن الحب يعين على التمييز والتفريق فهاوي الطيور يميز في الحال في الغابة تلك الزقزقات الخاصة بكل طير والتي يخلط العامي ما بينها وهاوي الفتيات يعلم أن الأصوات البشرية أكثر تنوعاً بكثير فكل صوت يضم قدراً من النوطات أكثر من أوفر الآلات إمكانات، وإن صنوف التأليف التي تجمعها وفقها وفيرة لا تنضب وفرة تنوع الشخصيات الذي لا حد له وحينما كنت أتحدث مع إحدى صديقاتي كنت أتبين أن لوحة شخصيتها المبتكرة الفريدة قد رسمتها لي بمهارة وفرضتها عليّ فرض المُستبدّ بدلات نبرات صوتها وخطوط وجهها على حد سواء وأن ذينك مشهدان يترجمان كل على صعيده الواقع الفريد نفسه وليس من شك أن خطوط الصوت، شأن خطوط الوجه، لم تثبت بعد على نحو نهائي، فالأول قد يتبدل مثلما قد يتغير الثاني ومثلما يملك الأطفال غدة يعينهم عصيرها على هضم الحليب ولا وجود لها من بعد لدى الكبار، كذلك كان في زقزقة هؤلاء الفتيات ألوان لا تملكها النساء من بعد، وكن يعزفن على هذه الآلة الأكثر تنوعاً بشفاهن، بهذا الاجتهاد، بهذه الحمية التي يديها ملائكة

"بيليني" الصغار، وكلاهما كذلك ينفرد به الشباب حصراً. سوف تفقد الفتيات فيما بعد هذه النبرة المقنعة الحماسية التي تضفي سحراً على أكثر الأمور بساطة، كأن تسرد "البيرتين" بلهجة تنسم بالسلطة صنوفاً من التلاعب بالألفاظ تصغي إليها الصغريات بإعجاب إلى أن تملكهن الضحكة المجنونة بعنف عطسة لا تقاوم، أو تتخذ "آندريه" في الحديث عن أعمالهن المدرسية، وهي أشد صبيانية من ألعابهن، وقاراً طفولياً في أساسه: وكانت أقوالهن ناشزة، كمثل تلك المقاطع الشعرية في الأزمان الغابرة حيث كان ينشد الشعر، ولا يزال قليل التمييز عن الموسيقى، على نوبات مختلفة على الرغم من كل ذلك فقد كان صوت تلك الفتيات ينمّ مذ ذاك بوضوح عن الموقف الذي اتخذته كل واحدة من أولئك الصغريات إزاء الحياة، وهو موقف فردي حتى ليبدو من فرط التعميم أن نقول عن إحداهن: "إنّها تأخذ كل شيء على محمل المزاح" وعن الأخرى: "إنّها تمضي من توكيد إلى توكيد"، وعن ثالثة: "إنّها تتوقف في حيرة المُنتظر" إن قسمات وجهها لا تعدو كونها حركات أضحت بفعل العادة نهائية، فالتبيعة، شأن كارثة "بومبيي" وشأن استحالة حوريات الماء، قد جمدتنا في الحركة المعهودة كذلك تحتوي نبرات صوتنا فلسفتنا في الحياة ومأسرّة المرء لذاته في كل لحظة حول الأشياء ولكن تلك القسمات لم تكن دونما شك ملك تلك الفتيات وحدهن، فقد كانت ملك ذويهن، إذ الفرد يسبح في ماهو أعمّ منه ولا يقتصر ما يقدمه الأهل بهذا المعرض على تلك الحركة المعتادة التي تولفها ملامح الوجه والصوت بل تتعداها إلى بعض طرق القول وبعض الحمل المقرزة التي تشير، شأن نغمة الصوت، وفي مثل لأوعيا وعمقها تقريباً إلى وجهه نظر في الحياة، صحيح أن ثمة بالنسبة إلى الفتيات بعضاً من تلك العبارات لا يورثنهن الأهل إياه قبل سن معينة ولا يتم ذلك بعامة قبل أن يصبحن نساء، إذ يحتفظ بها بمثابة احتياطي، من ذلك على سبيل المثال أن "آندريه" التي لا تزال ترسل شعرها فوق ظهرها كانت لا تستطيع بعد أن جرى التحدث عن لوحات أحد أصدقاء "إيلستير" أن تستخدم شخصياً العبارة التي تلجأ إليها والدتها وشقيقها المتزوجة: "يبدو أن الرجل ظريف" ولكن ذلك آت مع الإذن بالذهاب إلى "القصر الملكي" أما "البيرتين" فقد كانت تقول منذ مناوئتها الأولى على غرار صديقة لعمتها: "ربما وجدت الأمر مريعاً بعض الشيء" وكانوا قد أورثوها بمثابة هدية عادة حمل الناس على تردد ما يقال لها كي تظهر مظهر من بهتم ويحاول أن يكون لذاته رأياً، شخصياً فإن قيل إن رسم أحد الرسامين جيد أو أن بيته جميل: "آه! أهو جيد رسمه؟ أهو جميل بيته؟" وهناك أخيراً ما كان أعم من التركة العائلية وهي المادة اللذيذة التي تفرضها المقاطعة الأصلية التي استقين منها أصواتهن والتي تنغرس فيها مباشرة نبراتهن، فحينما كانت "آندريه" تهز وتر صوت جاف لم يكن باستطاعتها أن تمنع وتر مقاطعة "بيرغور" في آلتها الصوتية من إحداث غنة تناسب على أية حال وصفاء الجنوب في قسماتها، أما صبيانيات "روزموند" المستمرة فكانت ترد عليها مادة وجهها وصوتها الشماليين بلهجة مقاطعتها، على كرهها لذلك فقد كنت أستشف حواراً جميلاً بين تلك المقاطعة ومزاج الفتاة الذي يملئ النبرات، كان حواراً وليس شقاقاً، فليس من شقاق يمكن أن يفصل الفتاة عن مسقط رأسها، فإنما هي هو أيضاً وإن رد فعل المواد المحلية على العبقرية التي تستخدمها والتي تزيد حيويتها على أية حال لا تقلل من فردية العمل الفني، وسواء أكان عمل مهندس معماري أم نجار أم موسيقي فإنه لا

يقل دقة في عكس أكثر ملامح شخصية الفنان لطفاً، لأنه اضطر أن يعمل على أحجار "صانليس" الكلسية أو على أحجار "سترازبور" الرملية الحمراء، وأنه راعى العقد الخاصة بالدردار، وأخذ في حسبانته وهو يكتب إمكانات الترجيح الصوتي وحدوده، وإمكانات الناي أو الألتو.

كنت أتبين ذلك مع أننا كنا نتحدث قليلاً جداً ففيمما كنت برفقة السيدة "دوفيلباريزيس" أو "سان لو" قد أبدي بأقوالي سروراً يفوق بكثير ما قد أحسّ به، كان تمام ما ينتابني من شعور، وأنا مستلق بين تلك الفتيات، يفوق على العكس بما لا يقاس جذب أحاديثنا وندرتها ويفيض من جمودي وصمتي موجات من السعادة يبادر همسها فيحتضر على أقدام تلك الورود الفتية .

إن عطر زهور أو فاكهة، بالنسبة إلى تافه يرتاح طوال يومه في حديقة مزهرة أو بستان، لا يداخل على نحو أكثر عمقاً ما لا يحصى من الأمور التافهة التي تؤلف خمولة أكثر مما يفعل بالنسبة إليّ هذا اللون وهذا الشدا اللذان كانت نظراتي تبادر للبحث عنهما على تلك الفتيات واللذان كانت عذوبتهما تمتزج بي في النهاية كذلك الأعناب تزدد في الشمس حلاوة، لقد حملت إليّ تلك الألعاب البسيطة جداً، بفعل استمرارها البطيء، حملت إليّ ذلك، كما هو أمر الذين لا يفعلون شيئاً فيما عدا أن يستلقوا على شاطئ البحر يستنشقون الملح ويتعرضون لأشعة الشمس، استرخاء وابتسامة راضية وانبهاراً غامضاً امتدّ حتى عينيّ.

وأحياناً تبعث في صدري التفاتة لطيفة لهذه أو تلك اختلاجات واسعة تبعد عنيّ برهة توقي إلى الأخرى، من ذلك أن "البيرتين" قالت ذات يوم: "من معه قلم؟" وزودتها به "آندريه" و "روزموند" بالورق وقالت لهن "البيرتين": "أيها النساء الصغيرات العزيزات إنني أمنعكن من النظر إلى ما أكتب". وبعد ما جدّت في رسم كل حرف أحسن الرسم وقد أسندت الورقة إلى ركبتيها مدتّها إليّ وهي تقول: "احذر ألا يراها أحد" وقد فتحتها إذ ذاك وقرأت الكلمات التي كتبتها لي: "إنك تروقني"

ثم صاحبت وهي تلتفت بنزق ووقار إلى "آندريه" و "روزموند": "ولكنه ينبغي لي بدلا من كتابة الحماقات أن أريكم الرسالة التي سطرته لي "جيزيل" هذا الصباح، إنني معتوهة، فهي في جيبي، وكم يمكن أن يكون ذلك مفيداً لنا!" لقد ظننت "جيزيل" من واجبها أن تبعث إليّ صديقتها بالبحث الذي كتبته في فحص شهادتها كيما تطلع الأخرى عليها وكانت مخاوف "البيرتين" من صعوبة الموضوعات المطروحة قد تجاوزت حدودها السابقة من جراء الموضوعين اللذين كان على "جيزيل" أن تختار بينهما فقد نصّ الأول على ما يلي: "يكتب سوفوكليس" من الجحيم إلى "راسين" ليواسيه بفشل (آتالي) "أما الثاني فعلى ما يلي: "افترض أن السيدة "دوسيفينيه" تبعث برسالة إلى السيدة "دولا فايت"، بعد العرض الأول لمسرحية "إيستير"، لتقول لها كم أسفت لغيابها" وكانت "جيزيل" بفرط حماسة لا بد أثرت في نفوس الفاحصين قد اختارت أول هذين الموضوعين وأكثرهما صعوبة وعالجته معالجة بالغة الروعة حازت بها أربع عشرة درجة وتهاني اللجنة الفاحصة ولو لم يُرتج عليها في امتحان اللغة الأسبانية لنالت التقدير "جيد جداً" وقد قرأت علينا "البيرتين" في الحال الموضوع الذي بعثت إليها "جيزيل" بنسخة عنه إذ كانت شديدة الرغبة، بما أنه ينبغي لها أن

تقدم الامتحان نفسه، في استطلاع رأي "آندريه" وهي أقدر منهن جميعاً وتستطيع التزويد بوسائل ناجحة وقالت "البيرتين": "لقد حالها الحظ، فذلك بالضبط موضوع حملتها معلمة الفرنسية ههنا على التعمق فيه" كانت الرسالة التي سطرته "جيزيل" على لسان "سوفوكليس" إلى "راسين" تبدأ كما يلي: "صديقي العزيز، اعذرني أن أكتب إليك دون أن أكون حزت شرف معرفتك لي شخصياً، ولكن أليست مأساتك الجديدة "آتالي" البرهان على أنك درست على أتم وجه مؤلفاتي المتواضعة؟ فلم تضع أشعاراً على لسان الأبطال أو الشخصيات الرئيسية في المسرحية فحسب، بل سطرت ما كان منها رائعاً، واسمح أن أقولها دون تملق، لأدوار الكورس التي كانت محبذة فيما يقال في المأساة اليونانية ولكنها في فرنسا تجديد حقيقي، ثم إن فك الطليق المنمق الساحر الدقيق الرقيق إلى أبعد حد قد بلغ من القوة ما أهنتك به، أما "آتالي" و"جواد" فتلكما شخصيتان ما كان منافسك "كورني" ليفلح في تصميم أفضل منهما. إن الطباع رجولية والحبكة بسيطة ومتينة، وتلك مأساة ليس المحرك فيها الحب وإني أهنتك بذلك أصدق التهنة، إن أكثر التعاليم شهرة ليست على الدوام أكثرها صحة، وسوف أذكر لك مثلاً على ذلك:

"إن الوصف الرقيق لذلك الغرام
هو أكثر الطرق سلامة لبلوغ القلب"

وقد برهنت أن العاطفة الدينية التي تفيض بها أدوار كورسك ليست أقل اقتداراً على هز المشاعر وربما حار الجمهور في أمره ولكن الخبراء الحقيقيين يعترفون بحقك لقد حرصت على أن أبعث إليك بكامل تهاني التي أقرنها، أيها الزميل العزيز، بأسمى مشاعري

ولم تكف عينا "البيرتين" عن التألق في أثناء القراءة التي قدمتها، وصاحت حينما أتت على آخرها قائلة: "إنه ليخيل إليك أنها نقلت ذلك فما ظننت "جيزيل" في يوم قادرة على تسطير موضوع كهذا وهذه الأبيات التي تستشهد بها من أين استطاعت أن تختلس ذلك؟" ولم يتوقف إعجاب "البيرتين"، وقد تغير بالحقيقة موضوعه ولكنه تزايد عن ذي قبل، لم يتوقف، على غرار أكثر صنوف الاجتهاد اطراداً عن إدهاشها أعظم الدهشة طوال الوقت الذي تحدثت فيه "آندريه" بادئ الأمر، بعد ما استشيرت بوصفها أكبر سناً وأطول باعاً، عن وظيفة "جيزيل" بشيء من السخريّة ثم باستخفاف لا يفلح في إخفاء جدية حقيقية، وأعادت صياغة الكتاب نفسه بطريقتها الخاصة وقالت لـ "البيرتين": "لا بأس به، ولكني لو كنت مكانك وأعطيت الموضوع نفسه، وهو أمر ممكن الحدوث لأنه كثيراً ما يُطرح، فقد لا أفعل كذلك وإليك كيف أتدبر أمري فيه أولاً لو كنت "جيزيل" لما سمحت لنفسني بالتسرّع ولكن سطرّ على ورقة منفردة مخطّط بحثي ففي السطر الأول طرح السؤال وعرض الموضوع، ثم الأفكار العامة التي ينبغي إدخالها في جسم الموضوع، وأخيراً التقييم والأسلوب والختام وإذا استلهمنا على هذا النحو خطوطاً عامة فإننا نعلم أين تتوجّه لقد أخطأت "جيزيل" منذ عرض الموضوع أو إن فضّلت، منذ الدخول في الموضوع بما أن الأمر أمر رسالة وما كان يحدر بـ "سوفوكليس" أن يكتب: صديقي العزيز، وهو يكتب إلى امرئ من القرن السابع عشر"

- "كان حريّاً بها أن تجعله يقول: عزيزي راسين"، تقول "البييرتين" وهي تصرخ بانفعال، "فلعلّ ذلك كان أفضل بكثير" وتحجب "آندريه" بلهجة ساخرة بعض الشيء: "لا، كان الأجدر بها أن تكتب: "سيدي" كذلك كان ينبغي لها في الختام أن تعثر على ما كان من قبيل: "اسمح يا سيدي، (وعلى الأكثر يا سيدي العزيز)، أن أعرب لك ههنا عن مشاعر التقدير التي يشرفني أن أكون بها خادماً" وتقول "جيزيل" من جهة أخرى إنّ أدوار الكورس في "آتالي" أمر جديد إنها تغفل "إيستير" ومأساتين قليلتي الشهرة ولكنّما تمّ تحليلهما بالضبط هذا العام على يد الأستاذ حتى إنّك ما إن تذكريهما حتى تتأكدي من النجاح بما أنّ ذلك موضوعه المفضّل وهما "اليهوديات" لمؤلفها "روبير غارنييه" و "أمان" لمؤلفها "مونكريتيان" وذكرت "آندريه" هذين العنوانين دون أن تفلح في إخفاء شعور بالتفوق المتسامح برز في ابتسامه، ابتسامه لطيفة إلى حد ما على آية حال ولم تمالك "البييرتين" نفسها من بعد وصاحت: "آندريه، إنّك مذهلة ستكتبين لي هذين العنوانين هل تصدقين؟ أيّ نصيب لو امتحنتُ فيهما، وحتى في الشفويّ، أذكرهما في الحال فائز أعظم الدهشة" بيد أنّه في كلّ مرّة طلبت "البييرتين" من "آندريه" فيما بعد أن تردّد عليّ مسامعها عنوايني المسرحيتين كي تسجلهما ادّعت الصديقة الوافرة العلم أنها نسيتهما ولم تذكرهما بهما على الإطلاق وعادت "آندريه" تقول بلهجة الازداء الخفيّ إزداء رفيقات أكثر صبيانيّة، بيد أنها سعيدة مع ذلك أن تنال الإعجاب وتعلّق على الطريقة التي لعلها كتبت بها امتحانها أهميّة أكبر ممّا تريد أن تبدي: "ثم لا بدّ أن يكون "سوفوكليس" في الجحيم حسن الاطّلاع ولا بدّ أن يعلم إذن أنّ "آتالي" لم تمثّل أمام الجمهور العريض، بل أمام الملك - الشمس وبعض رجال البلاط من ذوي الخطوة، أمّا ما تقول "جيزيل" بهذا الصدد عن تقدير العارفين فليس سيّئاً على الإطلاق بيد أنّه يمكن إمّامه، إذ يستطيع "سوفوكليس" وقد أضحى خالداً، أن يتمتّع بموهبة التنبؤ يعلن أن "آتالي" حسيماً يرى "فولتير" لن تكون "رائعة راسين فحسب، بل رائعة الفكر الإنساني" وكانت "البييرتين" تتقفّ كلّ تلك الأقوال، وحدّتها تشعلان حماسة وقد رفضت بأشدّ الحقّ عرضاً تقدّمت به "روزموند" لمباشرة اللعب ثمّ قالت "آندريه" باللهجة اللامبالية الوقحة الساخرة بعض الشيء التي تتسم بحرارة الاقتناع: "وأخيراً، لو أنّ "جيزيل" سحلت بهدوء بادئ الأمر الأفكار العامة التي ينبغي أن تتوسّع فيها فربما فكّرتُ فيما لعلني فعلتُ أنا، أي في إبراز الفارق الكائن في الموحيات الدينيّة في أدوار الكورس لدى "سوفوكليس" واللك الأدوار لدى "راسين" وكنت حملت "سوفوكليس" على ملاحظة أنّه إن كان يطبع الكورس لدى "راسين" مشاعر دينيّة كالتي في المأساة اليونانية، فليست الآلهة نفسها مع ذلك، إنّ إله "جواد" لا يمتّ بأيّة صلة إلى إله "سوفوكليس" وهذا يجيئنا على نحو طبيعيّ تماماً بالخاتمة بعد نهاية الشرح: "ماهم أنّ تكون المعتقدات مختلفة؟" ويهتّم "سوفوكليس" بالإلحاح على ذلك، فهو يخشى أن يجرح "راسين" في معتقده ويهمس بهذه المناسبة ببضع كلمات حول أساتذته في "بورويال" ويفضّل أن يهنئ صديقه على سموّ عبقريته الشعريّة "

كان الإعجاب والاهتمام قد بعثا في صدر "البييرتين" من الحماسة ما أخذت تعرق به عرقاً شديداً أمّا "آندريه" فكانت تحافظ على برودة الأعصاب المشرقة التي تميّز المرأة المناقّة، وقالت قبل

العودة مجدداً إلى اللعب: "وليس يسوء كذلك أن يذكر المرء بعض آراء النقّاد المشهورين" فأجابت "البيرتين": "أجل، لقد قيل لي ذلك وإنّ أفضلها بعامة آراء "سانت بوف" و"ميرليه"، أليس كذلك؟" - لست على ضلال مطلق، إنّ "ميرليه" و"سانت بوف" لا يعطيان انطباعاً سيئاً ولكنهما ينبغي أن تذكر على وجه الخصوص "ديلتور" و"غاسك ديفوسيه"، تقول "آندريه" التي امتنعت على أية حال عن أن نكتب الاسمين الآخرين على الرغم من توسّلات "البيرتين".

وكنّت في تلك الأثناء أفكّر في ورقة الدفتر الصغيرة التي ناولتني إيّاها "البيرتين": "إنك تروقني" وكنّت أقول في نفسي بعد ذلك بساعة، "إني أنحدر في الدروب التي تقود إلى "باليك" بانحدار شديد في نظري، إنّ قصّة حبي واقعة معها لا محالة.

وإن الحالة التي تميّز بمجمل علامات نتعرّف بها عادة أننا عاشقون كمثّل الأوامر التي كنت أصدرها في الفندق بأن لا أوقطّ بداعي أية زيارة، إلّا إذا كانت زيارة هذه أو تلك من الفتيات، وخفقات القلب تلك وأنا أنتظرهن (أية كانت من تزعج المجيء)، وحنقي في تلك الأيام إن لم أستطع العثور على حلاق ليحلق لي ذقني ولا بدّ أن أبدو قبيحاً أمام "البيرتين" أو "روزموند" أو "آندريه"، كانت تلك الحالة دونما شكّ، إذ تتحدّد على التوالي بالنسبة إلى هذه أو تلك، مختلفة عما ندعوه حبّاً اختلاف الحياة البشريّة عن حياة المرحانيّات حيث يتم تقسيم الوجود والفرديّة إن جاز القول بين أجسام مختلفة بيد أن التاريخ الطبيعيّ يعلمنا أنّه يمكن مراقبة مثل هذا التنظيم الحيواني، وليست حياتنا الخاصّة، بشرط أن تكون قد تطوّرت بعض الشيء، بأقلّ توكيداً لحقيقة حالات لم نرثب بوجودها فيما مضى وينبغي أن نمرّ بها على أن نهجرها فيما بعد، كمثّل تلك الحالة الغراميّة المقسّمة في الآن نفسه، فيما يخصني، بين عدّة فتيات. المقسّمة أو هي بالأحرى غير مقسّمة لأن ما كان أغلب الأحيان لذيذاً في نظري ومختلفاً عن باقي الناس وما أخذ يصبح عزيزاً لي حدّاً أنّ أُملي في لقاءه في الغد كان يمثّل أفضل مباحج حياتي إنّما كان بالأحرى كامل زمرة تلك الفتيات إذا ما أُخِذت في مجمل فترات العصر تلك فوق الجرف في أثناء تلك الساعات الكثيرة الهواء وفوق شريط العشب الذي حطّت عليه تلك الوجوه المثيرة جدّاً لخيالي، وجوه "البيرتين" و"روزموند" و"آندريه"، وذلك دون أن يمكنني القول أية منهن كانت تجعل تلك الأمكنة عزيزة جدّاً عليّ وأية منهنّ كنت أكثر رغبة في عشقها فلسنا في بداية حبّ وفي نهايته على حدّ سواء تتعلّق حصراً بموضوع ذاك الحبّ، وإنّما التوق إلى الحبّ الذي سوف ينبثق عنه (والذكرى التي يخلفها فيما بعد) ينتقل مغريباً في منطقة من المفاتن تقبل التبادل فيما بينها - مفاتن مبعثها أحياناً محض الطبيعة أو المأكّل أو المسكن - وهي منسجمة فيما بينها بما يكفي كي لا يحسّ بالاستغراب بالقرب من أيّ منها. ولما لم أكن بعد قد أصبت باللامبالاة في حضرتهنّ فقد كان بإمكانني أن أراهن، والأحرى أن أقول أن أحسّ بدهشة عميقة في كلّ مرّة أجدني في حضرتهنّ.

وليس من شكّ أنّ مرّة تلك الدهشة في قسم منها أنّ الكائن يقدّم لنا آنذاك صفحة جديدة من ذاته ولكن، بما أنّ الذاكرة، لكثرة ما يتعدّد كلّ كائن ولوفرة خطوط وجهه وجسمه، تلك الخطوط

التي تلقى القليل القليل منها، حالما نبعد عن شخصه، في تذكرنا المبسط الاعباطي، بما أن الذاكرة قد اختارت خاصية أثرت فينا وعزلتها وضخمتها فجعلت من امرأة بدت لنا مديدة القامة دراسة بلغ فيها طول قامتها مبلغاً تجاوز الحد، أو من امرأة بدت لنا مودة شقراء محض "اتلاف وردي" وذهبي"، فإن جميع الميزات الأخرى، حينما تلقى تلك المرأة ثانية بالقرب منا، تلك الميزات التي نسيناها والتي توازن تلك الميزة الأولى إنما تحتاحنا في تعقيدها المبهم فتقلص القامة وتفرق اللون الوردي وتجل محل ما جئنا نبحث عنه حصراً خصائص نتذكر أننا لا حفظناها في المرة الأولى ولا نفهم أننا استطعنا ألا نتوقع رؤيتها ثانية كنا نتذكر طاووساً ونبادر إلى لقاءه فنجد زهرة عود الصليب وليست هذه الدهشة المحتملة وحيدة، فهناك أخرى تقوم بالقرب منها أنبثقت لا عن الفارق بين تزويقات الذكرى والواقع بل بين الكائن الذي رأيناه آخر مرة وهذا الذي يظهر لنا اليوم من زوايا مختلفة ويبرز لنا في دهيئة جديدة إن الوجه البشري بالحقيقة، كما هو أمر وجه الإله في تصور شرقي للألوهة، شبيه بعنقود كامل من الوجوه التي تتوالى في مستويات مختلفة ولا نراها دفعة واحدة.

يبد أن دهشتنا تتأني في قسم كبير منها من أن الكائن يقدم لنا كذلك صفحة الوجه نفسها وإننا لفي حاجة إلى جهد عظيم لنخلق من جديد كل ما توافر لنا بفضل ما ليس ذاتنا - وإن اقتصر على طعم ثمرة - إلى حد أننا ما إن يوافينا الانطباع حتى ننحدر على نحو لا شعوري على سفح الذكرى فنجدنا دون أن نتبين الأمر وفي مدى وقت قصير جدلاً، بعيدين جدلاً عما أحسنا به وبذلك يصبح كل لقاء جديد ضرباً من التصحيح يردنا إلى ما سبق أن رأيناه تمام الرؤية وكنا لا نتذكره مذ ذاك، لأن ما يدعى بتذكر الفرد إنما هو بالحقيقة نسيانه، بيد أننا ما دمنا نحسن النظر فإننا نتعرف الملمح المنسي لحظة يبرز لناظرنا ونرى لزماً علينا أن نصحح الخطأ المنحرف، وهكذا كانت الدهشة المستمرة الخصبة التي جعلت تلك اللقاءات اليومية مع فنيات شاطي البحر الجميلات نافعة وملينة إلى حد بعيد بالنسبة إلي، إنما تنسجها الذكرى بقدر ما تفعل الاكتشافات وإن أضفنا إلى ذلك الاضطراب الناجم عما كن بالنسبة إلي، ولم يكن في يوم تمام ما سبق أن ظننت وكان من جرائه أن لم يعد أمل اللقاء شبيهاً بالأمل السابق بل بذكرى الحديث الأخير الذي لا يزال يخفق في صدري، أدركنا أن كل مشوار كان يدخل تصحيحاً عنيفاً على أفكاري، ولم يكن على الإطلاق في الاتجاه الذي أمكن أن أخطئه بترو في عزلة غرفتي فذلك الاتجاه كان يطويه النسيان ويمحي حينما أعود تدوي في رأسي كمثّل خلية النحل الأقوال التي بعثت الاضطراب في نفسي والتي يظل وقعها في نفسي فترة طويلة. إن كل كائن يبيد حينما نكف عن رؤيته، ثم يحيى ظهوره التالي بمثابة عملية خلق جديدة مختلفة عن التي سبقتها مباشرة، إن لم تختلف عنها جميعها. ذلك أن الحد الأدنى للتنوع الذي يمكن أن يسود عمليات الخلق هذه أحد اثنين فإذا تذكر نظرة حازمة وهيئة جريئة فسوف تدهشنا حتماً، أي سوف تؤثر فينا وحدها فقط في المرة التالية، في اللقاء المقبل، صورة تقارب الوهن وضرب من النعومة الحالمة، وهما أمران أهملناهما في الذكرى السابقة وإنما ذلك، في مقارنة ذكرانا بالواقع الجديد، ما سوف يبرز حيتنا أو دهشتنا ويبدو لنا بمثابة تصحيح الواقع فيما ينبئنا إلى أننا أسأنا التذكر ويصبح مظهر الوجه الذي أهملناه آخر مرة، وقد أضحي لهذا السبب

نفسه الأكثر تأثيراً في هذه المرة والأوفر حقيقة والأكثر تصويماً يصبح مادة حلم وذكريات وإنما الصورة الواهنة المستديرة والملاحم الناعمة الحاملة ما سوف نرغب في رؤيته ثانية. ويبادر إذ ذاك من جديد في المرة التالية ما كان حازماً في العينين الثابتتين والأنف المستدق ليصبح الفرق الكائن بين رغبتنا والموضوع الذي حسبت أنها تقابله. ولم يكن ذلك الإخلاص للانطباعات الأولية المادية الصرفة التي أعود فألقاها كل مرة بالقرب من صديقاتي، لم يكن يتعلّق بالطبع بمحض ملامح وجههن فقد رأينا أنني كنت أثار أيضاً بصوتهن، وربما كان أوقع أثراً (لأنه لا يزودنا بالمساحات الفريدة الشهوانية نفسها فحسب، بل يؤلف جزءاً من الهاوية التي لا يدرك قرارها والتي تولي دوار القبلات التي لا أمل فيها)، صوتهن الشبيه بالرنة الفريدة لآلة صغيرة كانت كلّ منهن تضع كامل ذاتها فيها وكانت تنفرد بها وكان هذا الخط العميق أو ذاك في واحد من تلك الأصوات، خط رسمته نبذة خاصة، كان يدهشني حينما أتعرفه بعدما نسيت حتى إنّ التصويبات التي كنت أضطر إلى القيام بها في كل لقاء جديد للعودة إلى الدقة التامة إنّما كانت على حد سواء تصويبات ضابط أوتار أو أستاذ نشيد ورسام.

فأما التلاحم والانسجام للذات كانت تنعدم فيهما منذ بعض الوقت، من جراء المقاومة التي تبديها كل واحدة في وجه توسّع الأخريات، الموجات العاطفية المختلفة التي تشيعها في نفسي تلك الفتيات فقد اختلا لصالح "البيرتين" في عشية كنا نلعب فيها لعبة الخاتم، وكان ذلك في حرج صغير فوق الحرف، وإذ كنت بين فتاتين غريبتين عن المجموعة الصغيرة وقد جرى اصطحابهما لأنه كان ينبغي أن نكون كثيري العدد في ذلك اليوم أخذت أنظر نظرة حسد إلى جار "البيرتين"، وكان شاباً، وأقول ببني وبين نفسي إنه لو اتفق لي مكانه لاستطعت ملازمة يدي صديقتي في أثناء هذه الدقائق غير المرتجاة التي ربما لن تعود، ولعلها استطاعت أن تذهب بي بعيداً جداً. وملامسة يدي "البيرتين" وحدها ربما بعثت النشوة في نفسي حتى بمعزل عن النتائج التي قد تستجرّها ولاريب، لا لأنني لم أشاهد في يوم أجمل من يديها، فقد كانت يدا "آندريه"، حتى ضمن زمرة صديقاتها، وهما هزيلتان وأكثر نعومة، تزخران كأنما بحياة خاصة تسلس القيادة لأوامر الفتاة ولكنها مستقلة، وكانتا تمتدان في الغالب أمامها كسلوقيين جميلين بصنوف من التراخي والأحلام الطويلة وتمطيات مفاجئة لإحدى السلاميات والتي قام "إليستير" من جرائه بدراسات عديدة حول هاتين اليدين. وكانتا في واحدة منها تشاهد فيها "آندريه" وهي تدفّتهما قرب النار تكتسبان تحت الأضواء الشفافية المذهبة التي لورقتين خريفتين. ولكن يدي "البيرتين"، وهما أوفر سمّة، كانتا تستسلمان لحفلة ثم تقاومان ضغط اليد التي تشد عليهما مخلقة إحساساً خاصاً تماماً - لقد كان للشد على يد "البيرتين" عذوبة تشيع في المحواس وكأنما تتسجم مع لون بشرتها الوردي الضارب قليلاً إلى البنفسجي كان ذلك الشد يبدو وكأنه يدخلك في الفتاة، في أعماق حواسها، كمثل رنين صوتها اللا محتشم على غرار الهديل أو بعض الأصوات. لقد كانت في عداد تلك النساء اللواتي يولينك متعة كبيرة في الشد على يدهن حتى لتمتّن للحضارة التي جعلت المصافحة عملاً مصرحاً به بين الشبان والشابات في تلافيتهم. ولو أن عادات التأدب المرتجلة أحلت محلّ الشد على الأيدي حركة أخرى لكنت نظرت كل يوم إلى

يدي "البيرتين" المحرّمتين وبني شوق إلى معرفة ملمسهما يماثل في حرارته شوقي إلى معرفة طعم وجنتيها. ولكنني لم أكن أتطلع في متعة الاحتفاظ بيديها بين يدي فترة طويلة إلى تلك المتعة وحدها لو كنت بحوارها في لعبة الخاتم. فكم من صنوف البوح والتصريحات التي كتمها الحياء حتى ذاك كنت أستطيع أن أحمل بها بعض الضغط على يديها، وكم كان يهون عليها، إذ تستحيب بضغط آخر، أن تعرب لي عن قبولها، وأي تواطؤ وأية بدايات تلذذاً كان يمكن أن يحرز حبي في مدى بضع دقائق أقضيها على هذا النحو بالقرب منها تقدماً أوفر مما تم له منذ عرفتها. وإذا أحسست أنها لن تدوم طويلاً وأنها صائرة إلى نهايتها عما قريب، إذ لن نستمر وقتاً طويلاً دونما شك في هذه اللعبة الصغيرة، وأنه ما إن تنتهي حتى يفوت الأوان، لم أعد أطيق اصطباراً. وتركتني عمداً أخذ الخاتم، وحينما أصبحت في الوسط تظاهرت لدى مروره بأنني لم أنتبه له ولاحقته بنظراتي بانتظار اللحظة التي سيقع فيها بين يدي جار "البيرتين" التي كانت وهي تضحك بكل قواها موردة الوجنتين تماماً وسط الحماسة والمسرة اللتين يشيعهما اللعب. وقالت لي "أندريه": "إننا بالضبط في الغابة الجميلة"، وهي تشير إلى الأشجار التي تحيط بنا بابتسامة في العين خصصت بها وحدي وتبدو وكأنها تمر من فوق رؤوس اللاعبين كما لو كنا وحدنا على قدر من الذكاء يمكننا من بلوغ ازدواج الشخصية والإدلاء بشأن اللعبة بملاحظة ذات طابع شاعري. وبلغت بها رقة روحها أن أخذت تغني دون أن تكون بها رغبة في ذلك: "لقد مر من هنا ابن مقرض الغابة يا سيداتي، لقد مر من هنا ابن مقرض الغابة الجميلة" شأنها شأن الذين لا يستطيعون الذهاب إلى "تريانون" دون أن يقيموا فيه احتفالاً من طراز لويس السادس عشر، أو الذين يجدون إثارة في أن يُنشدَ لحن في الإطار الذي كتب من أجله. ولعلني على العكس كنت اغتممت دونما شك ألا أرى روعة ذلك الإنجاز لو اتسع لي الوقت للتفكير فيه. ولكن فكري كان في مكان آخر. وقد شرع اللاعبون واللاعبات يدهشون لغبائي وأنا في لا أخذ الخاتم. وكنت أنظر إلى "البيرتين" الجميلة اللامبالية المرححة التي تزمع أن تصبح بحواري، دون أن تتوقع ذلك، حينما أوقف الخاتم أخيراً في اليدين اللازمتين بفضل حيلة لم تكن ترتاب بها ولولا ذاك لأغضبتها. وفي حرارة اللعب انحلت شعر "البيرتين" الطويل وتهوى خصبلاً جعدة على وجنتيها اللتين كان يُبرز لون بشرتهما الوردية أفضل من ذي قبل بفضل سواده الجاف. وقلت لها وأنا أميل على أذنها كيما أتقرب منها: "إن لك جدائل" لوراديانتي" و"إليينوردوغوين" وسليتها التي أحبها "شاتوبريان" حباً جماً. ويجدر بك أن يظل شعرك على الدوام مسترسلاً بعض الشيء" وفجأة مرّ الخاتم في يد جار "البيرتين"، فوثبت في الحال، وفتحت يديه بشراسة وأمسكت بالخاتم. واضطر أن يبادر إلى مكاني في وسط الدائرة واحتلت مكانه إلى جانب "البيرتين". كنت لبضع دقائق غلت أحسد ذلك الشاب حينما كنت أبصر يديه تلتقيان في كل لحظة، بانزلاهما على الحيلة، بيدي "البيرتين". أما الآن وقد جاء دوري فلم أعد أحس، وأنا شديد الحياء لأبحث عن تلك الملامسة، شديد الانفعال كيما أتذوقها، بغير خفق قلبي السريع المؤلم. وفي إحدى اللحظات أحنّت "البيرتين" صوبي محيّاها المكنتز المورد بهيئة المتواطئ متظاهرة بذلك أن الخاتم معها كيما تخدع "ابن مقرض" وتحول دون أن ينظر إلى الجانب الذي يمر فيه الخاتم. وأدركت في الحال أن ما كانت تضمره نظرة "البيرتين" إنما يتعلق بتلك الخدعة،

ولكنني اضطربت إذ رأيت صورة سرّ واتفاق لا وجود لهما بيني وبينها تمر على هذا النحو في عينيها، والصورة محض تظاهر لضرورات اللعبة، إلا أنه بدا مذ ذاك أن السرّ والاتفاق ممكنان ولعلهما يجلبان لي عذوبة سماوية. وفيما كانت الفكرة تلهب مخيلتي أحسست بيد "البيرتين" تضغط ضغطاً خفيفاً على يدي وأصبعها اللطيف ينزلق تحت إصبعي ورأيت أنها توجه إليّ في الوقت نفسه غمزة من عينيها كانت تحاول أن تجعلها خفيفة، وتركزت في الحال، دفعة واحدة، جمهرة من الآمال ظلت حتى ذاك خفيفة عليّ، وفكرت في نفسي قائلاً وأنا في قمة الفرح: "إنها تفتنم فرصة اللعبة كي تشعرني بأنني أحسن في عينيها"، قمة هويت منها في الحال حينما سمعت "البيرتين" تقول بحق: "نحده، ويحك، فقد انقضت ساعة وأنا أعطيك إياه". وأفلتُ الحيلة وقد دوخني الغم فأبصر "ابن مقرض" الخاتم وأنقض عليه واضطرت أن أعود إلى الوسط يائساً وأنا أنظر إلى الحلقة المجنونة التي توالي رقصها من حولي وتلاحقني صحبات جميع اللاعبات الساخرة فأضطرب للرد عليها أن أضحك في حين لا رغبة لي في ذلك، فيما لا تكف "البيرتين" عن قولها: "لا يلعب الناس حينما لا يريدون الانتباه وكيفا يخسر غيرهم. لن ندعوه من بعد في الأيام التي نلعب فيها "آندريه" أو لا أجيء أنا". وشاءت "آندريه"، وهي متفوقة في اللعب وكانت تغني أغنية الغابة الجميلة "التي ترددها" روزموند" بداعي روح التقليد ودونما قناعة، شاءت أن تشغلني عن مآخذ "البيرتين" عليّ بقولها: "نحن على خطوتين من محلة "كرونبيه" التي كنت راغباً جداً في زيارتها. هيا، فلإني سأقودك إلى هناك في درب صغير جميل بينما تتصّرف تلك المجنونات كأطفال في الثامنة" ولما كانت "آندريه" شديدة اللطف معي فقد قلت لها في الطريق كل ما يبدو لي من شأنه أنه يحبّني إلى هذه الأخيرة. وأجابني إنها بدورها تحبها كثيراً وتجدها ظريفة، بيد أن امتداحي لصديقتها لم يبدُ وكأنه يسرها. وفجأة توقفت في الدرب الصغير الخالي وقد أصابني في الصميم ذكرى حلوة من أيام الطفولة: فقد تعرّفت، بفضل الأوراق المقطّعة الملتصقة التي تمتد ناحية العتبة، دغلاً من شجيرات الزعرور البيض تعرّعت من أزهارها، للأسف، منذ أواخر الربيع. وتدافع من حولي عقب من أشهر مريمية قديمة وأمسيات آحاد واعتقادات وغوايات منسّية ووددت لو ألتقطتها. وتوقفت مقدار ثانية وأفسحت لي "آندريه" المجال بتبصّر رائع للتحدث لحظة مع أوراق الشجيرة وسألتها عن أخبار الأزهار، أزهار الزعرور البيضاء تلك الشبيهة بفتيات مرحات طائشات ذوات غنج وتقى. كانت الأوراق تقول لي: "لقد ارتحلت تلك الأوانس منذ فترة طويلة" وربما ظننت أنني ما كنت أبداً، بالنظر إلى الصداقة العظيمة التي أدّعي أنني أكنها لها، على اطلاع تام بعاداتها، صداقة عظيمة ولكن صاحبها لم ير أزاهيره ثانية منذ سنوات كثيرة على الرغم من وعوده مع أنها سبق أن كانت حبي الأولى لاحدى الأزاهير كما سبق أن كانت "جيلبيرت" حبي الأولى لاحدى الفتيات. وأجبت قائلاً: "أجل، أعلم، إنها ترتحل في حوالي النصف من حزيران، ولكننا يسرنى أن أرى المكان الذي سكنت فيه ههنا. فقد جاءت تزورني في "كومبريه" داخل غرفتي وقد جاءت بها أمي عندما كنت مريضاً؛ وكنا نعود فنلتقي مساء السبت في الشهر المريمي. وهل يمكنها الذهاب إليه هنا؟" - "بالطبع! ثمة اهتمام كبير على أية حال بدعوة تلك الأوانس إلى كنيسة "سان دوني دي ديزير"، وهي أقرب رعية في الجوار. " - "والآن كيف أراها إذن؟" - "لن يكون ذلك قبل شهر أيار من

السنة القادمة" - "وهل يمكنني التأكد أنها ستكون هناك؟" - "كل سنة بانتظام . " - "ولكنني لا أدري إن كنت سألقى المكان بالضبط. " - "بلى! فنلك الأوانس بالغات المرح لا يتوقن عن الضحك إلا لإنشاد الترانيم حتى إنه لا مجال ثمة للخطأ وستعرف عطرها من أول الدرب. "

ولحقت بـ"أندريه" وعدت أنني على "البيرتين" أمامها. كان يبدو مستحيلا في نظري أن لا تردّد الشئ على مسمعا بسبب الإلحاح الكبير الذي أبدته. ولكنني لم أبلغ في يوم أن "البيرتين" عرفتها. مع أن "أندريه" كانت أكثر إدراكا منها لأمر القلب وتبدي رقة في تلففها، فالعنور على النظرة والكلمة والفعله التي يمكن أن تشيع السرور ببراعة ما بعدها براعة، وكتم ملاحظة ربما أولت غما، والتضحية (فيما تبدو وكأنما لا تضحية هناك) بساعة من اللعب، بل بالصباح بطوله، وبحفلة راقصة في الهواء الطلق لتظل إلى جانب صديق أو صديقة كثية ولتعرب له على هذا النحو أنها تفضل مجرد الاجتماع به على تلك المتع الطائشة، تلكم كانت صنوف لطفها المعتادة. إلا أنك حينما كنت تزدد بها معرفة فإنما كان يخيل إليك أن أمرها أمر هؤلاء الرعايد الأبطال الذين يرفضون أن يخافوا والذين تبدو شجاعتهم جديرة بالثناء على وجه الخصوص. لكأنما لم يكن في أساس طبيعتها شيء من تلك الطيبة التي تعرب عنها في كل حين يدفعها التأني الأخلاقي والإحساس والمقصد الكريم في أن تظهر مظهر الصديقة المحبة. وكان يبدو، وما أصغيت إلى الأشياء الحلوة التي تنقلها إليّ عن مودة ممكنة بيني وبين "البيرتين"، أنه ربما ينبغي أن تعمل بكل قواها على تحقيقها ولكنها، وربما كان الأمر تصادفاً، لم تلجأ ألبته إلى أقلّ ما تملك ممّا يمكن أن يجمعني بـ"البيرتين"، ولست أقسم أن لم يبعث سعيي لخطب ودة "البيرتين" سخطاً في نفسها، تحسن كتمه على أية حال وربما حاربه عن رهافة شعور، إن هو لم يلد لدى صديقتها حياء خفية من شأنها مقاومته. ولعل "البيرتين" كانت عاجزة عن آلاف صنوف اللطف المتأنق الذي تملكه "أندريه"، بيد أنني لم أكن متيقنا من عمق الطيبة لدى هذه مثلما تم لي ذلك فيما بعد بشأن الأولى. كانت "أندريه"، إذ تبدو على الدوام رقيقة متسامحة إزاء طيش "البيرتين" المتفجر حيوية، تجود لها بأقوال وبسمات تطبعها الصداقة، بل وأكثر، فقد كانت تتصرف تصرف صديقة. لقد رأيتها يوماً إثر يوم تنفق، كيما تفيد تلك الصديقة الفقيرة من ترفها وكيما تسعدها، تنفق من الجهد، دون أن تكون لها أية مصلحة، أكثر من رجل بلاط يريد كسب حظوة لدى الملك. كانت رائعة علوبة وكلمات حزينة ولذيذة حينما يُرثى في حضرتها لفقر "البيرتين" وتكلف في سبيلها جهوداً تفوق ألف مرة ما لعلها تنفق في سبيل صديقة غنية. ولكن سحابة تكاد لا ترى كانت تغشي جبين "أندريه" وعينها إن قال أحد أمامها إن "البيرتين" ليست فقيرة بالقدر الذي يقولون؛ وكانت تبدو معكّرة المزاج. فإن بلغ بهم أن يقولوا إن تزويج "البيرتين" أقلّ صعوبة، أية كانت الأحوال، ممّا يظنون كانت تعارضك بقوة وتردّد بما يقارب الحقنق: بلى، وأسفي، سوف لا يمكن تزويجها! إني أعلم ذلك تمام العلم، والأمر يبعث الغم في نفسي! وكانت حتى الوحيدة من بين تلك الفتيات التي لعلها لم تردّد أمامي ألبته، فيما يخصني، أمراً مزعجاً إلى حدّ ما أمكن أن يُقال عني. بل وأكثر من ذلك كانت تنظّاهر، إن رويت عنه بنفسني، بأنها لا تصدقه أو هي تفسره بما يجعل القول عديم الأذى وإنما مجمل هذه الصفات ما يسمى

باللباقة. وهي وقف على الناس الذين يهتئوننا إن ذهبنا إلى الميدان، ويضيفون أنه لم يكن ما يدعو للإقدام على ذلك كي يزيد في أعيننا من الشجاعة التي أبدناها دون أن نكون اضطررنا إليها. وهم نقيض الذين يقولون في المناسبة نفسها: "لا بد أنك شعرت بازعاج كبير في أن تقاتل، ولكنك لم تستطع من جهة أخرى أن تقبل بمثل تلك الإهانة وما كان يمكنك أن تفعل غير ما فعلت." ولكن، بما أن لكل أمر ماله وما عليه، لئن دلت المتعة أو اللامبالاة لدى أصدقائنا بأن يرددوا على مسامعنا أمراً مهيناً قيل بحقنا على أنهم لا يتعاطفون معنا لحظة يحدثوننا ويفرسون الدبوس والسكين في جلدنا وكأنما في كرة منفوخة، فإن فن كتمنا على الدوام ما يمكن أن يكدرنا فيما بلغهم عن أعمالنا أو في الرأي الذي أوحى به إليهم تلك الأعمال إنما يمكن أن يدل لدى الفئة الأخرى من الأصدقاء، لدى الأصدقاء ذوي اللباقة الحمة، على قدر كبير من النفاق. وإنه لا ضير منه إن هم بالفعل لا يستطيعون التفكير بالسوء وإن كان ما يقال من سوء يعذبهم بقدر ما قد يعذبنا بدورنا، كنت أظن أن تلك حال "آندريه"، دون أن أتأكد تماماً مع ذلك من الأمر .

وكنا قد خرجنا من الغاية الصغيرة وسرنا في مجموعة من الدروب التي قلما تطرقها الأقدام، وتبدو "آندريه" عارفة بها تماماً. وقالت لي فجأة: "هيا، إليك محلة "كرونييه" الشهيرة، وقد حالفك الحظ إلى ذلك، إليكها في الوقت الذي رسمها فيه "إيلستير" وفي الضياء نفسه." على أنني كنت لا أزال شديد الغم لأنني هويت في أثناء لعبة الخاتم من قمة الآمال تلك. ولذلك لم يتيسر لي، بالمتعة التي لا بد كنت أحسست بها لولا ذلك، أن أميز تحت قدمي "الإلهات" البحرية المختبئة بين الصخور حيث تتقي الحر، تلك التي ترصدها "إيلستير" وفاجأها تحت طبقة لونية عاتمة في مثل جمال ما قد تصنعه يد أمثال "ليوناردو"، "الظلال" الرائعة المحتمية الخفية، الرشيقة الصامتة، المتأهبة لدى أول خفقة نور للهرب تحت الصخور والاختباء في حفرة، وسرعان ما تعود، ما إن يزول خطر الشعاع الضوئي، بالقرب من الصخرة أو الأشنية وتبدو، في أشعة الشمس مفتحة الجروف والمحيط الشاحب، وكأنها تسهر على إغفاءتهما حارسات رشيقات لا حراك بهن يُبرزن على صفحة الماء جسمهن اللزج والنظرة المتيقظة في عيونهن الداكنة وعدنا للقاء الفتيات الأخريات بغية العودة، كنت أعلم الآن أنني أحب "ألبيرتين"، ولكنني ما كنت أهتم وأسفي بأن أطلعها عليه ذلك أنه منذ زمن اللعب في "الشانر" يلزيه، إن ظل من تعلق بهم قلبي على التوالي متماثلين تقريباً، فقد أضحي تصوري للحب مختلفاً. فالبوح بمودتي، وإعلانها لمن كنت أحبها، لم يعد يبدو لي، من جهة، أحد المشاهد الرئيسية والضرورية في الحب، ولا هذا الحب حقيقة خارجية، بل متعة ذاتية فحسب. أما تلك المتعة، فقد كنت أحس أن "ألبيرتين" سوف تفعل ما ينبغي لتصونها بطيبة خاطر تتزايد بقدر ما ستجهل أنني أشعر بها .

لم تكن صورة "ألبيرتين" الغارقة في الضياء المنبعث من الفتيات الأخريات وحيدة في العيش داخلي أثناء تلك العودة ولكن، كما أن القمر الذي لا يعدو كونه غيمة بيضاء صغيرة ذات شكل أكثر تميزاً وثباتاً في أثناء النهار يكتسب كامل قوته بعدما يزول هذا الأخير، كذلك كانت صورة "ألبيرتين" وحدها هي التي ارتفعت من فؤادي، بعدما عدت إلى الفندق، وأخذت تتلأأ، وأخذت

غرفتي تبدو لي جديدة على نحو مفاجئ، لقد انقضى بالتأكيد زمن طويل منذ لم تعد غرفة العشية الأولى العدائية، فإننا نغير دون كلل في سكتنا من حولنا، وكلما جعلتنا العادة في حلٍّ من الإحساس ألغينا العناصر الضارة التي كانت تجسد قلقنا من لون وحجم ورائحة. ولم تعد كذلك الغرفة التي لا تزال واسعة السلطان على إحساسي، لا لتعذبني بالتأكد، بل لتزودني بالمسرة، لم تعد حوض الأيام الحلوة الشبيه بمسبح كانت تلك الأيام تبعث فيه إلى نصفه التماعات زرقه بللها النور يغطيها مقدار لحظة شراع هارب ينعكس فيها هوائياً أبيض كدفقة من دفاء، ولا غرفة عشيات الرسم الجمالية البحتة. لقد أضحت الغرفة التي مكثت فيها العديد من الأيام حتى لم أعد أبصرها من بعد وها إني أخذت من جديد أفتح عيني عليها ولكن من وجهة النظر الأنانية هذه التي هي وجهة نظر الحب في هذه المرة كنت أفكر أن المرأة الجميلة المائلة والمكتبات الأنيقة المزججة سوف تخلف في نفس "البيرتين" فكرة طيبة عني إن هي جاءت لزيارتي وعوضاً عن مكان عبور أقضي فيه لحظة قبل الهرب باتجاه الشاطئ أو باتجاه "ريفيل" أخذت غرفتي تصبح من جديد حقيقية وغالية علي وأخذت تتجدد إذ كنت أنظر إلى كل قطعة أثاث فيها وأقدرها بعيني "البيرتين".

وبعد لعبة الخاتم ببضعة أيام أسعدنا أعظم سعادة، وقد حملتنا أقدامنا إلى مكان بعيد جداً في إحدى نزهاتنا، أن تلقي في "مينفيل" عربتين صغيرتين بمحلتين يمكننا من العودة ساعة العشاء، وقد كان من جراء حدة حبي المتنامي لـ "البيرتين" أن عرضت على التوالى على "روزموند" و "أندريه" أن يصعدا إلى جانبي، ولم أفعل مرة واحدة بالنسبة إلى "البيرتين"، وإن حملت الجميع بعد ذلك، بفضل اعتبارات ثانوية تتعلق بالساعة والطريق والمعاطف، على أن يقرروا، وكأنما غصباً عني، أن أفضل أمر عملي هو أن أنقل معي "البيرتين" التي تظاهرت بأنني أسلم برقتها مكرهاً. ولكن الحب إذ يسعى للأسف إلى التمثل التام لأحد الكائنات، وليس فيهم من كان صالحاً للأكل بمجرد المحادثة، فعبثاً كانت "البيرتين" لطيفة ما استطاعت في أثناء تلك العودة فقد تركتني، بعد ما أوصلتها إلى منزلها، سعيداً ولكنني أشد جوعاً إليها مما كنت ساعة البداية ولا أحسب اللحظات التي قضيناها سوى سوى تمهيد، لا أهمية له في حد ذاته، لتلك التي سوف تتلوها. ولكنما كان يتسم بذلك السحر الأول الذي لا تلقاه ثانية. لم أكن بعد قد طلبت شيئاً من "البيرتين"، وكان بوسعها أن تتخيل ما كنت أرغب فيه، وإذ هي غير متيقنة منه، أن تفترض أنني لا أرمي إلا إلى علاقات لا هدف واضحاً لها ولا بد أن صديقتي تلقى فيها هذا الغموض اللذيذ الزاخر بالمفاجآت المرتقبة الذي هو الحب الخيالي.

ولم أحاول لقاء "البيرتين" على الإطلاق في الأسبوع التالي. كنت أظاهر بتفضيل "أندريه" فالحب ينشأ، وتود أن تغفل في نظر التي تحبها المجهول الذي يمكن أن تحبه، ولكنك بحاجة إليها، وأنت أقل حاجة إلى ملامسة جسدها منك إلى انتباهها وفؤادها. تدس في رسالة قولاً مسيئاً يضطر اللامبالية أن تطلب منك لفظة لطيفة، فيضيق الحب بالنسبة إلينا بحركة متناوبة التشابكات التي لا نستطيع فيها من بعد لا أن لا نحب ولا أن نحب. كنت أكرس لـ "أندريه" الساعات التي تذهب فيها الأغريات إلى حفلة بعد الظهر أعلم أن "أندريه" تضحّي بها من أجلي بسرور، ولعلها كانت

تضحى بها من أجلي حتى بانزعاج بداعي التائق الأخلاقي وكى لا تخلف لدى الآخرين ولدى نفسها فكرة أنها تعلق أهمية على متعة دينوية نسبياً وهكذا كنت أندبر أمرى لتكون معى وحدى فى كل مساء، ولا أفكر فى إثارة غيرة "البيرتين"، بل فى زيادة مهابتي فى عينها أو ألا أفقدها على الأقل إذ أنقل إلى "البيرتين" أنها هى من أحب لا "أندريه" وما كنت أقول الأمر كذلك لـ "أندريه" مخافة أن ترددها وحينما كنت أتحدث عن "البيرتين" مع "أندريه" كنت أظاهر بفتور ربما كانت "أندريه" أقل اغتراراً به منى وبسرعة تصديقها الظاهرة كانت تتظاهر بتصديق قلة اكترائي بـ "البيرتين" وبالرغبة فى أتمّ وفاق ممكن بينى وبين "البيرتين"، والأرجح أنها على العكس لم تكن تصدق الأولى ولا تمنى الثانى، وفيما كنت أقول لها إنى قليلاً ما أهتم بصديقها لم أكن أفكر إلا فى أمر، أن أحاول إقامة صلة بالسيدة "بونتان" التى جاءت لتقيم بضعة أيام على مقربة من "البليك" والتى تزمع "البيرتين" أن تمضى لديها ثلاثة أيام. ولم أدرع بالطبع لـ "أندريه" أن تستشف الرغبة وحينما كنت أحدثها عن أسرة "البيرتين" فبالمظهر الشارد أكثر ما يكون الشرود أفعّل. وما كانت تبدي "أندريه" بإجاباتها الراضحة أنها ترتاب بصديقى. فلماذا زلقت إذن وقالت لى ذات يوم: "لقد رأيت بالضبط عمة "البيرتين"؟ صحيح أنها لم تقل لى: "لقد تبينت تماماً فى أقوالك التى تلقىها كأنما جزافاً أنك لا تفكر إلا فى إقامة صلات بعمة "البيرتين" ولكنما كانت كلمة "بالضبط" تبدو وكأنها إنما تتعلق بوجود تلك الفكرة فى ذهن "أندريه"، تلك الفكرة التى ترى أكثر تأدباً أن تخفيها عني كانت من فصيلة بعض النظرات وبعض الحركات التى، وإن لم تكتسب صيغة منطقية عقلانية أعدت إعداداً مباشراً فى سبيل إفهام من يسمع، إنما تبلغ إليه مع ذلك بمدلولها الحقيقى، مثلما الكلام البشرى يعود، بعد ما استحال كهرباء فى خط الهاتف، فينقلب كلاماً من جديد بغية أن يتم فهمه، وكما أزيل من ذهن "أندريه" فكرة اهتمامى بالسيدة "بونتان" لم أعد أتحدث عنها بشرود فحسب، بل بنية الإضرار بها، وقلت إنى التقيت فيما مضى بتلك المجنونة وأملى ألا يتفق لى ذلك من بعد.

وحاولت أن أحصل على وعد من "إيلستير" بأن يحدثها عني ويجمعني بها، ولكن دون أن أقول لأحد إننى رجوته بذلك ووعدني بأن يعرفني بها وهو مع ذلك فى دهشة أن أتمنى الأمر فقد كان يعتبرها امرأة محتقرة دساسة نفعية بقدر قلة ما تثير من اهتمام، وإذ فكرت أن "أندريه"، إن أنا لقيت السيدة "بونتان" سوف تعلم الأمر عاجلاً أم آجلاً فقد ظننت من الخير لى أن أنبئها بذلك فقلت لها: "إن الأمور التى يحاول المرء أكثر ما تكون المحاولة الهرب منها هى التى يبلغ بنا الأمر أن لا نستطيع تجنبها فليس فى الدنيا ما يمكن أن يزعمنى بقدر لقاء السيدة "بونتان" ولن أفلت منه مع ذلك إذ يزعم "إيلستير" أن يدعوني وإياها" وصاحت "أندريه" بمرارة: "لم أشك فى ذلك لحظة واحدة"، فيما راحت نظرتها التى وسعها الاستياء وعكّرها تلاحق ما لست أدري من أمر خفى لم تكن كلمات "أندريه" تولى العرض الأوفر ترتيباً لفكرة يمكن تلخيصها كما يلي: "أعلم تمام العلم أنك تحب "البيرتين" وأنتك تفعل ما بوسعك للتقرب من أسرتها" ولكنها كانت البقايا التى لا شكل لها والتى يمكن إعادة تأليفها، بقايا تلك الفكرة التى إذ صدمتها على الرغم من "أندريه" لم يكن لتلك الأقوال، شأن كلمة "بالضبط" من دلالة إلا بالدرجة الثانية، الأمر الذى يعنى أنها من تلك التى

توحي إلينا (وليست من التوكيدات المباشرة) بالتقدير أو الارتياح إزاء أحد الناس وتوقعنا في خلاف معه.

وبما أن "آندريه" لم تصدقني حينما كنت أقول لها إن أسرة "البيرتين" لا تثير اهتمامي فلأنها كانت تظن أنني أحب "البيرتين" والأرجح أنها ما كانت سعيدة بذلك.

كانت دوماً ثالثتنا في لقاءاتي بصديقتها. بيد أن ثمة أياماً كان علي أن ألقى فيها "البيرتين" وحدها، أياماً كنت أنتظرها انتظار المحكوم وتنقضي دون أن تحيطني بأي أمر حاسم ودون أن تكون ذلك اليوم الهام الذي كست أعهد بدوره في الحال إلى اليوم التالي الذي لن يؤديه علي نحو أفضل. وهكذا كانت تنهار، مثلما الأمواج، تلك القمم الواحدة تلو الأخرى، وتحل غيرها محلها في الحال.

وبعد حوالي شهر من اليوم الذي لعبنا فيه لعبة الخاتم قيل إن "البيرتين" تزمع الذهاب في صباح الغد لقضاء ثمان وأربعين ساعة لدى السيدة "بونتان" وسوف تأتي، إذ هي مضطرة أن تستقل القطار في ساعة مبكرة، لتنام عشية ذلك اليوم في الفندق الكبير الذي تستطيع منه برسالة سيارة النقل العامة أن تستقل أول قطار دون إزعاج الصديقات اللواتي تقطن عندهن، ورويت لـ "آندريه" عن ذلك، فأجابت بلهجة المستاء: "لست أصدق لأنني متيقنة أن "البيرتين" لن تقبل أن تلقاك إن جاءت وحدها إلى الفندق، فلن يكون ذلك "أصولياً" تضيف وهي تستخدم صفة أخذت تحبها كثيراً، ومنذ وقت قليل، بمعنى "ما يفعله الناس" وأقول ذلك لأنني أعرف آراء "البيرتين" أما أنا، فما عسى يهمني أن تراها أو لا تراها ؟ الأمر سواء عندي".

ولحق بنا "أوكتاف" الذي لم يتردد في أن يقول لـ "آندريه" عدد النقاط التي سجلها بالأمس في لعبة الغولف، ثم "البيرتين" التي كانت تنزه وهي تحرك لعبة "الديابولر" متلما تحرك راحة مسبحتها. كانت بفضل تلك اللعبة تستطيع البقاء ساعات وحدها دون أن يصيبها الضجر. وما إن لحقت بنا حتى بدا لي رأس أنفها الثائر الذي كنت أغفلته وأنا أفكر فيها في هذه الأيام الأخيرة وتحت شعرها الأسود تعارضت استقامة جبينها، وما كانت تلك أول مرة، مع الصورة الحائرة التي احتفظت بها، فيما يعلق بياضه بشدة في الحاطي، وأخذت "البيرتين" تتشكل ثانية أمامي وهي تنفض عنها غبار الذكرى.

إن لعبة الغولف تورث عادة المتع الانفرادية، والمتعة التي توليها لعبة "الديابولر" من ذلك القبيل بالتأكيد، ولكن "البيرتين" استمرت تلعب بها، بعد ما لحقت بنا، فيما هي تحادثنا، كمثل سيدة بادرت صديقات لزيارتها فلا تتوقف لذلك عن شغل صنارتها.

وقالت لـ "أوكتاف": "يبدو أن السيدة "دوفيلباريزيس" اعترضت لدى والدك (وسمعت خلف كلمة "يبدو" هذه شيئاً من ذلك الجرس الخاص بـ "البيرتين"، وفي كل مرة كنت ألاحظ أنني نسيته أذكر في الوقت نفسه أنني لمحت قبل ذلك خلفه هيئة "البيرتين" الحازمة والفرنسية. كان يمكن أن

أكون كفيفاً وأن أتعرف بعض صفاتها الرشيقة والقروية في ذلك الجرس وفي رأس أنفها المدبب سواء بسواء. فقد كان هذا وذاك يتساويان ويمكن أن يحل أحدهما محل الآخر وكان صوتها كالذي سوف يحققه، فيما يقال، جهاز الهاتف الصورة في المستقبل: لقد كانت الصورة البصرية تبرز بوضوح في رنة الصوت (ولم تكتب على أية حال إلى والدك فحسب، بل إلى مختار "البليك" في الوقت نفسه كي لا يلعبوا من بعد بالديابولو فوق السد، فقد قذفوا طابرة في وجهه " .

- "أجل، لقد سمعت من يروي عن هذا الاحتجاج، والأمر مضحك، فليس ههنا الكثير من صنوف التسلية".

ولم تشارك "آندريه" في الحديث، فهي لا تعرف، ولا تعرف "البيرتين" ولا "أوكتاف" كذلك، السيدة "دوفيلباريزيس" وقالت "آندريه" مع ذلك: "لست أدري لماذا أقامت تلك السيدة الدنيا وأعدتها، فقد أصابت طابرة أيضاً السيدة "دوكامبرمير" العجوز ولم تتقدم بشكوى" وأجاب "أوكتاف" بلهجة جدية وهو يشعل عود ثقاب: "سأشرح لك الفارق، فالسيدة "دوكامبرمير" فيما أرى، امرأة من دنيا المجتمع الراقي والسيدة "دوفيلباريزيس" وصولية ها أنت ذاهبة إلى ميدان الغولف بعد الظهور؟" وفارقنا ومثله فعلت "آندريه". وظللت وحيداً مع "البيرتين" وقالت لي: "تري، إنني أصف شعري الآن على نحو ما تحب، فانظر إلى خصلة شعري. جميع الناس يسخرون من ذلك ولا يعلم أحد من أجل من أفعله. سوف تسخر مني عمتي أيضاً، ولن أقول لها السبب كذلك". كنت أبصر وجنتي "البيرتين" جانبياً وغالباً ما كانتا تبدوان شاحبتين، ولكننا كان يرويهما على ذلك النحو دم ضاف ينورهما ويضفي عليهما تلك اللمعة التي تتصف بها بعض صبيحات الشتاء التي تبدو فيها الحجارة المغمورة جزئياً بنور الشمس وكأنها من الغرائث الوردية وينبعث الفرح منها، فأما ذلك الذي كانت توليني إياه في ذلك الحين مشاهدة وجنتي "البيرتين" فقد كان في مثل حديثه، ولكنّه يقود إلى رغبة أخرى لم تكن الرغبة في نزهة بل في قبلة. وسألتها إن كانت المقاصد التي ينقلونها عنها صحيحة فقالت: "أجل، سأقضي هذه الليلة في فندقك وسوف آوي إلى فراشي حتى قبل العشاء، إذ إنني مصابة برشح طفيف. ويمكنك المجيء لحضور عشاءتي بالقرب من سريري وبعد ذلك نلعب بما تشاء. كان يسرني أن تحضر إلى المحطة في صباح الغد ولكنني أخشى أن يبدو غريباً، لا في نظر "آندريه" التي تمتاز بالكاء، بل في نظر الأخريات اللواتي سيكن هنالك، وربما أثار الأمر مشكلات إن جرى ترده على مسامع عمتي. ولكننا نستطيع قضاء هذه الأمسية معاً، ولن تعلم عمتي شيئاً عن ذلك. إنني ذاهبة لأستودع "آندريه"، فإلى لقاء قريب إذن. تعال في وقت مبكر، تضيف مبتسمة، كي تتوافر لنا ساعات حلوة نقضيها. وعدت بالذاكرة، لدى سماع تلك الكلمات، إلى أبعد من الزمن الذي كنت أحب فيه "جيلبيرت"، إلى الزمن الذي كان الحب يبدو فيه بمثابة كيان قابل للتحقق، لا كيان خارجي فحسب، ففيمما كانت "جيلبيرت" التي كنت ألتقي بها في "الشانزيليزيه" غير التي أعود فألقاها في داخلي حالما أكون وحدي، فقد كانت تتجسد "البيرتين" الخيالية فجأة، تلك التي خلت، حينما كنت لا أعرفها بعد، أنها تنظر إليّ جلسة فوق السد والتي بدا أنها تعود رغماً عنها وهي تراني

أبتعد، كانت تتحسد داخل "البيرتين" الحقيقية، تلك التي كنت أراها كل يوم والتي أظنها مليئة بالآراء المسبقة البورجوازية وبالغة الصراحة مع عمتها.

وذهبت للعشاء مع جدتي وكنت أحسن في داخلي سرّاً لا تعرفه. كذلك كان أمر "البيرتين"، فغداً تكون صديقاتها معها دون أن يعلمن أن ثمة جديداً بيننا وسوف تجهل السيّد "بوتان" حينما تقبل ابنة شقيقها على جبينها أنني أفق بينهما في تصفية الشعر تلك التي كانت تهدف، وقد خفيف على الجميع، إلى أن تحلو في عيني أنا، أنا الذي كان حتى ذلك يحسد السيّد "بوتان" أشد الحسد لأنها، وهي على صلة قربي بالأشخاص الذين تجمعهم الصلة نفسها بابنة شقيقها، كان عليها أن تلبس الحداد نفسه وتقوم بالزيارات العائلية نفسها، فإذا أنا بالنسبة إلى "البيرتين" أكثر مما كانت عمتها نفسها. فلسوف تفكر فيّ بالقرب من عمتها. ما الذي سوف يجري عمّا قليل، لم أكن أعرف ذلك بالتمام. ولكن الفندق الكبير والأمسية لا يدوان لي في جميع الأحوال فارغين من بعد، فقد كانا يحتويان سعادتي. وقرعت الجرس لعامل المصعد لأصعد إلى الغرفة المطلّة على الوادي والتي استأجرتها "البيرتين". لقد أضحت جميع الحركات، من مثل الجلوس على مقعد المصعد، عذبة في عيني لأنها على علاقة مباشرة بفوادي، فكنت لا أرى في الحال التي يرتفع بها الجهاز والدراجات القليلة التي تنتظر أن أرتقيها سوى تجسيد لآليات فرحي ودراجاته. لم يظلّ لي سوى خطوتين أو ثلاث أقوم بها في الممر قبل الوصول إلى تلك الغرفة التي كانت تحتوي المادّة الثمينة التي تؤلف ذلك الجسد المورّد - تلك الغرفة التي سوف تحتفظ، حتى وإن أزع أن يجري فيها أعمال رائعة، بذلك الاستمرار وبذلك المظهر - الذي تبدو به بالنسبة إلى عابر السبيل غير المطلّع شبّهة بجميع الأخرى التي تجعل من الأشياء شهود المتعة الذين يصمتون بإصرار والأنحية المترنّتين والأمينين المصوتين عليها. وقطعت تلك الخطوات القليلة من فسحة الدرج إلى غرفة "البيرتين"، تلك الخطوات التي لم يعد باستطاعة أحد أن يوقفها، قطعنها بابتهاج وحذر، كأنما يغمرني وسط جديد، كأنما أنقل على مهل شيئاً من السعادة في تقدّمي، وفي الوقت نفسه بشعور غامض بالاقتدار الكليّ وأنتي أضع يدي أخيراً على ميراث كان على الأزمان ملكاً لي. ثم فكرت فجأة أنني مخطئ إذ تساورني الشكوك، فقد قالت لي أن أجيء بعدما تأوي إلى سريرها. كان الأمر واضحاً، وأخذت أضرب الأرض بقدمي فرحاً وألقيت "فرانسواز" التي كانت على طريقي أرضاً وطفقت أعدو ملتصعين العينين إلى غرفة صديقتي. ولقيت "البيرتين" في سريرها. كان قميصها الأبيض، إذ يبرز عنقها، يغير من نسب وجهها الذي كان يبدو أكثر تورّداً بفعل السرير أو الرشع أو العشاء. وفكرت في الألوان التي رأيتها بالقرب مني فوق السد قبل بضعة ساعات والتي أزع أخيراً أن أعرف طعمها، كانت تمتد على خدّها من الأعلى إلى الأسفل واحدة من جدائلها الطويلة السوداء الجعدة التي حلّتها تماماً لتشبع السرور في نفسي. وكانت تنظر إليّ مبتسمة، والوادي في النافذة بالقرب منها ينشر القمر فوقه ضياءه. وبعث في منظر عنق "البيرتين" العاري وتينك الوجنتين المورّدين نشوة عظيمة (يعني أنها جعلت حقيقة العالم بالنسبة إليّ لا في الطبيعة من بعد بل في سبل الإحساسات التي لا أقوى على إيقاف اندفاعها) إلى حدّ حطّم معه ذلك التوازن القائم بين الحياة الشاسعة الدائمة التي تجري داخل كياني وحياة الكون

الهزيلة جداً إذا ما قورنت بها. فالبحر الذي أشاهده في النافذة إلى جانب الوادي وتكوّر نهود
جروف "مينفيل" الأولى والسماء التي لم يبلغ القمر السمت فيها بعد، كلّ ذلك كان يبدو أيسر
حملاً من الريش بالنسبة إلى مقلتيّ اللتين أحسّتهما موسعتين صلبتين تحفزان لحمل العديد من الأثقال
الأخرى وجميع جبال الدنيا فوق صفحاتهما الرقيقة. ولم تعد دائرتهما تملؤها إلى حدّ كاف استدارة
الأفق نفسها. ولعلّ كلّ ما قد يمكن أن تجيئني به الطبيعة من حياة، لعله كان يبدو زهيداً جداً ولعلّ
أنفاس البحر كانت تبدو لي قصيرة جداً في مقابل النشقة الواسعة التي تملأ صدري. وانحيت فوق
"البيرتين" أريد تقبيلها. ولو انبغى أن تبادرني المنية في تلك اللحظة ليدا الأمر غير ذي شأن في
نظري، أو بدا بالأحرى مستحيلاً لأنّ الحياة لم تكن خارج ذاتي بل كانت في ذاتي. وكنت ابتسمت
إشفاقاً لو أن فيلسوفاً طلع بفكرة أنّه يقع عليّ أن أموت ذات يوم، وإن يكن بعيداً، وأن قوى الطبيعة
الأزلية سوف تبقى بعدي، قوى هذه الطبيعة التي أنا مجرد ذرّة غبار تحت قدميها الإلهيين، وسوف
تظلّ كذلك بعدي تلك الجروف المستديرة المتكوّرة وذلك البحر وضياء القمر والسماء تلك
فكيف يمكن أن يتمّ ذلك، وكيف يمكن أن يدوم العالم أكثر منّي بما أنني لم أكن ضائعاً فيه وهو
الذي كان محتسباً بين ضلوعي، بين ضلوعي التي يملؤها، وما أبعد أن يفعل، ضلوعي التي ألقيت في
زاوية منها إلقاء المتعالي، وأنا أحسّ بتوافر المكان لأراكم فيها الكثير من الكنوز الأخرى، السماء
والبحر والجروف؟ وصاحت "البيرتين" قائلة: "توقّف أو قرعت الجرس"، وقد رأت أنّي أرتمي عليها
لتقبيلها. ولكنّي كنت أقول في نفسي إن فتاة لا تستقدم شاباً في الخفاء في سبيل ألا تفعل شيئاً، وهي
تندبّر أمرها كي لا تعلم عمّتها بذلك، وإنّ الجرأة تثمر على آية حال لدى الذين يعرفون كيف
يفيدون من الفرص. كان وجه "البيرتين" المستدير يتخذ في نظري، في حالة الهيجان الذي يتناهي،
وقد أشرق بفعل لهيب داخليّ كأنما بفعل نور خافت، يتخذ بروزاً يبدو فيه، وهو يحاكي دوران
كرة ملتعبة، وكأنه يدور كمثّل وجوه لدى "ميكيلانجلو" يذهب بها إعصار ثابت ومدوّخ. كنت
على وشك أن أعرف رائحة هذه الثمرة الوردية المجهولة وطعمها. وسمعت رنة حثيثة متطوّلة
حاذة. كانت "البيرتين" قد قرعت الجرس بكل قوّتها.

لقد سبق أن حسبت حبّي لـ "البيرتين" لا يقوم على أمل الامتلاك الجسديّ. بيد أنّه، بعدما ظهر
لي بنتيجة تجربة ذاك المساء أن هذا الامتلاك مستحيل وبعد ما لم أشكّ أوّل يوم على الشاطئ أنّ
"البيرتين" لا بدّ متهنّكة ثمّ انتقلت إلى افتراضات وسطى، بدا لي ثابتاً على نحو نهائيّ أنّها فاضلة
حتماً. وحينما قالت لي ببرود بعد ثمانية أيّام لدى عودتها من منزل عمّتها: "إنّي أصفح عنك وبني
حتّى أسف أن بعثت الغمّ في صدرك، ولكن لا تعدّ ألبّة إلى مثلها"، اتّفق لي، عليّ عكس ماتمّ حينما
قال لي "بلوك" إنّهُ يمكن امتلاك جميع النساء، وكما لو عرفت دمية من شمع بدلاً من فتاة حقيقيّة،
أن انفصلت عنها شيئاً فشيئاً رغبتني في ولوج حياتها وفي اللحاق بها في البلاد التي قضت فيها
طفولتها وأن أطلع على يدها على حياة الرياضة، ولم يعيش فضولي الذهني للاطلاع على تفكيرها
حول هذا الموضوع أو ذاك بعد زوال اعتقادي بإمكان تقبيلها. وهجرتها أحلامي حالما كفّ عن
تغذيتها أمل امتلاك حسبته مستقلّة عنه، فألفت نفسها مذ ذاك حرّة أن تنصبّ على هذه أو تلك من

صديقات "البيرتين"، وعلى "آندريه" قبل غيرها - بحسب ما ألقى لديها من فتنة ذات يوم وحسب الإمكان والاحتمالات التي أتوقّعها في أن تحبني. بيد أنه لو لم تكن "البيرتين" موجودة فربما لم أحسّ بالمتعة التي أخذت أصيبها أكثر فأكثر في الأيام التالية من اللطافة التي تعرب لي عنها "آندريه". ولم ترو "البيرتين" لأحد عن الإخفاق الذي لحق بي لديها. لقد كانت واحدة من تلك الفتيات الجميلات اللواتي يحسّن في العين - في أسرتهن ووسط صديقاتهن وفي المجتمع - أكثر ممّن كنّ أوفر جمالاً وأوسع ثراء وذلك منذ أوّل شبابهنّ بسبب جمالهنّ، وعلى وجه الخصوص بسبب جاذبية وسحر يظللان غامضين إلى حدّ ما وربّما نشأ في احتياطيّ من الحيويّة يُقبل من حبيتهن الطبيعية بهبات أقلّ للارتواء منها، ويفعلون عليّ الدوام. كانت من نفر يُطلب منهم، قبل عمر الهوى وأكثر منه حينما يحلّ، أكثر ممّا يطلبون وحتىّ مما يمكن أن يعطوا. لقد حازت "البيرتين" على الدوام منذ طفولتها إعجاب أربع أو خمس من رفيقاتها الصغيرات، ومن بينهنّ "آندريه" التي تفوقها بكثير وتعلم ذلك (وربّما كان ذلك الجاذب الذي تمارسه "البيرتين" غير متمدّة على الإطلاق، ربّما كان في أصل المجموعة الصغيرة وأسهم في تكوينها). كان ذلك الجاذب يعمل حتّى في مواقع بعيدة بعض الشيء وفي أوساط أجمع نسبياً حيث يطلبون "البيرتين" أكثر ممّا يطلبون فتاة أكرم محتداً إن كان ثمة رقصة بطيئة حاملة يجب أن تؤدّى. وقد نجم عن ذلك عيش هزيل في كنف السيّد "بونتان" الذي كان بخيلاً فيما يقولون ويتمنّى الخلاص منها، كانت تدعى مع ذلك لا إلى حفلة عشاء فحسب، بل إلى المنازل لدى جماعات لعلّها لا تمتاز في نظر "سان لو" بآية أناقة ولكنّها تمثّل شيئاً ضخماً في نظر والده "روز موند" أو والده "آندريه"، وهما امرأتان بالغتا الثراء ولكنّهما لا تعرفان تلك الجماعات. وهكذا كانت "البيرتين" تقضي في كلّ عام بضعة أسابيع لدى أسرة أحد محافظي بنك فرنسة، وهو رئيس مجلس إدارة شركة كبرى للخطوط الحديدية. وكانت زوجة رجل المال هذا تستقبل في بيتها شخصيات هامّة ولم تقلّ ألبنة عن "يومها" لوالدة "آندريه" التي كانت ترى أن تلك السيّدة غير مهذّبة ولكن الأمر لا يقلّل من اهتمامها البالغ بكلّ ما كان يجري عندها. وكانت لذلك تحت "آندريه" في كلّ عام على دعوة "البيرتين" إلى دارتهم فذلك من أعمال البرّ، تقول، أن تفسح مجال الإقامة على شاطئ البحر لفتاة لا تملك بنفسها وسيلة السفر وتكاد عمتها لا تهتمّ بها. ووالدة "آندريه" لم يكن يدفعها على الأرجح أمل أن يكوّن محافظ البنك وزوجته، إذ يبلغها أنّها وابنتها يغمران "البيرتين" بحبّهما، رأياً حسناً فيهما، وهي بالأحرى لا تأمل أن تفلح "البيرتين"، مع أنّها شديدة الطيبة وحاذقة، في دعوتها أو دعوة "آندريه" على الأقلّ إلى حفلات الحدائق لدى رجل المال. ولكنّما يبهجها كل مساء في أثناء العشاء، فيما تتخذ هيئة متعالية لا مبالية، أن تسمع "البيرتين" تروي لها عمّا جرى في القصر حينما كانت هنالك وعن الناس الذين استقبلوا فيه والذين تعرفهم جميعاً على وجه التقريب بالمشاهدة أو بالاسم. ثم إن الفكرة التي قوامها أنّها لا تعرفهم إلّا على هذا النحو، يعني أنّها لا تعرفهم، (وتدعو ذلك معرفة الناس منذ "أقدم الأزمان") كانت تضفي على صوت والدة "آندريه" أسئلة حولهم بهيئة متعالية ساهية ومن أطراف شفيتها، ولعلّها كان يمكن أن تدعها غير واثقة وقلقة بشأن أهميّة منزلتها الخاصّة لو لم تطمئنّ نفسها وتتخذ مكانها في "واقع الحياة" بقولها لرئيس الخدم: "قل لرئيس الطهاة أن البازلاء لم تكن "ذائبة" إلى حدّ كاف". وإذ ذاك كان

يعود إليها هدوؤها. وكانت مصممة تماماً على ألا تتزوج "أندريه" سوى رجل من أسرة رفيعة بالطبع بيد أنه على ثراء يمكنها هي الأخرى من اقتناء طائر وحوديين. هو الجانب الإيجابي والواقع الفعلي لوضع ما. فأمّا أن "البيرتين" تناولت عشاءها في قصر محافظ البنك مع هذه السيدة أو تلك، وأن هذه السيدة بلغ بها الأمر أن دعته في الشتاء المقبل فأمر يضيف على الفتاة في نظر والده "أندريه" نوعاً من التقدير الخاص الذي يقترب خير اقتران بالشفقة وحتى بالازدراء اللذين يثيرهما سوء طالعها، والازدراء يضاعف منه أن السيد "بونتان" خان، فيما يقولون، علمه وانضم إلى الحكومة - مع أنه ضالع إلى حد ما في فضيحة فتاة "بنما" على حد زعمهم - ولم يكن ذلك يحول دون أن تصب والدته "أندريه" نار ازدراءها، حباً بالحقيقة، على رؤوس أولئك الذين يبدو أنهم يحسبون "البيرتين" من أصل وضع. "ويحكم، إنهم من خيرة الناس، فهم من آل "سيموني" بنون غير مشددة". صحيح أنه بسبب الوسط الذي تتم فيه الأمور والذي يمثل فيه المال مثل هذا الدور وتضمن لك الأناقة فيه الدعوات لا الزواج ما كان يبدو ثمة أن أيّ زواج "مقبول" يمكن أن يجيء بالنسبة إلى "البيرتين" كنتيجة مفيدة للتقدير المرموق الذي تتمتع به والذي لعلمهم لا يرون أنه يعوّض فقرها. بيد أن هذا "النجاح" بمفرده، وإن لم يحمل معه أمل نتيجة في حقل الزواج، كان يثير حسد بعض الأمهات الشريرات، وقد أثار حنقهن أن يرين "البيرتين" تستقبلها استقبال "بنت البيت" زوجة محافظ البنك وحتى والده "أندريه"، ويكدن لا يعرفهما. ولكن يلقن لذلك لأصدقاء مشتركين بينهما وبين تينك السيدتين إن هاتين الأخيرتين سوف تثوران إن هما عرفنا الحقيقة، يعني أن "البيرتين" كانت تروي في منزل الأولى (والعكس بالعكس) وكلّ جوّ الألفة الذي تمّ قبولها فيه على نحو متهور بالكشف عنه في منزل الثانية من تلك الأسرار الصغيرة التي لا حصر لها والتي ربما أزعج المعنى أزعاجاً لا محدوداً أن يُكتشف سرّها. كانت تلك النساء الحاسدات يقلن ما يقلن بغية أن يتمّ ترداد الأمر وكما يقع الخلاف بين "البيرتين" ومن أخذنها في كنهن. بيد أن تلك المهمات لم تكن تحظى بأيّ نجاح، كما يتفق ذلك في الغالب. فقد كانت تفوح منها رائحة المقصد الشرير الذي يملئها وما كان من جرّاء ذلك سوى تزايد في احتقار اللواتي اتخذن تلك الباردة. أمّا والدته "أندريه" فقد كان موقفها من "البيرتين" أثبت من أن تغير رأيها فيما يخصّها. كانت تنظر إليها بمثابة فتاة "منكودة الحظ" ولكنها ذات طبيعة ممتازة ولا تعرف في سبيل إشاعة السرور إلا الاختلافات.

ولئن بدا أن هذا الضرب من الشهرة الذي حازته "البيرتين" لا يتضمّن بالضرورة أية نتيجة عملية فقد طبع صديقة "أندريه" بالطابع المميز لأشخاص لا حاجة بهم ألبة، وهم ممن يُسعى إليهم على الدوام، أن يعرضوا أنفسهم (وهو الطابع الذي نلقاه كذلك لأسباب مشابهة في طرف آخر من المجتمع لدى نساء بأناقة عظيمة) وقوامه ألا يبرزوا النجاحات التي يصيبنها بل أن يخفوها بالأحرى. فما كانت ألبة تقول عن أحدهم: "إنه راغب في لقائي"، وكانت تتحدّث عن الجميع بعطف كبير وكما لو جرت هي خلف الآخرين وسعت إليهم. وإن دار الحديث عن شاب قام قبل بضع دقائق بتوجيه أقسى أنواع اللوم إليها في مقابلة خاصة بينهما لأنها رفضت أن تضرب له موعداً، كانت تنثني عليه عوضاً عن أن تفخر بالأمر علناً أو أن تضمّر له الحقد، وتقول: "ما أطفه فتى!" بل

كان يزعمها أن تروق إلى هذا الحد لأن ذلك يضطرها أن تغمّ الناس فيما تودّ بطبيعتها أن تشيع السرور في نفوسهم. لقد كانت تحبّ إبهاج الناس حتى لقد بلغ بها الأمر أن تمارس كذباً خاصاً ببعض الأشخاص النفعيين أو بعض من نجحوا في الحياة. وقوام هذا النوع من قلة الصراحة المتوافر في حالة بدائية لدى عدد ضخم من الناس أن لا يستطيع الاكتفاء، في محال عمل واحد، بأن يشيع السرور بفضلها في نفس شخص واحد. فإن رغبت عمّة "البيرتين"، على سبيل المثال، ترافقها ابنة شقيقها إلى حفلة بعد الظهر لا تشرح الصدر كثيراً فقد كان يمكن أن تكتفي "البيرتين" بحضورها إليها بأن تستخلص منها الفائدة الأدبية بأنها أرضت عمتها. ولكنها كانت تفضل، وقد أحسن أرباب المنزل استقبالها، أن تقول لهم إنها راغبة منذ فترة طويلة جداً في لقاءهم حتى إنها اختارت هذه الفرصة والتمست الإذن من عمتها. بل لم يكن ذلك كافياً، ففي تلك الحفلة واحدة من صديقات "البيرتين" تعاني من غمّ كبير. وتقول لها "البيرتين": "لم أشأ أن أدعك وحدك وفكرت أن وجودي بالقرب منك قد يكون مفيداً لك. فإن شئت أن تترك الحفلة وأن نمضي إلى مكان آخر فسوف أفعل ما تريدني فإني أرغب قبل كل شيء أن ألقاك أقلّ اغتناماً" (والأمر صحيح أيضاً على أية حال). بيد أنه كان يتفق أحياناً أن تفسد الغاية الوهميّة الغاية الحقيقيّة. من ذلك أن "البيرتين" كانت تذهب، في سبيل خدمة تطلب بها لإحدى صديقاتها، للقاء إحدى السيّدات. ولكن الفتاة كانت ترى، بعدما وصلت إلى منزل تلك السيّدة الطيبة الودود، أنها تبدي وداداً أكثر في أن تظهر وكأنها جاءت لمحض المتعة التي أحست أنها ستشعر بها في لقاء تلك السيّدة، وهي تنقاد على غير علم لمبدأ الاستخدام المضاعف لفعلة واحدة. ويؤثر في السيّدة أعظم التأثير أن تكون "البيرتين" قطعت مسافة طويلة بفعل الصداقة المحضة. وكانت "البيرتين" إذ ترى السيّدة متأثرة النفس إلى حدّ ما تزداد حبّاً بها. ولكنّها كان يتفق الأمر التالي: لقد كانت تحسّ بمتعة الصداقة التي أدّعت كذباً أنها جاءت من أجلها إحساساً حاداً إلى درجة تخشى معها أن تحمل السيّدة على الشكّ بمشاعر صادقة بالحقيقة إن هي طلبت تلك الخدمة لصديقتها. فقد تحسب السيّدة أن "البيرتين" جاءت لذلك، والأمر الصحيح، ولكنها قد تخلص إلى أن "البيرتين" لا تحسّ بمتعة متجرّدة في رؤيتها، والأمر باطل. وهكذا كانت "البيرتين" تعود أدراجها دون أن تكون طلبت الخدمة، كالرجال الذين أبدوا لامرأة بأمل أن ينالوا حظوة لديها قدرّاً من اللطف كبيراً حتى أنهم لا يقدمون على البوح بعواطفهم كيما يدعوا لذلك اللطف طابعاً من النبل. وفي حالات أخرى لا يمكن القول إنه قد تمّت التضحية بالغاية الحقيقيّة في سبيل الغاية الثانويّة والمتخيلة بعد الأوان، ولكنّ الأولى تعارض الثانية إلى الحدّ الذي لو علم معه الشخص الذي هزّت "البيرتين" مشاعره بالإعراب له عن الأولى بالغاية الثانية لانقلبت غبطته في الحال إلى أعظم صنوف الغمّ، وسوف تسهلّ تتمّة القصّة فيما بعد فهم هذا النوع من التناقضات. ولنقل باللجوء إلى مثال نستقي من نوع من الوقائع المختلفة تماماً أنها كثيرة جداً في أكثر أوضاع الحياة اختلافاً. فهذا زوج أسكن عشيقته في المدينة التي يعسكر فيها. أمّا زوجته التي ظلت في باريس، وهي نصف مطلّعة على الحقيقة، فتتغمّ وتسطر لزوجها رسائل زاهرة بالغيرة. وتضطرّ العشيقّة أن تحيي لقضاء يوم في باريس ولا يستطيع الزوج أن يقاوم توسّلاتها إليه بمرافقتها ويحصل على أذن لأربع وعشرين ساعة. وبما أنه يمتاز بالطيبة ويتألم لأنه يغمّ زوجته فإنّه

يصل إلى منزلها ويقول لها وهو يسكب بضع دمعات صادقة إنه طار صوابه من جرّاء رسائلها فلقبي وسيلة للهرب كيما يحيى ليعزيها ويعانقها. وهكذا وجد وسيلة يقدم بها بسفرة واحدة دليل حبّ لعشيقته وزوجته في آن واحد. ولكن إن اتفق أن تطلع هذه الأخيرة لأي سبب حضر إلى باريس فسوف تنقلب غيبتها ألماً دونما شك، إلا إذا أولتها رؤية ناكر الجميل على الرغم من كلّ شيء سعادة أعظم من العذاب الذي يحمله إليها باكاذيه. ومن بين الرجال الذين بدا لي أنهم يمارسون طريقة الغايات المتعدّدة بأكبر قدر من المثابرة نجد السيّد "دونوربوا". فقد كان يقبل التدخّل أحياناً بين صديقين متخالفين وكان يدعى لذلك أكثر الناس لطفاً. ولكنّه ما كان يكفيه أن يبدو وكأنّه يؤدي خدمة لذاك الذي جاء يلتصقه، بل كان يقدم للآخر المسعى الذي يقوم به لديه وكأنّه تمّ لابتناء على طلب الأول بل في صالح الثاني، الأمر الذي كان يُقنع به ييسر مخاطباً أوحى إليه سلفاً بأنّ "أكثر الرجال مروءة" مائل أمامه. وكان على هذا النحو لا يحازف ألبتة بنفوذه إذ يعمل على الحائنين ويقوم بما يسمى في لغة العمل من وراء الكواليس "العوض المقابل" وما كانت الخدمات التي يؤدّيها تشكّل استلاباً لنفوذه بل استثماراً لجزء منه. وكانت كلّ خدمة من جهة ثانية، إذ تبدو وكأنّها أدّيت على نحو مضاعف، إنما تضاعف بالمقدار نفسه صيته على أنّه صديق خدوم، بل صديق يخدم بفعاليّة ولا يضرب ضربات في الهواء وتثمر جميع مساعيه، الأمر الذي يقيم البرهان عليه امتنان المعنّين بالأمر. كان ذلك النفاق في المعروف المُسدّي، ترافقه صنوف من التكلّيب كما هو أمر أيّ مخلوق بشريّ، يؤلّف جزءاً هاماً من طباع السيّد "دونوربوا". غالباً ما استخدمت والذي في الوزارة، وكان على شيء من السداحة، إذ يحمله على الاعتقاد بأنّه يؤدّي خدمة له.

ولما كانت "ألبيرتين" تروق الناس فوق ما تبغي ولا حاجة بها للمناداة بما يحالفها من نجاح، فقد لومت الصمت حول ما جرى لها معي بالقرب من سريرها وما ودّت امرأة قبيحة لو تعلنه على الملأ. ولم أفلح على أيّة حال أن أفسر لنفسي موقفها في ما جرى لها. ففي ما يتعلّق بفرضيّة الفضيلة المطلقة (تلك الفرضيّة التي رددت إليها باديء الأمر العنف الذي رفضت به "ألبيرتين" أن تدعني أعانقها وآخذها بين ذراعيّ) ولم تكن إلى ذلك لازمة على الإطلاق للتصوّر الذي أحمله عن طيبة صديقتي واستقامتها الفطريّة)، لم أتوان عن تعديلها مرّات ومرّات. فما أكثر ما كانت تلك الفرضيّة تناقض تلك التي ابتنتها في اليوم الأوّل الذي أبصرت فيه "ألبيرتين" ثم إن الكثير من الأفعال المختلفة، وكلّها تزخر باللطف حيالي (لطف رقيق قلق خائف غيور من تفضيلي لـ "آندريه")، كانت تغمر من كلّ جانب الخشونة التي شدّت بها حبل الجرس كي تغلّت مني. فلمّ طلبت إليّ إذن أن أبادر لثمضية الأمسية بالقرب من سريرها؟ ولمّ كانت تتحدّث طوال الوقت حديث الحنان؟ وعلى أيّ أساس تقوم الرغبة في لقاء صديق وخشية أن يفضّل عليك صديقك ومحاولة إشاعة الغبطة في نفسه وقولك له بطريقة خياليّة إنّ الآخرين لن يعلموا بأنّه قضى الأمسية بالقرب منك إن كنت تحجب عنه متعة بسيطة إلى هذا الحدّ وإن لم تكن متعة بالنسبة إليك؟ وما كان يمكن أن أبلغ حدّ الاعتقاد بأن فضيلة "ألبيرتين" قد وصلت إلى هذا المدى، وقد بلغ بي الأمر أن أتساءل إن لم يكن لعنفها سبب أملاه الغنج من مثل رائحة مزعجة حسبت أنها تحملها وخشيت بها أن تسوء لديّ، أو

أملاه الحجب إن هي ظنّت مثلاً، في جهلها لواقع الحبّ، إن حالة الوهن العصبيّ لديّ يمكن أن تحمل بعض العدوى عن طريق القبلة.

لقد اغتمت بالتأكيد إن لم تستطع إرضائي وأعطيتني قلماً صغيراً من ذهب بفعل هذا الانحراف في مجرى الفضيلة لدى الناس الذين يهزّ لطفك مشاعرهم ولا يوافقون على منحك ما يطالب به ولكنهم يودّون أن يفعلوا شيئاً آخر في صالحك: فالناقد الذي قد تدغدغ مقالته مشاعر الروائي يدعوه عوضاً عنها إلى العشاء، والدوقة لا تصطحب المتحدلق إلى المسرح ولكنها تقدّم له مقصورتها في أمسية لا تشغلها فيها، فما أكثر ما تدفع رفاة الإحساس أولئك الذين يفعلون أقلّ الممكن، وقد يستطيعون ألاّ يفعلوا شيئاً إلى أن يفعلوا شيئاً ما. وقلت لـ "البيرتين" إنها توليني إذ تعطيني هذا القلم غبطة عظيمة ولكنها مع ذلك دون تلك التي كنت أصبتها لو أنها سمحت لي بتقبيلها مساء اليوم الذي جاءت فيه للنوم في الفندق. "كنت سوف أسعد بالأمر إلى أبعد حدّ! وما الذي كان يمكن أن يجرّه عليك؟ إنني أدهش أن تكوني حبيته عني." وأجابتي بقولها: "إنّ ما يدهشني أن ترى ذلك مدهشاً. إنني أتساءل آية فتيات تسنى لك أن تعرف حتى أذهلك سلوكي." - "إنني مغتمّ لأنني أغضبتك، بيد أنّي حتى الآن لا يمكنني أن أقول لك إنني أرى أنّي أخطأت. ولديّ أنّ تلك أمور لا شأن لها ألبتة، ولست أفهم كيف لا ترتضيها فتاة تستطيع إشاعة السرور بهذه السهولة." وأضفت لأرضي إلى حدّ ما أفكارها الأخلاقية، وقد تذكرت كيف سبق أن نذّدت هي وصديقاتها بسلوك صديقة الممثلة "ليا": "دعينا نتفق، فلست أعني أن الفتاة تستطيع أن تفعل ما تشاء وأن لا شيء ينافي الأخلاق. خذي مثلاً تلك العلاقات التي كنت تتحدّثن ذاك اليوم عنها بشأن فتاة صغيرة تقطن "بالبيك" والتي يقال إنها قائمة بينها وبين إحدى الممثلات، فإنني أجد ذلك شائناً إلى حدّ أنّي أحسب أنّه ربّما اختلق ذلك أعداء للفتاة وأنّ الأمر غير صحيح. فلذلك يبدو لي بعيد الاحتمال ومستحيلاً. فأنا أن يسمح المرء بقبلة، بل بأكثر لصديق، بما أنّك تقولين إنني صديقك..." - "وإنّك لذلك، ولكنما كان لي أصدقاء آخرون قبلك، وقد عرفت شاباً أو كد لك أنّهم كانوا يكتنون لي مقدار ما تكن لي من صداقة. ولكن ليس من بينهم من كان يجرؤ على إثبات أمر مماثل، إذ هم يعلمون آية لطمتين توفيانهم. وما كانوا يفكّرون في ذلك على آية حال، فقد كنّا نشدّ على أيدينا بمشاعر الصراحة والصداقة وعلى أنّنا محض رفاق. وما كان ليخطر أن نبادل القبل ولم نكن لذلك أقلّ صداقة. هيّا، إن كنت تهتمّ بصداقتي فيمكنك أن تبتهج إذ ينبغي أن أحبّك كثيراً كي أصفح عنك. ولكنني متيقّنة أنّك لا تبالي بي ألبتة. هيّا اعترف أن "آندريه" هي التي تعجبك. وإنّك في الأساس على حقّ فهي أكثر لطفاً مني، وإنّها لفاتنة! آه! يا للرجال!" كانت تلك الكلمات الصريحة إلى هذا الحدّ تختلف فيّ على الرغم من خيبة أمني القريّة انطباعاً لذيذاً جدّاً إذ تبعث في نفسي تقديراً كبيراً لـ "البيرتين". وربّما جرّ عليّ هذا الانطباع فيما بعد نتائج كبيرة ومؤسفة، فقد شرع يتكوّن في نفسي بسببه ذلك الشعور العائلي تقريباً، تلك النواة الأخلاقية التي سوف تقوم على الدوام داخل حبيّ لـ "البيرتين". ومثل هذا الشعور يمكن أن يكون سبب أشدّ صنوف الغمّ. فكيفما يتعدّب المرء حقاً بسبب امرأة لا بدّ أن يكون وثق تماماً بها. أمّا الآن فقد ظلّت نواة التقدير الأخلاقي والصداقة تلك كمثل

حجر انتظار داخل نفسي، ولعلها ما كانت تستطيع بمفردها شيئاً ضدَّ سعادتني لو بقيت على حالها، دون أن تتنامى، في حمل كانت ستظلُّ عليه في العام التالي وبحجَّة أولى في هذه الأسابيع الأخيرة من إقامتي الأولى في "باليك". لقد كانت في داخلي كواحد من أولئك الضيوف الذين ربَّما كنَّا على الرغم من كلِّ شيء أكثر تبصراً لو نظردهم، ولكننا ندعهم في مكانهم دون أن نزعجهم لشدة ما يجعلهم ضعفهم وعزلتهم داخل نفس غريبة عديمي الأذى.

لقد لقيت أحلامي أنها أضحت الآن حرَّة أن تنصبَّ على هذه أو تلك من صاحبات "البيرتين" وعلى "أندريه" قبلهنَّ جميعاً، "أندريه" التي ربَّما كان تأثير ألفتها أقلَّ في نفسي لو لم أتأكد أنَّ "البيرتين" سوف تعلم بها. صحيح أنَّ الميل الذي تظاهرت به منذ فترة طويلة حيال "أندريه" قد زوَّدني - على صعيد عادات المحادثة وصنوف الإعراب عن المودة - بما يشبه مادة حبِّ جاهز لينصبَّ عليها ولم ينقصه حتى الآن سوى أن تنضاف إليه عاطفة كان يمكن أن يقدمها الآن فوادي وقد عاد حراً طليقاً. بيد أنَّ "أندريه" كانت شديدة الميل إلى أمور الفكر مفرطة العصبية كثيرة العلل شديدة الشبه بي كيما أحبها حقاً. ولئن كانت "البيرتين" تبدو لي الآن فارغة فقد كانت "أندريه" ملأى بأمر أعرفه حقَّ المعرفة. فقد نطت في اليوم الأوَّل أنني أبصر على الشاطئ عشيقة عداء يسكرها حبُّ الرياضة، وقالت لي "أندريه" إنها شرعت تمارسها فقد كان ذلك بناء على أمر طبيها لمعالجة ضعف أعصابها واضطراباتها الغذائية، ولكنَّ أفضل ساعاتها تلك التي تترجم فيها رواية لـ "جورج إيليويت". ولم ترتدَّ عييتي، وهي نتيجة خطأ أولي حول ما كانت عليه "أندريه"، لم ترتدَّ في الواقع آيةً خاطرة بالنسبة إليَّ. ولكنَّ الخطأ كان من صنف تلك التي، إن هي سمحت للحبِّ أن يتفتح ولم يتمَّ تعرفها بمثابة أخطاء إلا بعد ما يتعدَّل التبديل فيه من بعد، أضحت علَّة آلام. وتلك الأخطاء - التي يمكن أن تكون مختلفة عن الأخطاء التي وقعت فيما يخصَّ "أندريه" وحتى على عكسها - إنما تعود في الغالب، وفي حالة "أندريه" بوجه خاص، إلى أننا نتخذ إلى حدِّ ما مظهر وأساليب ما لسنَّا عليه، ولكننا نود أن نكونه، كيما نخدع للوهلة الأولى. فالتصنع والتقليد والرغبة في إثارة إعجاب الأختار أو الأشرار إنما تضيف إلى المظهر الخارجي خدع الكلام والحركات. هناك صنوف من الوقاحة والقسوة لا تصمد أمام الامتحان أكثر مما يتمُّ لبعض مظاهر الطيبة والأريحية. وكما أننا كثيراً ما نكتشف بخيلاً متباهياً في رجل اشتهر بصدقائه كذلك يحملنا التبحُّج بالرديلة على افتراض مومس في فتاة شريفة تعجَّ نفسها بالآراء المتحجِّرة. لقد ظننت أنني واجد في "أندريه" مخلوقة معافاه فطرية في حين لم تكن سوى كائن يبحث عن العافية كما ربَّما كان أمر كثيرين من الذين خالت أنها تلقاها لديهم وما كانت تملك من حقيقتها أكثر مما يبدو بدين مصاب بالتهاب المفاصل أحمر الوجه ذو سترة من الفانيلا البيضاء "هرقلاً" محتماً. ولكنَّ ثمة ظروفاً ليس سواء فيها بالنسبة إلى السعادة أن يكون الشخص الذي أحبيناه بما كان يبدو أنه معافي لديه، أن يكون بالحقيقة واحداً من أولئك المرضى الذين لا تأتيمهم العافية إلا من غيرهم مثلما تستمدُّ الكواكب نورها ومثلما لا تقوم بعض الأجسام إلا بتمير الكهرباء.

وما همَّ، لقد كانت "أندريه"، شأن "روزموند" و "جيزيل"، بل كانت أكثر منهما صديقة لـ "البيرتين" تشاطرها حياتها وتقلد سلوكها حتى إنني في اليوم الأوَّل لم أميز بادئ الأمر بين هذه

وتلك. فبين تلك الفتيات، بين سوق الورود التي قوام سحرها أن تبرز على صفحة البحر، كان يسود اللانقسام نفسه كما في العهد الذي لم أكن أعرفهن فيه بعد والذي كان يبعث في ظهور آية منهن أشد الانفعال إذ ينبئني بأن المجموعة الصغيرة لم تكن بعيدة. ولا تزال الآن مشاهدة إحداهن توليني متعة تداخلها ضمن نسبة لعلني لا أستطيع تحديدها متعة أن أرى الأخريات يتبعنها على الأثر أو يأتين للقائها بعد ذلك بقليل، فإن لم يجتن في ذلك اليوم فأن تتحدث عنهن وأن أعلم أنه سوف ينقل إليهن أنني ذهبت إلى الشاطئ.

فلم يعد الأمر مقصوراً على جاذب الأيام الأولى بل كان ثمة نزوع حقيقي إلى الحب يتردد بينهن جميعاً لشدة ما تبدو كل واحدة منهن بديلاً للأخرى على نحو طبيعي. ولعل أعظم حزن لدي ما كان أن تهجرني من فضلت من بين تلك الفتيات، ولكنني كنت فضلت في الحال تلك التي هجرتني لأنني أكون قد ثبتت عليها مجمل الكتابة والأحلام التي كانت تنتقل على نحو غير محدد بينهن. ولعلني كنت في هذه الحالة سوف أتأسف من خلالها على نحو غير واع على جميع صديقاتها اللواتي ربما فقدت في أعينهن عمّا قليل كل مهابة، إذ خصصتهن بهذا النوع من الحب الجماعي الذي يحمله رجل السياسة والممثل للجمهور الذي لا يجدان عزاء ينسيهما أنه أهملهما بعدما غمرهما بجميع الامتيازات. فحتى تلك التي لم أستطع الحصول عليها لدى "البيترين" كنت آمل الحصول عليها فجأة لدى هذه أو تلك ممن فارقنني في المساء وقلن لي كلمة ورميني بنظرة يكتنفهما اللبس فكان شوقي إنما يتجه بفضلها إلى هذه الأخيرة نهراً كاملاً.

لقد كان يتنقل بينهن بنشوة تتزايد بقدر ما أخذ يبدو على تلك الوجوه الرجراجرة ثبات نسبي في القسمات كاف كيما يمكن تمييز الصورة الطيبة غير الثابتة وإن انبغى أن تتغير بعد. وفي مقابل الفروق القائمة بين تلك الوجوه كان من العسير دونما شك أن تقوم فروق مساوية في طول القسمات وعرضها. تلك القسمات التي ربما أمكن أن تتطابق تقريباً مهما بدت مختلفة بين واحدة من تلك الفتيات وأخرى. بيد أن معرفتنا للوجوه ليست رياضية. فهي لا تبدأ أول الأمر بقياس الأجزاء وإنما نقطة انطلاقها تعبير ونظرة مجمل. فقد كان يبدو لدى "أندريه" مثلاً أن رقة العينين العذبتين تلحق بالأنف الضيق الدقيق دقة محض خط منحن تم رسمه كيما يمكن أن يتوالى على الخط نفسه مقصد النعومة التي قُسمت قبلاً في ازدواج بسمة النظرتين التوأمين. وكان خط يمثل تلك الدقة ينحفر في شعرها، خط طبع وعميق كالذي تخطه الريح في الرمال. وهو بالتأكيد وراثي هنا، لأن شعر والده "أندريه" الأبيض تماماً قد خط بالطريقة نفسها فألف بروزاً هنا وانحساراً هناك مثلما الثلج يرتفع أو يغور تبعاً لتضاريس الأرض. أما أنف "روزموند" فكان يبدو بالتأكيد، إمّا قورن برقة خطوط أنف "أندريه"، أنه يسط مساحات واسعة كمثل برج عال يقوم فوق أساس قوي. وإن كان التعبير كافياً ليحمل على الاعتقاد بفروق ضخمة بين ما يفصل بين ما كان متناهي الصغر - وإن استطاع ما كان متناهي الصغر أن يوجد بمفرده تعبيراً خاصاً تماماً ومسحة فردية - ، فليس المتناهي الصغر في الخط وحده ولا أصالة التعبير ما كان يظهر تلك الوجوه وكأنما يستحيل رد بعضها إلى بعضها الآخر. لقد كان اللون يضع بين وجوه صديقتي فاصلاً أكثر عمقاً، لا بفعل الجمال المتنوع في تدرج الألوان

التي تضيفها عليها، وهي متعارضة إلى حدّ أنني كنت أصيب أمام "روزموند" - التي يغمرها لون ورديّ تحالطه صفرة ضعيلة ويؤثر فيه ضوء العيون الضارب إلى الخضرة - وأمام "أندريه" - التي يضفي سواد شعرها على بياض وجنتيها الكثير من الأناقة البعيدة عن البهرجة - ما أصيب من متعة لو أنني تأملت بالتناوب زهرة جيرانيوم على شاطئ البحر المشمس وزهرة كاميليا في الليل، بل على وجه الخصوص لأنّ الفروق المتناهية الصغر في الخطوط قد كبرت إلى حدّ عظيم وتغيّرت نسب المساحات تغييراً كلياً بفعل عنصر اللون الجديد هذا الذي هو، بالإضافة إلى أنّه مُوزّع الدرجات اللونية، مؤلّد كبير للمساحات أو هو يعدّل فيها على الأقلّ، حتى إن وجوهاً ربّما أنشئت على نحو قليل التباين كانت تتناول أو تعرض وتضحي شيئاً مختلفاً حسبما يشرق فيها لون ورديّ بفعل أضواء شعر أصهب أو شحوب كامد بفعل النور الأبيض، شأن تلك اللوازم الملحقة في مسرحيات البالية الروسية التي قوامها أحياناً، إن أبصرت في وضوح النهار، مجرد قرص من الورق تجعله عبقرية أمثال "باكست"، حسب الأضواء الموردة أو الرمادية الشاحبة التي تغمر بها مناظر المسرح، تجعله ينغرس فيها كمثّل فيروز ترصّع واجهة أحد القصور، أو يفتّح فيها بطراوة كمثّل وردة من "البنغال" في وسط حديقة. وإذ نتعرّف الوجوه على هذا النحو فإننا نقيسها أحسن قياس ولكن بعين الفنان لا بعين المساح.

وأمر "البيرتين" كأمر صديقاتها. فقد كانت في بعض الأيام نحيلة رمادية اللون متجهّمة الوجه فيما ينحدر لون بنفسجي شافّ على خطّ مائل في أعماق عينيها فتبدو وكأنها تعاني من كآبة المنقّية. وكان وجهها في أيام أخرى، وقد ازداد ملوسة، يجمّد الأشواق على صفحته الملمّعة ويحول دون أن تمضي أبعد من ذلك، إلا إذا أبصرته فجأة جانبياً، لأنّ وجنتيها الكامدتين كمثّل شمع أبيض على صفحتيهما كانتا موردين شفوقاً، الأمر الذي كان يبعث أشدّ الرغبة في تقبيلهما وفي بلوغ هذا اللون المختلف المتهرّب. ومرة أخرى كانت السعادة تغمر تينك الوجنتين بضياء متموّج إلى حدّ أنّ البشرة، وقد أضحت مائعة مبهمّة، كانت تطلق كأنما نظرات كامنة تحتها تظهرها في غير لون العينين، لافي غير نمطهما. وحينما يتمّ النظر أحياناً، دونما تفكير في الأمر، إلى وجهها الذي انتشرت فوقه نقاط سمراء صغيرة وطففت على صفحته بقعتان مفردتان أشدّ زرقة، فكأنما الأمر ماقد يتمّ بشأن بيضة حسّون، وما قد يتمّ غالباً بشأن عقيقة لبنية اللون منحوتة، وقد صُقِلت في موضعين فقط تلتمع فيهما وسط الحجر الأسمر، كمثّل جناحين شفافين لفراشة لازوردية، العينان اللتان يصبح اللحم فيهما مرآة ويبعث فينا وهماً بأنّه يدعنا نقرب من الروح أكثر مما في بقية أجزاء الجسم. ولكنّها كانت في أكثر الأحيان كذلك أوفر لوناً وأكثر حيوية آنذاك، وأحياناً يبدو وحده مورداً في وجهها الأبيض طرف أنفها، وهو دقيق كمثّل أنف قطّة صغيرة مأكرة غالبك الشوق إلى اللعب معها. وكانت وجنتاها في بعض الأحيان مالمستين حتى لتنزلق العين، وكأنما على ميناء منعمة، فوق مينائها الورديّ الذي كان يظهره غطاء شعرها الأسود المفتوح الذي يعلوه أكثر نعومة وأكثر خفاء. وكان يتفق أن يبلغ لون وجنتيها لون زهرة "السيكلامن" الورديّ الضارب إلى البنفسجي، فيما قد يبلغ أحياناً، حينما تكون محتقنة الوجه أو محمومة وتخلّف فيّ إذ ذاك فكرة بنية مرضية تنحدر برغبتي

إلى ما كان أكثر ارتباطاً بالحواس وتحمل نظرتها بما كان أكثر فسقاً وأشدّ إفساداً، اللون الأرجواني العاتم الذي لبعض ورود من حمرة تكاد تكون سوداء. وكانت كلّ واحدة من شخصيات "البيرتين" تلك مختلفة مثلما تختلف كلّ طلعة من طلعات الراقصة التي تتبدّل ألوانها وشكلها وطابعها حسب تنقّلات الكاشف الضوئي المختلفة التي لا تحصى عدّاً. وكان ربّما بسبب التنوّع الكبير في الشخصيات التي كنت أتأملها فيها في تلك الحقبة أن اتخذتُ عادة أن أضحي بدوري شخصاً آخر حسب شخصية "البيرتين" التي كنت أفكر فيها: فغيور ولا مبال وشهواني وسوداوي المزاج وحاتق، وكلّها تنشأ من جديد لا بحسب ما يتفق من ذكرى عائدة بل حسب قوّة الظنّ القائم بيني وبينها بالنسبة إلى الذكري نفسها وبالطريقة المختلفة التي كنت أقدرها بها فيها. ذلك أنّه كان لا بدّ عليّ الدوام من العودة إلى هذا الأمر، إلى تلك الظنون التي تعمر معظم الأحيان نفوسنا على غير علم منا ولكنها مع ذلك أكثر أهميّة بالنسبة إلى سعادتنا من هذا الكائن الذي نراه لأننا إنّما نراه من خلالها وهي التي تحدّد للكائن المشاهد حجمه العابر. وربّما جذر بي كيما أكون دقيقاً أن أطلق اسماً مختلفاً على كلّ من أنواع "الأنا" التي فكّرت في "البيرتين" فيما بعد، بل ربّما جذر بي أكثر من ذلك أن أطلق اسماً مختلفاً على تعدّد وجوه "البيرتين"، تلك التي كانت تظهر أمامي، مختلفة في كل مرة، كتلك البحار - التي ادّعوها بكل بساطة البحر ابتغاءاً للتسهيل - التي كانت تتعاقب والتي كانت تبرز أمامها حوريّة تختلف كلّ مرة. بيد أنّه ربّما انبغى لي على وجه الخصوص - بالطريقة نفسها التي يعلنون بها في سياق قصّة عن الطقس السائد هذا اليوم أو ذاك ولكن على نحو أكثر جدوى بكثير - أن أطلق على الدوام اسماً على الظنّ الذي كان يسود نفسي في اليوم الذي أبصرت فيه "البيرتين" والذي كان يشكّل مناخها، فمظهر الأشخاص كمظهر البحار خاضع لتلك السحب التي تكاد لا تبصرها العين والتي تغيّر لون كلّ شيء بفعل تركّزها وتنقلها وتفرّقها ورحيلها، - كتلك التي مزّقها "إيلستير" ذات مساء حين لم يقدّمني للفتيات اللواتي توقّف معهنّ واللواتي بدت صورهن فجأة أكثر جمالاً في نظري حينما كنّ يتعدن - تلك السحابة التي عادت فتشكّلت بعد بضعة أيّام، وقد تمّت لي معرفتهنّ، تحجب بريقهنّ وتقوم في الغالب بينهن وبين عينيّ كثيفة ناعمة شبيهة بـ "ليفكونيا" (٥) لدى فيرجيليوس.

ولا ريب أن وجوههنّ جميعاً قد بدّلت بالنسبة إليّ من معناها منذ أن دلّني أقوالهن إلى حدّ ما على الطريقة التي ينبغي أن أقرأها بها، تلك الأقوال التي كنت أستطيع خصّها بقيمة تتزايد بقدر ما كنت أستثيرها بأسئلتي حسب مشيئتي وأبدّل فيها كمثّل قائم بالتجارب يسعى بتجارب مضادة إلى التثبّت مما افترض. وذلك بمحمل القول أسلوب كأي أسلوب آخر لحلّ مشكلة الوجود أن نقرب قرباً كافياً من الأشياء والأشخاص الذين بدوا لنا من بعيد جميلين غامضين كي نثبّن أنهم لا سرّ لديهم ولا جمال.

وإنها لواحدة من قواعد الصحة التي يمكن أن نختار فيما بينها. قاعدة ربّما بدا أنها غير جدية بأن

(٥) إلهة الزبد الأبيض في الأساطير اليونانية التي نقل عنها شاعر الرومان الأكبر.

يوصى بها ولكنها تولينا بعض الهدوء لقضاء الحياة وللتسليم كذلك بالموت - بما أنها تسمح بالآنا نأسف لأمر إذ تقننا بأننا بلغنا الأفضل وأنّ الأفضل لم يكن شيئاً يذكر.

لقد أحللت في أعماق أدمغة تلك الفتيات محلّ ازدراء العفاف وذكر المغامرات اليومية مبادئ شريفة ربّما أمكن أن تلين ولكنها حفظت حتّى الآن من أيّ انحراف أولئك اللواتي أخذنها من وسطهنّ البورجوازي. ولكنّ المرء حينما يخطئ منذ البداية حتّى بالنسبة إلى الأمور الصغيرة، وحينما يحملك خطأ في الافتراض أو التذكر على البحث عن صاحب قيل وقال مسيء أو عن المكان الذي أضعت فيه غرضاً ما في اتجاه خاطيء فقد يتفق ألا يكتشف المرء خطأه إلا ليستبدل به خطأ آخر وليس الحقيقة. فقد استخلصت، فيما يخصّ طريقة عيشهنّ والسلوك الذي ينبغي أن أسلكه معهنّ، كلّ النتائج من كلمة براءة التي قرأتها على وجههنّ وأنا أتحدّث إليهن حديث الألفة. بيد أنني ربّما قرأتها بطيش وفي زلّة قراءة أولى سريعة جدّاً ولم تكن مسطّرة عليه أكثر من اسم "جول فيري" على برنامج أمسية سمعت فيها للمرّة الأولى "لابيرما"، الأمر الذي لم يحلّ دون أن أوكد للسيد "دونوربوا" أنّ "جول فيري" كان يكتب، دون أيّ شكّ ممكن، افتتاحيات موسيقية.

كيف كان يمكن، فيما يخصّ آية من صديقتي في المجموعة الصغيرة، ألا يكون آخر وجه رأيته لها هو الوحيد الذي أتذكره بما أن العقل يقصي من ذكرياتنا المتعلقة بشخص ما كلّ ما لا يخدم المنفعة الفورية في علاقاتنا اليومية (حتى، بل ولا سيما، إن داخل تلك العلاقات قليل من الحبّ الذي، إذ يظلّ متعطّشاً على الدوام، إنّما يعيش في اللحظة الآتية؟ فهو يدع لسلسلة الأيام الماضية أن تكرر ولا يحتفظ بقوة إلا بالطرف الأخير، وهو في الغالب من معدن يغيّر تماماً الحلقات التي لفّها الظلام، ولا يعدّ من الواقع في الرحلة التي نقوم بها عبر الحياة سوى البلد الذي نحن الآن فيه. وما كانت انطباعاتي الأولى، وما أبعدها، لتستطيع أن تلقى عوناً في ذاكرتي على تشويهيها اليوميّ، ففي أثناء الساعات الطويلة التي كنت أقضيها في التحدّث وتناول العصورويّة واللعب مع تلك الفتيات لم أكن حتّى أتذكر أنّهنّ هنّ العذارى القاسيات الشهوانيات اللواتي أبصرتهن كأنّما في لوحة جداريّة يخطرون أمام البحر.

صحيح أن الجغرافيين وعلماء الآثار يقودونا إلى جزيرة "كالبيسو" ويكشفون عن قصر "مينوس". ولكنّ "كالبيسو" لم تعد سوى امرأة "و مينوس" سوى ملك خلّو من أيّ عنصر إلهيّ. حتّى الصفات والعيوب التي يعلّمنّا التاريخ أنها كانت إذ ذاك وقفاً على هؤلاء الأشخاص الحقيقيين تماماً فتختلف في الغالب كثيراً عن تلك التي سبق أن عزّوناها إلى الكائنات الخرافية التي تحمل الاسم نفسه. وهكذا تبدّت كلّ الأساطيرية البحرية الظريفة التي ألّفناها في الأيام الأولى. بيد أنّه ليس ممّا لاشأن له تماماً أن يقع لنا أحياناً على الأقلّ أن نقضي وقتنا في ألفة ما ظلّناه عزيز المنال وتقنا إليه. وإنه ليظلّ دوماً في عشرة الأشخاص الذين ألفيناهم بادئ الأمر غير محبين. حتّى داخل المتعة المصطنعة التي نتلوّقها في نهاية المطاف معهم، الطعم الفاسد للمعايب التي أفلحوا في إخفائها. أمّا في علاقات كالتي كانت تربطني بـ "البيرتين" وصديقاتها فإن المتعة الحقّة التي تقوم في أساسها إنّما

تخلّف هذا العطر الذي لا تفلح أية خدعة في إضافتها على الفاكهة التي استبقت أوانها والأعنان التي لم تنضج في الشمس. والمخلوقات الخارقة التي سبق أن كُنْها لحظّة بالنسبة إليّ كانت لا تزال تضع حتى دون علمي بعض الروعة في أكثر صلاتي بهنّ تفاهة أو كانت بالأحرى تصونها من أن يصيبها شيء من التفاهة في يوم. لقد بحث شوقي بنهم شديد عن دلالة العيون التي كانت الآن تعرفني وتبتسم لي ولكنها التقت أوّل يوم بنظراتي كمثّل أشعة من عالم آخر، ووزع بسخاء ودقّة عظيمين اللون والعطر على المساحات اللحميّة لتلك الفتيات اللواتي كنّ يقدّمن لي ببساطة وهن مستلقيات فوق الجرف السندويش أو يلهين بالحزازير إلى حدّ أني غالباً ما كنت أنظر بعد الظهر وأنا مستلق - شأن أولئك الرّسّامين الذين إذ يبحثون عن عظمة القديم في الحياة الحديثة يصفون على امرأة تُقصّ ظفر قدمها نبل "نازع الشوكة"، أوهم على غرار "روبس" يصنعون آلهات من نسوة من معارفهم كيما يؤلّفوا مشهداً أساطيرياً - إلى تلك الأجسام الجميلة السمرء أو الشقراء المتعارضة في نماذجها إلى حدّ بعيد والتي تنتشر من حولي فوق العشب، أنظر إليها دون أن أفرغها ربّما من كامل المحتوى الضحل الذي ملأتها به التجربة اليوميّة وكما لو أنّي مع ذلك (دون أن أندكّر بوضوح منشأها السماوي) ألهو وسط حوريّات الماء على غرار "هرقل" أو "تيليمachus".

ثمّ انتهت الحفلات الموسيقية وحلّ الطقس الرديء وغادرت صديقتاي "بالبيك" لاكلهنّ سوّيّة، كمثّل طيور السنونو، ولكن في الأسبوع نفسه. ورحلت "البيرتين" أوّل الراحلات على نحو مفاجئ دون أن تستطيع أيّ من صديقاتها أن تفهم لا آنذاك ولا فيما بعد لماذا عادت فجأة إلى باريس حيث لا تدعوها أعمال ولا تسليات. "لم تقل ماذا ولا لماذا، ثمّ ذهبت"، تغمغم فرانسواز التي ربّما ودّت على أيّة حال أن تفعل ما فعلت. لقد أخذت تجدنا ثقلأ إزاء المستخدمين، مع أنهم تناقصوا عدداً إلى حدّ بعيد ولكننا يستبقّهم النزلاء القلّة الباقون، وإزاء المدير الذي كان يبدّد ماله. والحقّ أن الفندق الذي قارب أن يغلق أبوابه قد شهد منذ فترة طويلة رحيل جميع الناس، فلم يكن في يوم ممتعاً إلى هذا الحدّ. وما كان ذلك رأي المدير، فعلى امتداد الصالات التي تجمد الجسم والتي لم يعد يسهر على بابها أيّ خادّم كان يدرع الممرّات وهو يرتدي سترة رسمية جديدة، وقد عُني به الحلاق حتى ليبدو وجهه الباهت وكأنّما قوامه مزيج يقابل فيه جزءٌ من اللحم ثلاثة أجزاء من المساحيق، ولا يكف عن تبديل ربطات عنقه (فهذه الأناقات أقلّ كلفة من تأمين التدفئة والاحتفاظ بالمستخدمين، وربّ امرئ لا يستطيع من بعد أن يبعث بعشرة آلاف فرنك إلى إحدى المبرّات ولكنه لا يزال من اليسير عليه أن يتظاهر بالكرم فيعطي مئة فلس إكرامية لعامل البرق الذي يجيئه ببرقيّة). كان يخيّل إليك أنّه يتفقدّ العدم وأنّه يبغى بفضل جودة ملبسه الشخصي أن يعطي طابعاً مؤقتاً لمظهر الفاقة الذي تحسّه في هذا الفندق الذي لم يكن جيّد الموسم. وكان يبدو وكأنّه شبح سلطان يعود ليسكن الخرائب التي كانت بالأمس قصره. ولقد استاء على وحه الخصوص حينما توقّف الخط الحديدي المحلي عن الخدمة حتى الربيع الآتي إذ لم يعد يتوافر له العدد الكافي من المسافرين. كان المدير يقول: "ما ينقصنا ههنا إنّما هو وسائل النقل". وكان يخطط لمشروعات ضخمة في السنوات التالية على الرغم من العجز المالي الذي يسجّله. ولما كان مع ذلك قادراً على

أن يحفظ تعابير جميلة حفوظاً دقيقاً حينما كانت تنطبق على الصناعة الفندقية وتفضي إلى تعظيمها، فقد كان يقول: "لم يتوافر لي العون الكافي مع أنه كان لديّ في قاعة الطعام فريق جيد، ولكنّ الخدم لم يكونوا على مثل ما أتمنى تماماً. وسوف ترى آية كتيبة سأوفق إلى جمعها في العام القادم." وابتظار ذلك كان يضطرّه توقّف خدمات "مكتب بالبيك المركزي" أن يرسل من يجيء بالرسائل، وأحياناً من يصطحب المسافرين في عربة صغيرة. وكنت كثيراً ما أطلب بالصعود إلى جانب الحوديّ، الأمر الذي سمح لي أن أقوم بنزهات في جميع حالات الطقس. شأني في الشتاء الذي قضيته في "كومبريه".

على أن المطر الشديد كان يحتجزنا أحياناً، أنا وحدثي، بما أن المقصف مغلق، في حجرات خالية تماماً تقريباً، وكأننا في أسفل سفينة حينما تهبّ الريح، حيث يجيء إلينا كلّ يوم وكأننا في أثناء رحلة بحرية شخصية جديدة من بين أولئك الذين قضينا ثلاثة أشهر بالقرب منهم دون أن نتعرف بهم، رئيس قضاة "رين" ونقيب المحامين في "كان" وسيدة أميركية وبناتها، فيأخذون بالتحديث إلينا ويتدعون طريقة، أيّ طريقة، يجدون الساعات بها أقلّ تطاولاً فيكشفون عن موهبة ما ويعلموننا لعبة ويدعوننا إلى احتساء الشاي أو عزف الموسيقى والاجتماع بنا في ساعة معينة وإلى المزج بين هذه الصنوف من الترفيه التي تملك السرّ الحقيقي في إمتاعنا الذي قوامه ألا نطمح إليه بل أن نستعين به على قضاء ساعات سامنا، ويرتبطون أخيراً بنا في أواخر إقامتنا بصداقات كان رحيلهم المتعاقب في الغداة يوقف مجراها. وبلغ بي الأمر أن تعرّفت بالشابّ الثريّ وبأحد صديقيه النييلين وبالمثلة التي عادت لقضاء بضعة أيام، ولكنّ الجماعة الصغيرة لم يؤلّفها سوى ثلاثة أشخاص، فقد عاد الصديق الآخر إلى باريس. وطلبوا إليّ موافاتهم لتناول طعام العشاء في مطعمهم، وفي ظنّي أنّهم سرّوا إلى حدّ ما أنني لم أقبل. على أنّهم قاموا بالدعوة على اللطف نحو ممكن، ومع أنّها وردت بالحقيقة من جانب الشابّ الثريّ بما أنّ الآخرين كانوا ضيوفاً عليه، فقد قالت لي الممثلة كيما تدغدغ مشاعري، بما أن الصديق الذي كان يرافقها، وهو المركيز "موريس دو فوديمون"، كان من بيت رفيع جداً، قالت وهي تسألني إن كنت لا أودّ المجيء:

- "سوف يسرّ "موريس" لذلك أشدّ السرور".

وحينما التقيت بثلاثتهم في الردهة بادر السيّد "دو فوديمون"، بعدما تراجع الشابّ الثري إلى البوراء، إلى القول:

- "ألن تتكرّم بتناول العشاء معنا؟"

لقد أفدت قليلاً جداً من "بالبيك" على وجه الإجمال، الأمر الذي ما كان إلا ليزيدني رغبة في العودة إليها. فقد كان يبدو لي أنّي مكثت فيها وقتاً قصيراً جداً. وما كان ذلك رأي أصدقائي الذين كانوا يكتبون إليّ ليسألوني إن كنت أعزم العيش فيها نهائياً. وإذ أرى أن اسم "بالبيك" هو الذي يضطرونّ إلى كتابته على المغلف، ولما كانت نافذتي، بدلاً من الإطلال على سهل أو على شارع،

تشرف على حقول البحر، وكنت أسمع في الليل ضجيجيه الذي كنت عهدت إليه قبل النوم برقادي كممثل قارب بين يديه، فقد كنت أتوهم أن هذا الاختلاط بالأمواج لابد على الصعيد الجسدي أن يدخل فيّ، دون أن أدري، فكرة روعتها على غرار تلك الدروس التي يتمّ تعلّمها في أثناء النوم.

كان المدير يعدني بغرف أفضل بالنسبة إلى العام الآتي ولكن قلبي تعلق الآن بغرفتي حيث كنت أدخل دون أن أحسّ من بعد برائحة زهر طيب العرب والتي توصّل فكري في النهاية، وكان عسيراً عليه فيما مضى أن يرتفع فيها، إلى اتخاذ أبعادها بدقة بلغت حدّاً اضطررت معه أن أخضعه لعلاج معاكس حينما انبغى لي أن أنام في باريس في غرفتي القديمة التي كان سقفها منخفضاً.

كان لابدّ بالفعل أن أغادر "باليك" إذ أصبح البرد والرطوبة أشدّ نفاذاً من أن أمكث فترة أطول في هذا الفندق الخلو من المواقف والمدافع. وقد نسبت على أية حال تلك الأسابيع الأخيرة في الحال تقريباً. أمّا ماعدت أراه على نحو يكاد لا يتبدّل حينما أفكر في "باليك" فتلك الفترات التي أرغمّني فيها جدّتي كلّ صباح في فترة الصبح، إذ كنت أزمع الخروج بعد الظهور مع "البيرتين" وصديقاتها، على المكوث في سريري في الظلام بناءً على أمر الطبيب. كان المدير يصدر أوامر كي لا يحدث ضجيجٌ في الطابق الذي أنا فيه وكان يسهر بنفسه على تطبيقها. وكنت أحتفظ بالستائر البنفسجية الكبيرة التي أبدت لي الكثير من العداء في أول مساء مغلفة أطول فترة ممكنة بسبب النور الشديد. ولما لم تكن "فرانسواز" تفلح، على الرغم من الدبايس التي كانت تربطها بها كل مساء كي لا ينفذ النور منها والتي تعرف وحدها كيف تنزعها، على الرغم من الأغطية، على الرغم من غطاء الطاولة الذي من قماش "الكارتون" الأحمر والأقمشة التي تأخذها من هنا وهناك وتحكم وضعها فوقها، لما لم تكن تفلح في ضمّ طرفيها بإحكام كان الظلام غير مطبق وكانت تسمح بأن ينتشر فوق السجادة كأنما تناثر أوراق شقائق قانية ما كنت أملك النفس عن المجيء لحظة لأحط قديمي العاريتين فيما بينهما. وعلى الجدار الذي يقابل النافذة والذي كان النور يمتدّ على قسم منه كان ثمة اسطوانة ذهبية لا تتركز على شيء تقف على نحو عمودي وتنقلّ بطيئة كالعمود المضنيء الذي يتقدّم العبرانيين في الصحراء. ثم كنت أعود فأستلقي. وإذا كنت مضطراً إلى أن أتدوَّق، دونما حراك، وبالخيال فحسب وفي الآن نفسه جميع متع الألعاب والاستحمام والسير التي يشير بها وقت الضحى، فقد كان فوادي يخفق بالفرح خففاً غنياً كممثل آلة في أوج حركتها ولكنها ثابتة ولا تستطيع إفراغ سرعتها إلا بالمراوحة مكانها وهي تدور على نفسها.

كنت أعلم أنّ صديقتي فوق السدّ ولكنّي لا أبصرهنّ فيما كنّ يخطرون أمام سلاسل البحر غير المتساوية، وفي أقصاه تنضح أحياناً عبر فرجة مدينة "ريفيل" الصغيرة وهي تجثم وسط قمعه الزرقاء كممثل ضيعة إيطالية وقد أبرزت الشمس تفاصيلها إبرازاً دقيقاً. لم أكن أبصر صديقتي ولكنّي (فيما يبلغ شرفتي نداء بائعي الصحف أو "الصحفيين" مثلما تدعوهم "فرانسواز"، ونداءات المستحمين والأطفال الذين يلعبون فتحدّد كممثل أصوات طيور البحر ضجيج الموج الذي يتكسر بهدوء) كنت أستشفّ حضورهن وأسمع ضحكتهن التي يلفّها كممثل ضحك حوريات الماء، تكسر الأمواج الناعم

الذي يتعالى ليبلغ مسمعي. وكانت "البيرتين" تقول لي في المساء: "لقد تطلّعنا لنرى إن كنت ستنزّل. ولكن نافذتك ظلت مغلقة حتى ساعة الحفلة الموسيقية." وكانت تتعالى بالفعل تحت نافذتي في الساعة العاشرة. وبين فواصل الآلات كان يترجع، إن كان المدّ في أقصاه، سلساً مستمراً، انسحاب ماء موجة يبدو وكأنه يلفّ ضربات الكمان في تلافيفه الصافية وينثر زبده المتطاير فوق أصداء موسيقى أعماقية متقطعة. وكان ينفذ صبري أن لم يحضروا بعد ليعطوني حوائجي كي أتمكّن من ارتداء ملاهسي. وتدفّق الثانية عشرة ظهراً وتصل "فرانسواز" أخيراً. لقد ظلّ الصبحو على مدى شهور متتالية، وفي "البليك" هذه التي شدّ ما تفت إليها لأنني ما كنت أتخيّلها إلا فريسة العاصفة ضائعة وسط الضباب، ظلّ رائعاً وثابتاً حتى أنني استطعت على الدوام، ساعة تقبل لتفتح النافذة، ودون خديعة ممكنة، أن أتوقع وجود رقعة الشمس نفسها مثنية في زاوية الجدار الخارجي ومن لون لا يتبدّل كان أقلّ هزاً لمشاعري بوصفه من علامات الصيف ممّا كان كثيراً كلون ميناء جامد مصطنع. وفيما كانت "فرانسواز" تنزع الدبابيس عن جباه الأبواب وتفتك قطع القماش وتفتح الستائر كان يوم الصيف الذي تكشف عنه يبدو فاقد الحياة متقادماً العهد قدم مومياء فخمة مؤلفة لعلّ خادمتنا اكتفت بأن تنزع عنها بعناية بالغة جميع لفائفها قبل أن تبرزها محنطة في ثوبها الذهبي.

* * *

المحتويات

٧ القسم الأول
١٥٣ القسم الثاني



عيون الأدب الأجنبي

صدر منها

♦ عبدة الصفر

الان نادو

ترجمة : البستاني والبطراوي

♦ مدام بوقاري

جوستاف فلوبر

ترجمة : محمد مندور

♦ الكلمات

جان بول سارتر

ترجمة : خليل صابات

♦ الأحمر والأسود

ستاندال

ترجمة : عبد الحميد الدواخلي

♦ المكان

أنّي إرنو

ترجمة : أمينة رشيد

وسيد البحراوي

♦ الآثار الشعرية الكاملة

إديت سودرجران

ترجمة : محمد عفيفي مطر

ومحمد عيد إبراهيم

♦ جاز

توني موريسون

ترجمة : محمد عيد إبراهيم



دار شرقيات للنشر والتوزيع

